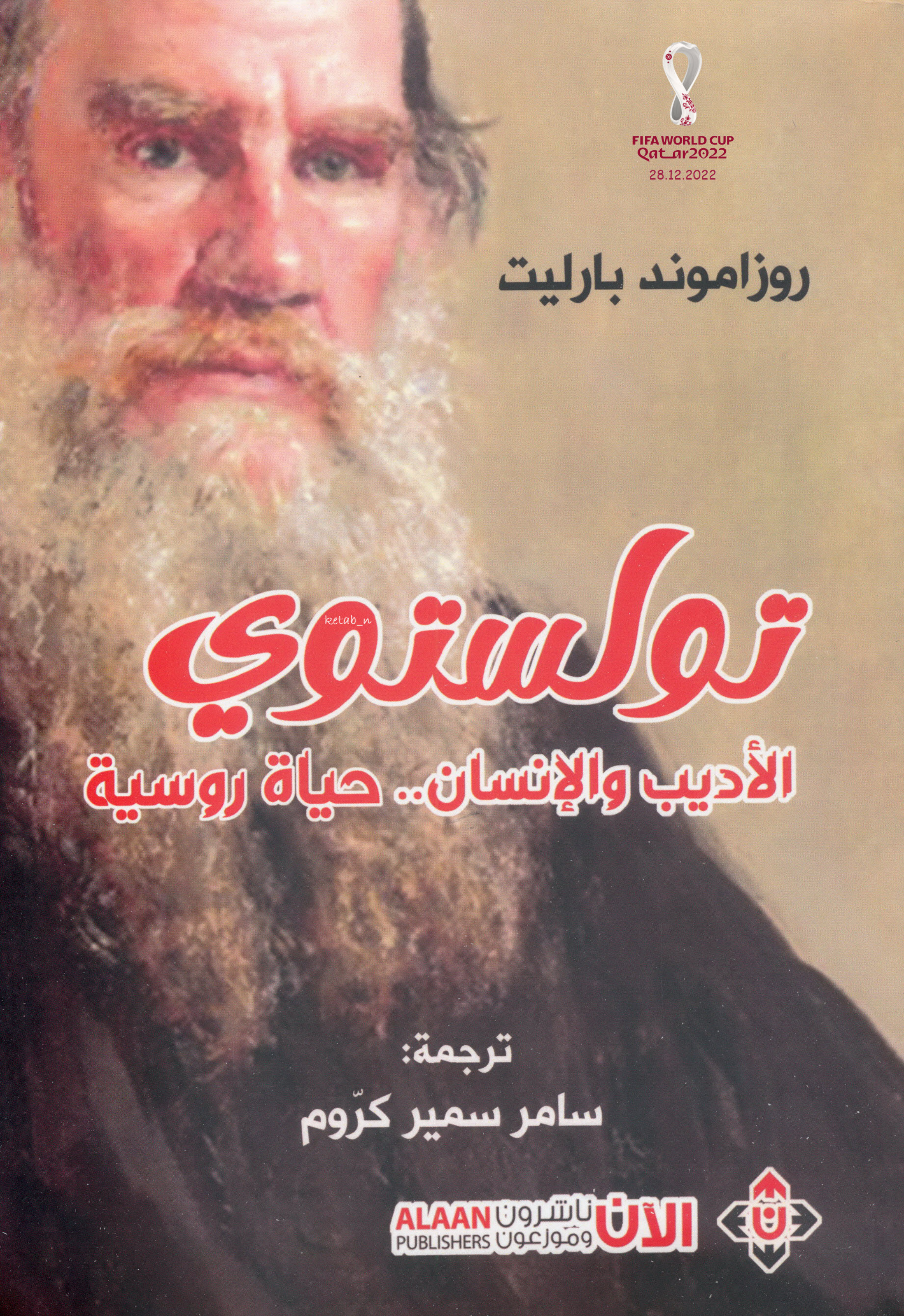


روزاموند بارليت

تولستوي

الأديب والإنسان.. حياة روسية

ترجمة:
سامر سمير كرّوم

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS

روزاموند بارليت

تولستوي.. الأديب والإنسان

حياة روسية

ترجمة: سامر سمير كرّوم

سيرة غيرية

تولستوي.. الأديب والإنسان

تولستوي.. الأديب والإنسان (حياة روسية)

روزاموند بارليت (كاتبة إنجليزية)

ترجمة: سامر سمير كرّوم

الطبعة العربية الأولى 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري (87)، ط 1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

المراجعة اللغوية: م. سامر المجالي

تصميم الغلاف: م. سجود العناسوة

ISBN: 978-9923-13-526-6

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022/7/3496)

306

بارليت، روزاموند

تولستوي الأديب والإنسان حياة روسية/ روزاموند بارليت ترجمة سامر سمير كروم عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(590) ص

ر. إ: 2022/7/3496

الواصفات: التراجم// السيرة الذاتية/ الأدباء// روسيا الاتحادية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

مقدمة الكاتبة

في يناير/ كانون الثاني من عام 1895، غادر ليف نيكولايفيتش تولستوي شتاء موسكو القارس ليمضي بضعة أيام مع مجموعة من أصدقائه القدامى في عزبتهم الريفية. وكان قد تشاجر مع زوجته مجددا عقب نشر قصة جديدة له فشعر بالاختناق في المدينة، وأراد أن يروّح عن نفسه ويصفي ذهنه بارتدائه معطفه الجلدي القديم وقبعة الفرو، ويتمشى مسافات طويلة ليستنشق الهواء البارد العليل بعيدا عن الناس وعمران المدينة. وكان مضيفوه قد تحمَّلوا عناء تسوية مسارات المشي في ضيعتهم ليتسنى له التدرج فيها، لكنه لم يشأ أن يتمشّى في المسارات النظيفة المستوية، بل رغب حتى في الستينيات من عمره، في أن يشق طريقه في البرية والغابات. وهكذا ما أن مرّ بمحاذاة سياج الحديقة حتى انطلق يغوص بقدميه في الثلوج متوجها بلا بوصلة إلى حيث يسعفه المسير. حاول بعض الشباب من أفراد الأسرة المضيفة أن يحذوا حذوه في المساء، لكنهم ما لبثوا أن تراجعوا بعدما اكتشفوا المسافة المتباعدة التي تفصل بين أثر موطئ قدمه اليسرى وأثر موطئ اليمنى في الثلج الناعم.

هذا الشعور بالعجز عن اللحاق بركب تولستوي كان الشعور السائد لدى معاصريه من الكتاب أيضا؛ ذلك لأنه خلَّفَ بالفعل بصمات عملاقة في جميع ميادين الحياة. فبعد أن أثقلت كاهله ديون مهولة بسبب إدمانه على القمار في شبابه في الفترة التي فشل فيها في الالتزام بمثل سامية واعدة، تحوَّل بعد أن أصبح كاتبا إلى تأليف روايات طويلة مسهبة للغاية، بالإضافة إلى إنجابه عددا كبيرا من الأطفال. وعندما كان يذهب إلى الصيد لاحقا بصحبة أبنائه، كان ينطلق على الجواد بسرعة فائقة يعجز الأبناء عن مجاراته فيها. كما لم يجارِهِ أحد في الشهرة أو الزعامة الروحية، فقد أصبح تولستوي في وقت متقدم من حياته الزعيم الروحي للأمة الروسية، وأحد أشهر الرجال في العالم وأكثرهم نفوذا.

كان الميل إلى كل شيء مبهر وكبير وعظيم سمة واضحة للشخصية الروسية منذ فترة إيفان الرهيب؛ الذي أسس إمبراطورية مترامية الأطراف متعددة القوميات بغزوه ثلاثة من خانات المغول في القرن السادس عشر. وقد عزَّز بطرس الأكبر تلك السمة من خلال توظيفه مساحات شاسعة كمعالم رئيسية لعاصمته الجديدة سانت بطرسبورغ؛ التي بناها بسرعة قياسية على الأهوار الفنلندية. أصبحت روسيا أيضا فاحشة الثراء عند وفاة الإمبراطورة كاترينا الثانية العظيمة في نهاية القرن الثامن عشر، وعكف أرستقراطيوها على تشييد القصور الفارهة وجمع المقتنيات الفنية البديعة التي فاق البذخ فيها أي بذخ آخر في أي بلد غربي آنذاك. لكن الفقر في روسيا كان نطاقه واسعا أيضا، يغذيه نظام طبقي لا إنساني تحكم فيه أقليةٌ من النبلاء المتغربين قطاعات واسعة من الخدم وأقنان الأرض المكبَّلين بعبودية مرهقة ويعيشون في ظروف حياتية بائسة مهينة. وكان تولستوي نتاجًا لهذه الثقافة وربما التعبير الصارخ عنها.

لاحظ كثيرون ممن عرفوا تولستوي حساسيته المفرطة. فقد كان كورقة عباد الشمس التي تمتصُّ الألوان المختلفة تدريجيا بحسب التجارب الوجدانية والمادية. وكانت له قدرة عجيبة على ملاحظة وتفسير التفاصيل المتغيرة دوما للسلوك البشري في أعماله الخلاقة؛ وهذا ما جعل نثره مشوقا وفاتنا للغاية. فالإحساس بشخصياته وفهم كنهها يتعدَّيان المحلية إلى العالمية. كان تولستوي أيضا مفرط الإحساس بطريقة أخرى. فقد جسَّد في فترات مختلفة من حياته نماذج روسية لا تحصى، ابتداء من «النبيل التائب» وصولا إلى «الدرويش الصوفي المجذوب».

تنفردُ روسيا بإنجاب كاتب يجمع بين طَرَفَي نقيض في شخصيَّته؛ فقد كان تولستوي يُشبَّه بالقيصر والفلّاح في الوقت نفسه. ومنذ اليوم الّذي وُلد فيه في منزل أجداده الأرستقراطيّين في ياسنايا بوليانا[1]، ثمَّ خلال ترعرعه في تلك البيئة الشاعريّة، إلى اليوم الّذي غادر فيه المنزل آخر مرَّة وهُو في الثَّانية والثَّمانين من عمره، عاش تولستوي حياة روسيَّة قلبًا وقالبًا. وبدأ اسمهُ يرتبط بروسيا الأمّ مباشرة بعد أن نَشَرَ روايته الملحميَّة الوطنيّة «الحرب والسلام» في الثلاثينيّات من

(1) Ясная поляна (yasnaya polyana).

عمره. بعدها أصبح يُقارن بالـ«بوغاتير»[2]؛ المحارب القروسطيّ شبه الأسطوريّ الأشهر إليا المورومي؛ الّذي مكث في منزله مستلقياً على موقد من الطُّوب حتى بلغ الثَّالثة والثَّلاثين، ثمَّ انطلق ليخوض المغامرات ويسجِّل المآثر العظيمة في الدفاع عن المملكة. كان إليا المورومي رمز روسيا التقليديّ للقوَّة البدنيَّة والروحيَّة، وقد اعتُبر تولستوي أيضاً مرادفاً لروسيا في نظرِ كثيرٍ من معجبيه الأجانب. كتب السير البريطاني الليبرالي هنري نورمان بعيد زيارته لتولستوي عام 1901: «إنه جزء لا يتجزأ من روسيا. هو مصداقٌ للشخصية الروسية وتجسيد للتطور فيها. إنه يمثل الشخصية الروسية كما يمثلها الكرملين». أما الكاتب النمساوي ستيفان زفايغ فقد قال فيه: «لا يمثل تولستوي نفسه؛ لأنه يمثل الشعب الروسي بأسره. والسبب في ذلك أن روسيا برمَّتها تعيش فيه وتتنفَّس من خلاله».

عاش تولستوي حياة روسية بامتياز، بل لنقل إنه عاش حيوات متعددة أكثر من أي روسي آخر، متمثلا من جهة «أصالة الجموح واللاعقلانية» أو «التحرر الطيني من أيّ قيود»، ومن جهة أخرى «أصالة الزهد المسيحي» أو «الانضباط الملائكي». تلكما الأصالتان اللتان في رأي الفيلسوف نيكولاي برديائف تمثلان طرفي نقيض يراوح بينهما الشعب الروسي عموما. فقد عاش تولستوي أولا حياة الطبقة ذات الامتيازات، وتلقى تعليما خاصا على يد معلمين أجانب وكان محاطا بالخدم والحشم. وأصبح من الإقطاعيين الأثرياء وهو في التاسعة عشرة من عمره، وبدأ على الفور إظهار النزعات الروسية «المتطرفة» من خلال تبديد أمواله على القمار والراقصات الغجريات. وقد باع قرى بكاملها لسداد ديونه لاحقا بالإضافة إلى بيع منزله. وأبقى كدأب الإقطاعيين الروس الفاسقين على استغلال النساء الفلّاحات والخادمات العاملات عنده. بعدها انتحل متَحَلا كلاسيكيا آخر للنبلاء الروس، فأصبح ضابطا في الجيش. وكان من دأب معظم رفقاء السلاح أيضا التقاعد في عزبة ريفية بعد الخدمة. إلا أن تولستوي خالف القاعدة هنا فأصبح كاتبا؛ الكاتب الشاب الأوفر حظا مقارنة مع أقرانه من ذلك الرعيل. وكان أن

(2) Богатырь (bogatyr).

أظهر في تلك الفترة إشارات كامنة إلى مذهب الفوضوية/ اللاسلطوية؛ إذ لم يرغب حينها في الانضمام إلى أي رابطة أدبية، وسرعان ما انفضَّ من حوله جلّ زملائه من الكُتّاب بسبب آرائه المستهجنة وطبيعته الهجومية. فاستشاط غضبا من تورغينيف على سبيل المثال لأن الأخير في رأيه لم يكن يحمل مهنة الكتابة على محمل الجد، وكان غارقا حتى أذنيه في أحضان أوروبا الغربية، رغم أن أعمال تورغينيف كانت مرتبطة بعمق بروسيا الأم، شأنها شأن أعمال تولستوي، لكن جريمته من وجهة نظر تولستوي أنه كان يعيش في باريس. ويُذكَر أن تولستوي قام برحلتين اثنتين فقط إلى الخارج، وكان متشبثا بالعيش في روسيا طيلة حياته.

وبعد أن نضج بتأثير من كتاب وفلاسفة صاغوا أفكاره، أصبح حتما واحدا من الإنتلجنسيا الروسية؛ أي طبقة المثقفين الروس الذين نهلوا من المصادر التعليمية نفسها تقريبا، وكانوا متحدين في موقفهم الناقد لحكومتهم. شعر تولستوي لاحقا بذنب عظيم تجاه طبقة الفلاحين الروس، وهو ما حدا به ليصبح نبيلا تائبا يخجل من علاقته بمؤسسة الرق اللاأخلاقية. وبدأ، كالشعوبيين من قبله، اعتبار الفلاحين مستقبل روسيا وأفضل طبقة اجتماعية فيها. وبينما حُظر الرق وأُلغيت مؤسساته، تفانى تولستوي في تعليم أطفال الفلاحين في القرى المجاورة كيفية القراءة والكتابة. لكنه كان ذا شخصية نزقة متقلبة المزاج؛ لذا تخلى بعد سنة عن شبكته المتنامية من المدارس غير التقليدية ليتزوج ويبني أسرة. ووفرت له زوجته المتفانية صوفيا (صونيا) بيرز بيئة عائلية مستقرة مريحة مكنته من أن يصبح هوميروس روسيا، فكتب «الحرب والسلام» في أسعد فترة من حياته.

إلا أن ضميره الحيّ لم يسمح له بالاستمرار في طريق الروائيين العظماء فعاد إلى سلك التعليم في النصف الأول من العقد الثامن من ذلك القرن. وفي هذه المرة وضع نظاما تعليميا من صنعه، سمّاه ألف باء جيم، لتدريس القراءة والكتابة للأطفال الروس من جميع الخلفيات. درَّس اللغة اليونانية باجتهاد شخصي، ثم قام بترجمة مبسطة لأقاصيص إيسوب، أضاف إليها قصصا من خياله ومجموعة من القصص الروسية عن المحاربين الأسطوريين وشذرات من

قراءات دينية مقدسة. أعاد فتح مدرسة ياسنايا بوليانا، وعيَّن بعض أفراد الأسرة الكبار مدرِّسين. ومارس في تلك الفترة دور الأب أكثر من أي وقت آخر، فاصطحب أولاده وزوجه إلى مزرعته الجديدة في سهوب سمارا ليمضوا إجازة صيفية غير تقليدية في صفوف شعب البشكير وخيولهم. وقد وجد تولستوي متعة بالغة في أسلوب حياة البشكير البدائي غير المتكلّف، بخلاف زوجته.

في النصف الثاني من العقد الثامن من ذلك القرن بدأت أمور أخرى تتكشف في حياته. ففي سنة **1873**؛ السنة التي بدأ فيها كتابة آنا كارينينا، تحدَّث تولستوي باسم الفلاحين المعدمين من خلال حملة أطلقها في أرجاء البلاد لطلب المساعدة وجمع التبرعات لمواجهة المجاعة الوشيكة. أما آنا كارينينا فهي رواية مسرَحُها روسيا المعاصرة، تعبّر عن بحث تولستوي عن مغزى للحياة في وجه الاكتئاب الذي عانى منه وأفكار الانتحار التي كانت تراوده. فقد وجد في البداية الإجابة عن تساؤلاته في عقيدة الدّين، وغدا واحدا من ملايين الحجاج الروس الذين كانوا يجوبون البلاد طولا وعرضا لزيارة الأديرة المقدسة. وشأنه شأن زملائه المثقفين، اجتُذب تولستوي نحو شيوخ وحكماء دير أوبتينا بوستن[3]، وهم رهبان نأوا بأنفسهم بعيدا عن الهرمية الإكليروسية الرسمية، وأعادوا إحياء الدين بتقاليد الزهد والتقشف والصوفية متبِّعين أسلافهم الأوائل من الآباء المسيحيين؛ الذين كانوا مبجلين ويحظون بعظيم الاحترام بفضل حكمتهم الروحية. بيد أن تولستوي وجد في صفوف الفلاحين حكمة أعظم حباهم الله بها. وعليه، ارتدى زي الفلاحين ووضع حذاءً من اللحاء في قدميه في المرة التالية التي زار فيها أوبتينا بوستن، إذ دخل المكان كمسكين جوّال (ستارينيك)[4]. وينتمي المساكين الجوالون إلى طائفة يُمضي أفرادها أعمارهم في التنقل مشيا على الأقدام من دير إلى آخر، ويعيشون على صدقات الآخرين ويتَّبعون روح البداوة إذا ما صح التعبير. وهي روح تضرب نخاع روسيا، وقد كان تولستوي

---

(3) Оптина пустынь (Optina pustyn).

(4) Странник (Strannik).

يتوق مع كر الأيام وتوالي الليالي إلى مزاولة حياة بدائية بوهيمية من خلال اللحاق بركبهم. وقد بدأ منذ وقت بعيد ارتداء زي الفلاحين، وأراد عما قريب أن يتخلّى عن أمواله وملكياته الخاصة أيضا.

تحول تولستوي من الورع المتطرف إلى العدمية المتطرفة. وفي نهاية العقد الثامن من القرن رأى النور وشرح رحلته الروحية في عمله المسمى «اعتراف». كما أنه قام باستقصاء نقدي للثيولوجيا الأرثوذكسية مُنتِجًا ترجمة «جديدة محسنة» للأناجيل. وقد أصبح في العقد التاسع من القرن رائدا للتعليم المسيحي وفقا لما استخلصه من خلال استعراضه الجذري للمصادر الأصلية. وفي الوقت نفسه، دفعه إيمانه الجديد إلى عدم السكوت عن أيّ انتهاكات أخلاقية اقترفتها مؤسسات الدولة من الملكية نزولا إلى أصغر دائرة. أما حياته الأسرية في هذه الفترة فقد تعقدت أشد التعقيد بسبب تخليه عن حقوق الطبع لأيِّ عمل جديد يكتبه، وتخلّيه كذلك عن ممتلكاته كافة لأسرته. واكتشف أن أناسًا يشبهونه في الاهتمام والمسلك والمواقف كانوا ينتمون إلى جماعات من الطوائف الدينية غير الرسمية التي كانت منتشرة في روسيا، وأتباعها غالبا من الفقراء. وشيئًا فشيئًا أصبح تولستوي نفسه زعيما لطائفة جديدة من حيث لا يدري، هي «التولستويون»، رغم أن أتباعه كانوا أشباهه من النبلاء من ذوي الضمائر الحية. وقد تسابق هؤلاء التولستويون أحيانا فيما بينهم ليزاولوا حياة صافية ويلتزموا بأرفع الأخلاق؛ كأن يتخلوا عن أموالهم وممتلكاتهم ويعيشوا من كدهم وعرق جبينهم، ويتعاملوا مع الجميع كـ«إخوة» لهم، إلى درجة أن أحد الغلاة منهم تخلى ذات صيف عن قفطانه وقبعته وحذائه المصنوع من اللحاء، معبِّرا عن ذلك بسعادة قصوى مردها أنه لم يعد عبدا لممتلكاته الشخصية.

أصبح تولستوي بحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر الرجل الأشهر في روسيا على الإطلاق، فقد طارت شهرته وملأت الآفاق بسبب عدد من الكراريس والمنشورات الآسرة المؤثرة التي كتبها بشكل مثير، وتناول فيها المسيحية والكنيسة الأرثوذكسية والحكومة الروسية. وبما أنها كانت محظورة التداول، فقد لقيت رواجا مميزا، فقرأها كثيرون بنهمٍ بسبب

منعها، وقد نُشرت ووُزعت على شكل مطبوعات محظورة. أصبح تولستوي أيضا المرجعية الأخلاقية الأعظم في روسيا، بعد أن شكل رأس الحربة في جهود الإغاثة خلال المجاعة الرهيبة التي عصفت بالبلاد عام **1892**. وقد نتج عن ذلك صفوف طويلة من البشر وقفت على باب منزله في موسكو، وأراد بعضهم مصافحته فقط. أحد أولئك كان شابا يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما واسمه سيرغيه دياغيليوف[5]، كان قد قَدِم مع قريب له في يوم من الأيام إلى منزل تولستوي والجرأة تنضح من مساماته (كما هو عهد الشباب المتقد)، وقد لاحظ على الفور عدم لياقة رداء تولستوي الفلاحي و«طريقته اللطيفة في السلوك والكلام». كان تولستوي حينها يأخذ قسطا من الراحة في أعقاب عمله الإغاثي في مقاطعة ريازان[6]، وقد تحدث إلى الشابين الذّواقين الآتيين من سانت بطرسبرغ مستفيضا في موضوع التكايا (توزيع الطعام على المحتاجين). بعدها أَطْلَعَ دياغيليوف زوجة أبيه على انطباعه قائلا:

«عندما خرجنا من منزله واتجهنا نحو الشارع عبَّرت كلماتنا الأولى عن تساؤل وإعجاب. قال بعضنا لبعض: «لكنه قديس، إنه فعلا كذلك!». لقد طغت علينا المشاعر وكدنا نذرف الدموع. كان ثمة شيء صادق مؤثر مُقدَّس لا أستطيع التعبير عنه في شخصية ذلك الرجل العظيم. ومن المسلي أننا كنا ما نزال نشتمُّ رائحة لحيته بعد عناقنا له لفترة طويلة بعد مغادرتنا المكان».

استقبل تولستوي آلاف الزوار في العقد الأخير من حياته، وكان من عادته ألّا يصدَّ زائرا. وهكذا أصبح يعرف بـ«شيخ ياسنايا بوليانا».

تلقى تولستوي في حياته قرابة **50** ألف رسالة، **9** آلاف منها أُرسلت إليه من خارج روسيا. وبمساعدة من الرجل القوي صاحب القرار ومحرِّك الأمور من وراء الستار في حركة

(5) Сергей Дягилев (Sergey Diaghilev).

(6) Рязань (Ryazan).

التولستويّين، فلاديمير تشيرتكوف[7]، الذي كان يعيّن له السكرتيرات. لم يدَّخر تولستوي وسعا في الإجابة عن أكبر عدد منها (ثمة ثمانية آلاف وخمسمئة رسالة مطبوعة في أعماله الكاملة، والعدد الكلي للرسائل يفوق ذلك بكثير). كان تشيرتكوف سليل أسرة نبيلة مرموقة، وأصبح صديق تولستوي المقرب والناشر الأول لأعماله الأخيرة. شعرت أسرة تولستوي بأنها مهملة بوجود تشيرتكوف. فقد اضطلعت زوجة تولستوي بعبء الواجبات المنزلية تقريبا بمفردها، وكانت أمًّا لثمانية أطفال بعضهم كان جامحا لا يمكن ضبطه. كانت أيضا مسؤولة عن عمل شاق آخر، هو نشر أعماله القديمة التي ضمنت من خلال ريعها بعض المدخول، رغم أن تلك الأرباح سببت له الألم. ولم يكن من السهولة بمكان أن يكون المرء أحد أعضاء أسرة تولستوي. كتبت صونيا لزوجها في إحدى المناسبات: «قالت تانيا لأحدهم في موسكو إنها مرهقة تماما لكونها ابنة أب مشهور. وأنا بدوري أقول لك إنني تعبة من كوني زوجة رجل مشهور».

ازدادت شهرة تولستوي عندما نشر آخر رواياته «البعث»، لكي يساعد أعضاء طائفة الدّوخوبوريين (الروح المقدسة) على الهجرة إلى كندا، حيث يمكنهم ممارسة شعائرهم الدينية بحرية من دون اضطهاد. وبعد أن طفح الكيل بالكنيسة وبلغ السيل الزبى بسبب هجاء تولستوي اللاذع وتهكمه على إحدى الصلوات الأرثوذكسية في أحد فصول الرواية، قررت إلقاء الحرم عليه وطرده منها. وهكذا انضم تولستوي إلى صفوف المرتدين الروس البارزين؛ كالثوار من أمثال ستينكا رازين[8]، وإميليان بوغاتشوف[9]. وبسبب شهرته استطاع تولستوي أن يقوم بأمور قلَّةٌ من الناس كانت تقوى على القيام بها، أعني بذلك أن يصدح بصوته ولا يخشى لومة لائم. حتى إن الحكومة كانت عاجزة عن إسكاته لأنها كانت على يقين من أن العالم سيثور ويغضب

---

(7) (Vladimer Chertkov) Владимир Чертков.

(8) Степан Разин (Stepan Razin).

(9) Емельян Пугачев (Emelyan Pugachev).

إذا ما اعتُقل أو نُفي. وقد استغل ذلك وتصرف مثل «مجذوب» لكي يتسنى له الحديث إلى القيصر عن فشل الأخير زعيماً للأمة الروسية. وكان ثمة شعور في روسيا في العقد الأخير من عمر تولستوي مفاده أن الأخير كان القيصر «الفعلي» في البلاد.

عاش تولستوي حيوات عدة على مدار اثنتين وثمانين سنة، إلا أن هناك بعض الاستثناءات الملحوظة بعيدا عن قائمة النماذج الروسية الصرفة. فقد كان يمقت التجار على سبيل المثال، الذين كانوا يشكّلون طبقة في حدّ ذاتها في المجتمع الروسي، وكان أيضا يزدري من يُسمَّون الـ«تشينوفنيكي»[10]؛ أي بيروقراطيو الإمبراطورية، بالإضافة إلى الـ«رازنوتشينيتس»[11]؛ أي «الطبقة الهجينة» المؤلفة من أفراد في الإنتلجنسيا ينحدرون من خلفيات متواضعة، كانوا في الأعم الأغلب «غربيين» متغربنين راديكاليين تواقين للقتال من أجل إحداث إصلاحات في المجتمع.

لم يكن تولستوي أيضا «أوبلوموف»؛ الدب الروسي المتواضع، والشخصية الخيالية الأشهر في روايات جونتشاروف، الذي يستغرق وقت نهوضه من الفراش فصولا متعددة في الرواية. فرغم جميع جهوده، فشل تولستوي في اكتساب فضيلة التواضع، الفضيلة الروسية الأبرز، التي تجلت في شخصية أوبلوموف بلا جهد منه. لكن ثمة حياة أخرى يمكن إضافتها إلى حيوات تولستوي وهي ليست روسية؛ فتولستوي كان يُنظَر إليه كشيشاني مبجل فخري. يشهد على ذلك متحف تولستوي الصغير في ستاروغلادكوفسكايا[12]، القاعدة العسكرية الروسية التي خدم فيها في العقد السادس من ذلك القرن، والمتحف الوحيد على الأراضي الشيشانية الذي لم تُغلَق أبوابه إبان الحرب الأخيرة مع روسيا، بينما انتُهكت حرمة المتحف الوطني في غروزني. أمّا تمثال تولستوي أمام المتحف فلم يُمسَّ بسوء.

(10) Чиновники (Chinovnik).

(11) Разночинец (Raznochinets).

(12) Староглaдковская (Starogladkovskaya).

أُعجب الشيشانيون بتولستوي لأنه عقد صداقات معهم خلال فترة وجوده في القوقاز (كان ذلك أمرا غير اعتيادي بالمرة من جهة الضباط الروس الذين كانوا يميلون إلى التعامل مع السكان هناك بازدراء)، ولأنه كان يصورهم في رواياته بشكل إيجابي. واستنادا إلى أحد أحفاد تولستوي؛ فلاديمير إيليتش، الذي أصبح مديرا لمتحف ياسنايا بوليانا عام **1994**: «يعتقد الشيشان بأن تولستوي عكس الحقيقة لدى تصويره الأحداث التي جرت في بلادهم وتحليله لشخصية سكان الجبال، لا سيما خصوصيتهم الدينية والقومية وكفاحهم من أجل الاستقلال والحرية». أما سلافدي زاغيبوف، الذي خلف أباه في إدارة متحف تولستوي في ستاروغلادكوفسكايا عام **2008**، فقد نوه أيضا بمواطن الشبه في تعاليم تولستوي ومذهب السلمية، وتعاليم شيخ الطريقة الصوفية في القرن التاسع عشر الحاج كونتا وهو راعٍ شيشاني. ويذكر أن أبواب متحف ستاروغلادكوفسكايا افتُتحت مجددا في ديسمبر/ كانون الأول من عام **2009**، بعد ترميمه وتمويله من قِبل المؤسسة الخيرية الخاصة لرئيس الشيشان رمضان قاديروف.

يجمع الجميع على أن تولستوي أحد أعظم كتاب العالم، لكنه يبقى شخصية متناقضة تثير الجدل. فقد شاب زواجه، على سبيل المثال، كثير من المشاكل وبدأ في التدهور قبل لقائه بفلاديمير تشيرتكوف. وأصبح زواجه المتأزم أكثر تأزما، ووصل إلى حد الانهيار التام في السنة الأخيرة من عمره، بسبب خضوعه التام لنفوذ صديقه الجديد المتفاني وتجاهله لزوجته، مما ولَّد لديها غيرة لا تُطاق وجنون ريبة أثقل كاهله وكاهلها. وقد عنى نفوذ تشيرتكوف وإدارته لممتلكات تولستوي أن رأيه في مجريات الأمور كان الرأي الطاغي على كل الآراء المعارضة الأخرى في البدايات، لا سيما رأي زوجة تولستوي المكلومة بسبب انشغال تولستوي بصديقه عنها. إلا أن نشرَ مجموعة من المقالات الأكاديمية عام **2006** تُخلّد ذكرى زوجة تولستوي، صوفيا تولستايا، وكذلك نشر أول سيرة ذاتية لها باللغة الروسية عام **2010**، أحدثا تغيرا هائلا في المواقف النقدية التي كانت راسخة، لا سيما بعيد انهيار الاتحاد السوفييتي.

وهكذا يمكن أن نلتمس عذرا لصونيا؛ إذ عانت من الهستيريا وجنون الارتياب في آخر سنة من حياة زوجها؛ ذلك أنه لم يكن يعاملها بالحسنى، بل عاملها بقسوة وفقا لجميع الروايات. حتى إن موقفه من النساء عموما لم يكن ليثير الإعجاب. فصونيا لم يرق لها ولبناتها أن يصبح تولستوي نباتيا، ولم يرق لها أيضا أن يتخلى عن أمواله وممتلكاته الخاصة، بل أرادت أن تحافظ على أسلوب الحياة المريح الذي اعتادت عليه. كانت صونيا امرأة موهوبة تؤثر إنجاب الأطفال وتربيتهم ومساعدة زوجها في الطباعة على كل هوى أو مصلحة خاصة تختلج في صدرها. فقد ساندت لأعوام طويلة رجلا تضخَّمت عنده الأنا إلى درجة أعمته عن تلبية حاجات أسرته. ولم يكن من المنصف له أن يتوقع من زوجته الانقياد بخنوع وراء مسعاه لمزاولة حياة زاهدة روحانية نورانية؛ لمجرد أنه قرر أن الوقت قد حان للتغيير. إلا أنّ من المنصف القول أيضا إن لدى صونيا أخطاءها، لا سيما تعنتها وعنادها اللذين أعمياها أيضا عن حقيقة أنها كانت مهووسة بالسيطرة على تولستوي وخطب ودّه، تماما كما كانت حال صديقه تشيرتكوف.

كان لدى تولستوي نصيبه من المعارضين أيضا، ومن بينهم ألكسندر بوت؛ أحد أنبه الكتاب وأكثرهم لباقة، وأحد المعجبين بتولستوي الفنان، لكنه أحد الذين كتبوا نقدا مؤثرا لاذعا بحقه مفكراً:

«أراد أن يكون أكثر من مجرد روائي.. أراد أن يكون عبقريا. أراد أن يكون أكثر من مجرد عرّاف أو منجّم، ولو اكتفى بذلك لكان خيرا له. لكنه أراد أن يكون إلها. أراد أن يصلح أخطاء الله بأن سمح للعالم أن يكون غير مثالي وريانا بالخطايا. فقد انطلق الكونت تولستوي ... ليحتلّ وظيفة الرب. لكن الرب لم يتنازل بسهولة عن وظيفته، بل صمَّم بعناد على الاضطلاع بها. وبالتالي أعلن تولستوي الحرب عليه وقاتل بكل الوسائل المتاحة لديه. ولكن، يا حسرتاه! خسر تولستوي تلك الحرب رغم محاولاته فتح خطوط هجومية متعددة، مُقنَّعة جميعها بقناع أطروحات شبه مسيحية مستفيضة. ولكي ينتقم لخسارته أنكر الآب في نهاية المطاف وتجاهل

الابن، وتخلّى عن الروح القدس. ولم يسمح العملاق تولستوي لأحد أن يهزمه بسهولة ومن دون عواقب».

اعترف بوت بوقع تولستوي الهائل على كثير من حركات العصر الحديث، بفضل محاججاته المقنعة، كمذهب النباتية ومعاداة الرأسمالية وحقوق الحيوان، ومذهب المقاومة السلمية الذي تأثر به غاندي وويتنشتاين ومارتن لوثر كينغ. لكن تحليل شخصية تولستوي من منظور الفن مقابل الفكر يغفل أهمية عمله الإنساني.

ربما يعتبر تأثير تولستوي على الحياة الروسية وهو على قيد الحياة أعظم مأثرة له، بخلاف طبعا عظمة أعماله الروائية. وربما تتلخص إحدى أهم مآثره في محاولته تحسين تعلم القراءة لدى طلابه، وفي المنهاج التعليمي الذي ابتدعه، في بلد نسبة ضئيلة من الشعب فيه كانت تحسن القراءة والكتابة في نهاية القرن التاسع عشر. بالإضافة إلى إنجازه الآخر في التخفيف من وطأة كارثة المجاعة التي عصفت بالبلاد، ومسعاه الدائم في رفع عقيرته، وتحليه بالشجاعة ليكشف النقاب عن بعض الحقائق المحلية ويعرضها على النظام الحاكم الفاسد المتراخي الذي لم يكن يلقي بالا لمعاناة شعبه وفقره. ورغم أن كثيرا من زوار تولستوي كانوا يشككون في الرجل، لكن ما أن يقابلوه، كما فعل الشاب دياغيليوف، حتى يتيقنوا من أنه صادق مخلص. ومع أن بعض أبنائه لم يلتزموا بفلسفة أبيهم وعقيدته، فقد حذت كل بناته حذوه بتفان. وأخيرا، ثمة شيء جذاب بشأن ولعه ونشاطه الدؤوبين في الحياة بصرف النظر عن سداد أفكاره أو خطئها.

تتلخص العقبة الكأداء التي تواجه كاتب سيرة تولستوي في تلخيص ما لا يُلخَّص، أعني بذلك محاولة تبسيط وغربلة وفهم شخصيته، التي كانت أكبر من الحياة نفسها بتشعباتها وتعقيداتها. ومن الجدير بالذكر أن تولستوي كان قد اضطلع بمهمة كتابة سيرته المعقدة عندما بدأ كتابة مذكراته وهو لم يزل يافعا، ثم في كهولته، وخصوصا في شيخوخته. فهو ما فتئ يحاول فهم شخصيته من خلال كتاباته للجمهور عبر شخصيات رواياته، أو من خلال المجلات شبه الخصوصية في مذكراته. بالفعل، وكما قالت العالمة أيرينا بابيرنو؛ فلعله أراد ربما أن يستنسخ

قصة نجاحه الاستثنائي في عالم الأدب ليسقطها على نفسه «فيتحول هو إلى كتاب يُقرأ»، من خلال التركيز على العمليات السيكولوجية الباطنة والظاهرة التي مرّ بها. وإذا كان وصف تحولات ضميره وتقلباته والإحاطة بها من كل جانب مشروعا آيلا إلى الفشل، شأنه شأن كثير من الأحلام الطوباوية الروسية، فإن افتقار ذلك المشروع إلى المثالية والدقة يجعلنا مطمئنين لإنسانية تولستوي.

لقد أثبتت مهمة الإحاطة برحلة تولستوي الفكرية والفنية أنها مهمة مستحيلة حتى للعلماء الروس الجهابذة المهتمّين بفنه. ومصداق ذلك أن سيرة حياته التي جمعها سكرتيره السابق نيكولاي غوسيف في مجلدات ضخمة متعددة في العقد السادس من القرن العشرين، وعنوَنها بتواضع بـ«مواد من سيرة تولستوي الذاتية»، لم يستطع أن يتمّها قبل وفاته عام **1967** عن عمر يناهز الخامسة والثمانين. وقد اضطلعَتْ بمهمة إتمام السيرة طالبته ليديا غروموفا أوبولسكايا، وأضافت مجلدين إلى مجلدات غوسيف الأربعة، لكن المنية وافتها عام **2003** قبل إتمام المشروع، تاركة ثماني عشرة سنة من حياة تولستوي دون أن تشملها في عملها (يُذكَر أن هذه العالمة الجليلة أطلقت قبل موتها النسخة النهائية للأعمال الكاملة لتولستوي وحصرتها في مئة مجلد). ويُفضي شحُّ المصادر التي تعرض لحياة تولستوي المبكرة، وضرورة الاعتماد على مذكراته المتأخرة التي قد تكون في بعض المواضع فوضوية وغير مكتملة، بالإضافة إلى وفرة المصادر التي تتناول أواخر حياته، يفضي ذلك كله إلى مشاكل من نوع آخر يواجهها كاتب سيرته. وبفضل شهرته المدوّية، كُتبت كثير من فصول «سيرة القديس» ليف تولستوي وهو ما يزال على قيد الحياة. فقد كُتبت السيرة الأولى (بالألمانية) وهو لم يزل في بداية الستينيات من عمره. إضافة إلى أن العبارات المعلبة المتعددة التي ارتبطت باسمه وحياته مثل: «كاتب الأرض الروسية العظيم» و«شيخ ياسنايا بوليانا»، يمكن أن تُشكّل عائقا لفهم شخصيته على نحو دقيق، إضافة إلى أن شخصيته تنضح بالتعقيدات أصلا، فحياته غنية ومدهشة، لكنها أيضا محفوفة بالأساطير من كل الجوانب، وهذا ما أسهم فيه ليف نيكولايفيتش نفسه.

كان تولستوي يصرّ في السنوات الأولى من الزواج على حضور زوجته الشابة أثناء كتابته للحرب والسلام. وبالفعل كانت صونيا تجلس بحنو جلسة القرفصاء عند قدميه على بساط مصنوع من جلد الدب (كان قد غنمه في إحدى رحلات الصيد) بالقرب من مكتبه. لكنه عزف عن ذلك بعد فترة وأصبح يكتب منعزلا. لكن الزوجين كانا يقرآن مذكرات بعضهما بعضا طيلة فترة الزواج، وهو ما يعني أن اعترافاتهما لم تكن في الواقع شأنا خاصا. لذا، ربما نستطيع أن نتلمس صراحة صونيا من خلال رسائلها إلى أختها تانيا، إذ خطَّت فيها ما يعتمل في صدرها من العواطف، وعرضت الحقائق كاملة، بينما لم تكن تفعل ذلك دوما في مذكراتها لأنها كانت تكتب بدرجة عالية من الرقابة الذاتية. أما بالنسبة لتولستوي الذي كان دائما مرتبطا على نحو عميق بأرض روسيا والفلاحين الذين يحرثونها، فقد عبَّر منذ البداية عن التوق الروسي إلى تآلف الكل والجزء في وحدة الوجود، إلى درجة أن الحدود بين ما هو خاص وما هو عام في حياته غدت ضبابية. لقد كان بالفعل حياة روسية.

الفصل الأول

الأسلاف: آل تولستوي وفولكونسكي

«إن الجمال الأخاذ لربيع هذه السنة في الريف ينعش الأحياء ويبعث الموتى. فالنسمات العليلة في المساء تداعب أوراق الشجر الغضة فيُسمَع حفيفها تحت ظلال القمر النيّر حيث تعلو طيور العندليب وتهبط بعيدا وقريبا، وتنعق الضفادع بلا استحياء بين فترة صمت وأخرى، ويعبق خلالها أريج الزهور والنباتات وعطر النسمات البلسمي، ويحصل كل ذلك فجأة في وقت استثنائي يدعو إلى الغرابة والعشق في آن معا. وفي الصباح تتناوب مجددا الظلال والأنوار على العشب الأخضر القاتم الطويل، منعكسة من أشجار البتولا الضخمة السميكة على جانبي الدّرب، حيث تُرى أيضا على الضفتين نباتات أذن الفأر الزرقاء الجميلة، ونبات القراص ذو الوبر الشائك والزهر الأحمر، وغيرها من عجائب الله في خلقه. يا له من مشهد لم تغيره السنون منذ أن وقعتُ في غرامه قبل ستين عاما».

رسالة إلى صوفيا تولستايا، ياسنايا بوليانا، 3 مايو/ أيار 1897.

كان الأب أرستقراطياً حقيقياً؛ نسباً وحسباً ومولداً وتربيةً. ورغم ارتدائه قميص الفلاحين وازدرائه جميع أشكال التحامل والإجحاف لدى الطبقة الأرستقراطية، فإنه كان رجلا نبيلا شهما ذا مروءة[13]، وبقي كذلك حتى وفاته. وهكذا، لخص ابن إيليا، ابن تولستوي، التناقض الأعظم في شخصية رجل كانت حياته كلها عبارة عن حزمة ضخمة من التناقضات؛ ذلك أن تولستوي لم يكن يشك طيلة حياته بمكانته الإقطاعية، بل كان فخورا بنسبه النبيل. وقد استمر بالتصرف كالأرستقراطيين بعد فترة طويلة من تخليه عن لقبه وشروعه في ارتداء ملابس الفلاحين لأن الأرستقراطية كانت في دمه. كتب عالم الاقتصاد جيمس مافور بعد لقائه

(13) جنتلمان.

تولستوي، وهو في الحادية والسبعين من عمره، عام 1899: «رغم أنه كان يرتدي ملابس الفلاحين، إلا أنه لم تكن له هيئة الفلاحين أو طريقة مشيهم أو وقوفهم. ما من موجيك (فلاح) لديه عيون تولستوي الثاقبة أو سحنته المفعمة بخصائص الهدوء ورباطة الجأش والسيادة». ثمة شيء أرستقراطي لازمَ هيئة تولستوي وسلوكه بعناد، سواء كان يتمشى في طريق ريفي كفلاح أنهكه تقلّب الطقس، أو يستخدم خطابا لبقا في حديثه مع الناس. ثمة شيء فيه «لا يتناسب البتة مع ما يرتديه من أسمال» كما علّقت مترجمة أعماله الأمريكية إيزابيل هابجود.

كان تولستوي يشاطر أفراد أسرته توقيرهم العميق لأسلافهم. فقد أحبَّ الأساطير التي نُسجت حولهم، وشعور الارتباط بهم عبر الأجيال. ووفقا لأحد المختصين الرّوس في شأن تولستوي، فإن الكاتب العظيم كان مقتنعا بأنه «كان موجودا قبل ولادته وأنه نتاج جميع أسلافه الذين عاشوا قبله». هذا الشعور بكونه جزءا من حلقة متسلسلة متواصلة تربطه بأجداده كان أمرا مهما للغاية لكاتب كانت حياته مرتبطة بعمق بتاريخ بلاده. كما أنه كان يحب تذكيره الدائم بتاريخ أسرته من خلال الوجود الحسي لعزبة ياسنايا بوليانا الريفية؛ التي أمضى فيها معظم حياته، والتي علق عليها ابنه ليف لاحقا بأنها كانت بالنسبة لأبيه «جزءا عضويا من ذاته». فقد عاشت أجيال من أسرته في منزل ياسنايا بوليانا منذ قديم الزمان، كما أنه وُلد فيه وأمضى فيه طفولته المبكرة محاطا بصور شخصيات مختلفة من الأسرة الممتدة بالإضافة إلى الأثاث والمتاع الذي توارثته الأجيال. لقد كان بالفعل المكان الوحيد الذي يشعر فيه تولستوي بالسعادة. ومن المناسب القول إن تولستوي أصبح بدوره جزءا عضويا من ياسنايا بوليانا، إذ وُوري الثرى في وسط أرض تلك العزبة. كتب تولستوي عام 1858 في بداية مقالة منظورة أراد أن يتحدث فيها عن الصيف الذي أمضاه في السنة الفائتة في العزبة: «من الصعب أن أتخيل روسيا وموقفي منها من دون عزيزتي ياسنايا بوليانا». وشرحَ فقال إنه يمكن أن يهضم قوانين عامة محددة بشأن روسيا من دون ياسنايا بوليانا، لكنه لن يقوى على حب روسيا بشغف عظيم

من دون وجودها. فذاك هو الشكل الوحيد الذي يعرفه تولستوي عن حب الوطن الذي يجب لزاما أن يمتزج بياسنايا بوليانا.

قد يكون تقدير/ عبادة/ إعجاب تولستوي بأجداده وسام فخر له وأساسا مهما لتحديد هويته، لكنه أيضا كان مصدر إلهام عظيم غذّى رواياته الكبرى. فاهتمامه الكبير بجيل انتفاضة الديسمبريين عام 1825، الذي شكل دافعا لكتابة «الحرب والسلام»، كان يعود جزئيا لقرابته البعيدة من سيرغيه فولكونسكي الذي كان أحد زعماء الحركة، وكان بطلا من أبطال الحرب ضد نابليون. ويذكر أن تولستوي التقى بفولكونسكي في فلورنسا عام 1860 وقد شاخ وبلغ من العمر ستين عاما، بُعيد إصدار ألكسندر الثاني عفواً بحقه بعد أن أمضى ثلاثين عاما من حياته منفيا في سيبيريا. وعندما بدأ تولستوي كتابة الحرب والسلام بعد ثلاث سنوات من ذلك اللقاء، اعتمد بشكل كبير على شخصيات بارزة من أسرته الممتدة فلعبت في روايته أدوارا أساسية لا تنسى. ولهذا السبب بالتحديد اخترنا أن نوسع من دراستنا لحياة تولستوي فنعود إلى عدد من الأجيال السابقة.

كان تولستوي ملتزمـاً بالحقيقة في رواياته، لكنه لم يُخضع تاريخ أسرته المديد للتحليل العقلاني الدقيق كما كان يفعل مع غالبية الأمور الأخرى. لذلك كان لديه اعتقاد استمر حتى أواخر حياته، مفاده أن أصل أسرته يعود إلى مهاجر ألماني يدعى ديك[14]. وكانت مكتبته العظيمة تحتوي على أربعة مجلدات تتعقب أنساب أهم الأسر الأرستقراطية في روسيا، وقد خمّن أنه قرأ فيها أن جّده الأول قدم إلى روسيا في العصور الوسطى، وأن لقب تولستوي أتى ببساطة من ترجمة اسم «ديك» (تولستوي/ سمين، باللغة الألمانية). وهذا ما كان في الغالب يقوله تولستوي للزوار الأجانب الذين كانوا يستفسرون عن تاريخ أسرته. وكانت تلك الرواية التي أعيد إنتاجها في السير الذاتية الأولى التي تناولت تولستوي. فقد شرح يفجيني

(14)Dick.

سولوفيوف[15](في سيرته التي بيعت بخمسة وعشرين كوبيكا للنسخة الواحدة عام 1894 بعد أن بلغ تولستوي السادسة والستين)، على سبيل المثال، أن كلمة تولستي وتعني «سمين» بالروسية (إذ التركيز هنا في النطق على المقطع الأول من الكلمة) أصبحت تولستيي (بصيغة الجمع) ومن ثم اشتُقت «تولستوي» (والتركيز هنا في النطق على المقطع الثاني من الكلمة).

لكن ليس ثمة أدنى دليل يقترح وجود هذا المهاجر الألماني المفترض الذي أسس سلالة تولستوي. بالإضافة إلى أن ترجمة الألقاب الأجنبية إلى الروسية لم تكن ممارسة مقبولة مطلقا في روسيا القديمة. إلا أن إيمان آل تولستوي بأصولهم الألمانية أمر متجذر. ففي الأربعينيات من القرن التاسع عشر يزعم أن القيصر نيكولاي الأول كان ينعت الجنرال الكونت بيوتر ألكسندروفيتش تولستوي (الذي تربطه قرابة بعيدة بليف نيكولايفيتش تولستوي، وكان يعمل سفيرا للإمبراطورية في باريس إبان السنوات العصيبة التي سبقت غزو نابليون) كان ينعته بلقب «دير ديكي»[16]. ربما أراد القيصر من ذلك أن يثني على آل تولستوي بتلميحه لأصولهم الألمانية لأنه هو نفسه كان محباً للألمان. وربما مردّ ذلك ببساطة أن الكونت الموقر كان سمينا لحيما فقط ولم يقصد القيصر الإشارة إلى نسبه وأصله.

وثمة أسطورة عائلية أخرى تفترض أن جد آل تولستوي الأول رجل ألماني أيضا يدعى آيندروس. وبحسب السجلات الروسية للأنساب في القرن السابع عشر، هاجر آيندروس هذا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة مع نجليه وثلاثة آلاف رجل عام 1352 واستقروا في تشيرنيغوف، ثم بدّل آيندروس اسمه ليغدو ليونتي واعتنق الديانة الأرثوذكسية الروسية. لكن نيكولاي غوسيف[17]، سكرتير تولستوي السابق، تساءل، ولأسباب وجيهة، عن الكيفية التي اجتاز فيها بسلام ذلك اللورد الإقطاعي مع عدد هائل من حاشيته مئات الأميال عابراً عددا من

---

(15) Евгений Соловьев (Evgeny Solovyov).

(16) Der Dicke.

(17) Николай Гусев (Nikolay Gusev).

الدول التي كانت في حالة حرب فيما بينها. ولماذا اختار أن يقوم بتلك الرحلة الطويلة في المقام الأول؟ ولماذا اختار تشيرنيغوف عديمة الأهمية سياسياً؟ أضف إلى ذلك حقيقة تفشي الطاعون الدّمّلي في بلاد الروس في منتصف القرن الرابع عشر، كما هي الحال في البلاد الأوروبية الأخرى أيضا، الأمر الذي لم يكن ليشكل عاملا تحفيزيا يجذب تلك الشخصية الريادية. ومما زاد تعقيد تلك الرواية أن حفيد تولستوي سيرغيه ميخايلوفتش، الذي كان أيضا مقتنعا بأسطورة الأصول الألمانية لأسرته، قال بأن آيندروس كان في الواقع كونتاً فلمنكياً يدعى هنري دي مون وصل إلى روسيا بعد رحلة استكشافية فاشلة قام بها إلى قبرص. بيد أنه من الأرجح لنا أن آل تولستوي قد يعود نسبهم إلى نجل حفيد ذلك الجدّ الأسطوري أندريه خاريتنوفيتش[18]، الذي أتى بالأسرة إلى موسكو في بداية القرن الخامس عشر، وقد أكسبته بدانته لقباً تحوّل مع مرور الأيام إلى لقب الأسرة المعروف «تولستوي».

عندما أُلغي النظام الهرمي الإقطاعي القديم في روسيا عام 1682، هرعت الأسر النبيلة الروسية لتسجيل نسبها في سجلات الدولة بغية الحفاظ على مكانتها الأرستقراطية المزعومة وشرعتها. ومما يلقي بشكوك إضافية على رواية آل تولستوي وأصولها الألمانية، أن جميع الأسر التي هرعت للتسجيل ادعت نسباً أجنبياً (زائفاً في معظم الحالات) على أمل تعزيز مكانتها واعتبارها من قِبل القيصر. أما أحد الأشخاص الستة الذين وقعوا على السجلات التي قُدّمت للمكتب المسؤول عن التحقق من أعلام النبلاء في موسكو عام 1686، والتي بيّنت تاريخ أسرة تولستوي القديم، فلم يكن سوى بيوتر أندريفيتش[19]، الذي أصبح بعد عقود قليلة أول كونت من آل تولستوي. كان بيوتر أندريفيتش شخصاً استثنائياً؛ إذ كان أول فرد من آل تولستوي يدخل كتب التاريخ. ويبدو أنه كان موهوباً إلى حدّ كبير لأنه ربما كان الشخص الذي

(18) Андрей Харитонович.

(19) Петр Андреевич (Pyotr Andreyevich).

اخترع رواية أسلافه الأوائل. ويبدو أن تأليف الروايات لم يقف عنده؛ فقد توّجت هذه الموهبة أخيرا مع صديقنا ليف تولستوي بعد مئات السنين وبعد مرور أجيال متعاقبة من آل تولستوي.

عاش بيرتر أندريفيتش تولستوي (1645-1729) حياة حافلة بالأحداث الشيّقة. فقد كان رجلا مفعماً بالطاقة واتقاد العقل. كما كان مشهوراً بالمكر والخداع والخيانة؛ إذ حوّل ولاءه السياسي إلى بطرس الأكبر (إبان فترة شبابه) بعد أن تسلَّم السلطة من أخته غير الشقيقة صوفيا عام 1689. كان بيوتر يلعب أوراقه بدهاء عجيب. فبعد أن أصبح جَداً وبلغ الثانية والخمسين وكان قد أظهر قدرا كافياً من الولاء للقيصر بطرس الأكبر، أرسله الأخير عام 1697 إلى إيطاليا لدراسة الملاحة وبناء السّفن مع عدد لا بأس به من نبلاء الأُسر الأرستقراطية، وكان أحدهم رجلا من معاصريه أرقى منه في السلّم الاجتماعي، يدعى بوريس بيتروفيتش شيريميتوف، اصطحب معه عدداً كبيراً من حاشيته بما في ذلك كاتبه. أما بيوتر، بخلاف شيريميتوف، فقد رافقه جندي وخادم فقط، وكان يكتب بنفسه مذكراته التي تسرد رواية مطلعة ولافتة عن الحياة الإيطالية بعيون روسية.

فخلال وجوده في إيطاليا لسنة وأربعة أشهر جاب بيوتر أندريفيتش البلاد طولاً وعرضاً من فينيسا إلى باري، واستطاع أن يدرس الحياة الإيطالية والأعراف الاجتماعية بالتفصيل. وبما أنه كان قادماً من «الأم المقدسة روسيا»، حيث الثقافة الإلحادية حينها لم تكن تُذكَر، فمن غير المفاجئ أن نجد بيوتر يصب كثيراً من تركيزه واهتمامه في مذكراته على الكنيسة. عاد بيوتر أندريفيتش إلى موسكو حليق اللحية يحمل في ثنايا دماغه ثقافة واسعة. وربما صعق مظهر هذا الحليق الروسي الأرثوذكسي المسيحي الكثير من معاصريه (قبل سنوات من بناء مدينة سانت بطرسبرغ). كما كان بيوتر تولستوي من أوائل الرّوس الذين كانوا يرتدون ملابس غربية في السنوات الأخيرة من موسكو القديمة. وقبل سنوات من مباشرة بطرس الأكبر في استيراد الثقافة الغربية إلى روسيا بالجملة، كان بيوتر أندريفيتش يعرض بتبجح معرفته بالعلوم والآداب والفنون الأوروبية، لا سيما آداب السلوك الراقية.

عام 1701، وبعد تلمس إمكانياته الدبلوماسية الرائعة، عيّنه بطرس الأكبر أول سفير لروسيا في القسطنطينية. وقد أثقل كاهله بمهمة تحسين العلاقات مع الباب العالي الذي خاض ثلاثة حروب ضد روسيا خلال عهد بطرس الأكبر فقط. وقد أمضى بيوتر أندريفيتش السنين الأخيرة من عمله هناك قابعًا في قلعة يديكول (حصن الأبراج السبعة)، في القبو الذي كان يُسجَن فيه عادةً السفراء الأجانب الذين يمثّلون دولا تربطها بالإمبراطورية العثمانية علاقة حرب. لكن بيوتر تولستوي كان رجلاً لا يحب الروتين بل يسعى للقيام بمغامرات مختلفة. وهكذا، قبل أو بعد إعلان السلطان أحمد الثالث الحرب عام 1710، قام بالترجمة الروسية الأولى لتحفة أوديس «التحولات أو الاستحالات»[20]، معتمداً على معرفته اللغة اللاتينية التي اكتسبها أثناء مكوثه في إيطاليا.

لم يؤسِّس بطرس الأكبر سانت بطرسبرغ فحسب بل جعلها عاصمته الجديدة. رافق بيوتر تولستوي القيصر في رحلات أخرى إلى الخارج، وفي عام 1717 وُكّل بالمهمات الأكثر حساسية وصعوبة. فقد تعيّن عليه مثلاً السفر إلى نابولي ليقنع ألكسي، نجل القيصر الضّال المنحرف، ولي العهد بالعودة إلى روسيا. فقد كان ألكسي معارضًا لإصلاحات أبيه مما دفعه إلى اللجوء إلى بلاط صهره الإمبراطور شارلز السادس في فيينا، وقد قام الأخير بإرساله إلى نابولي لكيلا يَلحَق الضرر بِهِ ويتسبب في أزمة دبلوماسية. وهكذا لجأ بيوتر تولستوي إلى توظيف وسائل شريرة واستخدم المكر والحيلة والدّهاء وعكف على تلفيق الأخبار والكذب فتكللت مهمته بالنجاح. وعندما عاد ألكسي إلى روسيا زُجّ به على الفور في قبو قلعة سانت بطرس وبولس وحُقق معه بتهمة الخيانة ثم ما لبث أن مات بعد ذلك بفترة قصيرة.

شارك بيوتر تولستوي في التحقيق أيضا. لم يكن بيوتر يتودد إلى العامة من الرّوس بشكل عام، لكن القيصر المُمْتنّ أغدق عليه العطايا وكرّمه وعيّنه عضواً في مجلس الأعيان واقتطع له الكثير من الأراضي. وقد أصبح بيوتر أندريفيتش أحد أكثر الرجال نفوذاً في روسيان وذلك بعد

(20) Metamorphoses.

أن حصل على لقب الكونت في اليوم الذي تُوجت فيه كاثرين الثانية، زوجة بطرس الأكبر، وأصبحت إمبراطورة عام 1724، وذلك قبل سنة من وفاة القيصر. لكن المكائد التي كان يحوكها بيوتر أندريفيتش لضمان توريث إليزابيث، ابنة كاثرين، عرش الإمبراطورية أدّت إلى سقوطه في الهاوية. فبعد وفاة الإمبراطورة كاثرين عام 1727، قام مينشيكوف، غريم تولستوي، باعتقاله والزجّ به في سجن قلعة سانت بطرس وبولس. وعندما بلغ بيوتر تولستوي الثانية والثمانين أُصدر حكم الإعدام في حقه وجُرّد من لقبه وأوسمته وأراضيه. وقُبيلَ إعدامه خُفف الحكم إلى السجن المؤبد والنفي إلى سجن دير سولوفيتسكي الواقع في جزيرة بالقرب من دائرة القطب المتجمد الشمالي. استغرقت رحلة نقله إلى السجن شهراً كاملا، وقد رافقه مئة جندي (توافقاً مع رتبته الرفيعة) براً إلى ميناء آرخانغيلسك أولاً، ثم عبر المياه المتجمدة للبحر الأبيض. قبع تولستوي في سجن انفرادي وحرم من التراسل مع ذويه، وسُمح له بالخروج إلى الكنيسة فقط مصفّد القدمين.

أسّس دير سولوفيتسكي في البحر الأبيض راهبان ستاخانوفاتيّان[21] في القرن الخامس عشر، بعد أن أيقنا بأن التقوقع في دير عادي خيار سهل للغاية. وهكذا اختار الراهبان بدلا من ذلك اتباع أسلوب حياة يعتمد على الحرمان الجسدي الشديد والنسج على منوال زهّاد الصحراء الأوائل في بدايات المسيحية. وقد وجدا موقع «سولوفيتسكي» مكاناً مناسبا جدا في جزر سولوفيتسكي النائية البعيدة حيث لا نور للشمس في فصل الشتاء القارس. ويجدر القول إن تقوى المؤسسين الأوائل لهذا الدير تتناقض على نحو صارخ مع همجية إيفان الرّهيب؛ الذي رأى أن لا غضاضة مطلقا في إقامة سجن على تلك الأرض المقدسة. وقد أضاف مناخ ذلك المكان القاسي قتامة مرعبةً على الجو العام للسجن. توفي إيفان، نجل بيوتر أندريفيتش، في ذلك

(21) نسبة إلى العامل السوفييتي ستاخانوف Стаханов الذي يُضرَب به المثل في العمل الدؤوب والقدرة على التحمّل وسرعة الإنجاز والإنتاجية الفائقة.

المكان الموحش في السنة التي أعقبت وصولهما بعد أن رافق والده إلى منفاه. وبعد ذلك بثمانية أشهر توفي بيوتر أندريفيتش.

وبعد قرن نصف، في السبعينيات من القرن التاسع عشر، أصبح سليل بيوتر أندريفيتش، ليف نيكولايفيتش تولستوي مهووسا بهذا الفصل من تاريخ الأسرة، بينما كان يخطط لتأليف رواية عن بطرس الأكبر. وعندما كتب تولستوي رسالة إلى صديقته وقريبته ألكسندرا أندرييفنا تولستايا في يونيو/ حزيران 1879، بينما كان يدوّن ملاحظات عن مشروعه في أرشيف موسكو في وزارة العدل، أعلن أن نفي بيوتر ونجله إيفان كان «الحلقة الأكثر قتامة» في حيوات أسلافهم. فبالنسبة لتولستوي، شكلت حقبة بطرس الأكبر «بداية كلّ شيء» وقد أصبح مهتماً تماماً بمصير بيوتر أندريفيتش لدرجة أنه فكّر في ذلك الصيف جدّياً ولفترة من الزمن في زيارة المكان الذي نُفي فيه بيوتر، على أمل أن يتعرف على تفاصيل إضافية عن حياته. أصبح الدير في حياة ليف تولستوي أحد أقدس الأماكن في روسيا (إذ كان يجتذب ما يقارب 20 ألف حاج كل سنة)، رغم أن الوصول إليه في عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر لم يكن بالأمر السهل. سمع تولستوي تفاصيل أخرى عن سولوفيتسكي من أحد الفلاحين الرّواة القادمين من شمال روسيا الذي قصّ عليه الأسطورة الشعبية المسماة «الشيوخ الثلاثة».

عام 1886، وكجزء من مهمته لتوفير مواد ذات جودة عالية للقراءة من قِبل العامة، قام تولستوي بإعادة صياغة تلك القصة ونشرها في صحيفة أسبوعية مشهورة. وقد شكَّل العمل تحدياً للسلطات كدأبه في تلك الفترة، إذ بدأت أفكاره تتبلور رويداً رويداً. تعرض القصة أحداثاً حصلت خلال رحلة إلى الدير على متن قارب يحمل حجاجاً متوجهين إلى الجزيرة مروراً بآرخانغيلسك[22]. ويطلب الأسقف أن يحطّ في جزيرة يسكنها ثلاثة «أولياء» أسطوريين أراد أن يتعرف إليهم. ومن ثم يكتشف الأسقف بأن المسيحية غير التقليدية المتواضعة العملية التي يلتزمون بها تدلّ على احتوائها قداسة تتفوق على دوغما المسيحية «الرسمية» التي أراد أن

(22) Архангельск (Arkhangelsk).

يغرسها في أذهان الأولياء الثلاثة. ويشعر الأسقف في النهاية بالتواضع والخشوع بعد لقائه بهم. وقد جعلت تلك الأفكار المستفزة تولستوي يصبح التهديد الأخطر في نظر الحكومة الروسية. فقد كان مصمماً جداً على تعرية الأكاذيب والنفاق الذي شهده متأصِّلا في نسيج النظام القيصرين، وفكر في أن يتأسى بجده بيوتر أندريفيتش، لكن الحكومة الروسية رفضت السماح له بأن يصبح شهيداً. وقد قال ألكسندر الثالث قولته المشهورة: «يريد مني تولستوي أن أنفيه إلى سولوفيتسكي ولكن هيهات هيهات.. لن أمنحه هذه الشهرة». أصبحت سواوفكي بعد ثورة 1917 من أشهر معسكرات الاعتقال السوفييتية، ومن المفارقات المؤلمة المزعجة أن بعض أتباع تولستوي انتهى بهم المطاف في ذلك السجن عام 1930، بسبب رفضهم التخلي عن إيمانهم بالمقاومة السلمية للعنف ومنع الملكية الخاصة.

أنجبت صونيا أربعة عشر طفلا خلال فترة زواجها الطويلة، لكن ليف نيكولايفيتش لم يكن بدعاً في آل تولستوي في إنجاب عدد كبير من الأطفال، فإيفان نجل بيوتر أندريفيتش الأكبر كان قد أنجب خمسة ذكور وخمس إناث قبل أن يتوفى في سجن سولوفيتسكي في سن الثالثة والأربعين عام 1728. أما ابنه الثاني فكان اسمه أندريه إيفانوفيتش (1721-1803)، وهو الجدّ الأول لتولستوي. ولا يُعرَف الكثير عنه بخلاف أنه عُمّد باسم «العش الكبير» لأنه أنجب ثلاثة وعشرين طفلاً، اثنا عشر منهم وصلوا إلى مرحلة البلوغ. ويُذكَر أن عمة تولستوي كانت قد أخبرته أن أندريه إيفانوفيتش تزوّج في سن مبكرة جداً، لدرجة أنه انفجر في البكاء مرة عندما ذهبت زوجته اليافعة إلى حفلة راقصة في إحدى الأمسيات من دون أن تودّعه.

أخيرا، أصبحت إليزابيث، ابنة كاترين الأولى، إمبراطورة عام 1741 كما كان يأمل بيوتر أندريفيتش. وفي مرحلة ما من حكمها أرجعت إحدى عزب آل تولستوي المصادرة إلى أرملة ابنه إيفان بيتروفيتش. وفي عام 1760 استعادت الأسرة لقب بيوتر إيفانوفيتش وبقية الأملاك الأخرى. ويُعتقَد أن شارة النبالة لآل تولستوي كانت قد صُمّمت في تلك الفترة على شكل درع يحمله كلبان من نوع البورزوي دلالة على الولاء والسرعة في الوصول إلى النتائج. وقد قسم

الدّرع إلى سبعة أقسام، ونقش في وسطه سيف ذهبي على شكل صليب وقوس فضي ينفذ من خلال مفتاح ذهبي، دلالةً على تاريخ الأسرة المديد. وفي الزاوية العليا من الجهة اليسرى للدرع رُسم نصف النسر الروسي الإمبراطوري، وبجانبه على خلفية فضية صليب القديس أندرو الأزرق الذي فاز به بيوتر أندريفيتش عام 1722. وفي الزاوية السفلى من الجهة اليمنى سبعة أبراج تعلوها أهلّة؛ دلالةً على سنوات سجن بيوتر أندريفيتش في قلعة يديكول في القسطنطينية، ودوره في ضمان انتصار الروس على الأتراك.

كان الكونت أندريه إيفانوفيتش تولستوي، كما أصبح يعرف وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، خادماً مخلصاً للدولة. وقد كان يتمتع أيضا بالدهاء المالي لأن ثروة الأسرة بحلول وفاته عام 1803 بدأت بالنماء. إلا أن أسلوب حياة جدّ تولستوي إيليا أندريفيتش[23] (1757–1820) المترف الباذخ جعل الأسرة تفلس مجدداً. فقد اتبع إيليا أندريفيتش مساراً وظيفياً تقليدياً كان يتبعه النبلاء حينها فالتحق بالجيش. وبعد تقاعده وهو في الثلاثينيات من عمره تزوّج بفتاة ثرية تدعى بلاجيا نيكولايفنا (1762–1838). وهكذا كانت ثروتهما تضمُّ قصراً في موسكو وممتلكات عديدة في مقاطعة تولا. وقد اختارا منزلاً لهما في عزبة بولياني التي تمتد على 5,500 هكتار وتحتوي على مئات الخدم وحديقة طيور وبساتين غنّاء مختلفة. وقد عاش الزّوجان حياة ترف؛ فقد كان يؤتى بكافيار سمك الحفش الصغير إلى مائدتهم طازجاً من البحر الأبيض عبر آرخانغيلسك، ويستورد المحار من هولندا، ويُزرَع الهليون والأناناس في بيوت خضراء هائلة بنيت على أراضيهم. ووفقا لإحدى الروايات، كان الكونت يرسل ملابسه إلى أمستردام لتُغسَل هناك. وقد وصف تولستوي حياتهما بسلسلة طويلة من «الحفلات والمسارح والأمسيات الراقصة والمآدب ورحلات الصيد والطلعات الاستكشافية والمغامرات الأخرى».

(23) Илья Андреевич (Ilya Andreyevich).

كان إيليا أندريفيتش رجلاً مضيافًا وسخيًا، لكنه لم يكن على درجة كبيرة من العلم؛ فعندما سافر بعيداً عن زوجته لأول مرّة خلال عشرين سنة عام 1813، كتب لها رسالة طافحة بالأخطاء الإملائية وشبه خالية من علامات الترقيم. ويمكن أن نترجم جزءاً مقتضبًا منها إلى العربية لتظهر مليئة بالأخطاء كالتالي: «حزينًا أنا حزينًا جداً صديقتي العزيزة الكونتيس بيلاجيا نيكولايفنا لأهنئكي في غياب عيد شفيعك لأول مرة في حياتي ولكن ماذايمكنأنفعل صديقة قلبي لكن من الضروري أن نخضع للعقل». أما بيلاجيا فقد كانت تتحدث الفرنسية أفضل من الروسية، وكان ذلك سقف تعليمها وفقا لرأي حفيدها، ليف تولستوي، الذي كسر تقليد الأسرة وجمع في مكتبته الخاصة ما يقارب 22 ألف كتاب.

خلال رحلته الطويلة مع التأليف والكتابة عكف تولستوي على غربلة تاريخ أسرته باحثًا عن مواد خلاقة يستخدمها في صياغة شخصياته الروائية. فمن السهولة بمكان أن نرى لمحات من شخصيتيْ إيليا أندريفيتش وبيلاجيا نيكولايفنا في شخصيتيْ الكونت والكونتس روستوف في الحرب والسلام. وقد نعت في الواقع جدّه في المسوّدات الأولى للحرب والسلام بـ«الودود الغبي». كما تتوافق ملاحظاته التالية لشخصية الكونت إيليا روستوف عن كثب مع إيليا أندريفيتش الذي كان أيضا راسخ الإيمان بالنادي الإنجليزي في موسكو. أما مشهد تولستوي الذي عرض فيه الكونت روستوف وهو يستقبل ضيوفًا على مأدبة عشاء فخمة، فقد استقى تفاصيله من مصادر تصف مأدبة عشاء استضاف فيها إيليا تولستوي 300 شخص عام 1806، بمناسبة عملية باغراتيون[24] التي هُزم فيها نابليون في شونغرابين. كان إيليا أندريفيتش أكبر من الحياة نفسها. فقد ذكر تولستوي أن جدّه إيليا كان ينزع إلى وضع رهانات كبيرة في لعبة الهويست من دون أن يكون حاذقًا في اللعب، وكان مستعدا لإقراض أي شخص يطلب منه

(24) Багратион (Bagrations).

ذلك، وأسلوب حياته الباذخ أفضى إلى وقوعه في براثن الدّيْن إلى أن أُرغم عام 1815 على العمل.

وقد استمر لعب الورق والإفلاس والديون خلال خمس سنوات خدم فيها إيليا أندريفيتش حاكماً لقازان. كما أدّت سلسلة من الصفقات التجارية الخاسرة إلى تفاقم الدّيون لتصل إلى 500 ألف روبل بحلول عام 1819. طرد إيليا في فبراير/ شباط عام 1820 من منصبه بتهمة الفساد (التي ربما كانت تهمة مدبّرة، ويبدو أن زوجته هي من كانت تأخذ الرشى سرّاً) ولم يتعافَ من تلك الضربة القاصمة وتوفي بعدها خلال شهر. ورث ليف تولستوي عادة القمار من جدّه، كما ورث عادة المقامرة بأموال ضخمة وخسارتها، لكنه استطاع، بخلاف جدّه، أن يقلع عن تلك العادات السيئة عندما دخل عشّ الزوجية.

كان والد تولستوي، نيكولاي إيليتش، أكبر أبناء إيليا أندريفيتش وبيلاجيا نيكولايفنا الأربعة. وقد وُلد عام 1794 وكان مختلفاً عن إخوته. وعندما نظر إيليا أندريفيتش في وضعه المالي وآفاقه الضيقة قرر أن يُلحق نجله الأكبر نيكولاي بالخدمة المدنية وهو لم يزل في السادسة من عمره، مما عنى أنه سوف يحصل تلقائياً، بمجرد بلوغه السادسة عشرة، على رتبة كاتب/ أمين سجلات اعتباري، والدرجة الدنيا من السلم الوظيفي للخدمة المدنية. وانعكاساً لطبعه اللطيف، لم يقم إيليا أندريفيتش بضرب أولاده مطلقاً. وقد كان ذلك مستهجناً في ذلك العصر لأن العقاب الجسدي كان أمراً شائعاً حتى داخل الأسرة الإمبراطورية. وبخلاف ذلك، ترعرع والد تولستوي في بيئة روسية أرستقراطية تقليدية في روسيا أوائل القرن التاسع عشر. وعندما بلغ الخامسة عشرة قدّمت له عمته أفانازي بيتروف[25] ليصبح خادمه الخاص، وفي السنة التالية قدّم له والداه فتاة فلاحة جميلة غضّة؛ ليحافظ على «صحته»، كما جرت العادة على استخدام تلك التورية. وقد نتج عن ذلك ولادة «ميشينكا»، شقيق تولستوي غير الشرعي، الذي تدرّب للعمل في خدمة البريد، لكنه لاحقاً «فقد البوصلة وضلّ طريقه». وقد عبّر

---

(25) Афанасий Петров (Afanasy Petrov).

تولستوي في وقت لاحق عن امتعاضه وقلقه من حالة هذا الأخ الأكبر المعوز الفقير الذي كان يشبه والدهم أكثر من أي أخ آخر. أما تولستوي فقد أنجب بدوره أيضا طفلا غير شرعي وجد فيه أولاده الشرعيين شبهاً كبيرا بوالدهم أكثر من أيٍّ منهم.

عندما قام نابليون بغزو روسيا عام 1812، انتقل نيكولاي إيليتش تولستوي من الخدمة المدنية إلى العسكرية، فانضم إلى الجيش وقاتل بشراسة قبل أن يُعتقل على يد الفرنسيين. بعدها، لم يستطع أن يخدم مطوّلاً في كتيبة الخيّالة المهيبة التي نُقل إليها عندما عاد إلى سانت بطرسبورغ عام 1814. بعد ذلك اجتمعت عليه عناصر من قبيل استيائه من الجيش واعتلال صحته ووضع والده المادي الصعب فدفعته إلى الاستقالة. ولِأنِ من يخدم في الخدمة المدنية لا يزجّ به في سجن المدانين (السفهاء)، فقد أُرغم نيكولاي إيليتش على الحصول على وظيفة والعمل. وقد أصبح ذلك ضرورياً للغاية، لا سيما بعد وفاة والده عام 1820؛ إذ أصبح المعيل الوحيد لوالدته المسرفة المدللة وشقيقته العزباء وقريبه. وبعد سداد جميع الدّيون استطاعت الأسرة أن تستأجر شقة صغيرة في موسكو. وعندما يصف تولستوي في الحرب والسلام وضع نيكولاي روستوف بعد وفاة العجوز الكونت، فإنه في الواقع يصف وضع والده الذي تقلد عام 1821 منصباً متواضعاً في سلّم البيروقراطية العسكرية في موسكو. أما الحلّ السحري لوالد تولستوي، ونيكولاي روستوف في الرواية، فكان العثور على عروس ثرية. وهي في الرواية الأميرة ماريا بولكونسكايا، وفي الواقع هي الأميرة ماريا فولكونسكايا[26] التي أصبحت أسرة نيكولاي إيليتش من خلالها مالكة لياسنايا بوليانا، العزبة الريفية التي سيرتبط اسمها باسم تولستوي إلى الأبد.

اهتم تولستوي اهتماماً بالغاً بنسبه وشجرة عائلته. ففي الفقرة التي يهزأ فيها الأرستقراطي العتيد ليفين من الأثرياء الجدد كفرونسكي في الجزء الثاني من آنا كارينينا، ويتهكم عليه بسبب وضاعة نسبه وعدم قدرته على الإشارة إلى ثلاثة أو أربعة أجيال من تاريخ أسرته، يعبّر هنا

---

(26) والدة تولستوي.

تولستوي في الواقع عن درجة لا بأس بها من تبجحه الشخصي بنسبه وحسبه. ومن اللافت أيضا تعالي ليفين على طبقة التجار (الطبقة الروسية المتوسطة)، كما هو شأن تولستوي الأرستقراطي الذي لم يكن محباً للتجار، ومصداق ذلك أن جميع أبطال رواياته ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية أو طبقة الفلاحين، التي هي «الطبقة الأفضل» في روسيا. ولكن إذا ما قارنا آل تولستوي بآل فولكونسكي (أخواله)، الذين يعود نسبهم إلى أحد أشهر زعماء القبائل الأسطورية الإسكندنافية المعروف بـ«روريك»، فإنهم في الواقع أسرة عادية نبيلة محدثة النعمة. ينتسب إذن أجداد تولستوي لأمه إلى إحدى أهم وأجلّ الأسر في روسيا، لكن نسبه لوالده ليس ضارباً في القدم إذا ما قورن مع بعض الأسر العريقة في أوروبا الغربية. ورغم أن تولستوي كان قد حصل على لقب الكونت، إلا أن هذا اللقب ولقب البارون أيضا، كان قد استورده بطرس الأكبر من ألمانيا في القرن الثامن عشر كجزء من برنامج الأوربة الذي اتبعه. وقد حافظت تلك الألقاب، التي كانت تُمنَح لقاء الخدمات، على أسمائها الألمانية الأصلية، كـ«جراف» و«بارون». وقد دأبت الأسر الأرستقراطية الروسية على توريث تلك الألقاب لجميع أبنائها، وليس للابن الأكبر فحسب، مما عنى أن مئات من البارونات والكونتات طفوا على سطح الحياة الروسية يتفاعلون مع الألقاب الروسية القديمة كالأمراء والأميرات.

كانت والدة تولستوي الأميرة ماريا فولكونسكايا قادرة على العودة بجذور أسرتها إلى القرن الثالث عشر على الأقل، عندما تشاجر أحد أجدادها مع لوردات من المغول في روسيا القديمة. وبعد قرن من ذلك التاريخ حصلت الأسرة على لقبها من نهر الفولكونا في المنطقة القريبة من كالوغا وتولا حيث كانت لهم أراضٍ وممتلكات. وفي عام 1763، عندما تقاعد من الجيش، قام أحد أجداد تولستوي لأمه، اللواء سيرغيه فولكونسكي، بشراء حصة من عقار ياسنايا بوليانا جنوب تولا. وفي وقت لاحق اشترى حصص المساهمين الخمسة الآخرين. أما ياسنايا بوليانا فتعني «فرجة الغابة المنقشعة/ المُزالة»، وقد سُمّيت كذلك لسبب محدد. ففي القرن السادس عشر، أرادت الدولة الموسكوفية أن تدرأ هجمات الغزاة الرّحل كتتار القرم، فاستطاعت أن

تستفيد من سلسلة التحصينات الطبيعية على طول حدودها الجنوبية التي كانت عبارة عن غابات كثيفة وأنهار. أما الثغرات في المناطق الحدودية فقد سُدّت بأشجار عملاقة كانوا يقطعونها لتشكل حواجز وسواتر متينة تعرف بالروسية باسم «زاسيكا[27]». وقد امتدت على سبيل المثال زاسيكا كازلوفا (سُمّيت على اسم قائد عسكري يدعى كازلوف)، على مئات الأميال تتخللها فسحات في عدد من المواضع أقيمت فيها بوابات تنفذ إلى شبكة الطرق المستخدمة. وكانت ياسنايا بوليانا موجودة في إحدى تلك الفسح، وكانت تسمى في البداية ياسينّايا بوليانا لأن شجر الـ«ياسيني» (شجر الدردار) كان ينمو هناك.

ورث جدّ تولستوي لأمه، نيكولاي سيرغيفتش فولكونسكي[28] (1753-1821) ياسنايا بوليانا عام 1784. وقام عام 1799، بعد تقاعده من الجيش، بتحويلها من قطعة أرض عادية نسبيًا إلى عزبة[29] مصممة بعناية، تضم برك ماء وبساتين وممرات ومنزلا كبيرا فخما. خدم نيكولاي سيرغييفتش في الجيش حتى بلغ السادسة والأربعين بعد أن سُجّل ليلتحق بالخدمة العسكرية وهو في السادسة. وقد كان قائد الحرس في حاشية الإمبراطورة كاثرين العظيمة عندما قابلت الإمبراطور جوزيف الثاني في موجيلوف عام 1780. كما شارك في القتال في حربين ضد الأتراك كان النصر من حليف الرّوس فيهما في حقبة حكم الإمبراطورة. وبعد أن خدم لفترة قصيرة سفيراً في برلين، رافق الإمبراطورة المنتصرة في جولتها في القرم عام 1787، فرُقي إلى رتبة عميد ومن ثم إلى قائد القوات العامة. وفي عام 1794 أُرغم فجأةً على أخذ إجازة لمدة سنتين. وتقول رواية آل تولستوي إن السبب في ذلك هو رفض فولكونسكي الزواج بفارفارا فون إنغلغارت، قريبة وعاشقة الأمير بوتيومكين[30]، أحبِّ الرجال إلى قلب كاثرين العظيمة. وصل إذن مسار فولكونسكي المهني المُبهر إلى طريق مسدود بعد أن عُيّن حاكمًا عسكريًا

(27) Засека (Zaseka).

(28) Николай Сергеевич Волконский (Nikolay sergeyevich Volkonsky).

(29) ضيعة إقطاعية.

(30) Потемкин (Potemkin).

لآرخانغيلسك النائية، واعتُبر ذلك بمثابة النفي. أُعجب تولستوي بطبع جدّه الحادّ ومروءته وشجاعته وروحه المندفعة، وكان يستمتع بإعادة إنتاج وسرد ردة فعل جدّه المزعومة على خطة بوتيومكين في مذكراته (لماذا يعتقد بأنني سوف أتزوج من قح...)[31]. وكانت تلك القصة التي أحب تولستوي قصّها على ضيوفه، حتى إنه وبّخ اثنين من كتاب سيرته بسبب حذفهم إياها من عملهما. لكن الحقيقة، كما هي العادة، كانت أعمق وأعقد من ذلك. فقد توفي بوتيومكين عام 1791، ولم ينفَ فولكونسكي إلى آرخانغيلسك قبل عام 1798، في الفترة التي خلف كاثرين ابنُها بولس الأول في الحكم. وفي مرحلة ما من أواخر عقد الثمانينيات من القرن الثامن عشر (المعلومات متفرقة)، يبدو أن نيكولاي سيرغييفتش كان قد تزوج بالأميرة يكاترينا تروبتسكايا (1749-1792) زواجاً قائماً على المصلحة. وتوفيت زوجته مبكراً عن ثلاثة وأربعين عاماً وتركت له طفلة عمرها سنتان هي ماريا نيكولايفنا، والدة تولستوي.

تقاعد فولكونسكي من الجيش في نهاية المطاف عام 1799، وعاش في ضيعته بسبب مزاج الإمبراطور بولس الأول الصعب وانتقاده المستمر له. بعد وفاة زوجته لم يتزوج نيكولاي سيرغييفتش مطلقاً. فقد أفنى العقدين الأخيرين من حياته في تربية ابنته الحبيبة ماريا، واستحداث محيط شاعري لهم ليعيشوا في ياسنايا بوليانا التي أصبحت مكاناً لا غنى عنه من أجل إبداع حفيده، ليف تولستوي. خلّف فولكونسكي تذكيراً بموقعه العسكري في أقصى الشمال بيتاً صيفياً على ضفاف نهر فارونكا، بالقرب من ياسنايا بوليانا، وأسماه «غرومانت»؛ وهو الاسم الروسي لسبيتسبيرغن في ذلك الوقت. كان فولكونسكي حاكماً لآرخانغيلسك، بوابة القطب الشمالي، وسبيتسبيرغن أيضاً التي اكتشفها أصلاً صيادو السمك من المنطقة المحاذية لآرخانغيلسك. وقد توسعت من حول بيت فولكونسكي الصيفي قرية تسمى أيضاً

---

(31) عاهرة/ مومس.

غرومانت، إلا أن الفلاحين المحليين اعتبروا الاسم مستهجناً غريباً فغيّروه إلى أوغريومي[32] (كئيب/ مظلم). وكان تولستوي قد أتى إلى هنا عندما كان فتى ليصطاد السمك في البرك.

تمتعت الضياع الإقطاعية الروسية بعصر ذهبي في بداية القرن التاسع عشر، ولم يكن نيكولاي فولكونسكي بدعاً في رغبته في الانسحاب من العالم الرسمي المرتبط بسانت بطرسبورغ والبلاط الإمبراطوري والعودة إلى الطبيعة. فقد عكف الأرستقراطيون الرّوس على إعادة اكتشاف جذورهم منذ الستينيات من القرن الثامن عشر، عندما بدأت طبقة النبلاء تتحرر تدريجياً من الخدمة الإلزامية التي أدخلها بطرس الأكبر في سعيه للدفع قدماً ببرنامج الإصلاح والأوربة. وبما أن النبلاء كانوا يملكون أراضيَ واسعة، بدأت القصور تنتشر في أرجاء الريف الروسي؛ بعضها من الطراز الكلاسيكي الفخم وبعضها الآخر من الطراز الخشبي المتواضع. أما المنزل الذي وُلد فيه تولستوي فكان في منزلة بين الطرازين. فلم تكن ياسنايا بوليانا عزبة خالية عندما سكنها نيكولاي فولكونسكي. فقد استهدى ملاكها السابقون، في بداية القرن الثامن عشر، بموضة الخطوط المستقيمة والدقة الهندسية التي وسمت مدينة سانت بطرسبرغ الجديدة، فقاموا ببناء الجزء الأساسي من العزبة في زاويتها الشمالية الشرقية. كما بنوا صفين من المسكن الخشبية وحديقة رسمية زُرعت فيها أشجار الليمون. وقد بنوا أيضا جادة طويلة مستقيمة من المنزل الرئيسي إلى مدخل العزبة، بالقرب من الشارع الرئيسي المؤدي إلى تولا.

وضع فولكونسكي خططاً كبرى لياسنايا بوليانا، لكنه احتاج إلى مهندس معماري ماهر أولا. وقد بدأت بالفعل أعمال البناء الرئيسية فقط بعد عام 1810. فقد قرر أن يكون المنزل الكبير الرئيسي في أعلى نقطة في العزبة يواجه الجنوب الشرقي. وقد بُني المنزل بجناحين متشابهين من طابقين يحتوي كل منهما على عشر غرف. وقد بُنيت أولا بسطح خشبي غير مسقوف يؤدي إلى المنزل الرئيسي. وقد تم الانتهاء من بناء الطابق الأول من المنزل الرئيسي في حياة فولكونسكي. أما الطابق الثاني الذي بُني من الخشب لتخفيض التكلفة فقد أضافه والد

(32) Угрюмый (Ugryumy).

تولستوي عام 1824. وقد بُني المنزل على طراز إمبراطوري كلاسيكي كان محبباً في روسيا في القرن التاسع عشر، وقد احتوى على اثنتين وثلاثين غرفة وواجهة ذات رواق معمّد بثمانية أعمدة.

ومع مرور الأيام ظهر تسعة عشر مبنى على الأرض بُني بعضها من الملاط، كالمنزل الجليدي ومخزن دراسة الحنطة، ولكن بني معظمها من الخشب. وقد أُضيفت تلك المباني إلى مبنى من طراز كلاسيكي كان قائما في الأصل ويُستخدَم لاحتواء معمل سجّاد صغير. بعدها احتوى المبنى نفسه على أسر الخدم وأصبح يعرف بـ«منزل فولكونسكي». وقد انشغل نيكولاي سيرغيفتش به على الدّوام؛ ذلك أنه لم يبنِ المنزل الرئيسي للأسرة فحسب بل بنى الإسطبلات ومنزلا للحوذي ومهاجع للخدم وحماما وبيتا صيفيا. كما بنى أيضا مخزنَيْن شتويّيْن للفواكه، يرتبطان برواق/ دهليز، إذ كان يزرع فواكه مميزة كالبطيخ والبرتقال والمشمش وغيرها. كان ذلك الرّواق/ الدهليز (الذي أُحرق عام 1867) بمثابة الوكر المفضل لدى تولستوي عندما كان طفلا. فكما بيّنت فقرة ملهمة من كتابه «الشباب»، فقد كان يتمتع في الليالي الصيفية بالمبيت في ذلك الرواق حيث يرى الأضواء في البيت الرئيسي يخفت بريقها رويداً رويداً، ويصغي إلى أصوات الليل ويشعر أنه جزء من الطبيعة.

يبدو أن نيكولاي سيرغييفتش كان يتمتع بذوق جمالي مرهف. فقد سجل تولستوي بفخر في مذكراته أن ما بناه والده لم يكن «متيناً ومريحاً فحسب»، بل كان فائق الأناقة أيضا. كما ترك فولكونسكي أيضا بصمته وذوقه الجمالي وفطنته في تصميم المواقع الطبيعية في العزبة. فقد بنى أولاً خندقاً مسلحاً بجدار من الداخل، يحيط بحدود الضيعة وبوابة حديدية على المدخل الأمامي تقع بين برجين هائلين مدوّرين أبيضين. وكان البرجان فارغين من الداخل ليتسنى للحرّاس اللجوء إليهما إبان تقلبات الطقس المزعجة. وتفتح البوابة، وما تزال، على جادة تتسع لمرور الترويكا والعربات الأخرى، وتصطفُّ على جنباتها أشجار البتولا وتصل إلى المنزل

الرئيسي. وقد اشتهرت الجادة باسم «بريسبيكت»[33]، وقد وصف تولستوي جادة مشابهة في روايته الحرب والسلام عندما وصف عزبة بولكونسكي المعروفة بـ«بولد هيلز»[34]، التي تشبه ياسنايا بوليانا في كثير من تفاصيلها.

وقد زرع فولكونسكي العشب أمام المنزل الرئيسي، وشقَّ مسارين تصطف على جوانبهما الأشجار، وتتوازى مع الجادة الرئيسية، وأبقى على حديقة صغيرة ذات طراز فرنسي تحتوي على أشجار ليمون مشذّبة الأغصان. وقد أطلق على الحديقة/ البستان اسم «الأوتاد/ الأسافين»، بسبب وجود شبكة من المسارات تتقاطع فيما بينها فتشكل مربعات ونجوما... إلخ. وامتزجت أصوات العنادل وطيور الأوريول، التي تجتمع على أغصان الأشجار الكثيفة في الحديقة، بصوت الموسيقى التي كان يعزفها خدم فولكونسكي المدرَّبون خصيصاً لهذا الغرض. بحسب تولستوي، كان فولكونسكي يمقت الصّيد ويحبّ النباتات والأزهار والموسيقى، وقد أسّس أوركسترا صغيرة الحجم من الخدم للترفيه عنه وعن ابنته. وتعتبر طموحات فولكونسكي الفنية متواضعة إذا ما قورن بأشخاص كالكونت شيريميتوف، الذي كان يصطحب مغنين وراقصين وموسيقيين ويقوم بترتيب عروض مسرحية كاملة لآخر العروض الأوبرالية الفرنسية، أو الأمير ناريشكن الذي كان لديه ما يكفي من الخدم للعزف على أربعين آلة نفخ موسيقية، يعزف كلٌّ منهم نوتة موسيقية واحدة فقط. ويذكر أن تدريب الخدم على عزف الموسيقى والأداء المسرحي، من قبل الإقطاعيين، كان أمراً شائعاً في روسيا. في يوم من الأيام، وبعد فترة طويلة من وفاة الجدّ، وجد تولستوي بعض المقاعد الخشبية تحيط بشجرة دردار عملاقة في الحديقة؛ المكان الذي كان فولكونسكي يحبّ المشي فيه في ساعات الصباح الأولى على وقع أنغام الموسيقى في الهواء الطلق. وحالما يغادر الأمير فولكونسكي الحديقة تصمت الأوركسترا ويعود الموسيقيون إلى أعمالهم العادية من قبيل غرس الأشجار

---

(33) Прешпект (Preshpekt).

(34) الهضاب الجرداء.

والحفر في الحديقة أو إطعام الخنازير... إلخ. يصف تولستوي في إحدى مسوّدات الحرب والسلام مشهداً يتخلله وقوف ثمانية من الخدم، يعتمرون البواريك، ويرتدون ستراً وجوارب ويقفون على الحصى في منتصف الحديقة، وهم محاطون بأزهار البنفسج والورود الجورية يدوْزنون آلاتهم الموسيقية في السابعة صباحاً، وينتظرون الانطلاق في عزف سيمفونية هايدن في اللحظة التي يعلن فيها بأن سيّدهم قد استيقظ.

وبينما شارف القرن التاسع عشر على الأفول، بدأ شغف الإقطاعيين الرّوس بالحدائق الرسمية، على طراز حدائق لويس الرابع عشر، بالذّبول، وتحوَّل إلى شغف بتنسيق الحدائق تنسيقا «طبيعيا» على الطراز الإنجليزي. وقد شمل نيكولاي سيرغييفتش هذا الشغف. فقد صمم مشروعه التالي لاستحداث «حديقة إنجليزية» أكثر وحشية، وذلك ابتداءً من المعالم المنحدرة من الجزء السفلي من العزبة بجوار أبراج المدخل. كما استحدث فولكونسكي سلسلة من الأحواض المائية زُرعت الورود على ضفافها. استمتع تولستوي بالمشي في هذا الجزء من ياسنايا بوليانا لأنه المكان نفسه الذي كانت أمه تحبّ أن تقضي فيه وقتاً أكثر من غيره. وتخليداً لذكراها، قام تولستوي عام 1898 بإعادة بناء مقصورة الحديقة الصغيرة على السيقان الخشبية، المكان الذي كانت أمه تشاهد من خلاله مرور العربات على الطريق في الخارج. وكانت لاحقا تجلس في المكان نفسه تنتظر قدوم زوجها إلى المنزل. كما قامت ماريا فولكونسكايا بزراعة أشجار الحور الفضية على حواف البركة المتوسطة، وشجر السرو وشجيرات أخرى في الأسفل. في الجانب الآخر من أبراج المدخل نجد الحوض الكبير، وقد أُعطي نصفه تقليديا للاستخدام من قبل الفلاحين المحليين.

أما ما كانت تفتقده العزبة التقليدية في ياسنايا بوليانا فهو وجود كنيسة داخلها. لكن السبب في ذلك ربما هو اعتقاد نيكولاي سيرغييفتش أن بإمكان أسرته الاعتماد على الكنيسة المجاورة الواقعة في أدنى الطريق القريب، وقد نُقلت رفاته إليها عام 1928. ولكن السبب ربما يعود إلى عدم اهتمامه ببناء كنيسة أصلا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه كان معجباً بفولتير وقارئا له كما هو

شأن أقرانه في تلك الفترة. لكن ذلك لم يمنعه أيضا من الاحتفاظ بعشرات الكتب الدينية في مكتبته، ناهيك عن نسخة الإنجيل التي امتدت على عشرين مجلداً، بالإضافة إلى التفاسير المصاحبة التي اصطفت على الرفوف بجانب أعمال راسين، وفيرجيل، ومونتين، وروسو، وهوميروس، وبلوتارخ، وفاساري، الذين يشكلون بعضاً من أعمال مؤلفين كثر جمعهم نيكولاي سيرغييفتش في مكتبته. كما أنه اشترى كتبا عديدة أخرى بغرض تعليم ابنته.

لم تكن العزبة الريفية الروسية تتلخص في كونها مقرا للعائلة ومسرحا للاستعراضات الفنية وخلوة ريفية فحسب، بل كانت مركزاً للإنتاج الزراعي أيضا. وبذلك عزّزت من الطرق الذكورية/ البطريركية التي عرقلت حداثة روسيا؛ لأن الأنشودة الرعوية البسيطة الطبيعية للعزبة الريفية أصبحت ممكنة من قبل الفلاحين الذين أطالوا في أمدها. يُصنَّف فولكونسكي أرستقراطياً متوسطاً وفقاً لثروته من الأنفس؛ إذ كان يملك 159 «نفساً» فقط في ياسنايا بوليانا، لكنه كان ينتمي إلى أغلبية الأرستقراطيين؛ لأن الأرستقراطيين الرّوس الذين كانوا يمتلكون في بداية القرن التاسع عشر أكثر من 500 من الخدم كانوا ثلاثة بالمئة فقط من أصل 900 ألف أرستقراطي. وقد عمل الفلاحون لحساب أسيادهم دون مقابل، وكانوا يعامَلون بإجحاف، لا سيما بعد عام 1762 عندما أُعفي النبلاء الروس من خدمة الدولة. وانتظر الفلاحون قرنا من الزمن قبل أن يُعتقوا عام 1861. وحتى ذلك الحين، لم يكن بمقدورهم التملك أو الزواج من دون إذن أسيادهم الذين كانوا يمتلكون حق معاقبتهم جسديا أو نفيهم إلى سيبيريا بحسب هواهم.

كان ثمة إقطاعيون روس استغلوا سلطاتهم اللامحدودة فعاملوا الفلاحين بوحشية لا نظير لها. لكن نيكولاي فولكونسكي لم يكن واحداً منهم. ورغم أنه، شأنه شأن الإقطاعيين الآخرين، اعتبر ياسنايا بوليانا مملكته الخاصة، إلا أنه، كما يبدو، لم يكن سوى طاغية من العيار المعتدل. فربما كان يُرغم فلاحيه الموسيقيين على العيش في مساكن جماعية مكتظة كما لو أنهم قطعان من الخنازير، إلا أنه لم يكن يضربهم البتة. وربما أنجب عدداً من الأطفال من

خادمته ألكسندرا وأرسل بهم إلى دور الأيتام، لكنه لم يحتفظ بعدد كبير من الحريم كما كان يفعل بعض الإقطاعيين. يتحدث تولستوي مطولا في مذكراته عن علاقة جدّه فولكونسكي بخدمه، الجدّ الذي كان تولستوي يُجلّه إلى درجة التقديس. يشرح تولستوي، على سبيل المثال، في مذكراته كيف بنى جدُّه مساكن طيبة لخدمه، وكيف أنه لم يكن يطمئن على حُسن ملبسهم ومأكلهم فحسب، بل يتأكد من الترفيه عنهم أيضا. كتب تولستوي بناءً على محادثات أجراها مع بعض الفلاحين المعمّرين في العزبة: «كان جدّي يعتبر سيّداً حازماً للغاية، لكنني لم أسمع البتة قصصاً تتحدث عن اتباعه سلوكاً وحشياً أو معاقبته لأحد من فلاحيه، كما جرت العادة في ذلك العصر». لكنه اعترف في الوقت نفسه بأن جدّه ربما كان قد تعدّى الخطوط الحمراء في مناسبات قليلة. ويذكر تولستوي لاحقا في مذكراته تقدير وحب نيكولاي سيرغييفتش لبراسكوفيا آيسايفنا «مدبّرة المنزل»، التي مثّلت «عالماً قديماً سحرياً» في ياسنايا بوليانا. وإذا ما بنى تولستوي، في كتابه «الشباب»، شخصية العجوز ناتاليا سافيشنا على نسق شخصية براسكوفيا آيسايفنا كما يؤكد في مذكراته، فإننا نكتشف أنها وفي مرحلة مبكرة من حياتها، عندما كانت تعمل مربية في منتصف مسارها العملي ابتداءً من كونها خادمة وصولا إلى كونها مربية المنزل، كانت طُردت على يد نيكولاي فولكونسكي من المنزل لتعمل في حظيرة للأبقار في عزبة بعيدة في السهول. وقد كانت جريمتها الوحيدة أنها وقعت في غرام أحد رجال فولكونسكي من الخدم وطلبت من سيّدها أن تتزوَّج بحبيبها. بيد أن براسكوفيا آيسايفنا برهنت أن لا غنى عنها في المنزل، وخلال ستة أشهر أعادها فولكونسكي إلى المنزل على رأس عملها السابق. حينها وقعت على قدمي سيّدها الأمير فولكونسكي وتوسلت منه الغفران.

كانت ماريا فولكونسكايا في السابعة من عمرها عندما أخذها والدها لتعيش في ياسنايا بوليانا التي ستصبح مستقرها لبقية حياتها. وقبل ذلك الوقت كانت ماريا بالكاد تعرف والدها؛ لأنه كان غائباً عنها في الجيش، لكنه بعدئذ فرّغ نفسه لها في سنيْ تقاعده واهتم اهتماماً بالغاً بتعليمها. وقد بيّنت أربعة كتب تعليمية، كان قد كتب محتواها كاتب لفائدة ماريا نيكولايفنا عندما كانت

في عمر المراهقة، أولويات والدها وتوقعاته. درست ماريا إذن الرياضيات وعلم الفلك (أما المرجعيات هنا فهم فيثاغورس وأفلاطون وبطليموس والبابليون القدماء)، وأشكال الحكومات (بما في ذلك الدكتاتورية والملكية والديمقراطية)، والعلوم الكلاسيكية (رسائل بليني الأصغر) والزراعة. كما اهتمت والدة تولستوي بالعالم الطبيعي. وجمعت عام 1821، عندما كانت في الحادية والثلاثين من عمرها، معلومات تفصيلية وصفت من خلالها «بستان ياسنايا بوليانا»، وسمّت كل نوع من أنواع التفاح الستة عشر التي نمَّت فيه. وفي وقت آخر، وصفت ما كان يزهر في ياسنايا بوليانا في يوليو/ تموز؛ كالخشخاش وقرنفل الشاعر وأرومة فيرجينيا ونبات الآذريون والزهر المخملي ونبات العليق.

كما كانت ماريا على معرفة جيّدة بخمس لغات بما في ذلك الروسية، التي لم تكن لغة شائعة في أوساط النساء الروسيّات من الطبقات العليا، اللواتي تحدّثن الفرنسية لغةً أولى. ويسجل تولستوي أيضا في مذكراته أن والدته كانت فنانة بارعة، ولديها حساسية خاصة إزاء الفن والجمال، كما كانت قاصة/ حكواتية بالفطرة. فقد كانت القصص التي تسردها آسرة لدرجة أن الأصدقاء المجتمعين في الحفلات الراقصة كانوا يفضلون الإصغاء إليها عوضاً عن الرقص. وقد دوّنت الكثير من تلك القصص، بما في ذلك القصائد والأغاني الشعرية والمرثيات. وكانت إحدى تلك القصص قصة لم تكتمل سمّتها «باميلا الروسية» أو «لا قواعد من دون استثناءات». وكانت قد استلهمتها من رواية صموئيل ريتشاردسون المشهورة لعام 1740، التي تتحدث عن خادمة تتمتع بفضائل مميزة كوفئت عليها بأن زُوّجت من ابن سيدتها الراحلة. وقد تحدَّثت نسخة ماريا الروسية عن خادمة شابة حُرّرت من ربق العبودية لكي تتزوج خطيبها النبيل الأمير رازومين. وقد طعّمت ماريا شخصية الأمير رازومين (وتعني «عقل») على نحو خفي بسمات من شخصية والدها. فقد وصف بأنه رجل ذو عقل راجح وروح نبيلة، يفرض قواعد صارمة لكن قلبه طيب للغاية. وهو رجل يعرف قدْره تماماً، ويطلب التحلي بالاحترام والتزام الطاعة من خدمه، والتزام معايير سامية من أطفاله، ويعتبر نفسه فوق الآخرين ويفخر

بنسبه وحسبه. وتبدو شخصية الأمير المُسن بولكونسكي في الحرب والسلام شبيهة بهذه الشخصية أيضا رغم وجود فروقات أساسية ومهمة؛ فماريا نيكولايفنا كانت مؤمنة وملتزمة كالأميرة ماريا بولكونسكي في الرواية، لكنها لم تعش في حالة من الشقاق والخلاف مع أبيها وفقًا لمذكراتها ومصادر موثوقة أخرى.

تعتبر المعلومات عن طفولة وفترة مراهقة ماريا نيكولايفنا شحيحة. ولا نعرف شيئا عن بداية فترة بلوغها. وما نعلمه هو أن نيكولاي فولكونسكي أخذ ابنته لتمكث في سانت بطرسبورغ لستة أسابيع عندما كانت في العشرين من عمرها لكي يقدّمها للمجتمع المخملي هناك. وقد احتفظت ماريا بمذكراتها عن تلك الفترة، فوصفت انطباعاتها عن قبور آل رومانوف في كاتدرائية القديس بولس والقديس بطرس. كما سجلت انطباعاتها لدى رؤية لوحات رافائيل وروبنز في المعرض في متحف الأرميتاج[35]، ووصفت أيضا حفلات الباليه. لكن بخلاف ذلك لا نعرف الكثير عن حياتها في تلك الفترة. نزل الوالد وابنته في منزل الأرملة الأميرة فارفارا جوليتسينا، التي كان نيكولاي سيرغييفتش فولكونسكي على علاقة وطيدة بأسرتها. تبادلت الأرملة وضيوفها الصور الشخصية لأفراد الأسرتين، ذلك أن ماريا كانت مخطوبة منذ طفولتها لأحد أبناء آل جوليتسين العشرة، لكن خطيبها توفي بالحمّى قبل موعد الزواج. وقد كان تولستوي موقنًا بأن والدته تملّكها إحساس عميق بالضياع جراء تجربة فقدان خطيبها بعد وفاته. (ويقال إن الخطيب كان يدعى ليف وقد سمّت ماريا ابنها تولستوي على اسم خطيبها، لكن تلك أيضا أسطورة أخرى من أساطير آل تولستوي كان قد صدّقها تولستوي نفسه، بالرغم من عدم وجود شخص يدعى ليف جوليتسين).

أما التعلّق الوجداني الثاني الذي تغلغل في نفس ماريا، فيبدو أنه كان مع صاحبتها الفرنسية لويز إينيسين التي عاشت في ياسنايا بوليانا بين عامي 1819 و1822. ويُذكَر أن ماريا نيكولايفنا كانت قد أظهرت اهتمامًا خاصًا بالعدالة الاجتماعية غير مألوف في تلك الفترة، من خلال

(35) Эрмитаж (Ermitazh).

كتابة قصة تتناول حياة فلاحة تعتق من العبودية. كما كانت قد صادقت أيضا فتاة فلاحة من ياسنايا بوليانا. وبعيد وفاة والدها عام 1821 تسببت ماريا بفضيحة (في عرف الطبقة المخملية) في موسكو، عندما باعت واحدا من عقاراتها ووضعت المبلغ باسم لويز إينيسين. وقد سُلقت ماريا نيكولايفنا حينها بألسنة حداد وأوصاف ازدرائية في رسائل أُرسلت لها؛ كوصفهم إياها بـ«السيدة الكهلة القبيحة»، «ذات الحواجب الكثة العريضة» وغيرها. بعد ذلك سببت ماريا نيكولايفنا فضيحة أخرى عندما رتّبت زواج ابن عمها ميخائيل فولكونسكي بماري، شقيقة صاحبتها الفرنسية. وفي السنة التالية كانت على وشك إهداء عزبتها «أوريول» لماري، لكنها ارتأت أخيراً أن تقدم لزوجها 75 ألف روبل عوضاً عن ذلك. وقد وجد أقرباء ماريا هذا التصرف العنيد المتعمّد أمراً صادماً. لكن ابنها الأصغر تولستوي ربما كان سيوافق على أعمالها الخيرية تلك. فهو بدوره سيتخلى عن جميع ممتلكاته في أواخر حياته.

كان تولستوي طيلة حياته مفتوناً بالتفكير في الأم التي لم يكن يعرفها، وكان إلى حدّ ما راضياً عن عدم وجود صورة واحدة لها. فهو بذلك يستطيع أن يركز على «صورتها الروحية» في ذهنه. أخبرت تولستوي خادمة أمه المسنّة تاتيانا فيليبفنا، بأن والدته كانت رصينة وقورة هادئة متحفظة، لكنها كانت في بعض الأحيان نزقة حادّة المزاج. وقد أثلج صدر تولستوي ما سمعه من أنها كانت تحمرُّ خجلا وتذرف الدموع قبل التفوّه بأي كلمة نابية، رغم أنه لم يكن يصدّق بأنها كانت تعرف أي كلمة قبيحة أصلاً. وكان أيضا يؤمن بأن شقيقه الأكبر نيكولاي ربما ورث أجمل طباعها؛ لا سيما سمة التواضع الشديد وعدم الرغبة في إطلاق الأحكام على الآخرين. في سن الثانية والثلاثين اعتقدت ماريا نيكولايفنا بأنها ربما لن تتزوج أبداً، لكنها قُدّمت من قبل أقرباء لها لتتعرف إلى نيكولاي تولستوي، الذي كان يصغرها بأربع سنوات وكانت تربطها بها قرابة بعيدة (فقد كانت والدة جدتها لأمها «براسكوفايا» والدة عمته). كانت ماريا ثرية، وكان نيكولاي بحاجة للمال. لم يقعا في غرام بعضهما بعضاً لكنهما تزوّجا في يونيو من عام 1822.

الفصل الثاني

طفولة أرستقراطية

«لم يستطع ليفين بالكاد تذكر والدته،

لكن تصوره عنها شكَّل بالنسبة إليه ذكرى مقدسة»

آنا كارينينا،

الجزء الأول- الفصل السابع والعشرون

عندما كان زوّار ياسنايا بوليانا يسألون تولستوي في أواخر حياته عن المكان الذي وُلد فيه، كان يشير أحيانا إلى أعلى نقطة شجرة شربين باسقة نمت بين مجموعة أشجار بالقرب من منزله. لم يكن يعاني من الخرف حينها، ولم يولد بالطبع على رأس شجرة، لكنه كان يشير بالتحديد إلى الموقع السابق لغرفة نوم أمه في الطابق الأول من القصر ذي الأعمدة؛ الذي كان جده نيكولاي فولكونسكي قد شيده منذ زمن وأمضى فيه تولستوي طفولته المبكرة. ورغم أن تلك الفترة كانت أسعد فترات حياته، ورغم تبجيله التعبُّدي تقريبا لأجداده، لا سيما جده لأمه، فإن تولستوي اضطر إلى بيع منزل أجداده عام 1845 بعد تكبده خسارة فادحة في لعب القمار. بيد أن المنزل الرئيسي لم يندثر تماما، ذلك أن أحد الجيران من مُلّاك الأراضي اشتراه وفككه حجرا حجرا، وأعاد بناءه على أرضه التي تبعد 20 ميلا إلى الجنوب من ياسنايا بوليانا. وعندما عاد تولستوي ليستقر في عزبته أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر انتقل إلى أحد الجناحين اللذين كان فولكونسكي الجدّ قد بناهما على جانبي المنزل الرئيسي الذي زرع تولستوي في مكانه الذي أصبح فارغا، أي بين الجناحين، شجر الشربين والقيقب وغيرهما. وبعد عقود، تملكت أولاد تولستوي رغبة جامحة في إعادة منزل أبيهم إلى الوضع الذي كان

عليه في السابق، أي الموقع الأصلي بين الجناحين، إلا أن فكرتهم غير السوية لم تؤتِ أكلَها. وقد قام تولستوي بزيارة المنزل في موقعه الجديد عام 1897، وكان يبلغ من العمر حينها التاسعة والستين. اجتاح رأسه فيض من الذكريات لدى رؤية المنزل، وبينما كان يطوف بين غرفه المتداعية، توقف عند إحدى غرف النوم وقال: «وُلدتُ في هذا المكان»، واستعاد خلالها ذكرى أمه الحنونة، وغاص في ذكريات الطفولة المبكرة الهانئة.

كانت ذكرى أمه تبدو ضبابية بالنسبة له، إذ توفّيت وهو لم يبلغ الثانية من العمر، إلا أن صورتها المثالية لم تفارقه طيلة حياته حتى الرمق الأخير. وقد اعترف لأحد كتّاب سيرته الأولين عام 1906 بأنه يعبد التراب الذي وطأته قدماها من فرط حبه لها، إذ هي في نظره قديسة، ولا يتوقف عن التفكير فيها، وقد بلغ من العمر أرذله، خصوصا عندما كان يمشي بمفرده في ساعات الصباح الأولى في محيط ضيعته. وقد اعترف في مذكراته التي كتبها وهو في السبعين من عمره بأنه كان يصلي لروحها لتساعده على اجتياز المحن عندما كان شابا، لا سيما ما تعلق بالفتن والإغراءات، حتى إنه في الثمانين من عمره ما برح يجهش بالبكاء عندما يأتي على ذكر سيرتها. وفي الأيام التي كان يشعر فيها بالسوداوية والغمّ والتشاؤم في أواخر حياته، كان يتحرق شوقا إلى صدر أمه ويستريح كالطفل في حضنها، تلك الأم التي كانت تمثل بالنسبة إليه أصدق «صورة سامية عن الحب الصافي».

كانت ياسنايا بوليانا قد بدأت تعج بالناس بحلول مولد تولستوي عام 1828، فقد عاشت فيها ماريا نيكولايفنا حياة منعزلة وهادئة في كنف والدها. وبعد زواجها بنيكولاي تولستوي عام 1822، جلب هذا الأخير أفرادا من أسرته الممتدة ليمكثوا معهما، فقد اصطحب أمه بلاغيا نيكولايفنا، وكانت في الستين من عمرها، وشقيقته الشابة ألكسندرا ألينيتشنا (ألين)، وكانت في السابعة والعشرين؛ أي كانت تصغر ماريا الزوجة بخمس سنوات فقط، كما اصطحبت ألين خادمتها باشينكا التي كانت تكبر سيدتها بخمس سنوات، بالإضافة إلى العمة توانيت، «تاتيانا

ألكسندرفنا إيرغولسكايا»[36] (وتُلفَظ يورغيلسكايا) التي كانت تصغر ماريا نيكولايفنا بثلاث سنوات، فقد كانت تبلغ من العمر ثلاثين عاما، وهي قريبة الأب نيكولاي تولستوي؛ إذ إن أباها ابن عم والدته.

شكلت هؤلاء النساء شخصيات مهمة في حياة تولستوي، لا سيما العمة توانيت التي عاشت في ياسنايا بوليانا بعد أن ورثها تولستوي. وقد تُوفِّيَت العمَّة عندما كان في أواخر الأربعينيات من عمره، وقد مثَّلت له سلواناً ورابطاً ثميناً مع ذكرى والديه اللذين فقدهما وهو صغير. ثمة ثلاثة أشخاص آخرين كانوا يعيشون في العزبة قبل ولادة تولستوي وهم إخوته الثلاثة: نيكولاي وسيرغيه وديمتري، المولودين في الأعوام 1823، 1826، 1827، على التوالي.

احتل نيكولاي مكانة خاصة لدى أمه لأنه الابن البكر، وقد سعت جاهدة لأن تغرس في ولدها السمات الأخلاقية الرفيعة، واحتفظت بمذكرة دونت فيها بالتفصيل تجليات سلوكه منذ أن بلغ الرابعة، وعبَّرت في بعض الفقرات عن استيائها عند ملاحظتها إشارات أولية أظهر فيها ابنها البكر جُبنا أو كسلا. وقد شجبت أيضا تجليات فرط الحساسية التي كان يُظهرها عندما كان مثلا يذرف الدموع، بعد أن يقرأ عن عصفور أصيب أو ترتعد فرائصه لدى رؤية صرصار أو ما شابه. أرادت ماريا نيكولايفنا أن يكون ابنها نيكولاي شجاعا وطنيا يتحلّى برباطة الجأش، وسمحت له أن يتمختر بسيفٍ يحمله جائزةً لسلوكه الحسن، بالإضافة إلى أنها كانت دائما ما تحذره من الوقوع في آفات الغرور والكبرياء والصَلَف. وقد قال فيه تورغينيف بعد أن تصادقا بعد تلك الفترة بسنوات، بأنه وبخلاف أخيه الأصغر ليف، لا يحوز على ذرة من الكبرياء التي يحتاجها أي امرئ يريد أن يصبح كاتبا.

وعندما ولد ليف في الثامن والعشرين من عام 1828، احتلَّ مكانة أخيه نيكولاي فأصبح محط رعاية ورحمة وشفقة أمه لأنه آخر العنقود، بحسب ما قالت العمة توانيت. وقد لقبته أمه بـ«بنيامين الصغير»، لكنها عمّدتْهُ باسم ليف، وهو الاسم الروسي المشتق من ليو (أو أسد

(36) Татьяна Александровна Ергольская (Tatyana Alexandrova Ergolskaya).

بالعربية). فبخلاف أبيها، كانت ماريا متدينة جدا، وكانت تفكر مليا عند اختيار أسماء أولادها، وبعد ولادة المولود الخامس والأخير خصصت أيقونة صغيرة نقشت عليها صور أصحاب الأسماء الأصلية الذين تيمَّنت بهم في تسمية أولادها، وهكذا نقشت صورة القديس العظيم ليو أسفل الزاوية اليمنى من الأيقونة. ويبدو أن ذلك الاسم المسيحي قد اختير بعناية بالفعل، فالقديس المذكور يعود إلى القرن الخامس (وهو أحد البابوين الاثنين فقط اللذين لُقبا بالعظيمين)، وينتمي إلى أسرة نبيلة ويتحلّى بشجاعة تثير الدهشة. فقد شاع أن البابا ليو خرج من أسوار روما لمواجهة أتيلا الهوني وأقنعه بالعدول عن فكرة غزو أوروبا، كما اشتهر تولستوي بالشجاعة أثناء المعارك في الجيش، ويُحكى أنه صارع دبا في إحدى رحلات الصيد، بالإضافة إلى مشاطرته عشق الأدب والبراعة فيه مع البابا المذكور الذي أسس لأسلوب نثري غدا مؤثرا في الكتابة اللاتينية يعرف بـ cursus leonicus، أو أسلوب ليونيكوس الانسيابي التسلسلي.

ربما كانت ماريا تفكّر في القديس الأرثوذكسي ليو الكاتاني أو القطاني عندما أسمت ابنها الأصغر، وقد أظهر ليو تولستوي سمات مشتركة مع هذا القديس أكثر من غيره، وقد يختلط على الناس التفريق بين القديسين، لكن يبدو أن هذا الأخير يعرفه الروس أكثر مما يعرفون القديس الأول بحسب الفولكلور الروسي، فمن الشائع مثلا أن يُحظَر على المرء النظر إلى الشُّهب في السماء يوم القديس ليو القطاني. ويربط الفلاحون اسم ليف كاتانسكي (القطاني) مع الفعل الروسي «كاتات» الذي معناه أن يتقدم بسلاسة. كان القدّيس ليو القطاني أسقفا ينحدر من أسرة نبيلة من منطقة رافينا، لكنه اختار ألا ينعم بثرائه، بل أفنى حياته في الدعوة إلى المسيحية وخدمة الفقراء، وكان معروفا بإحسانه للحجاج والمتسولين على وجه الخصوص. وقد سارت حياة تولستوي بنمط مشابه، فشأنه شأن ليو الأسقف كان تولستوي قد دخل في صراع مباشر مع الحكومة. وبينما كان القديس ليو قد اضطُّهد من قِبل السلطات الإكليروسية، إبان الإمبراطورية البيزنطية في القرن الثامن الميلادي بسبب معارضته الشديدة لتحطيم الصور والتماثيل

والأيقونات المقدسة؛ خلال فترة ما عرف بفتنة الأيقونات المقدسة أو الثورة على التقليد، فإن ليف تولستوي أصبح نقمة على السلطات الروسية بسبب تمرده على التقاليد الدينية ومحاربته للأيقونات المقدسة، وعدم احترامه للسلطات الحاكمة، لا سيما تقليله من شأن الكنيسة الأرثوذكسية. ومما يثير الاهتمام معارضة الرجلين في أواخر حياتهما من قبل مرتدين يسمون الهيليودوريين (إليودور[37] بالروسية) تسببوا بفضائح كبيرة، فخصوم القديس ليو حاولوا اجتذاب المسيحيين بعيدا عنه بمساعدة حركات باطنية خلسة. أما الراهب المرتد الروسي إليودور فقد اعتبر تولستوي شيطانا بثوب بشر، لكنه تاب لاحقا وغيَّر رأيه. ومن اللافت أن تولستوي بدأ بتأليف قصة أسماها «الأب إليودور» عام 1909 في أواخر حياته في الفترة التي كان فيها الراهب إليودور يسبب له مشاكل جمة.

ولد تولستوي في اليوم الثامن عشر من الشهر الثامن سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف فأصبح الرقم 28 رقم حظه. وعندما بلغ رشده أصبح متطيرا يؤمن بخرافات تتعلق بالرقم 28 وغيرها، لدرجة أنه أمر زوجته عام 1863 أن تؤخر ولادتها وتتحمل المخاض لما بعد الثانية عشرة ليولد مولوده الأول سيرغيه في تاريخ الـ 28 من يونيو. وقد سُرّ أيضا عندما اكتشف أن الرقم 28 ذو دلالة رياضية مميزة؛ إذ يعتبر الرقم «المثالي» الثاني (وهو أيضا أحد الأرقام السحرية السبعة في الفيزياء). كان أيضا يفتح كتب الشعر ويقرأ من الصفحة 28، بالإضافة إلى أنه كان يُعبّئ ساعته 28 مرة، وقد نسج الرقم 28 في بعض رواياته وأضفى عليه رمزية لا سيما في روايته الأخيرة «البعث»، فقد أنهاها في الفصل الثامن والعشرين في جزئها الثالث، وقبل اتخاذ أي قرار كان تولستوي يرمي بقطعة نقود معدنية على الأرض الخشبية في عزبته، ويتفاءل أو يتشاءم بحسب عدد المربعات الخشبية التي تسقط عليها القطعة المعدنية (فردي أو زوجي). ولم يكن من باب الصدفة أنه غادر ياسنايا بوليانا للمرة الأخيرة في نهاية عمره في الـ 28 من

(37) Илиодор (Iliodor).

أكتوبر/ تشرين الأول (وقد توفي عن عمر ناهز 82). أما سمة الإيمان بالخرافات في شخصيته فيعتقد أنه ورثها من جدته بلاغيا نيكولايفنا، رغم أنه من الغرابة أن نجد سمة كهذه لدى شخص كان يفتخر بعقلانية فكره.

كان أيضا ميالا إلى الإيمان بالخرافات المتعلقة بالأشياء المادية؛ كالأريكة الجلدية القديمة التي وُلد عليها والتي صنعها خدم الأمير العجوز فولونسكي، وقد أُخذت بعدها من مكتب نيكولاي إيليتش الأب وحُملت عبر السلالم إلى غرفة نوم زوجته ماريا نيكولايفنا في زاوية المنزل حيث ولد عليها الأولاد الخمسة جميعا، حتى إن أولاد تولستوي نفسه ولدوا عليها ناهيك عن اثنين من أحفاده (فبعد موت خمسة من أطفالها وقت الولادة أنجبت ابنته البكر تانيا حفيدته المفضلة عام 1905 وقد أسمتها تانيا أيضا). كانت الأريكة معلما دائما، بالإضافة إلى مكتبه، ضمن الأثاث في أربع غرف مختلفة استخدمها تولستوي للعمل في فترات مختلفة من حياته في ياسنايا بوليانا، بالإضافة إلى عرضها في رواياته أيضا، فأريكة شبيهة لها تماما تستخرج من مكتب الأمير أندريه ليولد ابنه عليها في رواية الحرب والسلام. وفي إحدى مسودات آنا كارينينا يأتي تولستوي على ذكر الأريكة كتركة ذات قيمة من إرث عائلة ليفين.

يستذكر تولستوي كيف كان يُقمَّط بحزم وهو طفل، وكيف كان يصرخ لعدم قدرته على تحرير ذراعيه من القماط. كتب في مذكراته التي بدأها في الخمسين: «أشفقت على نفسي وشعرت بالظلم والقسوة ليس من قبل الناس، فهم كانوا يشفقون علي، بل من وحشية وظلم القدر».

لم يكن تولستوي على يقين إن كانت تلك الذكرى -المتمثلة بتعقيدات وتضارب مشاعره عوضا عن صراخه وعذابه- ليست مركبة من انطباعات عديدة، لكنه كان على يقين أنها مثلت «الانطباع القوي الأول» لحياته. زعم تولستوي أيضا -وربما لنا أن نشك في ذلك- أنه يذكر «جسده الصغير النحيل» ومرضعته أفدوتيا نيكيفورفنا تحممه في حوض خشبي، وهي فلاحة كانت مخطوبة في القرية. يذكر أيضا وهو في الرابعة كيف كان يستلقي في سرير طفل وبجانبه

شقيقته ماريا، حينها كانت أمه قد توفيت، لكننا نتأسف على عدم إتمامه تلك المذكرات التي أسماها مؤقتا «حياتي»، إذ تلاشت الذكريات بعد كتابة الصفحات الأولى فقط، وقد حصل الشيء نفسه للمذكرات التي بدأها بعد ربع قرن والتي غطت طفولته المبكرة فقط.

توفيت ماريا نيكولايفنا عام 1830 بعد وقت قصير من إنجابها للمولود الخامس والأخير ماريا. وقد مضى على زواجها ثماني سنوات أمضتها في ياسنايا بوليانا بهدوء وسكينة. وكما يستذكر تولستوي في مذكراته، فإن فترة حياة أمه كانت سعيدة هانئة، فقد كانت تمضي نهارها في رعاية الأطفال، وأمسياتها في القراءة جهرا لحماتها، لكن فردا من أسرتها لم تكن تراه كثيرا، ألا وهو زوجها الذي كان منهمكا في متابعة قضايا قانونية متعلقة بالشؤون المالية الكارثية لأبيه الراحل (جد تولستوي)، وبالتالي كان يغيب عن المنزل لفترات طويلة. لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لها، فقد كانت تجلس لساعات في مقصورة الحديقة في زاوية العزبة تنتظر عودته. وقد اضطر الزوج إلى إرسال رسائل لها ليطمئنها بأنه لم ولن ينساها. وقد كتب في إحداها: «صديقتي اللطيفة، أنهيت رسالتك الأخيرة بالطلب مني ألّا أنساكِ، لقد فقدتِ صوابكِ، هل أستطيع أن أنسى المرأة التي تمثل الجزء الأكثر نبلاً في حياتي؟!». لكن حتى عندما كان نيكولاي إيليتش موجودا في المنزل، كان في معظم الأحيان يذهب للصيد أو يذهب سراً ليلتقي ببعض النساء، بحسب مزاعم. غير أنه من المؤكد أن نيكولاي إيليتش ارتبط بعلاقة رومانسية إلى حد ما مع إحدى الجارات بعد وفاة زوجته، إلا أنه كان زوجا صالحا بكل المقاييس وأباً ذا ضمير حي متفانياً في تربية أولاده.

يتذكر تولستوي أباه جيدا رغم أنه توفي وهو لا يزال صغيرا، فقد كان الوالد أهم شخص في حياة تولستوي في فترة طفولته. كما اعترف لاحقا بأنه لم يكن يدرك مدى الحب الذي كان يكنه له سوى بعد مماته. يصف تولستوي أباه برجل متوسط القامة ذي بنيان متين ومعالم وسيمة، أشقر متورد الوجه لكنه ذو عينين حزينتين على الدوام. أحبه أولاده لأنه كان يقص عليهم قصصا مضحكة مشوقة ويرسم لهم صورا ساحرة أخاذة. كان الأب ذا شخصية كاريزمية ذات

تجليات جذابة متنوعة، لكن ما أحبه فيه تولستوي على وجه الخصوص روحه المستقلة واعتزازه الجلي بكرامته الفردية.

كان نيكولاي إيليتش رجلا مهذبا ذا أخلاق عالية، وكان بلا شك أكثر رفقا بخدمه مما كان عليه صاحب ياسنايا بوليانا السابق، الأمير فولكونسكي، فنيكولاي لم يلجأ إلا نادراً إلى العقاب الجسدي بخلاف كثير من النبلاء الساديين الروس في ذلك الوقت، وقد كان قارئاً نهماً أيضاً، فقد أضاف إلى المكتبة التي سيرثها ابنه الأصغر لاحقا، كتبا قيمة عديدة من الأدب الكلاسيكي الفرنسي وتاريخ الطبيعة.

أخبرت عمات تولستوي لاحقا أن أباه لم يكن يشتري كتبا جديدة قبل أن يفرغ أولا من قراءة الكتب التي بحوزته، لكن تولستوي كان يشك في أن أباه قد غربل تلك المجلدات الفرنسية القديمة المغبرّة التي تتحدث عن تاريخ الحملات الصليبية. كان نيكولاي إيليتش فنانا موهوبا أيضا؛ إذ قام برسم العديد من اللوحات المائية الرائعة لمناظر طبيعية ريفية شاعرية ورسومات أخرى استخدم في رسمها الحبر، لا سيما لوحة فارس بشكيري مِقدام في زيه القومي يحمل قوسا ونشابا.

عشق تولستوي الذكريات التي جمعته بأبيه على غرار تلك التي كان يقص عليه فيها نكات مسلية على طاولة العشاء، أو عندما يسمح له بالجلوس إلى جانبه على الأريكة الجلدية الأسطورية في مكتبه وهو يدخن الغليون.

ويذكر أن الأب كان قد انبهر في مناسبة ما بالطريقة التي قرأ عليه فيها ابنه الأصغر قصيدة بوشكين «إلى البحر»؛ التي حفظها عن ظهر قلب. وكان بوشكين قد كتب القصيدة عام 1824 وهو في إجازة جنوب البلاد بعد فترة نفيه، وعندما قرأ تولستوي القصيدة بعد عقد من كتابتها كانت تفصله سنوات قليلة فقط عن مقتل بوشكين عام 1837 في مبارزة. إلا أن البيئة البحرية والمناطق الساحلية ربما لم تكن تستهوي تولستوي؛ لأنه عاش في وسط روسيا معظم حياته بعيدا عن المياه المالحة. وربما لم يتفهم تولستوي لاحقا مشاعر بوشكين في آخر مقطع شعري

له في هذه القصيدة، إذ تحدث عن جلبة جرف البحر وتجاويف منحدرات شواطئه وكهوفها، وصوت أمواجه إلى غابات وبراري روسيا الصامتة. لكن تولستوي، كتعويض ربما عن عدم رؤيته المحيطات، ذرف بحاراً من الدموع المالحة خلال حياته الطويلة لدى سماعه الموسيقى أو قصص المعاناة والعذابات، وقد لاحظ الأب رقة مشاعر ابنه منذ أن كان طفلا، تلك المشاعر التي جعلته عرضة للتأثر والبكاء السريع، ولا غرابة أن يُلقَّب ليف الصبي بـ«لفوفا-ريوفا» أو «لفوفا البكّاء».

راق لتولستوي وهو طفل مظهر أبيه وهو يرتدي ملابس أنيقة ويستعد للقيام برحلاته في البلدة، لكن أكثر اللحظات التي كان يستذكرها كانت عندما يذهب بصحبته إلى الصيد، فالأب كان متيما بالصيد بشكليه: الرماية واستخدام كلاب الصيد، ويصطحب في رحلاته أعز خادمين عنده، الأخوين بيتروشا وماتيوشا[38]. وشأنه شأن أقرانه، كان نيكولاي يعتبر الصيد بمثابة القتال في حرب يُظهر فيه المرء شجاعته وتعاونه مع رفقاء السلاح (الصيادين)؛ لذلك عكف على تدريب أبنائه على الصيد منذ أن كانوا صغارا، فقد آمن بأهمية أن يبدأ أبناؤه تعلُّم مظاهر الرجولة الحقَّة منذ الصغر. وهكذا أعطى لكل واحد منهم جوادا صغيرا. كان تولستوي في سن متقدمة يستذكر بحنان ذكرياته مع أبيه بينما كانا يتمشيان في المرج بصحبة جراء البورزوي المفضلة لديه وهي تلعب وتدور حولهما. وهكذا أصبح تولستوي نفسه صيادا شغوفا بالصيد وفنونه (فمشهد الصيد الذي أدرجه في روايته الحرب والسلام كان قد كتبه باحترافية وشغف وحب). وقد استغرق التخلي عن تلك الهواية التي كانت تتعارض مع مبادئه الأخلاقية والدينية، بعد اجتيازه أزمته الروحانية وقتا طويلا، لكنه لم يتخل مطلقا عن صهوة جواده وحبه للخيول الذي يتجلى في وصفه التفصيلي لحصان فرونسكي فرو-فرو في رواية آنا كارينينا، وقصة «الذراع»

(38) Петрушка и Матюша (Petrushka and Matyusha).

Kholstomer[39] الرائعة التي بدأها في الستينيات من القرن الـ 19، وراجعها لاحقا، وهي القصة التي سردها على لسان حصان.

كانت إذن أوضح ذكريات تولستوي ذكريات الصيد مع الأب، لكن الأقرب منها إلى قلبه كانت عندما كان يرى أباه جالسا إلى جانب جدته على الأريكة يساعدها في توزيع أوراق اللعب، بينما كانت في بعض الأحيان تتناول قليلا من الساعوط من علبة النشوق الذهبية. أما العمّات فكنَّ يجلسن على الكراسي بالجوار وتقرأ إحداهن، بينما يجلس على كرسي آخر جرو الوالد المفضل ميلكا يغط في نوم عميق، أو يراقب الجميع بعيونه السوداء الجميلة (وقد أدخل الجرو أيضا في رواية الحرب والسلام). يتذكر تولستوي إحدى تلك الأمسيات التي عمد فيها الأب إلى مقاطعة العمة التي كانت تقرأ جهراً، وأشار إلى مرآة على الجدار، فرأى الجميع الخادم تيخون يتسلل بخفة إلى مكتب الأب على رؤوس أصابع قدميه ويعود سارقا التبغ من محفظته الجلدية، وقد وجد الأب ذلك المشهد مضحكا جدا.

كان نيكولاي إيليتش رجلا منشغلا يعمل بكد ليستعيد ثروة العائلة، وقد برهن أن لديه فطنة في عالم المال والأعمال أفضل من أبيه عاثر الحظ. وقد ورث أولاده تركة تفوق بكثير مَهر والدتهم الراحلة، فقد كان يملك عام 1832 نحو 793 ذكرا و800 أنثى من أقنان الأرض، بما في ذلك 219 خادما يعملون في عزبته ياسنايا بوليانا وفي ضيعة أخرى. وقد سُرَّ كثيرا عندما استطاع استعادة ضيعة نيكولسكوي-فيازيمسكوي أحد أملاك أمه التي كانت مرهونة في السابق، وقد ورثها تولستوي لاحقا مع أخيه نيكولاي. كما استطاع الأب أيضا أن يشتري عام 1837 عزبة كبيرة بالقرب من ياسنايا بوليانا كانت تدعى بيراغوفا مع 472 من أقنان الأرض، وقد ورثها لاحقا سيرغيه وماريا.

(39) Холстомер.

كان الأب بالإضافة إلى مشاغله الأخرى يدير ياسنايا بوليانا خلفا للأمير فولكونسكي، وقد أراد أن يبني منزلا رئيسيا يجمع أفراد الأسرة الذين ازداد عددهم. وهكذا أنفق 2000 روبل على بناء طابق ثان أكثر بساطة من الطابق الأول، وقد صَمَّمَ في وسطه غرفا بأرضيات خشبية وسُقُف عالية سمحت باستحداث طابق متوسط بغرف جانبية، ما جعل المنزل يبدو متألفا من ثلاثة طوابق، وعندما انتهى من البناء أصبح المنزل يتسع بالفعل للأب والأم والأولاد الخمسة والعمتين وخادمة العمة باشينكا، ومدرس الأطفال فيودور إيفانوفيتش، وإفدوكيا (دونيشكا)[40].

تيمياشيفا ذات النمش، البنت غير الشرعية لجار من ملاك الأراضي كان قد أقام علاقة مع خادمة عنده، إضافة إلى مربية دونيشكا فارعة القامة، المسنة إفبراكسيا. كانت دونيشكا تبلغ من العمر خمس سنوات عندما وصلت إلى ياسنايا بوليانا عام 1833 (كان تولستوي حينها في السن نفسه)، وقد ترعرعت مع بقية أفراد الأسرة وفقا لصفقات عقارية معقدة تخص عزبة بيراغوفا. وصف تولستوي دونيشكا لاحقا بأنها فتاة لطيفة عفوية لم تكن تتمتع بعقل وافر، وكانت تبكي كثيرا ولكنها كانت على علاقة طيبة مع بقية أفراد الأسرة.

لم يعش تولستوي بمعزل عن الناس في طفولته المبكرة، فمن ضمن البالغين من حوله في ياسنايا بوليانا، شكلت الجدّة والعمّتان شخصيات مهمة للغاية في حياته المبكرة، وعاشت الجدة البابوشكا بلاغيا نيكولايفنا حياة مرفهة لم تنزع إلى التخلي عنها رغم الضائقة التي مرّت بها الأسرة، فالجدة مرّت بمراحل دلال ثلاث: أولها على يد أبيها، ثم على يد زوجها وأخيرا على يد ابنها نيكولاي إيليتش، وهكذا غدت مستبدة ونزقة في آخر حياتها، وكان جميع أفراد الأسرة لا يدخرون جهدا لإرضائها، ويلجؤون إلى مختلف السبل لإسعادها بسبب مكانتها المرموقة في العائلة، غير أن البابوشكا استغلت مكانتها لتعذيب وإرهاق خادمتها أغافيا

(40) Дунечка (Dunechka).

ميخائيلوفنا[41]، التي تحملت ذلك لأنها كانت تفخر بتسميتها «الوصيفة» أو خادمة الملكة. كانت أغافيا ميخائيلوفنا شخصية محبوبة في أسرة تولستوي في فترة نشأة الأولاد. وقد أشار إليها تولستوي في مذكراته وقال إنها أصبحت حين تقدَّم بها العمر نزقة متطلبة شأنها شأن الجدة، ربما سرت عدوى الجدة في أوصالها، يقول تولستوي متندراً.

كان تولستوي يتذكر جدته جيدا، فهي لم تكن على علاقة ودودة بأمه ماريا نيكولايفنا التي اعتبرتها غير خليقة بالزواج من ابنها الذي كانت تعشق الأرض التي يمشي عليها، لكن الجدة كانت متيمة بأولادهما، فقد كانوا يتمتعون بخفة الدم وروح الدعابة. وقد احتفظ تولستوي ببعض الذكريات فقط عن جدته في فترة طفولته المبكرة، لكنها كانت ذكريات واضحة وجلية، أولها كانت فقاعات الصابون العظيمة التي كانت تصدرها بينما تغتسل صباحا. كانت تلك الفقاعات بالنسبة للأولاد أمرا آسرا لدرجة أنهم كانوا يذهبون إلى غرفة جدتهم في بعض الأحيان ليتابعوا طقوس اغتسالها والفقاعات المصاحبة. أما صورة بلوزتها وتنورتها البيضاوين وذراعيها المترهلتين البيضاوين ووجها الأبيض المنير، فهي صورة مطبوعة في رأس تولستوي إلى الأبد. وللمصادفة، فقد لُقب تولستوي أيضا بـ«ليفكا الفقاعة» لأنه كان في صغره مكتنزا مدور الشكل كالفقاعة.

تذكر تولستوي أيضا رحلة ساحرة في يوم حار إلى الغابة لجمع البندق، وقد نُقلت الجدة حينها في عربة حنطور لا تجرها خيل؛ بل يجرها خادما الأب بيتروشا وماتيوشا اللذين كانا يلويان أغصان الشجر ويقربانها إليها ليتسنى لها جمع البندق. أما العربة الصفراء ذات الزنبركات الطويلة فقد استُخدمت هي الأخرى لاحقا في الرحلات الصيفية إلى البيت الخشبي الصغير الذي بنى مظلاته سيرغيه فولكونسكي في «غرومنت»[42]، حيث الإطلالة الخلابة على

(41) Агафья михайловна (Afafya Mikhailova).

(42) منطقة في النرويج حالياً (المترجم).

نهر فورونكا الذي يشق طريقه بين المروج من جهة والغابات من جهة أخرى. وفي الجوار بستان ونبع مياه عذبة كان آل تولستوي ينهلون منه ويحملون كميات كبيرة منه معهم إلى ياسنايا بوليانا يوميا. ثمة أيضا بركة عميقة ريانة بسمك التِّنش والمرجان والشبوط والفرخ والحفش كان يصطاد فيها الأولاد ومعلّمهم. أما الجدة بيلاغيا نيكولايفنا فلم تكن لديها رغبة جامحة لتتسلى مع مربية الماشية ماتريونا وهي ترتدي ثيابا رثة، لذلك لم تكن تذهب مع الأولاد في تلك الرحلات، بعكس الأولاد الذين كانوا يحبّون الأمسيات التي تجمعهم بماتريونا وابنتها وأطفال الفلاحين، فقد كانوا يضيّفونهم قطعا كبيرة من الخبز الأسمر والحليب الطازج من ضرع البقرة مباشرة، وقد أحب الأولاد أن يُحاطوا بالماشية والدجاج ومجموعات من كلاب القرية التي كانت تجتمع حول «بيرثا»، كلب المدرس الأيرلندي.

أما الذكريات الأكثر وضوحا في ذاكرة تولستوي، فهي جائزة تمضية ليلة في غرفة نومها مع ليف ستيبانيتش القاص الأعمى. ففي روسيا ما قبل منع الرق كان من الشائع أن يمتهن بعض الخدم مهنة قص الحكايات، وهؤلاء كانوا يباعون ويشترون من قبل النبلاء كما تباع قطع الأثاث وتشترى. أما ليف ستيبانيتش فقد اشتراه زوج الجدة كهدية لها، وبذلك أتي به إلى ياسنايا بوليانا مع بقية خدمها. كان ليف ستيبانيتش أعمى وقد طور ذاكرة حديدية استثنائية، إذ كان يستطيع استذكار أي قصةٍ قُرِئت عليه مرتين كلمة بكلمة.

يتذكر تولستوي أن ليف ستيبانيتش كان يعيش في مكان ما في البيت الرئيسي، لكنه لم يكن يظهر سوى في المساء، ويصعد إلى غرفة نوم الجدة في الطابق العلوي ويستعد لسرد قصة الليلة. يجلس مرتديا معطفه الأزرق الطويل ذا الذيل والأكمام الواسعة على عتبة النافذة ينتظر خلود الجدة إلى سريرها ويتناول عشاءه في الأثناء. وبما أنه فاقد بصره بشكل كلي فقد كانت الجدة تغير ملابسها أمامه دون حرج، بعدها تصعد هي وحفيد من أحفادها إلى السرير لينعما بدفء المكان ويستمعا إلى قصة الليلة. يتذكر تولستوي بجلاء اللحظة التي تنطفئ فيها الشمعة في غرفة نوم جدته، والضوء الخافت المنبعث من قنديل صغير تحت الأيقونات في الزاوية. ويرى

حينها الجانب المعتم من وجهها النيّر يغوص في كومة من الوسادات، مشهد يملؤه النور المنبعث من وجه الجدة وملابسها البيضاء والقبعة التي تعتمرها الآن للنوم. وبأمر منها ينطلق صوت ليف ستيبانتش الهادئ المتوازن ليسرد قصة أخاذة. وقد تذكَّرَ تولستوي تلك الليلة التي سرد فيها ستيبانتش قصة من قصص شهرزاد من الكتاب العربي ألف ليلة وليلة، لم يفهم ليف الصغير تفاصيل القصة لكنه كان مأسورا برؤية ظل جانب وجه جدته وهو يرتعش على الجدار.

لم تختلف العمة ألين كثيرا عن أمها بلاغيا نيكولايفنا؛ التي استمرت بالتصرف كالسيدة العظيمة الأولى في أواخر حياتها إبان مرحلة الخرف الشيخوخي كما كانت في شبابها. كانت العمة ألين، اللبقة اللطيفة البهية الجميلة ذات العيون الزرقاء الحالمة والبشرة البيضاء الناعمة، مولعة بالقراءة وماهرة في العزف على القيثارة. وقد لاقت نجاحات باهرة في مجتمع بطرسبورغ المخملي عندما بزغ نجمها في سن التاسعة عشر عام 1814، بعد زواجها من الكارل فون أوستن سيكن، وهو ابن سفير ساكسونيا لدى روسيا. وهو الزواج الذي ظن الجميع حينها أنه يمثل انسجاما واتساقا تامين بين الزوجين. غادر الزوجان الشابان بعد الزفاف مباشرة إلى عزبة عائلة الزوج في البلطيق، لكن بعد سنة من الزواج ظهرت علامات اختلال عقلي خطيرة على الزوج. يقص علينا تولستوي قصة مشوقة في مذكراته عن حادثة يطلق فيها الكونت المختل فون أوستن النار على زوجته الحامل من مسافة قريبة قبل أن يودع المصحة العقلية إلى الأبد.

تعافت ألين لكن التجربة الصادمة خلَّفت أثرا عميقا فيها (يُذكَر أنها أظهرت لتولستوي بعد سنوات عدة الندبة التي خلَّفتها الطلقة)، عادت بعد تلك الحادثة إلى بطرسبورغ وأنجبت مولودا ميتًا (مليصا)، وبما أن الأسرة خافت على صحتها العقلية بعد موت المولود، ارتأت حينها أن تعوّض فقيدها بمولود آخر (ابنة أحد الخدم كانت قد ولدت في وقت متزامن) لخادمة كانت زوجة طاهٍ يعمل في العزبة، وكان اسم المولودة بلاغيا إيفانوفنا ناستاسينا، المعروفة باشينكا؛ الفتاة التي ربتها العمة كطفلتها. وقد استنسخ تولستوي هذه الحادثة ووظَّفها في الجزء الثاني من آنا كارنينا؛ إذ تتعرف كيتي في أحد الحمامات الألمانية على فتاة روسية تدعى فارينكا

تشبهها كثيرا. كانت باشينكا تكبر تولستوي بعشر سنوات وكانت مريضة، وقد توفيت لاحقا بمرض السل. ويبدو أن تولستوي، الذي كان قد وصفها بالفتاة الخجولة الشاحبة الهادئة، لم يشعر هو أو إخوته أو أخته بأن باشينكا كانت بالفعل قريبة لهم، لكن باشينكا تظهر في قائمة في مذكرات تولستوي لأولئك الذين أحبَّهم حبًا جمًا في طفولته.

كانت العمة ألين تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما عند ولادة تولستوي، عندها كانت قد أصبحت من التقيات القانتات المحسنات، أما تولستوي الذي سلك مسلك الإحسان في حقبة متأخرة من حياته فتبرع بالمال وبذل طاقة وجهودا مضنية في مساعدة الآخرين وغيرها من أوجه الإحسان، فجزء لا بأس به من نزعة الإحسان لديه مرده إلى نشأته الأولى مع العمة ألين التي حولت المبادئ المسيحية النظرية إلى أفعال خير دأبت عليها، فلم تكن تُمضي وقتها في الصلاة أو الصيام أو قراءة سير القديسين أو زيارة الأديرة فحسب، لكنها كالأميرة ماريا في الحرب والسلام، سعت إلى صحبة الرهبان والراهبات والسواح المتدينين والمتسولين والدراويش الذين زار بعضهم ياسنايا بوليانا، ومكث بعضهم الآخر فيها؛ كماريا جيراسيموفا وهي من الدراويش، وقد أمضت شبابها هائمة سائحة في روسيا وهي ترتدي ملابس الرجال وتُلقِّب نفسها بـ«إيفان الدرويش»، وهو شخصية مشهورة في قصص الفولكلور الروسي.

ويذكر أن والدة تولستوي كانت على وشك إنجاب الطفل الخامس، فاستدعت عندها ماريا جيراسيموفا[43] لتصلي وتتضرع لله لكي يرزقها بنتا. وبعد أن ولدت الطفلة ماشا أصبحت ماريا جيراسيموفا أمها الروحية، وغدت شخصية مشهورة تعيش في كنف آل تولستوي. كان ثمة أيضا البستاني الساذج المؤمن البسيط «أكيم»، الذي اعتبره الأولاد شبه درويش آخر يعيش بينهم، إذ كانوا يمرون به قائما يصلي في الغرفة الرئيسية في المنزل الصيفي الواقع بين أشجار البرتقال من الطرفين، ويخاطب الله جهرا بصوت عال ويدعوه بالشافي وكأنه يقف أمامه.

---

(43) Герасимова.

كانت العمة ألين تتصدق بمالها وتعطيه للفقراء، وقد حافظت على حمية بسيطة ولم تكترث بمظهرها الخارجي لدرجة أنها كانت تبدو شعثة مغبرة. وقد عبر تولستوي عن ذلك في مذكراته ونوَّهَ بألم إلى الرائحة النتنة التي كانت تنبعث منها، ولكنه كان في الوقت نفسه يستذكر ضحكتها العفوية الرائعة والتعبير اللطيف لوجهها المنير، وكيف أنها كانت طيبة ودودة مع جميع الناس بصرف النظر عن خلفياتهم، وهذا ما ترك أثرا طيبا في نفس تولستوي الفتى. ويجدر القول إن العمة ألين كانت قد تركت الوقع الأعمق على شخصية ابن أخيها من حيث لا يدري.

لعبت ألين دورا مهما في تكوين شخصية تولستوي رغم أنه كان أقرب إلى العمة توانيت منه إلى ألين، توانيت التي ترعرعت طفلةً يتيمةً في كنف جد تولستوي وجدته. لاحظ تولستوي أن العمة توانيت كانت بلا ريب شابة حسناء بشعرها الأسود الكث المتموج المربوط بحزم في ضفيرة كثيفة، وبعينيها الواسعتين السوداوين وتعبير وجهها الحيوي المرح، وقد تساءل تولستوي باستمرار عما إذا كانت توانيت جميلة في نظره كفتى، لكنه كان يحب كل شيء يمت لها بصلة؛ عينيها وابتسامتها ويديها النحيلتين وشخصيتها الحنونة، بالإضافة إلى أن توانيت كانت تتكلم الفرنسية أفضل من الروسية، وكانت بارعة في العزف على البيانو ولطيفة مع الجميع، شأنها شأن العمة ألين، بما في ذلك الخدم. وربما بحسب تولستوي، لم يتبادر إلى ذهنها التفكير في مسألة العدالة الاجتماعية، إذ قبلت وجود الخدم وأقنان الأرض كواقع معاش، إلا أنها وظفت موقعها المميز -كما يشدد تولستوي في مذكراته- وامتيازاتها الأخرى لتخدم الناس من حولها. وكانت أيضا معارضة شرسة لتعرض الخدم لأي شكل من أشكال العقاب الجسدي، وبالفعل لم يتذكر تولستوي إطلاقا تفوه العمة توانيت بكلمة قبيحة واحدة خلال ثلاثين سنة عرفها فيها، لقد كانت -بحسب مذكراته- شخصية متفانية قوية الإرادة. لكن أجمل وأهم سمة فيها كانت الحب، لقد عاشت حياة ملؤها الحب -بحسب تولستوي- الموجه لشخص واحد هو أبوه. ورغم أن تولستوي أراد أن يكون حبها له ولإخوته حبا خالصا، فإنه

تيقن من أن حبها لهم كان مضفورا بحبها لأبيهم، وكذا حبها للآخرين كان ينبع أصلا من حبها اللامحدود للأب.

كانت توانيت تكبر الأب نيكولاي إيليتش بسنتين فقط، ترعرعا ونشآ معا منذ الطفولة وبقيت متفانية في حبه، شأنها شأن صونيا في رواية «الحرب والسلام». تنحَّت توانيت جانبا وأفسحت له المجال ليرتبط بامرأة أخرى ليحظى بمَهر كبير، على أمل أن يتمكن من تسوية ديون والده المهولة، وتفانت في إيثارها، وبنت علاقة صداقة مع زوجته ماريا نيكولايفنا. وبعد ست سنوات من وفاة الزوجة تقدم نيكولاي إيليتش لخطبة توانيت، ربما مدفوعا بمخاوف على صحته، لكنها رفضت لكيلا تفسد علاقاتها التي وصفها تولستوي بالـ«الشاعرية والصافية» مع أفراد الأسرة. لم تتحدث مطلقا بعدها عن تفاصيل تقدم الأب لطلب يدها، لكنها قبلت بطلب آخر منه وهو أن تصبح أما لأولاده وألا تبارحهم البتة.

كتب تولستوي في مذكراته أن العمة توانيت هي من علمته «المتعة الروحية» للحب، فالعمة كانت تتجنب توجيه التعليمات بشأن كيفية مزاولة الحياة، ولم تكن تقرأ مواعظ أخلاقية عليهم، ولم تكن أيضا تتحدث عن الدِّين أو كيفية الصلاة وغيرها من الأمور، بل كانت بوجودها الحي تجسيدا صادقا للحياة الأخلاقية الروحية. لم يكن الأمر متعلقا بالكلمات التي تتفوه بها، بل متعلقا بكينونتها الكاملة التي تَضَحت بالحب الذي سرى في عروق تولستوي الصغير من حيث لا يدري. لقد كانت حياتها الروحية والأخلاقية راسخة في لباب شخصيتها من الداخل، وكانت تتجلى خارج كينونتها بطريقة صافية متأنية ساكنة جليلة متواضعة التزمت بها في حياتها اليومية، وقد اعتبر تولستوي ذلك أحد أهم التجليات التي خلفت وقعا كبيرا على حياته.

يمكن أن نغفر لتولستوي عدم ذكره جميع القاطنين في ياسنايا بوليانا خلال فترة طفولته، خصوصا أننا نعلم العدد الكبير من الأشخاص الذين كانوا موجودين في العزبة (آل تولستوي ومعيليهم وعدد الخدم الكبير... إلخ)، ولا شك أن ياسنايا بوليانا كانت في فترة الثلاثينيات من القرن التاسع عشر بمثابة جحر أرانب.

يدرج تولستوي في مذكراته الأولى اسم شخص انضم إلى أسرته في العزبة في فترة ما من طفولته، نتحدث هنا عن فتاة تدعى لوبوف سيرغييفنا؛ كانت قد ولدت على نحو غير شرعي خارج إطار الزواج، فتكفلت بتربيتها العائلة شفقة عليها. لم تكن حياتها سهلة -شأنها شأن باشينكا ودونيشكا-، لكن آل تولستوي حاولوا قدر الإمكان الاهتمام بها حتى إنهم حاولوا تزويجها من المعلم الألماني فيودور إيفانوفيتش (الذي كان دائما حاضرا في طفولة تولستوي؛ كونه كان يعيش معهم في المنزل نفسه بعد أن قَدِمَ عام 1829 لتعليم نيكولاي ذي السادسة) لكنهم فشلوا.

دأبت أسر النبلاء في روسيا على جلب معلمين أجانب لتدريس أطفالها، لا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل أن يُحظَر الرق، فأبناء الأسر الأرستقراطية لم يكونوا في المجمل يذهبون إلى المدارس، ولم يكن ذلك متاحا في كثير من الأحيان، لا سيما أن الأسر كانت تربي أطفالها في ضيع نائية بعيدة في الريف، وبالتالي فإن المعلمين والمربين وغيرهم كانوا يُستوردون في معظمهم من فرنسا وألمانيا وإنجلترا. وكانوا يشغلون موقعا غير مريح؛ منزلة بين المنزلتين، بين أولياء نعمتهم من جهة والعاملين في المنزل من جهة أخرى. وهكذا جرت الأمور في أسرة تولستوي، أما اسم فيودور إيفانوفيتش فهو الاسم الروسي الذي تقلده المعلم الألماني فريدريك روسل عندما بدأ عمله في ياسنايا بوليانا.

لا يتحدث تولستوي في مذكراته عن المعلم الألماني كثيرا، لكنه يشير في كتابه «الطفولة» إلى حقيقة مفادها أن شخصية المعلم الألماني فيها، كارل إيفانوفيتش، تعكس شخصية واقعية (حتى إنه في إحدى رسائله يشير إلى كارل إيفانوفيتش بدلا من فيودور إيفانوفيتش). كان فيودور إيفانوفيتش رجلا ودودا خلوقا طيب القلب محبوبا من قِبل أولاد آل تولستوي الذين تفانى من أجلهم رغم أنه كان ساذجا، ولم يكن على درجة رفيعة من العلم والثقافة. تعلم الأولاد منه التحدث باللغة الألمانية على نحو جيد ولكن بلكنة سكسونية واضحة.

أما الأشخاص الآخرين الذين مثلوا أهمية بدرجات متفاوتة في طفولة تولستوي فهم الخدم؛ المربيات وكبراء الخدم والوصيفات والطهاة والنُدُل ومن يسقي الخمر والحوذيون، الذين كانوا يشكلون عاملا مشتركا لجميع الأسر الروسية النبيلة خلال سنوات الرق. بعضهم عاش في منزل العائلة الرئيسي وبعضهم الآخر في أماكن أخرى في العزبة.

رعت آنيوشكا[44] العجوز تولستوي في بداية طفولته، وقد كانت مربية لأخيه نيكولاي أيضا. يتذكر تولستوي عينيها الداكنتين وسنَّها اليتيم، وقد كان الأولاد يستغربون ويخافون في الوقت نفسه عندما يقال لهم إن آنيوشكا تبلغ من العمر مئة سنة، أما بالنسبة لتولستوي فقد شعر بأن آنيوشكا، آنا إيفانوفا، ومدبرة المنزل الوقورة براسكوفيا إسايفنا كانت تلفهن هالة من نوع خاص لأنهن كن يخدمن الجد نيكولاي فالكونسكي منذ فترة طويلة. وقد خلد تولستوي ذكرى براسكوفيا إسايفنا في روايته «الطفولة»، إذ أعلن لاحقا أن شخصية ناتاليا سافيشنا مستقاة من الواقع.

أما المرأة قصيرة القامة ذات البشرة الداكنة، تاتيانا فيليبفنا، فقد حلت محل المربية آنيوشكا في رعاية الأطفال، وكانت قد عادت إلى ياسنايا بوليانا بعد أن شاركت في تربية بنات أخت تولستوي، وساعدت أيضا في رعاية ولده البكر «سيرغيه». وقد توفيت لاحقا في المنزل في ياسنايا بوليانا في الغرفة نفسها التي كتب فيها تولستوي مذكراته أواخر حياته. وقد وصف تولستوي تاتيانا فيليبفنا بالشخصية البسيطة التي كانت متفانية في خدمة أسرته، وكانت تستغل بشكل مستمر من قبل زوجها المتسكع الفاشل وابنها، اللذين اعتبراها مصدرا للمال فحسب. أما أخوها نيكولاي فيليبوفيتش فكان يعمل حوذيـاً في ياسنايا بوليانا، وكان محبوبا ويحظى

(44) Анюшка (Annushka).

بالاحترام من قبل عائلة تولستوي الذين كان تروق لهم رائحة السماد اللطيفة التي تنبعث منه، إضافة إلى صوته الرقيق الرخيم الشجي.

كان كل إقطاعي روسي يفضل خدما دون غيرهم، وقد أكد تولستوي على صحة ذلك في مذكراته عندما تحدث عن حب أبيه وأمثاله من محبي الصيد لخدم دون غيرهم. فنيكولاي إيليتش كان يظهر معاملة تفضيلية للأخوين بيتروشا وماتيوشا، لا سيما أنهما شخصان لم يكن الاستغناء عنهما أمراً واردا بفضل عملهما الدؤوب في الحقول وفي المنزل على حد سواء. إلا أن تلك المعاملة التفضيلية وحصولهما على هدايا وامتيازات أخرى كانت تثير غيرة وحسد الخدم الآخرين. وكما هو متوقع، عندما حُرر الخادمان المذكوران لم يستطيعا أن يتكيفا مع التغيير المفاجئ الذي نقلهما من العبودية والخدمة إلى الحرية التي يبدو أنها لم ترق لهما حتى مع مرور الأيام، فلم يتزوج أي منهما رغم الصفات الحميدة التي تمتعا بها؛ كالوسامة والقوة والشباب واللياقة والأناقة، التي كان تولستوي معجبا بها وهو صبي يتأمل هذين الأخوين.

وبخلاف الأخوين الخادمين، كان هناك شخص بارز آخر قصير القامة صغير الحجم مختلف تماما عنهما يدعى تيخون ذا العينين الرماديتين (وهو الشخص الذي كان يسرق التبغ من غرفة نيكولاي إيليتش خلسة ويثير ضحك الأخير). وقد كان يخدم نادلا على طاولة العائلة، كما عمل أيضا في عهد الجد نيكولاي فولكونسكي عازفَ ناي (فلوت) في الأوركسترا التي أنشأها الأخير، وقام بتنظيف غرف الاستقبال في المنزل كل صباح والجلوس بعدها في القاعة الأمامية لحياكة الجوارب. لقد كان فكاهيا بالفطرة وذا شهرة واسعة في صفوف الأولاد، لا سيما عندما كان يقف خلف الأب أو الجدة على المائدة ويقوم بحركات ساخرة فيحرك عضلات وجهه فتثير قهقهتهم، ويلتزم الصمت مباشرة ويقف بلا حراك ويمسك بصحن الطعام ويضمه إلى صدره إذا ما أثار ذلك انتباه السيد أو الجدة، أو إذا ما التفت إليه أحد البالغين الجالسين على المائدة. أما فاسيلي تروبتسكوي، ساقي الخمر، فقد كان لطيف الحركات رقيق

القلب ذا ابتسامة مائلة، قريبا من الأولاد يحبهم ويحبونه ويشعرهم بالغبطة عندما كان وهم صغار يحملهم تباعا على الصينية في جولة في غرفة المؤونة.

يذكر تولستوي في مذكراته أنه صُعق عندما كان في السادسة من عمره وسمع أن فاسيلي سيصبح مدبر (مدير عقار) عزبة ورثتها العائلة. وقد زعم تولستوي لاحقا أنه شعر ولأول مرة بتوترات المعاناة وألم مواجهة التغيير، عندما أتى فاسيلي إلى الأولاد ليقبّلهم القبلة المعتادة على الكتف في أحد أعياد الميلاد بعد أن حصل على الترقية.

كانت فترة عيد الميلاد فرصة سنوية سانحة للأولاد ليخالطوا الخدم العاملين في العزبة، وكانت فترة الاحتفالات تمتد لاثني عشر يوما وصولا إلى موعد عيد الغطاس.

فعيد الميلاد المجيد في روسيا وقت مفعم بالحياة والفرح، إذ تُعلَّق مؤقتا قواعد الحياة العادية الصارمة، ويرتدي المهرجون أزياء زاهية ملونة غريبة، ويتجولون في الترويكا أو يتنقلون مشيا على الأقدام من منزل إلى آخر وهم يغنون ترانيم الميلاد المجيد، ويحصلون بالمقابل على شراب وطعام وفير وشهي. وكان من عادة الخدم زيارة أسيادهم في تلك الفترة، فيأتي كل عيد ميلاد نحو ثلاثين من الفلاحين العاملين في أراضي آل تولستوي إلى المنزل الرئيسي وهم يرتدون أزياء جميلة مضحكة (يقلدون فيها أشكال حيوانات كالدب أو العنز وغيرها)، أو يرتدي الرجال أزياء نسوية والعكس. أما أولاد آل تولستوي فيرتدون أزياء مبهجة ويرسمون شوارب مستخدمين الفلين المحروق، كما يزور ياسنايا بوليانا في ذلك الموسم العجوز غريغوري، عازف الكمان السابق في أوركسترا الجد فولكونسكي؛ ليشارك في صخب الغناء والرقص.

صاحبت هذه الذكريات السعيدة في تلك المواسم أولاد آل تولستوي فترة لا بأس بها خلال ترعرعهم في ذلك المنزل في عزبة ياسنايا بوليانا، مما ألهم تولستوي لاحقا في روايته «الحرب

والسلام»، أن يصور لنا مشهدا أخاذا يرتدي فيه أفراد آل روستوف، ناتاشا وصونيا ونيكولاي، أزياء أنيقة، ويستقلون المزلجة ليزوروا جيرانهم في إحدى الأمسيات.

أما فوكا ديميديتش، كبير خدم الأسرة، فقد كان عازف الناي الثاني في أوركسترا الجد فولكونسكي، غير أن مهامه في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، عندما كان تولستوي صغيرا، كانت مقتصرة على الإعلان عن ميقات طعام الغداء في الساعة الثانية تماما من كل يوم، وهو يرتدي معطفه الأزرق الطويل مشقوق الذيل، بأسلوب بالغ التهذيب متبعا البروتوكول الرسمي قدر المستطاع. جدير بالذكر أن آل تولستوي زاولوا في واقع الأمر حياة بسيطة غير متكلفة مقارنة مع أسر النبلاء الأخرى، فبخلاف مرآتين جميلتين ذَوَاتي إطارين مذهبين، وبعض الكراسي الهزازة من نوع فولتير، وبعض المناضد المصنوعة من خشب الماهوغني، فإن تصميم المنزل كان مزينا بطراز قديم متقشف ومتواضع؛ ذلك أن البياضات التي كانت توضع على المناضد أو الأثاث كانت من صنع الحاكة والنجارين العاملين في العزبة. لكن، من جهة أخرى كانت الأسرة متشبثة بالتقاليد البطريركية/ الذكورية للأرستقراطية الروسية.

يشير تولستوي في مذكراته بفخر إلى أن أباه لم يخضع لذل الخدمة العامة في حكومة القيصر نيكولاي الأول. وبالفعل، فتولستوي لم يتذكر مطلقا أنه شاهد مسؤولا أو موظفا حكوميا في منزلهم في فترتي طفولته وشبابه.

حافظ آل تولستوي بإخلاص على عدد متنوع من الطقوس، فكل يوم كان يبدأ وينتهي بتقبيل أيادي بعضهم البعض، وكل يوم أحد كانوا ينطلقون جماعة إلى كنيسة القرية (حيث كان الأولاد يُقلّدون أباهم عندما كان ينحني مطولا وعلى نحو مبالغ فيه لدرجة أن يده اليمنى تكاد تلمس أرضية الكنيسة). إلا أن أكثر الطقوس تميزا كانت تلك التي تُقام أثناء تناول وجبة الغداء. فقد كان جميع أفراد الأسرة دون استثناء، بما في ذلك الأطفال ومدرسيهم، يجتمعون في قاعة

الاستقبال ينتظرون السيد الوالد نيكولاي إيليتش ليظهر عليهم من مكتبه، وفي الوقت المحدد يقدم يده لأمه لتصحبه إلى غرفة الطعام.

كان تولستوي أول من اعترف بشاعرية وتميز طفولته المبكرة، وشأنها شأن العديد من القرى الريفية الروسية، كانت ياسنايا بوليانا عبارة عن مملكة ذاتية الاكتفاء بخدمها الذين يفلحون الأرض، ويحلبون الأبقار، ويحطبون، ويحوكون الزرابي، ويسكفون الأحذية، ويُربّون الخيل، ويجلبون الماء، ويغسلون الثياب. لقد شكل ذلك عالما بأسره لا يحتاج تولستوي إلى مغادرته، فقد وفرت ياسنايا بوليانا بيئة آمنة حاضنة لكي يترعرع فيها محاطا بأقربائه وأخواته وأسرة ممتدة عريضة ثانية من الخدم. وقد شكلت أيضا مدرسة نخبوية، إذ بدأ دراسته مع مدرس خاص، وملعبا كبيرا للهو فيه غابات وبرك ومسارات متعرجة ومنعطفات وجداول تعد بمغامرات مثيرة لا تنتهي. وقد شكلت أخيرا منظرا طبيعيا ماديا خلابا بممرات تصطف الأشجار على ضفافها وجنات غنّاء وبرك ساكنة.

بقي تولستوي متقوقعا في هذه الجنة الريفية لثماني سنوات أولى من حياته. وبالفعل، فإن أقصى ما قام به في تلك السنوات هو الرحلة الأبرز؛ عندما انتقل من الطابق العلوي إلى السفلي بعدما أنهى الحضانة في عمر الخامسة، وانضم إلى إخوته ليكمل الدراسة تحت إشراف المدرس الألماني.

ثمة روايات مهمة بضمير الغائب تصف تولستوي صبياً صغيراً، غير أن مشاغبات الفتى كانت السمة الأبرز في تلك المصادر القليلة. ففي رسالة حررتها ألين إلى توانيت وهو لا يزال في السادسة، تساءلت بشأن مضي وقت لا بأس به لم يشهدوا فيه طردا لليف الصغير من طاولة الغداء، مبينة أن مسألة طرده لغاية تلك اللحظة كانت أمرا اعتياديا منتظما متكررا. وقد لوحظت أيضا شخصية تولستوي الفريدة منذ نعومة أظافره، إذ يتذكر أقرباؤه كيف فكَّر الولد الصغير في يوم من الأيام ثم قدّر فعزم وتقدَّم إلى غرفة الاستقبال، والتفَّ وبدأ بالانحناء إلى الخلف أمام

جميع الموجودين بظهره راميا برأسه إلى الخلف، عوضا عن الانحناء إلى الأمام، بينما كان يدقُّ بكعب حذائه الأرض.

عندما قرر تولستوي أواخر حياته كتابة مذكراته، رفض عرض جميع ذكرياته السعيدة في الطفولة، لأنها كانت لا تحصى، ولأنه خشي أن يكون من المُحال نقلها بأمانة للآخرين، لأنها كانت غالية على قلبه ومهمة للغاية.

كان يستذكر أحداثا قليلة محددة من طفولته المبكرة، بخلاف ذهاب وإياب أبيه والقصص المدهشة التي كان يسردها عن مغامرات رحلات الصيد، تذكر فقط ثلاث مناسبات حصلت فيها أحداث خلَّفت انطباعا قويا لديه، اثنتان منهما مثيرتان للاهتمام، إحداها كانت متعلقة بزيارة أحد أقارب الأم والأمير فولكونسكي، وهو ضابط من فرقة الخيالة (الهوسار)، جاء لزيارتهم وتولستوي لا يزال صغيرا، فأجلسه الضيف في حجره. يكتب تولستوي في مذكراته أن ذلك جعله يشعر أنه مقيد الحرية، فحاول أن يتملص منه بينما كان الضيف يتحدث مع الآخرين، وكلما حاول الصغير الإفلات أحكم الضيف سيطرته عليه، مما ولد لدى تولستوي شعورا مؤرقا بالحبس والقمع وفقدان الحرية دفعه إلى الصراخ والزعيق محاولا الهروب من قبضة الضيف، وهكذا أمضى تولستوي حياته كلها يؤكد على استقلاليته ويقاوم محاولات البعض لجعله طيعا سابحا مع التيار.

أما المناسبة الأخرى فكانت متعلقة بزيارة قريب آخر هو «الأمريكي المشهور» الكونت فيودور إيفانوفيتش تولستوي، وقد خلَّفت لديه انطباعا إيجابيا، إذ ارتبطت بما يعرّفه تولستوي بأنه السمة الأبرز لدى آل تولستوي؛ «الجموح» (ديكاست)، وهي كلمة ذات معان متعددة كما هي حال المفردات الروسية؛ فديكاست تعني حرفيا الجموح أو التوحش، لكنها يمكن أن تُعرَّف أيضا بالخجل أو الانزواء أو ضعف المهارات الاجتماعية، وقد تعني في سياقات أخرى غرابة الأطوار أو العبث. أما تولستوي فقد راق له تعريف ديكاست عندما كان يسقطها على

أفراد عائلته بصفتي الشغف والجرأة، تلك المفردة لم تكن تحتوي على إيحاءات سلبية في كتاباته، بل عكست بالنسبة لتولستوي الأصالة واستقلالية الفكر، بالإضافة إلى نزعة القيام بما يخالف ما يقوم به الجميع؛ أي باختصار السباحة ضد التيار. فقد سبح تولستوي بالفعل ضد التيار في كل شيء قام به كرجل بالغ، حتى إنه لجأ إلى سمة آل تولستوي البارزة التي تحدَّثنا عنها عندما عبَّر عن أفكاره الراديكالية التي أراد تطبيقها في مجال التعليم وأطلق مجلته التعليمية عام 1862. أدرك تولستوي تجليات هذه السمة ليس فقط في العديد من أجداده اللامعين المشهورين، بل في بعض الأقارب المعاصرين. وجد ذلك حتى في قريبته البعيدة الوقورة الأنيقة المتقدة بالنشاط، بالغة الرزانة، التي تتصف برابطة الجأش، الوصيفة في البلاط الإمبراطوري، ألكسندرا أندرييفنا. كتب لها في إحدى رسائله عام 1865: «تتمتعين بسمة الجموح التي نتمتع بها جميعا نحن آل تولستوي». وكتب أيضا في مذكراته: «لم يكن الوشم الذي رسمه الكونت فيودور إيفانوفيتش على جسده آتيا من فراغ». بالفعل فقد كان الزائر الأكثر جموحا في آل تولستوي، ويُحكى أنه في زيارة له لجزيرة البولينيزي في جنوب المحيط الهادئ وهو في شبابه، أراد أن يُقلِّد سكان تلك الجزيرة من خلال تغطية جسده كله بالوشم كما كانوا يفعلون. أما ألكسندرا أندرييفنا فقد كانت بدورها تلقب قريبها الشاب ليف نيكولايفيتش بـ«الأسد المزمجر».

استثمر تولستوي أيضا الجموح في إحدى أقرب شخصياته إلى سيرته الذاتية: «أنتم جميعا آل ليفين تتصفون بالجموح»، قالتها السيدة الراقية المقبلة على الحياة، ستيفا أوبلونسكي، في رواية «آنا كارينينا»، موجهة حديثها إلى صديقها قنسطنتين ليفين غير اللبق اجتماعيا الساعي وراء الحقيقة الغيور عليها، وأردفت: «فأنت دائما تقوم بما لا يقوم به غيرك»، وهذا تحديدا كيف كان ينظر معاصرو تولستوي إليه.

لم يعزف يوجين شويلر القنصل الأمريكي الجديد في موسكو عن لقاء تولستوي بسبب ما قالته له سيدة في المجتمع الراقي بأن تولستوي: «رجل خجول وجموح في آن معا»، ولو قلنا إن تولستوي الخجول ورث قدرته على نيل المعرفة من أحد أجداده القدماء، الكونت بيتر أندريفيتش، فنستطيع القول أيضا إن تولستوي الجامح ربما ورث صفتي استقلالية الروح وقوة الجسم من قريبه فيودور إيفانوفيتش المعروف بجسده الموشوم. وهكذا لم يكن تولستوي وهو شاب في حاجة لسماع قصص الجنيات أو غيرها، لأن حياة ومغامرات أحد أقاربه كانت تمثل قصصا مشوقة وروايات مسلية؛ لدرجة أن ابن تولستوي «سيرغيه» أصبح في وقت لاحق مأخوذا بقصص فيودور إيفانوفيتش، مما أدى به إلى نشر سيرة ذاتية مقتضبة عنه.

اشتهر فيودور تولستوي (1782-1842) بجموحه في سن مبكرة، فقد قاتل في مبارزة وهو لا يزال في السابعة عشر من عمره، بعد فترة وجيزة من التحاقه بسلك ضباط النخبة في كتيبة حرس بريوبراجينسكي في سانت بطرسبورغ. وبعد أربع سنوات؛ أي عام 1803، هرب من قيود الحياة العسكرية بعد أن ضمن له مقعدا على متن سفينة ذات ثلاث سواري بريطانية الصنع، قبطانها آدم فون كروزنستيرن واسمها ناديجدا. وكانت المهمة هي إتمام الجولة الروسية الأولى حول العالم مع سفينة أخرى تدعى نيفا. وبعد محطات في كوبنهاجن وفالماوث وجزر الكناري، توجهت ناديجدا إلى كايب هورن ومن ثم إلى جزر المركيزاس جنوب المحيط الهادئ، حيث وشم فيودور تولستوي جسده بالكامل. وفي تلك المرحلة كان القبطان كروزينستيرن قد سئم وجود الضابط الشاب؛ لأن الأخير، وبخلاف عالم الطبيعة أو الفلكي أو الفنان أو الطبيب، لم يكن لديه ما يفعله، فأصبح يملأ فراغه بإثارة الشغب والشجار مع أفراد طاقم السفينة بغرض التسلية فقط، والقيام بمقالب مثيرة للغضب كإطلاقه مرة ما يسمى إنسان الغاب (أو ربما كان قردا) في قمرة القبطان. وأسكر في مناسبة أخرى قسيس السفينة حتى الثمالة وألصق لحيته بظهر السفينة مستخدما شمعا لاصقا، وهكذا عندما رست السفينة في شبه جزيرة

كامتشاتكا على الطرف الشرقي للإمبراطورية الروسية قبل الإبحار إلى اليابان، أمر القبطان كروزينستيرن تولستوي بمغادرة السفينة.

أصبحت حياة فيودور تولستوي حياة تلفُّها الأساطير، مما جعل التحقق من صحة القصص التي تُحاك حوله شخصيا أو حول مغادرته لناديجدا أمرا صعبا للغاية. إذ تقول إحدى القصص بأنه تُرك وحيدا في الجزر الأليوشية[45] في شمال المحيط الهادئ، بين كامتشاتكا وألاسكا مع قرد (أو إنسان الغاب)، وأُرغم بعد فترة على أكله بسبب الجوع. لكن البحث الأحادي عن سيرة الرجل الذي نشره سيرغيه ابن تولستوي عام 1962، يدحض هذه القصة، فسيرغيه تولستوي ينوِّه إلى أن قردا تعرض له مرة وعبث بشعره، عندما كان في التاسعة من عمره في زيارة لابنة فيودور تولستوي المسنة في موسكو عام 1872، وقد كانت تحتفظ بذلك القرد في بيتها لتخلد ذكرى القرد الذي كان رفيقا لأبيها في حياته. ويذكر سيرغيه تولستوي أيضا في كتابه أن فيودور تولستوي تُرك على اليابسة بالفعل، وأمضى وقتا لا بأس به مع السكان الأصليين لجزيرة سيتكا في جنوب ألاسكا، التي أصبحت جزءا من مستعمرة تدعى «أمريكا الروسية». وهكذا أصبح فيودور يلقب بـ«تولستوي الأمريكي».

عاد فيودور تولستوي إلى العاصمة عبر سيبيريا في أغسطس عام 1805 بعد سنتين من مغادرته، وقد اعتُقل ساعة وصوله وأرسل ليخدم ثلاث سنوات في قلعة نائية فيما يسمى اليوم سافونلينا، على بعد 150 ميلا شمالي سانت بطرسبورغ. وبعدما جازف بحياته في الحرب الفنلندية ضد السويد (ضُمَّت فنلندا رسميا إلى روسيا عام 1809)، سُمح له بالانضمام مجددا لحرس بريوبراجينسكي[46]، لكن خصاله العدوانية أدّت إلى تورطه في مبارزات أخرى، وبالتالي سُرِّح من الجيش عام 1811. ورغم ذلك دفعته روح الأنفة إلى التطوع للقتال مجددا

(45) Альюшин Айлендс.

(46) Преображенский.

إبان غزو نابليون لروسيا مظهرا بسالة استثنائية في معركة بورودينو[47]، حيث أصيب وأعيدت له رتبته العسكرية وكُرّم وقُلّد ميدالية الشجاعة. وليس من المفاجئ أن يوظِّف ليف تولستوي شخصية قريبه في روايته الملحمية «الحرب والسلام»؛ إذ وفَّر له فيودور إيفانوفيتش الإلهام الأول ليُسقط مناقبه على شخصية دولوخوف[48]، الذي يشترك معه في اسمه الأول واسم أبيه، ويشاطره شغف لعب الورق وإقباله على الحياة.

استمر مسلسل الجموح والمفاجآت مع فيودور إيفانوفيتش بعد تقاعده نهائيا في موسكو بعد عام 1812، فقد تخلى عن المبارزة والقمار وقلل من نشاطه، لكنه تزوج عام 1812 بمغنية غجرية (بعدها هُمِّش على الفور من قبل كثيرين من المجتمع المَخملي في موسكو)، وأنجب اثني عشر طفلا عاش واحد منهم فقط وأصبح بالغا (ابنته براسكوفيا). وقد تعرف ليف تولستوي إلى أرملة الراحل وابنته في موسكو في العقد الخامس والسادس من ذلك القرن.

أصبح فيودور تولستوي شخصا ورعا تقيا في آخر حياته، فأولئك الذين أرادوا رؤية الوشم على صدره كانوا يلحظون أنه كان يقوم بنزع أيقونة كبيرة للقديس سبيريدون، وهو القديس الولي لآل تولستوي، كان يلفها على عنقه قبل أن يُظهر لهم وشم العصفور الملون الفاتح في منتصف صدره، محاطا بخطوط حمراء وزرقاء وأحناش مدقوقة على ذراعيه.

عاش فيودور تولستوي إذن حياة حافلة بالأحداث، وقد عنى لقاء تولستوي بأحد أجداده المشهورين، وهو لا يزال طفلا، الشيء الكثير. يوضح تولستوي في مذكراته أن ثمة أشياء كثيرة كان يرغب في الحديث عنها تخصُّ ذلك الرجل «الاستثنائي الفوضوي الجذاب»، ولا شك أن الرجل ذا الوجه الوسيم المُسْمَرّ والسوالف الكثيفة التي تمتد لتصل إلى زاويتي فمه، قد خلف انطباعا قويا على نحو استثنائي لدى الشاب تولستوي. ورغم أن فيودور تولستوي كان قد

(47) Бородино (Borodino).

(48) Долохов (Dolohov).

أصبح ليّنا يلتزم الرفق في شؤونه عندما زار ياسنايا بوليانا في الثلاثينيات من ذلك القرن، وكان في الخمسينيات من عمره، فإنه كان لا يزال غريب الأطوار، فقد أظهر مرة منديلين مطرزين من الشاش، وزعم أنهما من خلال القوة المغناطيسية قادرَين على علاج وجع الأسنان الذي كان يعاني منه سيرغيه أحد إخوة تولستوي.

كان تولستوي يبلغ السابعة من العمر عندما زار فيودور ياسنايا بوليانا، وكان هناك مخطوط قديم له لا يزال موجودا يعود إلى تلك الفترة. أما الورقتان المحفوظتان في أرشيفه فتمثلان مساهمته في مجلة كان يُصدرها مناصفة مع إخوته.

«تسليات للأطفال: القسم الأول: التاريخ الطبيعي.

بقلم: الكونت ليف. ن. تولستوي: 1835

1. النسر: النسر ملك الطيور، ويحكى أن ولدا بدأ بإزعاج النسر يوما ما، مما أدى إلى غضب النسر الذي أخذ ينقره حتى الموت.

2. الصقر: الصقر طائر مفيد جدا فهو يصطاد الغزلان، والغزال حيوان سريع جدا فلا تستطيع الكلاب اللحاق به، أما الصقر فينقض عليه ويقتله.

3. البوم: البوم طائر قويجِدا ولا يستطيع الرؤية خلال النهار، والبومِ النسر هو أيضا بوم، لكنهم يختلفون فيما بينهم بنوعية خصلات الشعر.

4. الببغاء: الببغاء طير جميل جدا ومنقاره يتدلى قليلا أو يشبه الخطّاف، وهو يتعلم الكلام.

5. الطاووس: الطاووس طائر جميل لديه بقع زرقاء، وذيله أكبر من حجمه.

6. الطائر الطنان: الطائر الطنان طائر صغير جدا، ولديه منقار ذهبي أو أبيض.

7. الديك: الديك طائر جميل وذيله ذو ألوان زاهية يتدلى إلى الأسفل، حنجرته حمراء وزرقاء ومن كل الألوان، أما رعثته فأحمر اللون. عندما يغني الديك الهندي ينخفض

ذيله وتنتفخ حنجرته الحمراء والسوداء ومن جميع الألوان. الديك الهندي لديه ذيل مختلف عن الديوك الأخرى فذيله مرتخ».

نعرف القليل جدا عن «تسليات الأطفال» والقليل جدا أيضا عن المغامرات الأدبية الأخرى التي انخرط فيها الإخوة تولستوي في الثلاثينيات من ذلك القرن، فعندما كتب تولستوي مذكراته تحدَّث قليلا في ذكريات الطفولة المبكرة عن إخوته الذين كانوا رفقاءه في اللعب، لكن حادثة واحدة مهمة قريبة إلى قلبه بقيت في ذاكرته طيلة حياته، ومفادها أنه عندما بلغ الخامسة من العمر، أعلن أخوه الأكبر نيكولاي، وكان قد بلغ الحادية عشرة، أن سر السعادة الأبدية مدوّن على عصا خضراء صغيرة مدفونة في الغابة ليس بعيدا عن منزلهم. وقال لإخوته إن الكشف عن تلك العصا وذلك السر الدفين يؤدي إلى أن لا يشقى الناس أبدا، بل لن يمرضوا أيضا، وسوف يسود الوئام والحب بينهم، عندها سيصبح الجميع إخوة (كالإخوة من فصيلة النمل) عند ميورافييني براتيا[49]. وقد علَّق تولستوي في مذكراته بالقول إن أخاه نيكولاي لا بد وأن قرأ شيئا ما عن «إخوان النمل».

وقد كان الأخ الأكبر نيكولاي يحظى باحترام إخوته جميعا، الذين كانوا يخاطبونه بصيغة الجمع (أنتم) عوضا عن صيغة المفرد (أنت)؛ تعبيرا عن ذلك الاحترام وفقا للتقاليد الروسية. وقد أحبه الفتى ليف أكثر من أي أخ آخر، ووصفه في مذكراته بأنه: «الشاب الاستثنائي الطيب الودود المتواضع بفطرته، ذو الإحساس الفني المرهف والخيال الجامح والحس الأخلاقي الرفيع». افتتن الإخوة تولستوي بالألعاب والطقوس التفصيلية التي كان يخترعها نيكولاي؛ الذي وعدهم مرة بأن يأخذهم إلى «جبل فنفارونوف»، الساحر الأسطوري، إذا ما التزموا بحذافير الشروط التي وضعها، بما في ذلك أن يقفوا في زاوية ويحاولوا أن لا يفكروا في الدب

---

(49) Муравейные братья (Muraveinye bratya).

الأبيض، وتجنُّب رؤية أرنب بري لسنة كاملة. كان الإخوة يلعبون في صغرهم أيضا لعبة «إخوان النمل»، إذ يتجمعون فوق بعضهم بعضا في وكر مستحدث من كرسيين وصندوقين وبعض الشالات. وعندما بلغ تولستوي أشده، آمن إيمانا راسخا بإمكانية تجلي قيمة إخوان النمل وتوسيع ذلك المفهوم ليشمل البشرية بأسرها، سعيا منه لحذو حذو أخيه نيكولاي في سعيه لنشر الحب والود. وتخليدا لذكراه طلب تولستوي في أواخر أيامه أن يُدفَن في البقعة التي من المفترض أن العصا الخضراء الصغيرة دُفنت فيها، وهذا ما حصل بالفعل في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1910.

إن الدافع الديني الذي ألهم تولستوي في الثمانينيات من القرن التاسع عشر لم يكن بعيدا عن الدافع الذي أدى إلى تأسيس حركة الإخوان المورافيين، فالكنيسة المورافية التي ما زالت مزدهرة حتى يومنا هذا، تعود إلى حركة تمرد اندلعت على يد يان هوس ضد الكاثوليكية الرومانية في نهاية القرن الرابع عشر، قبل أكثر من قرن على حركة الإصلاح البروتستانتية لمارتن لوثر كينغ. كان «هوس» ورفاقه من المتحدثين باللغة التشيكية يعيشون في بوهيميا ومورافيا؛ اللتين تحول قاطنوهما من السلاف إلى الأرثوذكسية الشرقية على يد المبشرين البيزنطيين، لا سيما القديس كايريل وميثوديوس في القرن التاسع. أراد أتباع هوس أن يحيوا تلك العقيدة من جديد، بالإضافة إلى رفض ممارسة صكوك الغفران آنذاك من قبل الكنيسة الكاثوليكية التي أجبرت السكان المحليين على اعتناق الكاثوليكية عنوة؛ لأنهم أصبحوا رعايا الإمبراطورية النمساوية. وهكذا نشأت فكرة الخلاص الفردي القائم على رابط الفرد مع الله؛ الفكرة التي تعتبر قطب الرحى في عقيدة الكنيسة المورافية. وقد نحا تولستوي منحى شبيها بعد قرون طويلة عندما ثار ضد ما اعتبره اعتماد الكنيسة الأرثوذكسية على الطقوس والخرافات.

اضطهد في نهاية المطاف بروتستانت بوهيميا ومورافيا الأوائل خلال موجة مناوئة للإصلاح الديني، مما اضطرهم إلى تشكيل تيار باطني في السنوات اللاحقة، وهاجر كثير منهم إلى أجزاء في أوروبا تتسامح مع اللوثرية بسبب العقيدة المتشابهة.

ومن المدهش أن نلحظ تشابها بين تولستوي والرجل غريب الأطوار، الكونت نيكولاس ليدويغ فون زينزيندروف، مؤسس الكنيسة المورافية المحدثة، الذي من خلال التزامه بخدمة الفقراء سمح لمجموعة من الإخوة بتأسيس مجتمع لهم على أرضه الخاصة في العشرينيات من القرن الثامن عشر، وتخلى عن منصبه لاحقا في بلاط ساكسونيا الملكي في دريزدن، كما تخلى عن ألقابه وأسلوب حياته الأرستقراطي ليعيش حياة بسيطة ويتفانى في خدمة الرب. وهو من وحّد القرية الجديدة التي أسسها المهاجرون الذين بفضل جهوده تبنّوا «الميثاق الأخوي»، كما شكل ركنا أساسيا في التجربة الروحية التي خاضها أولئك قبل تحولهم لتبني عقيدة الحب الأخوي.

لم يؤمن تولستوي بالطبع أنه على وشك تأسيس كنيسة جديدة، فقد تخلى عن الطقوس الدينية كافة. لكن مناشداته لتبني أفكار الزمالة والأخوة العالمية بين البشر، ودعواته لمزاولة حياة بسيطة قوامها خدمة الآخرين، جعلته مرتبطا من حيث لا يدري ربما بمُثُل وقيم الأخوة المورافية. وبوصفه رائدا وأخا في رابطة إخوان النمل، فمن المؤكد أنه كان سيوافق على شعار الكنيسة المورافية: «الوحدة في الأساسيات، والحرية في الفرعيات، والحب في كل شيء».

الفصل الثالث

مرحلة اليتم

أهنئكَ عزيزي ليوفا، وأهنئ إخوانك وشقيقتك، أرجو أن تكون بصحة جيدة مثابرا على دروسك بحيث لا تسبب مطلقا أي إزعاج لعمتنا العزيزة تاتيانا ألكسندرفنا التي تعمل بلا كلل أو ملل من أجلنا. أتذكر يا ليوفا وميتيا كيف ذهبنا جميعا في نزهة مشيا على الأقدام إلى منطقة هضاب العصافير واحتسينا الشاي هناك في ذلك اليوم السعيد؟ أحسب أنكم في محلة غرومانت فالطقس رائع. أرجو أن تستمتعوا بوقتكم هناك، قبلاتي الحارة إلى عزيزتي ماشا..

رسالة من نيكولاي تولستوي أرسلها من موسكو إلى ليف وديمتري وماشا تولستوي في ياسنايا بوليانا بمناسبة عيد ميلاد ليف العاشر في أغسطس عام 1838.

عندما عاد تولستوي بذاكرته إلى طفولته، وهو في السبعين من العمر، وصفها بالفترة «البريئة والمبهجة والشاعرية» التي استمرت كذلك حتى بلغ من العمر 14 عاما. إلّا أن ذلك التوصيف يمكن أن ينطبق على السنوات السبع الأولى من تلك الفترة وحسب، إذ لا منغصات ولا مشاكل أو شواغل، عكس السبع سنوات الأخرى التي فقد خلالها أباه وجدته وعمته، بالإضافة إلى انفصاله عن إخوته مؤقتا وانتقاله من ياسنايا بوليانا إلى مناطق أخرى في ثلاث مناسبات؛ آخرها كان إلى مكان يبعد مئات الأميال عن منزل الأسرة. في الواقع، بدأ الجزء الشاعري من فترة الطفولة يضمحلُّ مع أول تلك الرحلات التي أوصلته إلى العالم المخيف في موسكو الميتروبوليتانية[50]، بعيدا عن العالم الريفي الهادئ لياسنايا بوليانا. لم توثَّق هذه السنوات والسنوات القليلة التي تبعتها مباشرة بالدرجة التي وُثقت بها السنوات الأخرى من حياة تولستوي. فمذكراته، مع بعض الاستثناءات، تتوقف هنا مع رحيل الأسرة الأول من ياسنايا

(50) Митрополит (Metropotitan).

بوليانا، رغم أن ثلاثيته: الطفولة والصبا والشباب، تعتبر مصدرا رائعا يعكس المناخ المحيط بسنواته الأولى من الطفولة الراسخة بوضوح في تجربته رغم أنها عمل روائي.

انتقل الأب مع أسرته إلى موسكو عام 1837 لغرض تلقي أبنائه الكبار تعليما مميزا، وكان ليف وقتها في الثامنة من عمره، أما نيكولاي فكان في الرابعة عشرة من عمره ويُحضّر نفسه للالتحاق بالجامعة.

لقد شكَّل ذلك الترحال مهمة عظيمة مرهقة لكثرة عدد أفراد الأسرة، خمسة أولاد وكفيلتان (وصيتان) وعمتان والأب وأمّه، بالإضافة إلى ثلاثين نفرا من الخدم. استغرقت الرحلة المتوجهة إلى الشمال يومين كاملين، وتطلبت موكبا مؤلفا من سبع عربات ومزلجة خاصة مغطاة مخصصة للجدة بلاغيا نيكولايفنا، بصحبة خادمتين أمينتَيْن أُرغمتا على تحمل الصقيع والوقوف على سيقان المزلجة منعا لتعثرها وحرصا على سلامة الجدة العزيزة طيلة الرحلة. أما الأولاد فتناوبوا على الجلوس بجانب والدهم، وعندما وصلوا أخيرا إلى موسكو كان من حظ ليف أن يأتي دوره ليجلس مع أبيه ويشير له بفخر إلى الكنائس والمباني البارزة التي كانا يشاهدانها من نافذة العربة.

وبما أنهم وصلوا من جهة الجنوب، تعيّن على آل تولستوي أن يمروا من خلال ميدان التجار في منطقة تدعى زامسْكْفاريتشيه[51] (وراء النهر)، ويشاهدوا لأول مرة وفرة في قباب الكنائس التي تُشبه رؤوس البصل. وقد اعتُبر التجار تقليديا أتقى وأورع طبقة في المجتمع الروسي، ولهذا غصّ ميدانهم بكنائس كثيرة مقارنة بالمناطق الأخرى في المدينة التي اشتهرت بعدد كنائسها الكبير. وكان الوالد نيكولاي إيليتش قد استأجر منزلا جميلا مع طابق متوسط خلف الشارع يطلُّ على فناء رحب. انحرف موكب آل تولستوي بعد المرور في منطقة زامسكفاريتشيه غربا ليصل إلى منطقة سكنية هادئة بالقرب من نهر موسكو. وقد عاد تولستوي لاحقا بعد سنوات عدة إلى هذا الحي مصطحبا أسرته الصغيرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

(51) Замоскворечье (Zamoskvorechie).

كانت ذكرى تلك الشهور الأولى في موسكو ضبابية بعيدة في ذهن تولستوي بعد أن تقدم به العمر، فقد كانت موسكو قد تعافت من الأحداث الصادمة لعام 1812 بعد فترة مكثفة من إعادة الإعمار. وقد مثلت أجواؤها الحضرية بلا شك صدمة للطفل الذي تعوَّد على حياة السكينة والطمأنينة في الريف، فقد وجَد نفسه حينها وسط مبانٍ وغرباء، ولم يعد فيها مركزَ الاهتمام كما كان في ياسنايا بوليانا. لقد كان نيكولاي منشغلا بالتحضير للجامعة، وكان الأب منشغلا بأعماله الأخرى فتعذَّر على الأولاد رؤيته إلا قليلا. وقد اضطر الأب إلى الاستعانة باثني عشر مدرسا (بما في ذلك مدرس رقص) بكلفة سنوية بلغت 83 ألف روبل ليُبقي أولاده منشغلين بالدراسة. في الأثناء، تورط الأب بقضية رُفعت ضده في المحكمة متعلقة بشرائه عزبة بيراغوفا من ألكسندر تيمياشوف؛ الرجل الذي توسل إليه في السابق ليربي ابنته غير الشرعية دونيشكا، فقد أصيب تيمياشوف بالشلل بعد فترة قصيرة من توقيع العقد فأراد أقرباؤه إبطال صك الشراء، رغم أن والد تولستوي كان قد أصبح المالك الشرعي للعزبة.

لم تكن صحة نيكولاي إيليتش على ما يرام، لا سيما بعد خدمته القاسية في الجيش ومشاركته في حرب نابليون (عندما اجتاح الأخير روسيا وانسحب منها لاحقا مهزوما)، بالإضافة إلى الجهد النفسي الذي عانى منه جراء اضطلاعه بمسؤولية استرداد العقارات التي خسرها والده بعد إفلاسه وطرده من منصبه حاكما لمدينة قازان، ومن ثم وفاته. كما أن نيكولاي إيليتش كان يميل إلى شرب الخمر وكان يبالغ في ذلك، وقد أوضح في إحدى رسائله إلى صديق بأنه بدأ حمية قاسية وأخذ يتناول العقاقير بعد تجربته المريرة مع السعال المؤدي إلى نزيف دموي.

في يونيو، وبعد أشهر قليلة من وصوله إلى موسكو، اضطر نيكولاي إلى الذهاب إلى تولا في محاولة للتصدي للأزمة التي بدأت بسبب قضية عزبة بيراغوفا. وقد قطع المسافة إيابا مع الخادمين المخلصين بيتروشا وماتيوشا مستغرقا نصف الوقت الذي قطعه في رحلته ذهابا إلى موسكو مع أسرته في بداية السنة. وقد أثرت تلك الرحلة سلبيا على صحته؛ ففي المساء التالي، وقبل عيد ميلاده الثالث والأربعين، عانى نيكولاي إيليتش من نزيف رئوي خطير، وأصيب

بذبحة صدرية بينما كان يتمشى في شارع من شوارع تولا، ما أدى إلى وفاته في اليوم نفسه. وقد انطلقت طاحونة الإشاعات لتقول إنه مات مسموما على يد خدمه لأن الأموال التي كانت بحوزته سُرقت جميعا. لكن تولستوي كان يميل إلى عدم تصديق تلك الرواية.

شكل الموت المفاجئ للأب صدمة كبيرة لأفراد أسرته، وقد سافرت أخته ألين وابنه البكر نيكولاي من موسكو إلى تولا ودفنوه بجانب زوجته ماريا نيكولايفنا في مقبرة القرية بالقرب من ياسنايا بوليانا. أما بالنسبة لليف الصغير فقد شكَّل موت أبيه الحدث الأبرز في طفولته، إذ استمرَّ ولفترة طويلة يفكّر فيه ويتوقَّع رؤيته في أحد شوارع موسكو. أما البابوشكا الجدة التي كانت مولعة بابنها فقد أُصيبت بالخرف ولم تتعافَ منه بعد فقدان ابنها.

لقد خلَّف رحيل الأب أثرا بالغا على الجميع، لا سيما العمّة ألين، وقريبته العمة توانيت التي كان بالنسبة لعالمها محورا تدور حوله جميع تفاصيل حياتها.

أصبحت العمة ألين الآن حارسة لمصالح الأولاد الخمسة بمساعدة أحد أصدقاء أخيها الراحل واسمه سيرغيه يازيكوف الذي كان يملك عزبة في مقاطعة تولا. كان سيرغيه يازيكوف الأب الروحي لليف الصغير، لكن تواصله منذ البداية كان في حده الأدنى ومن ثم انحسر أكثر فأكثر لاحقا. بالإضافة إلى اضطلاع ألين بمسؤولية تعليم الأولاد، توجب عليها أن تنشغل بالأمور العملية الأولية كبيع الماشية وجني الحصاد، إذ غدت الآن أمينة على مدخول عظيم يأتي من خمسة عقارات منفصلة ورثها أولاد الراحل. فكل عقار من تلك العقارات يحتوي على مزرعة وكل مزرعة فيها حسابات معقدة وجب تدقيقها بعناية، مما دفع ألين إلى التعامل مع وكلاء أفظاظ وحفظة وثائق أجلاف غير نزيهين ومشاكسين في غالبية الأحيان.

أصبحت ألين الآن مسؤولة أيضا عن مئات الخدم في أسرة تولستوي، أولئك الخدم الذين لعبوا الدور الأبرز في جعل حياة آل تولستوي سهلة مريحة، كانت إذن مهمة ألين عسيرة وتتطلب شخصا حكيما. لكنها كانت ساذجة ذات نزعة روحانية بعيدة كل البعد عن الحياة المادية، ولهذا لم تتلاءم شخصيتها مع هذه المهمة، أضف إلى ذلك أن نيكولاي إيليتش كان قد قام بمناورات دقيقة متقنة لكي يمكن أسرته من العيش المريح بالطريقة التي اعتادوا عليها في

موسكو وفي الريف، لكنه لم يستطع أن يشذب وينهي شؤونه المالية فتركها في فوضى عارمة وقت وفاتهن، وكل ما كانت تراه ألين دين بعد دين بعد دين، ناهيك عن القضية المعلقة لعزبة بيراغوفا التي لم تنته ولن تنتهي لصالح آل تولستوي قبل سنوات مديدة من الآن.

مكث آل تولستوي في موسكو خلال شهور الصيف الحار بعد حادثة وفاة الأب التي حالت دون عودتهم مباشرة إلى ياسنايا بوليانا. وكان من حظ ألين وجود العمة توانيت التي ساعدتها في رعاية الأطفال في تلك الفترة، فقد قامت على سبيل المثال باصطحابهم إلى مسرح البولشوي في خريف ذلك العام حيث جلسوا جميعا في مقصورة. وقد تذكر تولستوي هذه المناسبة، وقال إنه لم يكن يعرف حينها أنه لا ينبغي عليه النظر مباشرة إلى المقصورات في الجهة المقابلة بل إلى خشبة المسرح فقط.

شاركت الجدة الموقرة أيضا في رعايتهم، وعُين بروزبيري سانت توماس مدرّسا للغة الفرنسية للأولاد، وبعد ثلاثة أيام من وفاة الأب قررت الجدة بلاغيا نيكالايفنا دعوة فرنسي أشقر من غرينوبل ليشغل منصب المربي المقيم ويحل محل المدرس الألماني الطيب غير الكفؤ فيودور إيفانوفيتش. وبما أن الجدة كانت منبهرة بكل شيء فرنسي فقد حسبت أن سانت توماس سيشكل المرجعية المثالية كرجل قدوة يحتذي به الأولاد. كان الرجل القصير دون شك رجلا ديناميا، لكن تولستوي ازدرى غروره وأنفته ولم يكن منبهرا بخطاباته الطنانة المتحذلقة، بالإضافة إلى أن سانت توماس كان مؤدِّبا قاسيا يُرغم طلابه على الجثو على الركبتين وتوسُّلِ الغفران عقابا على خطأ يرتكبونه. وقد حبس ليف الصغير في إحدى المناسبات وهدده بالعصا، مما خلف لدى تولستوي انطباعا عميقا -لا يتناسب مع حجم كارثة فقدان الأب حينها- طُبع في ذاكرته ودوَّنه في مذكراته بعد ستين سنة، مستذكرا المهانة والبؤس اللذين شعر بهما لدى سماع ضحكات بقية أفراد العائلة بسبب زجه في «الحبس». وقد بلغ مبلغا قصيا في تأويله لتلك المحنة التي اعتبرها أصل توجسه الدائم من ويلات العنف. ومن اللافت بالفعل اعتبار تلك الحادثة أصلا لنهجه السلمي فيما بعد.

علق لينين عام 1908 على روايات تولستوي بمقولته الشهيرة: «أبرز ما يميز أدب تولستوي هو سقوط الأقنعة» ويبدو أن تولستوي وهو لم يبلغ التاسعة بعد استطاع أن يُسقط قناع مدرس اللغة الفرنسية من خلال رؤية ما يقع خلف واجهة تصنّعه. ورغم أن تولستوي كان قد بدأ بالتمتع بالدراسة في هذه الفترة بالذات إلا أن طبيعة شخصيته العنيدة والمتصلبة جعلته ممتعضا من الخضوع لسلطة شخص لم يكنَّ له أيَّ احترام. بعد ذلك أصبح تولستوي يمتعض من الخنوع لأي سلطة كانت.

ويرجع، ربما، هذا التوتر في العلاقة بين الطالب والأستاذ إلى وعي تولستوي بأنه يمتلك على مستوى معيَّن فكرا أنضج وأسمى من فكر معلمه، رغم أن ألمعيّته لم تكن تظهر دائما ولم تكن كذلك بالفعل عندما حاول الطيران، إذ يبدو أن الروح التولّستوية الجموح دفعته في أحد الأيام إلى الذهاب إلى غرفة الصف في الطابق الأوسط والجري باتجاه النافذة والقفز منها؛ ربما لأنه أراد من تلك الواقعة أن يقوم بشيء استثنائي خارج عن المألوف ليدهش الجميع. أما البقية فكانوا جالسين في أماكنهم يتساءلون عن سبب غيابه وبقوا كذلك غير مكترثين بما جرى، حتى كشف طاهٍ النقاب عن سر غيابه؛ إذ رآه من خلال نافذة المطبخ يسقط سقوطا حرا باتجاه الأرض. وبفضل متانة بنيته الجسدية فَقَدَ تولستوي وعيه لفترة وعانى من ارتجاج طفيف في الدماغ، وقد تعافى تماما بعد أن غطَّ في نوم متواصل لثماني عشرة ساعة.

في مايو 1838 وقبل الذكرى السنوية الأولى لوفاة نيكولاي إيليتش بقليل، رحلت البابوشكا الجدة بلاغيا نيكولايفنا بعد صراع طويل ومرير مع المرض عن عمر ناهز السادسة والسبعين. وكان تولستوي عندها حاضرا بكل جوارحه عندما قبَّل يدها البيضاء الخالية من الحياة الهامدة على شرشف أبيض هو وإخوته قبلة الوداع، وهي مستلقية في سريرها المرتفع قبل لحظات من رحيلها. كان على تولستوي أن يتحمَّل أيضا رؤية وجهها الحازم ذي الأنف المعقوف في التابوت المكشوف على الطاولة قبل أخذها لتُوارى الثرى، ويلبس سترة سوداء جديدة مخصصة لمناسبات العزاء. يُذكَر أن الجدة لم تكن لتتخيل أي تغيير يطرأ على أسلوب الحياة الأرستقراطي المهيب الذي زاولته في حياتها، لذا أصرت تماما بعد موت ابنها على

الحفاظ على طقوس وعادات الأسرة المرتبطة بتناول الطعام ومواقيته وغيرها من الأمور التي تشبث بها الجميع، لكن ذلك كله تداعى الآن بعد رحيلها. أما العمة ألين، ورغم افتقادها لحسن التدبير، فإنها لاحظت أن ثمة خطبا ما لحق بالحسابات، فبعد طرح المال الذي يجب دفعه رواتبَ أو مستحقاتٍ أو رشى، فإن المدخول المتأتي من خَمس ضيع للأسرة بالكاد غطَّى إيجار منزلهم في موسكو ورواتب جميع المدرسين ناهيك عن المصاريف الأخرى.

تعيَّن اتخاذ خطوات حاسمة، وبالفعل انقسمت العائلة إلى مجموعتين، بقيت إحداهما في موسكو في منزل أصغر وأقل تكلفة وتألفت من العمة ألين وسانت توماس وباشينكا وأكبر الأولاد (ميخائيل وسيرغيه)، وقد سعد الجميع بمغادرة البيت الكبير الذي شهد أحزانا جمة. أما الصغيران، ليف وديمتري، وأختاهما ماشا ودونيشكا، فقد أعادتهم العمة توانيت مع فيودور إيفانوفيتش إلى ياسنايا بوليانا.

وكان أحد ضحايا هذا الانقسام حوذي آل تولستوي المخلص ميتكا كوبيلوف، إذ لم تستطع الأسرة دفع تكاليف إبقائه على رأس عمله رغم أن رشاقته وقوته البدنية سمات جعلته حوذيا ذا قيمة سامية يصعب تعويضها. وتجلت تلك السمات النبيلة وخدماته الجليلة واعتزازه بعمله في القمصان الحريرية والمعاطف المخملية التي كان يرتديها جزاءً حسنا لما كان يقوم به.

ثمة كثير من تجار موسكو الراغبين في توظيف حوذي أنيق كميتكا، لكن بسبب تجنيد أخيه في الجيش وفقا لنظام الكوتا المعمول به آنذاك، أُرغم ميتكا على العودة إلى ياسنايا بوليانا ليزاول مهامه كعامل عادي، وقد مثَّل التجنيد خسارة فادحة لأسر الفلاحين لأن جنود المشاة لم يستطيعوا أن يعودوا إلى ذويهم إبان فترة التجنيد التي كانت قد خُفِّضت لتصبح عشرين سنة، وهكذا تجلت صعوبة الموقف لدى أسرة ميتكا، ذلك أن أباه العجوز أراد أن يعود ابنه الثاني إليه ليساعده في فلاحة الأرض والعمل في الحقول، وبالفعل عاد ميتكا إلى أبيه، وتحول الحوذي الموسكوي الأنيق المبتهج خلال شهور قليلة إلى فلاح رثِّ الملابس كئيب المظهر يرتدي

بوطا مصنوعا من لحاء الليف طويل الرقبة، شأنه شأن أي فلاح بسيط. لم يكن لديه أي خيار آخر فقد أصبح من أقنان الأرض. وقد علّق تولستوي لاحقا على الكيفية التي تقبّل فيها ميتكا برضا تام عمله الجديد المرهق في الزراعة، وكيف تخلى من دون تبرم أو تذمر عن مهنته السابقة التي أحبَّها، وكيف أثَّر ذلك كله على توجهات تولستوي وشعور التعاطف الأولي المتنامي تجاه طبقة الفلاحين الروس والتراحم معهم واحترامهم.

ورغم تمتعه الجزئي بتجربة العيش في موسكو وفرصة تكوين علاقات جديدة وأصدقاء جدد، فإن تولستوي كان مسرورا بعودته إلى ياسنايا بوليانا بعد وفاة جدته، لا سيما أنه خلّف وراءه سانت توماس؛ المعلم الذي لم تكن علاقته به على ما يرام. وسنحت الفرصة الآن لتولستوي وأخيه ديمتري لأن يذهبا لاستكشاف عزبة بيراغوفا التي احتوت على مزرعة خيول رائعة، وحصل الأخوان بالطبع على حصان صغير الحجم لكل منهما. وقد أمضيا سنتين كاملتين بعيدا عن بقية أفراد الأسرة، بيد أن المراسلات بينهم لم تنقطع. لم تكن الرسائل الأولى مثيرة، فقد كتب سيرغي إلى ليف وديمتري رسالة بعد أسبوع من مغادرتهما موسكو، عبَّر فيها عن رضاه عن البيت الجديد وقال فيها إن نبات الصبار يوشك أن يزهر، فردَّ عليه ليف في رسالة تحدث فيها عن حصانه الجديد. وكُتبت بعض الرسائل بالفرنسية، وكتب بعضها الأخ الأكبر نيكولاي ووجَّه بعضها لأختهم ماريا. وفي بعض الأحيان كان المرسل يأتي على ذكر دونيشكا قبل أن تغادر الأسرة لتلتحق عام 1839 بمدرسة داخلية في موسكو، وهكذا أصبح ليف قريبا من أخته ماشا أكثر من أي وقت مضى نتيجة لرحيل دونيشكا.

قام أفراد الأسرة التلاميذ عام 1839 برحلة ترفيهية لزيارة موسكو مجددا. وبما أنهم كانوا يسافرون أثناء فصل الصيف، وبما أن تولستوي أصبح في الحادية عشرة من عمره وغدا فضوليا إزاء كل شيء، فقد شكلت تلك الرحلة مغامرة فريدة بالنسبة له. أما أكثر حدث لافت مرتقب فهو فرصة رؤية القيصر يضع حجر الأساس لكاتدرائية المسيح المخلّص، وهي الكنيسة التي

وعد القيصر ألكسندر الأول ببنائها عام 1812 عندما انسحب نابليون من موسكو؛ وذلك «للحفاظ على الذكرى الخالدة للحميّة والهمّة غير المسبوقة والولاء الفريد للعقيدة والوطن الذي مجَّدَ من خلاله الشعب الروسي نفسه في تلك الأيام الصعبة، وللتذكير بامتنان للعناية الإلهية التي أنقذت روسيا من الدمار المحدق بها». وهكذا بعد خمس سنوات على طرد نابليون من موسكو وُضع حجر أساس الكاتدرائية عام 1817، في احتفال مهيب حضره القيصر وأفراد أسرته و400 عضو من المؤسسة الدينية الروسية الأرثوذكسية، و50 ألفا من ضباط الحرس، ومئات الآلاف من الرعايا المخلصين. ورغم ضخّ 16 مليون روبل من خزينة الدولة وتوفير 20 ألف عامل من الأقنان لبنائها فإن التشييد لم يتم وفقا للخطة. وقد قيل رسميا بأن البناء توقف بسبب عدم سلامة الأسس التي من المفترض أن يُبنى عليها، لكن السبب الحقيقي كان متعلقا باختلاس الأموال المخصصة للمشروع، ما أدى إلى فضيحة كبرى استمرت فترة طويلة، وألهمت الكاتب غوغول لكتابة مسرحيته الكلاسيكية «مفتش الحكومة» عام 1836.

نقل نيكولاي بعد أن أصبح القيصر عام 1825 موقع الكاتدرائية من السبارو هيلز، وهي أعلى هضبة في موسكو، إلى موقع على ضفاف النهر بالقرب من الكرملين. وقام أيضا بتغيير التصميم الكلاسيكي الجديد الأصلي ليصبح بيزنطيا روسيا جديدا على غرار كاتدرائية القديسة/ آية صوفيا الجوستينية في القسطنطينية. وقد تساوق ذلك التصميم مع ذوق القيصر ورؤيته للإمبراطورية الروسية. وهكذا شكل وصول ألكسندر الأول إلى موسكو في سبتمبر عام 1839 ليضع حجر الأساس الجديد للكاتدرائية حدثا وطنيا. وكان آل تولستوي في موقع الحدث يشاهدون ما يجري مباشرة من خلال نافذة منزل ألكسيه ميليوتين (المطل على موقع الحدث)؛ وهو صديق الأسرة ورئيس لجنة تشييد الكاتدرائية. وهكذا أُتيحت لهم فرصة ذهبية لمشاهدة تفاصيل الحدث عن قرب، فقد انبهروا بمشاهدة القيصر وحرس بريوبراجنسكي للنخبة بزيهم الرسمي البديع، وهم الذين أتوا خصيصا من بطرسبرغ لمرافقة القيصر نيكولاي

الأول والمشاركة في العرض العسكري. وبعد أدائه الصلاة في كاتدرائية الصعود في الكرملين، قاد القيصر موكبا وتدرج باتجاه موقع التشييد يتبعه مخضرمو حرب 1812 وعلية القوم من الكنيسة، بالإضافة إلى عشرين كتيبة من المشاة وست فرق من الخيالة، يصاحب كل ذلك طلقات متتالية مستمرة من المدفعية وقرع الأجراس في جميع كنائس موسكو. هكذا احتُفي مجددا بالانتصار العظيم على نابليون.

تم الانتهاء من بناء الهيكل الخارجي الضخم للكنيسة بعد ربع قرن من انسحاب نابليون، حينها كان تولستوي في أوج إحساسه القومي منهمكا في كتابة روايته الضخمة التي تعرض أحداث عام 1812. لكنه بعد سنوات طويلة عام 1883 لم يرغب في الاقتراب من الكاتدرائية التي اكتمل تشييدها وزخرفتها وتزيينها بديكور داخلي فخم في ذلك العام وسط احتفالات مهيبة. بالفعل فقد كان حينها بعيدا عن موسكو بمئات الأميال، يحتسي لبن الخيل (كوميس) المخمر في مزرعته في سهوب سمارا، نابذا العقيدة الأرثوذكسية متخليا عن رواياته مستغنيا عن شعوره القومي إلى الأبد. كان في تلك الفترة يعود بالذاكرة إلى زيارته لموسكو عام 1839 عندما كان يبلغ الحادية عشرة من العمر، موقنا أنه بدأ يشك في عقيدته منذ ذلك الحين. يشرح تولستوي في كتابه «اعتراف»، الذي حاول نشره عام 1882، كيف أن شعورا باللهفة والحماسة الغامرة طغى عليه وعلى إخوته عندما زارهم فلاديمير ابن ألكسيه ميليوتن في يوم من أيام الخريف. وقال لهم إنه اكتشف أن الله غير موجود، حفرت تلك الزيارة عميقا في ذاكرته، كما حفرت حادثة حبسه من قِبل معلمه.

ثمة ذكريات أخرى قليلة ومتقطعة لفترة طفولة تولستوي، ولهذا لاقت الأحداث المنعزلة التي دوَّنها في مذكراته عن تلك الفترة صدى مميزا. فعلى سبيل المثال، لم يشهد الفتى تولستوي العقاب الجسدي الذي كان يُمارس أحيانا في ياسنايا بوليانا في الفترة التي سبقت وفاة أبيه؛ إذ كان النظام المتبع في العزبة عموما أكثر إنسانية من أي عزبة أخرى للنبلاء في تلك المنطقة. وفي

أحد الأيام، وبينما كان تولستوي عائدا مع معلِّمه وإخوته من جولة مشي، مرّ الجميع بمحاذاة مخزن درس الحنطة، ليجدوا أمامهم وكيل العزبة السمين أندريه إلين يتبعه مساعد حوذي العائلة كوزما، الذي كانت ملامح وجهه تشي بالحزن العميق جراء أمر ما حدث معه. وعندما سُئل الرجلان عن وجهتهما أجاب أندريه بدم بارد بأنه يسوق كوزما إلى مخزن درس الحنطة ليجلده. كتب تولستوي عن تلك الحادثة: «لا أستطيع أن أصف الشعور المروع الذي انتابني عند سماعي تلك الكلمات وما خلَّفته في نفسي مشاهدة كوزما الودود المغتم»، مشيرا إلى أن كوزما كان حينها رجلا متزوجا اجتاز فترة الشباب. وعندما أخبر تولستوي العمة توانيت عن تلك الحادثة استشاطت الأخيرة غضبا ووبخت الأطفال لعدم تدخلهم لإيقاف أندريه عن القيام بجلد المسكين، رغم أن الأولاد كانوا على يقين من عدم قدرتهم على التدخل.

كانت العمة توانيت تمقت العقاب الجسدي، ولم تكن ترفض تعرض الأولاد للعقاب فحسب بل قامت بكل ما بوسعها لمنع ممارسة العقاب على الخدم بحسب الاقتضاء. يدرج تولستوي لاحقا هذه الحادثة في مقالة مفعمة بالمشاعر الجياشة كتبها عام 1895 بعنوان «مخجل»، مندداً فيها بالفلاحين الذين يستسلمون للعقاب الجسدي المهين لقاء أي جنحة تافهة يقترفونها.

لم ينس تولستوي المناسبة التي هدده فيها مدرس الفرنسية بالضرب، لكنَّ الضغينة التي خلَّفتها تلك المناسبة في صدره ما لبثت أن تبخرت، لا سيما بعد أن كتب سانت توماس له رسالة تشجيع وتهنئة بعدما ألَّف تولستوي قصيدة عرفان في مناسبة عيد شفيع العمة ألين، في يناير عام 1840، بحضور جميع أفراد الأسرة في ياسنايا بوليانا. حينها أبهر الجميع بتلك القصيدة، لدرجة أن العمة ألين أخذت نسخة معها إلى موسكو لتعرضها على المدرس سانت توماس الذي لم يكن على درجة رفيعة من الحزم الذي قد يحول دون اكتشاف المواهب الصاعدة. توطَّدت العلاقة الودية في ذلك الصيف من تلك السنة بين المدرس والأولاد بعد أن

زار سانت توماس ياسنايا بوليانا لأول مرة وانطلقوا جميعا في رحلة صيد. ويُذكر أن المدرس الفرنسي كان قد أطلق على تولستوي لقب «موليير الصغير» «Un Petit Molière».

استمر تولستوي في الأثناء بمقاومة التعلُّم بالتلقين وحفظ المواد عن ظهر قلب، سواء على يد مدرس اللاهوت الذي كان يُدرّس الأولاد في ياسنايا بوليانا، أو العجوز فيودور إيفانوفيتش روسل الذي طُرد من خدمة التدريس عام 1840 بسبب إدمانه شرب الخمر. لكن المدرس الألماني الجديد الذي حلَّ محله، وكان يدعى آدم فيودرفيتش ميير، برهن أنه أسوأ من السابق بمراحل، وبالتالي سُمح مجددا لفيودور إيفانوفيتش بالعودة إلى ياسنايا بوليانا حيث أمضى سنوات أخرى يعيش معلما متقاعدا إلى غاية منتصف ذلك العَقد. ربما لم يكن تولستوي الطالب الأكثر تفوقا أو اجتهادا في طفولته أو حتى في فترة مراهقته، لكنه كان يستمتع بالمطالعة التي لم تشتمل بالطبع على الإذعان لأي نوع من أنواع السلطة القسرية. وبعد سنوات طويلة، وفي الستينيات من عمره، كشف تولستوي النقاب عن الكتب التي خلّفت انطباعا رائعا لديه بعد قراءتها في فترة الطفولة، لا سيما كتاب الأساطير العربية «ألف ليلة وليلة»، الذي سمع بعضا من قصصه على لسان القاص الأعمى في غرفة نوم جدته، بالإضافة إلى قصيدة «نابليون» للعبقري بوشكين، التي نظمها عام 1821، وأوقدت في نفس تولستوي لهيب التوق إلى استكشاف تلك المرحلة من الحروب النابليونية التي عرضها في عمله العظيم «الحرب والسلام» لاحقا، إضافة إلى قصة أنتون بوغوريلسكي[52] «الدجاجة السوداء وسكان القبو»، التي تركت انطباعا حميدا لديه، ربما لأنه كان يربي الدجاج والصيصان عندما كان فتى صغيرا.

وقد كُتبت هذه القصة عام 1829 إهداءً لابن أخت الكاتب أليوشا تولستوي الذي كان يبلغ من العمر آنذاك اثني عشر عاما (وهو ذو قرابة بعيدة من ليف تولستوي وقد أصبح فيما بعد كاتبا

(52) Антоний Погорельский (Anton Pogorelsky).

مرموقا أيضا). وتتمحور القصة حول شخصية فتى صغير (يُدعى أيضا أليوشا) يُنقذ الدجاجة المفضلة لديه من خطر طهيها وتقديمها على مأدبة العشاء. ويتضح أيضا أن تلك الدجاجة تشغل منصب وزير في مملكة سرية للكائنات المصغرة. وهكذا يجزي ملك المملكة أليوشا بأن يُقدّم له بذرة سحرية من الذرة تمكنه من احتلال المرتبة الأولى بين أقرانه في الصف من دون جهد الدراسة. ويواجه أليوشا بعض الصعاب بعد فترة من استخدام البذرة السحرية ويبدأ بفقدان قواه السحرية، ليكتشف بعدها أهمية الجد والعمل الدؤوب والتواضع. ورغم أن القصة تُصنَّف في خانة أعمال الخيال الفنتازيا، فإنها تحتوي على بعض صور من حياة الكاتب، وتعتبر العمل الأول الموجه للأطفال في الأدب الروسي. ورغم أن بوغوريلسكي (1787-1836) كان كاتبا متواضعا من حيث المقدرة والشهرة، فإن قصته كانت الأولى في أدب الطفل الروسي. وهي الحقيقة التي تنفي ما يقال عن عمل تولستوي الأول الذي سرد فيه سيرته الذاتية في مراحل ثلاث (ثلاثية الطفولة والصبا والشباب) بأنه شكل العمل الأول في الأدب الروسي الذي يركز على طفل بوصفه شخصيةً رئيسيةً في الكتاب، فهذا تشخيص غير دقيق، فتولستوي نفسه لم ينس قصة الدجاجة السوداء قَط، وقد عكف في فترة لاحقة من حياته على كتابة قصص مبسطة موجهة للجمهور البسيط من العامة دمج فيها مستويين من الحس الأخلاقي والفانتازيا. وبما أن أدب الطفل لم يكن مشهورا عندما أصبح تولستوي بالغا، لا سيما ذلك الموجه لأطفال الفلاحين، فقد فكر تولستوي بسد هذه الفجوة من خلال 629 عملا تتراوح بين القصص والأساطير ورسومات وحكايات رمزية وغيرها.

أما الأعمال التي سجلها تولستوي عام 1891 وأثرت عليه كثيرا عندما كان طفلا، فهي قصة يوسف في الإنجيل، وقصص الجن الخيالية الروسية، والملاحم الشعبية الفولكلورية (البيليني) التي تتناول أبطالا أسطوريين شبه تاريخيين (بوغاتيري) في روسيا القديمة. وقد ذكر تولستوي منهم ثلاثة أسماء هم: دوبرينا نيكيتيتش الأمير الأرستقراطي (البويار الدبلوماسي قاهر التنين)

من مدينة كييف، والداهية ابن القسيس أليوشا بوبوفيتش الذي يلجأ إلى الخدعة ليهزم خصومه، وإيليا المورومي[53] البطل الأعظم من بينهم الذي يعتبر التجسيد الأدبي الأقوى للشعب الروسي، فهو ابن فلاح يستلقي في المنزل أمام مدفأة من الأحجار دون حراك حتى يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما، ثم يتلقى القوة من بعض المتسولين الجوالين، فينطلق على صهوة حصانه ليقوم بمآثر عظيمة ويتغلب بمفرده على جيوش هائلة، ودائما يستمد قوته الرهيبة السوبرمانية من ثرى الأرض الروسية. إيليا المورومي محارب يجمع بين القوة الفتاكة والروح الخجولة الطيبة، بالإضافة إلى الصبر والجَلَد، وهو لا يرغب في القتل لمجرد القتل، بل إنه شغوف بالدفاع عن وطنه وأمته، وهو المحارب الأسطوري الوحيد الذي طُوِّب في الكنيسة الأرثوذكسية وأصبح قديسا، وهو زاهد أيضا متبتِّل غير راغب في الزواج، وقد مثَّل دائما أيضا رمزا للقوة الروحانية.

أما الرجل الروسي الوحيد الذي اقترب من إمكانية مقارنته مع إيليا المورومي العتيد، فلم يكن سوى تولستوي نفسه الذي كان متفانيا في حب بلده كما هو شأن إيليا. وقد اشتهر تولستوي في صفوف الأجانب والروس من خلال علاقته بأرض روسيا وثقافتها (فقد قال أحدهم إنه من المستحيل أن تقرأ أعمال تولستوي ولا تشعر بالروح الروسية فيها).

كان تولستوي قد بلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما عندما وجد ضالته وبدأ بضبط توجهاته، فباشر كتابة رواية «الحرب والسلام» ملحمته الخاصة التي تُعتبَر أحد أعظم وأطول الأعمال الروائية على الإطلاق (لم يعتبرها تولستوي عملا روائيا خالصا بالمفهوم التقليدي). وقد عُرف تولستوي بقوته البدنية وقدرته على التحمل، إذ كان يمضي فترات طويلة على صهوة حصانه، وقاتل ببسالة إبان فترة تجنيده في الجيش الروسي. وكان رجلا فاحش الثراء ولديه عائلة ممتدة،

(53) Илья Муромец (Ilya Muromets).

لكنه تخلى في النهاية عن جميع أمواله ليعيش بتواضع ويعمل مع الفلاحين ويتحدث باسمهم ويحارب جميع أشكال الظلم، لدرجة أنه أصبح الزعيم الروحي الأكثر نفوذا في عموم روسيا، معلنا بذلك العفة والتبتل. وقد صُور في الرسوم الكاريكاتورية أديبا عملاقا مقارنة مع أقزام الأدب الروسي المعاصر، كما صُوِّر بهامة فارعة، ضخم الجثة مقارنة مع غيره من الكتاب، لدرجة تصويره في أحد الرسوم كإيليا المورومي وهو يعتلي صهوة جواده، في محاكاة للوحة فاسنيتسوف الشهيرة عام 1898 التي يصور فيها تولستوي وكاتبين آخرين كالمحاربين الأسطوريين الثلاثة (كورولينكو كدوبرينا نيكيتيتش، وتشيخوف كإليوشا بوبوفيتش، وتولستوي كإيليا المورومي). ولذلك لا عجب في أن كثيرين ممن كانوا يحجّون إلى ياسنايا بوليانا ليروا حكيمها العظيم كانوا يتوقعون رؤية عملاق بشري أمامهم، لكنهم في الواقع يحتارون لدى اكتشافهم بأنه عادي الحجم معتدل القامة.

بعد رحيل الأب والجدة عامي 1837 و1838 استغرق أمر استقرار آل تولستوي وقتا لا بأس به، لأن مشكلة كبيرة أخرى عصفت بالعائلة في فترة لاحقة. ففي عام 1841، وفي ذكرى ميلاد تولستوي الثالثة عشرة، توفيت العمة التقية ألين بعد مكوثها فترة طويلة في دير أوبتينا بوستنايا الذي انجذبت إليه بفضل الحكمة الروحية العميقة لشيوخ ذلك المكان. كانت ألين مؤمنة أرثوذكسية ملتزمة بنظام صوم صارم قوّض صحتها الهشَّة أصلا. تحوَّلت وصاية الأولاد (أربعة قاصرون: سيرغيه وديمتري وليف وماشا، ونيكولاي البالغ ثمانية عشر عاما حينها) بعد موتها إلى أختها الأصغر بلاغيا التي سميت على اسم أمها لكنها كانت تعرف باسم بولينا. وكانت بولينا بالكاد معروفة لدى الأولاد لأنها بقيت في مدينة قازان بعد وفاة جدهم، فقد تزوجت عام 1818 وهي في العشرين من عمرها عقيدا متقاعدا من فرقة الخيالة (الهوسار) يدعى فلاديمير يوشكوف. حرَّر نيكولاي تولستوي بعد وفاة عمته ألين رسالة وجَّهها إلى فلاديمير إيفانوفيتش يوشكوف قائلا:

«نطلب جميعا من عمتنا؛ أنا وإخواني وشقيقتي، أن تصبح ولية أمرنا، وألّا تتخلى عنّا ونحن نعيش في هذا الكرب. عليك يا عم أن تقدّر موقفنا المروع والجزع الذي نعيش فيه، نناشدك يا عم بحق الله وعمتنا الراحلة (ألين) ألّا ترفض طلبنا فأنت وعمتنا بولينا سندنا الوحيد في هذا العالم».

لم ترغب العمة بولينا في الانتقال إلى ياسنايا بوليانا، لأن زوجها كان يُكنُّ مشاعر إعجاب في السابق نحو توانيت. وبما أن بولينا لا تزال تخفي في صدرها ضغينة تجاهها، فقد قررت أن ينتقل أولاد أخيها إلى قازان. وقد يُقال إنه من الطبيعي أن تضطلع العمة توانيت بتربية الأولاد وتحلَّ محل الوالدين ويستمر الأولاد في العيش معها في ياسنايا بوليانا، لكن بسبب كونها قريبة بعيدة إلى حد ما، فقد أُرغمت على الإذعان لطلب العمة بولينا، رغم أن أحدا من الأولاد لم يرغب في الذهاب إلى قازان والتخلّي عن عمتهم المحبوبة توانيت التي انتقلت الآن للعيش مع أختها ليزافيتا، وهكذا بدأ الأولاد بحزم حقائبهم مجددا في نوفمبر عام 1841.

الفصل الرابع

مرحلة الشباب

«قرأت أعمال روسو الكاملة.. قرأت المجلدات العشرين.. بما فيها معجم الموسيقى، وكنت أكثر من مجرد معجب به.. كنت أعبده. وعندما كنت في الخامسة عشرة من عمري تقلّدت ميدالية حول عنقي وضعت فيها صورته بدلا من الصليب. فأنا أجد نفسي في كثير من الصفحات التي كتبها، وهي تشعرني حين أقرؤها بأنني أنا الذي كتبها».

تولستوي في محادثة له مع بول بوير، 1901.

مثّل الانتقال إلى قازان نهاية فترة براءة تولستوي، إذ فقد عذريته عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره. وقد وصف لاحقا السنوات العشرين التالية بفترة «العيش المنفلت من كل عقال لخدمة الطموح والكبرياء وفوق ذلك كله الشهوة». لم تكن السنوات الخمس والنصف التي أمضاها في قازان أجمل فترات عمره، فقليل من ذكريات تلك الفترة كان سعيدا، ومع ذلك شكّلت سنوات المراهقة فترة التأمل والتحليل الذاتي المكثف الذي تُوِّج بكتابة تحفته الأدبية الأولى. وقد أجرى تولستوي ذلك التحليل الذاتي منذ البداية من خلال التدوين والكتابة.

في سن الثامنة عشرة، قُبيل مغادرته قازان عائدا إلى ياسنايا بوليانا، بدأ في كتابة مذكراته بانتظام. وهكذا لم تبدأ رحلة إبداعه العاصف مع إتمام أول عمل روائي عام 1851 أو نشر أول عمل له بعدها بسنة، بل بدأت تلك الرحلة مع أول سطور كتبها في مذكراته في مارس/ آذار من عام 1847. وبالتالي أصبحت مذكراته التي حافظ عليها بشكل متقطع طيلة حياته، حجر الزاوية في كتاباته، لا سيما المذكرات التي تضخّمت باضطراد في العقد الأخير من عمره فملأت أربعة عشر مجلدا من أعماله الكاملة.

شكّل انتقال الأسرة إلى قازان في نوفمبر من عام 1841 مهمة كبرى، كما كان شأن انتقالها إلى موسكو عام 1837، رغم عدم وجود بالغين من الأسرة في الرحلة الثانية. بيع أحد ممتلكات العائلة النائية لسداد الديون العالقة، ومن ثم حملت حاجياتها على عدد من القوارب

التي انطلقت ببطء تجاه قازان عبر نهري الأوكا والفولغا، وعلى متنها عدد لا بأس به من الخدم كالنجارين والحاكة والفنيين والطهاة ليسهّلوا معيشة الأولاد في بيتهم الجديد. أما الإخوة الأربعة وأختهم الصغرى فقد انطلقوا لاحقا في رحلتهم إلى قازان على المزلجات براً من موسكو مرورا بنيجني نوفغورد وتشيبوكساري، عاصمة الشعب التشوفاشي وأحد الموانئ الرابضة على نهر الفولغا. استقرَّت العائلة في الطابقين الأرضي والأوسط في منزل في وسط المدينة غير بعيد عن النهر وأحد أديرتها، لكن نوافذه كانت تطل على السجن. سكن أصحاب المنزل في الطابق العلوي وسكن الخدم في مسكن منفصل.

لم تكن قازان كغيرها من المدن الروسية؛ لأن أول ما يلاحظه من تطأ قدماه تلك المدينة لأول مرة وجود منارات وقباب لمساجد متعايشة مع عدد كبير من الكنائس. فقد كانت قازان حتى عام 1552 المركز النابض لدولة (خانيّة) تترية قوية تبنَّت الإسلام تدريجيا دينا لها، إلا أن إيفان الرهيب غزاها (وهو الذي احتفل بانتصاره العظيم الأول على مدينة تابعة لأراضي إمبراطورية المغول من خلال بناء كنيسة القديس باسيليوس في الساحة الحمراء في موسكو على الطراز الشرقي)، واستعمرها من خلال توطين الروس فيها، مما أدى إلى انحسار عدد التتار إلى أن أصبحوا أقلية مضطهدة. إن البقاء المعجز لأيقونة سيدة قازان (سيدتنا العذراء) بعد حريق هائل شبَّ في المدينة عام 1579 (بخلاف حرائق أخرى توالت على المدينة) هو مصداق للحماسة التي طُبِّقت فيها سياسة الروسنة في تلك المملكة الإسلامية السابقة. وحقيقة أن القائد الأعلى للقوات المسلحة الروسية، ميخائيل سوفوروف، تضرَّع لأيقونة سيدة قازان العذراء لمساعدة بلاده في درء خطر اجتياح نابليون لروسيا عام 1812، مصداقٌ للتقدير الرفيع والتبجيل السامي لتلك الأيقونة، ولهذا السبب دُفن سوفوروف عام 1813 في كاتدرائية قازان في سانت بطرسبورغ، حيث احتفظ بنسخة نادرة للأيقونة الأصلية التي أصبحت الآن الأيقونة الرئيسية التي يُخلَّد من خلالها انتصار روسيا على نابليونَ.

لكنَّ قازان لم تفقد روحها التترية مطلقا، فقد سمحت الإمبراطورة كاترينا العظيمة ببناء المساجد فيها مجددا في نهاية القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى تأسيس جامعة كبرى أصبحت

مركزا مهمـًا للدراسـات الشـرقية. إن تأسيس الجامعـة في تلك المدينـة (حيث التحق الإخـوة تولستوي جميعا للدراسـة) هـو مصـداق لأهميتهـا علـى الصـعيد الـوطني، فقبل إقرار قانون ألكسندر الأول الشهير لعام 1804، كانت موسكو ودوربات وفيلنا، المدن الثلاث الوحيدة التي تحتضن جامعات الإمبراطورية الروسية (كانت جامعتا دوربات وفيلنا تدرسان باللغة الألمانية لفائدة النخبة البلطيقية من المتحدثين بالألمانية). وبُنيت عام 1804 جامعتان أخريان في روسيا الأوروبية (سانت بطرسبورغ وخاركوف)، وثالثة في الشق الآسيوي في مدينة قازان (التي تبعد 750 ميلا عن سانت بطرسبورغ في جنوب شرق البلاد). احتضنت قازان أيضا المدرسة الحكومية الثانوية الأولى من نوعها خارج موسكو وبطرسبورغ. وبما أن النبلاء كانوا يحبّذون تعليم أولادهم في المنزل، استمرَّ الإخوة تولستوي في تلقي التعليم الخاص في منزلهم الجديد في قازان.

كانت قازان مدينة ريفية، لكنها كانت استثنائية بحسب معايير المدن الريفية الروسية الأخرى. وكان وجود الجامعة فيها أحد أهم أسباب انتقال آل تولستوي إليها، فبُعيد وصولهم في نوفمبر عام 1841 أعاد نيكولاي الأخ الأكبر دراسة السنة الثانية في اختصاص الرياضيات، بعد أن فشل في الانتقال إلى السنة الثالثة في جامعة موسكو بسبب رسوبه في الامتحانات النهائية. وتخرج بعدها عام 1844 والتحق بالجيش ونُقل بعد فترة وجيزة إلى القوقاز. أما إخوته فقد بدؤوا التحضير مع مدرسيهم لامتحانات دخول الجامعة، فالتحق ديمتري وسيرغيه بالجامعة عام 1843 ليدرُسا الرياضيات كما فعل أخوهما نيكولاي، أما ليف فلحق بهم عام 1844. أما شقيقتهم ماريا فقد اعتنت بها في المنزل مربية ألمانية، ثم التحقت بمعهد روديونوف الجديد للبنات في قازان.

لم تكن العمة بولينا منهمكة بجد في تربية الأولاد، وكان لها وقع طفيف على نشأتهم وفق كل الروايات، إذ كانت مختلفة عن أختها ألين العفيفة القانتة المتقوقعة على نفسها. تحلَّت بولينا بشخصية اجتماعية بامتياز، وكانت تقدّس الجمال والذوق الرفيع في كل شيء. ووفقا لرأي ابن أخيها وما يذكره عنها فإنها كانت امرأة ودودة مؤمنة لكنها مسرفة، كانت أيضا مغرورة

وسعيدة بالفرصة المتاحة لها لكي تقوم بدور مُخلّص أيتام آل تولستوي، لكنها كانت دائما مشغولة ولم تستطع أن تمارس أي دور أخلاقي رقابي على الإخوة تولستوي الذين اغتنموا الفرصة لينطلقوا في الحياة على نحو جامح. لم يكن زواج بولينا سعيدا، وقد دأب زوجها على خيانتها، لذلك يبدو أنها كانت تنفض عنها أحزانها من خلال تنظيم الحفلات والمشاركة فيها. وهكذا اشتهر بيت يوشكوف (لقب زوجها) بالحفلات الرائقة الترفيهية، كما اشتهر بأفضل الطهاة في المدينة. أما مساهمتها الرئيسية في تنشئة الأولاد فانحصرت في تخصيصها لكل واحد منهم خادما خاصا. عُيّن فانيوشكا لخدمة ديمتري الذي لم يعامله معاملة حسنة بحسب ادعاء أخيه الأصغر الذي تذكّر أن أخاه قام في أحد الأيام بضرب فانيوشكا، لكنه ما لبث أن توسل الغفران منه في نهاية المطاف. ويذكر أن حال ديمتري قد تغيرت بعد وقت قصير فأصبح مسيحيا ملتزما رغم أنه لم يتخلّ عن مزاجه النزق.

توفي ديمتري وهو شاب لم يتعدّ التاسعة والعشرين. وكان شخصية ضبابية في حياة تولستوي. ويبدو أنه لم يكن قريبا من أيٍّ من إخوته، لكن تولستوي يذكر كثيراً من الذكريات التي جمعته به في قازان. إذ لم يبدأ الكتابة عنه في مذكراته إلا في قازان. وبخلاف ليف الذي كان يصغره بسنة، لم يكن ديمتري يهتم أو يفخر بمظهره الخارجي كما كان يفعل ليف حتى قبل الانتقال إلى قازان. فقد كان شابا جادا هادئا، مع استثناءات نادرة، لا سيما بعد أن أصبح يرتاد الكنيسة باستمرار ويحافظ على الصوم والصلاة كعمته ألين من قبل. وبما أن ليف كان الأصغر، فقد كان يغار من جميع إخوته الكبار، وأكثر ما كان يحسده أخوه «ميتينكا» ديمتري عليه هو عدم اكتراثه برأي الناس فيه معتقدا أنها سمة ورثها أخوه من أمه. بالفعل، فقد استرعى ديمتري انتباه الناس، من حيث لا يدري، بسبب هيئته الرثة وشعره الأشعث، بخلاف جميع إخوته الذين كانوا يتوخون الأناقة والنظافة في مظهرهم وكانوا يخجلون من أخيهم للسبب نفسه. لم يكن لدى ديمتري أي اهتمام بالرقص أو ارتياد الفعاليات الاجتماعية أو حتى قضاء وقت طويل مع أفراد أسرته. وكان دائما ما يلبس زي الطالب لفترات طويلة. احتفظ تولستوي بذكرى ديمتري كشاب فارع القامة نحيل الجسد ذي عينين حزينتين واسعتين عسليتين لوزيتي الشكل. يتذكر

أيضا اختلاجا أو رعشة متوترة كان قد أصيب بها بعد أن بدأ الصيام جديا في المرة الأولى، وتلخَّصت في انتفاض الرأس بحركة انفعالية سريعة وكأن ربطة عنق تُضيِّق الخناق عليه. اعتمد تولستوي لاحقا على كثير من هذا التفصيل بالإضافة إلى جوانب أخرى من شخصية ديمتري وأسقطها على شخصية نيكولاي، شقيق ليفين، في رواية آنا كارينينا.

وبما أن الإخوة تولستوي كانوا حفدة حاكم قازان السابق، فقد كانوا يُدعَون إلى زيارة أنبل الأسر في المدينة. وقد تمتعوا تماما بتعرفهم إلى الطبقة الأرستقراطية المحلية؛ جميعا ما عدا ديمتري الذي لم يصادق سوى شخص واحد كان طالبا فقيرا رثَّ الثياب يحمل اسماً مؤسفا هو بوليبويارينوف[54] (يعني الشخص «نصف النبيل»، فضلا عن افتقار الاسم إلى السلاسة وثقل تهجئته). كان يمضي معه بعض الوقت وجل الوقت المتبقي في الكنيسة، وعوضا عن أن يذهب إلى كنيسة الجامعة العصرية الرائقة، كان يتردد على كنيسة ملحقة بسجن مقابل منزله، وكان يمضي فيها إبان عيد الفصح فترة أطول من تلك التي يمضيها في المنزل. إذ كان من العادة أن تُقرَأ شذرات من الأناجيل الأربعة تتحدث عن آلام المسيح، لكن قسيس تلك الكنيسة كان متزمتا ويصمّم على قراءة الأناجيل الأربعة برمتها. وبما أن الكنيسة الأرثوذكسية تصرُّ على قراءة الصلوات والرعية وقوف، فمن الطبيعي في تلك الحالة أن يكون رعايا الأبرشية واقفين لفترات طويلة، وهذا لعمري ما كان يرحب به ديمتري الذي كان من طبعه أن يرضخ باتقاد مازوخي لأي أمر يهتم به بشغف.

عندما يعود تولستوي بالذكريات إلى سنوات قازان يعترف بأنه وإخوته، وهم مراهقون، كانوا «بليدين» للغاية ليثمّنوا الصفاء الأخلاقي المدهش الذي تمتع به أخوهم ديمتري. وعوضا عن احترام ما كان عليه شقيقهم، عكفوا في المقابل، شأنهم شأن أصدقائهم في قازان، على «السخرية منه باستمرار»، كما أوضح تولستوي في كتابه «اعتراف»؛ حتى إنهم كانوا يسمونه «نوح». تجلى إيثار ديمتري المدهش ربما من خلال علاقته بليوبوف سيرغييفنا، البنت غير الشرعية التي ربتها أسرة تولستوي شفقة بها، والتي عاشت معها أيضا لدى العمة بولينا. يبيّن

(54) Полубояринов (Poluboyarinov).

تولستوي ليوبوف في مذكراته كيف أنها كانت «كائنا غريبا مثيرا للشفقة». وكشف في صفحات أخرى أيضا أنها كانت تعاني من مرض ما يجعل وجهها ينتفخ وكأنه لُسع من قِبل النحل. أضف إلى ذلك أنها لم تكن تكترث، خلال فصل الصيف، بالذباب الذي كان يغزو وجهها بأعداد كبيرة، وهو ما جعل النظر إليها أمرا غير مريح. يستذكر تولستوي أيضا أن شعرها كان خفيفا للغاية، ينحصر في بعض الخصل السوداء ولم يكن لديها حاجبان، بالإضافة إلى أنها كانت تتكلم بصعوبة ربما نتيجة لورم ما. وكانت تفوح منها ومن غرفتها رائحة كريهة على الدوام، إذ كانت تسكن في غرفة خانقة لا تُفتَح نوافذها مطلقا. عندما بدأ تولستوي الصغير يشعر بوجوده لم تكن الفتاة مثيرة للشفقة فحسب بل منفِّرة أيضا، فلم يُخفِ أفراد العائلة شعورهم بالتقزز منها، بينما كان ديمتري الشخص الوحيد الذي لم يدَّخر وسعا في الإصغاء إليها والتحدث معها واعتبارها صديقة له. ولم يُظهر لها البتة أنه كان يقوم بذلك من باب الإحسان، ولم يكن سلوكه الرائق تجاهها لفترة عابرة فحسب، بل استمر قريبا من ليوبوف سيرغييفنا حتى وفاتها في أغسطس/ آب عام 1844، وكان قد أنهى السنة الأولى في الجامعة.

كان ديمتري موهوبا فنيا كأبيه، وعندما كان يلعب الإخوة تولستوي معا منذ سنوات عدة فيقول لهم نيكولاي الأخ الأكبر إن جميع أمانيهم ستتحقق طالما التزموا بجميع الشروط التي يفرضها عليهم؛ عندها كان سيرغيه يُعبّر عن رغبته في قولبة الخيل والدجاج من الشمع، بينما يُعبّر ديمتري عن رغبته في رسم لوحات كفنان موهوب. وبالفعل، فمتحف تولستوي في موسكو يحتوي في أرشيفه على لوحات رسمها ديميتري بقلم الرصاص لمناظر طبيعية ريفية أخّاذة مبهرة من طفل لم يكن قد تجاوز العاشرة (أما ليف فلم يكن يفكر في شيء يقوم به حينها سوى رسم صور صغيرة).

ليس ثمة أحداث تعرض لسيرة تولستوي بين عامي 1842 و1843 في الرواية الرسمية لحياة تولستوي وأعماله. ولكن، بعد تنقيب حثيث تبيّن أن تولستوي بعد بلوغه الرابعة عشرة من عمره في أغسطس من عام 1842، اصطحبه أخواه نيكولاي وديمتري إلى بيت دعارة. وبعد سنوات عدة انتقدته زوجته نقدا لاذعا بسبب مشهد إغواء جنسي كتبه في آخر رواياته «البعث»

(وهو في السبعين) لأنها اعتقدت أن شيخا سبعينيا كزوجها لا يليق به أن يكتب قذارات كهذه، بينما أدت تلك التجربة غير اللطيفة في عمر المراهقة إلى اعتراف تولستوي لأحد أصدقائه بأنه وقف بجانب سرير المرأة وأجهش بالبكاء بعد أن خالطها بالأعضاء. وقد استعاد تلك الذكرى المريرة لاحقا عندما قال له شخص مِنْ معارفه إنه كان مترهبنا مبتدئا في دير شهداء سيزيكوس في منطقة ما بضواحي قازان، فأجاب تولستوي بصوت خافت بأن تلك المنطقة من الضواحي هي المنطقة نفسها التي سقط فيها «السقطة الأولى» في الحرام. وربما عزز ذلك الشعور بالندم معرفته بأن جده كان قد دفن في مقبرة الدير مع أشخاص آخرين من علية القوم (القبر الوحيد الذي ما زال قائما إلى يومنا هذا).

ندم تولستوي في مراحل لاحقة على غياب الموجه الأخلاقي في سنوات مراهقته في قازان، ففي الأول من يناير عام 1900 كتب في مذكراته أنه اقترف كثيرا من الموبقات في فترة شبابه؛ لأنه أراد أن يقلّد إخوته الذين كانوا يدخّنون ويشربون ويزاولون حياة فاسقة، باستثناء ديمتري بالطبع الذي وصفه أخوه نيكولاي بغريب الأطوار. فديمتري كان يزاول حياة العفة والعزوف عن أي عمل رذيل حتى بلغ من العمر 25 سنة. وهذا التعفف في رأي تولستوي كان نادرا جدا، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالعلاقة مع النساء. أما سيرغيه فكان نقيض ديمتري تماما، وقد تأثّر به ليف الصغير تأثرا كبيرا لا سيما في نزعته المتمردة. لقد كان سيرغيه الأمهر والأوسم بين إخوته، وإذا كان تولستوي يحِبّ و«يحترم» نيكولاي وكانت تجمعه علاقة «رفقة» بديمتري، فإنه كان «معجبا ومقلدا» لسيرغيه. بالفعل، فقد عبَّر عن ذلك بوضوح في مرحلة ما في مذكراته، بأنه أراد في واقع الأمر «أن يتقمَّص شخصيته»؛ ذلك أن سيرغيه كان معروفا بمهاراته الاجتماعية وحسِّه الفكاهي وصوته الرخيم وكان يغني باستمرار. وبينما كان تولستوي واعيا بذاته وخجولا جدا، وهذا ما أعاق استمتاعه بالحياة، كان سيرغيه شخصا منبسطا مع الناس لا يأبه لو أثار مظهره الخارجي أو سلوكه الترحيب أو التنديد، لذلك كان أكثر جاذبية من سواه في نظر أخيه الأصغر الذي اعتبره كائنا ساحرا غامضا عجيبا لا يُعرَف كنهه. وقد بدأ تولستوي تقليد أخيه في

سن مبكرة؛ أولا من خلال تربية عدد متنوع من الدجاج المبرقع والملون وغيره ورسم صورٍ له أيضا، ومن ثم في قازان حيث انقاد وراءه في دهاليز الفسق.

تقدم تولستوي عام 1844 وهو في السادسة عشرة من عمره بطلب رسمي إلى عميد جامعة قازان نيكولاي لوباتشيفسكي[55] (وهو عالم رياضيات مشهور بتطويره لعلم المثلثات غير الإقليديسي)؛ للحصول على موافقة للخضوع لاختبارات دخول متنوعة. وقد شكلت رسالته إلى العميد فاتحة الرسائل التي جُمعَت في خمسة وعشرين مجلدا من أعماله الكاملة. وكالعادة، أراد تولستوي أن يكون مختلفا؛ فعوضا عن دراسة الرياضيات كإخوته، اختار أن يلتحق بقسم اللغات الشرقية المشهور بإنجازاته الأكاديمية. وكان توجُّه تولستوي توجُّهًا ذكيًا؛ لأن تدريس اللغات الشرقية في ذلك القسم بفضل دعم لوباتشيفسكي المُستمر كان ذا جودة عالية لا تتجاوزها أي جودة في أي جامعة في أي مدينة في أوروبا. ففي عام 1828، عام مولد تولستوي، كان لدى القسم أساتذة في اللغات العربية والفارسية والتركية، وبحلول الوقت الذي أصبح فيه تولستوي طالبا فيها أضيفت أستاذيات في اللغات المنغولية والمندرين والأرمنية والسنسكريتية. كان تولستوي يفكر في مسار عمله المستقبلي عندما قام بهذا الاختيار، إذ كانت خطته في هذه المرحلة تقضي بانضمامه إلى السلك الدبلوماسي (بينما إذا أخذنا بعين الاعتبار كيف كان مسار حياته فإننا لا نستطيع إلا أن نتخيل بأن تولستوي كان سيكون أسوأ متحدث باسم السياسات الإمبريالية الروسية). كان على تولستوي أولا أن يجتاز اختبارات عدة قبل الانضمام إلى الكلية، وقد تميز في اختبار الفرنسية وأبلى بلاء حسنا في اختبار الألمانية والإنجليزية والعربية والتركية (رغم أنه ادعى لاحقا أنه لا يذكر أيا من اللغات الثلاث الأخيرة). حصل أيضا على نتائج طيبة في الرياضيات والمنطق والأدب الروسي والدراسات الدينية التي لم يكن يهتم بها كثيرا شأنه شأن أقرانه من الطبقة الاجتماعية نفسها، فقد كتب لاحقا في إحدى مسودات رواية «اعتراف» الأولى بأن صرح اللاهوت انهار برمته أمام اهتمامه بالفلسفة عندما كان في السادسة عشرة من عمره، لا سيما أنه بدأ اكتشاف عبثية التعليم الشفوي التلقيني. ولم تكن نتائجه مرضية

(55) Николай Лобачевский (Nikolai Lobachevsky).

في اللغة اللاتينية، إذ لم يستطع ترجمة سطرين من قصيدة هوراس الشعرية الغنائية. وكانت النتائج في علم الإحصاء والجغرافيا أسوأ، فرغم إتقانه المميز للغة الفرنسية على سبيل المثال، كانت معلوماته الجغرافية عن البلد الذي يتحدَّث بها كلغته الأم شحيحة. أما أداؤه في التاريخ فكان باهتا أيضا، وقد اعترف لاحقا بشحٍّ معلوماته عن التاريخ في تعليق كتبه على مخطوط لسيرة بافل بيريوكوف الذاتية قائلا: «لم أكن أعرف شيئا». وهكذا، تعيَّن عليه إعادة بعض الاختبارات، فمكث في قازان في صيف ذلك العام، ولم يعد إلى ياسنايا بوليانا التي كان يفضّلها. وفي سبتمبر/ أيلول من عام 1844، بعيد تخرج أخيه نيكولاي، حصل تولستوي على مقعد في الجامعة.

لم يكن مسار تولستوي في الجامعة مسارا لامعا، إذ لم يعتد الذهاب إلى مؤسسة تعليمية من قبل، لذلك كان الانخراط في صفوف الطلاب الآخرين في قاعات المحاضرات وغيرها أمرا غريبا عليه في البداية. لكن هذا الاغتراب تلاشى رويدا رويدا. ورغم أن الفرصة أتيحت له ليدرس على يد المستشرق المميز البروفسور ميرزا كاظم بيك المعروف بعلمه في أرجاء العالم كافة، فقد فشل تولستوي في اجتياز اختبارات السنة الأولى، فتعيّن عليه إعادة السنة كاملة. وعوضا عن مواجهة هذه المهانة، قرر أن يحوّل مساره التعليمي ليدرس في كلية القانون الأقل حظا وتميزا، لكن تعين عليه بالطبع أن يبدأ من الصفر، فالتحق بالسنة الأولى، وقد برر هذا التحول في رسالة حررها لعمته توانيت في أغسطس/ آب من عام 1845 قبيل بدء العام الدراسي، شارحا أن القانون خيار عملي أفضل لا سيما إذا ما نظرنا إلى تطبيقاته على الواقع والحياة اليومية.

«Je trouve que l'application de cette science est plus facile et plus naturelle que toute autre à notre vie privée».

مع ذلك، لم يكن تولستوي يستجيب بالقدر الكافي لمتطلبات معلميه في الجامعة؛ لأنه أراد أن يكون سيد منهاجه الدراسي. وقد بدأ في المطالعة الجادة بمفرده، فثمة أحيانا إشارات في مذكراته (التي كانت شحيحة في سنوات قازان) إلى الروايات التي كان يستمتع بقراءتها في تلك

الفترة؛ كروايَتَي ألكسندر دوما: «الفرسان الثلاثة» و «كونت دي مونت كريستو»، اللتين كانتا قد نُشرتا حديثا في فرنسا وحققتا أكثر المبيعات وكانتا مشهورتين في روسيا أيضا، رغم أن رواية ألكسندر دوما السابقة «سيّد المبارزة» كانت قد حُظرت في روسيا من قبل ألكسندر الأول لتعرضها لوصف أحداث انتفاضة الديسمبريين ونفي زعماء التمرد إلى سيبيريا، كما مُنع دوما أيضا من زيارة روسيا حتى عام 1858 عندما اعتلى ألكسندر الثاني العرش. أما الرواية الروسية فكانت في مهدها في تلك الفترة، لكن تولستوي كان قد قرأ رواية بوشكين «يوجين أونيجين» في بيت أحد أصدقائه خلال تلك الفترة، وقد أذهلته الرواية فلم ينم طوال الليل قبل قراءتها، ثم قرأها ثانية مباشرة بعد أن أنهى قراءتها للمرة الأولى.

أعدّ تولستوي في وقت لاحق قائمة بالكتب التي أثرت عليه أكثر من غيرها بين عمر الرابعة عشرة والعشرين، ومن بينها محليا «يوجين أونجين» لبوشكين، و«بطل من هذا الزمان» لليرمنتوف، و«النفوس الميتة» لغوغول، و«مذكرات صياد» لتورغينيف. وعالميا، «اللصوص» لشيلر، و«رحلة شاعرية» لستيرن، و«ديفيد كوبرفيلد» لديكنز، و«اعترافات» لروسو، و«موعظة الجبل» من إنجيل متى. لم يكن تولستوي دقيقا في تحديد التواريخ لأن ديفيد كوبرفيلد نُشرت عام 1850، ومع ذلك من اللافت أن نرى ظهور روسو المبكر في أفقه الأدبي.

كانت الفلسفة أكثر المواضيع جذبا لتولستوي الشاب في أيام الدراسة، وربما يعتبر جان جاك روسو (1712-1778) أكثر المفكرين تأثيرا عليه على مدار حياته. نرى ذلك التأثير في تنديد تولستوي لاحقا بالحضارة الإنسانية لإفسادها السلوك البشري وتشويهها لطبيعة الإنسان الحقة.

(Discours sur la science et les arts, 1750, et discours sur l'origine de l'inégalité, 1755).

وفي ترويجه للتعليم الحازم الذي يجعل محوره الطفلَ في بيئة طبيعية، ورفضه للدين المنظم في مقابل الإيمان القائم على الضمير الشخصي.

(Emile, ou de l'education, 1762).

وفي تناوله الروائي للعلاقات الزوجية والحياة الأسرية.

(Julie ou la nouvelle Héloïse, 1761).

وفي دفاعه عن العدالة الاجتماعية.

(Du contrat social, 1762).

بالإضافة إلى أن تولستوي وظَّف صفحة من كتاب روسو «اعترافات»، الذي نشر بعد مماته، عندما كتب أعماله التي تناولت سيرته الذاتية مقلّدا صراحة المفكر السويسري-الفرنسي وحيويته في تحليله لنفسه، ناهيك عن الاعتقاد الأناني بأن الحقيقة التي توصَّل إليها بشأن شخصيته لها تطبيقات كونية. ولا عجب أنْ رأى تولستوي نفسه في روسو الذي فقد أيضا أمه وهو صغير وانتحل منتحلات شتى في حياته قبل أن يحترف الكتابة. أضف إلى ذلك أن الرجلين تجمعهما عبقرية متزايدة وكبرياء متغطرسة وإخلاص نبيل، لكنه غالبا ما يكون مضللا، بالإضافة إلى فقدان مؤسف لروح التندر والفكاهة، وهذه السمة الأخيرة بالتحديد تجعل دراسة أعمال تولستوي وحياته في بعض الأحيان أمرا صعبا بعض الشيء.

كان الرجلان أيضا شفافين عاطفيين إلى درجة كبيرة، مما أدى إلى علاقات متوترة مع معاصريهما وأقرانهما، وقد جمعتهما طاقة وطموح هائلان أدّيا بهما إلى طرق أبواب معرفية وفكرية شتى، والتمتع بجرأة نادرة لمواجهة القضايا الشائكة. وقد حُظرت بعض أعمالهما التي اعتُبرت مناوئة للسلطة آنذاك، لكن لم يناد أي منهما بالثورة رغم تفانيهما في الترويج للمثل المستنيرة للحرية والمساواة والأخوة الكونية، ولم يكونا يؤمنان بنجاعة العمل السياسي.

توفي روسو قبيل اندلاع الثورة الفرنسية، وتوفي تولستوي قبيل اندلاع الثورة الروسية. وكما كتب روبرت ووكلر، فإن روسو كان له وقع في عصره أكثر من أي مفكر آخر في القرن الثامن عشر.

لم يسهم أي كاتب آخر غيره في القرن الثامن عشر في تقديم أعمال كبرى تطرقت إلى طيف واسع من المواضيع والأشكال، ولم يكتب أحد غيره بهذا الشغف والإتقان المستدامين، ولم يستطع أحد غيره من خلال أعماله أو حياته أن يدغدغ مخيلة العامة أو يهز اعتقاداتها بعمق كما

فعل. وقد استطاع تقريبا بمفرده ودون رموز عصر التنوير الآخرين أن يُخضع التيارات الرئيسية السائدة آنذاك للنقد والتمحيص، بينما كانت بعض تلك التيارات ما تزال في طريقها إلى التشكُّل.

يمكن القول إن تولستوي تسلم الراية وأكمل ما انتهى إليه روسو؛ لأن الإنجازات أعلاه هي أيضا مرتبطة بإرثه المذهل.

بعد سنته الأولى غير الموفقة في الجامعة، أمضى تولستوي صيف 1845 في ياسنايا بوليانا حيث قرأ وتأمل كثيرا، وأصبح مهتما بالأفكار الأخلاقية للفلاسفة الإغريق المشككين في فترة ما قبل المسيحية، الذين دعوا من ضمن ما دعوا إليه إلى فضائل الحياة الخالية من الممتلكات المادية. وغدت العمة توانيت في تلك الفترة غير قادرة على فَهم ابن أخيها؛ «ذلك الكائن الغامض» الذي أصبح مهووسا بسبر أغوار الوجود الإنساني، والذي لم يكن يشعر بالسعادة إلّا عندما يجد شخصا مستعدا للإصغاء إليه وهو يعرض بشغف أفكاره. بدأت إذن عناصر غرابة أطواره الفطرية تتكشف بطرق مختلفة. وبتأثير روسو والأفكار الفلسفية لديوجينيس (ديوجين/ ديوجينيس الكلبي)، أكبر الفلاسفة الشكاكين، حاول تولستوي أن يجعل حياته بسيطة. فديوجينيس هذا اختار في القرن الرابع قبل الميلاد أن يزاول حياة الزهد والاكتفاء الذاتي متخليا عن فكرة الزواج وتكوين أسرة، رافضا القوانين والمؤسسات الاجتماعية التقليدية، واصفا إياها بالمنافقة. وقد كان مشهورا لأنه كان يرقد في برميل في الشارع. بدأ تولستوي اتباع مذهب البساطة في الحياة، فتخلى أولا عن ارتداء جواربه، واخترع رداء بسيطا بقطعة واحدة تُغلَق أزراره من الداخل بحيث يستطيع ارتداءه نهارا كقميص طويل والنوم فيه ليلا كبياض للسرير، بالإضافة إلى كونه شبه بطانية. اختلط على مجموعة من النساء الزائرات لياسنايا بوليانا الأمر عندما رأينه في ذلك الرداء الغريب، ولم تكن العمة توانيت مقتنعة بهذا الديوجينيس الروسي، رغم أنها ربما كانت قد غيَّرت رأيها بابن أخيها لو عاشت وشهدت العقود الأخيرة من حياته.

وبينما كان تولستوي يتمشى متسترا بلباس الفلاحين في أحد الأيام، سمع حديثا صريحا بين فلاحيه، واكتشف لأول مرة مدى كراهية الفلاحين لطبقة النبلاء، وكيف أنهم لا يُكنّون احتراما يُذكَر لأسيادهم. ودهش لدى سماعه ما دار بين خدمه من حديث، وما أدهشه أكثر هو الازدراء الذي تُظهره الطبقة الحاكمة في روسيا تجاه حياة ورفاه فلاحيها وخدمها، لا سيما أن الفلاحين كانوا عادة ما ينقذون أسيادهم كما حصل لتولستوي نفسه. ففي يوم من الأيام الدافئة خلال زيارة له إلى عزبة آل يوشكوف الريفية على ضفاف الفولغا، أراد تولستوي أن يسترعي اهتمام بعض الشابات الحسناوات من الضيوف، فقفز في بركة كبيرة بجانب المنزل من دون أن يخلع ملابسه، وأراد أن يسبح إلى جزيرة في المنتصف، لكنه وجد المهمة صعبة، فأنقذته من الغرق في نهاية المطاف مجموعة من الفلاحات اللواتي كن يجمعن الشعير على مقربة من المكان، فانتشلنه من الماء بأدوات جمع العشب. بدأ ضمير تولستوي الاجتماعي يصحو رويدا رويدا، لكن الأمر استغرق منه زمنا طويلا قبل أن يتخلى عن مزاياه الأرستقراطية التي حصل عليها بالولادة ويصبح «نبيلا تائبا»، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

اجتهد تولستوي ولم يدخر وسعا في محاولاته لترك انطباع جيد عنه لدى معاصريه خلال فترة دراسته، محاولا أيضا الاعتناء ببدنه وتحسين مظهره الخارجي. ورغم أنه كان راضيا تماما عن مظهره الخارجي، لم تصل محاولاته لتحسين ذلك دائما إلى نتائج ناجحة. خطر بباله مرة أن يخفف من شعر حاجبيه ليَنمو الشعر مجددا بقوة، إلا أنه جازف وكان على وشك أن يحلقهما بالكامل.

كان تولستوي خجولا ويفتقر إلى بعض الثقة في مظهره، ولهذا لم نجده ذلك المندفع الأنيق الوسيم الذي يجيد الرقص ببراعة في ساحات الحفلات الراقصة كشخصياته التي عرضها في رواياته. ولم نجده أيضا ناجحا في تقليد أخيه سيرغيه الوسيم الأنيق الأنيس. ورغم كل ذلك، كان تولستوي يستمتع بكونه جزءا من مجتمع قازان المخملي، فعقد بعض الصداقات المتينة مع بعض أفراده، حتى إنه كتب نوتات رقصة الفالس مع أحدهم.

وَعَدَ تولستوي عمته توانيت في صيف 1845 بأنه سيجتهد في دراسته في السنة الثانية في الجامعة، وسيدرس الموسيقى والفن واللغات في أوقات فراغه، ووعدها في رسالة قائلا: «لن أشارك في مناسبات المجتمع المخملي مطلقا».

(Je n'irai pas en société du tout).

لكنه نكث بوعده وتردد في خريف ذلك العام على أرقى أنشطة المجتمع المخملي، بما في ذلك حفلة راقصة مهيبة في أكتوبر من ذلك العام أقيمت تكريما لصهر نيكولاي الأول ماكسيمليان ودوق لشتينبرغ. وفي يناير من عام 1846 عوقب بقضاء مدة في غرفة نظارة الجامعة وذلك لتكرر تغيبه عن المحاضرات. هذا التأرجح بين تحديد أهداف صارمة غير واقعية لحياة مستقبلية ملؤها النقاء ونكران الذات وترويض الجسد من جهة، وسعيه في الواقع وراء حياة اللذة واللهو والتفاخر من جهة أخرى، شكل أساس مدخلاته الأولى في مذكراته التي بدأها في مارس/ آذار من عام 1847 وهو في عيادة لعلاج الأمراض الجنسية. ويمكن القول في حقيقة الأمر إن المعركة بين هذين الجانبين المتعارضين في شخصية تولستوي شكلت الموضوع الرئيسي لحياته كرجل بالغ، وكانت بالطبع أساسا لأعماله الإبداعية. ولم تكن هاتان السمتان المتناحرتان على نحو متزامن حكرا على تولستوي فحسب، بل ربما تعتبران علامة فارقة مثالية في طبيعة النفس الروسية، وهذا ما أكده يقينا نيكولاي برديائف المفكر والفيلسوف الروسي في بدايات القرن العشرين حين علق في كتابه: «أصل الشيوعية الروسية» قائلا: «يتناحر في نفس الروسي النموذجي عنصران على الدوام، أصالة الوثنية البدائية الطبيعية لروسيا الشاسعة، وأصالة الزّهد الأرثوذكسي الآتي من بيزنطة الذي يربطه بعالم الآخرة».

بدأ تولستوي في يناير عام 1847 جمع مذكرات «صحيفة الأعمال اليومية»، فأدرج في الجانب الأيسر من الصفحة جدولا حازما لكل يوم تحت عنوان «المستقبل»، حدد فيه بالضبط الساعات التي سيعمل فيها والوقت الذي سيتناول فيه غداءه ومتى سيدرس الإنجليزية ويلعب الشطرنج ويتمشى... إلخ. وفي الجانب الأيمن من الصفحة خصص خانة بعنوان «الماضي»، وأدرج فيها تعليقات بشأن أدائه ومدى التزامه بالجدول الصارم. وفعلا، عقَّب بإيجابية في الأيام

التي التزم فيها بصرامة بالجدول، وعقَّب بالسلب واعترف أنه «لم يفعل شيئا يذكر»، أو «لم يفعل شيئا البتة»، أو «فعلت أشياء قبيحة»، أو «قرأت نيكولاي غوغول»، أو «تماديت في النوم ولم أستيقظ»... إلخ، في الأيام التي لم يلتزم فيها بصرامة بالجدول المذكور. وقد حافظ على تلك المذكرات حتى يونيو. وفي الفترة نفسها، بدأ إعداد قواعد ذات مستويات متعددة لتطوير إرادته الذاتية، بما في ذلك، وعلى المستوى الأول، الاستيقاظ في الخامسة فجرا والخلود إلى النوم قبل العاشرة ليلا، والالتزام بساعتَي نوم كحد أقصى في النهار، وتناول الطعام باتزان، والابتعاد عن الحلويات، والمشي لساعة يوميا، والالتزام الصارم بكل القواعد، وزيارة بيت الدعارة/ الماخور مرتين فقط في الشهر. أما الالتزامات في مستواها الثاني فقد تخللتها وعود بالتخلي عن الترف والكماليات، وتجاهل الرأي العام غير القائم على العقل، ومبادلة الحب مع من يقدم إليهم الخدمات. أما الالتزامات الأخرى في مستواها الثالث فقد انحصرت في القيام بأمر واحد فقط في كل مرة (لكيلا تختلط عليه الأمور)، وألّا يسمح لخياله بالشطحات إلا عند الضرورة.

وفي فبراير من عام 1847 شعر تولستوي بدافع قوي ليضع بعض القواعد الجديدة العامة في هذه المرة الخاصة بعلاقته بنفسه وبغيره وبالإله، لكنه عدل عن فعل ذلك قبل أن يبين تلك القواعد بالضبط، غير أنه استأنف الأمر في مارس/ آذار، وحدد سبعا وأربعين قاعدة مختلفة تحت عشرين عنوانا عريضا، ومن بين تلك القواعد أن يلتزم بألّا يُظهر مشاعره لغيره، وألّا يكترث لما يقوله الآخرون عنه، وأن يعمل الصالحات خفية. واتخذ قرارا فأمر نفسه بعدم الاقتراب من النساء وقمع دوافع الشهوة لديه من خلال الإكثار من العمل ومساعدة الأقل حظا منه. تذكرنا بعض تلك القواعد بروح ما يسمى الـ«دوماستروي[56]»، وهي القواعد الداخلية التفصيلية المملة المشهورة التي وُضعت في فترة الالتزام الديني أيام إيفان الرهيب، وهذا مثال عليها:

(56) Домострой (Domostroi).

«لا يؤمن أحدكم حتى يتخلى عن الفسق والفجور. ولا يؤمن من لا يخاف الله ولا يلتزم بأوامره. ولا يكتمل إيمان أحدكم ما لم يلتزم بالقانون المسيحي ويقلد أجدادنا في المواظبة على الصلاة وتأدية التراتيم في الكنيسة ويقرأ من الكتب المقدسة أثناء القداس. ولا يكتمل إيمان أحدكم إذا توانى عن حمد الله، وإذا ملأ بطنه وبالغ في ملئه بما لذ وطاب من الطعام والشراب والخمر مع معرفته بأن ذلك يضر بجسده، وإذا لم يقدس أيام الأحد والأربعاء والجمعة والأيام المقدسة والصوم الكبير وصوم يوم السيدة العذراء. ولا يؤمن أحكم إذا بالغ في الزنى في أوقات غير لائقة».

ويجدر القول إن تولستوي كان شخصا غير جذاب في تلك المرحلة بسبب انغماسه حتى أذنيه في النفاق، وتظاهره بالتقوى وشجب الذات والابتعاد نوعاً مّا عن آماله الأخرى الجديرة بالتقدير.

في السابع عشر من مارس، بعد ستة أيام من دخوله عيادة الجامعة حيث عولج من مرض السيلان، بدأ تولستوي في كتابة مذكراته بجدية. وقد رحّب بتلك الفترة من العزلة التامة بعيدا عن الخدم؛ لأنها مكنته من اكتشاف أن حياة الانحلال التي يزاولها السواد الأعظم من رفقاء الدراسة في فترة شبابهم هي نتاج «فساد مبكر للروح». وكان هنا يتحدث عن نفسه بالطبع. ورغم تنديده بأسلوب حياته ذاك كان على دراية تامة بأن قراءة عشرة مجلدات عن الفلسفة أمر أسهل من تطبيق مبدأ واحد على أرض الواقع. وفي اليوم التالي، وفي غياب أي شيء آخر يفعله (إذ كان قد أمضى حوالي شهر في العيادة)، بدأ تولستوي في تناول واجب أعطي لطلبة القانون في السنة الثانية، فقد طُلب منهم أن يقارنوا بين ناكاز (مرسوم/ أمر) كاترينا الثانية الذي صيغ لأول مرة عام 1765، وروح القانون (De l'esprit des lois).

ورغم أن تولستوي فشل في إتمام الواجب، فقد انغمس في اقتراحات كاترينا لصياغة حزمة من القوانين الجديدة، وانتهى به المطاف إلى أن أمضى أكثر من أسبوع يغربل بالتفصيل ويشرّح تلك المقترحات على صفحات دفتر مذكراته. وكان أن انتقد الحكم الأوتوقراطي (حكم الفرد الواحد) كونه حكما استبداديا لأن القوانين لا تشكل أي حماية للعامة لأنها تصدر بحسب هوى

العاهل. وقد تحدى إصرار كاترينا العظيمة على أن السلطات الأوتوقراطية المطلقة هي في واقع الأمر ليست مطلقة بل مقيدة بضمير الحاكم، مشيرا إلى أن توكيد وجود سلطات مطلقة لدى العاهل في المقام الأول يستند إلى غياب الضمير لديه/ لديها. لكن ميل تولستوي نحو النظام الجمهوري كان محدودا أيضا؛ لأنه -وهو سليل أسرة نبيلة عريقة- حاجج بالقول إن الأرستقراطية المدفوعة بقيم الشرف تشكل حجر الزاوية لفرض قيود على سلطات الملك/ الإمبراطور. إن الآراء التي عرضها تولستوي بشأن الواجبات الأخلاقية للطبقة الأرستقراطية تصل إلى ذروتها تعبيرا وتفسيرا في عمله الملحمي «الحرب والسلام». لكن، وبما أنه كان منشغلا بالعلاقة الأخلاقية بين ملاك الأراضي الإقطاعيين والفلاحين، فإن تحليل اقتراحات كاترينا المرتبطة بالظلم الواقع على الخدم لم يُعقِّب عليه كثيرا. رغم أنه قال إن العبودية تعرقل تطوير التجارة، لكنه لم يثِر قضية حظرها مطلقا لأن ذلك كما شرح لاحقا في مذكراته لم يدرْ في خاطر أي من أفراد بيئته في فترة الأربعينيات من ذلك القرن.

في الأثناء، وفي الحادي عشر من أبريل/ نيسان عام 1847، صيغت الوثيقة القانونية الخاصة بتقسيم ممتلكات أسرة تولستوي بعد خضوعها لشهور من المفاوضات. وفي اليوم التالي مباشرة طلب تولستوي إذناً لمغادرة جامعة قازان لأسباب «صحية» و«عائلية». شكلت مقترحات كاترينا القانونية رغبة جامحة لديه للاستمرار في دراساته على نحو مستقل رغم أن تخليه عن المنهاج الدراسي الجامعي قد سبب له بعض العوائق. كان سيرغيه وديمتري على وشك التخرج حينها، بينما كانت ماريا قد غادرت قازان لتقيم في ياسنايا بوليانا. ولم يكن تولستوي راغبا في البقاء في قازان بمفرده، ولم يكن أيضا راغبا في الإيفاء بمتطلبات الدراسة الجامعية المملة. وهكذا غادر من دون الحصول على درجة جامعية، واكتفى بإنهاء السنتين الأوليين من دراسة القانون.

وفقا لقانون روسيا في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، يحق للأنثى أن ترث ثُمن ما تركه الوالدان من ممتلكات، وحصة من أربع عشرة حصة من كل شيء آخر. لكن الإخوة تولستوي صوتوا واتفقوا على تقاسم الميراث بالتساوي مع شقيقتهم. فحصل نيكولاي على عزبة

نيكولسكوي[57] في مقاطعة تولا، بالإضافة إلى 317 من الخدم (العدد الجدير بالحساب) وقطعة أرض كبيرة. أما سيرغيه، عاشق الخيل، فقد حصل على عزبة بيراغوفا في مقاطعة تولا أيضا بما تحتويه من مزرعة للخيول بالإضافة إلى 316 من الخدم الذكور. وحصلت ماريا على قطعة أرض في القرية نفسها وطاحونة قمح ومبلغ ضخم من المال. بينما حصل ديمتري على تشيرباتشيفكا[58]، عزبة الأسرة في مقاطعة كورسك وأكثر من 300 من الخدم. أما ليف فقد ورث ياسنايا بوليانا والقرى المجاورة وزهاء 300 من الخدم أيضا. جرت مقايضات ودُفعت مبالغ واستُلمت لتسوية جميع الأمور بالعدل. ووقّعت الأطراف المعنية جميعها على الصك القانوني في الحادي عشر من يوليو عام 1847 في تولا. بعدها افترقوا كلٌّ إلى ممتلكاته الجديدة. وفي نوفمبر من ذلك العام تزوجت ماريا الأخت، التي كانت قد عاشت بعيدا عن إخوانها خلال السنوات القليلة الماضية، تزوجت من قريبهم البعيد فاليريان بيتروفيتش[59]، وهو ابن أخت فيودور تولستوي «الأمريكي» المشهور (وقريب العمة توانيت أيضا). كانت ماريا تبلغ من العمر 17 سنة، وكان فاليريان يبلغ الرابعة والثلاثين. بلغ تولستوي في أغسطس عام 1847 التاسعة عشرة من العمر، وتكشفت الحياة أمامه آنئذ رحبة واسعة، وحان الوقت ليفعل ما يحلو له بحرية تامة.

(57) Никольское (Nikolskoye).

(58) Щербачевка (Shcherbachevka).

(59) Валерьян Петрович (Valerian Petrovich).

الفصل الخامس

إقطاعي ومقامر وضابط وكاتب

سمِّ الأشياء بمسمياتها.

مدخل من مذكراته، 21 فبراير 1851

كان لدى تولستوي خطط كبرى لحياته الجديدة كونه عضواً في طبقة النبلاء الإقطاعيين، وأراد أن يستغل وقته بحصافة ولهدف نبيل يستحق العناء. وهكذا دوّن في دفتر يومياته في 17 أبريل عام 1847 ما يخطط للقيام به خلال سنتين قادمتين كمالك لياسنايا بوليانا. أراد أن يتعلّم الفرنسية والألمانية والإنجليزية والإيطالية واللاتينية ويكتسب «درجة لا بأس بها من إتقان الرسم والموسيقى». وأراد أيضا أن يتفرغ لدراسة التاريخ والجغرافيا والإحصاء والرياضيات والعلوم الطبيعية والطب النظري والزراعة بجوانبها كافة. وأراد كذلك أن ينهي مساق دراسة القانون ويتقدم للامتحان النهائي ويتخرج في الجامعة. كما أراد أن يكتب الأطروحة ويكتب مقالات عن جميع المواضيع التي أراد الخوض في دراستها بالإضافة إلى كتابة قواعد يتبعها. لكن كل نواياه الطيبة لم تفضِ إلى شيء. ففي اليوم التالي اعترف لنفسه، بنوع من الخجل، بأنه في واقع الأمر غير قادر على الإيفاء بتوقعاته؛ مما دفعه إلى التقليل من جميع خططه، فقرر أن يلتزم بقاعدة واحدة فقط وهي أن ينفذ أي خطة يضعها يوميا من دون تردد؛ لكنه فشل مجددا عند أول عائق. واعترف في التاسع عشر من أبريل في دفتر يومياته بأنه استيقظ متأخرا جدا، واتخذ قررا بشأن ما أراد أن يقوم به في ذلك اليوم فقط في الساعة الثانية بعد الظهر. لكنه في

العشرين من الشهر نفسه توقف عن الكتابة، وكان ذلك مخرجا سهلا من ورطته. ثم عاد وأدرج ثلاثة مدخلات في شهر يونيو، أحدها في السادس عشر من الشهر حين وجَّهَ هجاء لاذعا للنساء اللواتي يُعجزن الرجال، وقرر أن يتجاهلهن قولا واحدا، ثم صمت عن الكتابة في الدفتر لثلاث سنوات كاملة.

تعتبر الفترة ما بين يونيو 1847 وأكتوبر 1848 فترة غياب تام تقريبا لأيٍّ معلومات عن سيرته. وليس ثمة حتى رسائل منه من الممكن أن تُسلّط الضوء على ما كان يفعله عندما لم يكن يلتزم بقواعده. وربما انهمك في تلك الفترة بالزراعة في ياسنايا بوليانا واكتشف أن ذلك عمل مضنٍ. فهو لم يعمل قبل ذلك في الأرض، ولم تكن لديه معرفة بشؤون الزراعة، بل لم تكن لديه خبرة في إدارة أقنان الأرض والخدم العاملين لديه. فعندما كتب ديمتري له رسالة في سبتمبر عام 1847، سأله عما إذا كان قد سئم من إدارة العزبة بعد، ونحن نفترض أن إجابته كانت بنعم. ويبدو أن تولستوي كان شاباً نزقاً متقلباً في ذلك الوقت؛ لأن بعض الإشارات على شخصيته المتقلبة يمكن استقاؤها من حقيقة أنه قرر من دون تفكير في بداية خريف عام 1847 أن يصطحب صهر المستقبل إلى سيبيريا، فقفز إلى العربة وهمّ بالرحيل لولا أنه تردد بعض الشيء حينها لأنه نسي قبعته. وفي النهاية ذهب فاليريان بيتروفيتش بمفرده ليوقف نشاطه التجاري في توبولسك قبل أن يعقد قرانه على أخت تولستوي ماريا.

ربما كان إخوة تولستوي أكثر استقرارا منه لأن سقف توقعاتهم كان ببساطة أدنى بكثير من سقف توقعاته وآماله وتطلعاته. أما ماريا فلم يكن يتوقع منها سوى الحشمة كونها عنصرا نسائيا ينتمي إلى طبقة النبلاء. تزوجت ماريا فاليريان وكوّنا بيتاً لهما وعاشا حياة عائلية في عزبته في بوكروفسكوي في منطقة تولا على بعد يوم سفر واحد بالعربة عن ياسنايا بوليانا. أما نيكولاي فكان يخدم في القوقاز بعد أن انضم إلى الجيش متطوعا بعد إنهاء الجامعة عام 1844. وقد أصبح ضابطا برتبة في لواء المدفعية العشرين بعد أن كان ضابطاً مقلداً منذ 18 شهراً. لكن

مساره العسكري لم يكن لامعا لأنه لم يكن رجلا طموحا. التحق الموهوب والوسيم سيرغيه بالجيش أيضا بعد بضع سنين، وتوقع منه أن يتميز فيه لكنه لم يكمل سنة واحدة لأنه لم يكن يرغب في الخضوع للسلطة، ولم يكن أيضا طموحا وكان يعوزه الدافع كأخيه نيكولاي؛ فقد ورث عزبة بيراغوف وكانت كافية لبقائه منشغلا. كان سيرغيه كأخيه ليف شغوفا بالصيد، وقد اصطاد الكثير من الذئاب لدرجة أنه استخدم عظامها ليرفع سياجا على طول أحد المسارات في عزبته. أما شغفه الآخر في الحياة فكان فتاة غجرية من تولا.

أما ديمتري فحجب نفسه واستراح في عزبته تشيرباتشيفكا في مقاطعة كورسك. وشأنه شأن أقرانه من طبقة النبلاء لم يتساءل بشأن مؤسسة الرق، لكنه شعر أنه ملزم أخلاقيا بإظهار الاهتمام بمن يخدمه. وشعر أن من واجبه بوصفه نبيلا روسيا أن يخدم الآخرين. وهذه القناعة كانت ربما أثرا من آثار حكم بطرس الأكبر الذي فرض على طبقة الأعيان من ملاك الأراضي خدمة الدولة مدى الحياة مقابل حصولهم على امتيازات طبقة النبلاء. أما مدة الخدمة الإلزامية للدولة فقد خُفضت تدريجيا خلال القرن الثامن عشر حتى أصبحت مسألة شرف فحسب إبان حكم كاترينا الثانية، لكن فكرة الخدمة كانت تدور دائما في خلد الشبان المثاليين أصحاب المبادئ والأخلاق الرفيعة كديمتري تولستوي. وهكذا، انطلق ديمتري متوجها إلى سانت بطرسبورغ حيث قدم نفسه، على نحو ساذج، إلى أحد كبار الموظفين في وزارة العدل مُعلنا أنه يرغب في الخدمة. وبما أنه لم يحدد المهام التي يستطيع القيام بها أُرسل عندها ليصبح ناسخا لوثائق دائرة المستشارية في الوزارة ليعيش بعدها كما عاش أكاكي أكاكيفيتش[60] بطل قصة غوغول الساخرة الخالدة «المعطف» (1842)، التي تتناول بامتياز بيروقراطية بطرسبرغ، إذ يبزغ نجم أكاكي أكاكيفيتش الناسخ الوضيع اللامبالي بمظهره الخارجي رثّ الثياب الذي يرغم

---

(60) Акакий Акакиевич (Akaky Akakievich).

في نهاية المطاف على شراء معطف جديد. ولكي يوفر المال الكافي ليدفعه للحائك يقوم باتباع خطوات متطرفة من نكران الذات، ثم يُسرَق المعطف الجديد منه في أول يوم يرتديه. كان ديمتري أيضا غير مبال بمظهره الخارجي، وكان يرتدي ثيابا رثة ليستر جسده فحسب. ومما يدعو للمفارقة أنه كان يمتلك معطفا واحدا فقط. ويذكر تولستوي في مذكراته أن ديمتري أراد أن يزور أحد معارف العائلة يوما ما على أمل أن يساعده في الحصول على وظيفة أفضل. وعندما وصل إلى منزل ديمتري أوبلونسكي الصيفي ودُعي إلى نزع معطفه والانضمام إلى بقية الضيوف، دُهش الحاضرون وأصيبوا بالإحراج عندما اكتشفوا أن ديمتري لا يلبس شيئا تحت المعطف لأنه ببساطة قرر أنه لا حاجة لارتداء قميص تحته. ولكن ديمتري يمتاز عن عاثر الحظ أكاكي بأن لديه أملاكا ومالا، كما يمتاز عنه بشيء آخر مهم وهو أنه ما لبث أن أصبح مستاء من وظيفته بعد فترة قصيرة، واكتشف أنه غير راض عن كونه قطعة تافهة في ماكينة البيروقراطية الضخمة في عهد نيكولاي الأول. وهكذا لم يرد أن يبقى رقما لا لون له ولا رائحة ولا وزن ضمن أرقام موظفي تلك البيروقراطية الهائلة، فانسحب من عمله عائدا إلى عزبته بعد أن أرسل إلى أوبلونسكي رسالة وداعية جعلت أخواه تولستوي وسيرغيه يجفلان من قراءتها (أخبر سيرغيه تولستوي بأن كلّ ما كتبه ديمتري في رسالته تلك جعله يتصبب عرقا ويحمر وجهه ويذرع الغرفة ذهابا وإيابا وهو يشعر بالإحراج الموجع).

تمثل رواية «المعطف» إحدى التحف الأدبية الروسية الخالدة. وقد التهمها تولستوي وقرأها بنهم في الأربعينيات من ذلك القرن، بالإضافة إلى قراءة أعمال أخرى كثيرة لغوغول، كرواية «النفوس الميتة» التي نُشرت عام 1842. شكلت المطالعة أساسا في تطوره الفني والفكري في السنوات التي أعقبت مباشرة رحيله من قازان، ربما لأنه لم يكن يرغم نفسه على المطالعة إذ كانت نشاطا يجلب له المتعة. كان يقرأ بنهم عجيب. وقد عاش تولستوي في حقبة مظلمة من تاريخ روسيا وأصبح على دراية بذلك تدريجيا. فقد بدأت حقبة نيكولاي الأول عام

1825 بقمع انتفاضة الديسمبريين، وازداد نظامه قمعا وسلطوية مع مرور الوقت. ويُذكَر أن الزوار الأجانب كانوا مندهشين لرؤية ما يجري في روسيا. كتب ماركيز دي كوستين كتابا بعد زيارته لروسيا عام 1839 واصفا فيه البلاد بأنها دولة بوليسية يحكمها طاغية. وقد ندد دي كوستين بنبلاءِ روسيا وشبههم بـ «التتار المنظمين بشكل صارم»، الذين لا يعرفون الفرق بين الجلال والأناقة أو بين الترف والأدب. وقد ضرب نقده على الوتر الحساس فعلا؛ لأن كتابه حُظر في روسيا عند نشره عام 1843 (وكذلك حظره ستالين في القرن العشرين بسبب ما جاء فيه من تنبؤات دقيقة أثارت ذعر الزعيم). وعندما أطلت الثورة في أوروبا برأسها من جديد في نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر، استجاب نيكولاي من خلال تعزيز الرقابة. إلا أنه وخلال بيئة القمع تلك، أو ربما بسببها، انتعش الأدب في تلك الفترة، وارتفع سقف التوقعات من الكُتّاب الذين توقع الجميع منهم الآن أن يلعبوا أدوار أخلاقية بالإضافة إلى كتاباتهم لغرض المتعة الجمالية والترفيهية.

مع نهاية الأربعينيات خلَّفت الكثير من الأعمال الأدبية الروسية انطباعا عميقا في نفس تولستوي. فشكلت أعمال كـ«يوجين أونجين» لبوشكين (1833)، و«بطل من هذا الزمان» (1840) لليرمنتوف، و«النفوس الميتة» (1842) لغوغول، بواكير الروايات الروسية رغم أن شكلها كان ذا طابع خاص جدا. فيوجين أونجين هي في الواقع رواية شعرية، وبطل من هذا الزمان مجموعة من القصص المترابطة، والنفوس الميتة معنونة كـ«قصيدة». وقد أيد تولستوي في فترة لاحقة بفخر واعتزاز الرفض الروسي في اتباع النموذج الأدبي الأوروبي؛ من خلال توكيده على فرادة شكل «الحرب والسلام» التي أصرّ بعناد على أنها ليست رواية. وانجذب تولستوي منذ البداية إلى النثر عوضا عن الشعر الذي كان «عصره الذهبي» في جميع الأحوال قد مهّد الطريق في فترة الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لدخول «الرواية الواقعية» إلى الحيز

الأدبي بقوة. وقد اعتبر تولستوي قصة «تامان»؛ إحدى قصص بطل من هذا الزمان، بأنها مثال الكمال الأدبي (وهذا ما تبناه تشيخوف أيضا في فترة لاحقة).

ظهر كتاب موهوبون في العقد الخامس من ذلك القرن ليضطلعوا بمسؤولية الكتابة الأدبية، ويكملوا مسيرة بوشكين وغوغول اللذين هيمنا على المشهد الأدبي في العقد الفائت. وكان تورغينيف[61] من أهم أولئك الكتاب الجدد، وهو الذي نشر أول قصة من قصص كتابه «مذكرات صياد» عام 1847، في السنة نفسها التي عاد فيها تولستوي إلى ياسنايا بوليانا واستقرَّ فيها. وأثارت قصص تورغينيف التي تناولت الحياة الريفية المعاصرة ضجة من الاستحسان، ليس لشكلها، ولكن لمحتواها لأنها كانت الأعمال الأدبية الأولى التي وصفت الفلاحين كبشر ذوي أبعاد ثلاثة. وبوصفه ليبراليا مستغربا، كان تورغينيف يمقت مؤسسة العبودية، ويركز في أعماله عن وعي على منح الفلاحين الكرامة الطبيعية التي حباهم الله بها، لكي يحظوا بالقدر نفسه من الاحترام الذي يحظى به سيّدهم. كان لانتقاد تورغينيف اللاذع للعبودية أثر قوي بسبب رهافته، مما حدا بقرائه بما في ذلك ألكسندر الثاني (الإمبراطور القادم) إلى مواجهة ذلك النظام الجائر. وأدت مشاعر الإحراج والسخط ومن ثم التقزز التي أبداها تورغينيف تجاه الطبقة التي كان ينتمي إليها من الإقطاعيين في نهاية المطاف إلى هجر البلاد إلى الخارج. وفي المقابل، لم ينافح تولستوي في تلك الفترة بعد عن فكرة معارضة نظام العبودية شأنه شأن الكثير من إقطاعيي تلك الفترة من النبلاء. وقد كان صريحا في شرح تلك المسألة في مذكراته لاحقا حين أشار إلى أن التعامل بالعدل مع الخدم كان مصداقا للأصالة الإقطاعية المستنيرة. إلا أن كتاب تورغينيف «مذكرات صياد» ومحتواه من القصصِ ذات الأهمية السياسية والفنية على حد سواء، لم يكن إلا ليؤثر على توجهات تولستوي عندما واجه مسألة تركَتِهِ من الأملاك.

(61) Тургенев (Turgenev).

كان ثمة عدد لا بأس به من الكتاب الأجانب الأخرين الذين أثاروا مخيلة تولستوي خلال سنوات تكوينه. إذ كان فخورا بمعرفته القدر الكافي من الإنجليزية ليقرأ تشارلز ديكينز بلغته الأصلية (وهذا قانون استطاع أن يلتزم به بالفعل). وقد استمتع بقراءة رواية «ديفيد كوبرفيلد» في شبابه أكثر من أي رواية أخرى، بالإضافة إلى رواية لورنس ستيرن «رحلة شاعرية» (1768). تأثر تولستوي بهذين الكاتبين عندما باشر بكتابة الرواية بنفسه. لكنه كان لا يزال انتقائيا في ذوقه الأدبي مستمتعا بملحمة ويليام بريسكوت «تاريخ غزو المكسيك» (1843)، ومسرحية شيلر «اللصوص» (1781). إلا أن روسو كان له حصة الأسد في التأثير عليه. فقد شكلت أعماله من قبيل «الاعترافات» و« إميل» و«إلواز الجديدة» ركائز أساسية في تكوينه الأخلاقي. وبخلاف بعض الكتب التي وضعها على قائمة القراءة لديه، لا نعرف الكثير عن حياة تولستوي في أواخر الأربعينيات من ذلك القرن سوى أنه أرجع عمته المحبوبة توانيت لتعيش معه في ياسنايا بوليانا. وعاشت أختها إليزافيتا فترة من الزمن معهم في ياسنايا بوليانا، وإلا فكانت تعيش مع ابنها فاليريان بيتروفيتش وكنّتها الجديدة ماريا. أُخذ مكان إليزافيتا في ياسنايا بوليانا على نحو دائم من قبل ناتاليا بيتروفنا؛ وهي أرملة فقيرة أصبحت رفيقة توانيت (لا تجد عزبة روسية تخلو من قاطنين متفاوتين خجولين دائما على دراية واعية بأنهم عوائل على أسيادهم) (بريجيفالتسي). لا نبالغ في التركيز على أهمية العمة توانيت بالنسبة لتولستوي خلال العشرينيات من عمره؛ فقد كانت سنده وأكثر شخص تَوجَّه إليها برسائله عندما يكون غائبا عن المنزل. فهي التي كانت صمّام أمانه والمحافِظة على ثباته وتوازنه واستقراره، وهي التي كانت تحثُّه على الكتابة لأنها كانت تؤمن بموهبته.

حزم تولستوي حقائبه فجأة وقرر تغيير مكان سكنه متوجها إلى موسكو مجددا في أكتوبر من عام 1848، ليجهز نفسه لخوض اختبارات القانون التي قرر أخيرا اجتيازها. فاستأجر ملحقا في مبنى يقطنه بعض أصدقائه في منطقة الأرباط ليس بعيدا عن المكان الذي عاش فيه كطفل. وبما

أنه لم يزر موسكو منذ الطفولة، فقد كان متلهفا للعيش فيها مجددا، لكنه لم يقترب من كتب القانون بل اجتذبته أضواء المدينة وأراد أن يجرب الاختلاط بمجتمعها المخملي، وكان حينها في العشرين من عمره متعلما صاحب عزبة ريفية رائقة وكان له لقب ولديه ثروة. كان باختصار، شاباً أعزبَ مرحَّباً به في جميع صالونات المدينة. وكانت تلك التجربة تدعو إلى تضخم الأنا لديه، لكنَّ خجله ووعيه بنقاط ضعفه وهيئته التي لم تكن تتسم بكثير من الوسامة أثر على كبريائه، وولَّدَ لديه شعورا بالإحراج بعض الشيء في المجتمع الراقي. وبما أنه لم يكن بحاجة إلى عمل ولم يكن ملزماً حتى بالدراسة فقد مارس حياة ريّانة باللذة في ذلك الشتاء؛ إذ طور لديه شغفاً للعب الورق، أو بالأحرى القمار. ذلك الشغف الذي لن يبارحه طيلة عقد آخر من الزمن أو أكثر؛ إذ تحول إلى إدمان مكلِف أتى عليه بتداعيات وخيمة.

ولم يكن تولستوي بِدعاً في إدمان القمار في طبقة النبلاء الروس؛ فقد كان كذلك بعض أجداده اللامعين. فالتهور الراسخ بعمق في شخصية المقامرين الروس (والذي حدا ببعض الزوار الأجانب للافتراض بأن المراهنات هي تسلية وطنية في هذه البلاد)، ربما مردّه الحاجة إلى التوكيد على درجة من الاستقلالية في مجتمع روسي طبقي هرمي التكوين بامتياز ومشوب بالقمع، لدرجة أن الحياة الخاصة لا تسلم من رقابة الدولة. وكان الكتاب الروس أكثر الناس عرضة للقمار؛ فقد جعل الكثير منهم القمار موضوعا لبعض رواياتهم. وقام بوشكين، مؤلف قصة القمار المثالية «ملكة البستوني» (1834)، بالمقامرة على بعض قصائده وانتهى به المطاف بأن خسر مخطوطات لا تقدر بثمن.

أما قصة الجبري أو المؤمن بالقضاء والقدر في رواية لِيرمنتوف «بطل من هذا الزمان» فهي مخصصة للعبة الروليت الروسية، بينما الشخصيات الرئيسية في مسرحية غوغول «المقامرون» (1836) مدمنو قمار محترفون لا سبيل لتقويمهم. ويذكر أن تورغينيف ترعرع في كنف أب مقامر، وكان لدى الأسرة غرفة في العزبة كانت تسميها والدته «كازينو». لكن تورغينيف

وغوغول حالتان نادرتان لكاتبين استطاعا أن يقاوما إغراء طاولات القمار في الكازينوهات الألمانية. أما دوستويفسكي صاحب رواية «المقامر» (1867) فقد كان مدمنا على القمار لدرجة أنه في إحدى المناسبات قامر بكل شيء لديه ولم يتبقَّ بحوزته سوى قميص يستر جسده.

أدمن أيضا بعض من آل تولستوي القمار. وبينما كان جدّه لأبيه غير حاذق بأمور اللعب وكان أحد أسوأ المقامرين على الإطلاق، إلا أن قصص المخاطر المثيرة التي خاضها ابن عمه «الأمريكي» ذائع الصيت فيودور إيفانوفيتش كانت لا تزال تسرد في موسكو حتى بعد مماته بسنوات (1846). ضاعفت عادة القمار التي دأب عليها تولستوي لفترة من فداحتها سمة روسية متجذرة اتصف بها أبناء الطبقة المتعلمة وهي: عدم الاكتراث بالمال وازدرائه إلى حد ما. وهكذا علِق تولستوي في ديون هائلة مما جعله يشعر بعدم الرضا عن نفسه. فكتب إلى عمته توانيت في ديسمبر من عام 1848 معلقاً بأن حياة البذخ التي يعيشها جعلته مرهقا تعبا من الدنيا يتوق إلى هواء الريف العليل: *«لقد تم إفسادي بالكلية في عالم المجتمع المخملي. وهذا ما يزعجني كثيرا في هذه اللحظات.. أحلم مجددا في حياتي في الريف وأرجو أن أستأنفها قريبا»*.

(Je me suis tout á fait débauché dans cette vie du monde, á présent tout cela m'embête affreusement et je rêve de nouveau á ma vie de campagne que je compte reprendre bientôt).

لكنه عوضا عن العودة إلى ياسنايا بوليانا قرر فجأة السّفر إلى سانت بطرسبرغ في يناير عام 1849؛ لأن بعض أصدقائه كانوا متوجهين إلى تلك المدينة.

وكانت تلك المرة الأولى التي يزور فيها تولستوي الشاب مرهف العواطف عاصمة الإمبراطورية الروسية التي كانت أكثر تقدما وأرستقراطية من موسكو القروية. فقرر حينها مباشرة بأنه يود الاستقرار فيها. وهكذا حجز غرفة في فندق نابليون على تقاطع شارعي مالايا مورسكايا وفوزنيسكي (اسم الفندق اليوم: فندق إنكليتيري/ إنجلترا)، وقد يكون محظوظا إذا

كانت غرفته تطل على أضخم كنيسة في روسيا (كاتدرائية القديس إسحق التي كان بناؤها على وشك الانتهاء). وعندما استقر في غرفته بدأ يكتب رسالة مطولة إلى أخيه سيرغيه يشرح فيها مدى تأثره بهذه المدينة العظيمة، وكيف أن الجميع منشغل هنا، وكيف أنه أصبح يتخلق بأخلاقهم، وكيف أنه قرر أخيرا أن يتقدم لامتحانات الجامعة ويحصل على وظيفة في الخدمة المدنية. وقال إنه إذا ما فشل في اجتياز الاختبارات فإنه لن يتردد في الحصول على وظيفة ويبدأ من قاع قائمة الرتب (نظام الهرمية الإدارية)؛ وهو نظام رتب تبلغ أربع عشرة رتبة لطبقة النبلاء أسسه بطرس الأكبر لتوزيع الرتب على من يعمل في المحاكم أو الخدمة المدنية أو القوات المسلحة. وقد أفضى ذلك إلى هوس المكانة الرسمية (الرتبة) في صفوف النبلاء، وهو موضوع سخر منه غوغول أشد السخرية في قصة «الأنف» (1836). بعدها قال تولستوي بأنه يعلم أن أخاه سيتعامل مع تطميناته بشأن تغير نهجه خصوصا أنه أصبح رجلا آخر، بعين الشك؛ لأنه سمع منه هذه الأسطوانة عشرين مرة من قبل. ولذلك عجّل في إخباره بأنه أصبح بالفعل رجلاً مختلفا الآن بطريقة تختلف عن الطريقة التي تغير فيها في مناسبات سابقة، والأمر غير مرتبط الآن بحسن النوايا فحسب. فقد أعلن ولأول مرة في حياته أنه لا يستطيع العيش على الفلسفة فقط بل يحتاج إلى أنشطة عملية على الأرض. ومع ذلك كان يحتاج إلى بعض المال ليُسدد ديون القمار (1200 روبل تحديدا)، فطلب من سيرغيه أن يبيع غابة من شجر البتولا في ياسنايا بوليانا. وهكذا أصبح بيع ميراثه من الممتلكات تدريجيا أمرا متكررا خلال السنوات القليلة القادمة.

كان سيرغيه يشك في تأكيدات أخيه، وقد كان محقا لأنه كان يخشى أن يعود تولستوي إلى القمار مجددا في بطرسبرغ حيث خسر أموالا طائلة لصالح لاعبين عديمي الضمير. وهكذا توسل سيرغيه لأخيه الأصغر في رسائل عديدة أرسلها له بأن يجد عملا وألا تسوِّل له نفسه لعب القمار مجددا. وقد كان في العموم قلقا لأن تولستوي حينها لم يكن منضبطا بالقدر الكافي،

وكان أيضا غير مرتاح لخادمه المدعو فيودور الذي سرق سيده في السابق ورهن ملاعق فضية، وأنفق كل المال الذي حصل عليه من سيده على معاقرة الخمرة. ومن الجدير القول إن جميع الإخوة تولستوي لم يستطيعوا أن يتعاملوا في البداية مع طاقة القدر التي فُتحت عليهم من أموال طائلة ورثوها. فقد سرق البستاني العامل لدى ديمتري سبعة آلاف روبل حينما تركها ديمتري باستهتار وحمق في مكتب عزبته في تشيرباتشيفكا. أما سيرغيه فقد كان هو الآخر ينفق أموالا طائلة في مطارداته لمعشوقته ماريا (ماشا) شيشكينا المغنية الغجرية في كورال تولا الشهير؛ التي كان متيما بحبها حتى النخاع. لكن ذلك لم يكن ليقارن مع ما أسرف فيه تولستوي على نفسه؛ ففي الأول من مايو عام 1849 أرسل تولستوي رسالة لأخيه سيرغيه وطلب منه أن يقرأها بمفرده/ وقال فيها:

«سيريوجا، أتخيلك تقول إنني شاب ذو رأس فارغة (وهذه بالفعل كانت جملة سيرغيه المشهورة عندما كان يخاطب أخاه)، وأنت بالفعل تقول الحقيقة. فالله وحده يعلم ما خبرته وما اقترفته! توجهت إلى سانت بطرسبرغ من دون غاية أنشدها ولم أقم بشيء يستحق الذكر فيها بخلاف إنفاق مال وفير دفعني إلى الانغماس في الدَّيْن. إنه لفعل أحمق. غاية في الحمق. لك ألا تصدق كم يؤرقني ذلك. لأن ما يهمني في المسألة هو الدَّيْن الذي يجب عليّ سداده بأسرع وقت ممكن، لأنني إن لم أسدد الديون فسأخسر سمعتي علاوة على خسران المال. أتوسل إليك سيرغيه، قم بما سأطلبه منك: بع قرية فاروتنيكا. فليشترها أوفاروف أو سيليجنيف. افعل ذلك سرا من دون إخبار عماتي أو أندريه (سوبولوف، متعهد العزبة) عن السبب».

خضع تولستوي منذ أن قدم إلى بطرسبورغ إلى اختبارين في القانون وما لبث أن أصيب بالسأم ولم يكمل بقية الاختبارات. أما آخر مشروع غير مدروس كان يفكر فيه في تلك الفترة فكان الانضمام للجيش متطوعاً.

وحالما أتت الأنباء من فرنسا لتفيد بأن الملك لويس فيليبي قد أطيح به في مارس من عام 1848 وتم الإعلان عن الجمهورية، أصيب القيصر ألكسندر الأول بالذعر وبدأ حشد قواته. فقد أطلقت الثورة الفرنسية لعام 1848 موجة من حركات التمرد في أرجاء أوروبا، فأُصيب ألكسندر الأول بالهلع، لا سيما أن بعض موجات التمرد تلك قد وصلت إلى بعض المناطق الخاضعة للإمبراطورية الهابسبورغية كالمجر (التي كانت تشاطر حدودها مع روسيا). وهكذا شعر ألكسندر (شرطة/ درك أوروبا) بالسعادة والرضا لقبوله دعوة من الحكومة النمساوية للمساعدة في استعادة النظام في المجر/ هنغاريا؛ من خلال إرسال أربعة ألوية من المشاة وكتيبة مدفعية في مايو من عام 1849 لأسباب متعددة، ليس أقلها أن قائدي القوات الهنغارية كانا بولنديَيْن قد نُفيا من بلادهما بسبب انتفاضة فاشلة قاما بها ضد الحكم الروسي عام 1831. أما تولستوي المندفع ذو النزعة الأنانية فقد كان لا يلقي بالاً بالسياسة حينها، بل كان يحلم بالمجد من خلال انخراطه في الجيش. فوضع نصب عينيه الالتحاق بحرس الخيالة، وربما الحصول على رتبة ضابط قبل إتمام سنتين في الخدمة (المعيار المتبع في الجيش الروسي). لكنها كانت مجددا خطة غير محكمة لم يفكر فيها ملياً.

فبعد زهاء أسبوع فقط كتب تولستوي مجددا إلى أخيه سيرغيه ليخبره بأنه عزف عن الالتحاق بالجيش في الوقت الراهن وعاد إلى خطته القديمة ليجتاز الامتحانات. كما سأل أخاه عن إمكانية انتقال خادمه ألكسي بيتيوخوف ليعمل لحسابه، ووعد أن يهتم به وبأسرته وأن يدفع له عشرة روبلات (آخذين بعين الاعتبار أن تولستوي كان يخسر أحيانا آلاف الروبلات على طاولة القمار دفعة واحدة). كان سيرغيه يساعد أخاهِ خلال الأشهر الفائتة على مضض، متحسرا على الأخطاء التي كان يقترفها، ولم يشأ أن يقدم له أيَّ نصيحة الآن لأنه كان يعلم أنها ستقع على آذان صماء. لكنه مع ذلك حثَّ تولستوي على العودة إلى ياسنايا بوليانا ليُصلح من حاله: «تقول بأن الأمور الغبية تحصل مع المرء مرة واحدة في حياته. أرجو أن يكون ذلك

صحيحا». واستمرَّ في حديثه معه محذرا إياه من أنه يخاطر بتبديد أصوله وممتلكاته كافة. أما العمة توانيت فقد شعر تولستوي بالخجل تجاهها، وكتب لها شارحا بأنه عدل عن فكرته السابقة في العمل لدى وزارة الشؤون الخارجية، وأنه عازم الآن على العودة إلى العزبة ليحضّر للامتحانات. وفعلاً في نهاية مايو أو في بداية يونيو من عام 1849، قبل وصول «الليالي البيض» المشهورة في العاصمة الشمالية إلى ذروتها، قرر تولستوي العودة إلى ياسنايا بوليانا مرورا بموسكو وتولا. وقد ترك خلفه بعض الدائنين الأمر الذي قضَّ مضجعه خلال السنوات القليلة القادمة.

لكن شخصا واحدا لم يرَ شيئا من تلك الليالي البيض في ذلك الصيف. إنه فيودور دوستويفسكي الكاتب الشاب الموهوب الفقير الذي نشر قصة تحمل الاسم نفسه «الليالي البيض» قبل عام. أما الآن فهو يقبع وراء القضبان في زنزانة لا تدخلها أشعة الشمس. فقبل أسبوع من إرسال تولستوي رسالته الخانعة لأخيه سيرغيه، داهمت شرطة القيصر السرية شقة دوستويفسكي واعتقلته. وقد كان يعيش في شقة تقع مقابل فندق نابليون الذي كان تولستوي ينزل فيه. إنها بالفعل مفارقة عجيبة كما هي مفارقاته العديدة في تحفه الأدبية اللاحقة الرائعة. كان دوستويفسكي من بين أربعة وعشرين رجلا انضموا إلى مجموعة يسارية من الإنتلجنسيا الروسية تدعى حلقة بتراشيفسكي، فانخرطوا في أنشطة متفاوتة للكفاح من أجل نيل الحريات السياسية والحقوق المدنية. أما جريمتهم فكانت مرتبطة باجتماعاتهم التي كانوا يعقدونها كل مساء جمعة لمناقشة مواضيع ساخنة مثيرة تحريضية؛ كالاشتراكية ومنع الرق وحظر الرقابة الحكومية وغيرها. وكانت مناقشة أفكار كتلك في جو القمع وجنون الارتياب (البارانويا) والتضييق على الحريات في حقبة ألكسندر الأول ترتقي إلى مستوى الخيانة، لا سيما في أعقاب ثورات عام 1848. قرأ أحدهم جهراً في الاجتماع الأخير للحلقة، في الخامس عشر من أبريل عام 1849، الرسالة المشهورة للناقد الراديكالي فيساريون بيلينسكي التي وجهها إلى غوغول،

والتي تعتبر وثيقة ذات محتوى جريء وصريح، كتبها بيلينسكي عشية موته المبكر، وانتقد فيها غوغول انتقاداً لاذعاً بسبب دفاعه الجبان عن الاستبداد الروسي وكل معانيه وتجلياته. وقد حرر بيلينسكي تلك الرسالة في ألمانيا عام 1847 وهو يموت ببطء من مرض التدرن (السُلّ). وما لبث أن انتشرت نسخ من الرسالة في صفوف التقدميين من الإنتلجنسيا كانتشار النار في الهشيم بعد أن هُرّبت تلك النسخ إلى روسيا.

سُجن دوستويفسكي ورفاقه في سجن قلعة بطرس وبولس شديد الرطوبة المشهور. وهو المكان نفسه الذي سُجن فيه فيها ابن بطرس الأكبر وجدُّ تولستوي بيتر أندريفيتش والديسمبريون أيضا. وبينما كان تولستوي لا يزال يجوب شوارع بطرسبورغ مرتدياً بدلات حيكت من قِبل أفضل الحاكة في المدينة ويرتاد أرقى مطاعمها، كان دوستويفسكي يعيش مع الذباب والصراصير والقمل والجرذان في زنزانة رطبة معتمة. ففي نهاية عام 1849 صُفدت قدماه بالسلاسل وحُكم عليه بالسجن لأربع سنوات مع العمل الشاق في سيبيريا. وهكذا سيقترب عملاقا الأدب الروسي من مواقع بعضهما بعضا على مدار السنوات اللاحقة ولكن من دون أن يلتقيا وجها لوجه أو حتى يلتقيا أيديولوجياً. فتولستوي كان أفضل نسباً وجاهاً من دوستويفسكي الذي كان ينتمي إلى طبقة اجتماعية أدنى، رغم أنه كان نداً له في عالم الأدب ونداً له في رؤيته للعالم وتبنّيه أفكاراً مغايرةً تماما.

أحضر تولستوي معه إلى ياسنايا بوليانا بيانو ألمانيا عندما عاد من بطرسبورغ في يونيو عام 1849، وأمضى وقتا لا بأس به في صيف ذلك العام يتعلم فيه أساسيات الموسيقى. وكان ذلك استثمارا جيدا لأن الموسيقي سوف تلعب دورا رئيسيا في حياته لاحقا. وكان في الأوقات التي لا يدرس، فيها ينسحب بصحبة عازف البيانو رودولف إلى البيت الزجاجي لتأليف الموسيقى، أو الانخراط في جلسات موسيقية تبعث على النشوة مع جميع الخدم المخضرمين الذين كانوا عازفين في أوركسترا الكونت فولكونسكي. وكان أحد أولئك الموسيقيين عازف الكمان الثاني

في الفرقة، فوكا ديميدتش الذي شغل منصب كبير الخدم في المنزل في حياة الأب نيكولاي إيليتش. وقد اختاره تولستوي ليصبح زميله في تدريس أطفال الفلاحين في المدرسة الأولى التي أنشأها في ياسنايا بوليانا، والتي احتوت على عشرين طفلا درسوا الحساب والدين والقراءة والكتابة. ويبدو أن تلك التجربة لم تستمر طويلا ولم تكن قد وثقت (أو تكاد لم توثق)، ذلك أن المعلومات شحيحة، إلا أنها مثّلت إشارات أولى لصحوة ضمير تولستوي الاجتماعي. وبالفعل، فقد أصبح التعليم العام خلال العقدين القادمين قضية قريبة إلى قلبه.

استأنف تولستوي مذكراته لأسبوع واحد في يونيو من عام 1850، لكن تلك السنة لم تشهد مدخلات أخرى في دفتر مذكراته، فالمعلومات عنها أيضا شحيحة بخلاف معرفتنا أنه مكث في ياسنايا بوليانا. وقد أصبح عمّاً فخوراً وأباً روحياً في يناير عام 1850 عندما أنجبت أخته ماريا (ماشا) طفلة أسمتها فارفارا (فاريا). ولم يكن ذلك المولود الأول؛ لأن ماشا كانت قد فقدت ابنها البكر، بيوتر، بعد ولادته بفترة قصيرة عام 1849. لكن فاريا عاشت (كما عاش نيكولاي وليز، المولودان في السنتين التاليتين). توجه تولستوي مباشرة بعد ولادة فاريا إلى بوكروفسكوي ليحضر طقس تعميدها (على بعد 50 ميلا من ياسنايا بوليانا). ويبدا أن تلك الرحلة كانت الرحلة الأطول في ذلك العام (1850) لأنه كان يتنقل فيها في محيط تولا فحسب. وفي نهاية عام 1849 اضطلع تولستوي بمنصب متواضع في الخدمة المدنية في الحكومة المحلية في تولا (وضع في قاع الهرم التسلسلي للرتب الوظيفية كرئيس قلم اعتباري). ولم تكن الوظيفة تتطلب فعل الكثير؛ لذلك استغل الفرصة في ذلك الشتاء للتعرف إلى نبلاء المدينة ومخالطة الغجريات.

أعجب تولستوي ببعض المغنيات الغجريات، لكنه انجذب إليهن في الأساس لجمال رقصهن الجامح وموسيقاهن الحزينة المفعمة بالعواطف الجياشة. ويُذكرَ أن الغجر ظهروا في الإمبراطورية الروسية في بداية القرن العشرين، فاستقر بعضهم فيها وزاول البعض الآخر حياة

حلّ وترحال تشبه الحياة البدوية. فكانوا يسكنون في أشهر الشتاء مع الفلاحين الروس ويعملون في الصيف في مقايضة الخيل. وتعلموا منذ البداية الأغاني الروسية وقدموها باحتراف لقاء المال. وقد أُسس أول كورال روسي غجري في السبعينيات من القرن الثامن عشر على يد الكونت أورلوف-تشيسمينسكي؛ الذي أتى ببعض خدمه من الغجر من أسرة إيفان سوكولوف ليقدموا عروضا في عزبته في ضواحي موسكو. وحرر أولئك الخدم من نير العبودية عام 1807، لكن شهرتهم بدأت بملء الآفاق بعد حرب نابليون؛ إذ بدأت المطاعم والحانات في موسكو بدعوتهم لتقديم العروض الغنائية الليلية. وشهدت بعد ذلك المدن الروسية تناميا في عدد الكورالات الموسيقية التي أنجبت سلالات من المغنين الرائعين الذين قاموا بعروضهم ضمن فرق موسيقية، أو على أنغام الكمنجات الروسية والغيتارات الروسية ذات الأوتار السبعة. وقد ملأت عروض الغجر فراغا وراقت لكل الطبقات الاجتماعية من النبلاء والتجار (لا سيما ضباط الجيش). فلم يكن ثمة موسيقيون محترفون غيرهم في روسيا في تلك الفترة بخلاف فنانين أجانب. وكانت الحسنة المميزة للكورال الغجري أن مغنيه كانوا يتقنون الأغاني الروسية، ويضيفون إليها عناصر من تقاليدهم وطابعهم الساحر الخاص. ويمكن القول إن الغجر، دون غيرهم من الأقليات، لم يتعرضوا للعنصرية في المجتمع الروسي، أو على الأقل من قِبل أولئك الذين عاشوا بينهم. ووصلت الكورالات الغجرية إلى ذروة شهرتها في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، لا سيما كورال مدينة تولا حيث اعتبر أحد أفضلها. وكانت المغنية الرئيسية الرائعة فيه (خليلة سيرغيه) تدعى ماشا شيشكينا (وهي تنحدر من سلالة مغنين عظماء). وقد استمتع ماركيز دي كوستين بالاستماع إلى كورالات الغجر في رحِلته إلى روسيا عام 1839، لا سيما في مدينتي موسكو ونيجني نوفغورود. وقد دهش لأن غجر روسيا كانوا مختلفين عن الغجر الآخرين الذين رآهم في حياته.

«تشبه أغانيهم الجياشة المشبوبة بالعاطفة أغاني الغجر الإسبان إلى حد ما. فألحان الشمال عادة ما تكون أقل حيوية وأقل شبقا وإبهاجا للحواس من الألحان الأندلسية، لكنها في روسيا تُخلّف لدى السامع انطباعا حزينا حالما عميقا. لقد قاربت الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل ولا يزال المنزل يغص بالناس والضوضاء والألق. دُهشت لجمال النساء الغجريات الأخاذ، أما ملابسهن، فرغم أنها ظاهريا تبدو كأي ملابس ترتديها النساء الروسيات الأخريات، لكنها تتخذ طابعا أجنبيا خاصا عندما يرتدينها.. ثمة سحر في نظراتهن. أما حُسن ملامحهن وملح تعاملهن فحدث ولا حرج. يا له من جلالٍ طاغٍ! باختصار، هن يمثلن عرّافات مايكل أنجلو».

كانت تلك الغجريات أول من دفع تولستوي للتفكير في كتابة قصة. وهن بالفعل يظهرن في إحدى قصصه الأولى غير المكتملة عام 1853، إذ يسرد القاص (تولستوي نفسه) كيف أنه يأسف على تحول فنهن الراقي إلى فن هابط. يقول: «كان الناس في السابق متيّمين بموسيقى الغجر أكثر من أي موسيقى أخرى، خصوصا عندما كانت الغجريات يغنين الأغاني القديمة الرائعة». ومن ثم يعقب بالقول بأن الموسيقى الغجرية في روسيا كانت: «الطريقة الوحيدة لنا للانتقال من الموسيقى الشعبية إلى الموسيقى الجادة»، مؤكدا من دون أي يعتذر بأن حبه لموسيقى الغجر جعله يستطرد».

جمع تولستوي بين حبه للأغاني الشعبية الروسية وولهه بالموسيقى الأوروبية الكلاسيكية (لا سيما بيتهوفن، ثلاثي البيانو رقم 70)، فقد كان يعزفها شخصيا على البيانو. وكان مصمما على الإيفاء بمعاييره العبثية التي وضعها لنفسه، لكننا ومن خلال تمحيص مدخلاته في دفتر مذكراته طوال أسبوع من شهر يونيو عام 1850، نكتشف أنه فشل عموما بالالتزام بجدول حياته اليومي الصارم لجهة السباحة وإدارة الخدم والمطالعة والكتابة وعزف البيانو. ورغم أنه انتقد نفسه انتقادا لاذعا عندما لم يستطع عزف السلم الموسيقي بنغماته الأربع والعشرين

والأصوات التابعية ضمن مسافتين موسيقيّتيْن، فإنه استمر في إصراره على تعلم الموسيقى بمستوى محترم من الكفاءة. وبالفعل، فقد استمر في عزف البيانو حتى في شيخوخته، وفي بعض الأحيان كان يعزف إلى جانب زوجته صونيا أو أخته ماشا.

مصدر آخر جلب له الامتعاض في صيف 1850 جاء من عدم قدرته على قمع شهوته وانجذابه الجنسي نحو الفتيات الفلاحات الحسناوات العاملات في عزبته. فشأنه شأن العديد من الإقطاعيين الروس خلال تلك الفترة، استغل تولستوي «ميزات» مكانة الرجل النبيل من خلال امتلاك الخدم وممارسة ما يسمى «حق الليلة الأولى» أو «حق السيّد» (أي ممارسة الجنس مع النساء الفلاحات العاملات في الأرض والتابعات لسيّدهن، لا سيما في الليلة الأولى من زواجهن)[62] على نحو منتظم عندما كان شابا. وقد اعترف في مذكراته في التاسع عشر من يونيو عام 1850، بأنه لم يستطع أن يضبط شهواته. والأسوأ من ذلك أن إغواء الفتيات أصبحت عادة تتملكه. في ذلك الصيف، كان ثمة فتاة شابة بريئة أثارت غريزته فوقعت فريسة له: وهي خادمة العمة توانيت جاشا تروبيتسكايا التي انتقلت بعد فترة للعمل في خدمة شقيقته ماشا وسافرت معها إلى الخارج عام 1859. تألم تولستوي لاحقا من وخز الضمير بسبب سلوكه الاستغلالي المشين. وقد حاول في العقد الأخير من ذلك القرن الإعلان عن توبته من خلال رسم شخصيات روائية عكفت على ذلك السلوك، والتنديد بفشله الأخلاقي من خلال تجاربها، لا سيما الشخصيتين المركزيتين في روايتي «الشيطان» و«البعث». وبينما كان يكتب روايته الأخيرة تلك عام 1898 اعترف لزوجته صونيا بأنه كان يعيد تدوير أحداث وتفاصيل واقعية من حياته الخاصة. وكانت الزوجة قد رأت جاشا وهي امرأة مسنة، وتقززت من فكرة استغلال زوجها للفلاحات البسيطات، ومن استذكاره للخلاعة والتفاصيل الشهوانية وهو شيخ

(62) Droit de seigneur، وهو حق قانوني في أوروبا القرون الوسطى يتيح للوردات الإقطاعيين ممارسة الجنس مع زوجات خدمهم/ أقنانهم، لا سيما في الليلة الأولى من الزّواج (المترجم).

مسن. (وهذا بالضبط ما شجع تولستوي على الاعتراف لصديق له عن أول تجربة له مع بائعات الهوى). وقد اعترف تولستوي أيضا في أواخر حياته بأنه أقام علاقة غرام مع أفدوتيا (دونياشا) بانيكوفا، وهي ابنة خادم كان أول من درّسه واسمه نيكولاي ديميتريفيتش. وتزوجت دونياشا لاحقا بخادم تولستوي المدعو ألكسي أوريخوف الذي كان يعمل في ياسنايا بوليانا وقد أصرّ تولستوي على أنه لم يلمسها. كان تولستوي إذن شابا حاذقا في التربص لاصطياد الفتيات، وقد بدأ حينها أيضا يطور شغفاً بالصيد بصحبة كلاب صيد من نوع بورزوي.

ولكن رغم كل نواياه الصادقة، عاد تولستوي بحلول خريف 1850 مجددا إلى الشرب والقمار وقضاء وقت مع الغجريات في تولا. وفقد مالاً جمًا هذه المرة؛ 4 آلاف روبل في مناسبة واحدة. وتطلب الأمر تغييراً للروتين، فغادر تولا متوجها إلى موسكو مجددا في ديسمبر من عام 1850، حيث أخرج دفتر مذكراته وبدأ بوضع قوانين جديدة بعضها لم يكن واقعيا البتة (العزف على البيانو لأربع ساعات يوميا)، وبعضها كان عمليا («التزم التمارين الرياضية يوميا»، و«الزم الصمت ولا تتحدث عن نفسك إلا بقليل من الكلمات»، و«تحدث بوضوح وصوت مسموع»)، وبعضها كان مثاليا (لا تقرب النساء)، وبعضها الآخر كان غريبا (قبل الذهاب إلى الحفلة الراقصة فكر مليا واكتب كثيرا)، وبعضها كان سخيفا بامتياز (لا تقرأ الروايات). كما وضع تولستوي أيضا قواعد مفصلة للعب الورق؛ إذ أراد أن يلعب هذه المرة بجدية ويقامر فقط مع أشخاص أكثر ثراء منه. وارتاد في ذلك الشتاء الكثير من الحفلات الراقصة (كان قد وضع قواعد للرقص أيضا)؛ لأنه رغب في تجاذب أطراف الحديث مع أفراد الطبقة الراقية من مجتمع موسكو ليعثر على زوجة. لكن الوقت سيطول قبل لقائه نصفه الآخر، رغم أن الاختلاط مع الناس في تلك الفترة كان يعني أنه على وتيرة واحدة مع أحدث المكائد والدسائس والأخبار في المدينة، ليرسل رسائل طويلة لعمته توانينت يخبرها فيها عن القيل والقال في صالونات

موسكو؛ كالفضيحة التي كانت تلف عشيقة ألكسندر سوخوفا كوبيلين الروسية الأرستقراطية، والدليل على تورطها في حادثة القتل المشهورة التي وقعت ضحيتها غريمتها الفرنسية.

كانت توانيت تستمتع بالرسائل التي تتسلمها من أكثر أبناء الأخ محبة إلى قلبها. في السابع والعشرين من يناير عام 1851 قالت له في أحد ردودها بأن أسلوب كتابته شيق للغاية وطبيعي سلس وكأنه يتحدث إليها وجها لوجه. لكنها كانت قلقة بشأن خلو حياته من هدف يصبو إليه بالإضافة إلى إدمانه على القمار. وذكَّرته بنوع من التوبيخ بأنه عندما أتى في المرة الماضية لقضاء عطلة أعياد الميلاد مع أسرته توقَّف في تولا، وفضَّل أن يلعب الورق طوال الليل بدلا من أن يمضي وقتا مع شقيقه نيكولاي الذي عاد إلى «روسيا» كما قال، بعد إجازة من القوقاز حصل عليها لأول مرة بعد أربع سنوات. وكانت توانيت أيضا قلقة على سيرغيه «لو أنه حصل على وظيفة تشغله بجدية لما استسلم لشغفه المجنون بتلك المغنية الغجرية». وكانت ترجو أن يجد ليف هدفا لحياته وألا يتزوج زواج مصلحة من أجل سداد ديونه. وتوسلت العمة إليه من أجل أن يرتب حياته. وكان قد بدأ بذلك بالفعل. فقد كان يشعر بالألم لأنه كان على دراية بخواء المجتمع في موسكو، وبدأ التفكير جديًا بكتابة رواية. وقد أعلن في ديسمبر عام 1850 في مذكراته أنه يريد كتابة قصة عن الغجريات.

كان تولستوي قادرا منذ البداية على النظر في مرآة نفسه ليكتشف عيوبها (وقد كان أيضا ينظر إلى المرآة الحقيقية في المنزل وينتقد نفسه لكثرة ما يقوم بذلك)، وهذا ما شكل أساس قدرته على التحليل النفسي. وفي الثامن من مارس عام 1851 بدأ الاحتفاظ بـ«صحيفة فرانكلين» كطريقة لرصد هفواته الأخلاقية. وقد وصف بنجامين فرانكلين تقنيته التي اتبعها لرسم جدول فضائل بحسب سيرته الذاتية (Mémoires de la vie privée) التي نُشرت في باريس عام 1791، بحيث يضع علامة بجانب كل فضيلة لم يستطع الالتزام بها كل يوم. وأصبح تولستوي الآن نشطا في كتابة مذكراته يوميا، ربما لأنه وجد العزم في نفسه أخيرا أو ربما لأن فصل الربيع

بث فيه طاقة جديدة. وقد اقتنع في تلك الفترة بأن الإقرار بهفواته الأخلاقية يشكل نصف المعركة من أجل تصفيتها. ونجح تولستوي أخيرا في الالتزام بممارسة الرياضة بانتظام وتلقي دروس في لعبة المبارزة، لكن سلوكه لم يكن يرتقي إلى المستوى المطلوب إلا نادراً، فتجده يُدرج كلمات عديدة في مذكراته من قبيل: «كسل»، «جبن»، «تخمة»، «تواضع زائف»، «خداع للذات»، دلالةً على عتاب منتظم بسبب ضعف التزامه الأخلاقي.

وعندما بدأ يجرب كتابة الرواية لأول مرة أصبح تولستوي أكثر انعزالا عن الناس، وأصبح يمضي وقتا أطول في المطالعة. فقد كان يقرأ مونتسكيو في بداية السنة، أما الآن فانتقل إلى قراءة لامارتين وكتابه الجديد (Histoire des Girondins)[63] (1847)، وبرنارد دي سانت بيير وروايته (Paul et Virginie)[64] (1787)، وغوته وكتابه «آلام فيرتر»[65] (1774)، ولورانس ستيرن وكتابه «حياة وآراء تريسترام شاندي»[66] (1759-1769). وخلال ربيع 1851 بدأ بملاحظة، ليس فقط العمليات الفكرية والعاطفية التي تعصف برأسه وكيانه، بل الحياة من حوله أيضا. وقد فكر تولستوي عندما باشر في كتابة المسوّدة الأولى من «طفولة»، الذي أصبح أول عمل يُنشَر له، فكَّر في تأليف نوع أصيل من رواية تشكيل (تعكس مراحل النضوج البدني والنفسي والروحي لبطل القصة)، بأربعة أجزاء بعنوان «أربع حقب من التطور». وتحت تأثير ديفيد كوبرفيلد الواضح ولورنس ستيرن أيضا وآخرين، أراد تولستوي أن يستكشف التجارب السيكولوجية التي يخوضها فتى في رحلته نحو البلوغ. وكأي عمل روائي نشره في حياته اعتمد تولستوي على تجاربه الشخصية وحياته كمواد خام لرسم مشاهد معينة في عرض شخصية

(63) تاريخ الجيروندّيون.

(64) بولس وفيرجينيا.

(65) The sorrows of Young Werther.

(66) Tristram Shandy.

وطفولة بطل قصته نيكولينكو. ومن المهم أن نفهم أن حياته كانت الوسيلة وليست الغاية، لكن كما قال العالم بشؤون تولستوي ريتشارد جوستافسون: «هذا التشويه للتجربة الشخصية يعتمد على الإخفاء بغرض الكشف»؛ لأن الإخلاص والحقيقة الوجدانية كانت من أهداف تولستوي النهائية. فالطفولة تخدع القارئ ببساطتها، ولكي تكون مقنعة أتى تولستوي بصوت قاص مقنع. لذلك فإن إحدى المشاكل التي تصارع معها هي وجود قاص بالغ راشد وخطورة تحويل قصته لتبدو كمذكرات، أو أن يأتي بالطفل نيكولينكو ذاته ليكون قاصا للرواية، وهذا ما شكل معضلات من نوع آخر. فتقنيات تولستوي الفنية كانت حينها متطورة، وحقيقة أنه كتب لصديق في بطرسبرغ ذلك الربيع ليساعده في التفاوض مع الرقيب الأدبي شكل إشارة بأنه كان بالفعل قد بدأ بتناول كتاباته بشكل جدي.

قدِمَ نيكولاي في مارس من تلك السنة لزيارة شقيقه في موسكو. وكانت مأذونيته من الجيش على وشك الانتهاء، فاقترح على تولستوي أن يصحبه إلى القوقاز. وافق الأخير على الفور. وفي بداية أبريل غادر موسكو عائدا إلى ياسنايا بوليانا. وقد وفر القوقاز لتولستوي فرصة ليبدأ حياته من جديد في تلك المرحلة. وشكل فرصة لإغفال ديونه وعاداته السيئة ليتبنى حياة المخاطر والمغامرات على أخطر تخوم الإمبراطورية الروسية على الإطلاق. تُظهر صورة الأخوين على لوح فضي، وقد التقطت في ربيع ذلك العام، الكاتب المستقبلي حليق الذقن يجلس بتوتر بثياب حقيرة إلى حد ما، ويقبض بيده على عصا وينظر إلى المشاهد نظرة نافذة ثاقبة، بينما يجلس أخوه نيكولاي بارد الطبع بارتياح بجانبه، يرتدي بزته العسكرية ويضع بدون مبالاة مرفقه على مسند كرسي أخيه. انطلق الأخوان مع نهاية الشهر إلى وِجهتهما وقررا أن يتبعا طريقا جميلا مروراً بقازان ليُسلّما على بقية أفراد العائلة وبعض الأصدقاء. واصطحبا معهما خادمين من ياسنايا بوليانا: ألكسي أوريخوف وإيفان سوفوروف (أليوشا وفانيوشكا).

وبعد قضاء أسبوع لطيف في قازان، حيث سلبت الجميلة الأخاذة زينايدا ملاستفوفا قلب تولستوي، اتجه الشقيقان جنوبا نحو القوقاز. وفي الثلاثين من مايو، وبعد أسبوع مجيد من الإبحار في نهر الفولغا من ساراتوف إلى أستراخان، وأسبوع آخر وهم ركوب على الخيل، وصلا أخيرا إلى ستاروغلادكوفسكايا(67) في بلاد ما يعرف اليوم بالشيشان. وفي اليوم نفسه كتب تولستوي في مذكراته: «كيف انتهى المطاف بي إلى هنا؟ لا أدري»، «وما الهدف من وجودي هنا؟ لا أدري أيضا». ولكنه خدم في ستاروغلادكوفسكايا لسنتين ونصف السنة، ولعب الوقت الذي أمضاه فيها دورا بارزا في تكوين شخصيته لأن السنوات التي أمضاها في القوقاز ستجعل منه ضابطا برتبةٍ في الجيش الإمبراطوري، وكاتبا له أعماله المنشورة أيضا. بالإضافة إلى أن تجربته القتالية في القوقاز سوف يوظفها أفضل توظيف لاحقا عندما سيكتب مشاهد المعارك في الحرب والسلام.

وكانت كاترينا العظيمة قد أقحمت روسيا في القوقاز عندما أرادت بكرم منها أن تَنصُرَ المسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا يعانون في مملكة جورجيا. لكنها في الحقيقة أرادت من ذلك أن تبعد الفرس والعثمانيين عن أراضيها، مع غاية في نفسها مرتبطة بالاقتراب من تحقيق «المشروع الإغريقي». فهي كانت تحلم بهزيمة الأتراك لتضع حاكماً روسياً على عرش القسطنطينية التي اعتقدت أن المسيحيين سيستعيدونها من جديد. أما سنة المعجزات التي شهدتها الإمبراطورة كاترينا فكانت سنة 1783 عندما لم تكتفِ بغزو القرم فقط، بل وقَّعت أيضا على اتفاقية جيورجيفسك التي جعلت جورجيا محمية روسية. لكن الاعتداءات التي شنتها بلاد فارس صبَّت في مصلحة روسيا. ففي عام 1795، آخر سنوات حكم كاترينا، لم تقدم روسيا أي مساعدة عندما اجتاحت القوات الفارسية تفليس العاصمة، بل قام ألكسندر

---

(67) Старогладковская (Starogladkovskaya).

الأول بإلغاء معاهدة جيورجيفسك عام 1801، وقام ببساطة بضم جورجيا إلى روسيا وحلّ الملكية. وفي الحروب التالية التي اندلعت بين روسيا والعثمانيين والفرس استفادت روسيا بأن ضمت أراضيَ قوقازية صغيرة إضافية إلى إمبراطوريتها.

وقد بُنيت قرية في محيط القلعة التي أسست عام 1784 على حافة الجبل لتصبح القاعدة العسكرية الروسية الأساسية في المنطقة. وقد سميت باسم مُواتٍ «فلادي قفقاز» (أي حاكم القوقاز)، لكن الأمر تطلب أكثر من بناء طريق جورجيا العسكري بين فلادي قفقاز وتفليس ليغزو الروس القوقاز. ورغم أن الجورجيين استسلموا في معظمهم بدون قتال للقيصر الأبيض العظيم، وقد قاتل كثير منهم من أفراد الطبقة الأرستقراطية في الحرب على نابليون، إلا أن العديد من شعوب شمال القوقاز قاومت الوجود الروسي بشراسة، لا سيما الشيشان والآفار في المناطق الجبلية الشرقية (بالقرب من بحر قزوين)، والشراكسة في الغرب (بالقرب من البحر الأسود). ووجدت روسيا نفسها تقاتل في حرب استنزاف طويلة مستمرة ضد حركة مقاومة متماسكة. وقد اشتهر القائد الأعلى الأول للقوات الروسية في القوقاز، الجنرال ألكسي يرمولوف، بأساليبه الوحشية، إلا أن الشيشان (الذين كان يعتبرهم همجيين بدائيين) كانوا يفوقونه حيلة ودهاء؛ لذلك تمت تنحيته من منصبه وحل محله عام 1827 إيفان باسكيفيتش. وقد نُسجت استراتيجيات لاحقة بحسب القادة المتلاحقين حتى وضعت الحرب أوزارها في شرق القوقاز عام 1859 وفي غربه عام 1864.

اقتصرت تجربة تولستوي على الحرب في الشيشان بالمنطقة الشرقية من القوقاز، التي دخلت العقد الأخير عندما وصل إلى القوقاز عام 1851. كانت تلك السنة التي أحرز فيها الروس انتصارا متواضعا أيضا. فمنذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر اتحدت القبائل المسلمة القوقازية الشمالية التي كانت متفرقة في السابق، تحت إمرة القائد الآفاري الإمام شامل الذي حكم الشعبين الشيشاني والداغستاني. وقد اعتبر الإمام شامل الحرب ضد الروس جهادا

مقدسا. لكنه لم يحصل على الدعم الكامل من جميع الجبليين في تلك المناطق. ففي عام 1851 تشاجر مع قائد قواته الحاج مراد، وهو من قومية الآفار أيضا، الذي فرّ إلى الروس. وفي السنة التالية حاول الحاج مراد أن يعود إلى صفوف شاميل مجددا لكنه قُتل على يد القوات الروسية. أما دليل تأثر تولستوي العميق بأحداث تلك الحقبة ومشاركته في القتال في تلك الحرب الطويلة ضد سكان الجبال القوقازيين، فهو أنه قرر أن يحول تلك الأحداث وما تخللها من غدر وخيانات إلى رواية في الهزيع الأخير من حياته. فكتب رواية «الحاج مراد» عندما كانت أولوياته دينية أكثر منها أدبية. إلا أن الرواية تلك هي بالفعل إحدى أهم رواياته على الإطلاق.

قبل أن يلتقي أيـًا من الآفار أو الشيشان التقى بالقوزاق. لأن ستاروغلادكوفسكايا كانت إحدى خمس مستوطنات يعيش فيها القوزاق، وقد امتدت على مسافة خمسين ميلا على الضفة الشمالية لنهر تيريك. وقد سُمّيت على اسم جلادكوف، أحد الأتامان[68] المحليين. وقد أُسست تلك المستوطنة في العشرينيات من القرن الثامن عشر، وشارك من سكانها زهاء ألف قاتلوا مع الروس في حرب القوقاز. وهم من سلالة أولئك الذين استقروا في الجبال في القرن السادس عشر، الذين كانوا يقطنون على طول نهر التيريك (غريبينسكي أو تيرسكيي كازاكي)، وشكّل بعضهم جزءا من وحدات عسكرية مستقلة، والبعض الآخر ممن فرّوا من روسيا الوسطى تجنبا لاستعبادهم. إن نزعة القوزاق للحفاظ على أسلوب حياتهم التقليدي واستقلالهم وحريتهم أفضت في نهاية المطاف إلى نشوب نزاعات (في بعض الأحيان عنيفة) بينهم وبين السلطات القيصرية، لا سيما في حقبة كاترين العظيمة. ومع نهاية القرن الثامن عشر أُرغمت السلطات على الرضوخ لاحتوائهم، إذ مُنحوا مكانة خاصة مقابل عملهم خفرا للحدود على تخوم الإمبراطورية، لا سيما حدودها الجنوبية المهددة. ورغم أنهم كانوا من

---

(68) Ataman مصطلح يعني قائد/ زعيم قوزاقي.

رعايا الإمبراطورية الروسية ويدينون بالعقيدة المسيحية، إلا أن قوزاق التيريك كانت لهم لغتهم الخاصة، وكانت هيئاتهم تشبه جيرانهم الشيشانيين على الضفة الأخرى من النهر، الذين تعايشوا معهم بسلام لقرون طويلة. وقد اعتمر رجالهم قبعات صوف طويلة وسترات طويلة ذات جيوب للخرطوش على صدورهم.

استاء تولستوي في بادئ الأمر بسبب التضاريس المنبسطة التي استقرت فيها كتيبة أخيه، لكنه غيَّر رأيه بعد أن أصبح يجوب بلاد القوقاز ويرى بهاء وعظمة التضاريس الجبلية الساحرة التي ألهمت العديد من الشعراء الروس، وفتحت قريحتهم على نظم الشعر وكتابة الروايات. وقد توسعت مداركه من جراء ملاحظاته لأسلوب حياة القوزاق؛ لأن ذلك كان مختلفا تماما عما شاهده في روسيا. فقد كان رجالهم يقدّسون السمات الذكورية ويتركون العمل الشاق لزوجاتهم اللواتي لم يكنَّ مسحوقات البتة، بل كن أذكى من الرجال وأكثر وسامة. وقد حافظ القوزاق على كرامتهم التي تعززت بسبب استقلاليتهم على مدى قرون خلت (فلا تجد قوزاقيا يتحول إلى خادم مطلقا). وكان مستوى المعيشة لديهم أفضل من أي موجيك روسي عادي. وعاشوا بالقرب من الطبيعة. وقد وظف تولستوي معرفته العميقة بقوزاق التيريك في رواياته، إذ أنهى عام 1863، قبيل مباشرته كتابة الحرب والسلام رواية صغيرة الحجم أسماها «القوزاق» كان قد بدأها عندما كان يعيش في القوقاز. ولأنه كان مدنيا في تلك الفترة، فقد كان لديه متسع من الوقت ليصادق قوزاق ستاروغلادكوفسكايا ويتعرف على لغتهم (بينما كان أخوه نيكولاي يذهب في مهمات عسكرية). وقد تقرب في تلك الفترة من شخص يدعى إيبفان (إيبشكا) سيخين؛ وهو شيخ ثمانيني فارع القامة ملتحٍ، كان قد استأجر تولستوي عنده منزلا وخلَّد ذكراه

بدقة متناهية في شخصية إروشكا في رواية «القوزاق». كان إبيشكا يصطحب صديقه الشاب معه في رحلات الصيد، وكانا يعزفان على البالالايكا[69] ويقص عليه قصص القوزاق القديمة.

أما الشيشان فقد تعرف إليهم تولستوي بعد شهر من وصوله إلى القوقاز. ففي يونيو لحق بكتيبة أخيه إلى حصن ستاري يوت على بعد 30 ميلا، واشترك في غارة كمتطوع. وقد كان الجنرال الأمير ألكسندر برياتينسكي، قائد العمليات العسكرية في شرق القوقاز، موجودا بالمصادفة، وقد أخبر نيكولاي أخاه بأن الجنرال أعجب بأداء الشاب المتطوع. وهكذا، وبعد أن شعر تولستوي بالنشوة بسبب ذلك الإطراء من قِبل واحد من أشهر الجنرالات الروس آنذاك (فقد عُين الجنرال لاحقا عام 1856 قائدا أعلى للجيش الروسي في عموم القوقاز ونائبا للقيصر فيها)، وبعد أن تلقى التشجيع من أخيه، قرر الالتحاق رسميا بالجيش. لكنه اضطر أولا للحصول على إذن بالاستقالة من حكومة تولا المحلية ليُعفى من الوظيفة التي كان يعمل فيها بالاسم فقط.

وفي الأثناء أخذ يقرأ ويكتب ليملأ ما تبقى لديه من فراغ. وبدأ العمل على المسودة الثانية لكتابه «الطفولة»، بالإضافة إلى أنه استمر في لعب القمار مع ضباط روس، وخسر في الثالث عشر من يونيو 850 روبلا في جلسة واحدة، مما عنى أنه اضطر إلى مراسلة صهره مجددا ليبيع له قرية أخرى من ممتلكاته. وجد تولستوي حينها التخلي عن عادة القمار أمرا صعبا للغاية. لكن القمار أتاح له على الأقل أن يُعلّم شيشانيا كيفية العد، ذلك أن الشيشانيين لم يكونوا جميعًا على عداء مع الروس. وقد صاحب تولستوي في تلك الفترة شابا شيشانيا حاد الطبع يدعى سادو ميزيربييف، كان يتعرض دائما للغش على يد الضباط الروس الذين كانوا يقامرون معه. فاعتنى به تولستوي وضمَّه تحت جناحه، وقوبلت تلك الرعاية بولاء تام وسيف شيشاني

(69) آلة موسيقية وترية ذات صندوق مثلث (تشبه العود) تُستخدم في عزف ألحان الأغاني الفولكلورية الروسية.

أهداه له. بالإضافة إلى أن الكوناك[70] المخلص أنقذ صاحبه تولستوي في مناسبة أخرى فدفع عنه ديونه التي تكبدها من جراء خسارة فادحة على طاولة القمار.

وفي ذلك الخريف، انطلق تولستوي فسافر بعيدا فوصل إلى قلعة غروزنايا (غروزني حاليا)، وهو موقع جديد بُني عام 1818 على يد الجنرال ألكسي يرمولوف. أما الاسم الموحش فمشتق من الكلمة الروسية غروزنايا (وتعني تهديدي، من يتوعد بالتهديد)، وقد كان اسماً من بين أسماء أخرى لقلاع وحصون بناها الجنرال وأسماها أسماء مرعبة بنيّة ترويع السكان المحليين (أمثلة: فنيزابنايا وتعني المباغتة أو الصاعقة أو الخاطفة، وبورنايا وتعني العاصفة... إلخ). وكان يرمولوف أيضا المسؤول عن إجراء تحسينات كبرى عام 1817 على الطريق السريع العسكري الجورجي الممتد على مسافة 126 ميلا، والذي كان يعتبر شريان حياة القوات الروسية لعبور التضاريس الوعرة في القوقاز. فقد شكّل الطريق السالك والمعبر الوحيد في سلسلة جبال القوقاز، بالإضافة إلى أنه كان من أعلى الممرات في العالم، ويفوق علوه معبر سيمبلون الشهير. ويذكر أن بوشكين كان قد عبّر عن انطباعه لرؤية ذلك الطريق في عمله المعنون «رحلة إلى إيرزوروم» (1829)، وكان المكان لا يزال خطيرا؛ فقد تعين على المسافرين الذهاب مع قافلة مؤلفة من 500 جندي ومدفع وفي بعض الأحيان، ليقطعوا عشرة أميال فقط. أما أيام تولستوي فقد أصبح الطريق أكثر أمنا وأسرع عبورا. فقد قطعه تولستوي في أول مرة مع أخيه عندما توجهوا إلى تفليس في أكتوبر من عام 1851، فرأى أخيرا المنظر الخلاب للمرتفعات التي يكسو الثلج ذراها، التي رآها من قبله بوشكين وليرمنتوف وأُسرا بجمالها البهيج.

(70) الصديق باللغة الشيشانية.

استغرق أمر التحول من الخدمة المدنية إلى العسكرية وقتا طويلا بسبب الإجراءات البيروقراطية. لذا، مكث تولستوي في تفليس لشهرين إضافيين حيث خسر مجددا جميع أمواله وأصيب بوعكة صحية. واستمر خلال تلك الخلوة في كتابة «الطفولة»، وحاول أن يعزف عن مصاحبة النساء، وكتب رسائل لطيفة منتظمة إلى عمته توانيت عبّر فيها عن حنينه الجارف إلى مسقط رأسه. وشرح لها فيها كيف أنه يشعر بالبهجة لأنه يستطيع مجددا أن يعزف البيانو في تفليس، وكيف أن عزف البيانو كان الشيء الوحيد الذي تشوق له في حياته الجديدة في معسكر ستاروغلادكوفسكايا (وفي الوقت نفسه قرر أيضا أن يهب البيانو في ياسنايا بوليانا إلى أخته ماشا لأنه علم أنه لن يعود عاجلا إلى عزبته). واتيحت له الفرصة أيضا ليسمع موسيقى في دار تفليس للأوبرا التي كانت قد افتتحت أبوابها مؤخرا. وكان الفضل في افتتاحها وتأسيس صحيفة تصدر باللغة الروسية وشق شوارع جميلة مزينة بالأشجار على جوانبها إلى الجنرال ميخائيل فورونتسوف، القائد الأعلى للجيش الروسي في القوقاز منذ عام 1844 حتى عام 1854، ومندوب القيصر الأول في المنطقة. وهو ذو التعليم البريطاني والمصلح المُحدِّث الذي حوّل في السابق مدينة أوديسا إلى تحفة باهرة، وأتى الآن بأفكاره وخططته العمرانية المستنيرة إلى مدينة تفليس.

وبعد تقديمه طلبا رسمياً للانضمام إلى كتيبة المدفعية التي يخدم فيها شقيقه، تعيّن على تولستوي الخضوع لاختبار يصبح إذا اجتازه مؤهلا ليسمي نفسه «الغرّ المتدرب» أو «اليونكر» كما هو المصطلح الروسي المأخوذ من المصطلح الألماني «يونغ هير»[71]، أي برتبة ضابط شاب متدرب من طبقة النبلاء. وهكذا عُيّن تولستوي في الثالث من يناير عام 1852 مدفعيّاً[72] (مُلقم المدفع) في الدُّفعة الرابعة في البطارية الرابعة من لواء المدفعية العشرين للجيش الروسي،

(71) Jung Herr.

(72) Feierverker.

على الرغم من أن تعيينه لن يصبح رسميا قبل حصوله على الاستقالة من الوظيفة المدنية من حكومة تولا. عاد تولستوي بعد أسبوعين إلى ستاروغلادكوفسكايا لكنه غادرها مباشرة ليشارك، لأول مرة كجندي بدوام كامل، في غارات استمرت لشهر ضد الشيشان في غالب الأحيان جنبا إلى جنب مع أخيه نيكولاي. وكانت الحرب شعواء خطيرة مستمرة بلا انقطاع، في الوقت الذي بدأ كعب الروس بعد عقود من حرب العصابات مع الشيشان وسكان الجبال الآخرين يعلو على خصومهم.

بداية، صُممت الاستراتيجية العسكرية الروسية وكأن الخصم هو جيش أوروبي تقليدي، لكن مسرح الحرب في القوقاز لم يكن مسرحا تقليديا البتة. فلم يحارب الروس جيشا عرمرما وقوات بأعداد غفيرة يحملون حرابهم ويتمركزون على هضبة أو مرتفع يستعدون للقتال. كلا، كان الخصم عبارة عن مجموعات صغيرة غير متجانسة من الثوار المتمركزين في منحدرات جبلية وعرة ريانة بالغابات الكثيفة. وكان أعداء الروس يعرفون كل شبر من أراضيهم ويعلمون كيف يتوارون ويحمون أنفسهم. ولهذا، غيَّر الجيش الروسي في النهاية تكتيكاته. وفي ظل قيادة فورونتسوف، الذي كان قاسي الفؤاد كما كان سلفه يرمولوف، اقتضت الاستراتيجية الجديدة تقليم الأحراش وقص الأشجار وإفناء القرى لتقويض دفاعات الشيشانيين. وقد بدأت تلك الاستراتيجية تؤتي قطوفها. واستغل تولستوي الفرصة لإظهار معدنه كمقاتل في الغارات الأولى ضد الشيشان، وكان ينبغي أن يُمنَح صليب القديس جورج تقديرا لشجاعته لكن أوراقه لم تكن قد وصلت من تولا بعد. ولذلك اعتُبر أنه لا يزال متطوعا غير خليق بالتقدير الرسمي بعد، مما أدى إلى استيائه أشد الاستياء رغم أن أوراقه وصلت أخيرًا في نهاية شهر مارس.

واشترك تولستوي في مهمات عديدة لقطع أشجار الغابات في ذلك الربيع. وفي السنة التالية بدأ بعكس تجربته تلك في قصة أسماها «التحطيب» رغم أن أولويته كانت منصبة على إتمام «الطفولة». فبدأ بالتالي العمل على مسودته الثالثة عندما عاد إلى ستاروغلادكوفسكايا في

مارس. ومن المفارقة أنه في الوقت الذي انضم فيه إلى الجيش، بدأ الابتعاد عن مخالطة رفقائه المشاكسين من الضباط الذين وجدوا انطواءه ينم عن الغرور. وبينما كان شقيقه نيكولاي سعيدا في تلك الفترة بالسهر طوال الليل ومعاقرة الخمر، فإن ليف كان يلجأ إلى الشطرنج ولعبة المبارزة وقراءة الكتب لأن واجباته في الجيش كانت خفيفة. ومن ثم سافر في أبريل شرقا إلى كيزليار حيث استشار طبيبا بشأن صحته العليلة. وانطلق في مايو غربا في رحلة أطول امتدت لبضعة مئات الأميال ليصل إلى بياتيغورسك الواقعة على سفح تل في شمال القوقاز، حيث تلقى العلاج ولم يعد إلى ستاروغلادكوفسكايا حتى أغسطس. وفي تلك الفترة لم ينهِ «الطفولة» ويرسلها إلى الناشر فحسب، بل تسلَّم رسالة أيضا تفيد بنشرها.

سُميت بياتيغورسك (الجبال الخمسة: بيات غور) بهذا الاسم؛ لأن خمس ذرى/ قمم من جبل بيشتاو تطل عليها (بيشتاو تعني أيضا خمسة جبال باللغة التركية)، وقد بناها الروس قلعةً عام 1780. وبعد اكتشاف ينابيع المياه المعدنية فيها، تحولت بمرسوم إمبراطوري إلى منتجع صحي عامر وعصري مزين بلمسات المهندسين المعماريين الطليان قبل أن يصل إليه تولستوي عام 1852. وكان المنتجع الأكثر شهرة في عموم روسيا في القرن التاسع عشر. وكان لبياتيغورسك أيضا نصيب في الدراما الروسية، فقد قُتل ليرمنتوف في مبارزة بالقرب من مقبرتها عام 1841، وكانت أيضا مهددة بتعرضها لهجمات جماعات الشركس المغيرة التي جعلت المكان الوادع متوترا بعض الشيء. عرف تولستوي بياتيغورسك في مخيلته قبل وصوله إليها من خلال قراءته رواية ليرمنتوف «بطل من هذا الزمان» التي وصفت البيئة تلك في أطول القصص التي تناولتها. والتزم تولستوي بالوصفة العلاجية التي تتلخص في الاستحمام في ينابيع بياتيغورسك الكبريتية في فترة تمتد لستة أسابيع. بعدها سافر إلى ينابيع جيليزنافودسك (مياه الحديد) التي تقع في الشمال ليستحم فيها لأسابيع ثلاثة إضافية.

واستأجر تولستوي منزلا صغيرا يحتوي على حديقة وقفير للنحل، ويطل على قمة جبل إلبورس في ضواحي بياتيغورسك، وشمّر عن ساعديه ليباشر العمل. قرأ تولستوي كثيرا خلال فترة علاجه، لا سيما روسو الذي قرأه وأعاد قراءته، لكنه قام بالكتابة أيضا. وفي السابع والعشرين من مايو أنهى المسودة الثالثة للطفولة، وبدأ بعدها بأربعة أيام العمل على المسودة الرابعة والأخيرة. وفي بداية يوليو، وبعد أن اقتنع أخيرا بالشكل النهائي للمخطوط، قرر إرساله إلى محرر صحيفة «المعاصر» الصحيفة الأدبية الأكثر احتراما في روسيا، من دون أن يكشف عن هويته، موقَّعاً بحرفي ل. ن. ويذكر أن صحيفة المعاصر كانت قد تأسست في سانت بطرسبورغ على يد الشاعر الأشهر بوشكين عام 1836. وفي عام 1847 أصبح الشاعر نيكولاي نيكراسوف محررها، ولعب دورا كبيرا في تعزيز سمعتها وسعة أفقها كمنبر للإنتلجنسيا التقدمية الليبرالية، من خلال نشر أعمال مثقفين بارزين يميلون بأفكارهم إلى الغرب؛ كهيرزن وتورغينيف والتعاون مع نقاد عظماء كفيساريون بيلينسكي.

وفي التاسع والعشرين من أغسطس، وبعد ثلاثة أسابيع من عودته إلى ستاروغلادكوفسكايا، تسلم تولستوي رداً من نيكراسوف[73] يخبره فيه بأنه بُهر بعمل«الطفولة»، واعداً إياه بأنه سيقوم بنشره في العدد القادم. شعر تولستوي بغبطة عارمة قبل أن يحصل أخيرا على عدد سبتمبر من الصحيفة التي وصلت إليه في نهاية أكتوبر. عندها شعر بالغضب بسبب تلاعب الرقيب بالنص الأصلي للعمل وتحويل عنوانه إلى «تاريخ طفولتي». وبالتالي، قام بصياغة رسالة غاضبة إلى نيكراسوف شدد فيها على أنه لم يقصد من محتوى العمل كتابة قصة عن طفولته هو، ولكنه في النهاية (وبحكمة) قرر أن لا يرسلها له. وقد اغتمّ تولستوي أيضا لأنه لم يتلقَّ نصيبه من حقوق التأليف ولم يحفظ حقوقه ككاتب، رغم أنه كان حينها مفلسا وفي أمسِّ الحاجة إلى المال. لكنه

(73) Никрасов (Nekrasov).

رغم ذلك لم يكن على علم بأن الصحف الروسية دأبت على عدم دفع أي أتعاب لأي كاتب مبتدئ لقاء عمله الأول. وهكذا لم يكن لديه خيار سوى الإذعان وتسلية النفس على الأقل بمعرفة أن ثمة ناشرا راغبا في نشر أعمال إضافية له. وهكذا استُقبل أول أعماله بالترحيب الدافئ في أوساط النّقاد الذين امتدحوا على وجه الخصوص موهبته الفذة في التحليل النفسي الذي أضفى نوعًا من الحيوية على «الطفولة». ولاقى العمل أيضا رواجا ومديحا لدى الجمهور الروسي القارئ. فقد أراد الروس التعرف إلى هذا الكاتب الواعد مجهول الهوية. أما أفراد أسرته الذين لم يكونوا على دراية بهذا العمل من قبل فقد تفاعلوا مع الحدث ببهجة عظيمة ودهشة واضحة عندما اكتشفوا هوية الكاتب.

استمر تولستوي بالكتابة في ذلك الخريف، إذ تقاطرت الأفكار الجديدة على رأسه تباعا، وبدأ يفكر في الاستقالة من الجيش؛ فقد أظهر نجاح «الطفولة» له مسار مستقبله الذي لم يتصور أن يكون في الجيش مطلقا. وبدأ الآن العمل على أمور عديدة بشكل متزامن. فقرر أولا أن يضيف عملا آخر إلى الطفولة أسماه «الصِّبا». وفي الوقت نفسه، وبعد أن أصبحت الأفكار الدينية تشغل باله على نحو مضطرد، بدأ التفكير في تأليف رواية عن إقطاعي روسي يريد تحسين حياة فلاحيه. أخيرا، كان متلهفًا لنشر قصص عن القوقاز، المشروع الذي أنهاه قبل غيره بالفعل. فقد كان قد بدأ كتابة قصص استلهمها من تجاربه الشخصية في الجيش. وفي نهاية ديسمبر أرسل إلى نيكراسوف مخطوط «الغارة–قصة متطوع». وقد نُشرت بالفعل في مارس التالي، بعد أن اقتطع منها الرقيب أجزاء معينة. فتح تولستوي بكتابته للغارة صفحة جديدة في تاريخ الكتابات الروسية عن القوقاز. فبفضل بوشكين وليرمنتوف اعتاد القراء على تكوين رؤية حالمة رومانسية أسطورية عن القوقاز وشعوبها. إلا أن قصة تولستوي التي حاكها من ذكرياته عن أول غارة له ضد الشيشان، والتي حصلت مؤخرا في السنة الماضية، عكست الواقع بامتياز.

وإذا ما قرأنا ما بين سطور «الغارة» فيمكننا أن نتلمس آيات أولى تدل على موقف هذا الفتى من معارضة النظام العسكري.

وشكل ربيع عام 1853 فترة تخللتها أحداث مفرحة وأخرى مفجعة تعرض لها تولستوي. فقد شارك في مناوشات أخرى ضد المتمردين الشيشانيين وأُثني على شجاعته. لكنه أُرغم بعدها على التنازل عن صليب القديس جورج الذي استحقه لأحد الجنود الآخرين المخضرمين الذي حصل جراء ذلك على معاش جيد، ورُقي بدلا من ذلك إلى رتبة عسكرية أعلى. لكن المطاف انتهى به إلى الاعتقال بسبب تغيبه عن عرض عسكري بينما كان يلعب لعبة شطرنج مشوقة. وبذلك ألغيت ترقيته (وانتظر حتى عام 1854 ليستعيدها). خاب أمل تولستوي لأنه لم يحصل على صليب القديس جورج، كما تعرض لخيبات أخرى أيضا منها أن أخاه نيكولاي اتخذ قرارا بالاستقالة من الجيش في الخريف، بعدما خدم فيه لثماني سنوات. وفي فبراير من عام 1853 انتهت أوراق التسريح اللازمة ليتقاعد وهو برتبة نقيب. وكان تولستوي يشعر بالوحدة في القوقاز مع وجود أخيه، لذلك شعر بوحدة مضاعفة بعد رحيله. بالإضافة إلى أن حالته المادية لم تكن حينها على ما يرام. ففي أبريل من ذلك العام باع صهره قرية أخرى من ممتلكات تولستوي ليوفر له المال، مما عنى خسارة 350 هكتارا و26 من الخدم وعائلاتهم. حتى إن كتاباته تأثرت سلبيا أيضا، فقد توقف فجأة عن كتابة القصة التي بدأها وتناول فيها حياة شاب في موسكو يتردد على حفلات المجتمع الراقي والحانات التي تُغني فيها الغجريات، ولم يعد إليها مرة أخرى.

لم يرغب تولستوي في التخلي عن الجيش قبل أن يبتسم له الحظ ويحصل على ترقية ما. لذا، أجّل استقالته لكيلا يعود إلى الحياة المدنية وهو جندي غرّ بسيط تجنباً للشعور بالمهانة. لكنه رغم ذلك قرر في النهاية أن يقدم طلبا للاستقالة في الثلاثين من مايو عام 1853. تعثر حظّه مجددا لأن روسيا كانت قد قطعت علاقتها الدبلوماسية مع تركيا التي قامت بغزو ولايتي

رومانيا ووالِيشيا في يونيو من ذلك العام، ولم يُسمَح بالتالي لأيّ ضابط أن يقدم استقالته أو يأخذ مأذونية. وعاد تولستوي إلى بياتيغورسك في يوليو ليجتمع مجددا بأخيه نيكولاي وأخته ماشا التي لم يرَها منذ سنتين. فقد أتت بصحبة زوجها للاستفادة من المياه المعدنية. ولم يكن تولستوي يشعر بالسعادة في تلك الفترة، فقد كان سريع التأثر متململا ضجراً. ومما زاد الطين بلة معرفته بضرورة بيع منزله الرئيسي في ياسنايا بوليانا لتصحيح شؤونه المالية، ذلك المنزل الذي قطع على نفسه وعداً بأن يكون آخر الخيارات على الإطلاق. لكنه دفن أحزانه تلك في الكتابة. فبالإضافة إلى بدء كتابة أول مسوّدة لما سيصبح فيما بعد روايته القصيرة «القوزاق»، استمر في العمل على سلسة «الطفولة»، وقام بكتابة قصة مختلفة تماما أتمَّها في أربعة أيام، وهي «ذكريات مسجّل البلياردو»، وهي القصة الوحيدة التي أرسلها إلى نيكراسوف في ذلك الصيف، وهي قصة قريبة من سيرته الذاتية أكثر من أي قصة أخرى. وهي قصة قاتمة تتحدث عن الانحلال الأخلاقي لشاب أرستقراطي، وقد استلهمها من كارثة حلّت به شخصيا في تفليس بسبب القمار. إلا أن قراءة «اعترافات» روسو ساعدت تولستوي على الحفاظ على توازنه، وذكَّرته بأنه يمكن أن يغدو سعيدا فقط من خلال القيام بالعمل الصالح. وكان حينها قد بدأ بالغوص في وجدانه ليدرس المشاكل الاجتماعية ويفكر في الحلول الممكنة ويبدأ ضميره بالصحيان.

لكن السأم بلغ به حدّه بسبب الحياة الرتيبة العسكرية في القوقاز، ولأنه كان ممتعضا من نفسه ويتوق لتغيير الجو والمناظر. فتقدم بالتالي بطلب، قبل عودته إلى ستاروغلادكوفسكايا في أكتوبر، لنقله إلى خطوط القتال في الحرب ضد الأتراك. وفي يناير من عام 1854، وبعد الموافقة على طلبه وترقيته ليصبح أخيرا ضابطا برتبة، قرر أن يسافر ليلتحق بكتيبته في بوخارست عن طريق ياسنايا بوليانا، مضطرا إلى قطع مسافة 600 ميل بسبب تحويل المسار. وقد شكل شهر فبراير شهرا يبعث على النشوة لأنه رأى ياسنايا بوليانا من جديد واجتمع مجددا

بعمته توانيت. وذهب أيضا لرؤية شقيقته في بوكروفسكوي وشقيقه ديمتري في تشيرباتشيفكا واجتمع الإخوة الأربعة في موسكو والتقطوا صورة جماعية. وكانت تلك المرة الأخيرة التي جمعتهم معا. ولم يمكث تولستوي طويلا فانقضت زيارته بسرعة. وفي الثالث من مارس انطلق لينضم إلى كتيبة المدفعية، فسافر خلال كورسك وبولتافا وكيشينيوف قبل أن يصل أخيرا إلى بوخارست بعد عشرة أيام قبيل إعلان فرنسا وإنجلترا الحرب على روسيا.

اندلعت حرب القرم ظاهريا بسبب نزاع بشأن الوصول إلى المواقع المقدسة في فلسطين. لكنها بالفعل كانت بسبب طموحات روسيا التوسعية والتهديد الذي شكله ذلك للمصالح الفرنسية والإنجليزية. إذ ضمَّت روسيا جورجيا إلى أراضيها عام 1801، كما ضمت بعدها بيساربيا عام 1812، واستمرت في توسعاتها فهزمت الإمبراطورية العثمانية عام 1829 معززة بذلك نفوذها وملتهمةً أراضيَ إضافية (بما في ذلك أجزاء من أرمينيا). وهكذا خشي الحلفاء من سيطرة نيكولاي الأول التامة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي واعتقدوا أن تلك مسألة وقت فحسب. واندلعت الأعمال العدائية بين تركيا وروسيا مجددا في أكتوبر/ تشرين الأول من عام 1853، وكانت في معظمها حول منبع نهر الدانوب. وعندما دخلت فرنسا وبريطانيا الحرب في مارس من عام 1854 واضطرت روسيا للانسحاب من مالدوفيا ووالیتشیا، معتقدة على نحو خاطئ بأن النمسا ستسعفها (لأن روسيا كانت في السابق قد أسعفتها عن طريق إرسال قوات لقمع الثورة التي اندلعت ضدها في هنغاريا (المجر) عام 1849)، أصبحت شبه جزيرة القرم مسرح الحرب الرئيسي. وهكذا، كان تولستوي محظوظا مجددا لأن القتال الفعلي كان قد انتقل من بوخارست إلى أماكن أخرى بعد وصوله بثلاثة أشهر.

دُهش تولستوي بجمال وأناقة مدينة بوخارست، واستمتع بالتردد على المسارح الفرنسية ودور الأوبرا الإيطالية في الفترة الأولى من وجوده. وعندما استقرَّ المقام به عكف مجددا على

الكتابة وركز على مراجعة وإتمام «الصّبا». أُرسل بعدها في نهاية مارس ليقضي أسبوعين في أولتينيشا، شمال الدانوب، التي كانت مسرحاً لحرب طاحنة جرت في نوفمبر بين الروس والأتراك. بعد ذلك وصلت تعزيزات عسكرية إلى قائد سلاح المدفعية الجنرال سيرجبيوتوفسكي، مما عنى الانطلاق في دوريات إلى مختلف المناطق في مولدوفا ووالتيشيا وبيساريبيا. وشهد تولستوي في مايو الأيام الأخيرة للحصار الذي فرضه الروس على القلعة العثمانية في بلدة سيليسترا على الجانب الجنوبي من الدانوب فيما يعرف الآن ببلغاريا؛ إذ أرادت روسيا أن تحتل سيليسترا لتحرز تقدما استراتيجيا في تلك الأراضي، فاستدعت بالتالي عددا هائلاً من القوات الروسية إلى المنطقة في أبريل وقت بداية الحصار. ولم يشترك تولستوي شخصيا في القصف المدفعي على البلدة، لكن وبما أنه كان جنديا نظاميا يعمل تحت إمرة جنرال سادي فقد وجد نفسه في الخنادق يتعرض هو ورفاقه لأخطار محدقة في مناسبات عديدة. فكتب إلى عمته توانيت واصفاً لها المشهد الفخم المهيب الغريب الذي تكشَّفَ أمام عينيه وهو يشاهد الناس يقتلون بعضهم بعضا صبحَ مساء.

وعندما لم يكن ينقل الأوامر كان يتموقع في المعسكر الروسي الموجود في حدائق تنتمي إلى حاكم سيليسترا، مصطفى باشا، حيث الإطلالة البهية على الدانوب والمدينة المحاصرة (لا سيما خلال القصف الليلي). حُدد تاريخ ما في يونيو للهجوم الأخير على سيليسترا، لكن في الساعة الثانية صباحاً، أي قبل ساعة من الهجوم، وصلت برقية من المارشال باسكيفيتش مفادها أن القيصر وتحت ضغوط من النمسا أمر بالانسحاب. وهكذا ساد الاستياء في صفوف كتيبة تولستوي وامتعض الأخير أشد الامتعاض.

وبدأت القوات الروسية بالانسحاب نحو الحدود الروسية، وعاد تولستوي مبدئيا إلى بوخارست مصطحبا معه انطباعات إيجابية عن البلغار الذين قابلهم في سيليسترا. وفي بوخارست أعاد قراءة رسالة نيكراسوف التي أرسلها له في يوليو، إذ أطرى فيها الأخير على

مخطوط «الصّبا» وهذا ما رفع من معنويات تولستوي. لكنه ما لبث أن خسر مجددا في أغسطس ثلاثة آلاف روبل في القمار. وفي بداية سبتمبر عاد أدراجه إلى روسيا، وعلم في الطريق أنه رُقّي إلى رتبة مساعد فنقل إلى مقر الجيش الجديد في كيشنيوف، عاصمة بيساربيا، حيث أتيح له من جديد متسع من الوقت للقراءة وسماع الموسيقى. وسكن في شقة لطيفة تحتوي على بيانو، وقرأ في تلك الفترة «كوخ العم توم» لجورج ساند بالترجمة الألمانية. وأتيحت له الفرصة أيضا ليضع مقترحا مع عدد من رفاقه الضباط ليأسسوا صحيفة أسبوعية للقوات العسكرية الروسية. وقد كان متلهفا لنجاح ذلك المشروع، إذ حالما علم أن صهره باع المنزل الرئيسي في ياسنايا بوليانا في ذلك الخريف، طلب منه على الفور إرسال 1500 روبل ليستثمرها في دفع المشروع إلى الأمام. اشترى المنزل إقطاعي محلي بخمسة آلاف روبل وقام بتفكيكه وإعادة بنائه في عزبته. وكان صهر تولستوي متردداً في إرسال النقود وقد كان محقا في ذلك. وفي الأثناء، رُفع مقترح المجلة للقيصر ألكسندر الأول لينظر فيه.

تكبدت روسيا خسائر فادحة في حربها ضد القوات المتحالفة في ذلك الخريف. فقد انتصر الحلفاء في معارك كبرى في آلما وضربوا حصارا على مدينة سيباستوبل، القاعدة البحرية الروسية الرئيسية على البحر الأسود في سبتمبر عام 1854. وبينما بدأ الروس بتحريك سفنهم وقطعهم البحرية واستخدام مدافع الآخرين ليدعموا مدفعيتهم، بنى الحلفاء الخنادق والمعاقل ومخازن السلاح في جنوب المدينة واستعدوا للمعركة بحلول منتصف أكتوبر. في اليوم الأول من القصف، السابع عشر من أكتوبر، أدى هجوم بريطاني إلى تفجير مخزن للذخائر في معقل مالاكوف أودى بحياة الأدميرال كورنيلوف. بينما أدى القصف المدفعي الروسي إلى تدمير مخزن فرنسي. وقبل ذلك بأربعة أيام، ومع نهاية معركة بالاكلافا، هاجم لواء راغلان للمدفعية الخفيفة «وادي الموت»، واعتبر الروس استيلاءهم على المعاقل البريطانية هناك نصراً مؤزراً.

إلا أن معركة إنكرمان[74] في الرابع والعشرين من أكتوبر حطمت آمال الروس، إذ أدت إلى الاعتراف بأن بقية الحرب سوف تدور رحاها في سيباستوبل.

في الأثناء كانت تطلق في كيشينيوف قنابل المدفعية ترحيباً بدوقين زائرين. وقد خلَّف ذلك مرارة في فم تولستوي. وبدأ يطالب بنقله إلى سيباستوبل لأنه أراد أن يرى القتال الدائر هناك بأم عينه، لكنه كان مدفوعا أكثر من أي شيء آخر بحس وطني عال لا سيما عندما علم أن كتيبة المدفعية الثانية عشرة، التي خدم فيها، كانت قد شاركت في معركة بالاكلافا. بدأت أخيرا قيادة الجيش المركزية في بطرسبورغ ترسل تعزيزات إلى القرم. فوصل تولستوي في الوقت نفسه الذي وصلت فيه التعزيزات إلى الفرقتين العاشرة والحادية عشرة. فقد وصل إلى مدينة أوديسا في بداية نوفمبر، وإلى القرم بعد أسبوع من ذلك. وكان يمكن أن يصل قبل ذلك بالفعل لولا القبلة التي طبعها على شفاه فتاة أوكرانية حسناء من خلال نافذة في بلدة جنوب خيرسون أدّت إلى قضاء الليلة معها. وعندما وصل إلى سيباستوبل أُلحق بالبطارية الثالثة لواء المدفعية الخفيف الرابع عشر.

لم يشارك تولستوي في القتال على خط الجبهة في هذه المرحلة، لكنه بقي في المدينة المحاصرة لتسعة أيام استطاع من خلالها تقييم الوضع بدقة، من خلال زياراته المتكررة للتحصينات الروسية والحديث مع الجنود والضباط. وكتب إلى أخيه سيرغيه يقص عليه القصص المروعة التي سمعها من جندي مصاب قال له إن الهجوم على بطارية فرنسية في إنكيرمان كان عبثيا؛ لأن التعزيزات لم تصل. وشرح كيف أن 160 رجلا من الكتيبة صمدوا ببسالة في الجبهة رغم أنهم كانوا مصابين. وكذلك قصة البحارة الذين صمدوا 30 يوما في وجه القصف المستمر ورفضوا أن يعفوا من واجباتهم بحسب الأوامر. ورأى تولستوي قساوسة

---

(74) Инкерманское сражени (Battle of Inkrerman).

يتجولون بين الحصون والمعاقل وهم يحملون الصلبان ويتضرعون إلى الله تحت القصف، وسمع عن قصص بطولية أعظم من قصص أبطال اليونان القدماء، عندما طلب نائب الأدميرال كورنياوف من الجنود التضحية بحياتهم ومواجهة الموت بصدور عارية.

كان 35 ألف جندي روسي متمركزين في سيباستوبل في تلك الفترة. 13 ألف منهم لم يعودوا إلى منازلهم (وكانت الخسائر في صفوف الفرنسيين والبريطانيين بالفداحة نفسها).

أعجب تولستوي بالروح القتالية العالية لدى الجنود، لكنه فهم الآن الأسباب التي أدت إلى الإخفاقات الذريعة للجيش الروسي. فبعد أسبوع من مغادرته سيباستوبل في الخامس عشر من نوفمبر، توجه شمالا نحو قرية تترية في ضواحي سمفيروبل حيث تمركزت البطارية، وكتب في مذكراته أنه أصبح الآن أكثر اقتناعا من أي وقت مضى بأن روسيا تحتاج إلى إصلاحات جذرية، وإلا فإن مصيرها سيؤول إلى الانهيار التام.

كان تولستوي قد تحدث في السابق إلى سجناء من قوات التحالف في سيباستوبل[75]، وأدهشته ثقتهم العالية بأنفسهم وفخرهم بالمشاركة في الحرب. أما في الجيش الروسي فكان الأمر مختلفا، إذ تبجحت قيادة الجيش وجزمت بأن إمداداتها من الجنود المشاة لن تنفد. واكتشف أيضا أن المدافع التي استخدمتها كتيبته كانت بالية مقارنة مع تلك التي يستخدمها الحلفاء. حينها بدأ وضع خطة عَرَضَ فيها عددا من الإصلاحات المفصلة. واكتشف أيضا أن تكتيكات الجيش الروسي القتالية كانت بالية على نحو يدعو للأسى. كما لاحظ أن التواصل بين القيادة المركزية والقرم كانت بائسة مخزية، بسبب الطرق البدائية التي يصعب النفاذ منها أحيانا بسبب الأوحال، بالإضافة إلى صغر حجم شبكة السِكك الحديدية. أما ظروف الجنود العاديين فكانت أيضا بائسة، إذ يخدم المرء 20 سنة إجبارية، خمس منها إن كان من الاحتياط.

(75) Севастополь (Sevastopol).

أما تركيز ألكسندر الأول على العروض العسكرية والتدريب فكان مصداقا لضعف تدريب القوات أساسا.

رفض القيصر اقتراح تأسيس صحيفة للقوات في أواخر نوفمبر بحجة أن ذلك لا يندرج ضمن اهتمامات الحكومة. واقترح عوضا عن ذلك أن ينشر تولستوي ورفقاؤه مقالات في صحيفة «المخضرم الروسي»، وهي الصحيفة الرسمية التي تموّلها وزارة الحرب وكان ذلك بالطبع متاحا لهم. غضب تولستوي من سماع تلك الأخبار عندما وصلت إليه، لكنه بعد أن جمع انطباعات إضافية من موقع الحدث عندما شارك في طلعة إلى سيباستوبل في أوائل ديسمبر مع الفصيل العامل فيه، بدأ عندها بكتابة مقالة أرادها أن تكون ردا على ما جاءه. كانت تلك المسودة الأولى لـ«سيباستوبل في ديسمبر»، أول عمل يمثل مراسلات عن الحرب جلبت له فيما بعد شهرة عريضة. وراسل تولستوي نيكراسوف في الحادي عشر من يناير مقترحا عليه إرسال مقالات عن الحرب، ووعده أن تكون جودتها لا تقل عن جودة أي مقالة تنشر في «المعاصر». فردّ عليه نيكراسوف في البريد التالي مباشرة وأعطاه الضوء الأخضر ليرسل ما يحلو له من مقالات. علم تولستوي حينها أن قصته المعنونة «ذكريات مسجل البلياردو» كانت قد نشرت في إصدار يناير عام 1855، كما نشرت «الصِّبا» في إصدار أكتوبر من السنة الفائتة. وقد اعترض الرقيب مجددا على بعض الفقرات، كتلك التي يأسف فيها الراوي على الهوة السحيقة التي تفصل بين فقر بعض الناس وثراء أسرته، بالإضافة إلى جميع الإشارات التي تستهدف الكنيسة وطقوسها الدينية التي كان نشرُها في الأعمال العلمانية أمراً محظورا في تلك الفترة (بما في ذلك الفقرة التي تتحدث عن والد الطفل الذي يرسم إشارة الصليب فوق نافذة العربة التي ستسافر فيها أسرته، ولقب الحصان «شمّاس/ شدياق»).

خدم تولستوي في القرية التترية الهادئة إسكي-أوردة لشهر ونصف، وكان لديه متسع من الوقت مجدداً ليتمتع بصيد العنز البري ويعزف عزفا ثنائيا مع الحسناوات على البيانو ويرقص

معهن. لكن في منتصف يناير 1855 نُقل إلى السرية الثالثة في لواء المدفعية الحادي عشر المتموقع على ضفاف نهر البالبيك على بعد ستة أميال من سيباستوبل. وفي الطريق توقف في المدينة ليتسلم مالاً أرسله له صهره من بيع منزله في ياسنايا بوليانا. وقد اشتهر تولستوي في كتيبته بالقوة البدنية؛ ففي أحد الأيام أبهر رفاقه عندما رفع وهو مستلق على الأرض رجلا يزن مئة وثمانية وستين رطلاً (76.2 كيلوغرام)[76] بيديه العاريتين. لكن الضباط في تلك الكتيبة لم يثيروا اهتمامه لذلك شعر بالاغتراب في الموقع الجديد. وشعر بالبؤس والاكتئاب في فصل الشتاء. فلم يكن لديه كتب يقرؤها أو خليل يسامره، ولم تكن البيئة تشجع على الكتابة أيضا، بل جعله السّبات والخدَر معرضـاً لاقتراف الرذائل. وهكذا، اختلس نفسه في الثالث من فبراير ليخط رسالة صعبة لأخيه نيكولاي، فقد استسلم مرة أخرى لغواية القمار وخسر خلال يومين وليلتين ألف وخمسمئة روبل، المال الذي تستلمه لتوه ليشكل نواة مجلة القوات الروسية. وككفارة عن فعلته اعترف بذنبه لأخيه بكل صراحة.

وعندما وصلت الأنباء إلى القيصر نيكولاي الأول عن هزيمة روسيا الأخيرة في مدينة يفباتوريا في الثاني عشر من يناير 1855، أجهش بالبكاء كالطفل، ولم يرغب في سماع أي تقارير عسكرية أخرى من جبهة القتال. لكنه ما لبث أن توفي على نحو غير متوقع وهو في الثامنة والخمسين من عمره، في الثامن عشر من فبراير، وقد حكم البلاد بقبضة من حديد لثلاثين سنة. لكن خبر وفاته كان مدعاة للابتهاج عوضـاً عن الاكتئاب، لا سيما في صفوف الطبقة المثقفة في روسيا. فالتخفيف من وطأة الرقابة بعد تولي ألكسندر الأول العرش مباشرة كان له وقع إيجابي فوري على الحياة في روسيا، إذ أصبح الروس قادرين علي رفع عقيرتهم والحديث عن «شعور تدريجي بالارتياح والأمن والحرية بعد الفترة العصيبة التي مرّوا بها»، تماما كما شعر الروس

(76) 12 stones.

بعد قرن من الزمان بعد وفاة ستالين، فقد نفضوا عنهم تدريجيا أصفاد الكبت والتحفظ والرعب. وبالتالي شعر تولستوي وهو في القرم بأنه مسلح أكثر من ذي قبل لشمول خططه الإصلاحية الجيش الروسي بأسره بعد أن كانت مقتصرة على سلاح المدفعية. وقد صدح بما يجول في خاطره بالفعل قائلا: «ليس لدينا جيش. بل غوغاء من العبيد المقهورين المنظمين الذين أذعنوا لأوامر اللصوص والمرتزقة. فالجندي الروسي هو شخص مقيد قانونيا من مجرد الإيفاء بحاجاته الأساسية، وهو يقينا لم يحصل على مصادر أساسية كافية ليقي نفسه عذابات الجوع والبرد». قسم تولستوي الجنود الروس إلى مظلومين وظالمين ويائسين. ومن غير المفاجئ أن تكون الروح المعنوية لدى الجندي المظلوم في الحضيض، إذ يقوم بإنفاق مرتبه الضئيل (الذي يحصل عليه كل ثلاثة أشهر) البالغ سبعين كوبيكا على الخمر (وهذا استهزاء صارخ بفقره كما يقول تولستوي). أما الظالمون من الضباط فقد قال فيهم: «الكثير من الضباط أشخاص فاسدون خالون من أي شعور بالشرف والواجب، بينما جل الجنرالات كانوا يعيَّنون ليس استحقاقًا لقدراتهم بل لأنهم يلقون قبولاً لدى القيصر». وهكذا تخلى تولستوي عن مشروعه الإصلاحي الطموح بعد بضعة أيام لأنه بلا ريب تأكد من فشله حتى في ظل المناخ الجديد. لكن من الأهمية بمكان أن نذكر هذه الحقبة التي شكلت سابقة في معارضته التي ستصبح معارضة مكشوفة صريحة على الملأ ضد الظلم الاجتماعي والسياسي بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ.

وفي الوقت الذي كان فيه تولستوي منشغلا بقضايا الجيش والعسكر، كان أيضا يمعن التفكير في المسائل الدينية. ففي الرابع من مارس عام 1855 حضر قداسا وأعلن إعلانا مهما في دفتر مذكراته عن تأسيس دين جديد. وقد اقتبست الفقرة التالية مرارا وتكرارا تعبيرا عن طبيعتها التنبؤية:

«أفضى بي البارحة حديث عن الألوهية والإيمان إلى فكرة مدهشة وعظيمة، واكتشفت أنني قادر على أن أفني عمري كله لأجل تحقيقها. أما الفكرة فهي تأسيس دين جديد يتواءم مع تطور البشرية؛ دين المسيح المُطهّر من الدوغمائية والطلاسم والأسرار، دين عملي لا يعِدُ بالجنة في الآخرة فحسب بل يوفرها ها هنا على الأرض. وأنا على علم بأن قطف ثمار هذه الفكرة قد يستغرق عمل أجيال من البشر الواعين بضرورة تحقيق الهدف المنشود. وهكذا تتوارث الأجيال اللاحقة الفكرة من الأجيال السالفة لتُطبَّق على الأرض في يوم ما عن طريق العقل أو الحميّة والشّغف. أما جوهر الفكرة فهو السعي الدؤوب الواعي لتوحيد الناس كافة في ظل هذا الدِّين، وهذا ما آمل أن يشغلني في المستقبل».

وبطريقة ما، نحسب أن مستقبل تولستوي كان بالفعل مرتبطا بفحوى الفقرة أعلاه، فقد كان دائما كاتبا دينيا يهتم بالسعي للوصول إلى الحقيقة. كان هذا الهمّ معروضا في أعماله الأولى من طرف خفي، لكنه أصبح واضحا صارخا كلما تقدم في مساره الأدبي وتطور كفنان. فوفقا لمحاجة ريتشارد جوستافسون الآسرة، تُعتبر أعمال تولستوي «أيقونات شفوية» لآرائه الدينية. ويُذكر أن الأيقونات كانت تفي بالدور اللاهوتي للكنيسة الأرثوذكسية الروسية حتى القرن التاسع عشر. فلم يكن ثمة تقليد ثيولوجي مدوّن في روسيا كما كانت الحال لدى الكنيستين الرومانية الكاثوليكية والبروتستانتية. وعندما تدهور فن رسم الأيقونات في القرن التاسع عشر، بعد أن أصبحت الكنيسة الأرثوذكسية بمثابة وزارة في الدولة، أخذ الأدب مكانها. وكما علّق جوستاف بأن الناس في روسيا بدؤوا يفهمون على نحو فطري أن الأدب غدا يلعب دور الثيولوجيا: «فالصّور التي استحدثها الفنانون أُخذت علي محمل الجد وكأنها كلمات تكشف النقاب عن الحقيقة». وقد وُصفت كتابات تولستوي بالواقعية التي تعتبر واقعية من الطراز الديني.

استأنف تولستوي الكتابة بجدية في مارس عام 1855، إذ باشر بـ«الشباب»، التي ستصبح الجزء الثالث والأخير من مشروع سلسلته التي كان ينوي أن تصل إلى أربعة أجزاء. كما بدأ أيضا العمل على إعادة صياغة مقالته بشأن الأحداث في سيباستوبل. لكنه لم يكملها بسبب نداء الواجب. فبعد شهور الشتاء الطويلة التي تخللها بناء الحلفاء لسكة حديدية لتسريع وصول الإمدادات من الذخيرة والبنادق، أصبح الإنجليز والفرنسيون جاهزين لاستئناف قصف الدفاعات الروسية في سيباستوبل. وتموقعت سرية تولستوي في الحصن الرابع في جنوب المدينة الذي كان الحصن الأخطر بسبب متاخمته لمواقع الفرنسيين. توقف قصف الحلفاء في السابع من أبريل في جميع المواقع، بخلاف الحصن الرابع الذي انهال عليه القصف لخمسة أيام إضافية. وكان تولستوي على خط النار بين الخامس والسادس من أبريل، ومن ثم في عدد من المهمات امتدت لأربعة أيام، أعقبتها ثمانية أيام استراحة انكفأ خلالها في شقة وأخذ يعزف البيانو. وفي التاسع عشر من أبريل احتل الحلفاء الخنادق التي تربط الحصن الرابع بالخامس، وبدأت القوات الروسية تشكُّ في النصر.

أتم تولستوي «سيباستوبل في ديسمبر» في الخامس والعشرين من الشهر نفسه، وهو العمل الأول الذي كان ينضح بمشاعره الوطنية وحب البلاد، وكان الأول أيضا من نوعه من حيث عرضه لتقارير إخبارية عن الحرب الدائرة وحقيقة القتال في المدينة المحاصرة. أرسل تولستوي هذا العمل المشوق الآسر مباشرة إلى بطرسبورغ. وقد شكل مع عملين آخرين «أقاصيص سيباستوبل»، أكثر الأعمال رفعة في مستوى كتاباته حينها. ففي الأقصوصة الأولى يأخذ الراوي القارئ في رحلة في أرجاء سيباستوبل متحدثا بصيغة الفعل المضارع فتبدو تجربة القتال حية تُذكّر القارئ بتجربة مشاهدة فيلم ما:

«يدنو صفير القذائف منك في اللحظة التي تبدأ فيها بتسلق الهضبة مما يولد لديك شعورا بغيضا وإحساسا بالمرارة. وتدرك فجأة، بطريقة مختلفة تماما، الأهمية الحقيقة لدويّ البنادق

والقذائف القادم من المدينة. وتبدأ فجأة ذكريات سعيدة وادعة تغزو مخيلتك، وتبدأ بالتفكير بنفسك أكثر من التفكير بما تلاحظه من حولك. ويطغى عليك على حين غرة شعور بالشلل والتردد..».

وُصف تولستوي بالمراسل الحربي الأول. فقد كان حاذقاً في الجمع بين انطباعاته الشخصية من خلال الحوار والنبرة المؤنسة من جهة، ورؤية المؤرخ الشامخ أو الشاعر الملحمي القادر على التخاطب مع الأمة من جهة أخرى. في الأثناء، استمر تولستوي في أداء واجبه في الحصن الرابع حيث أصبح قصف الحلفاء أشد ضراوة، لا سيما خلال معركة شبّت في مساء العاشر من مايو خلَّفت خسائر فادحة (2.500 قتيل من الجانبين) واستنزافا إضافيا للدفاعات الروسية. وقد وفَّرت لتولستوي تلك التجربة الغنية موادَّ مهمة لسلسلة تقاريره الثانية. وفي الخامس عشر من مايو أُرسل ليقود فصيلا جبليا على بعد 12 ميلا من سيباستوبل في نهاية خدمته في الحصن الرابع.

وسنحت له الفرصة في شهر يونيو ليستأنف الكتابة، فعاد إلى قصة «التحطيب»، وهي قصة جندي كان قد بدأها منذ فترة بدت بعيدة ليعكس تجاربه الأولى في الجيش. لكنه مع ذلك أتمها في 18 يونيو وأرسلها إلى نيكراسوف لينشرها في «المعاصر»، وقد نُشرت بالفعل في سبتمبر. وفي الأثناء، نُشرت «سيباستوبل في ديسمبر» في عدد يونيو ولاقت نجاحا باهراً. فلم يسبق للقراء الروس التعرّف على الصورة الحقيقية في صحفهم الأدبية لما كانت عليه الحرب، ناهيك عما كان يختبره الجنود العاديون فيها. وقد كانت الحرب حينها ما تزال دائرة. وقد وصف تولستوي مآثرهم وبطولاتهم ومعاناتهم وعذاباتهم ما خلّف أثراً عميقاً في نفوس القراء، لا سيما أن الطريقة التي عرض فيها تلك التجارب كانت طريقة هادئة ذات نبرة بعيدة عن الإثارة والمبالغة والتصنع. علم تولستوي بأن القيصر قرأ «سيباستوبل في ديسمبر» وأصدر أمراً بترجمتها إلى اللغة الفرنسية لتُنشر في صحيفة الحكومة الروسية الرسمية «لي نورد». وقد سرّ ذلك تولستوي

كثيرا، ووفَّرَ له جرعة حماس إضافية ليستمر في الكتابة. لكن التفاؤل الذي أبداه في صفحات «سيباستوبل في ديسمبر» لم يكن في محله؛ لأن الوضع كان يتأزم يوماً بعض يوم. وفي الثامن والعشرين من يونيو توفي الأدميرال ناخيموف أحد قيادي الجيش إثر طلقة نارية استقرت في رأسه.

وفي الخامس من يوليو أرسل تولستوي المجموعة الثانية من أقاصيص حصار سيباستوبل إلى مجلة «المعاصر». وكان على دراية تامة بأن الرقيب سيعارض كثيرا مما جاء في «سيباستوبل في مايو»، إذ تُعتبر أكثر تشاؤما وقتامة من «سيباستوبل في ديسمبر»، وتُمثّل التعبير القوي الأول عن آراء تولستوي بشأن عبثية الحرب:

«نعم، رُفعت الرّايات البيض على الحصن وعلى طول الخندق.. وملئ الوادي المزهر بالجثث النتنة.. تهبط الشمس المتوهجة باتجاه البحر الأزرق الداكن فتلتمع اللجة الزرقاء الواسعة تحت أشعة الشمس الذهبية. ويكتظ آلاف الرجال يحملقون في وجوه بعضهم البعض ويتحدثون فيما بينهم ويبتسمون. نُخمِّن أن هؤلاء الرجال المسيحيين، لو تعرَّفوا ربما على القانون العظيم الكوني للحُب، ولو اكتشفوا فداحة ما فعلوه، لجثوا مباشرة على ركبهم ليتوبوا أمام الخالق الذي عندما برَّأهم وحباهم بنعمة الحياة زرع في نفوسهم جميعا حب الخير والجمال بالإضافة إلى الخوف من الموت. عندها، سيعانقون بعضهم البعض ويذرفون دموع الفرح والسعادة كإخوة. لكن لا شيء من ذلك! فقطع القماش البيضاء تلك سوف تُنحى جانبا، وستنطلق محركات الموت مجددا، وستبدأ العذابات بالصفير، وستهرق دماء الأبرياء مجددا، وسيمتلئ الجو بلعناتهم وآهاتهم».

بدأ الحلفاء في الرابع والعشرين من أغسطس بجولة القصف السادسة والأخيرة التي استهدفت قلعة سيباستوبل، وقد شارك تولستوي في الدفاع عن معقل مالاموف الذي حوصر في السابع والعشرين من الشهر نفسه. وفي تلك الليلة، بدأ الجيش الروسي بالتخلي عن مواقعه في

الشطر الجنوبي من سيباستوبل عابراً النهر متوجها إلى الشطر الشمالي للمدينة. وبعد حصار امتدّ لسنة كاملة سقطت سيباستوبل في أيدي الحلفاء. وأجهش تولستوي بالبكاء عندما رأى النيران تُضرَم في المدينة الجميلة والأعلام الفرنسية ترفرف على جميع حصونها. وكان لا يزال في المدينة في الثامن والعشرين من أغسطس حين صمتت المدينة على نحو غريب. وكان اليوم يصادف عيد ميلاده السابع والعشرين، وقد عاد بالذاكرة إلى عيد ميلاده المشؤوم عام 1841 عندما توفيت عمته توانيت. في اليوم نفسه كتب المحرر المشارك في صحيفة «المعاصر» إيفان بانييف إلى تولستوي ليخبره بأن «سيباستوبل في مايو» قد شُرّحت على يد الرقيب الذي قلّص من حجمها بواقع الثلث. وأراد بانييف أن يسحبها من النشر، لكن الرقيب أصرّ على أن تنشر بحجمها الجديد. أما العزاء الوحيد فهو أن بانييف قام بنشرها باسم مجهول بالعنوان التالي: «ليلة في ربيع 1855 في سيباستوبل» لكيلا يحزن تولستوي. وقد ظهرت في عدد أغسطس من مجلة «المعاصر» تزامنا مع سقوط سيباستوبل.

شعر تولستوي بالخمول خلال أيام سبتمبر الدافئة، لكنه ما لبث أن بدأ الحلقة الثالثة من سلسلة أقاصيص سيباستوبل ليتحدث عن الحصار في «سيباستوبل في سبتمبر»، لكنه لم يقوَ على الاستمرار. فقد أصيب بالإجهاد النفسي واستسلم للقمار مجددا. وشكل ذلك إشارة سيئة، ففكر جديًا في الاستقالة من الجيش عاجلا وليس آجلا. وأُرسل بعدها في نوفمبر إلى سانت بطرسبرغ بصفته ناقل مراسلات للجيش. عندها أوشكت المرحلة الجديدة من حياته على البدء.

الفصل السادس

الأديب والمبارز والنبيل التائب

عندما أقارن وضعي الآن بما كان عليه في ياسنايا بوليانا

أشعر بمدى التغيير الذي طرأ على حياتي لا سيما في حيّز الحرية..

مدخل من مذكرات تولستوي، مايو 1856.

لم تكن هناك فترة من حياة تولستوي خالية من الأحداث، لكن السنوات الفاصلة بين عام 1855 حين غادر القرم، وعام 1862 حين تزوج، كانت سنوات حاسمة في تكوينه الفني والفكري، فقد كان غائبا عن حياة العاصمة الصاخبة لأربع سنوات، وعندما عاد إلى المدينة مجددا شكل ذلك صدمة كبيرة للوسط الأدبي فيها، فقد بدأ مساره الفني من خارج المؤسسة الروسية الأدبية، وقذفته موهبته حينها في خضم معمعة تلك المؤسسة. وعليه، أصبح ينافس تلك المؤسسة وهو في عرينها وجهـًا لوجه، و تعيّن عليه بالتالي أن يفي بالتوقعات؛ توقعاته وتوقعات زملائه الجدد في المهنة. وقد عنى ذلك أيضا شعوره ببعض الهشاشة والتماسه نقاط ضعفه بسبب منافسته مع كتاب أقدامهم راسخة في عالم الأدب وحاجته إلى اكتشاف أين يقع ولاؤه. لكنْ، وخلال تلك الفترة من التغيرات الاجتماعية الكبيرة، اكتشف تولستوي شيئا فيه يدفعه إلى عدم السعي وراء تشذيب مساره الفني الأدبي، بل حاجة أخلاقية عميقة تدفعه لفعل شيء ما بشأن الهوة الاجتماعية السحيقة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع الروسي. واتخذ خطوات خجولة في هذا الاتجاه عندما حصل على ميراثه، لكنَّ تجربته القتالية في حرب القرم بجانب جنود من العامة شكلت بالنسبة له أكثر من عملية تطهير للنفس، فقد تركت سيباستوبل ندبة في روحه وغيَّرت حياته إلى الأبد. وبينما بدأ على مدار سبع سنوات في السعي إلى تعزيز

نجاحه الأول ككاتب طموح يبلغ السابعة والعشرين، انتهى به الأمر بأن أصبح مدرسا للأطفال في قريته.

ولم يكن تولستوي قد ذاق طعم الطمأنينة في تلك الأيام المتقلبة، فلم يكن الأمر متعلقا بتضارب الآراء بشأن كتاباته الجديدة أو بقائه أعزبَ (وهذا ما سبب له الكثير من الهلع لأن محاولاته السابقة لإيجاد عروس باءت جميعها بالفشل)، بل لأن أسرته تعرَّضت للكثير من المحن والآلام، فقد توفي شقيقاه ديمتري ونيكولاي بسبب مرض السّل (التدرن) خلال بضع سنوات، أما شقيقته ماشا فقد أصبحت تعيسة بسبب زواجها الفاشل، وأصبح تورغينيف يشكل جزءا مهما من حياة تولستوي رغم أن العناق الدافئ الذي كانا يتبادلانه في السابق ذبُل الآن وتحوَّل إلى خلافات حادة، فصداقتهما كانت بالفعل متقلبة لدرجة أن تولستوي تحدى تورغينيف عام 1861 لنزاله في مبارزة.

وتصالح الرجلان على مضض في تلك الفترة، لكن ما لبثا أن افترقا وهما متخاصمان، واستمر الخصام لسبع عشرة سنة. وقد تشابهت مصائر الصداقات التي عقدها تولستوي مع الكتاب الآخرين، لكنها اتبعت منحنى أقل درامية من علاقته بتورغينيف، فقد أقام تولستوي الكثير من علاقات الصداقة الوثيقة مع العديد من أقرانه الكتاب وغيرهم (حيث عاش جُلّهم في بطرسبورغ) في السنوات الأولى بعد تقاعده من الجيش. وبينما كان يتنقل بين ياسنايا بوليانا وموسكو ممزقًا بسبب رغبات متضاربة، اكتشف أخيرا أنه لا يريد أن يكون جزءا من الوسط الأدبي، فلا مكان له وفقا لأجندة ذلك الوسط المتسارعة. وهكذا، عندما عاد من رحلته الثانية إلى خارج البلاد عام 1861 استقرَّ في ياسنايا بوليانا حتى مماته، وعبَّر عن مشاعره بوضوح وبشكل حاسم لأنه لم يعد بالفعل إلى بطرسبورغ على مدى سبعة عشر عامـًا، ولم يكن ذلك مبتغاه، ولم يتوقع هذه الخاتمة عندما حزم حقائبه أول مرّة في القرم متلهفًا لرؤية أقرانه الكتاب، ومتوقعا استقباله بحفاوة في بطرسبورغ.

تسلَّم تولستوي أول رسالة من تورغينيف قبيل مغادرته سيباستوبل في نوفمبر عام 1855. وكان الكاتبان قد قرآ أعمال بعضهما بعضا، لكنهما لم يلتقيا بعد. كان تولستوي ينظر إلى معاصره المخضرم تورغينيف بنظرة الرهبة والتبجيل، إذ كان الأخير اسماً لامعاً وركيزة أساسية في المشهد الأدبي في العاصمة قبل نحو عقد من عمل تولستوي الأدبي الأول. فبعد إعادة قراءة «مذكرات صياد» والتمعن في محتوى الرواية، أثناء قضائه الصيف الثاني في بياتيغورسك، علّق تولستوي تعليقا حاذقاً في مذكراته قائلا: «لعمري، إن الكتابة بعده أمر صعب». أما تورغينيف فقد قام بدوره بالتقاف موهبة تولستوي الأدبية، وشعر بسعادة غامرة عندما أهداه تولستوي كتابه المعنون «التحطيب» (ويَذكرُ أنه كان الكاتب الوحيد الذي أهداه تولستوي أحد أعماله).

وعندما كتب تورغينيف أول رسالة إلى تولستوي، شعر أنه يخاطب شخصا يعرفه من قبل، إذ كان قد التقى بشقيقة تولستوي في الخريف الفائت (ووقع في غرامها)، فقد كانت عزبة زوجها فاليريان بيتروفيتش (بوكروفسكوي) تبعد اثني عشر ميلا فقط عن منزل أجداد تورغينيف. وقد التقى الجاران بطبيعة الحال بسبب شغفهما بالصيد. أراد تولستوي رؤية تورغينيف، ما أن وطأت قدماه أرض بطرسبورغ. وهكذا، وبعد حصوله على غرفة في الفندق، وبعد زيارة تقليدية للحمام العمومي، انطلق تولستوي مباشرة باتجاه شقة تورغينيف الذي كان قد خرج بدوره من الشقة بحثاً عنه. التقى الرجلان وتعانقا وتبادلا القبل الودية، وأصرّ تورغينيف على الفور أن يشاطره تولستوي سكنه في الشقة الواقعة على نهر الفونتانكا، وبالفعل سكن تولستوي تلك الشقة لمدة شهر، بينما حاول إعادة التأقلم مع الحياة المدنية.

وبما أن تولستوي كان قد اشتهر حينها ككاتب وضابط شجاع قادم لتوه من خطوط النار، فقد رُحِّب به ترحيب الأبطال من قبل محرري صحيفة «المُعاصر». وكان ثمة شيء غامض ساحر يلفُّ شخصيته، فلم يكن يعرفه أحد من العاملين في الصحيفة من قبل، لا سيما عندما تبرع بمخطوط أرسله من القوقاز منذ ثلاث سنوات. حتى إن قليلا من الناس كانوا في الواقع

يعرفون اسمه الكامل؛ لأنه كان يوقع على أعماله لغاية تلك اللحظة بالأحرف الأولى من اسمه فقط. أضف إلى أنه كان يشعر ببعض التوتر من لقاء زملائه الجدد الذين كان يراسلهم من الجبهة، وكان يرجو أن يكونوا نفوسا رحيمة طيبة. كان تولستوي فتى غرّاً مرهف الإحساس عندما عاش في سانت بطرسبورغ في الفترة السابقة، أما الآن فهو بطل شارك في الحرب وكاتب مشهور له أعماله المنشورة.

في اليوم الأول من وصوله إلى بطرسبورغ، اصطحبه تورغينيف ليقابل نيكراسوف (كانت مكاتب محرري صحيفة المعاصر تقع في المبنى المقابل لشقة تورغينيف على الضفة الأخرى من النهر)، فتناولوا طعام الغداء وتحادثوا ولعبوا الشطرنج حتى الثامنة مساء. بعدها حرر نيكراسوف رسالة إلى صديق عبر فيها عن سعادته البالغة بلقاء تولستوي قائلا: «يا له من إنسان؛ فشخصيته أفضل من شخصيات كتاباته» واصفا إياه بـ«الصقر»، أو بالأحرى «النسر». بعدها توالت الاجتماعات مع عدد من النقاد والناشرين والكتاب بمن فيهم الروائي إيفان غونتشاروف الذي كان حينها يعمل على تحفته الأدبية «أوبلوموف» (عام 1859)، والشاعر فيودور تيوتشوف. وهكذا، تعرف تولستوي بعد فترة قصيرة على جميع الشخصيات البارزة المستنيرة في الأدب الروسي، الذين تهافتوا على التعرف إلى ضابط المدفعية الشاب الموهوب معبّرين عن بالغ سعادتهم بلقائه.

شعر تولستوي بنشوة حين عاد إلى الأوساط المدنية، حيث الكثير من التحفيز الفكري ودغدغة خلايا الدماغ، لكنه تاق أيضا إلى نشوة الموسيقى الغجرية والقمار، حيث يجد راحته وينفض عنه الضغط النفسي الذي لحق به على مدى السنوات الماضية في الجيش. زار الشاعر أفانازي فتْ في صبيحة أحد الأيام تورغينيف ليحتسي معه شاي الضحى، فوجد أحدا ما غارقا في النوم على الأريكة، فقيل له إن السيف اللامع في زاوية الصالون يعود إلى الكونت تولستوي، لذا تعين على الشاعر وتورغينيف أن يتهامسا فيما بينهما طوال ساعة كاملة، لأن الكونت كان يغط في نوم عميق بعد ليلة صاخبة أمضاها يعربد ويقصف ويشرب الخمر في الخارج. ورغم أن

تورغينيف كان يكبره بعشرة أعوام فقط، إلا أنه اضطلع إلى حد ما بدور الأب في علاقته مع تولستوي، شارحا للشاعر أنه لم يفلح في ثني تولستوي عن عادات السهر السيئة، فعزف عن نصحه في الفترة الأخيرة. وفي الحادي عشر من ديسمبر بدّد تولستوي جميع المال الذي كان بحوزته في تنظيم حفلة للمغنيات الغجَريات في فندق نابليون.

ويذكر أنه لم يبق من بين جميع الكتاب والمثقفين الذين قابلهم تولستوي في إقامته المؤقتة في بطرسبورغ صديق وفي له سوى الشاعر أفانازي فتْ، رغم أنه فشل أيضا في الإيفاء بمعايير تولستوي في الصداقة، لا سيما بعد خلاصه من أزمته الروحانية في الثمانينيات من ذلك القرن. وبقدر ما أحبه جميع الكتاب في بطرسبورغ فإنهم اكتشفوا سريعا أن التفاهم معه أمر صعب، فقد كانت آراؤه مستفزة للغاية، وبدا وكأنه يفعل المستحيل لكي يخالف آراءهم. فعلى سبيل المثال، كان كثير من الكتاب المرتبطين بصحيفة «المُعاصر» إما يكتبون عن شكسبير وإمّا يترجمونه، أما تولستوي فتجاهله ببساطة. وقد وجد رقيق الطباع تورغينيف نفسه يدخل مع تولستوي في مشاحنات عنيفة، فقد كانا رجلين من الخلفية الأرستقراطية الشريفة نفسها، لكن تولستوي كان متشددا في آرائه ولم يكن يتنازل عن أي منها، وكان ينفر من أناقة تورغينيف وروح شخصيته المعتدلة، وهما السّمتان اللتان سببتا له استياء واضحاً. قرأ تورغينيف في إحدى الأمسيات أجزاء من مخطوط روايته الأولى «رودين» على مجموعة من الحاضرين، لكن تولستوي وجدها متكلفة ومفتعلة وبعيدة تماماً عن الواقع، بعكس «مذكرات صياد»، واستغرب تماما كيف أن بعض الأدباء أخذوا الرواية تلك على محمل الجد.

لم يكن مسار تورغينيف الأدبي معبدا بالورد، فقد كان يعترف بأنه يميل إلى الغرب في أفكاره، ويتوق للإصلاح والتحديث في بلاده روسيا وفقا للتوجهات الأوروبية. وقد سبح ضد التيار وخالف المألوف بشجاعة عندما صادق الناقد الراديكالي بيلينسكي الذي كانت دعوته الحماسية للإصلاح تنبع من وضعيته الاجتماعية المتواضعة، ومن خلال انتقاده المبطن لمؤسسة الرق في روايته «مذكرات صياد»، مما جعله شخصية مريبة في عيون القيصر والمؤسسة

الحاكمة. لم يخجل تورغينيف مطلقا من أن يصدح بما يؤمن بأنه الحق أو يتصدى لأمور سياسية في أعماله، فقد تحدى الجميع ونشر نعياً لغوغول عند وفاته عام 1852، رغم أن غوغول كان يتهكم على البلاد، وقد حُظر بعدها مثلاً نشر رسالة تأبين لأمثاله من قِبل الرقيب (الرقيب نفسه الذي شوَّه قصة تولستوي «سيباستوبل في مايو»).

ولكي يُعاقَب بسبب جريمة جرأته على تسمية غوغول «العظيم»، أمر نيكولاي الأول شخصيا باعتقال تورغينيف وسجنه لشهر ومن ثم نفيه الدائم إلى عزبته (وضعه تحت الإقامة الجبرية). وبفضل إمبراطور المستقبل «ألكسندر الثاني» الذي أُعجب بـ «مذكرات صياد» سُمح لتورغينيف بالسفر مجدداً في نهاية عام 1853. وعندما قابل تولستوي تورغينيف كان عازما على شق طريقه ليصبح روائيا رغم أن رواية «رودين» لم ترق له.

ثمة شيء آخر اختلف فيه تولستوي عن غيره من الكتاب التقدميين العاملين في مجلة «المعاصر»، وهو معارفه وارتباطاته بمجتمع سانت بطرسبورغ الأرستقراطي. ومع أن تولستوي أصبح يمقت التقاليد الاجتماعية للمجتمع المخملي الراقي، فإنه كان يستثني أقرباءه، لا سيما ألكسندرا أندريفنا تولستويا التي ربطته بها علاقة وثيقة وقد تعرف عليها لأول مرة في تلك الفترة.

كانت ألكسندرين ابنة أحد أبناء عمومة أبيه، وكان لديها وأختها إليزافيتا شقق في قصر المارينسكي مقابل ميدان كاتدرائية القديس إسحاق، لأنهما كانتا مربيتين ومن ثم وصيفتين لابنة نيكولاي الأول، الدوقة الكبرى ماريا نيكولايفنا، وبناتها ماريا ويفغينا.

وإذا كان تولستوي ينظر إلى تورغينيف على أنه بمثابة أب له، فقد كان يدعو ألكسندرا أندريفنا بالبابوشكا (الجدّة) رغم أنها وتورغينيف كانا يكبرانه بعشر سنوات فقط. في نهاية حياتها، كتبت ألكسندرين مذكراتها تصف علاقتها بقريبها الجموح، إذ تذكرت الانطباع الذي خلَّفه تولستوي في أذهان الجميع عندما قدم إلى سانت بطرسبورغ:

«كان رجلا بسيطا، متواضعا جدا (طبعا كان ذلك في أول مساره) ومرحاً يحب الفكاهة، وكان وجوده يبث الحيوية في قلوب الجميع. كان يتحدث نادرا عن نفسه (إحدى القواعد التي اتبعها)، لكنه كان يمحص كل وجه جديد باهتمام بالغ، ويعبّر بعدها عن انطباعاته التي كانت دائما متطرفة تماما بطريقة مسلية للغاية. إن صبغة «مفرط الحساسية» التي ألصقتها به زوجته لاحقا كانت لائقة به تماما، لأنه كان يتأثر تأثراً بالغاً بأي تفصيل تافه يلحظه. أما وجهه فلم يكن وسيما، لكنَّ عينيه الذكيتين اللطيفتين المعبرتين عوضتا بنظراتهما الساحرة كل نواقصه، ويمكن القول إنها كانت تسمو حتى على الجمال».

كانت ألكسندرين والعمة توانيت من النساء القليلات اللواتي كن يحظين باحترام بالغ من طرف تولستوي، فألكسندرين لم تتزوج ولم تنجب أطفالا، ولذلك لم يصنفها على أنها امرأة «نموذجية» رغم أنه كان بلا شك منجذبا نحوها. وشعرت هي بدورها بأن بينهما شيئا من الانجذاب (الكيمياء المتبادلة)، لكنهما تشاجرا لاحقا مشاجرة عنيفة بسبب نقاش في الدِّين. وفي الوقت الذي أحرق فيه تولستوي جميع مراكبه فقطع علاقاته مع جميع المقربين تقريبا، بقيا مع ذلك رؤوفين عزيزين على قلب بعضهما بعضا.

وكانت ألكسندرين على مستو عالٍ من الثقافة والجدية. ولهذا كان تولستوي يستمتع بصحبتها دائما، وعندما استقر واستكان في ياسنايا بوليانا أصبح تواصلهما متقطعا، لكن مراسلاتهما كانت دائما تنبض بالحياة. وكان تولستوي يلجأ بالطبع إليها عندما يريد فتح خط مباشر مع القيصر لأنها كانت على معرفة وثيقة برجالات البلاط ودهاليزه. وقد اتخذ تولستوي عادة إرسال رسائل شخصية للقيصر، وكانت ألكسندرين في الأيام الأولى راغبة في لعب دور الوسيط، لكنها عزفت عن ذلك عندما أصبح قريبها ورقة خاسرة في أواخر حياته، لأنه عارض الحكومة الروسية علناً ونازلها وجها لوجه.

في نهاية نوفمبر كتب تولستوي رسالة جياشة حماسية إلى شقيقته ماشا ليخبرها عن مجريات لقائه بتورغينيف (وكيف فقد نيكراسوف بريقه وأصبح شخصية باهتة في نظره). وبعد أيام تسلم

رسالة منها تحثه فيها على المجيء لزيارة شقيقه ديمتري الذي كان يعاني من مرض عضال. كان تولستوي حينها لا يزال فعليا على رأس عمله في الجيش، وتعيَّن عليه بالتالي تقديم طلب للحصول على مأذونية فلم يستطع أن يغادر قبل الأول من يناير. وبحلول ذلك الوقت نُقل إلى وحدة ذخائر بحرية في بطرسبورغ ما جعله في واقع الأمر حراً يستطيع فعل ما يحلو له. وكان ديمتري يعيش حينها في أوريول، جنوب غرب تولا، وكانت زوجته عُرفًا هي ماشا (بائعة هوى)، وشقيقته ماشا وزوجها وعمته توانيت يعتنون به. وصل تولستوي في التاسع من يناير ليجد ديمتري مُنهكًا ومحطَّمًا يعاني الأمرّين بسبب مرض السل (التدرن)، إذ طغت على معالم وجهه الضامر العجف عينان واسعتان تحدقان في الأفق.

لم يكن ديمتري مقتنعا بأنه سيموت، بل بأنه سوف يُشفى بمساعدة معجزة أيقونة كان يصلي لها باستمرار. وجد تولستوي تلك التجربة مؤرقة للغاية، فغادر في اليوم التالي، وتوفي بعدها ديمتري في أحضان زوجته في الثاني والعشرين من يناير عام 1856.

لم يكن تولستوي قد تواصل مع ديمتري طيلة سنة ولم يعرف حتى إنه كان مريضا، فكل أفراد آل تولستوي كان لهم نصيب من الجموح لا سيما ليف، لكن ديمتري كان لا يقل عنه جموحا، بل كان ينافسه في ذلك، فكلاهما شاطر نبضا متطرفا لا يعرف المساومة.

بعد الفشل الذي عانى منه ديمتري في سانت بطرسبورغ قفل راجعًا إلى عزبته في مقاطعة كورسك، وحصل على وظيفة متواضعة في الحكومة المحلية، ووقع في براثن المرض منذ عام 1853 في موسكو، فأطلق لحية كثة واعتزل الناس. وعندما علم بأن أيامه في هذه الدنيا أصبحت معدودة، قام فجأة بالتخلي عن عادات الزهد والتقشف والورع والتُقى، ورمى بنفسه في أوحال الموبقات والفسق من خمر وقمار ودعارة، و«اشترى» ماشا من ماخور (بيت دعارة) وحررها من ذلك المكان. لكنه ما لبث أن أصبح يعاملها بقسوَة ويطردها من المنزل ثم يعيدها ثم يطردها فيعيدها. كتب ديمتري «الأخ غير المحبوب» رسالته الأخيرة إلى تولستوي من عزبته «تشيرباتشيفكا» في أكتوبر من عام 1854، أخبره فيها أن ديونًا بقيمة سبعة آلاف روبل قد

تراكمت عليه وهو الآن يجلس في منزله ويعمل في حديقة عزبته. وقد أخفى عنه مرضه وأخبره فقط بأنه تعيس وحزين ويشعر بالسأم: «حزين لأنني وحيد. كان يمكن أن أكون شخصا مختلفا، لكن شيئا لم يتحقق مما كنت أصبو إليه». لم يوافق تولستوي على هذا التغيير المفاجئ في أسلوب حياة أخيه، ولذلك لم يردَ على رسالته. لكنه عندما كان في أوريول يزور ديمتري دوّن في دفتره أن كل الأفكار السيئة التي كانت تختمر في صدره في السابق تجاه أخيه «أضحت رماداً» بمجرد أن رآه، لكنه مع ذلك لم يمكث بجانبه بل غادره في اليوم التالي.

ترك تولستوي شقيقه طريح الفراش وقفل راجعا إلى موسكو حيث سمع بموته لاحقا عندما عادت بائعة الهوى السابقة ماشا إلى المدينة، وقالت له بأن ديمتري اكتشف أن مرضه عضال ميؤوس منه قبل ساعات فقط من وفاته، عندما طلب حضور القسيس والطبيب وتوسَّل أن يتم أخذه إلى ياسنايا بوليانا ليموت فيها بهدوء. وقد دُفن فعلا في ياسنايا بوليانا. ندم بعدها تولستوي أشد الندم لأنه كان منغمسا في حياته الخاصة ولم يلاحظ خطورة وضع أخيه قبل وفاته. كما شعر بالندم على الطريقة الحقيرة التي كان يعامل بها أخاه. أعاد تولستوي إحياء سيرة ديمتري في رواية «آنا كارينينا» عندما تمثَّله في نيكولاي شقيق ليفين الذي يقيم علاقة أيضا مع عاهرة سابقة. ورغم أن تولستوي لم يشهد وفاة أخيه، إلا أنه توخى التفاصيل عندما وصف سكرات موت نيكولاي المفجعة في الفصل الوحيد الذي يحمل عنوان «الموت»؛ لأنه بحلول ذلك الوقت كان قد شهد موت أخيه الأكبر نيكولاي، فاعتمد على تلك التجربة المؤلمة لرسم المشهد. وفي نهاية حياته، لم يدَّخر تولستوي وسعاً في الكتابة مطولا عن حياة ديمتري الحقيقي.

ومكث تولستوي لشهر تقريبا قبل أن يعود إلى سانت بطرسبرغ التي أتاحت له الفرصة للقاء الكتاب الذين استقروا في العاصمة القديمة أمثال: سيرغيه وقسطنطين أكسانوف، اللذين لم يكونا يحلمان بالعيش في تلك المدينة ذات الطابع الأوروبي، لأنهما كانا ينتميان إلى معسكر محبي الثقافة السلافية المناوئ لمعسكر المتأثرين بالثقافة الغربية (أو المستغربين). ويذكر أن

أول خلاف نشب في صفوف الإنتلجنسيا الروسية بين المعسكرين المتحاربين كان قد حصل في العقد الماضي، واستمر الجدل المحموم بشأن حاضر ومستقبل روسيا طيلة حياة تولستوي. ربما عرف تولستوي في تلك الفترة بأنه لا ينتمي إلى معسكر المستغربين، ولكنه مع مرور الوقت رفض المعسكر الآخر أيضا أو الأيديولوجيا السلافية، رغم أن انشغاله بالأشكال المختلفة من الحياة الريفية في البلاد كان من المفترض أن تجعله حليفا طبيعيا للسلافيين. لكن الأنا المتضخمة لديه لم تسمح له ببساطة أن يصبح جزءا من حركة لا تتخذ فيها أفكاره أو شخصه موقعا مركزيًا فيها. عاد إلى سانت بطرسبورغ في نهاية يناير عام 1856، حيث اتخذ قرارا حكيما وعاش بمفرده وبقي في المدينة حتى منتصف مايو. ونُشرت آخر قصصه عن حرب القرم في صحيفة «المُعاصر» في نسخة يناير، لكن مع اختلاف هذه المرة؛ «سيباستوبل في أغسطس» التي كانت أول أعماله التي وقعها باسمه الحقيقي، الكونت ل. تولستوي.

وعمل في ذلك الربيع بكدّ على كتابة قصتين أخريين نشرتا في صحيفة «المعاصر»، وقد عنون أولاهما بـ«عاصفة الثلج» ونُشرت في مارس. وهي عمل خيالي واعد فنيًا استلهمه من معاناته مع الطقس المرعب في رحلته من القوقاز إلى منزله في يناير عام 1854. أما القصة الأخرى فعنونها بـ«اثنان من الهوسار»، وهي قصة عن القمار يقارن فيها بين جيلين من النبلاء الروس ويقدم عظة أخلاقية فيها، وقد أهداها لشقيقته ماشا، ونُشرت في مايو.

كان تولستوي يُعتبر الكاتب النجم في صحيفة «المعاصر» من وجهة نظر المحررين فيها (بالإضافة إلى ثلاثة كتاب آخرين هم تورغينيف وأوستروفسكي وغريغوريفيتش). وفي مرحلة ما من ذلك الربيع وقَّع عقدا مع الصحيفة يقضي بنشر كل عمل جديد له على مدار السنوات الأربع المقبلة مقابل هامش ربحي.

لكنه ندم لاحقا على توقيع العقد، فقد قوبلت آراؤه المتعنتة والغريبة بالاستنكار والاستغراب، لا سيما خلال لقائه الأول مع رابطة الأخوة الأدبية في سانت بطرسبورغ. وعندما عاد من موسكو في يناير طفت على السطح اعتراضات ومن ثم مشاجرات بعضها بالغة

السخونة لا سيما مع تورغينيف. كان تولستوي سريع التبرم والامتعاض، لكنه كان سريعا أيضا في جعل الطرف الآخر يمتعض ويتبرَّم. فقد كان أصغر سناً من أقرانه، وكان أحيانا يخالفهم من أجل الخلاف فقط. وراق له أحيانا أن يكون مسيئا مثيرا للسخط. كان الشجار ينشب بشأن مواضيع لديه فيها آراء متصلبة ودوغمائية كـ«قضية المرأة» مثلا. فقد نشب النزاع الكبير الأول في بداية فبراير، عندما تناول في نقاش الروائي الفرنسي غزير الإنتاج جورج ساند الذي أعجب فيه تورغينيف كثيرا لشجاعته وروحه الحرة. كان تولستوي يؤمن بمؤسسة الزواج، ولم يكن يناصر تحرر المرأة (أما الفتيات اللواتي زارهن في بيوت الدعارة في بطرسبورغ فذلك شأن آخر). واحتدم الشجار أيضا بينه وبين نيكراسوف وبانييف أحد المحررين في إحدى المناسبات (لا سيما أن تولستوي كان يعلم بمثلث الحب الذي كان يجمع بين زوجة بانييف، أدفوتيا، بنيكراسوف الذي اتخذها عشيقة له). ونشب أيضا اشتباك مرعب بينه وبين زميل آخر لنيكراسوف في التاسع عشر من مارس/ آذار، مما دفع تولستوي إلى تحديه بالمبارزة، لكن الزميل لم يستجب لذلك النداء فانسحب من المبارزة، عندها فكر تولستوي ولفترة من الزمن في التخلي عن الأدب والعودة إلى منزله.

حاول تولستوي أن يتماهى مع الاتجاه السائد وينتمي إلى الجماعة، ففي نهاية مارس رتَّب لالتقاط صورة جماعية بمناسبة زيارة ألكسندر أوستروفسكي[77]، الكاتب المسرحي الواعد، إلى بطرسبورغ. شكّل ذلك حدثا مميزا؛ لأن سيرغيه ليفيتسكي رائد التصوير الفوتوغرافي في روسيا كان قد افتتح استديو التصوير على شارع نيفسكي قبل تلك المناسبة بوقت قليل. وكان ليفيتسكي مصوراً بارعاً تسلم مذكرة إمبراطورية من القصر في وقت لاحق لتصوير آل رومانوف. لكن الصورة الأشهر كانت تلك التي رتَّب لها تولستوي؛ الرجل الوحيد الذي يرتدي بزة عسكرية فيها. كان ليفيتسكي قد درس في باريس وافتتح فيها استديو قبل أن يعود إلى روسيا، وقد كان رجلا لافتا ذا شخصية مميزة، فهو ابن عم ألكسندر هيرزن، وكان قد التقط

---

(77) Александр Островский (Alexander Ostrovsky).

صورا مشهورة للقوقاز في الأربعينيات من ذلك القرن. بعدها بفترة طويلة يحفز تولستوي، على نحو غير متعمد، ليقوم فجأة بتناول المسيحية الأرثوذكسية بجدية. وهكذا أصبحت صورة كتاب «المُعاصر» لعام 1856 صورة أبدية عُلِّقت على جدار في مكتب تولستوي في ياسنايا بوليانا.

تقرب تولستوي من أوستروفسكي وتوطدت علاقتهما أكثر فأكثر بعد بضع سنوات عندما استأجر تولستوي منزلا بالقرب من منزله في موسكو. وكان أبوه يعمل محاميا في موسكو ولم يكن نسَبه عريقـاً كما كان نسب تولستوي وتورغينيف. أما مسرحية أوستروفسكي الأولى «إفلاس» فقد خضعت لرقابة شخصية من القيصر نيكولاي الأول عام 1850؛ الذي ذعر من تصويرها لطبقة التجار الروس على أنهم غير نزيهين. لذلك وضع المسرحية تحت مراقبة الشرطة. نال أوستروفسكي أول نجاح له على خشبة المسرح عندما أنتج سنة 1853 مسرحيته الثالثة «لا تركب مزلجة الآخرين»، وبدأ الآن توسيع آفاقه في الكتابة. ساد جو من التفاؤل بعد موت نيكولاي الأول واعتلاء العرش من قبل أخيه الأصغر ذي العقلية الليبرالية، الدّوق قسطنطين، الذي كان يدير الوزارة البحرية، فوضع خطة مستنيرة لإرسال ثمانية من الكتاب عوضا عن البيروقراطيين في رحلة استكشافية في نهر الفولغا ليدرسوا حياة أولئك الذين يمخرون عبابه ويصطادون سمكه. وكان أوستروفسكي أحد أولئك الثمانية، فانطلق في تلك الرحلة في أبريل من عام 1856 مباشرة بعد رفع رقابة الشرطة عنه.

كان شهر أبريل من عام 1856 مهما أيضا لتولستوي، ففي نهاية مارس/ آذار ألقى ألكسندر الثاني خطابه الشهير في موسكو، معلنـاً فيه أنه من الأفضل أن تلغى مؤسسة الرق «من أعلى الهرم» عوضـاً عن أن ننتظر إلغاءها «من القاع». كان خبر احتمال تحرير الفلاحين الروس خبراً مدوياً انتشر في البلاد كانتشار النار في الهشيم. عندها بَدأ تولستوي على الفور وضع خطة لتحرير فلاحيه وخدمه، إذ كان حينها واحداً من صفوف النبلاء الروس الذين استيقظت ضمائرهم الاجتماعية فأصبحوا «نبلاء تائبين». وكان أول أولئك كاتب القرن الثامن عشر

ألكسندر راديشتشوف الذي نُفي على يد كاترينا الثانية العظيمة إلى سيبيريا في التسعينيات من ذلك القرن، بسبب كشف النقاب عن شرور مؤسسة الرق والأقنان في كتابه «رحلة من سانت بطرسبورغ إلى موسكو»، عندما كان حينها شابا حالما ساذجا آمن بأسطورة أن كاترينا الإمبراطورة كانت حاكمة عادلة مستنيِرة. وقد تلقى تعليما نخبويا، وكان منكشفا على «الثراء والأبهة» في البلاط الروسي الذي -وفقـًا للزائر البريطاني ويليام كوكس- في الثمانينيات من القرن الثامن عشر فاق كل وصف.

صُدم راديشتشوف لاحقا عندما قارن بين ثراء بطرسبورغ الفاحش من جهة، وبؤس طبقة الفلاحين الروس وظروف حياتهم الصعبة التي اكتشفها وهو في رحلته من العاصمة إلى موسكو من جهة أخرى. وبدأ حينها يرى بوضوح ولأول مرة انعدام الأخلاق في صرح الأوتوقراطية القيصرية، وكذلك دور الإقطاعيين الروس من النبلاء في دعم ذلك النظام اللاإنساني كما هو موضح في الفقرة التالية:

«ينتشر خبر مرتين كل أسبوع في كل أرجاء الإمبراطورية بأن فلانا أو علانا لا يستطيع أو لا يرغب في سداد ما اقترضه أو أخذه أو ما يُطلب منه، فالأموال المقترضة قد قومر بها، أو دُفعت لتكاليف السفر أو أُنفقت أو ٱلتُهمت، أو صُرفت على الخمر أو بُدِّدت أو أُعطيت لشخص آخر، أو أحرقتها النيران أو غرقت في المياه. وأي قضية على غرار تلك تفضي دائما إلى الإعلان التالي: في العاشرة من صباح اليوم صدر أمر من محكمة المقاطعة أو المحكمة الابتدائية بأن عقار النقيب المتقاعد الفلاني، المؤلف من منزل رقم كذا وستة أنفار من الذكور والإناث في موقع كذا في مقاطعة كذا سوف يباع في المزاد، سارعوا فالصفقة مربحة جدا. يأتي اليوم الموعود وتجتمع أعداد المشترين من المناطق كافة. وفي قاعة المزاد يقف المدانون بلا حراك بمن فيهم شيخ عجوز يبلغ الخامسة والسبعين، يتكئ على عصاه المصنوعة من خشب الدردار متألما مشوشا يترقب قدره الوشيك لينتقل إلى سيد آخر ويودّع الدنيا في منزل آخر، وهو الذي خدم في بيت سيده الأول لفترة طويلة، وشارك مع جد العائلة في حملة القرم تحت إمرة المارشال

ميونيتش، وقام في معركة فرانكفورت بحمل سيده الجريح على كتفيه لينقله إلى برّ الأمان بعيدا عن أرض المعركة. وعندما عاد إلى المنزل أصبح مربيا ومدرسا لابن السيد (الذي سيصبح سيده فيما بعد)، الذي أنقذه هو الآخر وهو طفل من الغرق عندما سقط في النهر بينما كان يعبره على مركب، فقفز الشيخ الخادم وجازف بحياته وانتشل الطفل من النهر. أما لاحقا فقد أنقذ سيده الشاب مرة أخرى عندما سُجن الأخير بسبب ديون تكبدها وهو لا يزال ضابطا غرا في الجيش، فدفع الشيخ كفالته وانتشله من السجن».

لقد كان كتاب راديشتشوف، الذي أعاد هيرزن نشره في لندن عام 1858 أول كتاب أفضى إلى ولادة الأرستقراطية الفكرية أو الإنتلجنسيا في روسيا، لأن جلّ أعضاء الإنتلجنسيا التقدميين كانوا يُعرَفون بمعارضتهم للدولة، بمن فيهم محررو صحيفة «المعاصر»، ومطالبتهم الدائمة بتناول مسألة إلغاء مؤسسة الرق باعتبارها القضية المركزية المُلحّة الأولى في تلك الفترة. لم يجرؤ أحد من غير طبقة الكتاب حينها، قبل تولي ألكسندر الثاني العرش، أن يرفع عقيرته ويتحدث عن تلك القضية أو غيرها من القضايا الحساسة؛ وذلك بفضل مكانتهم المقدسة في روسيا، واتباعا للتقليد النبيل الذي يجعل الكاتب صوت الأخلاق في الأمة. وهذا ما عزه تولستوي واستمر في الالتزام به في حياته الطويلة.

أصبح تولستوي على قناعة بضرورة إلغاء مؤسسة الرق في البلاد عندما كان لا يزال في سيباستوبل. لكن قناعته تلك أصبحت أكثر رسوخا من خلال تأثره بنيكراسوف وزملائه المحيطين به. وبعد كثير من اللقاءات والمشاورات بما في ذلك مع المفكر الليبرالي والمؤرخ، قسطنطين كافيلين، الذي انتشر مقترحه بشأن تحرير الرق في السنة الفائتة، توجه تولستوي إلى وزارة الشؤون الداخلية ليناقش خطته الخاصة بتحرير خدمه وفلاحيه مع مسؤول رفيع المستوى في الوزارة. وكانت خطته تقضي بمنح الحرية الخاصة التامة لجميع الخدم والفلاحين وبيع الأرض لهم لفترة تصل إلى ثلاثين سنة لقاء 150 روبلا لكل ديسياتكا (2.7 هكتار). ومع

أن الوزارة لم يكن بمقدورها اتخاذ قرار بهذا الشأن بعد، إلا أن تولستوي كان قد حسم أمره قطعياً.

رقي تولستوي إلى رتبة ملازم أول في مارس عام 1856 بفضل شجاعته في سيباستوبل. غير أنه لم يكن مهتما بالقدر الكافي باستمراره في الجيش. وهكذا، قدّم التماساً على الفور ليحصل على إجازة لأحد عشر شهرا. كانت شهور الشتاء التي أمضاها في بطرسبورغ مليئة بالأحداث. فقد استطاع أخيرا أن يقمع بعض عاداته السيئة ليركز على الكتابة ويعمل بكد رغم تخلل ذلك بعض الجولات الثقافية، فقد استأجر شقة على شارع أوفيتسيرسكايا القريب من داري الأوبرا المشهورتين في المدينة. وفي الرابع من مايو جلس في المقصورة التي جلس فيها المؤلف الموسيقي للعرض الأول من دارغوميجسكي روسالكا في مسرح السيرك (موطن الأوبرا الروسية الذي مهد الطريق لمسرح مارينسكي لاحقا). استقل تولستوي في الشهر نفسه القطار متجهاً إلى بافلوفسك، ومن المؤكد أنه حضر الحفلة الثانية في ذلك الموسم ليوهان شتراوس الابن والأوركسترا المصاحبة. فقد أصبحت بافلوفسك موقعا مهما يحتضن الحفلات، لا سيما بعد فتح خط سكة حديدية يربطها بسانت بطرسبورغ عام 1837 (وهو الأول في روسيا). سُميت أول محطة سكة حديدة -لأسباب غير معروفة تماما- «فاجزال»[78]، نسبة للكلمة الإنجليزية «فوكسل»[79]، يشمل ذلك جناحاً رحباً ذا موقع مميز لأداء الموسيقى الهادئة التي تحوّلت فيما بعد إلى حفلات أوركسترا منتظمة خلال أشهر الصيف. وتمثّلت إحدى الإشارات الأولى على تحرّر المجتمع الروسي في ظل حكم ألكسندر الثاني بدعوة «ملك موسيقى الفالس»[80] إلى روسيا. ويبدو أن دخول الموسيقى الراقصة إلى روسيا كان موائماً لتلك الحقبة الجديدة. في السادس عشر من مايو، وبعد يوم من ذهابه إلى بافلوفسك، حصل

(78) Vokzal.

(79) Vauxhaul.

(80) Waltz.

تولستوي أخيرا على تصريح بالإجازة، مما عنى أنه يستطيع أخيرا أن يعود إلى ياسنايا بوليانا ليضع خطته لتحرير الرق موضع التنفيذ. وفعلا، حزم حقائبه خلال يومين وقفل راجعاً.

ومع نهاية مايو، وبعد توقفه في موسكو لبضعة أيام وزيارته برفقة عمته بولينا دير القديس سرجيوس، عاد تولستوي أخيرا إلى ياسنايا بوليانا بعد غياب استمر نحو خمس سنوات، مما جعل التأقلم على العيش في الريف مرة أخرى أمرا صعبا في البداية. فقد تعيَّن عليه أولا أن يتأقلم مع الفراغ الذي خلَّفه بيع المنزل الرئيسي في الوسط، ومن ثم التأقلم مع غرابة العيش في أحد جناحيه المتماثلين. ثانيا، وبعد كل النقاشات الليبرالية التي جرت في بطرسبورغ، فإن فكرة كونه الآن إقطاعيا يملك خدما وفلاحين وأقنان أرض، بدت له فكرة مقززة تماما. حتى إنه وجد صعوبة في التأقلم في البداية مع نظام عمته العزيزة القديم لدرجة أنها بدت له «كريهة» بأرستقراطيتها المعهودة. عقد تولستوي على الفور اجتماعا بفلاحيه ليعرض عليهم خطة تحريرهم، ولكن المفاجأة أنهم كانوا يتوجَّسون من خطته ويشكِّكون في دوافعه فلم يوفّروا له إجابات شافية. فقد كان الفلاحون على يقين بأنهم سيحصلون على حريتهم عندما يُنصّب القيصر الجديد، لذلك اعتقدوا أن عرض تولستوي لإبرام عقد معه ما هو إلا خدعة ماكرة لينصب عليهم. وهكذا، وبعد لقاءات عدة، رفضوا جميع عروضه المُعدَّلة. فشعر تولستوي عندها بالإحباط لأنه لم يتوقع البتة انعدام ثقتهم فيه، وصمّم على تعليق خطته إلى أجل غير مسمى.

وعوضا عن ذلك فرّغ تولستوي طاقته في الكتابة والمطالعة (فقد انغمس في قراءة رواية «دوريو الصغير» لديكينز في ذلك الصيف). كما انهمك أكثر من أي شيء آخر في كتابة رواية «الشباب»؛ وهي العمل الثالث والأخير ضمن أربعة أعمال لروايات قصيرة خطَّط لها مسبقا لتعكس الفترة الأولى من حياة شاب من النبلاء. كما عمَل على المسوّدة الأولى لِما أصبح لاحقا رواية قصيرة أسماها «صبيحة إقطاعي»، ركز فيها على الفلاحين الروس لأول مرة. قام تولستوي أيضا خلال شهور الصيف بزيارة أخته ماشا وزوجها، وانطلق من منزلهما راكبا على

حصانه لزيارة تورغينيف في عزبته في سباسكوي. كان أخوه نيكولاي قد عاد في تلك الفترة من القوقاز. ورغم استقالته من الجيش عام 1854 إلا أنه تقدم في الصيف التالي بطلب للالتحاق مجددا فتم فرزه إلى ستاروغلادكوفسكايا. وكان سيرغيه يخدم في الجيش لفترة قصيرة حينها، فانضم إليه تولستوي في يوليو في متسينسك، حيث كان يخدم مع الفوج الرابع من حملة البنادق لحرس أفراد العائلة الإمبراطورية (كان قد التحق بالجيش في مارس عام 1855 بدافع الموجة الوطنية التي طغت حينها بسبب حرب القرم، لكنه ما لبث أن سئم من الجيش وكان على وشك الاستقالة).

لكن أكثر ما انشغل به تولستوي في ذلك الصيف كان المغامرات الرومانسية. فقد اقترح عليه صديقه من أيام الجامعة ديمتري دياكوف أن يقترن بفاليريا أرسينيافا[81]، وهي جارته التي أصبح ديمتري كفيلها بعد وفاة والدها عام 1854. وكانت تقطن في منزل الأسرة الذي يبعد خمسة أميال عن ياسنايا بوليانا على الطريق المؤدي إلى تولا. وهكذا بدأ تولستوي بالتردد على منزل أسرتها بشكل متكرر ليعتني بها ويهذّبها ويصقلها لتغدو عروسا محتملة. لكن العلاقة بينهما لم تكن مريحة؛ لأن تولستوي لم يكن راغبا بقبولها كما هي، بل أراد أن يبنيها ويهذّبها بحسب تصوره المثالي عن الأنوثة. فقد كان مستاءً لدرجة كبيرة مثلاً لكونها تهتم كثيرا بالموضة والملابس والرقص، ولم تُبدِ أيَّ إشارات تدل على فهمها لمعاييره ومثله وذائقته. ومن خلال قراءة ما بين سطور بعض التعليقات التي تناولت فاليريا في مذكراته، نستخلص أن مشاعر الحب نحوها كانت في جلها أمانيَّ فحسب. فقد أراد أن يقع في «غرامها»، وأصبح في بعض الأحيان على شفا الوقوع فيه، لكن كل ذلك لم يكن سوى اختراعات واهمة. فلم يستطع مع ذلك طوال الوقت الذي كان يصاحبها فيه ويحادثها ويسامرها في ذلك الصيف، أن يكبح الدوافع التي كانت تحثُّه على مطاردة الفلاحات الحسناوات وشعوره بالذنب في الوقت نفسه.

---

(81) Valeria Arseneva.

ومع دخول خريف عام 1856، كان تولستوي قد أنهى إملاء رواية «الشباب» على أحد المختزلين، وتسلَّم نُسخًا من كتبه الأولى: «قصص حرب» (جمعت أقاصيص سيباستوبل والغارة والتحطيب) و«الطفولة والصّبا». كما قدَّم في تلك الفترة أيضا رسالة الاستقالة من الجيش لأسباب مرضية، فأصبح مدنياً مرة أخرى مع نهاية شهر نوفمبر. وذهب في الأول من نوفمبر إلى موسكو، ومن ثم إلى سانت بطرسبورغ، وهو لا يزال يعتقد أن فاليريا ستغدو زوجة المستقبل. وقد استمرت الشابة المسكينة بتلقي رسائله المتعالية طيلة فصل الخريف التي كان يلقنها فيها دروسا عن دورها في الحياة الذي ينبغي، بحسب رأيه، أن يتمحور حول كونها أمّاً (مات)[82]، وليست ملكة نحل (ماتكا)[83]، ويسألها إن كانت تفهم الفرق بينهما. كانت بعض الرسائل مسهبة جدا ولطيفة، لكن البعض الآخر كان بمثابة توجيهات متعالية متبجحة من ألفها إلى يائها، تثير الدهشة بسبب النّفاق الذي يلفها، وما يعرضه تولستوي من فضائل معتقدا أنه أفضل خُلقا من الآخرين، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار سجله السابق.

كتب في إحدى تلك الرسائل: «عيبك الأساسي هو ضعف شخصيتك، وكل عيوبك الصغرى الأخرى تنبثق من ذلك العيب الأكبر». وكتب في أخرى: «اعملي على تحسين قوة الإرادة، استجمعي قواك وأعلني حرباً على عاداتك السيئة». تحوّل حب تولستوي الفاتر أصلاً إلى بارد في ذلك الخريف. وفي نهاية عام 1856 أرسل رسالة جافة فظّة إلى فاليريا أعلن فيها إنهاء علاقتهما مما ألحق الضرر بها وجعلها في حيرة من أمرها. وفي يناير/ كانون الثاني بعث برسالة ندم واعتذار، لكنه اعترف فيها بالذنب أمام نفسه قبل أن يعترف بالذنب تجاهها.

قبل أن يوقع تولستوي على عقده مع مجلة «المعاصر» كان قد وعد مجلة «مذكرات وطن» -المنافسة الرئيسية للمعاصر- بقصة. لذلك أمضى جلّ وقته في ذلك الخريف في بطرسبورغ يعمل ويشذّب القصة التي استخلصها من روايته غير المُكتملة عن الإقطاعي الروسي، التي

(82) Mat.

(83) Matka.

بدأها منذ أن كان في القوقاز. نشرت «صبيحة إقطاعي» في ديسمبر. وعكس فيها تولستوي تجربته الشخصية في محاولاته لتحسين حياة خدمه. وقد تناولت القصة بجِدّية قضية الفلاحين الروس ونقلتهم إلى عالم الأدب كشخصيات روائية.

وأصبحت «صبيحة إقطاعي» بمثابة «مذكرات صياد» بعد عقد من الزمن. لكنها كانت أكثر تفصيلا وجرأة بسبب جوّ الحريات الذي شجع عليه القيصر الجديد آنذاك. ومصداق ذلك أن «صبيحة إقطاعي» لاقت استحسان ناقد مجلة «المعاصر» الجديد نيكولاي تشيرنيشيفسكي[84]؛ الذي نشر استعراضاً مطولاً ومؤثراً في أعمال تولستوي التي كانت قد صدرت حتى اللحظة في عدد ديسمبر.

كان تشيرنيشيفسكي وتولستوي من الفئة العمرية نفسها، وقد سعيا معًا لحظر العبودية. لكنهما كانا شخصين مختلفين في كل شيء آخر. فقد كان تشيرنيشيفسكي يمثل تيارا سياسيا راديكاليا جديدا هدفه الرئيسي هو الثورة، وهو بالإضافة إلى الشاب الأصغر سنا نيكولاي دوبرالوبوف[85]، الذي انضم إلى مجلة «المعاصر» عام 1857، ينحدر من خلفية اجتماعية تتطابق مع تلك التي ينحدر منها بيلينسكي. بالإضافة إلى أنهما يحملان الأيديولوجيا نفسها. لكنهم كانوا جميعا لا يعبؤون بالمثاليين غير المؤثرين من جيل تورغينيف. ولأنهم وُلدوا من أصلاب رجال الدّين فقد كانوا يُنعَتون بـ«رزنوتشينتسي»[86]؛ وهي طبقة أولئك المتعلمين المثقفين من أفراد الإنتلجنسيا الذين ينحدرون من طبقات اجتماعية متواضعة، والذين كانوا أكثر دوغمائية من نيكراسوف وبانييف في إلحاحهم على حاجة الفن لخدمة الأغراض السياسية. رسم تشيرنيشيفسكي معالم الأجندة الجديدة لمجلة «المعاصر» عام 1855 في مقالة عنوانها «العلاقات الجمالية بين الفن والواقع»، وقال فيها بأن «الجمال هو الحياة»، وأضاف أن

(84) Nikolay Chernyshevsky.

(85) Nikolay Dobrolyubov.

(86) Raznochintsy.

الفن أدنى منزلة من العلوم. وفي استعراضه لأعمال تولستوي، حدد تشيرنيشيفسكي تقنية تولستوي في متابعة تطورات الأفكار والمشاعر العابرة لشخصياته الروائية، بأنها بمثابة «ديالكتيك الرّوح». وقارنها بقدرة الرّسام الموهوب على «التقاط وميض انعكاس الضوء على حفيف أوراق الشجر»، أو «تلاعب الألوان في المعالم والخطوط المتغيرة للسحاب». وبهذا كان تشيرنيشيفسكي يعني بأن تولستوي لم يكن يهتم كثيرا بنتائج العملية السيكولوجية بقدر اهتمامه بالعملية نفسها. لقد كان استعراضا فيه كثير من الإطراء المتعمد، لكن من الواضح أن تولستوي لم يكن يستجيب بلطف إلى آراء تشيرنيشيفسكي النفعية إزاء الفن. وهكذا، ونتيجة لدعم نيكراسوف لزملائه الراديكاليين الشباب، بدأت أجندة مجلة «المعاصر» السياسية اليسارية تسمو على أي معايير فنية، مما أدى لاحقا إلى فقدان المجلة لجميع كتابها المميزين لصالح مجلة «الرسول الروسي» في موسكو، بما في ذلك تولستوي.

وعندما تسلم تولستوي أوراق استقالته من الجيش، أصبح بإمكانه مغادرة بطرسبورغ إلى الأبد. وقد وضع لنفسه هدفين وأوفى بهما. أما أولهما فكان أن «اختبر» مشاعره تجاه فاليريا أرسينيافا، وبرهن لنفسه أنها كانت مشاعر خاوية. أما الهدف الثاني فتمثل في عزمه على إنهاء قصة «الشباب»، فأنهاها وأرسلها للنشر في يناير من عام 1857. وكل ما كان عليه فعله آنئذ هو استصدار جواز سفر للسفر إلى الخارج لأول مرة. وبعد شهر من الإجراءات البيروقراطية المملة استعد تولستوي للتوجه إلى موسكو ليجهز نفسه للسفر خارج البلاد. وفي التاسع من نوفمبر (الحادي والعشرين من نوفمبر بحسب التقويم الغريغوري المعمول به في أوروبا الغربية)، حطت قدما تولستوي في باريس بعد رحلة استمرت اثني عشر يوما. وكان قد قرر السفر بمفرده من دون خادم. وفي المساء الذي وصل فيه توجه بعد أن أفرغ محتويات حقائبه في فندق موريس الواقع على شارع ريفولي، إلى قاعة سامْيدي التقليدية للرقص في دار الأوبرا الباريسية، ليلتقي بتورغينيف ونيكراسوف.

أمضى تولستوي ستة أسابيع في باريس التقى خلالها تورغينيف في معظم الأيام. وقد كانا صاحبين متفاهمين إلى حد كبير في تلك الفترة. فقد أمضى تورغينيف وقتا طويلا من حياته خارج روسيا، وعرف شعاب باريس جيدا لذلك كان دليلا سياحيا رائعا. واستسلم تولستوي لمتعة زيارة الأماكن السياحية، فزارَ متحف اللوفر، وكنيسة نوتردام، ومتحف كلوني[87] أو المتحف الوطني للعصور الوسطى، وقبر نابليون تحت القبة الذهبية لمبنى «لي زانفاليد»[88] (تأليه فظيع)، ومقبرة بيير لاشيز[89]. وقام برحلات إلى قصر فرساي والفونتينبلو[90]، وأبعد من ذلك إلى مدينة ديجون. وقد شاهد أيضا العديد من العروض المسرحية، فزار المسرح الفرنسي لمشاهدة مسرحيات موليير وجان راسين، وحضور حفلات موسيقية وأوبرا من قبيل أوبرا روجيليتو[91]، ومعزوفة حلاق إشبيلية[92] لروسيني، وأوبرا ابنة الكتيبة[93] لدونيزيتي في الأوبرا الإيطالية، بالإضافة إلى أوبريت عل مسرح البوف باريزيان[94]، وشاهد أيضا مسرحية هزلية على مسرح فاريتي[95].

ذهب أيضا لحضور محاضرات في جامعة السوربون. وفي ساعات الصباح الأولى في الخامس والعشرين من مايو ذهب ليشهد إعداما بالمقصلة، وهي التجربة التي أصابته بصدمة نفسية لم يستطع بسببها البقاء في باريس. ورغم أنه كان من المفترض أن يسافر إلى لندن (كان

---

(87) Musee de Cluny.

(88) Hotel des Invalides.

(89) Pere Lachaise Cemetery.

(90) Fontainebleau.

(91) Rigoletto.

(92) Il Barbiere di Siviglia.

(93) La Fille du regiment.

(94) Bouffes Parisiens.

(95) Theatre des Varietes.

يتلقى دروسا في اللغة الإنجليزية في باريس)، إلا أنه توجه إلى جنيف ليجتمع مجددا بألكسندرين وشقيقتها اللتين كانتا تقضيان عطلة هناك بصحبة الدوقة العظيمة ماريا نيكولايفنا. أرسل تولستوي رسالة إلى شقيقته يخبرها فيها بأنه وصل إلى جنيف قبيل بدء الصوم الكبير، وقد التزم الصيام وشارك في القداس.

وبعد فراره من «سدوم وعاموراء» كما كان يطلق على باريس، أمضى تولستوي ثلاثة أشهر ونصف يستعيد عافيته ونشاطه ويهذّب روحه في سويسرا. فاستأنف الكتابة والمطالعة بانتقائية، وقرأ «حياة تشارلوت برونتي» للكاتب جاسكيل[96]، وقرأ لدي توكفيل[97] وبرودو[98] وبلزاك[99] ومذكرات نابليون للكاتب لاسكاز[100]. وقرأ للفيلسوف غوته أيضا. وجد تورغينيف تولستوي شخصا محيراً إذ قال فيه في رسالة بعث بها لصديق: «لعمري إنه رجل غريب الأطوار. لم أقابل شخصا مثله في حياتي ولا أستطيع أن أفهمه إطلاقا؛ فهو مزيج من إقطاعي كالفيني متعصب -يشبه روسو إلى حد ما لكنه أصدق منه- وهو ذو أخلاق رفيعة، لكنه في الوقت نفسه كريه غير جذاب».

عرف تورغينيف صديقه تولستوي أكثر من أي شخص آخر، ولهذا توقع أن يسأم من بحيرة جنيف قريباً لأنه علم أنه شخص ملول بامتياز. لكن تولستوي تمتع بإقامته في سويسرا في واقع الأمر رغم أنه لم يقضِ وقتا طويلا فيها. فصحبة ألكسندرين كانت متوافقة مع طبعه ومزاجه. لذلك، استقلا بعد أسبوعين مركباً وتوجها إلى كلارينز عبر البحيرة، فكتب من هناك إلى العمة توانيت وهو مفعم بالحماسة، وأخبرها أن كلارينز هي القرية التي عاشت فيها بطلة روسو

(96) Gaskell.

(97) De Tocqueville.

(98) Proudhon.

(99) Balzac.

(100) Las Cases.

«جولي» في روايته القصيرة «إلواز الجديدة[101]». وكتب في رسالته: «المناظر الطبيعية تأسر الألباب بالفعل»، وشرح لعمته بأنه لا يستطيع أن يشيح بوجهه بعيدا عن البحيرة: «لا أستطع وصف جمال هذه البلاد لك لا سيما الآن، إذ تكسو الأوراق الأشجار ويزهر كل شيء وتتفتح براعمه»[102]. وقد أمضى تولستوي جَل وقته يتمشى في نزهات طويلة أو ينظر إلى الخارج من نافذة غرفته.

ومن كلارينز انطلق في رحلات استكشافية إلى لوزان ومونترو[103] وفيفاي[104] وشييون[105]، تدرج فيها في الجبال وتنزَّه بصحبة زوّار روس آخرين. وفي نهاية مايو عادت ألكسندرين وشقيقتها إلى جينيف، وبقي تولستوي يتمتع برحلات في جبال الألب سيراً على الأقدام مصطحبا معه ساشا بوليفانوفا ذات الأحد عشر ربيعا، وهو ابن أحد معارفه الروس، ودفتر مذكراته وحزمة من الأوراق في حقيبة الظهر. كانت تلك المرة الأولى التي يزور فيها الجبال الشاهقة منذ أن خدم في القوقاز منذ خمس سنوات. إلا أن هدوء وجمال جبال الألب ومراعيها الخضراء وأزهار النرجس فيها والأبقار السمينة التي تلفُّ رقابها الأجراس؛ كانت مختلفة تماما عن الشيشان. وعندما وصل المسافرون إلى جريندلوالد حيث تزلج تولستوي على أحد الجبال الجليدية، بدأ كتابة مذكرات السفر على أمل أن ينشرها بشكل ما في مجلة «المعاصر». غير أن تركيز كتاباته في سويسرا كان يتمحور حول قصة ستسمى لاحقا «القوزاق».

وكان تورغينيف محقا في توصيف تقلبات تولستوي، فبعد عودته من رحلة السير على الأقدام، التي استمرت أحد عشر يوما، انطلق مجددا إلى بيرن وفرايبورغ. بعدها ببضعة أيام عاد

(101) La Nouvelle Heloise.

(102) Je n'essayerais pas de vous dépeindre la beauté de ce pays surtout à présent quand tout est en feuilles et en fleurs.

(103) Montreux.

(104) Vevey.

(105) Chillon.

إلى جنيف ومن ثم إلى شامبيري[106] في منطقة سافوا، والعديد من الأماكن الأخرى التي استحضرت في مخيلته شخصية القسّ في مسرحية «إميل» لروسو. وفي تورين التقى تولستوي بأصدقائه من آل بوتكين كما التقى ألكسندر دروجينين. وفي طريق عودته إلى سويسرا مرّ على أفريا وتسلق جبل روزا مرتين، ثم توقف في جسر سانت مارتين وغريسوني[107] وشامباف[108]، وأمضى ليلة في النزل المشهور الذي أسّسه سانت بيرنارد عام 1049 على قمة ما يعرف بممر القديس العظيم برنارد (الأقدم في جبال الألب). وقبل مغادرته المكان، تفحص الدير واقترب من كلاب القديس برنارد الذين أصبحوا جزءا لا يتجزأ من الدير منذ القرن السابع عشر، إذ أنقذوا حياة مئات المسافرين الذين تقطّعت بهم السبل بسبب الانهيارات الثلجية. بعدها مرّ من شلال بيسفاش[109] المهيب المجيد، وهو ينحدر من علو شاهق بواقع 114 مترا، الذي زاره روسو وألهم غوته عام 1779 لينطلق لسانه في خطابات محمومة. وبحلول تلك المرحلة كان تولستوي يكتب نزرا يسيرا من مذكراته واصفاً الشلال بتعبير سحري غامض هو «الزوان الهابط». وعندما وصل إلى بحيرة فيلنوف[110] استقل قاربا وعاد إلى كلارينز.

في بداية يوليو سافر تولستوي إلى لوسيرن عبر بيرن حيث مكث في غرفة في فندق شفايتسرهوف وعاد والتقى بألكسندرين. وقد بُني الفندق في مكان يطل على البحيرة في قلب البلدة القديمة عام 1845، وهو لا يزال إلى الآن فخما كما كان في السابق (يعتبر ضمن حفنة من الفنادق في سويسرا ذات «الأهمية الوطنية»). بدا الفندق لتولستوي عام 1857 بأنه تعرض لغزو سوّاح إنجليز «فاتري العاطفة» و«متجهمي الوجه»، يبدو أنهم يحبذون تناول الطعام بصمت تام. دُهش تولستوي لحقيقة أنهم كانوا غير مبالين بما حولهم كما تبين من خلال حادث

(106) Chambery.

(107) Gressoney.

(108) Chambave.

(109) Pissevache.

(110) Villeneuve.

حوّله لاحقاً إلى قصة قصيرة. ففي أمسية من الأمسيات وهو عائد من ماخور، التقى بمُغنٍ جوال يحمل غيتاراً ويغني أغنيات تارولينية شعبية، وكان عزفه وغناؤه رائعَين. فاقترح عليه تولستوي أن يذهب ليغني تحت نوافذ فندق شفايتسرهوف. فتحلق حوله بعد لحظات جمهور من الأثرياء راق لهم أداؤه. لكنه في كلِ مرة كان يطوف عليهم بقبعته تبقى القبعة خاوية من دون كوبيك واحد. دُهش تولستوي ولحق مُهرولا بالمغني عندما همّ الأخير بالعودة إلى البلدة القديمة، وعاد به إلى الفندق وأمر بقارورة شمبانيا الموِيت بعد أن تسلل الغضب إلى عروق تولستوي بسبب ما شهده من بخل الأثرياء المقيمين في الفندق. وقد عبّر عن ذلك أولا في رسالة أرسلها إلى صديق، ثم حوَّلها إلى قصة قصيرة أسماها «لوسيرن». لكن القصة تلك لم يكتبها تولستوي في فندق شفايتسرهوف كما يزعم أصحابه، بل كتبها في نزُل متواضع انتقل إليه بعد تلك الحادثة مباشرة. لقد لجأ تولستوي في تلك القصة إلى التشهير اللاذع بذلك الفندق الذي اعتبره بالفعل رمزاً لبرجوازية الحضارة الغربية. وقرأ القصة على نيكراسوف بُعيد وصوله إلى بطرسبورغ على متن القطار البخاري نفسه الذي استقله في رحلة ذهابه من الميناء البروسي ستيتين، ثم نُشرت في مجلة «المعاصر» في سبتمبر من عام 1857 ولاقت ردود أفعال متباينة.

ومن سويسرا سافر تولستوي إلى ألمانيا ووصل في الرابع والعشرين من يوليو إلى بادن، حيث خذلته إرادته؛ إذ خسر فيها جميع أمواله على طاولة الروليت، واضطر إلى إرسال رسائل مُحرجة إلى كلٍّ من ألكسندرين وتورغينيف ونيكراسوف يتسول المال منهم. في الحادي والثلاثين من يوليو حضر تورغينيف بنفسه وأخرجه من ورطة الدَّيْن، حينها تحولت مؤقتا عبارات الاستهزاء التي كان يصف فيها تورغينيف في مذكراته إلى عبارات لطيفة من قبيل «فانيشكا رجل طيب القلب»... إلخ. بعدها قامر تولستوي مباشرة بجميع المال الذي اقترضه من تورغينيف، وذهبت بالتالي خططه للسفر إلى هولندا وإنجلترا أدراج الرياح وأُرغم على العودة إلى روسيا. كما تسلَّم رسالة حينها تخبره بأن شقيقته ماشا انفصلت عن زوجها مما شكل سببا آخر للعودة بسرعة. لم يكن الإخوة تولستوي يستلطفون فاليريان بيتروفيتش لكنهم

لم يكونوا يعرفون مدى فسقه. فقد تبيّن أنه حين لم يكن يُمضي وقته في رحلات الصيد أو في التردد على عشيقاته الفلاحات اللواتي أنجبن له عددا من الأطفال، كان يكشّر عن أنيابه ويعامل زوجته باستبداد وقسوة. وصف تورغينيف فاليريان بيتروفيتش بالقول: «إنه نسخة مقززة ريفية عن هنري الثامن». أما ما تمخَّض عن هذا الزواج من نعمة أنقذتْ الأم وجعلتها تتحمل سوء معاملة زوجها بصبر خلال عشر سنوات فهو أطفالها الثلاثة. لكن السيل قد بلغ الزبى في صيف عام 1857، إذ قررت ماشا أن تهجر زوجها وتتوقف عن لعب دور «السلطانة الأم» من بين حريمه (كان فاليريان حينها قد اتخذ أربع عشيقات، وكان يخطط بصراحة لاتخاذ الخطوة التالية؛ أي بمعنى أدق اتفق مع واحدة منهن على الارتباط به في حال «أصبح» أرملَ). وهكذا انتقلت ماشا إلى الجزء الذي تملكه في عزبة بيراغوفا وأصبحت جارة لشقيقها سيرغيه، أما تولستوي فقد ذهب إليها في اليوم التالي من وصوله إلى ياسنايا بوليانا.

للوهلة الأولى، شعر تولستوي بالسعادة لدى عودته إلى ياسنايا بوليانا، لكنه وجد أن الجانب «الفظّ» و«الزائف» من الحياة الروسية أصبح أكثر بروزا ووضوحا لديه، لا سيما حينما قارن غياب الحريات في روسيا ورسوخها الواضح في البلدان الأخرى حيث تكون مضمونة للجميع من دون عناء. ورغم أنه انجذب إلى رفاقه في الوطن عندما كان في الخارج (وهذا ميل تقاسمه مع كثير من المسافرين الروس)، وابتهج لدى رؤيته شجر البتولا مجددا، إلا أنه وجد العودة إلى بلاده تدعو للاكتئاب. ومع أن روسيا الإمبراطورية لم تعد دولة قمع كما كانت إبان عهد نيكولاي الأول، لكنها كانت بعيدة تماما عن تبني تلك الحريات المدنية التي شكّلت حجر الزاوية في الحضارة الغربية. كتب تولستوي إلى ألكسندرين: «روسيا بلد مروِّع، مروِّع، مروِّع»، وهو يصف لها أحداثا عرضية متعددة شهد فيها من الوحشية ما شهد خلال الأسبوع الأول من مجيئه، بما في ذلك رؤية سيدة تضرب خادمتها، ومسؤول يسحق رجلا مُسِنّا اعتقد على نحو خاطئ بأنه كان سبب تعثره.

دفن تولستوي نفسه بعدها في سماع بيتهوفن وقراءة الإلياذة. كما أعاد التفكير في بذل جهود إضافية لتحسين الترتيبات الواجب اتخاذها في التعامل مع خدمه الذين تحوَّلوا في نهاية المطاف من نظام السّخرة إلى نظام التحرر من الريع (أي دفع مبلغ مقابل تحريرهم من واجب الخدمة وتمكينهم من استصلاح الأرض لفائدتهم). لكن تولستوي بعد سنوات شعر بالندم لطلب المال من خدمه مقابل السماح لهم بإدارة أراضيهم. أما ما تبقى من ملكيات لديه فقد استعمل فيه عمالاً بالأجرة وحرر جميع الخدم العاملين في المنزل. وقد عكس الكثير من تجربته في التفاوض مع خدمه في الجزء الثالث من رواية «آنا كارينينا»، حيث يصف كيف أن صِدْق نوايا ليفين ألقى به الفلاحون عرض الحائط بسبب شكوكهم في نوازعه.

وفي أكتوبر من عام 1857 انطلق تولستوي مع شقيقته وأطفالها لقضاء فترة الشتاء في موسكو، واستقر بهم المقام في ميدان التُّجار القديم المعروف بزامَسْكْفاريتْشيه حيث كان يقطن الكاتب المسرحي أستروفسْكي. وقد انضم إليهم نيكولاي بعد أن استقال من الجيش للمرة الثانية والأخيرة. زار تولستوي بطرسبورغ مرتين في ذلك الشتاء، وأمضى في إحداها تسعة أيام في نهاية أكتوبر وقابل خلالها وزير الدولة لشؤون الملكيات، وتحدث معه عن مشروع معلق كان يدور في رأسه. كما أمضى وقتا مع ألكسندرين، واستمتع بمشاهدة عرض مسرحية ترافاتوري لفيردي (يذكر أن أوبرا سانت بطرسبورغ الإيطالية كانت في أوج شهرتها في ذلك الوقت). أما بخلاف ذلك، فكانت زيارته فيها من الجدّ ما فيها، مما دعاه إلى التأمل والإفاقة، لا سيما أن عمله الجديد لم يلقَ استحسانا بقدر استحسان أعماله الأولى. بالإضافة إلى أن انتقاده لبرجوازية الحضارة الغربية في قصته «لوسيرن» كان بمثابة تحدٍّ صارخ لنقاد من أمثال تشيرنيشيفسكي الذين كانوا متأثرين جدا بالأيديولوجيات الغربية. لكن تولستوي لم يكن مهتما بجعل القضايا الاجتماعية والسياسية المعاصرة موضوعات لكتاباته، حتى إنه فكر في تأسيس مجلة مناوئة لتلك التوجهات. وقد هُمِّش في وقت ما بسبب الصبغة العسكرية التي طغت على

النصوص الروسية التي اعتبر أصحابها أن الأدب ينبغي أن يكون سلاحا لإحداث التغيير الاجتماعي، وتجاهلوا بالتالي أي شواغل جمالية أخرى معتبرين أنها بالية.

كتب تولستوي إلى نيكراسوف في فبراير عام 1858 ليخبره بأنه يرغب في إنهاء عقده مع مجلة «المعاصر». وعندما ذهب إلى سانت بطرسبورغ في زيارة قصيرة في مارس سلَّم مخطوطَ آخرِ عملٍ سيُنشَر له في المجلة بعنوان «ألبرت»، وهي قصة شبيهة بقصة «لوسيرن» تتحدث عن موسيقي فقير، واستغرق تولستوي في كتابتها سنة كاملة. ورغم تأخر نشرها بسبب الرقابة إلا أن نيكراسوف لم يكن مستعجلا. وبالتالي قام بنشرها في عدد أغسطس؛ أي في توقيت لا يجتذب كثيرا من القراء، لا سيما أن المجلة لم تكن ترغب في نشر هذا النوع من الأعمال الأدبية بعد الآن. وتُشكل «ألبرت» تعبيرا آخر عن عقيدة ومبادئ تولستوي بشأن الفنّ الذي يجب أن يتناول من وجهة نظره الحقيقة الأخلاقية الأبدية (إيستينا)، عوضا عن الحقيقة الزائفة الزائلة للأيديولوجيا السياسية (برافدا). وكان دفاعه المستميت عن الجمال طريقة للرد على آراء تشيرنيشيفسكي. وربما ليس من باب المصادفة أنه زار متحف الإيرميتاج خلال زيارته القصيرة في مارس إلى بطرسبورغ، وهو المتحف الذي مثل إحدى أبرز المحطات القليلة لسياسة نيكولاي الأول الثقافية عندما اتخذ قرارا بفتح أبوابه للعامة عام 1852. وقد أنبهر تولستوي أكثر من أي شيء آخر بلوحات المناظر الطبيعية لروزديل، ولوحة «عودة الابن الضال» لرامبرانت، و«النزول عن الصليب» لروبنز.

خلال فصل الشتاء اتخذ تولستوي موقفا آخر للدفاع عن الفنون الجميلة من خلال تنظيم حفلات منتظمة أيام السبت بالإضافة إلى أنه حاول تأسيس «جمعية فنية». وكان أيضا في تلك الفترة يبحث عن زوجة. وفي ديسمبر عام 1857 بدأ يحصر خياراته في التركيز على البنت الصغرى للشاعر تيوتشيف. كان أيضا منجذبا بعض الشيء نحو شابة أخرى تدعى براسكوفيا شتشيرباتافا. لكنه في النهاية ورغم ما سمعه تورغينيف من إشاعات تفيد بأن مغامرته الرومانسية العابرة مع كاترينا تيوتشيفا أصبحت تنحو منحا جديا، لم يتزوج أيا منهما، لكنه وظّف أسماءهن

لاحقا في رواياته. وكانت كاترينا تيوتشيفا وشقيقتها داريا تُعرفان بـ«دولي» و«كيتي»، وكانت لديهما أخت كبرى تدعى آنا. وفي رواية آنا كارينينا يسمي تولستوي لقب كيتي؛ شتشيرباتسكايا، وهو ليس بعيدا عن شتشيرباتافا. عاد تولستوي في أبريل عام 1558 إلى ياسنايا بوليانا وقد أمضى الشتاء السابق يشارك في أنشطةَ اجتماعية تقليدية، لكنه الآن كان على وشك أن يهجر تلك الحياة التي زاولها منذ عودته من سيباستوبل ليستقر في الريف إلى الأبد.

ولم يتوقف تولستوي عن الكتابة في صيف عام 1858، لكنه كان يحبذ تخصيص هذا الوقت من السنة للعمل في الأرض. وقد انهمك بالفعل في الزراعة، فاشترى أحدث المحاريث وأفضل الأسمدة وقرأ آخر ما توصلت إليه التطورات في علم الفلاحة، وشغل نفسه بالبستنة وزراعة الأشجار في حديقة ياسنايا بوليانا، وبيع شتلات المشمش والخوخ والدراق والإجاص التي كان يزرعها في البيت الزجاجي/ الدفيئة. وعمل في حديقة الخضروات وفي الحقول يحرث ويبذر ويحصد، بالإضافة إلى ممارسة التمارين الرياضية لتعزيز صحة بدنه والاستمرار في العمل. وكما قال شقيقه نيكولاي: «أراد تولستوي أن يقوم بكل شيء دفعة واحدة، كل شيء، حتى الرياضة البدنية». كان القيّم على أملاكه يأتي في بعض الأحيان إلى ياسنايا بوليانا ليحصل على التعليمات، فيُحييه تولستوي وقدماه في السماء ورأسه المتورّد مُتدلٍّ إلى الأسفل من على عارضة حديدية نصَبها خارج نافذة مكتبه.

تكشَّف في ذلك الصيف جانب آخر من قوة تولستوي البدنية عندما وقع في غرام شابة فلاحة كانت تعيش في قرية على بعد 6 أميال من ياسنايا بوليانا، فأحبها أكثر من حبه لأيّ شابة أخرى في السابق. كانت أكسانا بازيكينا امرأة فاتنة للغاية وكان زوجها غائبا عن المنزل في معظم الأوقات، ولم يستطع تولستوي مقاومة حسنها فأقام معها علاقة جدية استمرت سنة كاملة، تُوِّجت لاحقا بأن أنجبت أكسانا طفلا اعتبره جميع من في ياسنايا بوليانا الابن غير الشرعي لتولستوي (وقد شب تيموفي وأصبح رجلا فارع القامة ذا شعر أشقر وعينين عسليتين وعمل حوذياً لحساب تولستوي). وسجل تولستوي في مذكراته لقاءاته الغرامية مع «أ» في الغابة والمرات التي انتظرها

فيها من دون جدوى. وقد اعترف في أحد السطور بأن شعوره ناحيتها كان بمثابة شعور الزوج نحو زوجته وليس شعور «الأعزب». لكنه في أواخر حياته اختبر مشاعر الندم المرير بسبب تلك العلاقة التي حوّلها إلى كتابة إحدى أواخر قصصه «الشيطان».

وبينما كان تولستوي يشعر بنشوة السعادة في صيف الحب عام 1858، كانت شقيقته مايا تتلوى شوقا لتتوِّج بنجاح تجربة رومانسية مؤقتة جمعتها بتورغينيف منذ لقائهما الأول عام 1854، لا سيما أنها الآن أصبحت حرة طليقة من أسر زوجها المرعب. لكن تورغينيف لم يعد إلى روسيا في تلك السنة، مما أشعرها بالحزن وفاقم من وحدتها. أما تولستوي فقد شعر بالحنق نيابة عن ماشا لأنه كان مؤمنا أنه من الخطأ أن يُقدّم شخصٌ عروضاً بالارتباط بسيدة شابة وينكث بوعده ولا يتقدم لخطبتها، لا سيما أن تولستوي كان يعلم أن تورغينيف كان مُتيَّماً بمغنية الأوبرا المتزوجة بولين فياردو ومتفانيا في حبها ويلاحقها في أرجاء أوروبا. وقد شكَّل ذلك عنصرا مهما في التدهور السريع لعلاقة تولستوي بتورغينيف.

وفي الشتاء عندما لم يكن من السهل أن ينطلق تولستوي في سعيه السري ليبحث عن أكسانا كان يصطاد الحيوانات عوضا عن ذلك. في أواخر ديسمبر عام 1858، دُعي مع أخيه نيكولاي للذهاب في رحلة لصيد الدببة مع بعض الأصدقاء؛ إذ كان صيد الدببة وهي في سباتها الشتوي تقليدا متبعا في روسيا، فتسلَّح تولستوي ببندقيتين وخنجر وقتل دُباً في اليوم الأول، لكنه كاد أن يُقتل في اليوم الثاني على يد دبّ آخر بعد أن وجل من صوت العيار الناري. وخلَّفت تلك الحادثة ندبة مستدامة على جبين تولستوي وقصة يقصُّها على الآخرين لبقية عمره على مأدبة الطعام (وقد صاغها لاحقة قصةً للأطفال). كان تولستوي رجلا صلبا قوي الشكيمة لم تردعه إصابته عن الذهاب مجددا إلى الغابة بعد أسابيع قليلة ليقتل الدب الذي اعتدى عليه. وهذا ما حصل بالفعل وانتهى المطاف بجلد الدب أن أصبح بِساطَاً في ياسنايا بوليانا. خرج تولستوي أيضا في ربيع ذلك العام لاصطياد الذئاب والثعالب، لكنه لم يهجر الكتابة منذ أن استقر به المقام في ياسنايا بوليانا، فنشر في يناير عام 1859 قصة أسماها «ثلاث حالات موت»، وهي

قصة عن الفن والأخلاق يقارن فيها بين موت حوذي وشجرة وامرأة إقطاعية صعبة المراس. وتندرج في خانة قصتيه السابقتين؛ «لوسيرن» و«ألبرت»، إذ لاقت أيضا ردود أفعال باردة غير مفهومة. لكن عملاً أطول نُشر أيضا في ذلك العام، وهو رواية قصيرة أسماها «السعادة الزوجية» واعتمدت حبكتها على تجاربه السابقة مع فاليري أرسينيفا (إذ يتزوج رجل كهل بفتاة صغيرة السن تعمل خادمة عنده). بعدها امتعض تولستوي من ذلك العمل ولم يكن راضيا عنه، بالإضافة إلى أنه لم يلق استحساناً لدى الجمهور أيضا رغم ما فيه من خصائص أدبية مميزة ليس أقلّها أن الرّاوي امرأة. أضف إلى ذلك أن تولستوي حاول في هذا العمل أكثر من أي عمل آخر أن يتصارع مع تورغينيف باعتباره الصورة الرمزية للأب المربي في مجال الأدب. فأراد تولستوي أن يكفّ عن العيش في جلبابه مصمماً على أن يختطَّ مسارا خاصا به.

ربما بدأت شهرة تولستوي في صفوف القراء الروس تخفت بعض الشيء في تلك الفترة، لكن رواياته بدأت تُدرُّ عليه مالا وفيرا. فقد دفع له ميخائيل كاتكوف مبلغ 1500 روبل مقابل روايته «السعادة الزوجية» التي نُشرت في مجلة «الرسول الروسي»، وهي المجلة التي كان كاتكوف يترأس مجلس محرريها. ويذكر أن تولستوي قام بصرف المبلغ مباشرة في لعبة بلياردو صينية (لعبة شبيهة بلعبة الباجاتيل وتُلعَب على لوح). بعدها توقف تولستوي عن نشر أي أعمال جديدة على مدار ثلاث سنوات تقريبا لأن ما استرعى اهتمامه حينئذ كان التعليم العام، بعدما أدرك أن الفلاحين كانوا مُصرين على رفض عرضه بتحسين ظروف حياتهم لأنهم ببساطة لم يكونوا متعلمين لدرجة تخولهم فهم أنه أراد بذلك مصلحتهم. لذلك صمَّم على تعليمهم القراءة والكتابة. ففي الخمسينيات من القرن التاسع عشر كانت نسبة المتعلمين في صفوف سكان الأرياف أقل من ستة بالمئة؛ فلم يكن ثمة مدارس حكومية في الأرياف حتى الابتدائية منها. أما ما كان يتعلمه الفلاحون فنزرٌ يسيرٌ وتعليم بدائي غير مجاني يحصلون عليه على يد كاهن القرية أو أي جندي متقاعد فيها (فقد كان تعليم القراءة والكتابة إحدى الحسنات القليلة للخدمة العسكرية). وقد كان المدرسون يتبعون أسلوب التلقين في التدريس، وكانوا

يلجؤون إلى العقاب الجسدي أيضا. ولم يكن الإقطاعيون ملزمين بتعليم خدمهم وفلاحيهم؛ ذلك أنه من غير المستغرب أن القليل منهم تعلّم لأن الفلاحين أصلا في روسيا كانوا يعاملون بسوء وكأنهم أشباه بشر لم يرتقوا إلى مستوى الإنسانية بعد. ولم يكن تولستوي راضياً عن إدخال السكك الحديدية والتليغراف وأشكال الحداثة الأخرى في روسيا دون تعليم العامة أولا وقبل كل شيء.

في أكتوبر عام 1859 أعاد تولستوي فتح مدرسته لأطفال الفلاحين في ياسنايا بوليانا على أساس أكثر جدية من ذي قبل. توجَّسَ الفلاحون بداية من هذا المشروع لأن شيئا لم يتغير عن السابق (فقد دفع تولستوي تكاليف كل شيء من ماله الخاص)، لكن بحلول مارس عام 1860 التحق 50 طالبا بالمدرسة؛ فتيان وفتيات وبعض البالغين أيضا. وكانت أول مهمة اضطلع بها تولستوي كمُدرس إدخال مساحة من الحرية في التجربة التعليمية. لذا سمح للطلبة بأن يأتوا ويغادروا كما يحلو لهم، وحَظَرَ العقاب الجسدي، وأدخل منهاجا قويا مؤلفا من 12 مادة. لكنه مع ذلك أولى اهتماما خاصا بمرونة التعليم لسد حاجات الطلبة أولا قبل سد حاجات المدرسين، وكان ذلك التوجه سابقا لعصره بالفعل.

لقد وفرت تجربة مدرسة ياسنايا بوليانا لتولستوي إشارات لما شعر بأنه قد يكون هدفه الحقيقي وقضيته الأساسية في الحياة، ذلك أن صوت ضميره بدأ يخفت فقط عندما اتخذ تدابير عملية لاحقا ليخلص روسيا من عبء ديْنها الهائل تجاه طبقة الفلاحين الحبلى بالجهل. ومع مرور الأيام وكرّ الليالي أدرك تولستوي أن قدره سيتلخص في تحدي التفكير التقليدي السائد، لا سيما بعد أن بدأ يشعر حينئذ بأنه انتحل منتحلا خاصا به، وكان مرتاحا لذلك.

في مايو عام 1860 سافر شقيقا تولستوي؛ سيرغيه ونيكولاي، إلى ألمانيا. وكان نيكولاي يعاني وقتها من مرض السل، كما عانى أخوه ديمتري من قبل، فقصد مع أخيه سيرغيه حمامات مدينة سودن لتلقي العلاج. أما شقيقتهم ماشا المصابة بوسواس المرض فكانت تشعر أنها ليست على ما يرام، فقررت بدورها أن تسافر لتلقي العلاج بصحبة أطفالها الثلاثة. عندها قرر

تولستوي السفر معها. وكانت الدروس قد توقفت في المدرسة في ذلك الصيف على أي حال لأن الأطفال أرادوا مساعدة آبائهم في الحقول. وقد وجد تولستوي نائبا رائعا له اسمه بيوتر ماروزفا، وهو طالب لاهوت سابق ليتولى عنه مهمة التعليم ريثما يعود من سفره. وقد قرر تولستوي السفر إلى أوروبا لينهل من معارفها، لا سيما تلك المتعلقة بمناهج التدريس والتعليم عموما، وبالفعل غاب عن ياسنايا بوليانا لسنة تقريبا.

وبعد أربعة أيام من مغادرته سانت بطرسبورغ وصل تولستوي إلى برلين. واصطحبت ماشا فاريا ونيكولاي وليزا لينضموا إلى نيكولاي وسيرغيه في سودن، بينما ذهب تولستوي إلى بادكيسنغن على بعد 60 ميلا لأنه حينها كان مهتما بالتعرف على طرق التدريس الألمانية أكثر من اهتمامه بالمياه المعدنية. وهكذا، توجه إلى المدارس المحلية بعد يوم من وصوله فرُوِّع بسبب ما رآه من التعليم القسري بالتلقين والتساهل في اللجوء إلى العقاب الجسدي. كما بدأ أيضا دراسة وتلخيص أعمال نظرية مختلفة عن أصول علم التدريس. كما أدرج على قائمة مطالعته عملا مهمـاً لكارل جورج فون رومر، مؤلفا من أربعة مجلدات، ونُشرَ مؤخرا بعنوان «تاريخ علم أصول التدريس من إحياء الدراسات الكلاسيكية حتى يومنا الحاضر». وقد سُرّ تولستوي عندما اكتشف من خلال قراءة هذا العمل بأن مارتن لوثر كان رائدا في مجال التعليم العام / الشعبي، وأن آراءه الخاصة بضرورة إتاحة قدر كبير من الحرية في التعليم والتعلم كان قد رفع لواءها مونتين في القرن السادس عشر. أراد تولستوي في خطوة تالية أن يتحدث إلى المعلمين العاملين في القرى المحيطة ببادكيسنغن، وقابل أيضا سياسيا هو ابن أخت فريدريك فروبيل الذي أسس نظام الحضانة، وقابل ويليام هينريك رايل الذي بدأ نشر «التاريخ الطبيعي للشعب الألماني كأساس للسياسة الاجتماعية الألمانية».

وبعد ثلاثة أشهر من إقامته، زاره شقيقه المريض نيكولاي الذي كانت حالته الصحية تزداد سوءاً. وقد أوصاه الأطباء بضرورة الذهاب إلى مكان ذي مناخ أقل برودة. وهكذا، في نهاية أغسطس، سافر معه تولستوي، بصحبة شقيقتهما ماشا وأولادها إلى هايرس في جنوب فرنسا.

وفي العشرين من سبتمبر؛ أي بعد أسبوعين من وصولهم، توفي نيكولاي بين ذراعي أخيه. استذكر بعدها تولستوي من خلال رسائله لسيرغيه أنهم كانوا يحبون نيكولاي ويكنون له الاحترام أكثر من أي شخص آخر في هذه الدنيا. بالفعل، فقد اعتبر تولستوي نيكولاي أعزّ أصدقائه، وبالتالي شكل موته ضربة موجعة غير متوقعة. لم يلتزم نيكولاي بوعده الجليل، وكان قد نشر في فبراير عام 1857 أقصوصة محبوكة بشكل جيد في مجلة «المعاصر» عنوانها «الصيد في القوقاز» لكنه لم يُتبعها بأيّ عمل آخر. وفي خضم الحزن الذي اعتراه، انسحب تولستوي إلى مرسيليا حيث زار ثماني مدارس ابتدائية وذعر مجددا من النهج الباهت ضيق الأفق المتّبَع في تعليم النشء الشاب.

بقي تولستوي مع ماشا وأولادها في هايرس حتى نهاية السنة، ثم سافر في بداية عام 1861 إلى نيس وفلورنس حيث كان متلهفا لرؤية الأمير الديسمبري المُسنّ سيرغيه فولكونسكي بعد إصدار العفو عنه، وكان يمتُّ له بصلة قربى بعيدة. ومن هناك سافر إلى ليفورنو ونابولي وروما حيث التقى الرسام نيكولاي جي الذي سيصبح لاحقا صديقا مقربا له. استمتع تولستوي برؤية إيطاليا، لكنَّ تركيزه كان ما يزال منصبـًا على التعليم وفنونه ومناهجه. ووصل إلى باريس في فبراير فانطلق لزيارة المدارس الفرنسية مسلحًا برسالة توصية من وزارة التربية والتعليم الروسية. وقد جمع أيضا عددا لا بأس به من الكتب المختصة بأصول التدريس شحنها جميعا إلى ياسنايا بوليانا. وفي الأول من مارس سافر إلى لندن لأول مرة، فعانى من ألم أسنان شديد دفعه إلى التحامل ضد الإنجليز. ولكن للأسف ثمة معلومات موثقة شحيحة عن رحلته الوحيدة إلى إنجلترا، لكننا نعلم أن المحامي والصحفي الضليع ذا العلاقات المميزة هنري ريف كان قد رعى ودبر عضويته الفخرية في نادي أثينويم في بول مال من الخامس من مارس حتى السادس من أبريل.

أما أهم لقاء له في لندن فكان الذي جمعه بالمفكر الاشتراكي ألكسندر هيرزن الذي هاجر من روسيا عام 1847. وفي عام 1852 استقر هيرزن في لندن حيث أسس أولا الصحافة

الروسية الحرة، وأسس بعدها الصحيفة المرموقة «الجرس» التي كانت تحثُّ روسيا على إجراء الإصلاحات الضرورية. تردَّد تولستوي على منزل هيرزن الفخم المسمى أورست هاوس (الواقع على ويستبون تيراس بالقرب من بادنغتون) مرات عديدة خلال ستة عشر يوما قضاها في إنجلترا. وفي السابع من مارس كتب هيرزن إلى تورغينيف يخبره بأنه تشاجر مع تولستوي الذي كان من وجهة نظره «عنيد المراس» يتحدث«هراء»، لكنه مع ذلك كان شخصا «طيب القلب» و«لوذعيا». وأمضى تولستوي في الحادي عشر من مارس ثلاث ساعات في البرلمان، حيث سمع رئيس الوزراء اللورد بالميرستون يدلي بخطاب عن السياسة البحرية، فوجده تولستوي مملا للغاية. أما ما لم يدعُهُ للسأم فهي القراءة التي سمعها من تشارلز ديكينز في المساء التالي في قاعة سانت جيمس في البيكاديلي، تشارلز الذي كان أحد أحب الكُتّاب إلى قلبه (وكذلك لدى كثير من الروس أيضا). ومع ذلك كانت أولوية تولستوي هي التعرف على منظومة التعليم في بريطانيا. ففي الثاني عشر من مارس وبمساعدة من ماثيو أرنولد، وهو مفتش تربوي كان قد عُيِّن أستاذا للشعر في أوكسفورد عام 1857، زار تولستوي المدرسة العملية في كلية القديس مرقس في تشيلسي، حيث طلب من الأولاد في المدرسة في الشعبة «ب3» أن يكتبوا له مقالا. رتب أرنولد له أيضا زيارات لمدارس ابتدائية في بنثال غرين وبرانتفورد سبيتالفيلد وهوكستون ووستمنستر وستراتفورد، لكن تولستوي لم يكتب مذكراته في الفترة التي كان فيها في إنجلترا، لذلك من غير المعلوم أين توجه تحديدا. بيد أننا نعلم أنه كان يستمتع بالعمل في المكتبة الملحقة بمتحف ساوث كنسينغتون، التي احتوت على العديد من المواد التدريسية اللافتة، أما متحفا فيكتوريا وألبرت فقد افتُتحا منذ سنتين.

وفي اليوم الذي غادر فيه تولستوي لندن، نشر أخيرا في السابع عشر من مارس (الخامس من مارس في روسيا) بيان تحرير الرق ومنع العبودية الذي وُقّع في الثالث من مارس (التاسع عشر من فبراير في روسيا) في الذكرى السادسة لتولي ألكسندر الثاني العرش. وقد صيغ البيان من قبل المطران فيلاريه بلغة طنانة متحذلقة عن عمد، لكي تُقرأ في كل كنيسة وتُنشَر في كل صحيفة،

مما جعل تولستوي يغضب لأن الفلاحين لن يستطيعوا فهم محتوى البيان. كما أنه سخط بسبب نبرة البيان الذي بدا وكأنه يسدي للفلاحين خدمة ويقدم لهم عطايا عوضا عن أن يكون تصحيحا لظلم فادح لحق بهم. وقد كان تولستوي محقا في مشاعر الغضب التي انتابته؛ لأن شروط تحرير الفلاحين لم تحسن من أوضاعهم رغم أنهم لم يعودوا الآن ملكية من ملكيات الإقطاعيين.

كانت محطة تولستوي التالية هي بروكسل، حيث التقى السياسي الاشتراكي بيير جوزيف برودوه؛ مؤلف كتاب «الفكرة العامة للثورة في القرن 19» (عام 1851)، بالإضافة إلى أعمال أخرى. كما التقى أيضا بالسياسي البولندي يواخيم ليلويل الذي اشترك في انتفاضة وارسو عام 1830. وزار أيضا المدارس البلجيكية وأُخذت له صورة مغايرة تماما عن الصورة الأولى التي أخذت له في روسيا. فتلك التي أخذت في سانت بطرسبورغ أظهرت ضابطا بملامح جدية وشوارب وشعر قصير أجعد. أما هذه الصورة فقد ارتدى تولستوي فيها أبهى ما عنده من ثياب ومعطف طويل وقبعة جميلة، وكان قد بدأ بإطلاق اللحية التي ستصبح جزءا أصيلا من شخصيته. توّج تولستوي أسفاره بعد بروكسل بجولة أخيرة استمرت لأشهر زار خلالها أنتويرب وفرانكفورت وإيزيناخ وفيمار حيث طاف على عدد من المدارس أيضا. أراد أن يعود إلى بلاده حينها، لكنه أراد أيضا أن يستغل وجوده في أوروبا ليطَّلع على أكبر عدد من المدارس وينجز مهمته. لذلك لم يحدد تاريخ عودته (الذي بدا أنه بعيد جدا) لأنه استأنف جولة أخرى، فأقام في يينا ودريسدن وفيْمار حيث التقى جوستاف كيلر وهو مدرس رياضيات شاب دعاه للذهاب إلى ياسنايا بوليانا للتدريس في مدرستها. أما محطته الأخيرة فكانت برلين، حيث سعى إلى مقابلة الكاتب بيرثولد أورباخ الذي تأثر به تولستوي كثيرا بفضل كتابه القيّم (المنسي في أيامنا هذه) «حياة جديدة» (عام 1851)؛ والذي دفعه في المقام الأول لاتخاذ قرار بتأسيس مدرسته في ياسنايا بوليانا لتعليم أولاد الفلاحين. فقد وجد تولستوي مواطن مشتركة كثيرة بينه وبين الشخصية الرئيسية في العمل «يوجين بومان» الأرستقراطي الذي يتحول ليصبح مدرسا في

القرية، ومن دون أن يُقدّم اسمه ويعرّف عن نفسه توجه تولستوي ببساطة إلى أورباخ وأعلن قائلا: «أنا يوجين باومان»[111]. فقد كان متلهفا بالفعل للقاء أورباخ، وسجل اللقاء ووضع خمس عشرة علامة تعجب في الفقرة التي تحدَّث فيها عن ذلك اللقاء في مذكراته.

وصل تولستوي أخيرا إلى بطرسبورغ في الثالث عشر من أبريل، وقبل أن يكمل رحلته إلى ياسنايا بوليانا رتَّب لقاءات مع مسؤولين في وزارة التربية ليطلب رخصة رسمية لتأسيس مجلة تعليمية. وقد حصل عليها (لكنَّ أحداً في الوزارة لم يستشرف حينها كيف ستشكل أفكار تولستوي التعليمية ثورة على الاتجاه التعليمي السائد في المستقبل). عاد تولستوي إلى عزبته بحلول مايو وبدأ ترتيب الصفوف الدراسية في بستان التفاح، لكنه شعر بالملل مجددا، فسافر في نهاية الشهر إلى سباسكوي-ليوتوفينوفا لزيارة تورغينيف الذي كان قد نشر مؤخرا رواية «آباء وبنون»، وهي الرواية التي تسبر أغوار الصدام بين جيل الستينيات من «العدميين» الراديكاليين الجدد وجيل الأربعينيات من المخضرمين القدماء. قرأ تورغينيف الرواية على مسامع تولستوي، لكن الأخير وجدها تدعو للسأم فما لبث أن غطّ في النوم وهو يسمعها. شعر تورغينيف بالإهانة البالغة، وبعد يومين شبّ بينهما شجار بسبب أمر تافه عندما ذهبا لزيارة فيْت في عزبته الريفية التي اشتراها مؤخرا. شعر تولستوي هذه المرة بالإهانة لدرجة أنه تحدى تورغينيف ليقاتله في مبارزة. وأرسل في طلب السلاح من عزبة نيكولسكوي القريبة التي ورثها عن أخيه الراحل نيكولاي، وأصيب بالأرق في تلك الليلة انتظارا للمبارزة التي لم تحصل البتة. لكن ضررا بليغا لحق بصداقتهما ولم يُصلح بعدها قط، فقد توالت طفرة من الاتهامات المضادة والاعتذارات والرسائل المتبادلة التي لم تصل إلى المكان الصحيح أحيانا، أو قُرئت بعد فوات الأوان أحيانا أخرى. وتفاقم الوضع بسبب شائعات كانت تدور حول وجود نسخ من تلك الرسائل انتشرت في موسكو. كان تولستوي يعتبر تورغينيف رجلا رعديدا جبانا وكان

(111) Ich bin Eugen Baumann.

يتقزز من مذهبه الليبرالي ولم يغفر له ضعف الشغف لديه. واتفق الرجلان أخيرا على قطع جميع الاتصالات بينهما.

لم يكن تورغينيف الشخص الوحيد الذي احتدَّ النقاش معه في ذلك الربيع. فبُعيْد عودته إلى ياسنايا بوليانا من رحلته في الخارج أُخبر تولستوي بأنه عُيّن قاضيَ صلح في مقاطعته من قبل حاكم تولا الليبرالي؛ ذلك أن الحكومة في تلك الفترة قررت أن يكون المحكّمون من طبقة النبلاء لكي يشرفوا على تطبيق بيان حظر العبودية ويتوسطوا بين الإقطاعيين والفلاحين. ولم تكن المهمة سهلة بالنسبة للنبلاء؛ إذ شكلت تحديا بالغا لتولستوي لأن جيرانه المحافظين كانوا يمقتونه أصلا لأنه حرَّر فلاحيه وخدمه قبل صدور البيان. وبالفعل، وقع الخلاف معهم جميعا في الشهر الأول من الاضطلاع بمهمته، فقد اعتبر العديد من النبلاء حيازة الخدم وأقنان الأرض حقا إلهيا حباهم الله به. لذلك اعتبروا قانون تحرير الرق كارثة ماحقة، وفي رأيهم فإن ألكسندر الثاني سرق ممتلكاتهم، وتساءلوا: ماذا بحق الله سيفعل الفلاح بحريته الشخصية؟ فالفلاح الحرّ في نظرهم هو بمثابة كلب شارد غير خليق بكسرة خبز، لا يلبث أن يعود إلى حزنه ووضاعته. لم يخطر ببال النبلاء الروس الرجعيين أن الفلاحين هم بشر مثلهم، ولم يدرْ في خلدهم أنهم هم المسؤولون بقدر مسؤولية النظام أيضا عن تفشي الجهل والبؤس في أوساط الفلاحين الذين كان معظمهم يلجأ إلى الخمر. وبالتالي كان النبلاء الرجعيون يتطلعون إلى قضاة الصلح ليساعدوهم في الحفاظ على مصالحهم ويصطفّوا إلى جانبهم. لكن تولستوي كان يميل كليا إلى صف الفلاحين، إذ كانت مصلحتهم تشكل رأس أولوياته، وكان يرى السواد الأعظم من زملائه النبلاء على أنهم متطفلون سفلة. وقد سارع جيرانه إلى تقديم سلسلة من الشكاوى ضده (وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بذلك جماعة) مما جعل تولستوي يفرك راحتيه تعبيراً عن نشوة الفرح. فقد كان يستمتع بفضح الـ«كريبوستنيكي»[112] (المدافعون عن نظام الرق) بسبب

(112) Крепостники (Krepostniki).

قسوتهم وعدم نزاهتهم، ولم يكن يرتدع حتى عندما كان يتسلَّم رسائل تهديد وشتم، أو حتى عندما كان يُدعى لمنازلة المبارزة.

ومما زاد الطين بلة في عيون النبلاء أن تولستوي أراد تعليم الفلاحين، وهذا ما زاد من بغضهم له. فقد بدا الأمر لهم مضحكا وسخيفا. فكيف يمكن لكونت وضابط متقاعد أن يصبح معلما؟ بينما بدت بالنسبة لهؤلاء المدافعين الأشاوس عن روسيا البطريركية/ الذكورية فكرة تأسيس مدرسة لتعليم أولاد الفلاحين فكرة مستهجنة. ومع ذلك، فقد ازدهرت مدرسة ياسنايا بوليانا؛ إذ كانت الوحيدة في المقاطعة برمتها. لكن تولستوي أراد فتح فروع إضافية، سيما أن عدد الفلاحين في المنطقة ناهز تسعة آلاف. وهكذا، افتتح إحدى وعشرين مدرسة محلية بحلول خريف عام 1861، مستفيدا طبعا من موقعه كقاضي صلح. وافتُتحت المدارس في أكواخ الفلاحين، ولم يكن ثمة مقاعد أو كراسيَّ أو سبورات سوداء؛ لأن لون الجدران استحال إلى الأسود بسبب قذارتها وشكَّلت بالتالي أماكن مثالية للكتابة عليها بالطباشير. وعمل القساوسة والجنود السابقون مُدرّسين، بالإضافة إلى توظيف تولستوي لطلاب سابقين من خريجي الجامعات كانوا بحاجة إلى فرص عمل؛ ذلك أن مظاهرات واحتجاجات عارمة اندلعت في أكتوبر الماضي عندما أدخلت الحكومة سلسلة من الإصلاحات الجامعية رديئة الإعداد، من بينها الحضور الإلزامي والرسوم التي لم يستطع كثير من الطلاب دفعها، فطُرد بالتالي العديد منهم. وكان تولستوي يدفع للجامعيين المعلمين خمسين كوبيكا شهريا عن كل طالب يدرّسونه. وهكذا كان الواحد منهم يتقاضى راتبا شهريا بواقع عشرة روبلات كمعدل وسطي، كما أنهم كانوا يحصلون على إكرامية لقاء مساهماتهم في مجلة ياسنايا بوليانا.

نشر العدد الأول من مجلة ياسنايا بوليانا في يناير عام 1862 وتبعه أحد عشر عددا. ورغم أن بعض المقالات كان يكتبها المدرّسون إلا أن محرر المجلة تولستوي كان له حصة الأسد في كتابة المحتوى. وعرض لنا مثلا في العدد الأول مشهدا عن الحياة اليومية في المدرسة:

«ما من طالب يُحضر أي لوازم معه، فلا كتب ولا دفاتر ولا شيء، ولا يُكلَّفون بأي واجب منزلي أيضا. ولا يقتصر الأمر على عدم حمل أي شيء في أيديهم ولكنهم لا يحملون أي شيء في أدمغتهم أيضا. فهم غير ملزمين بتذكر الدروس ولا أي من عمل البارحة. ولا يعذَّبون بفكرة ترقب الدرس القادم بوجل، فيأتون بأرواحهم وأجسادهم وطبيعتهم وفطرتهم ليمتصوا المعلومات دون أيّ أعباء أخرى، مع ضمانة أن البهجة التي خبروها البارحة في الصف ستُعزَّز اليوم أيضا على النحو نفسه. ولا يُوبَّخ أحد مطلقا إذا تأخر عن الدرس، ويجلسون أينما يشاؤون، على المقاعد والمناضد وعتبات النوافذ والأرض أو الكراسي. ووفقا للجدول ثمة أربع حصص قبل الغداء، لكن أحيانا تُقلَّص إلى ثلاث حصص أو اثنتين، وربما تُستبدَل مواضيع بمواضيع أخرى. في رأيي هذا الاضطراب الخارجي ضروري ومفيد بصرف النظر عن كونه غريبا وغير مريح وفقا للمدرس. أولاً، لأن هذا الاضطراب أو النظام الحر يخيفنا نحن لأننا تعلَّمنا وتعودنا على شيء مختلف تماما. ثانيا، في هذه الحالة كما في كثير من الحالات الأخرى، يوظَّف القسر والإكراه بسبب الاستعجال أو غياب الاحترام لطبيعة البشر».

اعتمد تولستوي نهجاً تعليمياً محوره الطلبة فكانت الحرية التامة للتعلّم أساسا له. وبالإضافة إلى حديثه عن الأنشطة المدرسية المتنوعة تناول تولستوي في مقالات مطولة في مجلة ياسنايا بوليانا طرقه التدريسية، محاجاً بالقول بأن النظام الأوروبي الذي يتبجح به كثيرون هو في الحقيقة نظام معيوب، ولا يمكن تطبيقه في روسيا التي يجب أن تختار نظاما تعليميا خاصا بها. وقد ألحق بأعداد المجلة مواد للقراءة خاصة بالأطفال تنضوي على قصص أَلَّفها الطلاب في المدرسة أو ألفها معلموهم. بالإضافة إلى مقالات مقتضبة تتناول مواضيع تاريخية صيغت بلغة مبسطة سلسة واضحة لتسهُل قراءتها من قبل الأطفال. بذل تولستوي جهودا مضنية هائلة في مدارسه وكان يحبُّ جميع الطلاب الفلاحين. وقد بادله الأطفال المحبة لا سيما أنه أصبح في تلك الفترة بمثابة واحد منهم؛ يرتدي ملابس كما يرتدون ضاربا بعرض الحائط جميع الشكليات والرسميات والبروتوكولات التقليدية. لقد كان تولستوي بالطبع

حكواتيا مميزا، لكنه انهمك أيضا في أنشطة بعيدة عن اختصاصه إذا ما صح التعبير، كالعراك بكرات الثلج والتزحلق على الثلج من المنحدرات العالية في الشتاء. أما في أيام المرفع (الأيام العشرة التي تسبق الصوم الكبير)، فقد كان يدعو 100 طفل من مختلف القرى لتناول طعام البْليني[113] في ياسنايا بوليانا. وفي عيد الفصح كان يوزع على الأطفال هدايا وأقلام رصاص والهارمونيكا (آلة نفخ موسيقية) وقِطعًا من القطن الخام لتستخدمها أمهاتهم لحياكة قمصان لهم.

وبينما وافقت وزارة التربية على أنشطة تولستوي التدريسية، اتخذت وزارة الداخلية موقفا آخر تماما. فقد اعتبرت، كما اعتبر خصوم تولستوي من الإقطاعيين في المقاطعة، مدارس تولستوي بؤرا ساخنة للفوضى والتمرد. وقد شكل قدوم طلاب راديكاليين إلى المدرسة القشة التي قسمت ظهر البعير، ما دفع الشرطة السرية إلى فتح ملف بشأن تولستوي وأنشطته في يناير 1862، وأدرجت أسماء أشخاص خطرين قابلهم تولستوي في أسفاره من قبيل هيرزن وليلويل، بالإضافة إلى توظيفه طلابا نشطين سياسيا، ومجموعة المشاكل التي أثارها عندما كان قاضيا للصلح. وقد سرّ جيران تولستوي من الإقطاعيين لتزويد الشرطة العسكرية بسلسلة من الشكاوى، من بينها ما زعموا أنه طابعة سرية (صحافة مطبوعات سرية)، وقد بدأ ملف الأدلة ضد تولستوي يتضخَّم بالفعل.

ومن جانب آخر، كان نشر رواية تورغينيف «آباء وبنون» في مارس عام 1862 بمثابة انفجار عظيم، لا سيما أن الجو المتوتر قد تفاقم بسبب مظاهرات الفلاحين وقلاقل الطلاب إبان فترة تحرير الرق. وقد خلق تورغينيف في بطل الرواية الرئيسي، الشاب خريج الجامعة العدمي بازاروف، أول رازنوتشينيتس[114] في الأدب الروائي. لكن الآباء والأبناء على حد سواء شعروا خلال الرواية أنه سخر منهم، فولَّدَتْ الرواية بالتالي عاصفة من الجدل. وكما علق مترجمها

(113) Блины (Bliny).

(114) Raznochinets.

الأول إلى الإنجليزية بعد بضع سنوات: «ولّدت الرواية انتقادات مستعرة ونميمة ووشايات وهجمات فتاكة، وبالطبع، كلما انتُقدت الرواية ازداد عدد قرائها». وبالتالي لاقت الرواية نجاحا باهرا أكثر من أي كتاب روسي آخر. وربما كان تولستوي الرجل الوحيد في روسيا الذي وجد الرواية تدعو إلى السأم، فقد كان يفكر في ذلك الربيع بأمور أخرى؛ فالتوتر الذي سببه زملاؤه من قضاة الصلح، بعد أن عطلوا جميع مبادراته وأكوام الأوراق التي ولّدتها مهنته قاضيا، كانت موهنة لعزيمته وبدأت تُشعره بالمرض. وهكذا اعتزل منصبه في أبريل من عام 1862، مما جعل جميع خصومه من الإقطاعيين ينتشون فرحًا وهم الذين أرادوا الانتقام من الرجل الذي دمَّر معيشتهم الفاسدة. انطلق تولستوي بعدها بفترة بسيطة إلى سهوب سمارا بصحبة اثنين من طلابه المفضلين وخادمه ألكسي، وقد كان هدفه من الرحلة تناول حليب المهر كعلاج يهدئ به أعصابه، لكن جيران تولستوي العدوانيين انتقموا منه شر انتقام لاحقا في صيف تلك السنة، ففي يوليو من عام 1862، بعيد إغلاق الحكومة لمجلة «المعاصر»، اعتُقل تشيرنيشيفسكي بتهمة إعلان حرب دعائية ثورية، ونُفي على إثر ذلك إلى سيبيريا. كما داهمت الشرطة السرية في الشهر نفسه ياسنايا بوليانا وقامت بتفتيش العزبة على مدار يومين على أمل أن يجدوا مواد تدعو إلى التمرد وقلب النظام في مدارسه. وتعرضت العمة توانيت لصدمة كبيرة بسبب اقتحام الشرطة الذي أفسد عليها طمأنينتها في منزلها فأصبحت مريضة. كما تحملت شقيقة تولستوي ماشا، التي كانت تعيش هناك في تلك الفترة وتنام في مكتب شقيقها، وطأة ما قام به درك القيصر وهم يعبثون بأوراق تولستوي ويقرؤون كل ما كتبه. نقَّب رجال الشرطة وفتشوا المنزل برمته بدقة بما في ذلك الأقبية والمراحيض واعتقلوا اثني عشر طالبا مُدرّسا. لكنهم في نهاية المطاف أُرغموا على المغادرة خالي الوفاض. استشاط تولستوي غضبا عندما علم بالأمر بعد عودته من سمارا في نهاية شهر يوليو. وقد نفّس عن كربه وعبّر عن سخطه في رسالة ريّانة بالعواطف الجياشة بعث بها إلى ألكسندرين وشرح فيها ما يعنيه العمل في المدارس ومدى أهميته بالنسبة له قائلا: «لقد مثّل العمل في المدرسة حياتي كلها وديْري وكنيستي التي وجدتُ فيها خلاصي

وأنقذت نفسي من أوهام وظنون وإغراءات الحياة». ولأنه خشي أن يكون ما قامت به الشرطة قد ألحق الضرر بسمعته واستقامته بشكل يصعب إصلاحه في عيون الفلاحين، قرر عندها إغلاق المدرسة. وبالفعل، غادر جميع المدرسين بحلول الربيع التالي (بينما انتقل جوستاف كيلر، معلم الرياضيات الألماني الشاب، لتدريس غريشا، ابن سيرغيه تولستوي). لكنْ ثمة سبب آخر دفع تولستوي لإغلاق المدرسة، وهو أنه أخيرا وجد نصفه الآخر وأراد دخول عش الزوجية.

الفصل السابع

الزوج.. مربي النحل.. والشاعر الملحمي

أصبح الأسلوب الملحمي الأسلوب الطبيعي الوحيد الموائم لفطرتي..

مدخل من مذكراته، 3 يناير 1863.

في وقت ما من خريف عام 1862 فوجئ تولستوي بزيارة من أب وابنته الشابة، ينتميان إلى أسرة كان تولستوي قد ساعد في إجلاء أفرادها خلال حصار سيباستوبل. وتفاجأ الزوار بدورهم عندما اكتشفوا أن تولستوي أصبح زوجًا. وتوالت المفاجآت عندما هُرعت زوجته إلى غرفة الضيوف لتستقبل الزوار ولم تستطع الشابة الزائرة الجميلة الطويلة أن تشيح بوجهها بعيدا عن صوفيا أندرييفنا[115]، ولم تتمالك نفسها فهتفت: «ماذا!!! ليف نيكولايفيتش، هل هذه الفتاة الشابة زوجتك؟». بالفعل، كانت صونيا فتاة صغيرة بلغت الثامنة عشر من عمرها لكنها بدت أصغر حتى من سنها، إذ كانت ترتدي فستان صوف بنيا قصيرا عوضا عن ارتداء فستان أنيق كما هو عهد أي كونتيس جديدة بحسب توقعات الزوار. وكان تولستوي قد وصّى على ذلك الفستان الصوفي، واشتراه لها لكي يسهّل عليه الاتصال بزوجته بعيداً عن تعقيدات التنورة المنتفخة المطوقة بالأسلاك الفولاذية والفساتين ذات السلاسل الطويلة التي كانت سائدة في ذلك الزمان. كما أنه لم يكن يؤمن بأن ثيابًا رسمية كتلك يمكن أن تكون مناسبة للريف على أيّ حال.

---

(115) Софья Андреевна (Sophia Andreyevna).

حملت صونيا بعد زواجها مباشرة. واستمرت في ارتداء الملابس الفضفاضة العادية. أما رداء زوجها المفضل في الريف فكان قميص صوف واسعا رمادي اللون بحزام على الوسط، وسروالا مثنيّا من الأسفل في حذاء طويل الرقبة.

كان تولستوي يعيش في تلك الفترة أسعد أيام حياته، رغم أن التفاوت بين الزوجين كان واضحا للغاية. فقد كان في الرابعة والثلاثين وكان يدرك تماما أن عروسه ما تزال طفلة. وقد أشار إليها بالطفلة في مذكراته. بالإضافة إلى أنه كان يصغر أمها، لوبوف ألكسندروفنا بيرز بسنتين فقط، وكان على معرفة بها منذ الطفولة لأن والده كان صديقا لأبيها. أما صهره الأصغر فياشيسلاف فقد كان رضيعا يبلغ من العمر سنة واحدة عندما تزوج بأخته صونيا، ومع كل ذلك كان تولستوي مرتاحا تماما لصغر سن عروسه. وقد علق ابنهما سيرغيه لاحقا بالقول إن أباه كان متيما بحب أمه في الفترة الأولى من الزواج. لكنه أراد أيضا شخصاً يمكن له أن يثقِّفه ويُقوْلبه بحسب ذائقته. وقد قبلت صونيا بسعادة مرجعية زوجها الأخلاقية منذ البداية، حتى إنها وصفت نفسها بـ«ابنته البكر» في رسائل بينهما في السنوات الأولى من زواجهما. وفي إحدى الرسائل الأخرى طمأنت زوجها بالتشديد على أنها لم تنسَ «مشورته الأبوية».

كان ثمة اختلاف أيضا في المكانة الاجتماعية، إذ ينوه سيرغيه في بداية مذكراته إلى أن أباه لم يكن راغبا في الزواج من الطبقة الأرستقراطية. وبما أن صونيا كانت ابنة طبيب ينحدر من سلالة عائلة ألمانية مهاجرة، ولكونها امرأة نبيلة من الدرجة الثانية، فلم يكن بإمكانها التفاخر بنسبها. لكنها بعد أن تزوجت حصلت على لقب زوجها وتبنت آراء زوجها وأصبحت تسمى «الكونتيس تولستوي» وقد راق لها ذلك. فبعد أن تخلى زوجها لاحقا عن لقبه لم تتخلَّ صونيا عنه مطلقا، واستمرت بالتوقيع باسم «غرافينيا س. أ. تولستايا» (غرافينيا هو الاسم الروسي المشتق من الاسم الألماني غرافين). لم تكن صونيا قادرة على الغوص في الأفكار الفلسفية والدينية التي كان زوجها يجترها اجترارا والتي ألهمت زوجها ليغيّر من أسلوب حياته؛ لأنها

ببساطة كانت منشغلة بتربية الأولاد. لذلك لم تستطع أن تتخلى عن القيم التي غرسها تولستوي بعناية فيها، لا سيما في العقود الأولى من الزواج، لتعيش فجأة حياة مغايرة تماما.

كان جد صونيا الأكبر يدعى يوهان بارز (أو بيرز)، وهو ضابط في حرس الخيالة في ساكسونيا، إذ عكس شعار الفرقة دباً يطرد سرباً من النحل، وهو موائم تماما للقب الذي اشتق من الكلمة الألمانية لكلمة بير (دب). أُرسل إيفان بيرز، كما أصبح يعرف بعد تقمّص الاسم الروسي إيفان، إلى بطرسبورغ من قبل الإمبراطورة ماريا تيريزا في منتصف القرن الثامن عشر، ليقدّم العون للإمبراطورة إليزابيث في مجال تدريب الجيش الروسي. وقبل أن يُقتَل عام 1758 وهو يشارك في معركة زورندورف، كان قد تزوج وأنجب ابنا سماه إيفستافي (غوستاف)، ترعرع وعاش في موسكو وأصبح صيدلانيا، ثم تزوج امرأة من أسرة روسية ذات أصول ألمانية أيضا. خسر إيفستافي جميع أمواله وممتلكاته إبان حريق موسكو الكبير عام 1812، لكنه استطاع من خلال معارفه الألمان أن يوفر لابنيه تعليما مميزا، فقد أصبحا طالبين في جامعة موسكو عام 1822، وتدربا ليغدوا طبيبين في الفترة التي كان يتدرب فيها أشهر الأطباء الروس على الإطلاق في القرن التاسع عشر، نيكولاي بيراغوف. تزوج أندريه (المولود سنة 1808) وهو أحد الطبيبين الأخوين، وأنجب صونيا زوجة تولستوي.

لم تكن مهنة الطب تثير اهتمام الأرستقراطيين في روسيا، كما لم تكن ذات اعتبار رفيع في بداية القرن التاسع عشر؛ لأن الأطباء عادة ما كانوا ينحدرون من طبقات متواضعة وفقا للسلم الاجتماعي. ففي الوقت الذي تخرج فيه الإخوة بيرز، وهما في العشرين من عمرهما، كان معظم الأطباء المحترمين من الأجانب الذين ينحدرون من طبقات اجتماعية متواضعة. أصبح أندريه بيرز في العشرينيات من القرن التاسع عشر طبيب آل تورغينيف (عندها كان الكاتب العظيم لا يزال طفلا) وسافر معهم إلى باريس، وقد تفانى خلال السنتين اللاحقتين في تحصيل المزيد من العلم ومشاهدة الأوبرا الإيطالية. ويبدو أن والدة تورغينيف المهيبة التعيسة في زواجها قد حملت منه وأنجبت طفلة غير شرعية سمتها فارفارا وأصبحت وصية عليها (مما

يعني أن تورغينيف الكاتب هو أخ غير شقيق لصونيا زوجة تولستوي). وبعد أن عاد أندريه بيرز إلى موسكو بدأ يعمل طبيبا في مجلس الأعيان في الكرملين، ثم ما لبث أن عُين طبيب البلاط إبان حكم نيكولاي الأول. وقد وفر له المنصب الجديد شقة حكومية ضيقة ذات سقوف واطئة، وُلدت فيها صونيا عام 1844 بمحاذاة قصر الكرملين، مقر القيصر المهيب الفخم، الذي يحتوي على 700 غرفة للإقامة.

لم تكن أسرة بيرز أسرة ثرية، ورغم أنه كان لديها خدم يعملون على سد حاجاتها، إلا أنها لم تمتلك قط عزبة ريفية أو أيا من أقنان الأرض. وبما أن أندريه بيرز كان يعمل في الدولة فإنه بالتالي دخل الخدمة المدنية وسُلَّمَ الدرجات الوظيفية. وهكذا عزز من مكانته الاجتماعية. وبالفعل، فقد رُقّي أخيرا عام 1842 إلى الدرجة الثامنة في سلم وظائف المقيمين الاعتباريين في الدولة. وعليه، أصبح أندريه إستافيفيتش مؤهلا ليصبح من النبلاء ويورث سلالته ذلك الامتياز، لكنه مع ذلك لم يرتق إلى مستوى الشابة الأرستقراطية لوبوف إسلافينا، وهي المريضة التي عالجها ووقع في غرامها واقترح عليها الزواج. فبخلاف كونها تنتمي إلى أسرة روسية أرستقراطية قديمة (رغم أنها من الفروع غير الشرعية)، فإنهم اعتبروه أفضل من التجار بقليل. كان بيرز في تلك الفترة قد بلغ الرابعة والثلاثين، وكان يُعتَبر لوثريا (من أتباع لوثر)، لكن رغم كل ذلك تم الزواج وأنجب أندريه ولوبوف بيرز ثمانية أولاد، وكانت صونيا تحتل المرتبة الوسطى بين أختين تلقَّين جميعهن تعليما منزليا على يد مربيات ألمانيات. وعندما بلغت صونيا السادسة عشرة حصلت على شهادة تدريس خاصة من جامعة موسكو عام 1860، وكانت حينها قد تعرفت على أسرة تولستوي من خلال بنات شقيقة تولستوي الثلاث، اللواتي كن يتشاركن معهن دروس الرقص كل يوم سبت طيلة فصل الشتاء. وقد كانت ماشا صديقة لأمها منذ الطفولة، وعندما كانت الأخوات بيرز يأتين لزيارة فاريا وليزا ونيكولا في المنزل، يأتي العم ليف ونيكولاي للجلوس معهن في بعض الأحيان.

وعندما بدأ تولستوي بزيارة آل بيرز خلال رحلاته إلى موسكو، اعتقد الجميع بأنه مهتمٌ بالابنة الكبرى إليزافيتا (ليزا). لكنه في صيف عام 1862 حوّل اهتمامه نحو صونيا. وكانت تلك الأشهر حافلة بالأحداث. فعندما داهمت الشرطة السرية ياسنايا بوليانا كان تولستوي يتداوى بعيداً في سهوب شعب البشكير بجرعات لبن الخيل (الكوميس) بسبب وعكة أصابته. وقد سمع بتلك المداهمة فقط عندما زار آل بيرز في موسكو في طريقه عودته إلى ياسنايا بوليانا نهاية يوليو/ تموز. وبعد أيام استقبل بعض الضيوف، وكانت لوبوف ألكسندروفنا وبناتها الثلاث وابنها الصغير في طريقهم لقضاء أسبوعين في عزبة أبيها آيفيستي التي لم تكن بعيدة عن عزبة تولستوي. لذا قررت لوبوف أن تمضي مع أسرتها ليلة في ياسنايا بوليانا التي لم تزرها لوبوف منذ الطفولة. وعندما وصلت تفاجأت لرؤية العشب المتنامي في المكان الفارغ حيث كان المنزل القديم الذي فكّكه المالك الجديد وبناه في عزبته. أما الجناح الذي عاش فيه تولستوي فلم ينوِ استخدامه كمنزل رئيسي، بل كان جناحا مكتظا بالأشخاص؛ القاطنين الرئيسيين (تولستوي والعمة توانيت وصاحبتها ناتاليا بيتروفا) وأخته ماشا التي كانت لا تزال هناك بالإضافة إلى خمسة ضيوف إضافيين. رتبت الأسرة الأرائك البيضاء والزرقاء المخططة في الأسفل لتنام عليها الشقيقات الثلاثة ليزا (27 سنة) وصونيا (18 سنة) وتانيا (16 سنة)، وبعد أشهر قليلة ستغدو هذه الغرفة ذات الأثاث القديم المتواضع (الإسبارطي) المكان الذي سيجلس فيه تولستوي لكتابة رواية «الحرب والسلام».

وبعدما ارتحن قليلا وتجولن في المنزل تلهفت بنات المدينة من آل بيرز للذهاب إلى الحديقة لقطف بعض التوت. في الأثناء، نسي تولستوي انشغالاته بالأحداث المزعجة التي حصلت أخيرا وافتتن بجمال وشخصية ابنة لوبوف ألكسندروفنا الوسطى. وما أن حطّت أقدام أفراد الأسرة في عزبة «آيفيستي» حتى أطلّ عليهم «الكونت» كما كانوا يسمونه وهو راكب على صهوة جواده الأبيض. وهنا بدأ بالتواصل مع صونيا من خلال تهجئة الأحرف الأولى لكلمات معينة بالطبشور، الأمر الذي سيوثقه لاحقا في رواية «آنا كارينينا» عندما وصف كيف تودد ليفين

لكيتي. ويمكن للمرء أن يندهش من قدرة صونيا على فهم الكلمات التي تقف وراء الأحرف الأولى التالية: «ف.ع. ر.خ.ع. ط.ع. ب.ل. أ. و. أ. ت. ي. أ. ت.ع.»، التي تعني بالعربية: «في عائلتكم رؤية خاطئة عن طبيعة علاقتي بليزا، أنت وأختك تانيا يجب أن تدافعا عني». بعد أسبوع قرر تولستوي السفر بصحبة آل بيرز إلى موسكو، وقد أمضى بعدها أسبوعين يذهب يوميا لزيارتهم في بيتهم الصيفي على بعد 5 أميال شمال العاصمة وهو يزداد غرقا في غرام «ص» كما يشير إليها في مذكراته.

خلال تلك الفترة المصحوبة بالنشوة، حاول تولستوي التركيز على مقالة في علم أصول التدريس كان يكتبها، لكنه لم ينجح، ومع ذلك حرر رسالة قوية اللهجة أرسلها إلى ألكسندر الثاني، تَظَلَّم فيها بأشد العبارات حول تفتيش عزبته:

«أعتبر أنه من غير الخليق بي أن أؤكد لجلالتكم بأن المهانة التي لحقت بي لم أكن أستحقها، فماضيَّ ومعارفي وأنشطتي في خدمة تعليم العامة، التعليم المفتوح للجميع، وأخيرا المجلة التي عبرتُ فيها عن قناعاتي العميقة تُثبت لجميع من يهتم بأمري بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أكون متآمرا أو متواطئا في توزيع منشورات تحثّ على القتل أو إحراق المباني الحكومية أو غيرها. وبخلاف المهانة وشبهة القيام بأنشطة إجرامية، وبخلاف الخزي الذي لحق بي بسبب رأي المجتمع بما جرى، والشعور المستمر بالتهديد الذي أضطر أن أعيش وأعمل في ظله نتيجةً لتلك المداهمة، فقد شُوِّهت سمعتي في عقول الناس وأصبحَتْ في الحضيض، السمعة التي أمضيت سنوات طوال لصقلها وتهذيبها، والتي تعتبر حاسمة في النشاط الذي اخترت القيام به؛ تأسيس مدارس لتعليم الناس».

كان ألكسندر الثاني حينها يزور موسكو، مما يعني أن الرسالة أمكن تسليمها له باليد. لم يكترث القيصر بالرد على تولستوي، لكنه وكّل الأمير دولجوروكوف، رئيس الشرطة العسكرية، بإرسال رسالة تبريرية مبطنة المعاني معسولة بالتّوْريات لحاكم تولا ليرسلها بدوره إلى تولستوي.

ولحسن الحظ أن تولستوي كانت تشغله أمور أخرى حينها، فعوضا عن العودة إلى ياسنايا بوليانا، بقي في موسكو عندما عاد آل بيرز إلى شقتهم في الكرملين في بداية سبتمبر. ولمرة في حياته أوقفته مشاعره الرومانسية عن المبالغة في التحليل الذاتي. ففي السنة الماضية عندما كان ينظر ويُقلّب سمات امرأة بغرض الارتباط بها حذرته شقيقته قائلة: «استحلفك بالله ألّا تلجأ إلى التحليل الدقيق، لأنك ما أن تبدأ بالتحليل فإنك دائما ما تجد حجر عثرة في كل قضية لا اعوجاج فيها أصلا، ومن دون معرفتك الإجابة عن أسئلة لماذا؟ أو ماذا؟ تنسحب من المسألة وتولّي من دون رجعة». راوغ تولستوي في تلك الفترة بالفعل وانسحب من الارتباط بتلك الفتاة، لكنه في هذه المرة تحرك بسرعة لأنه ربما عرف مخاطر التفكير العميق وتقليب الأمور. وقام يوم الأحد في السادس عشر من سبتمبر بطلب يد صونيا، وبعد إلحاح منه تزوجا بعد أسبوع فقط من عرض الزواج.

لم يقتصر الأمر على حقيقة أن الخطبة لم تدم سوى أسبوع واحد مما جعل زواجهما استثنائيا بالفعل، ولا أيضا على توتر صونيا الرهيب الذي منعها من أكل أي شيء بخلاف الخبز الأسمر والخيار المخلل طيلة الأيام التي سبقت الزواج. بل أكثر من ذلك؛ وهو أن تولستوي عرض على خطيبته خيارات ثلاثة هي: العودة للعيش مع أهلها، أو قضاء شهر عسل في الخارج، أو بدء حياتهم الجديدة فورا في ياسنايا بوليانا. وقد اختارت صونيا الخيار الثالث ورفضت السفر إلى الخارج، بل لم تغادر روسيا بعدها البتة. تأكد تولستوي من إعطاء مذكراته القديمة لصونيا لكي تقرأها لأنه لم يرد أن يخفي عنها تفاصيل ماضيه. لكنها دُهشت بعد قراءة المذكرات، سيّما أنها كانت فتاة غضة بريئة غير مجربة تنقصها الخبرة الحياتية. أضف إلى ذلك أنها شعرت بالحزن بسبب ما أسمته لاحقا «الإفراط في يقظة الضمير». ورغم أنها كانت منذ شهر قد قدمت له قصة ليقرأها تلخص تجربة مرت بها، وتصف فيها فتاة شابة يتودد لها أمير «قبيح على نحو استثنائي»، وذو آراء متقلبة، فإن تلك القصة كانت تختلف تماما عن القصص التي قرأتها في مذكراته، والتي تلخّص مغامراته الجنسية وارتباطاته الرومانسية بالحسناوات من

الفلاحات. فقد تألمت كثيرا من قراءة تلك القصص، بالرغم من أن تولستوي كان قد تاب من تلك الأفعال. ولم تسنح الفرصة للوبوف ألكسندرفنا لتحوك لابنتها جهاز العروس. ولم تكن الأم سعيدة تماما بهذه الترتيبات، واستمرت لفترة بتبني نبرة متعالية في حديثها مع تولستوي، واستمرت في مخاطبته بلقبه حين كان طفلا «ليوفوشكا[116]». أما الأب فقد استشاط غضباً وعارض الزواج في البداية لأنه تعاطف مع ابنته البكر لشعورها بالإهانة لغياب فرصة زواجها قبل أختها الأصغر صونيا. لكنه ما لبث تدريجيا أن تصالح مع الواقع، إذ كان كلا الوالدين على دراية تامة بأهلية تولستوي لهذا الزواج وغياب فرصة إيجاد رجل بمستواه للابنتين الأخريين.

حُدد موعد العرس في الثامنة مساء، لكنه تأخر لساعة ونصف. ففي خضم معمعة حزم الحقائب للاستعداد للسفر إلى ياسنايا بوليانا بعد الزفاف مباشرة، نسي خادم تولستوي أن يُبقي له على قميص نظيف ليرتديه. وهكذا عند دخول الإشبين عليه في منزل آل بيرز ليعلن عن أن العروس في انتظاره في الكنيسة، اقتحم ألكسي ستيبانوفيتش الشقة وأخذ يبحث في الأمتعة عن قميص نظيف لسيده. على أي حال، أجري حفل الزفاف في كنيسة مهد السيدة العذراء في قلب الكرملين على بعد دقائق من شقة أهل العروس. تلك الكنيسة الصغيرة التي يعود بناؤها إلى أواخر القرن الرابع عشر، وهي الأقدم من بين جميع مباني الكرملين الأخرى. وقد أصبحت في القرن التاسع عشر جزءا من قصر الكرملين المهيب الذي بناه القيصر نيكولاي الأول. (أما اليوم فكل ما يمكن للمرء أن يراه من تلك الكنيسة القديمة هو الرقبة البيضاء للقبة الوحيدة الذهبية التي ترتفع فوق سقف القصر الأخضر. ويُذكَر أن الكنيسة لم تعد إلى ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية وهي غير متاحة للزيارة من قبل العامة). وبخلاف الكاتدرائيات المهيبة القريبة منها، حيث تعقد المناسبات الخاصة بالدولة، خُصصت هذه الكنيسة ليرتادها العاملون في الكرملين والقاطنون فيه. وهكذا امتلأت الكنيسة في حفل زفاف تولستوي بمن لم توجه له دعوات من العاملين الفضوليين في بلاط الكرملين، بالإضافة إلى عدد قليل من الضيوف

(116) Левушка (Lyovochka).

المدعوين. لم يحضر الزفاف أحد من آل تولستوي غير عمته بولينا التي صحبت صونيا في العربة المتوجهة إلى الكنيسة مع أخيها ذي التسعة أعوام، فالوديا، الذي حمل أيقونة القديسة الشهيدة صوفيا التي بوركت بها صونيا من قِبل عمها وأمها. وكان سيرغيه موجودا في تلك الفترة في موسكو لكنه توجه إلى ياسنايا بوليانا لكي يجهّز هناك حفلة استقبال لائقة بالعروسين. أما شقيقته ماشا فكانت في مرسيليا.

في وقت متأخر من المساء وبعد شرب نخب شمبانيا الزفاف وبعد الالتزام بالتقاليد الروسية في الجلوس وتلاوة الصلوات قبل السفر، انطلق العروسان في عربة جديدة من طراز دورميو كان قد اشتراها تولستوي خصيصا لهذه المناسبة. وهي عربة متينة، ذات إضافات يمكن أن تُوظَّف لتتحول إلى سرير يرتاح عليه المسافرون، تجرُّها ستة جياد يقودها حوذي وسائق. وجدت صونيا فراق الأهل أمرا صعبا للغاية، فهي لم تفارقهم من قبل مطلقا. بالإضافة إلى أنها لم تسافر مطلقا في الخريف أو الشتاء، ناهيك عن السفر ليلا. تحركت العربة تحت أنوار مصابيح شوارع موسكو التي ما لبثت أن تحولت إلى ظلمات دامسة بمجرد مغادرة المدينة، بينما كانت الأمطار تهطل بغزارة أيضا. ولم تكن صونيا تجرؤ حتى تلك اللحظة على تحويل صيغة الجمع الرسمية «أنتم» في مخاطبة زوجها إلى صيغة المفرد التلطيفية «أنت»، كما أنها كانت مرعوبة لأنهما لم يسبق لهما أن اختليا بعد. تحدث الزوجان بالكاد مع بعضهما بعضا قبل أن يصلا إلى نُزل في محطتهما الأولى في بيرْيُوليفا على بعد 15 ميلا جنوب موسكو حيث أمضيا ليلة الدخلة. كتب تولستوي في مساء اليوم التالي بعيد وصولهما أخيرا إلى ياسنايا بوليانا عبارات بليغة مختصرة في دفتر مذكراته، وصف فيها حالة زوجته النفسية في الليلة الفائتة من قبيل: «كانت على دراية بكل شيء»، «يا لخوفها»، «شيء مؤلم بالفعل». ومرّ أسبوعان وصونيا ما تزال تجد صعوبة في التصالح مع «التجليات الجسدية الجنسية» لعلاقتهما، تلك التجليات التي وجدتها مخيفة مرعبة رغم أنها اكتشفت أهميتها القصوى بالنسبة له.

استقبلهما سيرغيه في المنزل وقدم لهما الخبز الروسي التقليدي والملح كآية على الترحيب بهما، كما كانت العمة توانيت في استقبالهما أيضا وهي تحمل أيقونة العائلة للسيدة العذراء (والدة الإله المتجسد). انحنت صونيا انحناءة وقار أمامهما ورسمت إشارة الصليب وقبّلت الأيقونة أولا ومن ثم العمة توانيت، وقام تولستوي بالشيء نفسه. وخلال الأيام القليلة القادمة تعرفت صونيا على أفراد الأسرة الذين كانوا يتقدمون للزوج السعيد بالتهاني والتبريكات، بمن فيهم الطاهي نيكولاي ميخائيلوفتش، وراعية الأبقار آنا بيتروفنا، وابنتاها آنيوشكا ودوشكا، وأغافايا ميخائيلوفنا، والخادمة المسنة للجدة بلاغيا نيكولايفنا التي كانت دائما وأبدا تحيك الجوارب حتى وهي تمشي، والمرأة الظريفة المسؤولة عن الغسيل أكسينيا مكسيموفنا، وبنتاها الحسناوان بوليا ومارفا، بالإضافة إلى الحوذي والبستاني وخباز الفطائر وعدد كبير من الفلاحين والخدم الآخرين في العزبة والقرى المحيطة بها. وكانت والدة صونيا امرأة حكيمة فأعطتها 300 روبل لكيلا تعتمد مادياً في الفترة الأولى على زوجها. لكن المبلغ شارف على النفاد لأن صونيا صرفته على شراء الهدايا للمهنئين. لذلك اضطرت بعدها أن تعتمد كليا على زوجها في الأمور المالية رغم أنها كانت لا تُحبّذ طلب المال منه. لكن زوجها، كما تقول في مذكراتها، لم يُشعرها مطلقا بأنها عروس معوزة من دون مهر، ولم يشعرها أبدا أن ثروته هي ملكه الخاص فقط.

أصبحت ياسنايا بوليانا مملكة صونيا الخاصة التي سوف لن تغادرها على مدى ثماني عشرة سنة قادمة إلا نادرا. ووكلت توانيت صونيا بإدارة وتدبير المنزل مباشرة وسلمتها مجموعة هائلة من المفاتيح في حلْقة أصبحت لاحقا تربطها بالحزام على وسطها. لم تعش صونيا حياة مرفهة، لكنها اندهشت بسبب تقشف (أو تقريبا فقر) محيطها الجديد، فقد اعتاد زوجها النوم على وسادة متسخة من الجلد الأحمر القاتم لا غطاء لها، ولم يكن ثمة حمام في المنزل، لذلك عزمت صونيا على تغيير كلّ ذلك.

وعندما وصل جهازها حلت آنية المائدة الفضية مكان المعدنية القديمة، وحلّ اللحاف الحريري مكان القطني، ولدهشة تولستوي بطَّنته أيضا بملاءة. بالإضافة إلى أنها طرزت حرفي «ل-ت» باللون الأحمر على ملابسه الداخلية. وبعد أن وجدت دويبات وحشرات طفيلية مقززة في حسائها في أحد الأيام، قررت التصدّي لمشكلة قلة النظافة في المطبخ وفرضت على العاملين فيه ارتداء سترات وقبعات بيض. ومن ثم اضطلعت بمسؤولية قائمة الطعام اليومية. ومع الأيام خرجت بكتاب طهي لياسنايا بوليانا أدرجت فيه 162 وصفة طعام لكل شيء، من «الحجل مع صلصة سمك الرنجة بالبهارات» و«الإوز بالفطر» و«كيف تطهو سمك الكراكي»، ومن ثم وصفات لأطباق تقليدية كان تولستوي يحبها كنفيخة اللوز بالبيض المخفوق، وحلوى الخبز الأسمر، أو وصفات خاصة بآل بيرز كشطيرة التفاح، وجعة ماروسيا مالاكوفا بالليمون (تعليق: مذاق لذيذ جدا). أحبت صونيا الطاهي نيكولاي ميخائيلوفتش رغم أنه كان يتغيّب عن العمل أحيانا بسبب إدمانه الكحول لتأتي زوجته المرِحة وتعوض مكانه. فقد كان نيكولاي عازفًا على الناي/ الطنبور في أوركسترا خدم الأمير المُسِنّ فولكونسكي في السابق، ومن ثم تحول إلى طاهٍ عندما فقد القدرة على استخدام أسنانه وشفتيه في العزف كما أخبر صونيا وهو يبتسم ابتسامة ملتوية حزينة.

شكلت الأيام والأسابيع الأولى، بينما كان ليف وصونيا يعيدان ترتيب المنزل، مزيجا من السعادة القصوى والمناوشات الحتمية بسبب العادات المختلفة لكل منهما. بالإضافة إلى التوقعات المختلفة لشخصين بالكاد يعرفان بعضهما بعضا. كتب تولستوي إلى ألكسندرين بعيد وصوله إلى ياسنايا بوليانا ليخبرها أنه لم يكن يعلم أن بإمكان المرء أن يبلغ السعادة القصوى، كما أخبرها بأنه يحبُّ زوجته أكثر من أي شيء آخر في العالم. وعلّق في مذكراته بأنه اختبر في تلك الفترة «فرحا استثنائيا»، لكن ما لبث بعد أيام أن سجل في الدفتر نفسه أنه وقع في مشادة مع زوجته وعبَّر عن حزنه لاكتشافه بأن علاقتهما لم تكن تختلف عن علاقة أي زوجين آخرين. في الأثناء، استأنفت صونيا كتابة مذكراتها التي بدأتها منذ سنتين ولجأت إلى التنفيس

عن نفسها كلما شعرت بأنها بدأت تفقد عطف وحنان زوجها. بالفعل، فقد بدأت بفقدان اهتمامه بها، إذ كان تولستوي يشغل نفسه بالأمور المنزلية وينعم بالسعادة الزوجية ضمن سقف زمني معين. أما إن طالت فترة الابتعاد عن الانهماك في القضايا الفكرية فإن ذلك كان يشكل له مصدر انزعاج رهيب. فبعد ثلاثة أسابيع من زواجهما دوّن في مذكراته: «انهمكت طيلة الفترة الماضية بقضايا تسمى عملية، لكنني أجد هذا التسكع أمرا صعبا، لا أستطيع احترام ذاتي إن استمررت على هذا النحو، لذا فأنا غير راض عن نفسي ولست واضحا في علاقاتي مع الآخرين.. لذا يجب عليّ أن استأنف العمل..».

أولا وقبل كل شيء، كان تولستوي قد تأخر عن إصدار عدديْ أغسطس وسبتمبر من مجلة ياسنايا بولياتنا. فقد سئم من تلك المجلة، لكنه أراد أن ينهي مقالتين كان قد بدأهما لتنشرا في المجلة. تناولت إحدى تلك المقالتين فكرة تولستوية مفادها أن المعلمين في واقع الأمر يمكن لهم أن يتعلموا من الأطفال الفلاحين أكثر مما يتعلمه هؤلاء منهم. وفي نهاية سبتمبر أرسلت ليزا، شقيقة صونيا الكبرى، مقالة مقتضبة كان تولستوي قد فوضها لكتابتها عن لوثر، معتقدا أنها يمكن أن تشكل إحدى أهم المحطات التاريخية التي كان يأمل من خلالها أن يستفز أطفال الفلاحين ويسترعي اهتمامهم. لكن صونيا امتعضت من انخراط تولستوي مع الفلاحين، ربما بسبب ترقيتها المفاجأة لمقام الكونتيس، أو ربما بسبب غياب زوجها عنها وغيرتها من كل ما يصرف انتباهه عنها. ولأنها ترعرعت ونشأت في المدينة فقد كان الفلاحون بالنسبة لها غرباء من كوكب آخر. لهذا لم تفهم في تلك الفترة ولا بعدها سرّ تفاني زوجها في التعامل معهم. بالفعل، لم تشاطره البتة حبه للموجيك[117] مما ولد لديه ضيقا في الصدر. لكنْ ثمة سبب آخر لامتعاضها وغيرتها، فقد قرأت بوجل ورعب مذكراته التي تتحدث عن علاقته الغرامية بالحسناء الفلاحة أكسينيا بازيكينا وتعقيباته التي زعم فيها أنه وقع في غرامها «كما لم يقع في غرام أي شخص آخر من قبل»، كما علمت صونيا أنها يمكن أن تلتقي بأكسينيا في أي وقت لأن

(117) الفلاح الروسي.

الأخيرة لم تبرح المكان، بالطبع، بل بقيت تعمل في العزبة. كتبت صونيا في مذكراتها في السادس عشر من ديسمبر عام 1862: «بدأت بقراءة بدايات أعماله وشعرت بالغثيان والتقزز من كل المواضع التي يأتي فيها على ذكر الحبّ والنساء. أرغب في إضرام النار بجميع أعماله لكيلا أضطر أن أُذكَّر دائما بماضيه».

المشكلة هي أن انخراط تولستوي مع طبقة الفلاحين كان انخراطا خلاقا ولغويا أيضا. فقد برهن له القتال في القرم وجودَ هوة واسعة بين طبقة المتعلمين وطبقة الفلاحين. لذلك تردد في الاستمرار في الكتابة عن طبقة النبلاء بشكل حصري، وأراد أن يجسر تلك الهوة ليس فقط من خلال كتابة الروايات التي تكون فيها الشخصية الرئيسية من طبقة الفلاحين، بل أراد أيضا أن تكون لغته بسيطة وأسلوب كتابته سلساً قريبا من لغة وأسلوب الفلاحين أنفسهم. وقد قام بتجارب على ذلك النحو؛ إذ بدأ كتابة قصص عديدة لم تكتمل وعاد إليها لاحقا في الشهور الأولى بعد زواجه. وساعدته صونيا في إتمام إحدى تلك القصص من خلال طباعة نسخة جيدة جاهزة للنشر. وهكذا بدأ ما سيغدو بعد فترة شراكة استثنائية مثمرة، حيث عملت صونيا ككاتبة مختزلة ناسخة لأعمال زوجها، وكانت تقوم بخدمة جليلة في فك رموز تعليقاته وتعديلاته الخطية التي كانت بالكاد تُقرأ، والتي كان يحشو بها هامش صفحات مسوداته بخط ملتوٍ. وكانت «بوليكوشكا» القصة الأولى التي نسختها صونيا ونُشرت في بداية عام 1863، وهي قصة تتحدث عن شرور نظام الرق. بدأ تولستوي أيضا بكتابة قصة أخرى تعرضت لحياة الفلاحين عنوانها «تيخون ومالانيا»، لكنه في وقت ما من شهر ديسمبر 1862 توقف عن العمل فيها فجأة. ومن المرجح أن يكون ذلك متعلقا بسبب بسيط، هو أن الشخصية الرئيسية «مالانيا» كان قد استقاها من تجربة حياة أكسينيا. لم يعد إلى تلك القصة مطلقا لكنها نشرت لأول مرة بعد وفاته.

حَرَفَ الزواج تولستوي عن المسار الذي كان يقترب به إلى عالم الفلاحين الذي بدأه منذ فترة. وبالتالي، باشر الآن بمسار آخر طويل مثمر شكل انعطافة أفضت إلى كتابة روايتي

«الحرب والسلام» و«آنا كارينينا». لـم تكـن مسـارات هـذه الحقبـة متكـررة ومتنوعـة كمـا كانـت مساراته في العشرينيات من عمره، لكنها لم تكن أقل حـدةً. فقـد تجاهـل لسـنتين ونصـف جميـع الفنـون بينمـا كـان غارقـا في أنشـطته التعليميـة الثوريـة. ومـن ثـم اضـطلع بـدور قاضـي صـلح في المحكمة الابتدائية. أمـا الآن فقـد أصبـح مسـتعدا لتجاهـل العمـل في خدمـة الفلاحـين والعـودة عوضا عن ذلك إلى الجو الثقافي لطبقة الأرستقراطيين التي ينتمي إليهـا. لكنـه قبـل ذلـك أراد أن يسدِّد التزاماته للناشر ميخائيل كـاتكوف الـذي أقرضـه ألـف روبـل في فبراير عـام 1862 ليسـدد الدين الذي تراكم عليـه بسـبب القمـار. وكانـت تلـك المـرة الأخيـرة التـي قـامر فيهـا تولسـتوي، ووفقا لشروط الاتفاق يحصل كـاتكوف لقـاء دفعـه ألـف روبـل علـى حـق نشـر عمـل تولسـتوي المعنون «رواية عـن القوقـاز» في مجلتـه «الرسـول الروسـي». لكـن تولسـتوي لـم يكـن قـد أنهـى الرواية بعد. فحاول إقناع كاتكوف بإرسال المال له كسـداد للـدين عوضـا عـن إرسـال مخطـوط الرواية، لكن كاتكوف لم يوافق على ذلك وأصـر علـى تسـلُّم الروايـة. أذعـن تولسـتوي في نهايـة المطاف لطلب الناشر وقام بتشذيب المسـودات ليكمل الرواية.

عمل تولستوي علـى هـذه الروايـة طيلـة عشـر سـنوات علـى نحـو متقطـع (وهـي أطـول مـدة مقارنة بجميع أعماله المنشورة)، وقد لحقت بها كثير من التغييرات والتعديلات، بينما كـان يقـرأ على نحو متزامن أعمالا كالإلياذة. لكن ما نُشر في نهاية المطاف في عدد يناير عـام 1863 لمجلـة الرسول الروسي كان رواية قصيرة عنوانها «القـوزاق». في الواقـع، نُشـر عـدد ينـاير في السـوق في نهاية فبراير لأن تولستوي تأخر في إرسال المخطـوط. وكـان يخطـط لكتابـة سلسـلة مـن الروايـات المرتبطة ببعضها بعضا، لكن الفكـرة لـم تكـن ناجعـة لأنـه كـان يفكـر في أمـور أخـرى في الوقـت نفسه. تعتبر «القـوزاق» كنايـة عـن رحلـة تولسـتوي الروحيـة في العقـد الـذي سـبق زواجـه (وقـد استلهم الفكرة من رحلة روسـو الروحيـة). فهـي تعـرض قصـة أولينـين؛ وهـو ضـابط شـاب مـن موسكو يفرز إلى قرى القوزاق خلال فترة خدمته في الجيش في القوقاز. ويشعر أولينين بالحسـد تجاه القوزاق بسبب الحرية التي يتمتعون بها؛ إذ يكتشف فيهم نـبلا وجمـالا طبيعيين. ومـن ثـم

تأسره فتاة قوزاقية جذابة للغاية في حب لا أمل فيه. ويكتشف في نهاية المطاف أنه لا يستطيع تجاوز خلفيته الأرستقراطية المدنية المتروبوليتانية ليندمج بتلقائية مع القوزاق، ويدرك بالتالي أنه يتعين عليه أن يعود إلى أسلوب حياته السابق. شيء شبيه يحصل مع تولستوي عندما يتزوج ويدرك بصراحة أن آراءه بشأن الحياة قد تغيرت ويشرح ذلك للشخص المؤتمن على أسراره، ألكسندرين، فقد أصبح الآن مستعدا للعودة إلى كتابة الرواية التي تتناول أفرادا من طبقته المخملية لقراء من الجمهور المثقف.

أعلن تولستوي في يناير من عام 1863 في الصحافة في موسكو أن مجلته ياسنايا بوليانا سوف تتوقف عن الصدور. كما ستغلِق في وقت لاحق في تلك السنة مدارسُه أبوابَها مما سيؤدي إلى بعثرة الطلبة والمعلمين على حد سواء. لم تأسف صونيا على رحيلهم لأن كثافة الدخان المنبعث من التبغ خلال اللقاءات التي حضرتها في غرفة جلوسهم الضيقة جعلتها تشعر بالغثيان بينما كانت حاملا. وقد أصبحت كارهة لوجود الطلبة في العزبة، في الوقت الذي تكيَّفت فيه مع حياتها الجديدة لأن الطلبة ينحدرون من خلفيات اجتماعية مختلفة تماما، وهم السبب في انشغال زوجها عنها. رغم ذلك، أراد تولستوي أن ينشر عدد ديسمبر/ كانون الأول عام 1862 من المجلة، فأنهى مقالته الأخيرة في 23 فبراير عام 1863. كتبت صونيا بعد يومين إلى أختها تانيا لتخبرها بأن زوجها قد بدأ تأليف رواية جديدة. كانت تلك رواية «الحرب والسلام» التي أنهاها بعد ست سنوات، وتخللها كتابة 5 آلاف مخطوط وبدايات متعثرة كثيرة وعدد من العناوين المختلفة. كان تولستوي يشعر بنعيم عش الزوجية في الفترة الأولى، مما دفعه للإعلان عن رغبته بأن تتاح له الحرية الكافية للعمل على مشروع طويل الأمد[118]، لكنه بنفسه لم يكن يتخيل أن الرواية ستستغرق منه كل هذا الوقت الطويل.

وكما استغرق تعوّد الزوجين على بعضهما بعضا شهورا عديدة، استغرق الوصول إلى حبكة الرواية الجديدة زهاء سنة. لكن تولستوي كان على يقين منذ البداية بأنه يريد توظيف

(118) De longue haleine.

تدفق الطاقة الخلاقة لديه في تأليف عمل روائي ضخم مهيب. فكر أولا في قصة تعود إلى عام 1856، تتحدث عن حصان مخصيٍّ أرقط اشتُهر في فترة من الفترات بسرعته الفائقة التي أطلق عليها اسم «خولسْتومَر»، ومعناها «سريع الخطى/ العدّاء المتّقد».. وهي من أروع قصصه التي أبصرت النور لاحقا. بعدها تبنى تولستوي سرد الضمير الغائب، لكن معظم القصة يُسرَد من وجهة نظر الحصان. في أحد أيام الصيف وبعد زيارته لتورغينيف وهما عائدان إلى المنزل من نزهة مسائية سيراً على الأقدام، قابلا حصانا مُسنا منهكا هزيلا يقف في مرعى وله من القوة قدرا يسيرا يمكّنه فقط من طرد الذباب الحائم حول ذيله. تقدم تولستوي نحوه ليمرّر يده عليه معلقا ومتسائلا عما يدور في ذهنه، مما دفع تورغينيف للتعليق بأن تولستوي لا بد وأنه كان حصانا في حياته السابقة. لم يكن تولستوي راضيا بعد عن القصة عام 1863، لذلك ركنها جانبا وعاد إليها بعد عشرين سنة بإلحاح من زوجته.

حوّل العمل في العزبة أنظار تولستوي عن هدفه الأول لا سيما مع اقتراب الربيع، وشعر بطاقة متجددة فاشترى مواشيَ وطيورا وخنازيرَ، وحاول أن يجتذب صونيا لحلب المواشي ومخض الزبدة لكنه لم يفلح. فبالإضافة إلى أنها كانت حاملا، كانت أيضا فتاة المدينة التي لم تقوَ على تحمل رائحة روث المواشي في إسطبلاتها. كما اهتم تولستوي ولفترة من الزمن بمقطرة للكحول بناها مع جاره وصديقه الإقطاعي ألكسندر بيبيكوف. وحاولت صونيا ثنيه عن مواصلة هذا المشروع على أسس أخلاقية، لكنه قال إنه يريد الحبوب لاستيلاد الخنازير. على أي حال، استمر المشروع لثمانية عشر شهرا ومن ثم توقف. أما ما كان أكثر جزاءً فهو زراعة زهاء 1000 شجرة تفاح في عزبة نيكولسكوي وبستانا يحتوي على 6500 شجرة في ياسنايا بوليانا، كانت في كل ربيع تتحول إلى سحب مصبوغة بألوان الزهر والأبيض الخلابة، وتبدو لتولستوي وكأنها عائمة في السماء. عُني تولستوي بالزراعة على نطاق أوسع بكثير من تربية الماشية التي لم تكن مربحة. وبالفعل، فقد كان يُعتقد في تلك الفترة أن بستان ياسنايا بوليانا يحتل المرتبة الثانية من حيث الحجم في أوروبا كلها؛ ذلك أن تولستوي كان قد وسّع في

منتصف السبعينيات من مساحته لتمتد على أربعين هكتارا بعد أن كانت تغطي عشرة هكتارات. ويذكر أن صونيا كانت متحمسة لمد يد العون في غرس الأشجار لأنها لم تعتبر هذا الجانب الزراعي شيئا يخالف ذوقها. فقد خَبِرَت في ذلك الخريف ولأول مرة هبوب النسائم المكثفة العطرة الزكية لآلاف حبات التفاح اليانعة في العزبة. وفي مايو عام 1863، وقبل أسابيع من موعد الولادة، أصبح من المستحيل بدنيا أن تبذل الكثير من الجهود، لكن ذلك لم يمنع تولستوي من انتقادها اللاذع زاعما أنها كسولة لا تحرك ساكنا.

أصبح تولستوي أيضا يهتم بشغف بتربية النحل بعد زواجه، فقد اشترى بعض القفائر من جدّ صونيا، ووضعها في مكان بعيد في عزبته على بعد ميل تقريبا من منزل العائلة في بستان الليمون والحور في القاطع الذي يلي نهر فارونكا. وحاولت صونيا أن تشاركه هذا الشغف لكنها فشلت، فكتبت لاحقا في مذكراتها:

«لقد تجلَّت طبيعة ليف نيكولايفيتش الشغوفة في هذا الولع والاهتمام بتربية النحل. فقد طوَّر اهتماماته بأشياء مختلفة كثيرة طيلة حياته، الألعاب والموسيقى واللغة الإغريقية القديمة والمدارس والخنازير اليابانية وعلَّم أصول التدريس والخيل والصيد والكثير مما لا يمكنني حصره هنا، بخلاف طبعا اهتماماته الفكرية والأدبية التي شكلت ولعا متطرفا أحيانا. لقد كان شغوفا بجُنون بكل شيء في ذروة ولعه واهتمامه، وإذا لم يستطع أن يقنع أحدا ما بأهمية ما يقوم به، كان يمكن أن يكشر عن أنيابه ويصبح عدائيا تجاهه».

لم يسمح الوقت لصونيا لتختلي بنفسها عندما كانت تعيش في موسكو. أما الآن فهي تشعر بالوحدة كما ذكرت في مذكراتها؛ بسبب غياب تولستوي في متابعة اهتماماته الأخرى.

خلال أول الصيف عام 1863 قررت صونيا أن تتمشى في الحقول وتأخذ لزوجها، الذي كان يقضي أياما طويلة مع نحله، غداء أو كوب شاي في المساء، فوجدته يغطي رأسه بشبكة ويقوم بترتيب أقراص العسل في القفر أو يلتقط دبورا. وبعد أن تجلس هناك ويلسعها النحل تعود أدراجها وحيدة إلى المنزل. كان تولستوي يقرأ كثيرا عن عالم النحل ويمضي ساعات

يراقب أنماط سلوكها، يساعده في ذلك مُربّي النحل الذي يعمل لديه، وهو رجل متقدم في السن ذو لحية رمادية طويلة. وكان يساعده أيضا خلال فصل الصيف نيكولكا، وهو الابن الأصغر للبستاني. تضاءل انهماك تولستوي بالمنحلة في ياسنايا بوليانا بعد سنتين تقريبا، إلا أن شغفه بتربية النحل ترك أثرا في كتاباته، فثمة أولا التشبيه الملحمي الشهير في رواية «الحرب والسلام»، إذ يُشبِّه موسكو عام 1812 بقفر نحل لا ملكة له. وقد استعار ذلك التشبيه من قصيدة فيرجيل «الإينيادة». وعلى العكس من ذلك فكر تولستوي بالقفر المكتظ بالنحل عندما تحدث عن جو الحفلة الراقصة في رواية «آنا كارينينا»، وبعد ذلك في الرواية نفسها يصف النحل في بداية طلعاته في الربيع بعد نقل قفيرهم للصيف. أما دقة المصطلحات التي استخدمها، وتجاوزها جل المترجمين، فتقول لنا الكثير عن الهمّة التي بذلها في دراسته لفن تربية النحل.

توقف تولستوي صيف عام 1863 عن كتابة الرواية في مناسبتين. الأولى عندما قامت تانيا، شقيقة صونيا، وشقيقها ساشا واثنين من أقربائهم بزيارة طويلة إلى ياسنايا بوليانا. أما الثانية فكانت في منتصف يونيو/ حزيران حين توقف الزوجان مؤقتا عن كتابة المذكرات وقراءة مذكرات بعضهما بعضا، واستطاعت صونيا أن تحوز على كامل اهتمام زوجها حين أنجبت طفلهما الأول في الثامن والعشرين من الشهر. لم تصف صونيا في مذكراتها لاحقا مناسبة ميلاد سيرغيه بالحدث السعيد. والسبب في ذلك لا يقتصر فقط على ولادته المبكرة قبل أسبوع من حينها مما فاجأ الجميع، بل لأن حزمة ثياب المولود التي أرسلتها والدتها ليوبوف ألكسندرفنا من موسكو لم تكن قد وصلت بعد، رغم وصول الوالدة في الموعد المحدد. وبالتالي تعيَّن عليهم لفّ الطفل بأحد قمصان تولستوي التي يرتديها للنوم، قبل أن يضعوه في المهد المصنوع من خشب شجر الليمون على يد نجار العائلة. وقد كان الطبيب شميجارو، وهو رئيس أطباء مصنع تولا لصناعة الأسلحة موجودا، بالإضافة للقابلة القانونية ماريا إيفانوفنا أبراموفيتش، التي هي من أصول بولونية. وقد لوحظ في تلك الفترة أن أعداد البولونيين المنفيين من بلادهم قد تزايدت في أعقاب قمع الحكومة الوحشي للانتفاضة البولونية في شهر يناير. وبالمقارنة مع

قدر آلاف البولونيين الذين رُحِّلوا إلى سيبيريا، كان قدر الطبيب والقابلة القانونية ألطف بلا شك. وخلال خمسة وعشرين عاما قادماً سوف تنطلق ماريا إيفانوفنا في رحلات عديدة من تولا إلى ياسنايا بوليانا؛ لمساعدة صونيا في إنجاب اثني عشر طفلا من أصل ثلاثة عشر عاش منهم ثمانية، وتوفي خمسة قبل سن البلوغ.

تناسى تولستوي الآن طرقه الشعبية وقربه من الناس، إذ رفض رفضا قاطعا توفير مرضعة لزوجته رغم أنها كانت تعاني من التهاب الثدي، مما جعل إرضاع سيرغيه أمرا شبه مستحيل. ووجدت لوبوف ألكسندروفنا استسلام ابنتها لرغبات زوجها من دون نقاش أمراً يدعو إلى السخط. لكنها تنفست الصعداء عندما تدخل الأب بقوة متسلحا بالمنطق. فقد نفد صبر الطبيب بيرز سريع الغضب مع صهره في مناسبات سابقة عديدة بسبب أفكار الأخير الغريبة والمستهجنة. فاستاء وشعر بالإهانة مثلا بسبب مقالة عن التدريس كتبها تولستوي في السنة الماضية ندّد فيها بالتعليم الجامعي، وردّ عليه برسالة يشرح فيها موقفه. أرسل الطبيب في أغسطس عام 1863 رسالة من موسكو إلى ليف وصونيا أخبرهما فيها بأنهما في طريقهما إلى الجنون: «يمكنك أن تطمئن يا صديقي ليف نيكولايفيتش بأن طبيعتك لن تتحول مطلقاً لتصبح طبيعة فلاح. كما أن طبيعة زوجتك لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحمل ما تحمّلته بيلاغيا التي ضربت زوجها ومالك نُزل في حانة في إحدى ضواحي بطرسبورغ (راجع مجلة موسكو، العدد 165 و166)». وقد انتقد الطبيب تولستوي على نحو لاذع عندما وصفه بأنه كان حاذقا في الكتابة والتنظير، لكنه لم يكن كذلك دائما في التصدي للأمور الحياتية العملية.

استغرق الأمر وقتا ليشعر تولستوي بمشاعر الأبوة نحو طفله سيرغيه. فقد رفض أن يحمله عندما كان طفلا صغيرا، وبدأ يشعر بالحب تجاهه عندما بلغ السنتين وكان يعاني من المرض. دوّن في مذكراته يصف مشاعره في مارس 1865: «يا له من شعور لم أعهده من قبل». ولكن رغم ذلك فإن ولادة سيرغيه فتحت فصلا من أسعد فصول حياة تولستوي الزوجية. فقد توطدت علاقة ليف وصونيا وأصبحت أكثر رسوخا واستقرارا. حتى إن تولستوي أعلن في

مذكرته الوحيدة التي أدرجها عام 1864 أن علاقته بصونيا أهم وأنبل من أي علاقة مع أي شخص آخر في هذا الكون. وهكذا، لم يعد لصونيا وقت تشعر فيه بالوحدة أو السأم؛ فقد أصبحت أماً وحوَّلت فكرة زوجها عن الأمومة إلى واقع معاش. وكانت تقوم بأمور إضافية أيضا؛ إذ كانت تسهر الليل تنسخ مسودات زوجها، مما جعلها تشعر بأنها شريكة في حياته الإبداعية ومساهمة لا غنى عنها في إنتاجه الفني. شعر تولستوي بسعادة غامرة على مستوى حياته الشخصية في تلك الفترة. وكان ذلك مرتبطا ارتباطا وثيقا بالطاقة الإبداعية الاستثنائية التي اختمرت في داخله وتدفقت تجلياتها في تفاصيل رواية «الحرب والسلام». وقد فسر ذلك لألكسندرين في رسالة قائلا:

«لم أشعر في السابق بطاقاتي الفكرية وحتى الأخلاقية تتدفق بحرية وسلاسة كما هي الآن لتمكنني من العمل بسهولة. لديَّ عمل يتغلغل إلى مساماتي وأفكر فيه ليلا ونهارا. إنه عمل روائي حول الفترة ما بين عامي 1810 و1820. أنا الآن كاتب بكل روحي وكل جوارحي، فأنا أفكر وأكتب كما لم أفكر وأكتب من قبل. أنا زوج وأب هادئ وسعيد وليس لدي ما أخفيه عن الآخرين، ولا رغبة لدي سوى أن تستمر الأمور على ما هي عليه الآن».

وبعد خريفين من تلك الرسالة؛ في سبتمبر من عام 1865، دوّن تولستوي في مذكراته قائلا إن سعادته مع صونيا هي شكل من أشكال السعادة النادرة التي لا يتمتع بها سوى زوج من كل مليون.

بدأت الأجزاء الأولى من رواية «الحرب والسلام» بالظهور عام 1865 بعنوان «سنة 1805». ويذكر أن رواية تورغينيف «آباء وبنون» كانت قد نُشرت كاملة في عدد واحد في مجلة عام 1862، لكنها مقارنة بحجم رواية «الحرب والسلام» تعتبر جزءا صغيرا جدا. وقد كان من الشائع أن تُنشر الأعمال النثرية الطويلة على شكل أجزاء متواترة في أرقى مجلات البلاد الأدبية قبل أن تُنشر ككتاب كامل. وقد اتبع تولستوي هذه المنهجية التي كانت بمثابة مجازفة بالنسبة له، لأنه كان يميل دائما إلى الحذف والتعديل والإضافة والمراجعة وإعادة الصياغة... إلخ.

وهكذا، وبعد أن نشر الأجزاء الأولى من رواية «الحرب والسلام» في مجلة «الرسول الروسي»، غيّر من أفكاره جذريا بشأن مسار الرواية. وعندما بدأ لاحقا نشر الرواية على حسابه الشخصي على شكل كتاب، لم تكن أفكاره ثابتة بشأن محتواها، مما اضطره إلى إحداث تغييرات إضافية على النص في السبعينيات والثمانينيات من ذلك القرن، ما أدى إلى كثير من الالتباس واللغط. حتى إن عالِمًا مختصًا بأدب تولستوي شعر في العشرينيات من القرن العشرين بأن من واجبه أن يكتب مقالة حول الصعوبات التي تواجه الباحث في كشف النقاب عن النص المعتمد للرواية.

كان دافع تولستوي للكتابة عن أحداث عام 1805 نابعًا من اهتمامه بالديسمبريين (وهم مجموعة ضباط في الجيش خططوا لإشعال انتفاضة مشؤومة في ديسمبر من عام 1825، في فترة اعتلى فيها نيكولاي الأول سدة الحكم)، فقد فتح احتلال باريس بعد هزيمة نابليون عام 1814 أعين الديسمبريين على نظام حكم أكثر استنارة، فعادوا إلى روسيا وكلهم أمل بأن يجري ألكسندر الأول الليبرالي النزعة إصلاحات سياسية. وعندما خابت آمالهم تحوَّلوا إلى التآمر ووضعوا نصب أعينهم هدفا ثوريا؛ هو استبدال الحكم الجمهوري أو على الأقل الملكية الدستورية بالحكم الأوتوقراطي في روسيا. أما التمرد الذي نظموه في ميدان الشيوخ في سانت بطرسبورغ بعد وفاة ألكسندر الأول فشكل فشلاً ذريعًا، مما أدى إلى معاقبة الأشخاص البارزين منهم إما بالإعدام وإما بالمؤبد والأعمال الشاقة مع النفي إلى سيبيريا. اتسمت حقبة نيكولاي الأول بالقمع والخوف من اندلاع الثورة مجددا، لكن ابنه ألكسندر الثاني، الذي تسلَّم الحكم بعد وفاة أبيه عام 1856، قام باتخاذ الإجراءات لتحرير المجتمع الروسي، وأصدر عفوا عن الديسمبريين الذين كانوا منفيين في سيبيريا، ومن بينهم قريب تولستوي البعيد، الأمير سيرغيه فولكونسكي، الذي قابله في فلورنسا عام 1860، وكان يفكر في جعله الشخصية الرئيسية في رواية كان يفكر فيها وتتناول الديسمبريين. لكنه ما لبث أن اكتشف أن الرواية تحتاج إلى عدد كبير من الشخصيات الأخرى، بالإضافة إلى ضرورة العودة إلى عام 1812 لكي

يحكي قصتهم منذ بداياتها. وهذا ما جعله يدرك ضرورة العودة إلى عام 1805 عندما بدأت الحرب ضد نابليون. وكما شرح في عدد من المقدمات التي صاغها وعكست آراءه المتغيرة بشأن الرواية: «شعرت بالخجل لتناول موضوع النصر الذي حققناه في كفاحنا ضد فرنسا النابليونية دون الكتابة عن إخفاقاتنا والخزي الذي لحق بنا». كانت خطة تولستوي المبدئية تقضي بتناول تاريخ أمته على مدار نصف قرن من زاوية أدبية وتسميتها «عصور ثلاثة». وتشمل الحقبة الأولى الأحداث التي وقعت ما بين عامي 1805 و1812، بينما تركز الحقبة الثانية على عقد العشرينيات، لا سيما انتفاضة عام 1825. وتركز الحقبة الثالثة على عقد الخمسينيات، وتشمل حرب القرم الكارثية، وموت نيكولاي الأول غير المتوقع، وصدور العفو بحق الديسمبريين في فترة الأمل بالإصلاح. وكما نعلم، انتهى المطاف بتولستوي ليركز على الأحداث التي سبقت عام 1812 ومآلاتها المباشرة، ولم يعد في الواقع إلى خطته الأولى التي أراد أن يعرض فيها عودة الديسمبريين المُسِنّين إلى موسكو من سيبيريا في الخمسينيات من ذلك القرن، لكنه بلا شك لم يكن يعرف عندما بدأ الكتابة عام 1863 أن أبعاد روايته سوف تصبح بالشكل الذي نعرفه.

استطاع تولستوي أن يُبقي على تركيزه على مدار ست سنوات ويحافظ على انضباطه الصارم بفضل البيئة المواتية التي مكنته من العمل بهدوء. فقد كان يعمل من منزل أجداده المحبب إلى قلبه بعيدا في قلب الريف الروسي، مدعوما من قِبل زوجته المتفانية المخلصة. حتى إنه نقل مكتبه إلى الطابق السفلي بعيدا عن جَلَبَة العائلة. كما استغل غرفة المخزن في القبو، حيث كان الأمير فولكونسكي يُعلّق اللحم المقدد على الخطافات التي لا تزال معلقة بالسقف، وحيث أمضت صونيا بعض الليالي خلال زيارتها لياسنايا بوليانا قبل الزواج برفقة أخواتها وأمها، ليكتب الفصول الأولى من رواية «الحرب والسلام» بعد أن حاول صياغة المقدمة خمس عشرة مرة. وفي عزلته التامة (إذ لم تكن ثمة سكة حديدية تصل إلى المكان مع تولا القريبة حتى عام 1867) عن العالم الخارجي لأسابيع وشهور خلال فصول الشتاء، وفي ظل

غياب الزوار، انغمس تولستوي على نحو تام يغربل مئات المصادر التي جمعها عن تاريخ روسيا في الحروب النابليونية، بالإضافة إلى اعتماده الكبير على قوة الخيال لديه. وكان لغاية تلك الفترة يُطعّم جلّ كتاباته بشيء من سيرته الشخصية، لكنه وجد الآن الإلهام في الشخصيات المحببة إليه من أفراد أسرته القريبة، فقد عكست ناتاشا الذكية المفعمة بالحيوية، التي مثلت الشخصية الأكثر قربا إلى قلبه، عكست جوانب من شخصيات زوجته وأختها تانيا في أوقات مختلفة. وقد عاد تولستوي بالذاكرة لينبش في المواد الخام لأفراد أسرته، مُسقطا حب عمته توانيت لأبيه على تفاني شقيقة ناتاشا المتبناة في حب أخيها نيكولاي. أما معرفته بعادات الجدّ إيليا أندريفيتش الأبيقورية فقد وفرت مادة خام غنية لتصويره شخصية الكونت روستوف. وبثّ الروح في قصة الأمير المُسن فولكونسكي وابنته ماريا في عزبتهم المسماة بولد هيلز، من خلال استحضاره في مخيلته للحياة المنعزلة التي زاولها الجد الأمير فولكونسكي وأمه قبل زواجها في ياسنايا بوليانا. كما أسقط بعضا من صفات شقيقه سيرغيه على الأمير أندريه، واستلهم بعض سمات فيودور إيفانوفيتش دولوخوف من قريبه البعيد المتعنتر فيودور إيفانوفيتش تولستوي. وقد راق لتانيا، شقيقة صونيا، أن تكون شخصية ناتاشا في الرواية التي رُسمت وفقا لشخصيتها حصريا كما كانت تدعي. لكن الحقيقة هي أن الشخصيات التي اعتمد عليها تولستوي من الواقع كانت توفّر له فقط الشرارة الضرورية للانطلاق في إبداعاته. لقد كانت كتاباته عبارة عن فسيفساء باهية ريانة بالشخصيات، ومن غير المستغرب أن نجد هومر على قائمة الكتاب الذين أقرّ بأنهم خلّفوا وقعًا قويًا عليه في تلك الفترة، بالإضافة إلى غوته وفيكتور هوجو وستندال.

ساعد العديد من الأصدقاء والأقرباء والمعارف تولستوي في البحوث المتعلقة برواية «الحرب والسلام»، بما في ذلك مؤرخون مخضرمون وجيش من سيدات موسكو المتقدمات في السن، بالإضافة إلى حماه الشجاع أندريه بيرز الذي شاطره ذكرياته الشخصية عن معايشته لأحداث 1812 عندما كان طفلا. وقد استمتع أندريه إستافيفيتش أيضا بمهمة تزويد تولستوي بقصاصات صحف تلك الحقبة ومراسلات الناس الذين عاشوا في موسكو إبان الحرب ضد

نابليون. كما قام تولستوي بزيارات بحثية متعددة إلى موسكو، واستفاد على وجه الخصوص من زيارة مطولة قام بها في خريف عام 1864 بعد أن كسر ذراعه، فقد كان يركب حصانه ماشيا بصحبة كلبيه من نوع البورزوي، وسقط من على الحصان بعد أن انطلق مندفعا في سهل محروث يطارد أرنبا لمحه أحد الكلبين. وقد أخطأ الطبيب شميغارو في مدينة تولا عندما حاول تصحيح الكسر فلم يلتئم جيدا، مما دفع تولستوي للسفر إلى موسكو لإجراء عملية إضافية، وليمضي فترة نقاهة يبحث فيها عن تاريخ روسيا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. مما كان يعني في بعض الأحيان مكوثه في متحف روميانتسوف يغربل المخطوطات التي تتحدث عن البنائين الروس الأحرار. ويذهب في بعض الأحيان إلى مكتبة تشيرتكوف ليقرأ رسائل ومذكرات ويكحّل عينيه بلوحات صور جنرالات ألكسندر الأول، فتلك المكتبتان كانتا قد افتتحتا منذ فترة بسيطة، ومن دونهما كانت مهمته ستكون أصعب للغاية. وقد اختار تولستوي في واقع الأمر وقتا رائعا لكتابة رواية تاريخية.

فلم يكن عقد الستينيات مشهورا بحقبة الإصلاحات فحسب، بل كان أيضا يشكل الحقبة الذهبية للأدب الروسي، إذ كان تورغينيف وتولستوي ودوستويفسكي في أوج عطائهم. وكانت أيضا حقبة مميزة للموسيقى، فتشايكوفسكي أصبح طالبا في الكونسرفاتوار (معهد بطرسبورغ للموسيقى) في بطرسبورغ عندما تأسس عام 1862. وعُيّن بعد ذلك مباشرة لدى تخرجه مدرسا للموسيقى في معهد موسكو للموسيقى (وهو أحدث من سابقه)، وهما أول معهدين في روسيا خُصِّصا لتدريب الموسيقيين المحترفين. أما مسرح المارينسكي فقد افتتح عام 1860 ومهَّد الطريق بدوره لتزدهر الباليه والأوبرا الروسية، بالإضافة إلى أن التخفيف من وطأة مقص الرقيب مهَّد الطريق لنشر أعمال أدبية كانت محظورة مسبقا، بما في ذلك السيرة الذاتية لرئيس القساوسة أفاكوم، وهو زعيم طائفة المؤمنين القدامى (السلفيين) المضطهدة، التي نُشرَت لأول مرة عام 1861. وقد اضطُهدت تلك الطائفة على مدار قرنين من الزمن خشية انتشار الطائفية وتسبُّبها بثورة شعبية. وكان افتتاح أول مكتبة عامة في موسكو مصداقا للانفجار العظيم

في الحياة الروسية الثقافية والفكرية، وقد أسهمت المكتبة مساهمة مميزة في ذلك، فقد أعيد عام 1862 ترميم منزل باشكوف، وهو أحد القصور المهيبة الأنيقة التي دمَّرها حريق موسكو عام 1812، وافتتح باسم جديد هو متحف رومیانتسف الذي احتوى على مكتبة بحثية ومقتنيات مهمة أرشيفية وفنية (وقد أودعت فيه لاحقا مخطوطات تولستوي للحفاظ عليها في الأرشيف). وفي السنة التالية أتاح غريغوري، ابن ألكسندر تشيرتكوف[119]، للعامة ولأول مرة مقتنيات أبيه الراحل الفريدة والغنية من الكتب والمصادر الرئيسية المخصصة لتاريخ روسيا. وأُسست مكتبة تشيرتكوف العامة في جناح بُني خصيصاً في قصر الأسرة الرحب في قلب موسكو. وقد أسهم غريغوري تشيرتكوف في تعزيز محتوى المكتبة ليصل إلى 20 ألف مادة، وأصبح المؤرخ المخضرم المحترم، بيرتر بارتيونيف، أول أمين لمكتبة تشيرتكوف والمحرر المؤسس لمجلة المكتبة المسماة «الأرشيف الروسي» عام 1863. وقد قدمت المجلة المذكورة خدمة جليلة في نشر المصادر الأولية حول تاريخ روسيا في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، التي كان كثير منها مهما للغاية لتولستوي حينما كان يكتب رواية «الحرب والسلام». كما قدم بارتيونيف خدمة جليلة أيضا لتولستوي من خلال توفير مواد تاريخية غير منشورة ليستفيد منها في كتابة روايته.

ومع نهاية عام 1864 أوصل تولستوي إلى مكاتب مجلة «الرسول الروسي» في موسكو، ما اعتقدَ أنه سيكون الجزء الأول من روايته الجديدة سنة 1805. وقد مثلت الفصول الثمانية والثلاثين التي قدمها الجزئيْن الأولين لما يعرف الآن بالمجلد الأول من رواية «الحرب والسلام». وقد نُشرَت تلك الفصول في عددي يناير وفبراير من عام 1865. وفي اليوم التالي من ظهور عدد فبراير (الذي ظهر في مارس في الواقع)، كتب أندريه إستافيفيتش إلى أسرة تولستوي (ابنته وزوجها) ليخبرهم بأنه كان قد حضر للتو حفلة أقامها الحاكم العام العسكري، وأن ما نشره تولستوي أخذ حصة الأسد من حديث الحاضرين. وكانت تلك المناسبة الاجتماعية

(119) Александр Чертков (Aleksandr Chertkov).

الأولى التي شارك فيها الطبيب بيرز بعد فترة نقاهة طويلة كان يتعافى خلالها من عملية أجراها لقصبته الهوائية (ويُذكَر أن أي موظف في البلاط الملكي لم يكن ليُسمَح له بإطلاق اللحية إلا بإذن خاص من القيصر). تحدث الطبيب أيضا عن أن مفاوضات تولستوي الطويلة بشأن ريع منشوراته كانت أيضا موضوعا ساخنا تحدث عنه الجميع في موسكو. وعندما شعر أن بإمكانه أن يمثل صهره أفضل تمثيل، عرض أندريه إستافيفيتش خدماته لكن بعد فوات الأوان؛ لأن تولستوي كان قد توصَّل إلى صفقة مع دار النشر.

توصل تولستوي إذن إلى صفقة مرضية مع محرره ميخائيل كاتكوف، ففي بداية مساره الاحترافي عام 1852 كان يحصل على 50 روبلا مقابل كل صفحة مطبوعة، لكنه شعر الآن أن بإمكانه أن يطلب المزيد، بل أكثر من المزيد. قام نيكولاي ليوبيموف، وهو أستاذ فيزياء متقاعد في جامعة موسكو وأقرب المحررين إلى كاتكوف، بلعب دور الوسيط بين الرجلين، وأمضى في نوفمبر عام 1864 ساعتين يحاول إقناع تولستوي بأن يتنازل ويقبل بمبلغ 50 روبلا كما كان يفعل. لكن تولستوي كان يدرك تماما قيمته الأدبية آنذاك، فأصر على 300 روبل وحصل عليها بالفعل. هذا يعني أن كاتكوف دفع 3000 روبل لقاء الجزء الأول من الرواية (عشر صفحات مطبوعة)، وكان ذلك مبلغا طائلا. وكتسوية، استطاع أن يقنع تولستوي بالموافقة على نشر كتاب منفصل يحتوي على جميع الفصول التي شكلت رواية «سنة 1805»، بعد أن نُشرت في «الرسول الروسي»؛ المجلة التي كان لديها 3000 مشترك في ذلك الحين. واتفق الطرفان على طباعة 500 نسخة يكون المستفيد منها كاتكوف. وبالفعل طُرح الكتاب في السوق في يونيو/ حزيران عام 1866 بسعر روبلين ونصف. أما حساب تلك المبالغ بالضبط بقيمة اليوم فأمر صعب وعمل غير مثمر، لكن المرء يمكنه أن يكشف عن قيمة تلك المبالغ من خلال ضرب مقارنة لما حصل عليه تولستوي من مال وما كان يحصل عليه العامل العادي من راتب في تلك الفترة. فقد كان العامل العادي يحصل على راتب شهري بواقع عشرة روبلات، أي سعر نسخة واحدة من رواية «الحرب والسلام». أما المعلّمون في القرى فكانوا يتقاضون خمسة وعشرين

روبلا شهريا، وهذا ما كان يدفعه تولستوي للمربيات اللواتي كن يدرّسن أطفاله، بالإضافة طبعا إلى توفير المأوى والطعام.

لقد مثلت سنة 1866 سنة العجائب والإنجازات لميخائيل كاتكوف، إذ وجد نفسه ينشر رواية تولستوي وتحفة دوستويفسكي الأدبية «الجريمة والعقاب» على نحو متزامن على صفحات مجلته. ولم يكن دوستويفسكي سلساً في التعامل أيضا، لكنه في هذه المناسبة كان أسلس من تولستوي بمراحل. ورغم أن دوستويفسكي التزم بتقديم الجزء الشهري من روايته «الجريمة والعقاب» إلا أنه كان يجد صعوبة بالغة في ذلك. لكنه أتمّ الرواية أخيرا بحلول ديسمبر من عام 1866 (من غير المرجح أن يكون تولستوي قد قرأها، ولو كان قد فعل لم يسجل رأيه فيها). أما «الحرب والسلام» فكان أمر نشرها أكثر تعقيدا. فقد أتى تولستوي بعنوان آخر في تلك الفترة وأسماها «الأعمال بخواتيمها السعيدة»، على أساس أنه استشرف نهاية سعيدة للرواية كانت تختلف عن النهاية التي فكر فيها أولا، ومختلفة مجددا عن النهاية التي اختتم بها النسخة النهائية من الرواية. واعتقدَ أنه سينهي الرواية في العام القادم، فبدأ في ذلك الربيع بنقاشات مطولة مع فنان أوكل إليه مهمة إنتاج رسومات للكتاب المنظور، لكن النقاشات أفضت إلى خيبة أمل.

أراد كاتكوف عام 1867 أن يستمر في طباعة الأجزاء التالية من الرواية لينشرها في «الرسول الروسي» قبل إدراجها في الكتاب. وهكذا انطلقت مفاوضات جديدة في نوفمبر من عام 1866 لم تُفض إلى شيء بحلول الربيع التالي. عندها أخذ تولستوي زمام المبادرة في يونيو/ حزيران عام 1867، وقرر أولا أن يعترض على نشر بقية أجزاء الرواية في المجلة كل شهر وينشرها عوضا عن ذلك في مجلدات منفصلة متى انتهى منها. وبالتالي لجأ إلى مساعدة بيوتر بارتيينف. وقد اختلف شكل الرواية في نهاية المطاف على نحو جذري. أما طبيعة التغييرات فيمكن قياسها من خلال الاستئناس بقائمة «الاستحقاقات المميزة» التي جمعها الناشر التجاري في موسكو

لما يُسمّى النسخة الكاملة الأولى للرواية العظيمة التي تمت عام 1866، قبل أن يعيد تولستوي العمل عليها مجددا بين عامي 1867- 1869:

1. أوجَز بواقع الضعف وأمتع بواقع خمسة أضعاف.
2. تخلو تقريبا من الاستطرادات الفلسفية.
3. أسهل قراءة بواقع مئة مرة، فجميع النصوص الفرنسية تُرجمت إلى الروسية من قِبل الكاتب نفسه.
4. أكثر «سلاما» وأقل «حربا».
5. يبقى الأمير أندريه وبيوتر روستوف على قيد الحياة.

عمد إيغور زاخاروف، الناشر المذكور إلى نُسَخ مرجعية ليجمع نسخة الرواية التي نشرها عام 2000، لكنه تعرَّض للقدح والذم بسبب جهوده الترويجية على التلفاز الروسي. كما انتُقد أيضا من قِبل علماء في الأدب أرادوا أن يكونوا مخلصين للنص الأصلي والإبقاء على سلامة وتماسك تحفة تولستوي الأدبية. لم يكن زاخاروف صادقا عندما زعم أنه أراد أن يقدم للقارئ «ليف تولستوي» الحقيقي و«الحرب والسلام» الحقيقية، لأن تولستوي كان قد ترجم النصوص الفرنسية إلى الروسية لاحقا في نسخة عام 1873. ومع ذلك، فإن هذه النسخة التي ظهرت بالترجمة الإنجليزية عام 2007 تساعدنا على فهم تأثير تعاون تولستوي مع بيوتر بارتيينف على التطور المستقبلي للرواية، لجهة الاعتماد على عدد أكبر من المصادر التاريخية التي استأنس بها تولستوي بفضل بارتيينف. وقد علق تولستوي في إحدى المرات بشأن هذا التعاون قائلا إن اللجوء إلى بارتيينف بسؤال بحثي هو بمثابة فتح صنبور السماور.

أبرم تولستوي عقداً مع بارتيينف ومطبعة في موسكو لنشر روايته في يونيو عام 1867، وقد أطلق على العمل عنوان «الحرب والسلام» أخيرا، ربما بتأثير من برودو (بيير جوزيف برودو)، فقد كان له منشور دعائي يحمل الاسم نفسه تُرجم إلى الروسية عام 1864. وربما بتأثير أيضا من هيرزن الذي كتب ثلاث مقالات بالعنوان نفسه عام 1859. اتفق تولستوي وبارتيينف على

طباعة 4800 نسخة (كدفعة أولى) لستة مجلدات منفصلة تتساوق مع ستة أجزاء تألفت منها الرواية بسعر بلغ ثمانية روبلات. ويحصل بارتيينف بموجب الاتفاق على 15 في المئة من العائدات بفضل تحريره وتدقيقه ونسخه للعمل، بالإضافة إلى تعامله مع الرقيب. بينما يحصل محل بيع النسخ (الموزع/ البائع) على 20 بالمئة. ويُذكَر أن والد صونيا كان مهتما تماما بالأمر، وأراد المساعدة، وبرهن أنه عامل مهم بالفعل عندما واجه تولستوي مشاكل مرتبطة بتأجيل غير متوقع لتسلم النسخ المدققة الأولى.

ففي صيف عام 1867 أرسل أندريه إستافيفيتش برقيات منتظمة إلى ياسنايا بوليانا ليُعلِمَ صهره بما كان يجري في موسكو، ويخبره عن عودة بارتيينف إلى منزله الصيفي وماذا قال له لدى عودته. وفي الأثناء اكتشف تولستوي أن الجزء الأول من المجلد الأول أطول بكثير من الجزء الثاني. لذا بدأ تشذيب وتقليم الجزء الأول معتقدا أنه حسّن منه بشكل استثنائي. وطلب في الوقت نفسه من بارتيينف أن يُقلّص من الفراغات في الجزء نفسه قدر الإمكان ويزيد منها في الجزء الثاني، ما جعل الفقرات أطول من ذي قبل. وبينما كان يقرأ ويدقق الفصول الأولى التي ستنشر في هذه النسخة الجديدة، كان بالطبع لا يزال يكتب ويبحث في الفصول اللاحقة لهذه الرواية. وقام في عام 1867 ببحث من نوع آخر؛ فقد كان يقترب في الكتابة من معركة بورودينو الحاسمة. ولكي يعمق من فهمه لتحركات 250 ألف جندي شاركوا فيها، قرر الذهاب بنفسه إلى عين المكان الواقع بالقرب من بلدة موجايسك على بعد 70 ميلا غرب موسكو. لقد شكلت معركة بورودينو المواجهة الحاسمة بين جيش نابليون العظيم والقوات الروسية بقيادة الجنرال كوتوزف عام 1812، وبالتالي فإنها تحتلُّ موقعا محوريا في تاريخ روسيا، وفي رواية «الحرب والسلام» أيضا حتى تنتصف الرواية تقريبا. وقد استمرت المعركة ليوم كامل، لكنها تغطي عشرين فصلا في سرد تولستوي الملحمي، بما في ذلك تعقيبات استطرادية من الكاتب. ويمزج تولستوي بمهارة فائقة بين الآراء المترفعة لشخصيتين تاريخيتين واقعيتين عظيمتين هما: نابليون وكوتوزف، وتلك المتواضعة التي تأتي من أرض الواقع والمعركة على ألسنة

شخصيات متخيلة: كالأمير أندريه، قائد الكتيبة، وبيير، المدني الذي يعلق في دوامة الأحداث من حيث لا يدري، مما يجعل تكتيكات تولستوي الفنية بمثابة أكثر الاستراتيجيات العسكرية نجاعة وتطورا وتعقيدا وحذاقة. ويذكر أن حملته التي شنها ضد المؤرخين المهنيين لم تكن أقل هوادة.

كانت قوات نابليون، بعد بدء الغزو في يونيو عام 1812، تزحف بلا هوادة باتجاه موسكو، وقد دفعت سرعة تقدم الجيش الفرنسي ألكسندر الأول إلى تعيين الموقر الأمير كوتوزف قائدا أعلى للقوات الروسية المسلحة قبيل أيام فقط من المعركة التاريخية، إذ حل محل الجنرال الكونت باركليه دي تولي. كان كوتوزف يبلغ من العمر حينها 67 عاماً ويحظى باحترام بالغ وتبجيل عظيمين من قِبل جميع من في الجيش الروسي. وبخلاف سلفه اللوثري، الذي كان سليل أسرة إسكوتلندية استقرت في مقاطعة ألمانية بلطيقية في ليفونيا في القرن السابع عشر، كان كوتوزف روسياً حتى النخاع. وقد وضع خطوطه الدفاعية عن موسكو في قرية تدعى بورودينو، حيث، في فجر السابع من سبتمبر، التقى الجمعان في مواجهة دموية طاحنة خلّفتْ حصيلة هائلة من القتلى؛ إذ فقد الجيش الروسي 44 ألف جندي، وفقد الفرنسيون 58 ألفا. وكان النصر، فنياً، حليف نابليون الذي استطاع أن يكمل مسيرته باتجاه موسكو بعد انسحاب كوتوزف، رغم ما أصاب قواته من الوهن الُمفجع. وقد خلص تولستوي إلى أن الروس قد أحرزوا انتصاراً معنوياً حاسماً في بورودينو، وهو نصر «أقنع الخصم بعُقمه التام وعلو كعب العدو معنويا»، ولم يتردد تولستوي في إطلاق حكمه ككاتب للرواية على هذا النحو:

«تتلخص النتيجة المباشرة لمعركة بورودينو في هروب لا مبرر له لنابليون من موسكو، وانسحابه على طول طريق سمولينسك القديم، وهزيمة 500 ألف رجل قوي ممن شاركوا في الغزو. لقد هُزمت فرنسا نابليون التي لأول مرة حدث أن واجهت خصما شديد المراس يتمتع بروح قتالية أقوى من خصمه».

وعندما أتى تولستوي بعد نصف قرن لمعاينة أرض المعركة، مكث في دير محلي وقضى يومين كاملين يتجول في محيط القرية والحقول المجاورة لبورودينو بصحبة صهره ستيبان بيرز، البالغ من العمر آنذاك اثنتي عشرة سنة، والذي سُرّ كثيرا لأن تولستوي اختاره رفيقا له في تلك الرحلة. وقد استاء تولستوي لأنه لم يستطع الظفر بأحد المخضرمين من المحاربين القدامى؛ الذي كان مسؤولا عن حراسة نُصب المعركة الواقع في منتصف الحقل لأن الرجل كان قد توفي مؤخرا. بيد أن تولستوي لجأ إلى عينه الثاقبة وبصيرته النافذة فرسم خارطة لأرض المعركة، وحدد مواقع القوات المتحاربة، واستطاع أن يكشف النقاب عن تفاصيل مهمة؛ كتحديد موقع زاوية بزوغ الشمس وانعكاس أشعتها على وجوه جزء من القوات دون غيرهم في ذلك اليوم المشؤوم. وقبل مغادرته المكان والتوجه إلى ياسنايا بوليانا استيقظ فجرا وقام بجولة أخيرة في أرض المعركة.

ورغم ذلك، فإن التمثيل الملتوي لبعض أحداث التاريخ في رواية «الحرب والسلام» جلب له الكثير من الانتقادات. بالفعل، فإن بعض رواياته للمعارك التي وقعت عام 1812 جعلت بعض المخضرمين من المحاربين القدامى يستشيطون غضباً بسبب تلاعبه بالمصادر التاريخية ليوافق ذلك غاياته الفنية والجمالية والأيديولوجية. ومع ذلك، ثمة إجماع على أصالة وصحة روايته لمعركة بورودينو.

أنهى تولستوي بعد عودته من بورودينو الجزء الذي يتوَّج بإغواء ناتاشا على يد أناتولي كوراغين، الموضع الذي يشكل نصف الرواية تقريبا في النسخة النهائية منها في نهاية المجلد الثاني. واعتبر تولستوي هذه الحلقة ذروة سنام العمل بأسره؛ لأنها تمثّل شيئا شبيها بمرآة تعكس «انتهاك» نابليون لروسيا. وقد وجد صعوبة بالغة في كتابة هذا الجزء ربما جزئيا؛ لأنه كان يعكس تجربة شقيقة زوجته تانيا التي مرّت بتجربة مشابهة لتلك التي مرّت بها ناتاشا مع خطيب غير لائق. قرر تولستوي في هذه المرحلة أنه من الأفضل أن ينشر جميع ما كتبه لغاية الآن، عوضا عن الإمساك عن النشر لغاية إنهاء الجزء التالي الذي يغطي معركة بورودينو. وهكذا، نُشرت في

ديسمبر عام 1867 ثلاثة مجلدات تُكوّن نسخة الكتاب الأول، وبيعت بسعر سبعة روبلات. وقد اعترض أحد النقاد على دفع مبلغ «غير مناسب» كهذا لقاء ثلاثة مجلدات ضامرة ليست سميكة ذات أغلفة صفراء باهتة، زعَم أنها طُبعت بحروف كبيرة تصلح للأطفال والمتقدمين في السن فقط. ولكن رغم ذلك بيعت جميع النسخ. وطرح في السوق، بعدها بثلاثة أشهر، المجلد التالي في مارس عام 1868 مع إعلان مخادع يقول: «من يشتري أربعة مجلدات سيحصل على الخامس مجاناً، بينما من ينتظر إتمام النسخة بكاملها فسوف يدفع مبلغا أكبر لأن السعر سوف يرتفع حينها». وهكذا بيعت جميع الكتب، أما النسخة الثانية فقد تضمنت مراجعات جديدة معينة وظهرت في الخريف. ويذكر أن بيع جميع النسخ لم يكن إنجازاً بسيطاً أو سهلاً، لا سيما أن عوام الروس من القراء كان عددهم قليل نسبياً.

وبحلول عام 1868 كان تولستوي قد عزز من زخم الكتابة لينهي رواية «الحرب والسلام». وكلما غاص واستمر في الكتابة أصبح شكل الرواية أوضح وعزز الإلهام والإحساس بوجود هدف أعظم. فقد كان تولستوي رجلا مفرط الإحساس على أي حال، وها هو الآن في منتصف الطريق في خضم تدفقاته الإبداعية الهائلة. وها هو صديقه الشاعر أفانازي يشبِّهه بجرس عظيم مصنوع من أرهف أنواع الزجاج، جرسٍ قادرٍ على الرنين جراء أرهف اللمسات. لقد دفعت حساسيته المفرطة إلى الرد -على سبيل المثال- على بعض المراجعات النقدية السلبية الأولى من خلال نشر مقال في مارس/ آذار من عام 1868 في مجلة «الأرشيف الروسي» للناشر بارتيينف بعنوان: «بضع كلمات بشأن رواية الحرب والسلام». وقبل فترة طويلة من إتمام روايته، كان تولستوي على علم بأن أشكالا أخرى من الانتقادات ستطفو على السطح. وقد واجه السؤال المحير بشأن أسلوب روايته عندما طرح التعريف الذي سيقتبسه باستمرار لاحقا، والذي لا يساعدنا كثيرا في توضيح المسألة فقال: «ما الحرب والسلام؟ إنها ليست رواية، ولا تشبه القصيدة السردية، وتختلف أيضا عن الروايات التاريخية. الحرب والسلام هي ما أراده المؤلف واستطاع أن يعبر عنه بالشكل الذي عُبّر عنه فيه».

حاجج تولستوي، على نحو صحيح، وهو يبرر عدم تبجيله الواضح لأشكال الأدب الأوروبي التقليدية، بأنه، في الفترة الحديثة من الأدب الروسي، ومنذ صدور رواية «النفوس الميتة» لغوغول وانتهاءً بـ«مذكرات من البيت الميت» لدوستويفسكي، ليس ثمة عمل فني أدبي نثري واحد يمكن أن يصنف روايةً أو قصيدةَ شعر (سردية) أو حتى روايةً قصيرة. وقد تصدى أيضا لنقاط خلافية أخرى، كحقيقة أن الروس ليسوا وحدهم من يخلط الفرنسية والروسية في رواياتهم، بل الفرنسيين أيضا. وبخلاف دفاعه المستميت عن حق الفنان في عدم الالتزام حرفياً بالروايات التاريخية في عرضه لأحداث الماضي، فإنه يشرح كذلك أن اختراعه لأسماء من قبيل بولكونسكي ودروبيتسكوي، وهي قريبة جدا من أسماء وألقاب حقيقية لأرستقراطيين مشهورين كفولكونسكي وتروبيتسكوي، محكوم برغبته في جعل هذه الشخصيات الروائية تحمل أسماء تغدو لطيفة وطبيعية على مسامع الرّوس.

وعندما كتب مقالته «بضع كلمات» بشأن الرواية التي كان يعمل عليها «بلا انقطاع وحصريا» خلال خمس سنوات ماضية، اعترف تولستوي بصراحة بأنه استطاع أن يستغل «الظروف الحياتية المثالية». وربما لم يفكر فقط في وضعه المريح المتعلق باستقلاله المالي وممارسته الرياضة واستنشاقه الهواء العليل، بل فكر أيضا في الدعم العاطفي والعملي الذي وفرته له زوجته الرؤوم. فقد أنجبت صونيا أربعة أطفال، كما أنها أجهضت في إحدى المرات (أكتوبر 1867)، وذلك خلال ست سنوات قضاها تولستوي يكتب «الحرب والسلام». فبعد ولادة ابنها البكر سيرغيه أنجبت صونيا ابنتها تانيا عام 1864، ثم إيليا عام 1866، ومن ثم ليف عام 1869. وفي الوقت الذي لم تكن فيه صونيا ترعى الأطفال كانت تعمل من تلقاء نفسها ناسخة لأعمال زوجها، وبالتالي أصبحت منهمكة في حياته الإبداعية، وقد تطلب ذلك في بعض الأحيان صبر أيوب كما دونت في مذكراتها:

«في بعض الأحيان، كانت النُّسخ التي دُققت وصُححت نهائيا وأرسلت إلى الناشر تعود مجددا بطلب من ليف نيكولا يفيتش لكي يُعيد تصحيحها ونسخها مجددا، أو يرسل أحيانا تلغرافا

ليضع كلمة واحدة مكان أخرى. لقد انغمست كلي بروحي وعقلي في نسخ المسودات لدرجة بدأت أشعر وأتحسس العيوب التي يمكن أن تلحق بها. فعلى سبيل المثال، كنت اكتشف تكرار كلمة ما على نحو مبالغ فيه من دون داعٍ، أو ربما إطنابا في فقرة أو خطأً في الترقيم أو سوء فهم للمعنى... إلخ. وكنت دائما أنبه ليف نيكولا يفيتش إلى هذه الاختلالات، فكان أحيانا يشعر بالعرفان لملاحظاتي الصائبة وأحيانا أخرى يشرح السبب الذي يجعل التغيير غير لائق في هذا الموضع أو ذاك، وكان يقول إن التفاصيل لا تهم، بل ما يهم هو المخطط العام».

وإذا ما صدّقنا مذكرات شقيقها ستيبان، فإن صونيا نسخت مخطوط «الحرب والسلام» بكامله سبع مرات. لكن، ولسوء الحظ، فإن هذه الفرضية تبدو أنها كانت من نسج خيال ستيبان، لأن نيكولاي جوسيف يعتبرها في أحد هوامش دراسته لحياة تولستوي وأعماله من 1855 إلى 1869 (الدراسة التي تمتد على 900 صفحة) خرافة. لكنه يتنازل ويقول إن بعض فصول الرواية تمت إعادة صياغتها ونسخها بالفعل في العديد من المرات. ويشير إلى أن فصولا أخرى ذهبت إلى المطبعة مباشرة. بالمقابل، ثمة عدد من الفصول التي أعاد تولستوي كتابتها إلى ما لا نهاية. لذلك لا ينبغي التقليل من شأن مساهمة زوجته؛ لأن فك رموز وطلاسم خط يده وتحضير مسودة نهائية مقروءة من المخطوط لم تكن مهمة سهلة. بالإضافة إلى أن تولستوي كان قد وظَّف كاتبا ليساعد في عملية النسخ في العام 1866، لا سيما أنها كانت فترة دقيقة عصيبة من تأليف الرواية.

كان تولستوي حكيما بالدرجة الكافية التي تخوِّله إدراك حاجته إلى استراحة من عناء نشاطه الأدبي من فترة إلى أخرى. فكان دأبه أن يركز في الكتابة من الخريف حتى الربيع، ومن ثم يتمتع خلال شهور الصيف بمغامرات في الهواء الطلق؛ كالرماية أو الصيد أو ركوب الخيل، عندما تأتي في تلك الفترة تانيا شقيقة صونيا وأقارب وأصدقاء آخرون ليقضوا عطلتهم في ياسنايا بوليانا. وجد تولستوي نفسه عام 1865 متحمساً لقراءة أنتوني تورولوب الذي وفرت روايته «آل برترام» راحة مؤقتة له وتسلية صرفته عن انغماسه في التاريخ الروسي. وخلال عطلة

أمضاها في موسكو في السنة التالية عكف على النحت لفترة قصيرة (ولا غرابة أنه بدأ بنحت مجسم لجواد لأنه كان من عشاق الخيل). فهو لم يفقد مطلقا رغبته في اختبار الأشياء المسلية حتى في وقت متأخر من عمره. وقد بدأ أيضا باستخدام السكة الحديدية، وسيلة النقل الجديدة، حينما سنحت له الفرصة. وكان بناء شبكة سكك حديدية واسعة في روسيا في عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر من إنجازات حقبة الإصلاحات العظيمة. فقد أُنهي خط سكة حديد موسكو-كورسك على سبيل المثال عام 1867، بينما كان تولستوي يعمل على رواية «الحرب والسلام»، وقلَّص بذلك الوقت اللازم لقطع المسافة إلى النصف.

وبعد عقود من الزمن ستصبح ياسنايا بوليانا محجَّ آلافٍ من محبي تولستوي، وقد سهّل وصولهم إلى موقع العزبة المميز وصول سكة الحديد إلى قرية قريبة منها حيث بنيت المحطة الرئيسية في قرية ياسنكي جنوب تولا، التي تبعد أربعة أميال فقط عن ياسنايا بوليانا. شعر عدد كبير من محبي تولستوي الذين سافروا لزيارته بأن من واجبهم نشر رواياتهم المختلفة عن تلك الزيارات. لكن واحدة من تلك الروايات تختلف عن غيرها؛ ليس لأنها كُتبت قبل فترة من جميع الروايات الأخرى، بل لأنها كُتبت بطريقة مميزة. فقد كتبها يوجين شويلر، وهو كاتب ودبلوماسي أمريكي وصل إلى موسكو عام 1868 ليشغل منصب القنصل الأمريكي العام. وكان شويلر من أوائل الأمريكيين الذين حصلوا على شهادة دكتوراة، وكان قد بدأ تعلم اللغة الروسية بعد لقائه أفراد طاقم الفرقاطة الأخيرة في الأسطول الإمبراطوري الروسي، ألكسندر نيفسكي، التي رست في نيويورك. وفي عام 1866 نشر أول ترجمة أمريكية لرواية تورغينيف «آباء وبنون»، وكان قد التقى تورغينيف في بادن وهو في طريقه إلى روسيا في السنة التالية. ورغم برود العلاقة بين تولستوي وتورغينيف آنذاك، فإن الأخير أرسل مع شويلر رسالة تعريف به ليلتقي تولستوي. وهكذا تُوفِّر لنا رواية شويلر عن زيارته لياسنايا بوليانا نظرة حية عن عالم تولستوي في خريف 1868.

ففي الخامسة بعد الظهر من يوم السبت الرابع عشر من سبتمبر/ أيلول، وجد شويلر ذو الثامنة والعشرين نفسه يستقل قطارا من موسكو ليصل بعد تسع ساعات في الثانية فجرا إلى محطة ياسينكي ليجد في انتظاره عربة تولستوي. وقد استغرق قطع مسافة أربعة أميال للوصول إلى ياسنايا بوليانا ساعة ونصف ساعة بسبب هطول أمطار غزيرة. لكنه عندما وصل تنفس الصعداء لأن أفراد الأسرة «لهم باع طويل في السهر» كما قيل له، وبالتالي فإن قهوة الصباح ستُقدَّم على نحو معتاد في «الحادية عشرة صباحا». وهكذا انضم الضّيف إلى الكونت وزوجته لتناول الفطور في الصباح التالي بحضور أولادهم الثلاثة: سيريوغا وتانيا وإيليا، ومربيتهم الإنجليزية. واكتشف أن تولستوي كان قد استيقظ في الفجر وذهب إلى الغابة يحمل بندقيته بصحبة كلابه. رافق تولستوي لاحقا زائره في رحلات صيد للأرانب، وقد ثمَّن شويلر تلك التجربة التي رآها تتكشف بلباقة بالغة على صفحات فصول «الحرب والسلام» و«آنا كارينينا» عندما وصف تولستوي حفلات الصيد والقنص فيهما. ولم يكن شويلر في السابق قد قام برحلات كهذه، بل اكتفى بنزهات إلى الغابات في البحث عن الأشجار والأكمات والشجيرات، ولم يحمل في حياته بندقية، أما الآن فقد اكتسب خبرة مباشرة لإحدى أكثر الهوايات شغفا لدى تولستوي:

«كانت تجربة فريدة بالنسبة لي.. أن أجلس بلا حراك وكلي آذان صاغية وعيون واعية لأفرّق بين مختلف الأصوات في الغابة؛ لأعرف إذا ما كان ذلك الصوت منبعثا من عود أو وريقة تتساقط، لأن الأوراق حينها كانت تتساقط، وأفرّق بين أصوات الطيور، أو أخمِّن منشأ الأصوات المجهولة، وأن يكون تركيزي منصبًا دائمًا على سماع طقطقة خطى الأرانب».

قام تولستوي بإضافة القليل على روايته «الحرب والسلام» خلال الأسبوع الذي استضاف فيه زائره شويلر. لكنه جعل ضيفه الأمريكي يساعده في توضيب مكتبته التي كان حجمها يزداد يوما بعد يوم. وفي نهاية زيارته أعطي شويلر رخصة لترجمة «القوزاق»، وهو مشروع استغرق منه وقتا طويلا بسبب التزاماته المهنية الأخرى. وانتقل شويلر بعد فترة عمله في موسكو إلى

سانت بطرسبورغ، وعمل فيها لبضع سنوات قام خلالها برحلات جريئة وجديرة بالاهتمام إلى المدن الجديدة في تركمانستان الروسية. بعد ذلك نُقل إلى القسطنطينية وسبّب عاصفة دبلوماسية من خلال كشفه النقاب عن فظائع ارتكبها الأتراك بحق البلغار، مما ساعد على تعزيز موقفهم الوطني. ونتيجةً لذلك، تمَّ عزله من منصبه عام 1878 ليُعيَّن قنصلا أمريكيا في برمنغهام التي وجدها مملة وبالتالي أنهى فيها أخيرا ترجمته لرواية «القوزاق» (وكان صريحا في مذكراته عندما اعترف بأن تولستوي لم ترق له ترجمته كثيرا). وشاطر شويلر تولستوي شغفه العميق ببطرس الأكبر الذي حاول تولستوي أن يجعله موضوعا لرواية جديدة بعد إتمام «الحرب والسلام»، لكنه تخلى عام 1873 عن مشروع بطرس الأكبر ليكتب «آنا كارينينا»، لكن فصولا من دراسة شويلر عن القيصر الروسي بدأت أخيرا بالظهور عام 1886.

عاد شويلر إلى موسكو تاركًا تولستوي ليكمل «الحرب والسلام»، بعد أن أمضيا أسبوعا رائعا حافلاً بالنزهات المؤنسة والأحاديث المسلية عن الأدب والتعليم استمرت طويلا حتى ساعات السَّحَر من الليل. وقد نُشر المجلد الخامس من الرواية في مايو 1869، وظهر المجلد السادس والأخير في ديسمبر من ذلك العام (يُذكَر أن تولستوي كان قد قلَّص المجلدات الستة إلى الأربعة التي نعرفها اليوم، عندما راجع الرواية للمرة الثالثة عام 1873 حينما نشرت نسخة جديدة من أعماله الكاملة). لقد كانت كتابة الرواية مهمة شاقة تطلبت جهدا ووقتا عظيمين. فقد عمل تولستوي بكد ودأب على مدار ست سنوات لإتمام «الحرب والسلام»، وكانت صونيا تكظم غيظها بسبب تأخره المتكرر عن تناول الطعام، وكانت تحاول إقناع نفسها في مناسبات كهذه، كما دونت في مذكراتها، بأن الالتزام بأوقات تناول العشاء يعتبر أمرا تافها بنظر العباقرة من أمثال زوجها. وكان تولستوي يؤمن بالرياضة البدنية وممارسة الأنشطة والتمارين الرياضية في الهواء الطلق، وكان يواظب على ذلك باستمرار. ولا شك أنه لم يكن يفتقد الجلَد الضروري لإتمام مهمة هائلة ككتابة رواية «الحرب والسلام»، رغم أنه كان قد عانى من وعكات صحية متكررة أثناء كتابتها، لا سيما عندما اقترب من نهايتها؛ إذ عانى من صداع نصفي

رهيب. وفي فترات أخرى كان يشعر بإرهاق واضطرابات صحية دفعته إلى السفر إلى موسكو لاستشارة غريغوري زاخارين؛ أحد أهم الأطباء في موسكو في ذلك العصر.

لاقت رواية «لحرب والسلام» انتشارا واسعا ومذهلا في صفوف العامة عندما نُشرت لأول مرة، لكنها ولَّدت عاصفة من الجدل أيضا. وكان من الواضح للجميع أن تولستوي قد أنتج شيئا استثنائيا؛ إذ لم يبالغ الكاتب إيفان غونتشاروف عندما صرّح بأن تولستوي قد غدا «الأسد الحقيقي في عالم الأدب» الآن. لكن العديد من المخضرمين المتقدمين في السن اعتقدوا بأن تولستوي قام بتشويه التاريخ، فشعروا بالتالي بالإهانة. وفي المقابل ندّد النقاد الشباب المدفوعون سياسيا التواقون إلى دفع روسيا على طريق الإصلاح، نددوا بالقيم العائلية المحافظة التي نافح عنها تولستوي في روايته لا سيما احتفاءه بطبقة النبلاء. حتى أولئك الذين كانوا بعيدين عن عالم النقد ولم تكن لديهم شكاوى معينة وجدوا استطراداته المسهبة مزعجة، بينما شعر ببساطة العديد من كتاب النثر الروس بالغيرة الشديدة من تلك الرواية فكانوا يُعلّقون تعليقات باردة خجولة.

ومن بين النقاد الأوائل كان تورغينيف الذي كانت لديه أسبابه الشخصية التي تجعله كارها للنجاح العظيم الذي حققه، بلا جهد كبير، معاصره الأصغر منه سنا. لكنه مع ذلك كان شخصا متواضعا وكريما في أعماق أعماقه. وبحلول الوقت الذي نشر فيه الناشر الفرنسي هاتشي الترجمة الفرنسية الأولى لرواية «الحرب والسلام» عام 1879 كان الرجلان قد تصالحا. لذا انتهز تورغينيف حينئذ كل سانحة ليروِّج لتولستوي في أوساط الفرنسيين الذين لم يكونوا على دراية بأعماله بعد. وعندما ظهرت ترجمة الرواية بواسطة «سيدة روسية» (الأميرة إيرينا باسكيفيتش، واسمها عند الولادة فارونتسوفا -داشكوفا، وقد كانت سيدة عظيمة موقرة ذات نفوذ عريض في مجتمع بطرسبورغ المخملي)، وفَّرَ ذلك لتورغينيف فرصة ملائمة ليكتب لأدموند أبوت، محرر المجلة الفرنسية[120] ويشرح له أهمية الرواية وكاتبها. يعرض تورغينيف

(120) XIXe Siecle.

في رسالته، التي نشرت في الثالث والعشرين من يناير عام 1880، للقراء الفرنسيين مقدمة متفوقة في دقتها وموضوعيّتها عن الرواية وصاحبها، وخليقة بأن تكون خير ما نختم به من كلمة أخيرة عن حياة تولستوي في هذا الفصل:

«عزيزي السيد أبوت،

كنتم في غاية اللطف عندما نشرتم رسالتي بشأن معرض لوحات فيريشتشاجين في مجلتكم الموقرة[121]، فالنجاح الذي استشرفته من ذلك المعرض، والذي فاق كل توقعاتي، شجعني على الكتابة إليكم مجددا. أكتب إليكم مجددا بشأن عمل فنان، ولكنه فنان يبدع بقلمه وليس بريشته.

ما قصدته هو الرواية التاريخية «الحرب والسلام» لمؤلفها الزميل المواطن الكونت ليف تولستوي، وقد نشرت ترجمة لها من قبل دار نشر «هاتشي». يعتبر ليف تولستوي الكاتب الأشهر من بين الكتاب الروس المعاصرين. أما «الحرب والسلام» فاسمح لي أن أتجرأ وأقول إنها إحدى أهم الروايات في عصرنا. فهذا العمل الموسع تغزوه روح ملحمية تعرض الحياة الخاصة والعامة لروسيا في السنوات الأولى من هذا القرن. وقد خلقتها يدا صانع ماهر. فقبل أن يجتاز القارئ حقبة بأسرها غنية بالأحداث العظيمة والشخصيات البارزة (تبدأ القصة بعيد هزيمة النمساويين وصولا إلى معركة بورودينو)، تتكشف عوالم هائلة لشخصيات متنوعة تنتمي إلى مستويات المجتمع كافة، استقاها تولستوي من الواقع. أما الأسلوب الذي يطور فيه الكونت تولستوي موضوع الرواية فهو أسلوب جديد بقدر ما هو أصيل، فهذا ليس والتر سكوت وبداهة ليس ألكسندر دوما. فالكونت تولستوي كاتب روسي حتى النخاع، وأولئك القراء الفرنسيون الذين لا يكترثون ببعض الفترات المملة في الرواية أو غرابة بعض الأحكام، سيكتشفون أنهم محقون عندما يقولون لأنفسهم بأن «الحرب والسلام» وفرت لهم تمثيلا مباشرا وصادقا عن شخصية ومزاج الشعب الروسي والحياة الروسية عموما، لن توفرها لهم

---

(121) XIXe Siecle.

قراءة مئات كتب التاريخ أو الكتب التي تتناول دراسة الأجناس والسلالات البشرية وعاداتها. فثمة فصول بكاملها لا يتعين علينا العبث فيها لأنها ستبقى كما هي. وثمة شخصيات تاريخية (كوتوزف ورستوبشين وغيرهما) ستبقى سماتها وآثارها محضورة في ذاكرتنا إلى الأبد. أقول لكم إن هذه الرواية لن تفنى أبدا.

كما ترى يا سيد أبوت، فإنني أعبر عن نفسي بإسراف بالغ رغم أن كلماتي لا تعبر بالفعل عن كل ما يجول في خاطري. ربما ستعيق أصالة الكونت تولستوي العميقة الفهم المتعاطف والسريع للقارئ الأجنبي لهذه الرواية بسبب قوتها. لكنني أعيد وأكرر، وسأكون سعيداً لو وثق الناس بما أقول، إن هذا العمل لعمري عمل عظيم لمؤلف عظيم يمثل روسيا الحقيقية.

مودتي الخالصة سيد أبوت

المخلص

إيفان تورغينيف».

الفصل الثامن

الطالب والمعلم والأب

«الشِّعر هو النار التي تتأجج في نفس المرء.. تشتعل النار وتأتي بالدفء والنّور، فيشعر بعض الناس بالحرارة ويشعر بعضهم بالدفء ويرى آخرون النّور فقط ويعمى آخرون عن كل ذلك. أما الشاعر الحقيقي الجهبذ فهو الذي يصطلي بلهيبها فيتألم ويُحرق الآخرون. بالفعل، هذا هو بيت القصيد».

من مذكرات تولستوي، 28 أكتوبر 1870

بحلول منتصف عام 1869 أصبحت روسيا بأسرها تقريبا مولعة ومهووسة برواية «الحرب والسلام» وينتظر الجميع خاتمتها بفارغ الصبر وفقا لصحيفة في بطرسبورغ. وتعين على تولستوي حينها الإشراف على نشر الفصول الأخيرة (التي طُرحت للبيع أخيرا في ديسمبر من ذلك العام)، لكنه كعادته كان منشغلا بأمور أخرى في اتجاهات شتى. وقد كان اهتمامه بالرواية في واقع الأمر قد بدأ يذبل في تلك الفترة، فأمضى الصيف التالي منغمسا في قراءة الفلسفة الألمانية، وباشر بعدها دراسة مكثفة للملاحم الشعبية والقصص الروسية الأخرى؛ إذ كان يفكر في تأليف كتب لمساعدة الأطفال على تعلم القراءة. كما قرأ أيضا في تلك الفترة شكسبير وموليير، وبدأ كتابة نص مسرحية، وفكر في تأليف رواية عن بطرس الأكبر، وأخذ يفكر في الوقت نفسه في تأليف رواية مختلفة تماما حول مأزق تتعرض له امرأة من الطبقة المخملية في روسيا المعاصرة. وفوق كل ذلك بدأ يتعلم الإغريقية القديمة. لكنه كان يشعر بسعادة غامرة عندما يكف عن التفكير في أي شيء، وهذا ما حصل بالفعل في الأسابيع والشهور التي أعقبت إتمام «الحرب والسلام». فلَعِبُ الورق (البيزيك) مع عمته في أمسيات الشتاء الباردة كان يولّد في نفسه متعة لا توصف تصرِفُهُ عن التفكير الجاد في أي شيء آخر، وتدل على استرخائه

وارتياحه (ويذكر أنه كان مهووساً بلعب لعبة السّوليتار، لا سيما في مرحلة بداية كل عمل جديد). أما الشيء الأكثر متعة فكان التزلج على الهضاب الجليدية في الأرياف وفي الغابات وعلى البركة الكبيرة تحت منزله.

كان أيضا يعطي دروسا لابنه سيرغيه ذي الست سنوات ويقضي ساعات يحاول أن يتقن فيها بنفسه بعض الحركات والمناورات المعقدة. وعندما يحلّ الصيف كان يعمل في الحديقة؛ يفلح ويحرث ويزرع نبات القراص والأرقطيون ويرتب أحواض الزهور. وكان أيضا يذهب إلى الحقول ويمضي أياماً يفلح الأرض ويجزّ العشب مع الفلاحين. كتب إلى سيرغيه يوروسوف (وهو الشخص الذي قابله وصادقه خلال فترة الدفاع عن سيباستوبل) يقول: «لا أستطيع أن أصف لك المتعة بل قل السعادة التي أشعر بها عندما أزاول هذا العمل». وقد وصف ذلك لاحقا عندما كان يكتب «آنا كارينينا»، فقد خصّص أكثر الفقرات نغماً لنشوة قطع العشب عِوضاً عن تفتح العشق والرومانسية. ومع عودة الخريف انطلق تولستوي في رحلات الصيد كعادته يصطاد الأرانب ودجاج الأرض. لكنه في السنة التالية اصطاد ذئبين.

وعندما كان ينشغل في مغامراته في الهواء الطلق، كان يدرأ الأفكار القاتمة التي كانت تراوده وتهدد طمأنينته خلال الفترة التي كانت تفصل بين مشروع أدبي وآخر، أو ما كان يسميها «الفترة القاتلة» و«الوقت الميت».

كتب في الرسالة الأولى التي أرسلها إلى الفيلسوف والناقد البطرسبورغي نيكولاي ستراخوف، الذي سيصبح بعدها أحد أقرب أصدقائه ومساعديه وكاتمي أسراره: «كانت فترة مريعة من عدم اليقين». كان ستراخوف ابن قسيس من المقاطعات، وكان ذا عقل راجح وثقافة واسعة وفكر مستنير. وقد أمضى أول فترة من حياته المهنية يدرس الرياضيات والعلوم الطبيعية، لكنه انتقل إلى العمل في مكتبة سانت بطرسبورغ العامة وبقي فيها حتى تقاعده عام 1885. وقد كان يُكنُّ احتراما بالغا لتولستوي وكانا من العمر نفسه. فقد كان ستراخوف أول من اعترف بحجم الإنجاز الذي حققه تولستوي، وذلك من خلال ثلاث مقالات كتبها

واستعرض فيها رواية «الحرب والسلام». وبعد أن نشر المقالة الثالثة الأخيرة في المجلة الجديدة المناصرة لقضايا السلافيين «الفجر» في يناير من عام 1870، كتب ستراخوف إلى تولستوي يدعوه ليصبح مساهما في المجلة؛ لكن تولستوي رفض الدعوة شارحا بأنه كان في حالة يرثى لها؛ يفكر في لحظة في وضع خطط طموحة جموح ويستسلم في اللحظة التالية إلى الشك الذاتي.

دائما ما وجد تولستوي الشروع في عمل روائي جديد أمرا مرهقا ذهنيا؛ لأنه شعر أنه يتعين عليه أن يكشف النقاب عن إسقاطات شخصيات روايته قبل أن يبدأ بالكتابة، وكأن ذلك بمثابة لعبة شطرنج. وقد وصف هذه العملية المعقدة في رسالة كتبها لأفانازي فات في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1870:

«أشعر بالفتور والاكتئاب والغمّ ولا أستطيع الكتابة وأجدها أمرا يعذب الفؤاد. لا يمكنك أن تتخيل صعوبة العمل التحضيري هذا إذ أقوم بسبر أغوار الموضوع المعني. فالتفكير العميق وإمعان النظر في كل شيء يمكن أن يحصل لجميع شخصيات عملي القادم، الذي سيكون عملا ضخما، وتمحيص ملايين الاحتمالات والسيناريوهات لاختيار واحد من مئة ألف، أمر مرهق ومروع. وهذا ما يشغلني في الفترة الراهنة».

وعوضا عن أن يبتهج تولستوي بتحقيقه إنجازا مهولا لدى إتمامه الحرب والسلام، اجتاحه خوف جارف ينفذ من مسامات جلده لأنه اعتقد أن مساره بوصفه كاتبا ألمعيا قد وصل إلى النهاية. وقد تفاقم القلق وتعمَّق الخوف لديه كما استذكرت صونيا لاحقا رغم أن مزاجه كان يتحسن بين الفينة والفينة عندما تلتمع في خلايا دماغه فكرة ملهمة. لكنه كان غارقا في الحزن ونكد المزاج في معظم ساعات تلك الفترة؛ إذ كان مقتنعا بأن «كل شيء قد انتهى بالنسبة له وأن ساعة الموت قد حانت... إلخ». وكان يبلغ من العمر حينها واحدا وأربعين عاما ولم يدر أن العمر سيطول به ليعيش واحدا وأربعين عاماً غيرها.

استطاع تولستوي أن يقمع بنجاح ميوله نحو الاكتئاب لأن موجة هائلة من الإلهام الخلاق قد عصفت بشاطئه فدفعته لكتابة الحرب والسلام. أما الآن فلم يقوَ على درء الأفكار السوداوية فاستسلم لسطوتها، بالإضافة إلى أن حالته الصحية العليلة المستمرة زادت الطين بلة وأسهمت في تعكير مزاجه. وبعد سنتين من إتمام الحرب والسلام كانت روح تولستوي المعنوية ما تزال في الحضيض، لدرجة أنه اعترف لسيرغيه يوراسوف بأنه لا رغبة لديه في الاستمرار بالحياة وأنه لم يشعر في حياته قط بهذا البؤس والشقاء. وبما أن زوجته لم تكن تفهم الأعراض التي كان يعاني منها تولستوي في ذلك الحين، كما لم يفهمها هو أيضا، أصبحت صونيا قلقة وأرادت منه أن يباشر عملا جديدا في أسرع وقت ممكن. لكن الأمر استغرق ثلاث سنوات قبل أن يستأنف تولستوي الكتابة ويبدأ برواية آنا كارينينا التي تطلبت كتابتها جهدا مضنيا بالقدر الذي تطلبته كتابة الحرب والسلام من قبل. تعتبر رواية آنا كارينينا رواية آسرة مشوقة، ويقول القراء دائما إنهم لا يستطيعون إلا أن يكملوا قراءتها في جلسات متتالية بخلاف الروايات الأخرى. لكن، على العكس من ذلك، لم يكن تولستوي راغبا في إتمامها؛ لدرجة أنه أضطر لإرغام نفسه على استئناف الكتابة. ويذكر أن تلك الفترة مثّلَت لتولستوي وصونيا نهاية السنوات السعيدة من زواجهما لكنهما لم يكونا يدركان ذلك بعد.

إذا ما راودت تولستوي أفكار عن موته بعد إتمام الحرب والسلام فذلك لأنه بدأ بمواجهة الموت جديا بينما كان يكتبها. فقد حصلت المواجهة الأولى المزعجة عندما شارك مصادفة في المحكمة العسكرية للجندي فاسيلي شابونين عام 1866. فقد أثر ذلك الحدث المعزول تأثيرا بالغا عليه فاق استعداده للاعتراف به حينها. ففي ذلك الصيف زار آل تولستوي صديقا لآل بيرز يدعى غريغوري كولوكولتسف؛ وهو ضابط كان يخدم في كتيبة موسكو للمشاة على بعد بضعة أميال من ياسنايا بوليانا. وفي زيارات لاحقة كان يأتي معه بعقيد يدعى بيوتر يونوشا وضابط آخر يدعى ألكسندر ستاسيوليفيتش كان يتمتع تولستوي بصحبتهم في رحلات على الخيل. وقد أتى يوما من الأيام كل من كولوكولتسف وستاسيوليفيتش ليطلبا من تولستوي بأن يدافع عن أحد

جنود الكتيبة في محاكمته العسكرية الوشيكة؛ وكانت التهمة أن الجندي العريف شابونين كان قد ضرب مسؤوله مما يستدعي حكما بالإعدام وفقا للقانون الروسي. وبما أن تولستوي كان من أشد المعارضين لعقوبة الإعدام، منذ أن شهد إعداما بالمقصلة على الملأ عندما كان في باريس، فقد وافق على الدفاع عن المتهم.

ورغم دفاع تولستوي المستميت عنه إلا أن شابونين أُدين وصدر بحقه حكم بالإعدام رميا بالرصاص. أصيب تولستوي بالذعر من جراء ذلك الحكم ولم يستطع أن يتفهم أن جنحة بسيطة كتلك يمكن أن تستدعي عقوبة قاسية وغير لائقة، مما دفعه على الفور إلى التظلم عبر قنوات رفيعة من خلال قريبته المتنفذة ألكسندرين في بطرسبورغ لكن جميع محاولاته باءت بالفشل. وربما كان مردّ ذلك جزئيا إلى انتشار الهستيريا في البلاط الإمبراطوري، لا سيما بعد محاولة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني في بطرسبورغ منذ شهور قليلة.

أما من أطلق النار على القيصر فلم يكن سوى ديمتري كاراكازوف أحد ثوار روسيا الأوائل، الذي حكم عليه لاحقا بالإعدام أيضا. طلب تولستوي في سبتمبر من فرقة العزف العسكرية التي أرغمت على العزف أثناء إعدام شابونين بأن تأتي إلى ياسنايا بوليانا لتعزف في حفلة عيد يوم اسم[122] صونيا التي نظَّمها لها تولستوي كمفاجأة. كانت أمسية دافئة تخللها رقص طوال الليل وعشاء على الشرفة على طاولة مزركشة بالزهور. كتبت صونيا في مذكراتها أنها كانت أمسية جد مبهجة وأن زوجها كان في مزاج رائق جدا. عاد بعدها إلى استئناف الكتابة في الحرب والسلام. ولم يكن انتحار ستاسيوليفيتش في السنة التالية مرتبطا مباشرة بإعدام العريف شابونين رغم تأثر تولستوي البالغ به، إذ مثَّل سيناريو مخيفا لحدث سوف يقض مضجع تولستوي كما اتضح لاحقا.

(122) يحتفل فيه عادة في يوم وفاة القديس الذي يسمى الشخص باسمه، وفقا للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

كان ثمة خسارات شخصية أيضا. ورغم أنه لم يكن مقرَّبا إلى حد كبير من حماه أندريه إستافيفيتش، أو زوج عمته زير النساء فلاديمير في قازان، أو صهره الكريه فاليريان بيتروفيتش تولستوي، الذين توفوا جميعا في الستينيات من ذلك القرن، إلا أنه حزن حزنا شديدا لوفاة إليزافيتا، شقيقة ألكسندرين، وداريا ألكسندروفنا المعروفة للجميع بدولي؛ وهي زوجة أعز أصدقائه ديمتري دياكوف الذي كان يعرفه منذ أيام الدراسة. بعدها في عام 1869 فقد صديقه الأرمل سيرغيه يوراسوف ابنته الوحيدة ليديا، بينما فقد صديق آخر له، أفانازي فات، شقيقته ناديجدا وصهرين هما نيكولاي وفاسيلي بوتكين على التوالي، وقد كان تولستوي تربطه علاقة بالأخير امتدت لعقد من الزمن. وقد تألم لموته المفاجئ وهو في صحبة أصدقاء له اجتمعوا في منزله ليستمعوا إلى أداء وتري لرباعية موسيقية.

وفي صيف عام 1869، بدأ تولستوي مواجهة الحياة والموت فلسفيا من خلال قراءة شوبنهاور (1788-1860)، وهو مفكر اشتهر برؤيته المتشائمة للعالم. وقد اعتُبر من أعظم الفلاسفة في القرن التاسع عشر وحظي باحترام شخصيات مرموقة متعددة كنيتشه وويتغينشتاين وفرويد ويونغ، وقد جذب أيضا على نحو خاص العقول الخلاقة بفضل جمال وبساطة سرده وتفاعله المباشر مع مشكلة الوجود في الحياة الواقعية، عوضا عن التجريد في الطرح، واحتلَّ الفن موقعا ذا قيمة عالية في منظومته الفلسفية. كان شوبنهاور من أوائل الفلاسفة الغربيين الذين استطاعوا تناول الفلسفة الهندية بالدراسة والتمحيص على نحو جدي من خلال الترجمات التي أصبحت متاحة حينها، وتأثروا بالأفكار البوذية في رؤيتهم للحياة كونها مليئة بالعذابات الجلية التي تفقأ العين. وكما هي الحال في البوذية، حدد شوبنهاور المعاناة من خلال التصاقها بالرغبات، واعتبر الفن والتعفف والتراحم من السبل المتاحة للبشر ليختبروا من خلالها تحررا مؤقتا من المعاناة. لاقت أفكار شوبنهاور بشأن عبثية كفاح الإنسان في الحياة استحسانا لدى تولستوي، فقد اعتبرها منطقية تماما وتحمس لها أشد الحماسة، لدرجة أنه أتى بصورة لفيلسوفه العظيم وعلَّقها على جدار غرفة مكتبه. لم يكن تولستوي بدعا في تبجيله لشوبنهاور،

فقد كان ثمة العديد من الفنانين العظام الذين كانوا يحترمونه بقدر احترام تولستوي له، ومن بينهم تورغينيف وتوماس مان وصموئيل بيكيت، ناهيك عن مؤلفين موسيقيين من أمثال ريتشارد فاغنر، الذي كان، بينما كان تولستوي منهمكا بكتابة الحرب والسلام، منهمكاً بدوره بتأليف دير رينغ ديس نيبِلُنغين[123]، التحفة الموسيقية التي تعتبر شقيقة الحرب والسلام؛ لا من حيث النطاق والطموح فحسب، بل أيضا من الناحية الفنية في التوظيف الخلاق للتكرار.

اجتمعت أفكار الموت على تولستوي دفعة واحدة في خريف عام 1869 عندما كان في رحلة إلى مقاطعة بينزا ليرى قطعة أرض كان ينوي شراءها. وبينما توقف ليمضي ليلة في بلدة أرزاماس، وجد نفسه مستيقظا في الثانية صباحا منهك القوى يعاني من الأرق. ورغم أنه كان على ما يرام بدنيا، إلا أن الخوف من الموت تملكه على حين غرة، وكانت قبضته أقوى من أي شيء اختبره في حياته بحيث ولَّد في نفسه حالة من الكرب الوجودي، وقد وجد ذلك مروعا للغاية. وبعد سنوات عديدة استذكر هذه الوحشة الوجدانية الحادة عندما بدأ يكتب عملا يعكس فيه جوانب من سيرته الذاتية أسماه «مذكرات رجل مجنون» رغم أنه لم يتمَّه.

وبخلاف هوسه بالموت، ظهرت غمامة في أفق تولستوي عكرت صفو حياته بعد أن أنهى الحرب والسلام، تلخصت في الصعوبات التي كانت تعترض حياته الزوجية. فرغم أن تولستوي كان يعامل زوجته في البدايات كما يعامل الطفلة، لكنه هو نفسه كان بمثابة طفل في التعامل معها في كثير من الوجوه. فبعد أن دخل عش الزوجية، أصبحت صونيا بمثابة الأم التي تُعتبَر مصدرا للحماية؛ فقد وفَّرت له استقرارا عاطفيا كان يحتاجه للتركيز في كتاباته. وقد شهدت تلك الفترة (فترة كتابة الحرب والسلام) بعض الحوادث المقلقة التي نغصت معيشتهما وأثرت سلبيا على صفاء السنوات السعيدة، لكنها كانت استثناءات ولم تكن القاعدة، لذلك تجاهلها الزوجان كونها انحرافات استثنائية عن القاعدة السعيدة لزواجهما، أما الآن فقد انقلبت الآية. ذكرت صونيا في أغسطس من عام 1871 في دفتر مذكراتها أن شيئا ما في علاقتهما

(123) خاتم النيبلُنغين.

قد «انقطع فجأة» في الشتاء الماضي عندما كانا يشعران بوعكة صحية. كما أشار تولستوي في مذكراته لاحقا إلى أنه أصبح على دراية بوحدته بعد أن «انقطع حبل الود» و«انفصمت العروة» في زواجهما في الفترة نفسها تقريبا. لقد تشاجرا من ذي قبل بلا شك، لكن هذا الشرخ كان أكثر خطورة من أي شيء آخر. وقد نشأ أولا بسبب آرائهما المختلفة عن دور المرأة في الزواج. ورغم أن صونيا استمرت في النزول عند رغبة زوجها والخضوع له بسطوة الحاجة البدنية المحضة أحيانًا، إلا أنها أصبحت على نحو مضطرد أكثر ثقة وحزما في التأكيد على آرائها.

أنجبت صونيا في فبراير عام 1871 ابنتهما الثانية (طفلهما الخامس) التي عُمِّدت باسم ماريا؛ تيمنًا باسم شقيقة تولستوي وأصبحت بالتالي تعرف، كشقيقته، من قبل الجميع بلقب ماشا. وبعد ولادة شاقة للغاية أصيبت صونيا بحمى النفاس وشارفت على الموت، وهذا ما جعلها غير راغبة في تحمل رعب وألم جولة أخرى من الوقوع في براثن المرض. وبدأت بالتالي تفكر في العزوف عن الحمل مجددا، لكن زوجها كان له رأي آخر. فالأمر لم يقتصر على أن تولستوي لم يكن يؤمن بالزواج من دون إنجاب فحسب؛ ذلك أنه اعتبر أن وظيفة المرأة الرئيسية هي الحمل والولادة والإرضاع الطبيعي والتربية، بل إن مجرد التفكير في تجنب الحمل والولادة من قِبل زوجته كان أمرا مروِّعا بالنسبة له. في واقع الأمر، قام تولستوي في مارس من عام 1870 بعرض أفكاره بشأن هذه المسألة في رسالة وجهها إلى نيكولاي ستراخوف(124) ولم يرسلها. ستراخوف الذي أعقب مراجعته للحرب والسلام بمقالة عن « قضية المرأة» نشرها في العدد التالي من مجلة «الفجر». ورغم أن تولستوي لم يرسل تلك الرسالة، إلا أنه من الواضح أنه شعر بدافع ليجيب مباشرة على مقالة ستراخوف. في الواقع، بدأ صياغةَ مقالة عن الموضوع بنفسه عام 1868 وصف فيها الرجال بأنهم «نحل عامل في قفير المجتمع الإنساني»، ووصف النساء بملكات النحل اللواتي لا ينبغي أن يُصرفن عن دورهن الرئيسي، وهو الحفاظ على

---

(124) Николай Страхов (Nikolay Strakhov).

النسـل البشـري. وقـد شـغلت «قضـية المـرأة» تولسـتوي وأرهقتـه وشـكلت بالفعـل الموضـوع الرئيسي وحجر الزاوية في روايته اللاحقة «آنا كارينينا».

لم يكن تولستوي يُحبّذ الاشتراك في عضوية الصحف والمجلات بخلاف استثناءات قليلة. أصبح ثيودورس، وهو ألماني من أولـدينبورغ كـان مسـؤولا عـن طباعـة الحرب والسـلام، عـام 1870 المحرر المؤسس لمجلة موسكوردويتشا تسايتونغ، الصادرة في موسكو[125]. وبينما بـدأ نشر الترجمة الألـمانيـة للحـرب والسـلام في أعـداد المجلـة الأولـى، بعـد شـهر فقـط مـن إصـدار المجلد الأخير من الرواية بالروسية، أرسل إلـى تولسـتوي صـحيفته بالمجـان. كانـت الصـحيفة الباريسية روفي دو دوموند[126] الصحيفة الوحيدة التي كان آل تولستوي يقرؤونها باستمرار لفترة طويلة، لكنهم لاحقا في السبعينيات رتبوا لمشاطرة التكلفة لعدد من الاشتراكات مع سيرغيه في عزبة بيراغوفا. وكان تولستوي لا يقرأ مراجعات أعماله، إذ تذكّر كيـف طـارد النقـاد بوشكين في فترة حياته. لكن الحقيقـة هـي أنـه كـان يقـرأ النقـد وكـان يشـعر بـأن النقـاد يكتبـون ليعتـدوا علـى شخصـه، وقـد كـان يـرد علـيهم علـى الفـور كتابـة رغـم أن مشـاعر الأذى النفسـي قـد انحسـرت بسرعة؛ لأنه ترك الكثير من ردوده من دون أن يرسـلها لهـم. لكنـه جعـل مـن سـتراخوف استثناءً لأن مراجعته النقدية كانت ذكية وإيجابية بامتياز، ولهذا قرأ أيضا مقالـة سـتراخوف عـن موضـوع تحرير المرأة.

كان «موضوع المـرأة» موضـوعا سـاخنا في روسـيا في تلـك الفـترة، كمـا هـو الشـأن في جميـع أرجاء أوروبا، لدرجة أن ترجمتين اثنتين لمقالة جون ستيوارت ميل «إخضاع المرأة» نُشرتا بعـد أشهر قليلة من نشر نسختها الأصلية في إنجلـترا عـام 1869. ويُـذكَر أن مقالـة سـتراخوف كانـت قد نُشرت بعدها بأشهر قليلة أيضا في فبراير عام 1970. وقد اشتُهر جـون سـتيوارت ميـلْ بكونـه أول برلماني بريطاني طالب بمنح حق الاقتراع للنساء والدفاع عن حقوقهن، وكان له أتباع كثر في

(125) Moskauer Deutsche Zeitung.

(126) Revue des deux mondes.

روسيا؛ لكن تولستوي وستراخوف لم يكونا من بينهم لأنهما كانا محافظين. أما ستراخوف العالم المميز والأعزب الأبدي فقد احتفى بالحرب والسلام كونها رواية أسرية، مؤكدا في مقالته بأن موقع المرأة ينبغي أن يكون داخل الأسرة. وقد وافقه تولستوي قلبا وقالبا مع استثناء بسيط يكمن في معارضته لرأي ستراخوف السلبي إزاء المومسات، محاججاً بالقول بأن لهن دورا مهما يلعبنه في الحفاظ على مؤسسة الزواج. إذ كتب قائلا: «تخيل أن تكون لندن من دون 80 ألف مومس[127]، ماذا سيحصل للأسر لو لم تكن تلك العاهرات موجودات».

كانت صونيا تبلغ من العمر 27 عاما فقط عندما أنجبت ماشا، لذلك من المؤكد أنها كانت ترتعد خوفا من مجرد التفكير في الالتزام برغبات زوجها؛ لأن تعنته وتشبثه بأفكاره سوف يؤدي إلى حملها ثماني مرات أخرى وولادة ثمانية أطفال في فترات مختلفة عاش منهم حتى البلوغ ثلاثة فقط. وبخلاف المخاطر الصحية، فإن كل حمل كان يلصقها أكثر فأكثر بياسنايا بوليانا، مما عنى أيضا أنها كانت تؤجل مجددا آمالها بمزاولة حياة خارج إطار حضانة الأطفال. كتبت في مذكراتها في يونيو عام 1870: «مع كل طفل يأتي يتعين عليكِ أن تتخلَّي عن حياتك الشخصية وتتفانَي تحت أعباء الرعاية والأمراض والشواغل والسنين». كانت صونيا أماً رؤوماً متفانيةً، وكانت تحب العيش في ياسنايا بوليانا، لكنها كانت شابة ترعرعت في المدينة، وبالتالي أصبحت بعد فترة تتوق لتغيير الروتين والمشاهد اليومية المتكررة، وتتلهف لصحبة قريناتها وانتهاز فرصة ربما للذهاب إلى حفلة سواريه. وقد وجدت الوحدة مدعاة للاكتئاب. وقد كان دأب أسرتها والأسر الروسية الأخرى التي تنتمي إلى المناخ الاجتماعي نفسه، قضاء الشتاء في المدينة والصيف في عزبة ريفية أو منزل صيفي. لكنها عاشت مع آل تولستوي في الريف طوال العام. في بداية زواجهما كان تولستوي يحلم بشراء محل للإقامة من حين إلى آخر في موسكو؛ شقة على شارع سيفتسيف فراجيك، وهو شارع هادئ خلفي في قلب المدينة يحبذه

(127) استخدم تولستوي كلمة ماجدولين Magdalenes في رسالته، وهي كلمة ذات دلالات إنجيلية دينية. كما أنها إنجليزية قديمة تعني العاهرة التائبة (المترجم).

الأثرياء، وهو الشارع نفسه الذي كان يقطن فيه قريبه فيودور إيفانوفيتش «الأمريكي». وقد أسرَّ تولستوي إلى والد زوجته بأنه يتخيَّل نفسه والأسرة ينتقلون من ياسنايا بوليانا للعيش في موسكو لثلاثة أو أربعة أشهر كل شتاء، «مصطحبين ألكسي ومربيته والسماور» لكي نتمكن من الاستمتاع بأحاديث تدغدغ المشاعر مع ناس جدد، ولنزور المكتبات ونرتاد المسرح. لكن الخطة وُئدت في مهدها بسبب شح النقود. وبحلول الوقت الذي بيعت فيه الحرب والسلام وأصبح تولستوي رجلا ثريا تبخرت من ذهنه تلك الخطة. فقد أصبح مع تقدم العمر أكثر تقوقعا على نفسه، يحبذ البقاء في المنزل لفترات طويلة حيث يمكنه العمل من دون منغصات. وأصبحت حياة المدينة تغيظه، وكان يسعد بمغادرتها بسرعة رغم حريته المطلقة في التردد عليها ومغادرتها كما يحلو له. لم يقدر على وجه الخصوص سماع أوبرا «موسى في مصر»[128] لروسيني، وأوبرا «فاوست»[129] لجونو. ولكن أتيحت له الفرصة على الأقل لأن يرتاد المسرح بينما كان يكتب الحرب والسلام.

أما صونيا فقد كانت متيمة بالأوبرا، ويمكن للمرء أن يتخيل ما كانت صونيا ستقدمه لقاء إتاحة فرصة لها لترتدي أحيانا فستانا جميلا وتذهب لقضاء أمسية وتشاهد عرضاً أوبراليا في مسرح البولشوي. ورغم أنها ذهبت إلى موسكو في بعض المناسبات خلال تلك السنوات، إلا أنها أمضت جلّ حياتها في الريف في ياسنايا بوليانا. وكانت تنتظر فصل الصيف بفارغ الصبر لتأتي شقيقتها تانيا وبعض الأقارب الآخرين ليمضوا أياما جميلة في العزبة. كتبت إلى شقيقتها في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1871 قائلة: «لو أيقظتُ قدراتي الفكرية والوجدانية مجددا ولو دغدغت معظم رغباتي فسأذرف الدموع حتى الممات». ثم أعقبتها برسالة أخرى بعد بضعة أشهر تحدثت فيها عن حياة «الوحدة والرهبانية» التي تعيشها في ياسنايا بوليانا.

(128) Mose in Egitto.

(129) Faust.

أُتيحت الفرصة لتولستوي للسفر إلى أمكنة أخرى أيضا. فبخلاف تجربته الكابوسية في أرزاماس، كان يستمتع بمنظر شجر السرو الشاهق بينما كان يقطع الغابات الكثيفة في منطقة بينزا في خريف 1869. وبعد اجتياز نهر السورا المليء بسمك الحفش الصغير، كان يستمتع أيضا بالمنظر المميز للتربة الحصوية السوداء للمنطقة. وقد ذكرته، كما ذكره السكان المحليون، بالفلاح الروسي العظيم ميكولا سيليانينوفيتش في أقاصيص الفولكلور الروسية، وهو الرمز الفلاحي التقليدي للقوة الروسية، وبطل الملاحم القروسطية التي كان يقرؤها. وسافر تولستوي في صيف عام 1871 إلى أبعد من ذلك، فوصل إلى سهوب سمارا وتقمَّص معيشة البدو من شعب البشكير. وكانت الخطة تقضي بأن تتبعه صونيا في السنة التالية، لكنها اكتشفت مع حلول الخريف أنها حامل مجددا. وكتبت إلى أختها تانيا في أكتوبر/ تشرين الأول من ذلك العام معبرة عن اليأس الذي يعتصرها، ومتحدثة عن الطين والسأم والروتين الممل، شارحة أنه يتعين عليها البقاء في المنزل طوال الصيف القادم للعناية بالمولود السادس:

«من المُحال الذهاب إلى سمارا ومن المحال القدوم لزيارتكم لأنه سيتعين علينا أخذ مربية أخرى... إلخ».

شعرت صونيا من خلال نسخ الحرب والسلام بأنها تشارك زوجها في أعماله الإبداعية على نحو متواضع، لذلك كانت متحمسة لكي يبدأ عملا آخر بأسرع وقت ممكن. لكنها لم تفكر في أن ما سيكتبه سيشكل كتاباً يمتد على 700 صفحة عنوانه: ألف باء جيم.

فقد عاد تولستوي إلى الأساسيات ليكتب عمله الجديد، منحدرا من كتاباته المعقدة الحاذقة العالية بشأن الأرستقراطية الروسية والفلسفة الرائقة عن التاريخ، إلى مساعدة الأطفال على القراءة والكتابة. وتبدأ المجلدات الأربعة الأولى من كتابة ألف باء جيم بخمسة وثلاثين حرفا من الأبجدية السلافية بالخط العريض. لم تكن ينقص تولستوي أفكار جديدة لروايات جديدة، لكن ما نفع كتابتها إذا كان السواد الأعظم من السكان لا يستطيعون حتى القراءة؟ استمر تولستوي بكتابة الحرب والسلام بزخم مميز، لكنه بعد إنهائها عاد حتما إلى المسار الذي

كان قد بدأه قبل زواجه. فبدأ التفكير مجددا في تعليم الناس، وقد اعتُبر كتاب ألف باء جيم الذي نشره عام 1872 تتويجا لثلاثة عشر عاما من العمل لتحقيق هذا الهدف.

كان السبب في عودة تولستوي للتفكير في قضايا التعليم والتعلم في بداية السبعينيات من ذلك القرن مرتبطا بشغفه واهتمامه العميق بقضية التعليم الشعبي العام، ولكنه كان أيضا يفكر في إفادة أولاده أيضا من ذلك التوجه. فقد كان ابنه البكر قد بلغ السابعة عندما ولدت ماشا عام 1871، وكانت تانيا في السادسة من عمرها وإيليا في الخامسة وليف يقترب من الثانية. ربما لم يكن تولستوي مهتما بأطفاله عندما كانوا رضَّعاً، وقد انشغل عنهم في كتابة الحرب والسلام في جل العقد السابع من ذلك القرن، لكنه كانت لديه آراء قوية بشأن تعليم أولاده، فأراد بالتالي أن يتدخل في المسألة بمجرد أن وصلوا لسنٍّ يخوِّلهم دخول المدرسة. وكان مصمماً على تعليمهم في المنزل، كما كان في السابق، وأراد أن يشترك مع زوجته في تدريسهم لأنه اكتشف في تلك المرحلة أن الكتب المدرسية المتاحة غير مناسبة. فقد آمن أن نصوص التعلُّم التي تُوفَّر للأطفال ليقرؤوها يجب أن تكون شاملة ومتنوعة ومسلية، لكنه وجد أن الكثير من الكتب كانت إما مملة على نحو لا يحتمل، وإما بعيدة جدا عن الحياة الواقعية. وهكذا، باشر بنفسه بتأليف كتب مدرسية أفضل. ولأنه كان تولستوي، الروسي الأكثر روسية من جميع الروس، فقد أصبح هذا المشروع مشروعا هائلا واعدا طموحا انهمكت فيه العائلة بأسرها، ولم يستهدف صغار آل تولستوي فحسب، بل جميع الأطفال الروس الذين يتعلمون القراءة.

بذل تولستوي جهودا مضنية في جمع كتابه التمهيدي الأول من ألف باء جيم، وفكر في نشره على نحو منفصل، لكنه جمعها لاحقا في مجلد واحد مقسم إلى أربعة كتب تتدرج في محتواها من الأسهل إلى الأصعب. وخصَّص نصفاً من كل كتاب للقصص والحكايات والشروحات العلمية، وخصص النصف الآخر لمقتطفات من الكتب المقدسة وسير القديسين والروايات الروسية وبعض الأمور البدائية في الرياضيات، ثم تعليمات خاصة بالمدرسين. وقد طرح في البداية فكرة «الكتاب الأول للقراءة وألف باء جيم للأسر والمدارس مع تعليمات للمدرس

لمؤلفه الكونت ل. ن. تولستوي»، مدخلاً في مذكراته في سبتمبر عام 1868 في وقت زيارة يوجين شويلر. وبينما كانا يعيدان ترتيب مكتبة تولستوي، لاحظ شويلر أن الرف العلوي يبدأ بكتاب لبيرتهولد أويرباخ، مما أدى إلى نقاش بشأن روايته المهمة «حياة جديدة». تناول تولستوي الرواية من على الرف وأخبر شويلر بأن يأخذ الرواية ويقرأها، شارحا بأنها السبب في حثّه على إنشاء المدرسة في ياسنايا بوليانا. وعندما التقى شويلر مصادفة بأويرباخ أثناء سفره في ألمانيا بعد زيارته إلى ياسنايا بوليانا، ذكر له المحادثة التي دارت بينه وبين تولستوي بشأن كتابه، وقد استذكر أويرباخ تولستوي وقال: «نعم، أتذكر دائما كيف ارتعدت فرائصي عندما أعلن هذا الرجل ذو المنظر الغريب عن أنه يوجين بومان، لأنني خشيت بأن يهددني برفع قضية قذف أو تشهير لشخصه». أيقظت نقاشات تولستوي مع شويلر عام 1868 اهتمامه بالتعليم العام، وعندما بدأ العمل على جمع كتاب الألف باء جيم في خريف عام 1971، استأنس بطيف متعدد من الكتب المدرسية والأعمال النظرية لتربويين أجانب، كيوهان هنريك بيستالوزي، بالإضافة إلى عدد من الكتب الأمريكية التمهيدية اشتراها له شويلر.

واتضح أن السنوات التي أعقبت الحرب والسلام كانت سنوات كساد كما يتخيل البعض، ذلك أن تولستوي وقبل أن يباشر بعمله «ألف باء جيم» ذكّر نفسه بعملية التعلّم، فاستغل تلك الفترة من خلال تعلم اللغة اليونانية. وقد قام بذلك جزئيا لكي يُدرِّس ابنه سيرغيه الذي أراد أن يوفر له تعليما كلاسيكيا. كما فعل ذلك لكي يقوم أيضا بإنتاج ترجماته الخاصة لحكايات إيسوب ليدرجها في الألف باء جيم. وبما أن الأحرف الأبجدية السلافية تعتمد على تلك اليونانية، فقد كانت الكثير من الأحرف اليونانية مألوفة لدى الروس، وهذا ما شكّل عاملاً مساعداً في تعلم اليونانية، إلا أن خصوصية قواعد الأخيرة صعبة للغاية وتحتاج إلى طالب مثابر صبور. لكن تولستوي لم يكن طالبا اعتياديا. ففي بداية ديسمبر 1870 دعا مدرساً من تولا ليعطيه بعض الدروس، ومع نهاية الشهر كان تولستوي يمضي أياما بحالها يقرأ الأدب اليوناني

باللغة الأصلية التي كُتب فيها. بدأ قراءة كتاب الأناباسيس[130]؛ وهو رواية كسينوفون لحملة عسكرية يقودها كورش وجيشه المؤلف من 10 آلاف من المرتزقة اليونانيين ضد حاكم فارسي يدعى أردشير الثاني الأخميني في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد وجد تولستوي قدرته على قراءة وفهم اليونانية أمرا مثيرا غمره بالسعادة فأصبحت اللغة اليونانية شغفه الحالي. كتب إلى صديقه فات: «أنا أعيش في أثينا قلبًا وقالبًا وأتحدث اليونانية في أحلامي». وما أن تعافت صونيا من حمى النفاس في مارس 1871، حتى انتقل تولستوي إلى أفلاطون وهوميروس، وأصبح يُنتِج ترجمات خاصة به عن أجزاء من الإلياذة قارنها مع النسخة الروسية الأفضل التي أتمها نيكولاي غنيديتش عام 1829. وبعد أشهر وهو في طريقه إلى السهوب في ذلك الصيف أخذ يقرأ نصوصا غير مُعدة[131] مع بافل ليونتييف، وهو بروفسور علم فقه اللغة (فيلولوجيا) في جامعة موسكو، الذي زاره في عدد من المرات.

وبينما كان يتبع حمية شرب حليب المهر المخمّر في السهول في خيمة من خيام شعب البشكير، أصبح الخبر القائل بأن تولستوي تعلم اليونانية في ثلاثة أشهر حديث البلدة في موسكو. انتقل تولستوي لقراءة هيرودوتس الذي وصف السكيثيين الذين عاش بينهم «بتفصيل ودقة بالغة» بحسب تولستوي. ثمة شبه بالفعل بين أسلوب حياة السكيثيين الذين كانوا يعيشون على حليب المهر أيضا، وأسلوب حياة البشكيريين. لقد انغمس تولستوي بالكلية، كما انغمس من قبل في تربية النحل، في شغفه الجديد في تعلم اليونانية، لدرجة أن صونيا وأصدقاءه المقربين كانوا يخشون على تأثر صحته النفسية من جراء ذلك الهوس (فأراد منه صديقه يرواسوف مثلا أن يقرأ سير القديسين عوضا عن تعلم اليونانية). كتبت صونيا: «لا شيء في الكون كان أمتع وأكثر أهمية بالنسبة له من اكتشاف وتعلم كلمة أو جملة يونانية جديدة». لكن فرط نشاط تولستوي وشخصيته الزئبقية طغت عليه مجددا، بالإضافة إلى أن قراءته للأدب اليوناني دفعه

(130) تترجم بـ «زحف عشرة آلاف جندي» (Anabasis) Анабасис.

(131) A livre ouvert.

نحو قراءة الأدب الروسي «الكلاسيكي»، الذي دفعه بدوره للتفكير في كتابة عمل يتناول فيه حياة الروس القديمة.

لم يكن ثمة عملٌ في الأدب الروسي «الكلاسيكي» يمكن أن يقارن بالقصائد الملحمية كالإلياذة أو الأوديسة؛ وذلك لأن الأدب الروسي لم يكن موجودا أصلا قبل عام 988، العام الذي أصبحت فيه روسيا مسيحية ونشأت الحاجة إلى وجود لغة مكتوبة للمساعدة في نشر كلمة الله. وهكذا برز في الستينيات من القرن التاسع عشر اهتمام بالغ متنامٍ في تاريخ ما قبل حقبة بطرس الأكبر كفرع من فروع الإصلاحات الكبرى، نتج عنه تقرب الروس ولأول مرة من أدبهم القديم وتقديرهم له. وقد كانت تلك الحماسة مُعدية، فبدأ التأليف في هذا الباب، واستطاع تولستوي أن يستفيد من انتشار نسخ ودراسات ومقالات وكتب جديدة فتضخمت بالتالي مكتبته في ياسنايا بوليانا. درس تولستوي الأدب الروسي القروسطي واستفاد منه شخصياً، كما استفاد منه كتحضير ضروري لكتابه ألف باء جيم، لأنه قرر ومنذ البداية أن يدرج في كتابه التمهيدي الأول قسماً لا بأس به من النصوص الدينية والتاريخية باللغة السلافية القديمة (اللغة الأدبية القروسطية للكنيسة الأرثوذكسية)، مع ترجمات موازية باللغة الروسية الحديثة.

ومن بين الأعمال المقدسة التي ألهمت تولستوي أكثر من غيرها كانت التشتاي ميني (القراءات الشهرية)، وهي مختصرات مكثفة من النصوص الدينية المدرجة بحسب الترتيب الزمني، والمصممة لتُقرأ في الأيام التي يحتفي فيها بالقديسين الأرثوذكس. كانت سياسة الإمبراطورية البيزنطية تقضي بترجمة الإنجيل إلى لغات الشعوب الوثنية التي تعتنق المسيحية. وبعد تبني الأبجدية السلافية التي وضعها راهبان يونانيان هما سيريل وميثوديوس، بدأ بالتالي النشاط الأدبي في روسيا يحذو حذو الممارسات البيزنطية، وقد كان ديني الصبغة أصلا. لكن، وبعد قيام المطران ما كاري النوفغردي، في القرن السادس عشر، بتبني نصوص جديدة كتلك التي تَعرِضُ حياة القديسين الروس المطوبين حديثا، بدأت التشتاي ميني القراءات الشهرية التي كانت مدونة باليونانية من قبل وأصبحت الآن ذات صبغة روسية، باحتلال موقع متميز في

الأهمية في وجدان وأدب الأمة الروسية. وقد أنتجت نسخة مهمة أخرى للقراءات الشهرية في القرن السابع عشر من قِبل ديمتري الروستوفي (الذي طُوِّب لاحقا وأصبح قديسا). أما نسخة عام 1864 فقد حصل عليها تولستوي وذيَّلَها بالكثير من الشروحات المكثفة. فقد اعتبر نصوص الشيتي ميني «شعر روسيا الحقيقي» (رغم أنه لم يكن يكترث شخصيا بأشعار الشعراء المعاصرين في تلك الفترة). واختار مقتطفات منها ليُدخلها في أقسام القراءة الأولى من كتابه التمهيدي الأول، ألف باء جيم، بموازاة فقرات من الكتاب المقدس والروايات الروسية القديمة التي تعود إلى القرن الثاني عشر، إذ اختار أن يعرض معجزة من عمل مكاري «حياة القديس سمعان العمودي[132] الشاب» (الناسك الذي عاش على عامود بالقرب من أنطاكية)، إذ يلهم لصا ليتوب من خطاياه. واختار رواية أخرى تناولت نسخة مختصرة من عمل ديمتري «حياة القديس سرجيوس الرادونيجي»[133]، وهو القديس الراعي لروسيا ومؤسس أهم دير في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الثالوث الأقدس، سرجيوس لافرا، خارج موسكو، الذي بُنِيَ في القرن الرابع عشر.

ربما وجد تولستوي ضالته في سرجيوس لأن حياة هذا القديس لاقت أصداء معينة مع تطلعات تولستوي الشخصية على مستوى اللاشعور (رغم أن إدراكه الحقيقي لتلك التطلعات سيستغرق عقدا آخر من الزمن). فقد أدار القديس سرجيوس، الزاهد الروسي الأول، ظهره لحسبه النبيل بينما كان لا يزال يافعا، واختار حياة الفقر والعزلة في «الصحراء»، مقلِّدا بذلك القديس أنطون المصري، مؤسس مذهب الرهبانية والزهد والتبتل. وشكلت البراري والمناطق الريفية البديل الروسي للصحراء والغابات الكثيفة في حالة القديس سرجيوس). وقد حذا حذوه حواريوه من خلال تأسيس أربعين ديرا في أجزاء مختلفة من روسيا بُنيت عن عمد في مناطق بعيدة نائية موحشة. كان القديس في حياته مثالا للتواضع العجيب، فقد رفض عرضا لتقلُّد

(132) Simeon Stylites.

(133) نسبة إلى قرية رادونيج Сергий Радонежский

منصب رفيع في الهرمية الإكليروسية الروسية، مفضِّلاً الاستمرار بمزاولة حياة الزهد والفقر وممارسة الأعمال البدنية الشاقة. تأثر تولستوي بدراسة التشيتي ميني، كما تأثر بسيرة القديس سرجيوس، فعرض جوانب من حياته في قصة «الأب سيرغيه» التي ألَّفها عام 1890، ووصف فيها صراعات راهب كان ينتمي في السابق إلى الطبقة الإقطاعية للتغلب على كبريائه والالتزام بالمبادئ والمثل المسيحية. يجد الأب سيرغيه في قصة تولستوي السلام أخيرا عندما يعيش كسترانيك؛ وهو نوع روسي خاص من السواح الدينيين الذين يقتاتون على عطايا المحسنين، فتعتمد حياته على الحج المستمر والتخلي الكامل عن جميع الممتلكات الشخصية. وقد أصبح هذا التوجه حلم تولستوي للتخلي عن العالم بأسره والتحول إلى سائح جوال زاهد مسكين. وقد حقق هذا الحلم في نهاية المطاف، ولكن بطريقته الخاصة كما هو كل شيء في حياته.

شعر تولستوي بإعجاب شديد إزاء ما وجده من جمال في الكتابات الخاصة بسِيَر القديسين، وقد اعتمد على معيار الجمال أكثر من أي شيء آخر في انتقائه لنصوص ألف باء جيم؛ لأنه أراد للنشء أن يتربوا على جمال وشاعرية اللغة منذ البداية. لكن ما سحره أكثر من أي شيء آخر كان الإرث العلماني للملحمة الشفوية القروسطية «بيلينا». فقد جُمعَت لأول مرة في القرن الثامن عشر مجموعات من روايات لقصائد سردية شفوية عن مآثر محاربي روسيا شبه الأسطوريين (البوغاتيري). لكنها لم تصبح متاحة على نطاق واسع قبل عقد الستينيات من القرن التاسع عشر. وقد شكلت في ذلك الحين لتولستوي، وغيره من معاصريه، اكتشافات دسمة مشوقة. والأكثر إثارة من ذلك اكتشاف أن ذلك التقليد الشفوي (الحكواتي) لم ينقرض بعد. فقد اكتشف بافيل ريبنيكوف، وهو عالم الأعراق البشرية (الإثنوغرافيا) الذي نُفي إلى أقصى شمال البلاد بسبب تورطه المزعوم في بروباغندا ثورية، اكتشف أن الفلاحين في تلك المناطق لا يزالون ينشدونه ويتلون البيلينا. وقد دون قصائد البيلينا في عقد الستينيات من ذلك القرن ونشرها وأحدث بذلك ضجة إيجابية في صفوف القراء.

وشكلت هذه الرابطة مع الماضي من خلال اللغة الروسية عامل تشويق لكاتب مثل تولستوي الذي كان شغوفا بالأمثال والمقولات الشعبية. وقد كان أحد مؤسسي رابطة نشأت في موسكو عام 1870 لتُعنى بالحفاظ على الموروث الروسي من الأغاني الفولكلورية ودراستها. وكان لصداقته، التي عقدها مع أحد فلاحي الشمال الأكثر شهرة في قص وسرد الأمثال، وقعا مباشرا على كتاباته. حتى إن حماسة تولستوي دفعت مؤلف مسرحية عام 1869 قائمة على قصائد البيلينا، وتتمحور حول المحارب أليوشا بوبوفيتش، إلى كتابة كتاب كامل عن بنية النظم الروسي القديم. وفي الوقت الذي كشف فيه النقاب عن تقليد البيلينا، حذا ألكسندر أفاناسييف حذو الأخوين غريم لينشر أول مختارات لحكايات الجن الروسية. وقد ظهرت مجموعته الرائدة المؤلفة من 640 حكاية في ثمانية مجلدات ونُشرت في الفترة بين عامي 1855 و1864. وبما أن اللغة الأدبية الروسية كانت قد خلقت لغرض صريح بيّن هو ترجمة الإنجيل، فقد حظرت الكنيسة لقرون من الزمن استخدامها لكتابة الحكايات الفولكلورية «الوثنية» (التي ظهرت أولا مترجمة باللغة الإنجليزية)، واعتبرت ذلك هرطقة وتجديفا بالدين. لكن الآن بدأ هذا التقليد الغني يلقى تقديرا واضحا.

انجذب تولستوي بالكلية نحو حكايات الجن والبيلينا التي بدأ قراءتها بعد إتمام الحرب والسلام، ولا عجب أن يفكر في ميكولا سيليانينوفيتش إبان سفره خلال الأراضي الزراعية الخصبة في منطقة بينزا عام 1869 في رحلة متابعة ممتلكاته. كانت البيلينا التي تتناول قصة فلاح يحرث الأرض بسرعة رهيبة لا يقوى الأمير على اللحاق به إلا بعد ثلاثة أيام وهو راكب على حصانه، القصة الأولى التي أدرجها تولستوي في كتابه ألف باء جيم. كما أنجذب تولستوي نحو الأسطورة المأساوية للبوغاتير دانيلو لوفتشانين. ففي إحدى نسخ هذه البيلينا يُرسِل الأمير فلاديمير دانيلو في مهمة خطيرة ليقتل أسدا متوحشا لكي يتسنى له الزواج بزوجته الحسناء في حال مقتله. لكن فاسيليا تتوخى الحيطة فتسلح زوجها بثلاثمئة سهم للتأكد من أن مهمته ستلقى النجاح. بعدها، يطعن دانيلو نفسه وينتحر يائسا بدلا من التصدي لفريق الاغتيال الذي

أرسله الأمير ليقضي عليه. لكن الأرملة المخلصة فاسيليا تنتحر أيضا فوق جسد زوجها عوضا عن أن تسلم نفسها وتتزوج الأمير. حلم تولستوي بتحويل هذه القصة (النسخة الروسية الأقرب إلى قصة روميو وجولييت أو تريستان وإيسولده إذ يلقى العاشقان موتا مأساويا) إلى مسرحية. لكن البطل الفولكلوري الذي راق له أكثر من غيره هو بالطبع إيليا الموروميي الذي قرأ عن مآثره وهو لم يزل فتى يافعا، حتى إنه بدأ التفكير في كتابة رواية أو دراما شعبية يخلق فيها شخصيات تتسم بسمات البوغاتيري العظماء، إذ يبقى إيليا ابن فلاح في العمل المنظور، لكنه عوضا عن الحاقه الهزيمة بمفرده بجيوش بأسرها بعد استلقائه على فرن الحطب لثلاث وثلاثين سنة، أراد تولستوي أن يجعله طالبا جامعيا شابا.

وكان من أهم أهداف تولستوي أن يغرس في نفوس قرائه الشباب حب روسيا: طبيعتها وتاريخها وأسلوب الحياة فيها ولغتها بالطبع. وكان من أحب الأعمال إليه أن يتمشى ليصل إلى الطريق السريع الذي يمر بالقرب من ياسنايا بوليانا؛ لكي يجمع الأقوال والأمثال من أفواه العديد من الحجاج والسواح المتدينين؛ الذين كانوا في طريقهم مشيا على الأقدام إلى دير الكهوف المهيب في كييف. أمثالٌ كـ«الغراب لا ينقلب إلى صقر» مكنته من شرح خصوصية التهجئة الروسية بطريقة مبسطة وجذابة للأطفال. أراد تولستوي أيضا أن يحثَّ القراء اليافعين على اكتشاف الأعمال العلمية في كتابه ألف باء جيم، ولكي يجيب عن أسئلة كـ«أين يذهب ماء البحر؟» أو «ما نفع الرياح؟» بطريقة تكون شاملة وجذابة للأطفال، شعر أنه يحتاج بنفسه إلى معرفة عميقة بهذه الأمور والظواهر. وبالتالي، انغمس في دراسة موسعة النطاق ومكثفة لكل باب من أبواب العلوم؛ ابتداء من علم الحيوانات وانتهاء بالفيزياء. وقام ببحوث تطبيقية بحسب الاقتضاء، إذ أمضى في مناسبة من المناسبات ليلة بكاملها في الحديقة يحملق في النجوم ويطبق ما قرأه في علم الفلك على سماء الواقع. أما فهم وشرح عمليات من قبيل الكلفانية وكيفية تشكل حبيبات الكريستال فتطلّبا تركيزا مستداما في غرفة مكتبه. وقد ملأ دفتر مذكراته في تلك الفترة بمراجع وعلماء من قبيل مايكل فاراديه وهمفري ديفي وجون تيندال.

وأخيرا، أراد تولستوي أن يغرس في نفوس الأطفال تقديرهم ومحبتهم للحقيقة والنزاهة وقيمة العمل الدؤوب، ولكن ليس بطريقة جافة وعظية كما هي الحال في جميع الكتب المدرسية الأجنبية التي غربلها قراءة وتدويناً وتعقيباً. ولم يكن تولستوي بالطبع متحمساً للكتب الإنجليزية التي استأنس بها في هذا الباب، بما في ذلك كتاب توماس إيوينغ «مبادئ فن الخطابة والبلاغة»، الذي كان «نموذجا للعبث» في شرح «كيفية اللوذ بالصمت»، وكتاب أبوت «القارئ الثاني» الذي كان مبالغا في تجرده، فشأنها شأن الكتب الروسية المدرسية الموجودة؛ إذ بدا كل شيء فيها منفصما عن الواقع والحياة العادية. شكلت القصص والحكايات قطب الرحى في كتاب تولستوي ألف باء جيم. فبعد شهور من القراءات المكثفة وشهور من العمل المتأني في التلخيص والتبسيط، كتب تولستوي في نهاية المطاف نسخا مبسطة لـ 600 قصة قلَّصها لتصبح 372 جاهزة للنشر. وقد فضل غيوسب على سائر المؤلفين الآخرين بما في ذلك القصص المشهورة من قبيل «الضفدع والأسد»:

«صدح صوت مرتفع لنقيق ضفدع فأصاخ الأسد بسمعه نحو مصدر الصوت معتقدا أنه صوت وحش عملاق. بعدها رأى الأسد الضفدع يخرج من المستنقع فتوجه إليه ومحقه بقدمه وقال: «لا يتعين على أحد أن يقلق بشأن أي صوت قبل أن يعرف مصدره». ومغزى القصة هو التدليل على الرجل الصخّاب الذي يطحن بلا طحين ويتحدث مطولا من دون فائدة».

كان تولستوي يقوم بالترجمة الحرة ويغيّر برهافة بعض المعاني، ومن ثم يعيد مراجعة وتنقيح الترجمات مرات عديدة بعين الفنان الثاقبة. فبعد أن أخرج المسودة الأولى لترجمة هذه الحكاية مثلا (انظر أعلاه) قام تولستوي بمراجعتها، فأخرج نسخة أخرى راجعها لاحقا مرة ثالثة ورابعة. حتى إن التغييرات التي أدرجها أُعيد النظر فيها من قبل مدقق آخر قبل أن يرضى عنها تولستوي تمام الرضا:

«صدح صوت مرتفع لنقيق ضفدع فأصاخ الأسد بسمعه نحو مصدر الصوت معتقدا أنه صوت حيوان ضخم يصرخ بقوة. اقترب من مصدر الصوت فرأى الضفدع يخرج من

المستنقع. فسحق الأسد الضفدع بكفه الهائلة وقال: يا له من مخلوق صغير، لا أدري كيف خشيته».

بينما كان إيسوب يفخر بالمكان، كان تولستوي يتأرجح في اعتماده على المؤلفين بما في ذلك كُتّاب جدد من قبيل لافونتين وغريم وبعض الكتاب الحداثيين كصوفيا تولستايا، وعملها «بعض الفتيات أتين لرؤية ماشا»، وفاسيلي رويانتسوف، وهو طالب سابق في ياسنايا بوليانا، وعمله: «كيف تُحدِّث فتى عن تعرضه لعاصفة عندما كان في الغابة». كما قام تولستوي بصياغة قصص من حكايات الفولكلور الروسي، وأسهم في عرض قصص واقعية حول مغامرات كلبيه؛ ميلتون وبولكا في القوقاز، وقصص أخرى عن حياة الطيور والحيوانات في الريف الروسي (العصافير، كيف تعلم الذئاب صغارها). لكن لم تكن جميع القصص والمقالات القصيرة تحدث في عالم يعرفه الأطفال الروس جميعا. لكن تولستوي جمع بعناية بين قصص كـ«الفتاة والفطر» مع أجزاء من حياة الإسكيمو والفيلة والدودة الشريطية. وأراد بذلك أن يغرس في نفوس الأطفال أهمية احترام الثقافات الأجنبية، بالإضافة إلى حب أرض بلادهم بالطبع؛ لذلك عرض على الأطفال القراء شذرات من هيرودوتس وبلوتارخ وقصصا مشوقة من بلدان بعيدة كالهند وأمريكا وفرنسا وتركيا. وألّف هو بنفسه قصصا خيالية بسيطة، وأسهم فيها في هذا العمل بدءا من قصة «الرجل/ الموجيك والخيار» مثلا:

«في يوم من الأيام تسلل رجل إلى رقعة أرض زُرعت بالخضروات وأراد أن يسرق خيارا. وعندما وصل إلى المكان قال في نفسه: «هبْ أنني حصلت على كيس من الخيار ومن ثم بعته. عندها سأشتري بالمال دجاجة، ومن ثم ستبيض وسيفقس البيض وسأربي الصيصان وأطعمهم ومن ثم سأبيعهم. بعدها سأشتري أنثى خنزير صغيرة تكبر وتكبر وتصبح كبيرة، ومن ثم تلد لي خنانيص صغيرة كثيرة. بعدها سأبيعها جميعا وأشتري مهرة، ومن ثم ستلد أمهارا صغيرة كثيرة سأطعمها وأربيها وأبيعها لاحقا، وأشتري بالمال الوفير منزلا وأزرع الأرض خضروات. سأزرع الخيار فيها بلا شك، وسوف أحرسها حراسة شديدة لكيلا يأتي أحدهم ويسرق الخيار.

وسوف أستأجر حراسا وأنشرهم بالقرب من الخيار وسأصرخ عليهم وأقول: أنت، احرس المكان جيدا». وقد صرخ الرّجل هنا بالفعل بأعلى صوته. فسمعه الحارس فقفز عليه وأشبعه ضربا».

أما قُرّاءه الأكبر سناً فقد كتب لهم قصتين من أجمل أعماله الخيالية. فأعمال كـ«يمهل ولا يهمل»، و«أسير القوقاز»، تكمن قوتها في بساطتها المحبوكة بعناية. فمنذ البداية، نزع تولستوي لئلا يكون المستوى الفني لعمله ألف باء جيم أدنى من مستوى الحرب والسلام. وقد مثل العملان في الحقيقة الأدوات واللغة التي أعلن تولستوي أنه سيوظفها من الآن فصاعدا في أعماله الموجهة للقراء الكبار، كما بيَّن ذلك في رسالة أرسلها إلى نيكولاي ستراخوف.

وقد بدأ العمل على تأليف وجمع القصص للجزء الأخير من العمل في سبتمبر عام 1871، ولم يداهن في تلك الفترة صونيا لمساعدته في النسخ فحسب، بل استدرج أيضا عمّها كوستيا وابنة أخته فاريا. وقد كان تولستوي مرهِقاً لمن يعمل معه لأنه كان كثير المطالب شديد العناية بتفاصيل العمل المعني. وقد كان ذلك دأبه في التعامل مع القصص البسيطة الموجهة للأطفال والقصص العظيمة الموجهة إلى قرائه الكبار، كما علَّقت صونيا في رسالة بعثت بها إلى أختها تانيا. أخيرا، انتهى تولستوي في ديسمبر من عام 1871 من الكتاب الأول من الكتب الأربعة، وتوجه به إلى موسكو ليبحث عن ناشر. وقد تبيَّن أن ذلك أمر صعب، وذلك جزئيا بسبب لغة الكنيسة السلافية القديمة للمخطوطات مما اضطره إلى إبرام صفقة مع الناشر الذي تعامل معه قديما ثيودور ريس. وعندما نشر كتاب ألف باء جيم في الصحافة شعر تولستوي بالنشوة والحماسة، وقال لألكسندرين في رسالة بعث بها إليها في يناير عام 1872 بأنه سيموت رجلا سعيدا لو أن جيلين فقط من الأطفال الروس، ابتداء من آل رومانوف وصولا إلى الفلاحين، تعلموا كيفية القراءة باستخدام كتابه ألف باء جيم وتآلفوا مع الفن من خلاله. بالإضافة إلى أنه كان مقتنعا بأن ذكراه ستُخلَّد بسبب هذا العمل الذي كان يقدّره أكثر من الحرب والسلام.

وتعين على تولستوي بذل جهود مكثفة حينئذ لينهي الكتب الثلاثة المتبقية من ألف باء جيم. ويُذكَر أن عملية الطباعة كانت ماضية على قدم وساق، بينما تولستوي كدأبه كان لا يزال يكتب ويضيف إلى مخطوطه المعد للطباعة. لكنه كان في النهاية رجلا مغامرا عريقا ومقامرا فذا ومجازفا راسخا، رغم أنه كان يعترف في بعض المناسبات بأن أبعاد المهمة الملقاة على عاتقه تفوق قدرته. كتب إلى ألكسندرين مجددا في أبريل عام 1872 قائلا: «يتطلب إنجاز المهمة قرنا من الزمن. فعلى المرء أن يعرف الأدب اليوناني والهندي والعربي ويعرف جميع العلوم الطبيعية والفلك والفيزياء. أما الصياغة اللغوية فأمر مرهق للغاية؛ فكل شيء يجب أن يكون جميلا مختصرا بسيطا، والأهم من ذلك كله واضحا». في الأثناء، كان تولستوي تواقا لتجريب ألف باء جيم في مدرسته. وهكذا، أعاد افتتاح مدرسة ياسنايا بوليانا في يناير عام 1872، واستقبل خمسة وثلاثين طالبا من أطفال الفلاحين المحليين.

وقد افتُتحت المدرسة في منزل العائلة هذه المرة؛ في الصالون الأمامي والغرف الأخرى في الطابق الأرضي. وكان تولستوي يدرّس الأولاد اليافعين في غرفة مكتبه، بينما كانت صونيا تدرّس مجموعة مكونة في معظمها من الفتيات في غرفة أخرى. وفي الصباح كانا يدرّسان أولادهما. وكان الجميع، بعد تناول طعام الغداء، يتطوع للمساعدة في التدريس في المدرسة بما في ذلك سيرغيه ذو الثامنة وتانيا ذات السابعة، فقد اضطلعا بمهمة تدريس الأحرف الأبجدية للأطفال الأصغر سنا. وقد بدأ إيليا أيضا التدريس وكان في الخامسة من العمر، لكن تبيّن أنه مفرط في الحزم مع طلابه. وتم إلغاء عقده بعد أن أصبح يتشاجر بشأن ما يتقاضاه من أتعاب. وعندما أصبح إيليا بالغـًا، كان يستذكر من حين لآخر الرائحة المكثفة لجلد الخروف التي كانت تنبعث من فلاحي القرية بمجرد دخولهم إلى المنزل، والفوضى اللطيفة التي كانوا يجلبونها معهم إلى غرفة الصف. فقد كان تولستوي يسمح لهم بالجلوس في أي مكان يحلو لهم والوقوف متى يشاؤون والإجابة عن الأسئلة جماعة أيضا. وقد كان ذلك بعيدا كل البعد

عن التعلم الحازم بالتلقين في المدارس الأخرى. توقف التعليم في المدرسة في شهور الصيف، لكن التدريس لم يُستأنف في الخريف أيضا؛ فقد انتقل تولستوي إلى مشروع آخر كعادته.

كان تولستوي يتوق لرؤية كتاب الألف باء جيم مطبوعا بعد أن سلَّم المخطوط، لكنه في نهاية المطاف فقد صبره مع الناشر الذي كان يتحرك بسرعة بطيئة جدا. وكان تولستوي قد استفاد من الكتب التمهيدية الأمريكية التي اشتراها له يوجين شويلر، وأصبح على دراية بضرورة استخدام أحرف كبيرة وتصاميم معينة في الصفحات الأولى من الكتاب ليتسنى للأولاد تعلم تهجئة الحروف والكلمات. لكن ذلك مثَّل صداعاً للمعنيين بطباعة الأحرف بسبب حجمها وعدم قدرتهم على طباعة أي محتوى يختلف عن الحروف العادية. بعدها، استطاع تولستوي في مايو/ أيار عام 1872 أن ينقل مهمة النشر إلى بطرسبورغ، وأقنع بالتالي صديقه ستراخوف بأن يشرف على عملية النشر. أما ستراخوف، الذي زار ياسنايا بوليانا لأول مرة في الصيف الماضي، فقد ساعد تولستوي في إصدار ترجمات حديثة للنصوص السلافية القديمة، بالإضافة إلى مساعدته في تقييم القصص بطلب من تولستوي. صدر أخيرا كتاب ألف باء جيم، المكون من 758 صفحة، في نوفمبر عام 1872. وقد بلغ عدد النسخ 3600 نسخة، وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي طُبعت فيها. لكن الكتاب ظهر مجددا بهذا الشكل عام 1957، عندما شكلت النسخة طبق الأصل المجلد الثاني والعشرين من يوبيل نسخة الأعمال الكاملة لتولستوي.

ورغم السعر المرتفع لكل جزء مكوّن للألف باء جيم (خمسين كوبيكا)، إلا أن تولستوي كانت لديه توقعات عالية لنجاحه؛ فقد كان يفكر في طباعة النسخة الثانية قبل أن ينشر الكتاب أصلا. لكن عزائمه ثُبِّطت واستاء أشد الاستياء لأن الكتاب، أولا، لم يحظَ بالموافقة الرسمية لاعتماده في المدارس رغم إرسال تولستوي رسالة إلى قريبه البعيد الكونت ديمتري تولستوي، وزير التربية والتعليم آنذاك، يشرح فيها فضائل الكتاب وحسناته. وثانيا، لأن رغبة تولستوي في الحصول على مال وفير من نشره أثرت عليه سلبياً وأتت بمردود عكسي. فقد عَرَضَ على

محال بيع الكتب خصماً بواقع 20 بالمئة ولكنه صمم على أن يدفعوا له مقدما المبالغ المطلوبة نقداً. وزعزع ذلك بالتالي من ثقتهم وضعضع من نواياهم الحسنة، ففقد تولستوي ثقتهم كما فقد إمكانات تسويقية هائلة. واضطلع صهر تولستوي بيوتر بيرز، الذي كان يعيش في بطرسبورغ، بمهمة المبيعات، ولكنه لم يكن موافقا على محاولات تولستوي كسر إرادة محال بيع الكتب من خلال رغبته في السيطرة على التوزيع. وهكذا تحولت شقته إلى مخزن تكدست فيه مئات النسخ غير المباعة. بالإضافة إلى أن المراجعات السلبية من قِبل جميع النقاد التي بدأت بالظهور لم تساعد على الترويج لبيع الألف باء جيم. فقد اعترض بعض النقاد على رداءة الورق الرمادي المطبوع عليها، وقِلّة الرسومات والصور (كانت ثمانية وعشرين)، بينما اشتكى آخرون غياب مقدمة تشرح الهدف من الكتاب، وتُحدد الجمهور المعني. وكانوا جميعا متشككين إزاء أسلوبه الجديد البعيد عن أسلوب كتاباته السابقة.

كان تولستوي رجلا مفرط الحساسية، ولم يكن إلا ليتأثر بسهام النقد التي وُجهت للألف باء جيم. لكن رغم ذلك لم يضعف إيمانه بالقيمة الجليلة لكتابه. وقد تمالك أعصابه بمجرد نشره لرسالة مفتوحة في صحيفة موسكو غازيت في يونيو عام 1873، شرح فيها ما اعتبره عيوباً وثغرات في طرق التدريس آنذاك. وقرر أولا أن يفكك 1500 نسخة لم تبع ويعيد بيعها على شكل اثني عشر مجلدا صغيرا بتسعيرة تراوحت بين 10 و25 كوبيكا. بعدها في أكتوبر قَدِمَ جمعٌ من المدرسين الشباب من المدارس الريفية إلى ياسنايا بوليانا وأمضوا فيها أسبوعا يدرسون طرائق تولستوي في التدريس. وفي يناير عام 1874 أُتيحت لتولستوي فرصة الدفاع عن منهجه التدريسي أمام لجنة تعليمية في موسكو كانت قد قبلت مقترحه بإجراء تجربة لمقارنه طرائقه التدريسية مع تلك المعتمدة رسمياً. وعندما تبيّن أن نتائج المقارنة لم تكن حاسمة، عمَد إلى نشر أطروحة امتدت على 50 صفحة دافع فيها عن طرائقه التدريسية في عدد أغسطس/ آب للصحيفة الواسعة الانتشار «مذكرات من الوطن»، مما أدى إلى إثارة نقاش عام واسع النطاق. وقد سمى بيانه الصادق الذي تناول فيه أصول التدريس: «بشأن التعليم العام».

خاض تولستوي في تفاصيل استثنائية يشرح من خلالها طرقه التدريسية في مقالته «بشأن التعليم العام»، وأظهر معرفة عميقة بأساليب التعليم في مقاطعته. ولخَّصَ العيوب في منظومة التعليم الابتدائي كالتالي: 1) شح المعرفة لدى الناس، 2) الميل إلى تعليم الطلاب ما يعرفونه أصلا، 3) الميل إلى الاقتراض من الألمان، 4) انتقاد القديم من دون تأسيس مبادئ جديدة. وكانت لتولستوي أفكار راسخة بشأن تعليم الأطفال الروس كيفية تشكيل الحروف وتهجئة المقاطع اللفظية، وكان مصمما على أن طريقة النطق التي تم تبنيها من ألمانيا لم تكن ناجعة في روسيا ولم تكن يقينا موائمة لأطفال الفلاحين المعوزين. لقد كان تولستوي متقدما بأشواط مقارنة بمعاصريه في بعض الجوانب؛ لأن ما كان يدعو إلى تطبيقه في ذلك العصر أصبح من بديهيات التعليم الإصلاحي في القرن العشرين. وقد تم في نهاية المطاف اعتماد الألف باء جيم من قِبل الحكومة الروسية عام 1874. لكنه بالرغم من إعادة تقديمه بطريقة مختلفة لم تكن مبيعاته مرضية، وقد اشتكى تولستوي من أنه تكبّد خسارة ألفي روبل مما حداه إلى مراجعته مجددا.

وكانت خطط المراجعة في البداية خططا متواضعة، لكنه وكدأبه استفاض في المراجعات لدرجة أنه في النهاية أخرج كتاباً جديداً تقريباً. وقام بشيء شبيه مع الحرب والسلام التي راجعها عام 1873 ليُصدرها في نسخة ثالثة جديدة. فقد دفعه تفكيره هذه المرة إلى تقليص المجلدات الستة لتصبح أربعة، بالإضافة إلى ترجمة جميع النصوص الفرنسية إلى الروسية ووضع جميع استطراداته التاريخية معا في خاتمة منفصلة. وقد لعب ستراخوف دورا مهما للغاية في ذلك المشروع. أما ألف باء جيم الجديد كما أصبح يُعرَف، فقد أصغى تولستوي إلى ناقديه هذه المرة وأدرج فيه بالتالي مقدمة جديدة وخفَّض من سعره. وألف أكثر من 100 قصة مقتضبة، لكنه قلّص، بفصله القسم الخاص بألف باء جيم عن كتاب القراءة التمهيدي، الحجم الكلي للكتاب ليصل إلى 92 صفحة، وانخفض بالتالي سعره فأصبح معقولا بواقع 14 كوبيكا. ولاقى كتاب الألف باء جيم الجديد نجاحا مميزا مقارنة مع فشل النسخة الأولى من

الكتاب بحُلَّته القديمة. ونُشر في فبراير عام 1875، وأوصي باعتماده بسرعة من قِبل وزارة التربية والتعليم، وأصبح من أكثر الكتب مبيعا لدرجة أن أعداد النسخ المتوالية وصلت إلى ثمان وعشرين على مدار حياة تولستوي، مع عمليات طبع وصلت إلى 100 ألف. وقد بيعت مليون نسخة تقريبا إبان حياته. وكانت الشاعرة آنا أخميدوفا من بين عشرات الروس الذين استفادوا وهم أطفال من نهج تولستوي القائم على جعل الطفل محور العملية التعليمية، لا سيما في تعلُّم الحروف الأبجدية. وقد سُمِّيت الكتب التمهيدية الجديدة «كتب روسيَّة للقراءة»، وكانت تعتمد على نصوص استخدمها في الكتاب الأول ونُشرت بعدها في أكتوبر عام 1875. وبما أن جل محتوى الكتاب الأول لنسخة عام 1872 أُدرج في ألف باء جيم الجديد، فقد ألف تولستوي 12 قصة وحكاية جديدة للجزء الأول من الأجزاء الأربعة. وقد لاقى رواجا أيضا في صفوف الأطفال الروس.

برهن تولستوي على نحو حاسم بأنه أراد تحسين مستويات القراءة المُخزية في روسيا، وبرهن أنه مهتم بعمق بأهمية اكتشاف الفتيان والفتيات الروس من جميع الطبقات لمتعة لغتهم الأم عندما يتعلمون القراءة. ولكن ماذا عن أولاده هو؟ كيف كان معهم كمدرس؟ وكيف شعروا بينما كان يستخدمهم فئرانَ تجارب لتطبيق أفكاره التدريسية؟ كيف كانوا يشعرون وهم يترعرعون مع كاتب مشهور هو في الوقت نفسه أبوهم؟ استجاب تولستوي في أكتوبر عام 1872 لطلب ألكسندرين ليتحدث بشيء عن أولاده ولو لمرة في حياته؛ لأن رسائله لها ولغيرها كانت في جلها تتحدث عن مشاريعه الحالية وانشغالاته الفكرية، وكان حديثه في الرسائل عن أفراد أسرته أمراً نادرا بالفعل. ولهذا فإن المدونات الموجزة التي تحدث فيها عن أولاده الستة تُقتبَس على نحو متكرر.

وصف تولستوي ابنه البكر، سيرغيه، ذا الشعر الأشقر بالطفل الذكي ذي القدرات الطبيعية الفطرية لفهم الرياضيات والفنون. وأخبر ألكسندرين بأن سيرغيه كان طالباً نجيباً ماهراً في ألعاب الجمباز، لكنه أرعن وغير لبق وغافل وشارد الذهن. وكان تولستوي يسعد عندما يقول

له البعض بأن سيرغيه يذكّرهم بشقيقه نيكولاي المشهور بتواضعه. أما إيليا فقد كان، بخلاف سيرغيه، حساساً مُضرَّج الخدود يتمتع بصحة ممتازة، لكنه بحسب تولستوي لم يكن يحب الدراسة كثيراً. وكان، بخلاف سيرغيه أيضا، أصيلاً وبديعًا بل شرساً ومشاكساً ويتمتع في الوقت نفسه بقدرة عجيبة على الرفق بالآخرين والرقة والحنان، بالإضافة إلى ضحكته المعدية. كان تولستوي على يقين بأن سيرغيه سيتميز في أي بيئة يعيش فيها، لكنه شعر بأن إيليا سيحتاج دوماً إلى قائد ملهم قوي يأخذ بيده ويحظى باحترامه. أما تانيا ذات الأعوام الثمانية، فقد كانت تشبه أمها إلى حد كبير. وكانت قد طوَّرت مشاعر أمومة تكشّفت من خلال رعايتها لأشقائها الصغار، الأمر الذي كانت تحبه كثيرا. أما ليف الصغير، ذو الثلاث سنوات ونصف حينها، فكان يتسم بالرشاقة والجمال والقدرة على القيام بأمور تفوق عمره، بخلاف ماشا الصغيرة المريضة التي وصفها تولستوي بـ«فائقة الذكاء قليلة الجاذبية»، وتوقع لها حياة سعي من دون إنجازات، وشعر أن هذه الفتاة «ذات البشرة البيضاء كبياض الحليب والشعر الأشقر المتموج والعينين الزرقاوين الغريبتين بسبب تعبيراتهما الجدية العميقة» ستغدو لغزا للجميع. وقد اعترف تولستوي بصراحة لألكسندرين بأنه يجد التعامل مع الأطفال أمراً صعبًا على العموم قبل بلوغهم الثالثة من العمر. لكنه وصف بيتور، الابن الأصغر ذا الأشهر الستة، بالطفل الرائع ممتلئ الجسم.

وكما أكدت صونيا لاحقا، فإن عمل زوجها كان يحتل دائما الأولوية القصوى في حياته. وقد أنّبته وقرّعته لاحقا لأنه تجاهل أطفاله الصغار عندما أصبح منشغلا على مدار الساعة بحملاته لمناصرة المستضعفين. لكنه مع ذلك كان الطرف الذي يتخذ القرارات بشأن كيفية تدريسهم، وكان شخصية جذابة بامتياز من وجه نظرهم بينما كانوا يكبرون؛ ربما لأنهم كانوا يرونه أقل بكثير من رؤيتهم للوالدة. ويُذكَر أن تولستوي انهمك كأب مع أولاده، وكان في ذروة نشاطه معهم في عقد السبعينيات أكثر من أي وقت آخر (لا سيما في النصف الأول منه)، قبل أن تأخذه كتابة آنا كارينينا والأزمة الروحية التي تلتها مباشرة بعيدا عنهم. وبالتالي انصبَّ اهتمامه

في تلك الفترة على أولاده الكبار أكثر بكثير من الصغار الذين كبروا وبدؤوا يفهمون الحياة في عقد الثمانينيات (حينما كان منشغلا عنهم)، لا سيما في حالة أندريه وميشا اللذين لم يُظهرا لاحقًا أي اهتمام بالعيش وفقا لتعليمات والدهما. كما أن الأولاد الصغار نشؤوا وقد فاتتهم السنوات السعيدة من زواج والديهم، بعكس الأولاد الكبار الثلاثة الذين كتبوا جميعا وهم كبار عن الذكريات الجميلة والسنوات الشاعرية الأولى في ياسنايا بوليانا.

ورغم أن الأولاد كانوا يرون والدهم في مناسبات أقل من تلك التي يرون فيها والدتهم، إلا أن نفوذه كان طاغيا بلا شك، لا سيما وهم صغار السن؛ فكلماته كانت بمثابة قوانين صارمة. وكان حضوره إلى الحضانة وهم صغار يشكل حدثًا بالنسبة لهم، بالإضافة إلى شعورهم بالسعادة القصوى عندما كان يمضي معهم أوقاتا مؤنسة في طفولتهم. يتذكر أولاد تولستوي كيف كان والدهم في عقد السبعينيات ما يزال مقبلاً على الحياة قادرا على التمتع بمباهجها، وكيف أن حياتهم تصبح بطريقة أو بأخرى أجمل بوجوده معهم لأنه يبدو أنه كان يمتلك طاقة من نوع خاص. لكنه كان يكره إزعاجه وهو في خضم القيام بعمله، وكان يصمم على التزام الهدوء والسكينة. ومع ذلك كان في بعض الأحيان يرتفع مزاجه إلى عنان السماء فيتحرك الطفل الكبير في داخله بفيض وفرح. وكهاوٍ للتمارين الرياضية وجني الفائدة من ممارستها في الهواء الطلق، فقد كان يستمتع باصطحاب أولاده للركوب على الخيل أو السباحة أو التزلج. وكان تولستوي مهتما على وجه الخصوص بتعلم أولاده الجمباز، ولم يكن يكترث كثيرا بلُعَب الأطفال التي كان قد حظر وجودها في الحضانة، مما دفع صونيا إلى استخدام ورق الكرتون لصناعة خيول وكلاب وحياكة دمى قبيحة ليتسنى للأطفال اللعب بها. أما تولستوي فقد حاول أن يعوّض حرمان أولاده من لُعب الأطفال بمنحهم حرية في حدودها القصوى أحيانا. وما كان يمقته أكثر من أيّ شيء آخر أن يلجأ أولاده إلى الكذب أو الفظاظة في التعامل مع الآخرين، ورؤيتهم يأكلون باستخدام السكاكين، وكان يعاقبهم بالتجاهل والغفلة عنهم. وقد وجد الأطفال أنه من المحال الكذب عليه، ووجدوا في بعض الأحيان صعوبة بالغة في مواجهة نظرة

عينيه الثاقبة المفزعة؛ لأنهم كانوا على يقين بأنه قادر على قراءة أفكارهم. ورغم أنه كان يعتقد بأنه من الضعف بمكان أن يعتمد الأب الرفق مع أولاده ويُظهر اللين لهم، إلا أنهم جميعا كانوا لا يشكّون في حبّه لهم رغم عدم قدرته على إظهار ذلك الحب دائما. بالفعل، فإيليا على سبيل المثال لا يذكر أن أباه كان يلاطفه أو يحضنه، فقد كان تولستوي أكثر تعبيرا عن حنانه وتراحمه مع بناته أكثر من أبنائه.

كان تولستوي مدرّساً متطلباً وصارماً مع أولاده؛ إذ يصعب مجاراته في بعض الأحيان (كانت تانيا تخشى دروس الرياضيات مع أبيها لأن صبره ينفد بسرعة). فكلمة «لا أستطيع» غير موجودة في قاموسه، وكان إيقاع تدريسه سريعاً للغاية كما كان إيقاع سرعته في قيادة حصانه. كان تولستوي يُدرّس أولاده الرياضيات واللاتينية واليونانية بينما كانت صونيا تدرسهم الروسية والفرنسية. وكان ثمة كاهن محلي يأتي مرتين في الأسبوع لتدريسهم النصوص الدينية، وآخر يدرس الرسم لتانيا، وعدد آخر من المدرسين المقيمين جلهم من الأجانب. وبما أن تولستوي كان معجبا بجوانب كثيرة من منظومة التربية البريطانية، فقد استقدم في نوفمبر عام 1866 مربية إنجليزية، اسمها حنّا تارزي، كأول مدرسة (من بين مدرسين كثر آخرين) لتدريس أولاده الكبار. ولم يكن تولستوي يتقن الإنجليزية شأنه شأن زوجته، لكنهما قبل وصول المربية عمدا إلى قراءة رواية ويلكي كولينز «ذات الرداء الأبيض».

كانت حنّا تارزي ابنة بستاني يعمل في قلعة وينزور، وقد وصلت إلى روسيا بصحبة شقيقتها جيني التي عملت لدى أسرة أخرى. وكانت حنا تبلغ من العمر حينها التاسعة عشرة؛ أي تصغر صونيا بثلاث سنوات فقط. لم تستطع المرأتان أن تتواصلا معا في البداية، لكن حنا كانت سيدة دؤوبة في عملها كما كانت ودودة للغاية، بحيث أصبحت فردا محبوبا لدى آل تولستوي. وبمجرد أن تسلّمت عملها فرضت نظاما صارما على الأولاد، لا سيما أوقات استحمامهم، وأدخلت إلى الأسرة طقس إشعال عيد الميلاد (وصفة رقم 26 في كتاب صونيا للطهي: «الحلوى الثقيلة/ المكتنزة»). وكانت حنا تفتقد بالطبع أكلات اللحم المحمّر التي درجت

العادة على أكلها في مقاطعتها؛ بيركشاير، في أيام الآحاد. لكنها حاولت أيضا تحضير حلوى يوركشاير المشهورة في منزل آل تولستوي (وصفة رقم 132: «شطائر بالفرن للحم العجل المشوي»). وانغمست حنّا في الحياة الروسية وعاشت في كنف عائلة تولستوي لست سنوات، لكنها كانت معتلة الصحة فغادرت ياسنايا بوليانا في نهاية صيف عام 1872 لتصبح مربية أطفال تانيا، شقيقة صونيا، في القوقاز. وقد تحسنت حالتها الصحية في ذلك المناخ الجنوبي المعتدل، فتزوجت بعد سنتين من الإقامة هناك بأمير جورجي فقير يدعى ديمتري ماتشوتاتزيه؛ إذ لاقت إعجاب واحترام أسرته بعد أن حققت نجاحا باهرا في إدارة شركة العائلة المختصة بتصنيع جبن الماعز. وعُين فيودور (ثيودور) كوفمان مدرساً للأولاد بعد مغادرة حنّا، وبدأ تعليمهم دروساً في اللغة الألمانية. بعدها، وقع في غرام الحسناء الشقراء الجميلة «دورا» التي حلت محل حنا مربيةً للأولاد، لكنها لم تمكث طويلا لأنها لم تستطع أن تمارس أيّ سلطة على الأولاد. ثمة سبب آخر ربما؛ هو أن تولستوي كان لديه كلب أيرلندي ذو شعر ذهبي (من سلالة سيتر) يحمل اسم «دورا» نفسه (وقد راق له تسمية كلابه بأسماء شخصيات من روايات ديكنز). وهذا ما جعل أحدا لا يقوى على التعامل مع دورا المربية بشكل جدي. بعدها أتت إيميلي التي كانت هادئة وجادة وتذرف الدموع باستمرار.

كان أولاد تولستوي يجتمعون بمدرّسيهم ومربّيهم أكثر مما يفعلون مع والدهم أو حتى والدتهم التي كانت دائما منشغلة بحياكة الثياب لهم، أو القيام بالأعباء المنزلية عندما لا تكون منهمكة في نسخ مخطوطات زوجها. وقد تأثر الأولاد في نشأتهم أيضا بأفراد آخرين من المنزل المأهول بالكثير من البشر، بمن فيهم أشخاص غريبو الأطوار. وأولهم العمة المُسنّة توانيت بقبعتها وشالها وغرفتها المليئة بالأيقونات الموضوعة في أطر فضية كانت تُلمَّع كل يوم بواسطة خادمتها أكسينيا ماكسيموفنا؛ التي أيضا بدأت تعاني من الخرف في تلك الفترة. كان الأولاد يربطون العمة توانيت برائحة الصنوبر وجوارير خزانتها التي كانت تضع فيها خبز الزنجبيل وتقدمه هدية لهم بين الفينة والفينة.

كانت عمة لطيفة للغاية، لكن الأطفال كانوا يجدونها مملة بعض الشيء كما هو شأن صاحبتها. كانت ناتاليا بتروفنا تغمغم دائما وتتحدث عن مُلّاك الأراضي وضباط الجيش والأديرة، وكانت تبدو لسيرغيه وكأنها تتكلم وفمها مليء بالكاشا. أما الخدم فقد كانت أغافيا ميخائيلوفنا أبرزهم؛ وهي خادمة جدة تولستوي المسنة التي أصبحت فيما بعد راعية للغنم، ثم عملت مدبرة في منزل العائلة، وقد أحيلت الآن إلى التقاعد. كانت امرأة نحيلة فارعة الطول مخيفة بعض الشيء من وجهة نظر الأطفال، لكنها كانت محبوبة في الأسرة، وهي التي كانت قبل زواج تولستوي تجلس بهدوء بجانب السماور تقرأ سير القديسين في ليالي الشتاء القارص. وكانت معروفة لدى الجميع بلقب محبب إليهم وهو «مربية الكلاب/ أم كلاب»؛ لأنها كانت تعيش في حالة من القذارة مع كلاب الأسرة من نوع البورزوي وكلاب الصيد الأخرى. أما ماريا أفانيسفنا أربوزافا المرأة المكتنزة التي كانت مربية لخمسة من أطفال تولستوي الكبار، وكانت محبوبة من قِبل الجميع أيضا، وقد أصبحت مربية لهم بعد وصول حنّا، فكانت دائما ما تفسد الأولاد دلعًا وتقدم لهم خلسةً المشمش الفارسي الجاف وأشياء أخرى لذيذة من حجرة المؤن. وقد كانت هي وابناها، بافل وسيرغيه، وهما خادمان موثوقان، قريبين جدا من أطفال تولستوي. فقد علّم بافل تولستوي لاحقا فن ترقيع الأحذية، بينما أصبح سيرغيه خادم تولستوي الخاص بعد تقاعد المخلص ألكسيه ستيبانوف. وهذا الكسيه اللطيف ذو الأخلاق الدمثة الذي حظي باحترام جميع الأطفال، كان في السابق خادما يعمل في المنزل في ياسنايا بوليانا وصاحَبَ تولستوي في رحلته إلى القرم. وكان متزوجا بدونياشا بانيكوفا ابنة المدرس الأول الذي عمل لحساب تولستوي. وعندما وُلد إيليا حصل ألكسي على ترقية وأصبح مديراً للعزبة. جمعت الأطفال علاقة عميقة مع جميع من في المنزل؛ فإفلامبيا ماتفييفنا التي كانت مرضعة سيرغيه على سبيل المثال كانت زوجة حوذي ياسنايا بوليانا فيليب روديونوف الذي كان يهتم بأحصنة الأطفال الصغيرة.

ولكي يستوعب آل تولستوي ازدياد أفراد العائلة ووجود المدرسين الأجانب اضطروا عاجلا إلى بناء ملحق واسع لمنزلهم. وقد قاموا ببناء الملحق الأول في صيف 1866، وفي نهاية 1871 استحدثوا غرفة استقبال جديدة رحبة وغرفة مخصصة لتناول الطعام في الطابق العلوي، بالإضافة إلى مكتب لتولستوي في الطابق السفلي مع شرفة خشبية واسعة في الخارج لتناول الطعام فيها في فصل الصيف. وقد دمرت هذه الإضافات تناظر الجناحين المتماثلين اللذين كانا محيطين بالمنزل الرئيسي الذي كان يتوسط المبنى، والذي باعه تولستوي ليسدد ديونه جراء القمار. لكن هذه الإضافات وفرت مساحات كانوا بحاجة ماسة لها. أما الملحق الثاني والأخير، فقد تمَّ في ديسمبر عام 1871، وكان جاهزاً لاستقبال عيد الميلاد المجيد الذي كان من أحب الفترات إلى قلوب الأطفال من آل تولستوي. وكانت صونيا في تلك الفترة تشرف على عمليات التنظيف ومسح أرضية المنزل وتعليق الصور بعد الانتهاء طبعاً من طلاء الجدران وتزيين المنزل. كما كانت تأتي من المخزن بالشمعدانات القديمة وأواني المائدة، بالإضافة إلى قيامها بحياكة أزياء تنكرية وطلاء الجوز بمادة ذهبية استعدادا لاستقبال ضيوف العائلة الذين عادة ما يصلون قبيل منتصف الليل في ثلاث عربات. كما يصل ضيوف جدد في اليوم التالي، وتُستأنف الاحتفالات. وبعد الانتهاء من تزيين شجرة الميلاد تأتي فترة التزلج على الجليد والمنحدرات، وتنطلق نوبات الضحك فتصيب الجميع لدى مشاهدتهم وقوع أحدهم أو تعثّر آخر في أكوام الثلج. حضر في تلك السنة، بخلاف آل تولستوي السبعة وحنّا المربية والعمة توانيت وناتاليا بيتروفنا، عمّ صونيا ويدعى كوستيا، وعمة تولستوي بولينا، وأبناء وبنات الأخت كوليا وفاريا وليزا، وزوج الأخيرة ليونيد ديميتريفيتش، وصديق تولستوي القديم ديمتري ألكسييفتش دياكوف وابنته ماشا ومربيتها السابقة صوفيا، وكيتي وهي مربية إنجليزية أخرى كانت تزورهم. ووصل عدد المتحلقين حول المائدة إلى عشرين شخصاً. وفي آخر الأمسية بدأ العم كوستيا بلعب الولتز، وانطلق بعدها الجميع يرقصون. وتبع ذلك مشهد

مضحك لدى رؤية ديمتري ألكسييفتش ذي اللحية الحمراء وهو يرقص رقصة القوزاق مع ليونيد ديميتريفيتش.

كانت فترة أعياد الميلاد في روسيا الفترة التي يُسمَح فيها للأطفال بتبادل الألعاب. وكانت تانيا على وجه الخصوص تسعد كثيرا بالدمية التي يأتي بها أبوها الروحي (أبوها في المعمودية) ديمتري ألكسيفيتش، وكان يسمي الدمية ماشا تيمناً باسم ابنته التي بلغت السادسة عشرة عام 1871 والتي كانت تحبها تانيا حبا جماً. وكانت فترة الميلاد أيضا فترة ارتداء الأقنعة وارتداء أزياء الجنس الآخر وأزياء شخصيات حيوانات أليفة وغيرها. في تلك السنة وفي اليوم الثاني من الاحتفالات، ارتدت تانيا رداء زوجة ماركيز (أحد النبلاء) في رداء أزرق طويل مصطحبة أخاها سيرغيه كماركيز. وارتدى إيليا تنورة حمراء، وحولت كيتي نفسها إلى مهرج، وليزا أصبحت موجيك، وصونيا ارتدت الزي الروسي التقليدي. بعدها ارتدى كل من العم كوستيا وكوليا رداء الدببة التقليدية الراقصة، يقودهما ديمتري ألكسيفيتش وهو يرتدي حذاء مصنوعا من اللحاء مصحوباً بعنزة تقفز بين الحين والآخر. وقد عرف الأولاد أن أباهم انتحل صفة العنزة ففرحوا فرحا عظيما. كانت تلك الفترة من أسعد الفترات في ياسنايا بوليانا وإحدى المرات السعيدة الأخيرة أيضا.

وفي تلك الفترة كان الأطفال الأكبر يتطلعون بشوق إلى فصل الصيف لاستقبال الزوار. فأصدقاء الوالد (كأفاناسي فيت وزوجته وسيرغيه يوروساف ونيكولاي ستراخوف) كانوا يأتون عادة ويقضون بضعة أيام، بينما تمكث العمة تانيا وأقرباؤهم داشا وماشا وفيرا وجميعهم كانوا ما دون الخامسة، يمكثون في الجناح الآخر لأكثر من شهر في كل صيف. وقد أمضى أيضا ستيبان، الأخ الأصغر لصونيا (العم ستيوبا) كل صيف في ياسنايا بوليانا بين الأعوام 1866 و1878 بينما كان في سنيّ المراهقة. وفي بعض الأحيان كانت الجدة ليوبوف تأتي أيضا (وكانت تعيش في بطرسبورغ حينها). وكانت أيضا العمة بولينا تقوم بزيارات منتظمة من الدير في تولا، الدير الذي أصبح المقر الدائم لإقامتها. أتى الصيف أخيرا بعد ظهور نبات الحوذان على

العشب أمام المنزل، وأُخرجت ملابس الأطفال الصيفية التي لم تعد رائحة الكافور تنبعث منها. حان وقت النزهات بوجود السماور بالقرب من الجداول تحت ظلال أشجار البلوط حيث تقرأ الفتيات القصائد بصوت عال. وحان وقت جمع الفطر وأمسيات الألعاب النارية/ المفرقعات، مع مشاهدة القطار السريع أحيانا يسرع بمحاذاة القرية القريبة كازلوفا. وحان وقت صناعة المربى؛ وهو تقليد كان يتم كل سنة في الحديقة تحت أشجار الليمون بوجود سحب من النحل والدبابير تصدر أزيزها فوق الرؤوس. وحان وقت مشاهدة القرويات وهن حافيات الأقدام يأتين إلى السقيفة في الأمسيات الساخنة، يحملن أطباقا مليئة بالفطر وتوت الأرض يبادلنها ببعض الكوبيكات.

وكان الصيف يعني أيضا للولدين الأكبرين أن يأخذا شبكتهما إلى الحقول لاصطياد الفراشات، أو الركوب على جيادهما القيرغيزية الصغيرة (شاريك وكولبيك)، والانطلاق في غابات شجر البلوط والفسح الندية المليئة بنبات أذن الفأر ذات الأزهار الزرقاء الفاتحة. وكان تولستوي يصحب سيرغيه وإيليا، إن أسعفهما الحظ، على صهوة جواده الإنجليزي. وفي معظم الأحيان كانوا يربطون جيادهم إلى شجر البتولا بالقرب من كوخ الحمام ويذهبون للسباحة في البركة. وكانت صونيا تتوقع وجود تخشيبة/ كوخ لتبديل الملابس عندما وصلت إلى ياسنايا بوليانا، لكنها اكتشفت أن الضفة خالية من أيّ أكواخ لأن تولستوي كان يعشق التقشف والالتزام بمزاولة حياة قريبة من عذرية الطبيعة. فعندما كان سيرغيه لا يزال طفلا صغيرا اشترى تولستوي قماشا بلونه الأصلي (غير مبيض) من القرية، وأمر صونيا بحياكة قفطان تقليدي فلاحي ذي عروة مائلة لكي يرتديه بنفسه (تماما كالقفطان الذي أصبح يرتديه في سنين متأخرة من حياته وأصبح يعرف به، حتى إن القفطان أصبح يعرف لاحقا باسم تولستوفكا). لبت صونيا نداء زوجها بالطبع، وقامت أيضا بحياكة قمصان صغيرة من بلوزة الموسلين (نسيج قطني) ليرتديه سيرغيه تحت القماش الخشن.

غادر آل تولستوي ياسنايا بوليانا مرتين فقط في عامي 1873 و1875، ليمضوا عطلة الصيف في إقطاعيّتهم الجديدة في سهوب مقاطعة سمارا على بعد 500 ميل شرقا. وكانت مغامرة رائعة للأطفال وعبئا ثقيلا على عاتق الأهل. وكان تولستوي قد ذهب إلى المكان نفسه في مناسبات عديدة بغية تلقي العلاج؛ فقد كان مناصرا لشرب حليب المهر المخمر (الكوميس) الذي ينتجه شعب البشكير من البدو الرحل. وقام برحلته الأولى إلى السهوب في صيف عام 1862 قبل زواجه، وعاد بعدها في عام 1871 و1872 مبقياً على صونيا والأولاد في المنزل. واصطحب معه في عام 1871 ستيبان بيرز (يبلغ السادسة عشرة الآن)، وخادمه المسن فانيا سوفوروف ومكثوا ستة أسابيع. ولم تكن سكة الحديد قد وصلت إلى ما بعد نوفغوراد في تلك الفترة، التي كانت تبعد عن ياسنايا بوليانا مسافة يومين. وقد تطلب الوصول إلى القرية النائية في سهول سمارا، حيث كان تولستوي يشرب حليب المهر، ركوب باخرة ليومين عبر نهر الفولغا، ويومين آخرين في عربة من نوع تارانتاس من سمارا، التي تقع على الطريق الرئيسي الموصل إلى آسيا الوسطى، وصولا في نهاية الرحلة، بعد أميال وأميال من السهوب الملوحة بأشعة الشمس الخالية من أي زرع، إلى خيمة بيضاوية ونظام أكل يعتمد حصرياً على لحم الضأن وغالونات من حليب الكوميس.

لم تكن قرية البشكير البدائية في وسط مكان خالٍ ناءٍ المكان المثالي الذي يطمح الروس إلى اعتباره منتجعا صحيا؛ لأنهم كانوا يحبذون في تلك الفترة السفر إلى الخارج؛ إلى الحمامات الألمانية أو الريفييرا الفرنسية. وكانت ثمة خيارات متنوعة محلية لمن لا يريد السفر إلى خارج حدود الإمبراطورية، من بينها: ليدو في البلطيق لمن أراد التمتع بهواء البحر العليل، وكيسلوفودسك وبياتيغورسك في القوقاز لمن أراد أن يستحم أو يتعالج في المياه المعدنية في تلك المنتجعات المائية المشهورة، أو البلدة الساحلية المشهورة يالطا في شبه جزيرة القرم ذات الهواء العليل حيث كان يقضي آل رومانوف عطلتهم السنوية. ولم يكن تولستوي مهتما بآخر صيحات الموضة بتاتا؛ فقد كان يشعر بالسعادة القصوى بين شعب البشكير حيث أسباب الرفاه

شبه معدومة. كتب إلى صونيا يخبرها عن انعدام الأسِرّة وأواني المائدة والخبز الأبيض في ذلك المكان، وقد سرّه تناول الطعام باليد مباشرة من الأوعية الخشبية؛ الشيء الذي لم يوائم ذائقة صونيا و«هواها الكرمليني».

كان البشكير في الأصل خيالة من البدو الرحل أتوا من المناطق الجنوبية للأورال؛ إذ كانوا يعيشون بين نهري الأورال والكاما شرق سمارا. وهم مسلمون يتحدثون اللغة التركية، وقد أُرغموا على الاعتراف بعلو كعب الروس بعد غزو قازان في منتصف القرن السادس عشر. بعدها وجدوا أنفسهم تدريجيا قد أصبحوا أقلية في الأراضي التي عاش فيها أجداهم لقرون؛ إذ انتقل للاستقرار فيها من منطقة الفولغا روس وقوميات أخرى. وشكلت أراضي البشكير مناطق حدودية للإمبراطورية الروسية، فقد بُنيت سلسلة من الحصون في القرن الثامن عشر تمتدُّ من سمارا إلى البلدة الجديدة أرينبورغ استعداداً للتقدم باتجاه كازاخستان وما بعدها. ويُذكَر أن سمرقند كانت قد تعرضت للغزو من قِبل القيصر الأبيض وضُمَّت إلى مقاطعة جديدة سميت تركستان عام 1868. وبينما أُخضع البشكير بوحشية في منتصف القرن الثامن عشر وتم دمج أراضيهم إلى أراضي الإمبراطورية الروسية، فإنهم حصلوا على حيثية خاصة في دفع الضرائب، وحاولوا أيضا أن يحافظوا على أسلوب حياتهم التقليدي في خضم أعداد متزايدة من الروس الذين استوطنوا سهولهم ومراعيهم الخصبة. وأحد أولئك الروس كان تولستوي.

قد يكون تولستوي دفع الكثير من ماله الخاص لنشر النسخة الأولى من كتابه ألف باء جيم، لكنه كان لديه احتياط كبير من الأموال المتأتية من مبيعات «الحرب والسلام». وكان في تلك الفترة من حياته متحمساً لمضاعفة أمواله. وكانت أراضي البشكير رخيصة جدا فأراد أن يعقد صفقة مُربحة من خلال شراء بعض الأراضي ليزرعها ويحصل على أرباح من عائدات محاصيلها. وهكذا، وبعد أسبوعين من وصوله اتخذ قرارا بشراء ما يقارب 7,000 هكتار بتكلفة إجمالية بواقع 17,500 روبل. وشرح لصونيا في رسالة بأن موسميْ حصاد جيدين كفيلين باستعادة استثماراته، لكن يتعين عليهم أن يعيشوا هناك في الصيف القادم لجعل ذلك

ممكنا. وقد وصف التضاريس والهضاب الرائعة رغم أنه اعترف أنها خالية من أيّ أشجار. واعترف أن الظل غير موجود البتة في هذه السهول، ولكن لتعويض تلك النقائص ثمة «هواء السهول العليل والاستحمام والكوميس وركوب الخيل». كما طمأنها بأنه يريد موافقتها أولا، لكنه لم ينتظر موافقتها بالفعل بل أنجز مشروعه بصرف النظر عن موافقتها حتى قبل أن يتسلَّم رداً منها. وكما هو دأبها دائما فلم تكن متلهفة البتة للمشروع: «إذا كان المشروع مربحا فهذا شأنك وليس لدي رأي في المسألة. لكن إرغام امرئ على العيش في السهوب التي لا تحتوي على شجرة واحدة لمئات الأميال، يتطلب حاجة ملحة لفعل ذلك، لا سيما أنني لو خُيّرتُ لما ذهبت إلى ذلك المكان ومعي خمسة أطفال».

عاش تولستوي في صيف عام 1871 مع رفيقيه في كيبيتكا[134] بشكيرية واسعة ذات أرضية مفروشة بالريش يملكها المُلّا المحلي. وقد كانت في السابق مسجداً واحتوت الآن على منضدة وكرسي واحد وشوفان للجياد وكلب أسود اللون والكثير من الدجاج الذي عاث فيها فسادا، لكنه وفر إمدادات من البيض لا تنضب. وكان تولستوي يستيقظ مع كل فجر في كل يوم ويكتب لصونيا، وبعد تناول ثلاثة أقداح من الشاي يذهب إلى الخارج ليشهد قطعان الخيل عائدة من الهضاب (ألفٌ من الخيل بحسب تقديراته). بعدها يحين وقت شرب الكوميس الذي تصنعه النساء البشكيريات من وراء الستائر وتضعه في ممخضة، مزبد جلدي، ويقدّمه الرجال دائما. بعدها، يخبر صونيا، بأنه عادة ما يتمشّى صوب القرية ويخادن أناسا آخرين أتوا من روسيا للغرض نفسه (العلاج بالكوميس) بمن فيهم مدرس للغة اليونانية كان يساعد تولستوي في قراءة هيرودوتس. وفي بعض الأحيان يصطاد (الحبارى وسمك الرّاف النهري وأحيانا الثعالب). كان البشكيريون يبالغون دائما في إكرام الضيف، وهذا ما لحظه تولستوي أثناء زيارته، سيما أنه يحمل لقبا أرستقراطيا. في نهاية يونيو، قطع تولستوي وستيبان خمسين ميلا في عربة يجرها الجواد الذي اشتراه عند وصوله بستين روبلا، متوجهين شرقا إلى بوزولوك، وهي قرية تحتوي على عدد من الكنائس وبيوت خشبية في معظمها وتجارة رائجة في

(134) خيمة.

الحبوب والشحوم الحيوانية والجلود. وبعد أن أمضيا ليلة غير مريحة في منتصف الطريق إبان رحلتهم المرهقة عبر السهول، نام تولستوي نوما هنيئا عندما وصلا إلى وجهتهما. بالفعل، فقد نام نوما عميقا لدرجة أنه لم يلحظ البراغيث التي كانت تغزوه من كل مكان. وتناسى ذلك الأمر عاجلا لأنه أُخذ بجمال المعرض التجاري الذي أتوا لزيارته. فقد شارك فيه تجار من عشرات الجنسيات المختلفة تجمعوا ليتاجروا بالخيل القيرغيزية والسيبيرية والقوزاقية.

وعاد تولستوي إلى ياسنايا بوليانا في تلك السنة ومزاجه مرتفع وصحته أفضل بعد أن استحم في الحرارة الجافة للسهول بالهواء النظيف والسماوات الصافية. بعدها بعام، عاد وذهب في الصيف إلى سمارا من دون صونيا لأنها كانت قد أنجبت طفلهم السادس بيوتر (بيتيا). وقد اصطحب في تلك الرحلة تيموفي تيكانوف؛ فلاح من ياسنايا بوليانا سيصبح لاحقا أول مدير لعقاراته. وكانت هذه الرحلة أصعب بكثير من سابقاتها؛ ذلك أنه ورغم أن حصاد عام 1871 كان ضعيفا إلا أن حصاد هذه السنة 1872 كان الأسوأ على مرّ العقود السابقة، مما سبب مشاكل ستستفحل في السنة التالية أيضا. ولم يمكث تولستوي هذه المرة في خيمة، بل سكن في منزل؛ المنزل الذي كان قائما في مزرعته وملحقاتها (خوتور باللغة البشكيرية). وكتب إلى صونيا وقال إن الانطباع الأول كان لطيفا للغاية، رغم أن البِركة خارج المنزل كانت خاوية من الماء. وقد اعترف أيضا بأن المنزل قديم ولحقت به الرطوبة ويحتوي على غرفتين فقط، لكنه طمأن زوجته وقال إنه لا ضير في ذلك وإن الأمور ستوائم حاجاتهم جميعا. ويذكر أن تولستوي كان في تلك الفترة منشغلا حتى أذنيه بالكتاب الأول من مشروعه ألف باء جيم الذي كان في طريقه أخيرا إلى الطباعة والنشر. وبالتالي، قطع زيارته وعاد إلى ياسنايا بوليانا بعد ثلاثة أسابيع قضاها في السهول فقط هذه المرة.

وبصرف النظر عن الهواجس التي كانت تنتاب صونيا من فكرة العيش في السهول، استطاعت في الصيف التالي أن تقمعها وتسافر مع العائلة بأسرها إلى شرق البلاد. ففي يونيو من عام 1873، اجتمع ستة عشر فردا من آل تولستوي في صالة الضيوف وغلّقوا الأبواب وجلسوا بصمت لبعض اللحظات استعدادا للسفر، وختموا الطقس ذاك بوقوفهم جميعاً ورسم إشارة

الصليب قبل الانطلاق. بعدها نقلتهم قوافل من العربات والحناطير إلى تولا ليركبوا منها في القطار المتوجه إلى نيجني نوفغوراد، ومن هناك انتقلوا إلى متن باخرة أوصلتهم إلى سمارا. وعندما ركبوا الباخرة شعروا أنهم أصبحوا في آسيا لدى رؤيتهم زي الأتراك والفرس البهيج والقلنسوات التي اعتمروها على رؤوسهم، وسماعهم للغة التي تحدثوا بها وهم يسافرون في الدرجة الثالثة. وخلال محطة توقفت فيها الباخرة في قازان لإعادة تزويدها بالوقود انطلق تولستوي مع ولديه سيرغيه وإيليا ليريهما أين كان يعيش في تلك المدينة. وبعد أن قطعت الباخرة بضعة أميال في نهر الفولغا اكتشفت صونيا أن تولستوي والأولاد لم يعودوا في الوقت المحدد لاستئناف الرحلة. وكما دونت في مذكراتها فإن القبطان لم يكن ليعود أدراجه من أجل «أيٍّ من البشر»، لكن وبما أن تولستوي كان كونتاً فقد اختلف الأمر. استمرت الرحلة من سمارا حيث سافرت الأسرة في عربة قديمة هائلة تجرها ستة خيول، تبرع بها يوروسوف صديق تولستوي، وأتي بها من ياسنايا بوليانا. وكانت رحلة طويلة تخللتها زوابع غبار ودرجات حرارة مرتفعة وليلة سيئة أمضتها العائلة، ولم تنسها، في نزل لتدريب الفلاحين. أما الأولاد الكبار الذين رقدوا على القش تحت السماء الريانة بالنجوم ولم يروا مثل هذه التضاريس الغريبة من قبل، فقد كان كل شيء رائعاً وجديداً بالنسبة لهم.

وعندما وصلوا أخيرا، وجد آل تولستوي صعوبة بالغة في حشر أنفسهم في المسكن الضيق والمتواضع في عزبتهم الجديدة. وفي النهاية، اضطر تولستوي وستيبان إلى الانتقال للعيش في خيمة، وانتقل الأولاد مع مدرسهم الألماني إلى الرقود في إصطبل. واتضح أن هواجس صونيا كانت واقعية للغاية. فالروث الجاف الذي كان يُستخدَم وقوداً لم يكن يشتعل على نحو جيد، وكانت رائحته كريهة مقززة بالإضافة إلى أسراب الذباب التي عمّت المكان في النهار، بينما كانت الصراصير السوداء الكبيرة تتساقط من السقف وتبدأ بالركض في جميع الاتجاهات على الفرش والملاءات بمجرد إشعال الشموع في الليل. أما الجيران وعلى امتداد الأميال المحيطة بهم فكانوا من الفلاحين والبشكير فحسب. لكن صونيا الحكيمة حاولت أن تخفي امتعاضها، وقامت بكل ما بوسعها ليستمتع الجميع بإقامتهم. وكان تولستوي على دراية بأنه كان السبب

الوحيد لوجودهم جميعا في ذلك المكان غير المريح. لذلك قام أيضا بكل ما بوسعه ليرفّه عن الجميع ويسلّيهم. ودعا المسن البشكيري ليوفر له الكوميس في ذلك الصيف؛ أي حليب المهر الذي كان تقريبا جاهزاً للاستخدام الفوري. وهكذا حضر محمد شاه بصحبة زوجاته وزوجات أبنائه ومعهم عشرة من الأمهار، ونصب خيمته (كيبيتكا) بالقرب من منزل تولستوي. وفي كل يوم دأب آل تولستوي، وحنّا التي التحقت بهم آتية من القوقاز، على الذهاب إلى الخيمة والجلوس جلسة القرفصاء على السجاد/ الزرابي في الكيبيتكا وشرب الحليب مباشرة من أوعية خشبية يقدمها لهم محمد. ولم يكن البشكير قد تعودوا على مزاولة حياة ساكنة ومستقرة، كما كان المستوطنون الروس. فقد كانت حياتهم مفعمة بالنشاط والحركة، حتى إن كلامهم كان يتسم بالنشاط والسرعة في إخراج الحروف، كما كان يفعل محمد حينما كان يحدثهم عن الأراضي التي خسرها شعبه لصالح الفلاحين المزارعين من تامبوف أو ريازان، الذين كانوا يمتازون عن غيرهم في ألوان وأشكال أزيائهم.

وكان تولستوي يستقي إفادة صحية عظيمة بالطبع؛ إذ كان ينهل من حليب المهر بواقع ثمانية أوعية في الجلسة الواحدة، وكان يحب أيضا التردد على معارض الخيول في أورينبرغ وبوزولوك حيث اشترى في مناسبة واحدة قطيعا كاملا من الخيول البرّية. لكنه في ذلك الصيف كان يفكر في شيء آخر تماما، فقد انشغل بأخبار موجات الجفاف والمجاعة التي عصفت بالمنطقة التي عانت من كساد في حصادها الزراعي للسنة الثالثة على التوالي. ولم يكن الآن ثمة احتمالية على الإطلاق في ترجمة تفاؤل تولستوي باسترداد استثماراته خلال سنتين كما زعم. وشجعت صونيا زوجها على القيام بشيء حيال المجاعة، كما شجعه عدم الاكتراث المدهش من قبل حاكم المنطقة الجديد لما يحدث. فقد اكتفى الحاكم الجديد بممارسة ضغوطات على الفلاحين الذين تأخروا في دفع الضرائب للإدارة المحلية. أما تولستوي فقد تحرَّك بسرعة وأمضى أسبوعين يجوب المنطقة، ويزور الأماكن في جميع الاتجاهات التي تندرج ضمن مسافة خمسين ميلا من مزرعته لكي يقيّم المشكلة. وهكذا، وضع قائمة جرد مفصلة لثلاث وعشرين أسرة من القرية المجاورة جافريلوفكا، عرض فيها معلومات عن عدد رؤوس الماشية

التي تملكها كل أسرة وحجم منزلها وكم من البذار بذرت في تلك السنة وكم كان حصادها وكم حجم ديونها... إلخ. بعدها، حرّر رسالة وأرسلها إلى محرري مجلة موسكو ليطلبوا من الحكومة والشعب البدء بجمع التبرعات وتوفير المساعدات للأسر المنكوبة. كما أرسل رسالة لألكسندرين يحثُّها فيها على إثارة القضية لدى البلاط القيصري.

أوضح تولستوي في رسالته أن مقاطعة سمارا تعتمد سنويا بالكلية على حصاد المحاصيل أكثر من أي مقاطعة أخرى في روسيا. وأضاف أنه أينما ولى وجهه كان يواجه المعضلة نفسها: إشارات تدل على مجاعة وشيكة تهدد بابتلاع وإبادة 90 بالمئة من سكان تلك المقاطعة: *«اختفى جميع الرجال من المنطقة وذهبوا جميعا للبحث عن عمل تاركين خلفهم نساء ضامرات نحيفات وأطفالا نحيلين مرضى ومسنين أيضا. ثمة حبوب لكنها على وشك أن تنفد. حتى الكلاب والقطط والعجول والدجاج تعاني من سوء التغذية وتتضور جوعا، بينما يأتي الشحاذون ويطرقون الأبواب فيعودون أدراجهم بخفي حنين، أو تُقدَّم لهم كسرات الخبز اليابس في بعض الأحيان»*. وإذ كان تولستوي يدرك أن ردّ السلطات المفضل سيكون تجاهل الكارثة ببساطة (فقد حاولوا إلقاء اللائمة على الفلاحين في مأساة المجاعة الوشيكة فقالوا إن السبب يكمن في كسل الفلاحين ومعاقرتهم الخمر)، أدرج في رسالته البيانات التي جمعها والتي صادق عليها كتابةً الكاهن المحلي وختم عليها رسمياً مختار القرية الذي كان أمياً بالطبع. أما بياناته فكانت مفصلة بالفعل:

1. سافينكين (لقب الأسرة): رجل مُسنّ يبلغ الخامسة والستين وامرأة مُسنّة، ابنان، أحدهما متزوج، ابنتان. سد رمق سبعة أفواه، عاملان. لا ماشية: لا خيول ولا بقر ولا خراف. آخر خيولهم سرقت، وقضت البقرة في السنة الفائتة، وبيعت جميع الخراف. زرعت الأسرة 7 هكتارات (في السنة الفائتة). لم ينبت شيء، فلم يتبقَّ شيء يُزرَع (في هذه السنة). لا مخازن للحبوب. ضريبة الرأس بواقع 30 روبلا مستحقة لتغطية فترتين سابقتين، عشرة روبلات ونصف قروض من السنة الفائتة، 13 روبلا ديون خاصة لقاء استئجار عربة قطار، الديون الإجمالية 53 روبلا ونصف..

19. خراموف (لقب الأسرة): سد رمق ستة أفواه ورضيع وعامل. الحيوانات: 2 من الخيل، 3 أبقار، 5 خراف، تيسعة هكتارات ونصف ولم ينبت شيء. الديون: 28 روبلا و48 كوبيكا..

نشرت رسالة تولستوي في السابع عشر من أغسطس بينما كانت الأسرة في طريق عودتها إلى ياسنايا بوليانا، وتم استنساخ الرسالة في العديد من الصحف والمجلات الأخرى. وأكثر ما أذهل القراء الروس هو قائمة جرد تولستوي التي احتوت على تفاصيل واقعية؛ لأن تولستوي لم يكن يُحذِّر من مأساة وشيكة على نطاق واسع فحسب، بل وفَّر ولأول مرة معلومات وإحصاءات عن الفلاحين كانت غير مسبوقة. فالسياسيون الليبراليون في أوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر، ما فتؤوا يناصرون دائما فكرة جمع البيانات الإمبريقية/ التجريبية من سكان بلادهم؛ كون ذلك يعتبر أداة قيمة تدل على مدى تقدم مجتمعاتهم. لكن الطيف السياسي في روسيا حال دون تطوير مضمار جديد للإحصاءات. فنيكولاي الأول كان، على سبيل المثال، يتوخى أشد الحذر في وضع المجتمع الروسي تحت المجهر (لا سيما ما يتعلق بمؤسسة الرق ومؤسسات الدولة الأخرى). لذلك قام بفرض رقابة على الكثير من الأعمال الإحصائية. ولهذا، لم تكن ثمة معلومات إحصائية عن طبقة الفلاحين في روسيا، لا سيما قبل قانون تحرير الرق لعام 1861، رغم أن الفلاحين كانوا يمثلون السواد الأعظم من سكان روسيا. تغيرت في الستينيات من ذلك القرن مواقف النخب على نحو متوقع، لكن إجراء إحصاء لسكان القرى من قبل بعض أفراد الإنتلجنسيا نيابة عن الحكومات المحلية (زيمستفا) لم يتم إلا بحلول عقد الثمانينيات. أما الإحصاء السكاني الوطني الأول لعموم روسيا فقد تم عام 1897.

أحدثت إذن رسالة تولستوي بشأن المجاعة عام 1873 ضجة شعبية هائلة أفضت إلى جمع تبرعات مالية وصلت إلى 2 مليون روبل تقريبا، ومساعدات عينية بواقع 344 ألف كيلوغرام من الحبوب. وبفضل تلك التبرعات والمساعدات التي أتت من الحكومة المركزية والشعب على حد سواء، خفَّت وطأة معظم العذابات والآلام والتباريح أو بُدِّدت جملة واحدة. وهكذا، شكل ذلك أول نداء مدوٍ وجداني قوي من قبل تولستوي كشف النقاب من خلاله عن حقيقة حياة العديد من الفلاحين الروس، ولن يكون الأخير.

الفصل التاسع

الروائي

«كان يقرأ في تلك الفترة الكثير من الروايات الإنجليزية التي تتناول موضوع الأسرة وكان يضحك عليها في بعض الأحيان قائلا: «تنتهي هذه الروايات دائما بأن يلف البطل ذراعيه حول وسط البطلة، ومن ثم يتزوجان فيرث عزبة ورتبة بارون. يختم هؤلاء الروائيون إذن رواياتهم بزواج البطل من البطلة، لكن الرواية لا ينبغي أن تتناول ما يحصل قبل الزواج بل ما يحصل بعده».

من مذكرات ابن تولستوي، سيرغيه.

كان تولستوي متشوقا للعودة إلى تأليف الرواية منذ أن سلَّم الجزء الأخير من كتاب «ألف باء جيم» للمطبعة في فبراير عام 1972. ولم يكن في هذه المرة منشغلا بالتنقيب المستمر عن موضوع الرواية كما كان يفعل مع اقترابه من نهاية «الحرب والسلام» لأنه كان يعرف تحديدا عن أي موضوع سيكتب. ورغم أن مخيلته حينها لم تسعفه بعد في الانجذاب نحو السيدة الجميلة الآسرة المحيرة ذات الجدائل الجامحة التي كانت تنتمي إلى الطبقة المخملية، وقُدِّر لها فيما بعد أن تصبح إحدى أعظم البطلات في الأدب العالمي (آنا كارينينا)، فإن تركيزه كان منصبا على طويل القامة (سبعة أقدام) المهرج السادي المفعم بالطاقة والحيوية، مدمن الخمر المصاب بمرض الزهري الذي صادف أن كان أول ثائر عظيم في روسيا؛ بطرس الأكبر. ومن المنصف القول إن تولستوي كشف النقاب عن تلك السمات من خلال بحث مرهق قام به، وقد أفضت تلك الصفات إلى إدراك تولستوي أنه لم يعد راغبا في كتابة رواية عن «القيصر المصلح»، وقد جعله ذلك الإدراك متقبلا لاستغلال ومضة الإلهام التي أفضت إلى الشروع في كتابة «آنا كارينينا»، مع ختام بحث جدي مستفيض في التاريخ الروسي لحقبة نهايات القرن

السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر، بعد أن حاول تولستوي أن يبدأ رواية بطرس الأكبر ثلاثة وثلاثين مرة قبل أن يعدل عن الفكرة إلى الأبد.

لم يكن تولستوي الفنان الوحيد الذي اهتم ببطرس الأكبر، فقد شرع في الفترة نفسها المؤلف الموسيقي موسورجْسكي[135] في التخطيط لتأليف أوبرا تاريخية جديدة وطموحة تعكس فترة تولي بطرس الأكبر عرش الإمبراطورية. كان ثمة سبب آخر يدعو إلى اهتمام العامة بالقيصر في تلك السنة تحديدا؛ هو أنها تزامنت مع الذكرى المئوية الثانية لولادته، ويُذكَر أن نيكولاي الأول كان يشجع بحماسة أثناء فترة حكمه على تعظيم شخصية بطرس الأكبر، وبالتالي تمَّ الاحتفال بالمناسبة ببهرجة وفخامة خليقتين بمستوى الحدث، وقد أُطلق اسم بطرس على سفينة حربية جديدة ونُصب له تمثال في مدينة بيتروزافودسك، فلم تكن سانت بطرسبرغ المدينة الوحيدة التي أسسها وحملت اسمه. وألف تشايكوفسكي مقطوعة موسيقية احتفاءً بالمناسبة، وهذا غيض من فيض وقليل من كثير جرى في تلك المناسبة الرائعة. وشهدت تلك الفترة طفرة في المنشورات الجديدة التي تناولت القيصر، وعددها بالتحديد 1049 عملاً، بالإضافة إلى عدد كبير من خطابات الإطراء بحقه من قِبل مؤرخين روس كان بعضهم يميل إلى أن يرى ألكسندر الثاني «المصلح العظيم» التالي في البلاد كما كان سلفه؛ بطرس الأول. ويُذكَر أن أعظم علماء التاريخ في تلك الفترة، البروفيسور سيرغيه سولوفيوف[136]، كان من بين أولئك الذين يُجلّون بطرس الأكبر، وقد عُيِن حينها العميد الجديد لجامعة موسكو. وأشاد البروفيسور بالقيصر المصلح في أول محاضرة من أصل اثنتي عشرة محاضرة تناول فيها حياة بطرس الأكبر عام 1872 فترنم قائلا: «مرت مئتا عام منذ اليوم الذي ولد فيه ذلك الرجل العظيم، ويسمع المرء في كل الأرجاء الكلمات التالية: يجب علينا أن نحتفي بالمئوية الثانية

(135) Мусоргский (Mussorgsky).

(136) Соловьев (Solovyov).

لولادة هذا الرجل العظيم. بالفعل، هذا هو واجبنا. إنه واجبنا المقدس.. إنه واجبنا الوطني؛ لأن الرجل العظيم واحد منا.. إنه رجل روسي».

كان سولوفيوف عالما بصناعة تولستوي، كما أنه كان ينشر على نطاق ملحمي. فقد قرأ الاثني عشر مجلدا للعمل الرائد «تاريخ الدولة الروسية» (1806-1826) للمؤلف الفذّ كارامزين عشر مرات على الأقل ولم يبلغ الثالثة عشرة بعد. بعدها في عام 1851 بدأ نشر عمله الخاص عن تاريخ روسيا، وهو مشروع انغمس فيه حتى وفاته عام 1879. فقد كان كارامزين قد غطى تاريخ روسيا لغاية اعتلاء أول قياصرة آل رومانوف العرش عام 1613، لكن عمل سولوفيوف المكون من تسعة مجلدات والمعنون «تاريخ روسيا منذ العهود الأولى»، امتدَّ ليغطي العقود التي سبقت عام 1774، وهي السنة التي اندلعت فيها ثورة بوغاتشوف التي سُحقت بوحشية على يد الإمبراطورة كاترينا العظيمة. وقرأ تولستوي بالطبع عمل سولوفيوف الفخم بعناية فائقة، لا سيما الفصول التي تناول فيها حقبة حكم بطرس الأكبر، فقد سعى سولوفيوف في عمله إلى تقديم رؤية موحدة لتطور روسيا كأمة. ولأنه كان مستغربا[137] في أطروحاته، فقد آمن بالتقدم التاريخي، فرأى إصلاحات بطرس الأكبر على أنها سُنَّة كونية وتطوّر طبيعي حتمي وضع روسيا على طريق سيادة القانون وقربها أكثر من الحضارة الأوروبية. أما بالنسبة لتولستوي، فقد أظهر عمل سولوفيوف التاريخي روسيا ما قبل بطرس على أنها بلد يتسم بـ«القسوة والوحشية والسرقة والعقاب الجسدي والفظاظة والعقم»، وبالتالي فشل في نظره في الاعتراف بمساهمة الناس في تحويل روسيا إلى دولة موحدة عظيمة أبلت بلاء حسنا في اتخاذ تدابير سريعة أحرزت من خلالها تقدما سريعا في القرن الثامن عشر، وبالتالي كان تولستوي في نهاية المطاف ناقدا لتاريخ آخر بدا أنه يركز على سياسات وأفعال حكام روسيا فحسب. ومع ذلك، شاطر تولستوي إعجاب سولوفيوف ببطرس الأكبر لجهة ذوقه المتواضع، لكنه لم يكن معجبا بغير ذلك كثيرا.

(137) يميل إلى الغرب.

ولكي يتقمص أسلوب العيش في روسيا إبان حقبة بطرس الأكبر، أحاط تولستوي نفسه بعدد هائل من الكتب والمقالات، من بينها «أفعال بطرس الأكبر.. مصلح روسيا الحكيم». وهو عمل محترم كتبه إيفان جوليكوف في ثلاثين مجلدا نُشرت في نهاية القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى أعمال عصرية لمؤرخين ميالين إلى النزعة السلافية كان موقفهم من حكم بطرس الأكبر أكثر تبايناً، وصولا إلى دراسات قام بها مؤرخون من أمثال ميخائيل سيميفسكي الذي كان يوقّر إنجازات بطرس الأكبر، ولكنه يتقزز من اقترافه المحرمات وسلوكه الرابيلي(138).

التهم تولستوي بحوثا ودراسات ومذكرات ورسائل وكتبا عامة في التاريخ وغيرها من المواد التي وقعت عليها يداه، بالإضافة إلى مطالعته للصور العصرية واللوحات.

أخذ موسورجسكي يرتع في غزارة الكتب والمقالات الجديدة التي ملأت بالتدريج الحلقات المفقودة من التاريخ الروسي، لكنه كان يشكك في جدوى إصلاحات بطرس. في رسالة كتبها إلى ستاسوف في يونيو عام 1872 بأسلوبه المبطن المراوغ أكد موسورجسكي على أن روسيا لم تتقدم كأمة:

«إن قوة التربة السوداء سوف تكشف عن نفسها عندما تحفر عميقا وتصل إلى القاع، قد تُحفَر التربة السوداء بأدوات غريبة عنها، وفي نهاية القرن السابع عشر حفروا وحفروا روسيا الأم بتلك الأدوات الغريبة عنها ولم تدرك الأم مباشرة الأدوات التي كانت تستخدم، وشأنها شأن التربة السوداء تفتحت وبدأت التنفس، وبالتالي تلقفت أمُّنا العزيزة مستشاري الملك الذين لم يتيحوا لها قط فرصة تجميع قواها والتفكير في السؤال التالي: ماذا تفعلون بي بحق الله؟ لكنهم استمروا في الحفر وقالوا لها: استسلمي لنا، وهكذا ما زلنا حتى اليوم نعاني من تأثير تلك الكدمات المتولدة عن الحفر».

(138) Rabelaisian نسبة إلى الروائي الفرنسي فرانسوا رابيليه الساخر المشهور بالذكاء وسرعة البديهة والتهكم والفكه الفاحش (المترجم).

أثقلت كاهل موسورجسكي مهمة صياغة النص الأوبرالي بنفسه من خلال الاعتماد على عدد متباين من المصادر الأولية التي كان يعمل عليها، ولم يستطع في النهاية أن يُتم المدونة الموسيقية للأوبرا. أما تولستوي فلم يكن منزعجا من أبعاد مهمته، لكنه لم يستطع الشروع في مهمة كتابة الرواية لأنه كلما قرأ أكثر عن بطرس الأكبر أصبح الأخير أقل جاذبية كشخصية محتملة للرواية، فقد استاء تولستوي من شخصية الإمبراطور الأول لروسيا فتجاهله في نهاية المطاف واصفا إياه بـ«المهرج الماجن السكّير».

وقد لعب إدمان موسورجسكي على الكحول أيضا دورا في تقليص أي اهتمام بموسيقاه من قِبل تولستوي (فقد أدى تعاطيه الكحول إلى موته المبكر عام 1881 عندما بلغ من العمر اثنين وأربعين عاما فقط)، ورغم أن تولستوي تفاجأ لاحقا بجمال الأغاني التي سمعها عام 1903 والتي كان قد لحنها موسورجسكي، فإنه لم يكن يهتم كثيرا بالموسيقى الروسية المعاصرة ولم يكترث بإنجازاتها. لكنَّ الرجلين كانا يشتركان في كثير من الأمور رغم أنهما لم يلتقيا، فقد شاركا شغفا بروسيا وتاريخها واهتماما عميقا بالمحتوى الغني للغة الروسية، فبينما كان تولستوي يؤلف كتاب «ألف باء جيم»، كان موسورجسكي يعيد إنتاج قصائد الأطفال الشعرية في أغنيته البديعة المسماة «الحضانة». كما شاركا اهتماما مدروسا بالأصالة وتبنيا أدق التفاصيل. وحاول تولستوي أن يطرق طريقة لوصف حملات آزوف التي شنَّها بطرس الأكبر ضد الأتراك، فكتب في يناير عام 1873 رسالة لأحد معارف العائلة كان يعيش في جنوب روسيا ليطرح أسئلة دقيقة عن التضاريس المحيطة بنهر الدّون، كيف كانت تبدو ضفاف النهر؟ ما نوع العشب الذي كان ينمو هناك؟ هل من أكمات أو شجيرات؟ وماذا عن الحصى؟ هل ثمة حصى على الضفاف؟ كان تولستوي يعقد آمالا عريضة على رواية بطرس الأكبر، لكنه اكتشف أنه غير قادر على أن يكسو عظامها لحما ويبث الحياة في العديد من المسودات رغم محاولاته المتكررة. ومن المفارقات أنه في فبراير من عام 1873، وبينما أخبر الجمهور في عامود صحفي بأن تولستوي شرع في عمله الروائي التالي، كان الأخير على شفا الاستسلام والعزوف عن الكتابة، لكن رغبة

جامحة في الكتابة تملكته بعد أسابيع فأراد أن يكتب عن مواضيع معاصرة، فبدأ صياغة مسودة لرواية جديدة تدور في تلك الحقبة الحبلى بالمشاكل والتوترات.

وبينما عمل المؤرخون على عرض صورة أكثر شمولية لبطرس الأكبر في مناخ مؤات في حقبة ألكسندر الثاني، بدأ عدد متزايد من الناس يشك بالرواية الرسمية لحكم بطرس الأكبر، بمن فيهم ضيف تولستوي الأمريكي يوجين شويلر الذي نشر كتابه «سيرة تاريخية» عام 1884. ومن المرجح أنه وتولستوي ناقشا افتتانهما ببطرس الأكبر في مرحلة ما إبان مكوث شويلر في ياسنايا بوليانا لأسبوع كامل عام 1868. فقد آمن شويلر من خلال بحوثه بأن بطرس الأكبر قام بأوربة روسيا قسرا وعلى نحو مبكر. وبما أن حكام روسيا اللاحقين حشدوا الموارد لتعزيز القوة العسكرية للبلاد واحترامها على حساب الإصلاحات الداخلية (وهو سيناريو تكرر بالطبع في القرن العشرين)، إلا أن تكلفة الإصلاحات التي أجراها بطرس الأكبر دفعها أولئك الذين استفادوا منها أقل من غيرهم بكثير، ونعني هنا ملايين الأقنان الذين شكّلوا السواد الأعظم من قاطني روسيا آنذاك، فـ«الإصلاحات العظيمة» التي أُجريت أخيرا في الستينيات من القرن التاسع عشر أتت متأخرة كثيرا، ولم تكن بالطبع كافية من وجهة نظر جل المثقفين الروس، لكن تولستوي كدأبه لم يكن يميل إلى أي طرف، فلم يكن مع الكريبوستنيكي[139]، ولم يكن أيضا مع أفراد الإنتلجنسيا اليساريين الذين أرادوا إحداث تغيير جذري، فقد هاجم كلا الجانبين في روايته «آنا كارينينا».

كما أصبحت معرفة تولستوي بالهوة السحيقة التي تفصل بين امتيازاته وموقعه الأرستقراطي غير المستحق من جهة، وفقر وتخلف الفلاحين من جهة أخرى، أصبحت تسبب له ألما يتفاقم مع مر الأيام، مما جعل استمراره في الكتابة للطبقات المثقفة أمرا يصعب تبريره أخلاقيا، ولهذا السبب فرّغ كثيرا من وقته لتأليف كتاب «الألف باء جيم» الذي اعتبره الإنجاز الأكثر أهمية في حياته.

---

(139) أعضاء الجناح اليميني من طبقة النبلاء والإقطاعيين الذين عارضوا قانون تحرير الرق.

في تلك الفترة من حياته المهنية شكل ذلك الطريقة المثلى لمحاولة المساعدة في إصلاح وضعٍ تواطَأ فيه جميع الإقطاعيين، بينما النهج الطوباوي الذي انتهجه العديد من الطلاب الشباب المثاليين في روسيا إزاء المشاكل الاجتماعية في البلاد لم يكن عمليا بالقدر الكافي، وعندما تخلى تولستوي عن رواية بطرس الأكبر في ربيع عام 1873، وفي الوقت الذي بدا فيه مشروعه لتأليف كتاب «الألف باء جيم» آيلا للفشل الذريع، بدأ أعضاء متشددون من الإنتلجنسيا الطلابية في روسيا بالتفكير في أن الثورة هي الحل الوحيد لمشاكل البلاد. وبإلهام من أفكار شعبوية ساقها مفكرون من أمثال ألكسندر هيرتسن، الذي ناصر فكرة وجود طراز روسي خاص من الاشتراكية مصمم لتمكين الفلاحين من اجتياز الرأسمالية، توجَّهَ الطلاب إلى الأرياف ليتواصلوا مباشرة مع الناس من خلال توزيع منشورات دعائية وإنشاء ورش عمل وتعاونيات.

وشكل صيف عام 1874 ذروة نشاط حركة «ذاهبون إلى الشعب»، عندما اجتاح الريف الروسي آلاف من الشباب المتحمسين «العدميين» (الصفة التي أُلصقت بهم منذ نشر رواية تورغينيف «آباء وبنون» عام 1862 التي وسمتهم بالتشكك تجاه أي سلطة حاكمة)، وكان كثير منهم من الشابات. وبما أن السواد الأعظم من هؤلاء الطلاب أتى من المدن، إذ كانوا في واقع الأمر من الطبقة المتوسطة فلم يكن لديهم أدنى معرفة بطبقة الفلاحين، وبالتالي كانت حساباتهم خاطئة؛ فإن ما حصل هو أن أحاديث الفلاحين فيما بينهم لم تلق بالا، وكانت بالأحرى عدائية إزاء جهود الطلاب في تحريضهم على الإطاحة بقيصرهم. وبعكس كل التوقعات، احتفظ الفلاحون بولاء وتعاطف عميقين تجاه آل رومانوف، وفشلت إذن حركة «ذاهبون إلى الشعب» السلمية، وتلا ذلك الفشل موجة من الاعتقالات التي دفعت العناصر الشعبوية المتطرفة إلى تبني الإرهاب في نهاية عقد السبعينيات. وعلى خلفية هذه الاضطرابات الاجتماعية سيقوم تولستوي بكتابة روايته «آنا كارينينا». ويُعتبَر عرض تولستوي لشخصية عدمية ثانوية في الرواية ودفاعه المستميت عن مؤسسة الزواج والقيم العائلية المحافظة؛ تأكيدا

على أن الرواية بأسرها كانت في الواقع هجوما لاذعا على الأفكار التي كانت تتبناها الإنتلجنسيا المتطرفة، التي كانت قضية تحرر النساء تمثل هدفا سياسيا حاضرا باستمرار على أجندتها الفكرية. لم يكن تولستوي الأرستقراطي يتنازل ويدخل في سجال مباشر مع خصومه؛ لأن مواقفهم المتصلبة كانت مدفوعة جزئيا بأنهم لم يكونوا ليخسروا شيئا وهم الذين ينحدر معظمهم من خلفيات اجتماعية فقيرة. وفي تحليلها البحثي لمؤسسة الزواج، شكلت «آنا كارينينا» ردا غير مباشر على أفكار تحرر النساء التي ناصرتها نصوص كلاسيكية عدمية كتبها تشيرنيشيفسكي في روايته «ماذا يجب فعله؟» عام 1862، التي تحتفي بـ«الحب الحرّ» المنفلت من كل القيود.

وقد بدأ تولستوي زرع بذور المسألة في فبراير 1870 عندما بدأ بصياغة مقال بشأن «قضية المرأة»، وانضم إلى ستراخوف في رفضهما القطعي لمناداة جون ستيوارت ميل بالمساواة بين الجنسين. وهنا بالتحديد بدأت تراود تولستوي فكرة كتابة رواية تدور أحداثها حول فتاة من الطبقة المخملية ترتكب الزنا. بعدها، وفي مساء مظلم بارد من يناير/ كانون الثاني عام 1872 وصلت سيدة، في الخامسة والثلاثين من عمرها، تدعى آنا بيراغوفا إلى محطة ياسنكا القريبة من ياسنايا بوليانا، تحمل حزمة تحتوي على بعض الملابس الداخلية. وبعد أن رسمت إشارة الصليب على صدرها ألقت بنفسها أمام قطار البضائع رقم 77 وانتحرت. وكانت تلك السيدة على قرابة بعيدة بزوجة تولستوي، وقد كانت تعمل مربيةَ منزل، ومن ثم عشيقةً لصديق وجار تولستوي الرجل الخمسيني ألكسندر بيبيكوف الذي ارتبط معه منذ سنوات بمشروع مصفاة للخمر لم تدم طويلا. وكان ألكسندر قد أخبر آنا بأنه ينوي الزواج بمربية ابنه، وهي فتاة ألمانية حسناء جذابة، وفي نوبة غضب وحسد أرسلت له آنا رسالة تتهمه فيها بقتلها قبل أن تنتحر. ذهب تولستوي بعد الحادثة إلى الطب الشرعي وأصيب بانزعاج شديد لدى رؤيته الجثة المشوهة للمرأة المكتنزة ذات العيون الزرقاء الفاتحة التي كان يعرفها. وكانت تلك الحادثة إحدى حالات الانتحار المبكرة التي وقعت على شبكة روسيا للسكك الحديدية الجديدة التي

كانت تتوسع بسرعة فائقة، فقد كانت تغطي 500 ميل بحلول وفاة القيصر نيكولاي الأول، وأصبحت تغطي زهاء 10 آلاف ميل بحلول عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر. وكانت تلك حادثة الانتحار الأولى التي وقعت في محطة تولستوي المحلية. كان تولستوي يستخدم «الطريق الحديدي» بالطبع، ولكنه كان ممتعضا من إقحام الحداثة في محميته الريفية الهادئة، لذلك كان يدعم البنية الهندسية المعقدة في رواية «آنا كارينينا» بربط الأحداث ذات العلاقة بالسكة الحديدية بموضوعات الموت والدمار.

أما الدافع الآخر لكتابة الرواية فقد جاء من فرنسا، ففي مارس من عام 1873، كتب تولستوي إلى شقيقة زوجته يسألها عما إذا كانت قد قرأت مقالة[140] كتبها ألكسندر دوما وأحدثت زوبعة في باريس في السنة الفائتة، وأعيدت طباعتها عشرات المرات. وقد كتب دوما تلك المقالة كرد فعل على تغطية الصحافة لمحاكمة رجل اتهم بقتل «زوجته الخائنة»، التي كان قد انفصل عنها. وكان بالتحديد يردُّ على مقال شجب القوانين الفرنسية التي تبرر في الواقع ارتكاب جرائم كهذه (فالرجل قد حُكم عليه بخمس سنوات سجن فقط)، واقترح أن الحل يكمن في الطلاق رغم أنه كان خيارا مستحيلا، لأنه وبعد فترة قصيرة من الثورة الفرنسية، حين كانت قوانين الطلاق في فرنسا الأكثر تحررا في العالم، حُظر الطلاق وأصبح غير قانوني في عام 1816 وبقي كذلك حتى عام 1884. وبحسب رأي ألكسندر دوما، يعتبر الزواج تجربة مريرة وكفاحا لا سبيل لإصلاحه بين جنسين تفوز فيه المرأة في نهاية المطاف، لكنه حاجج هنا بأن الرجل هو الحكم الأخلاقي، ولذلك له الحق في قتل زوجته الخائنة التي كانت صعبة المراس واستمرت في تعنتها حتى النهاية. أما تولستوي فقد انبهر جدا بتحليل دوما لمسألة الزواج، ولذلك أدرج نقاشا بشأن المقال المذكور في إحدى المسودات الأولى للرواية، بالإضافة إلى عرض بعض نقاطه من خلال توصيفه لزواج لينين بكيتي. وقد قام بالطبع بالتعرف على تقاليد الروايات الفرنسية التي تصدَّت لموضوع الزنا على يد كُتّاب كفلوبير وزولا ودوما.

---

(140) L'Homme-femme.

توفِّر حياة دوما، أو بالأحرى حياة زوجته، حاشية مهمة لموضوعات رواية «آنا كارينينا»، فقد كان دوما متزوجا بنديجدا ناريشكنا، وهي سيدة روسية أرستقراطية ارتكبت الزنا وولدت طفلا غير شرعي، وكانت أيضا متورطة في قضية قتل مشهورة في موسكو في الخمسينيات من ذلك القرن فصدمت المجتمع الروسي الراقي وشغلته، بما في ذلك تولستوي. كانت نديجدا امرأة آسرة جذابة تزوجت وهي شابة صغيرة بألكسندر ناريشكن، سليل إحدى أعرق الأسر الروسية الأرستقراطية. وبعد أن حملت بابنته عززت موقعها كإحدى أبرز السيدات العظيمات في مجتمع موسكو الراقي، إذ كانت مشهورة بأنها كانت آخر شخص يصل إلى الحفلات الليلية، أي ليس قبل منتصف الليل. كان تولستوي من معاصريها، وكان يعيش في تلك الفترة في موسكو. وعندما بلغت نديجدا الخامسة والعشرين، في خمسينيات القرن، بدأت علاقة غرامية مع شاب يشبه فرونسكي في رواية «آنا كارينينا»؛ وسيم ثري أرستقراطي، يُدعى ألكسندر سوخوفا-كوبيلن. وكان مسرحيا موهوبا مشهورا بسمعته كدون جوان عصره. بعدها، تورطت ناريشكنا في حبال غرامه واتُّهمت بقتل عشيقته الفرنسية، وهي جريمة أفضت -ربما على نحو خاطئ- إلى اعتقال ألكسندر سوخوفا-كوبيلن وسجنه مع خادمين أدينا بالجريمة ونفيا إلى سيبيريا. في الأثناء، كانت نديجدا تحمل طفلا غير شرعي منه، فقررت الحسناء الفاتنة اللعوب الرحيل على جناح السرعة مع ابنتها إلى باريس حيث سبقتها سمعتها إلى أعرق صالونات المدينة، فأصبحت مشهورة بمجرد أن وطئت قدماها أرض باريس التي تعرفت فيها على ألكسندر دوما، الابن غير الشرعي لبيير دوما الذي اشتهر بعد نشره عام 1848 رواية «سيدة الكاميليا»[141]، التي استلهمها من علاقة كانت تربطه ببائعة هوى باريسية (بعدها تحولت الرواية إلى أوبرا لاترافياتا[142] للمؤلف فيردي). رفض زوج ناريشكنا أن يطلقها وهددها بانتزاع ابنته منها، ولم تستطع بالتالي أن تتزوج دوما إلا بعد وفاة زوجها عام 1864.

(141) La Dame aux camelias.

(142) La Traviata.

كتب تولستوي إلى عمته توانيت يخبرها عن ملابسات جريمة القتل الفاضحة التي كانت مدار حديث الناس في موسكو لسنوات عديدة، وربما سمع أيضا عن علاقة ناريشكنا المشهورة بألكسندر دوما خلال زياراته إلى باريس. أما تحليلات دوما للزواج في مقالته المذكورة آنفاً فلا شك أنها تمخضت عن تجربة زواجه بنديجدا ناريشكنا التي أنجب منها ابنتين، وهذا ما شكل مادة دسمة لتولستوي في عمله الإبداعي. لكن العمة توانيت كان لها ربما التأثير الأعظم على رؤية تولستوي لموضوع الزنا. ففي مذكراته التي يتناول فيها عمته توانيت كثيرا، يسجل تولستوي بأنه أخبرها في إحدى الأمسيات عن صديق له خانته زوجته وتوارت عن الأنظار، وعندما قال تولستوي بأن صديقه ربما يشعر بالارتياح لتخلصه من زوجته، يصف كيف تحولت توانيت بلحظة من الهزل إلى الجد، وطلبت منه أن يتضرع إلى الله ليغفر له سوء عمله (زلة لسانه) ويرحمه. وهذا بالتحديد المزاج الذي يعبر عنه تولستوي من خلال البطلة المغمورة دولي في «آنا كارينينا»، فعندما يخبر كارينين دولي عن المأزق الذي يعيشه في نهاية حفلة عشاء أبلونسكي في الجزء الرابع من الرواية، تتوسل إليه دولي بأن لا يُطلِّق زوجته لكي لا يجلب العار والخزي وسوء السمعة لها فيدمرها تدميرا، فقد كان رأي توانيت في مثل هذه الحالات يتلخص في أن المرء يجب أن يمقت الجريمة ولا يتعين عليه أن يكره مرتكبها. وقد كان ذلك رأي تولستوي تماما، مما جعله مفتاحا في تناول شخصية «آنا كارينينا» لتصبح من أكثر الشخصيات الأدبية الروائية تعقيدا وجمالا على مر التاريخ.

دونت قصة بدء كتابة «آنا كارينينا» في سجلات تاريخ الأدب الروسي، وقد شارك في التمهيد لها، على نحو غير متعمد، كل من صونيا وتوانيت وابنه الأكبر سيرغيه الذي كان يبلغ من العمر حينها 9 سنوات، وكان يلحّ على أمه لكي تعطيه شيئا ما يقرؤه جهرا على العمة توانيت التي كانت حينها مسنَّة ضعيفة تحتاج إلى شيء يرفِّه عنها. سجلت صونيا في مذكراتها في التاسع عشر من مارس عام 1873، أنها ناولت سيرغيه المجلد الخامس من أعمال بوشكين التي كانت الأسرة تحتفظ بها، وقد احتوى ذلك المجلد على حكايات بلكين، بعد لحظات من القراءة

غطت توانيت في نوم عميق وفقد سيرغيه الصغير اهتمامه بنثر بوشكين الخالد، وكانت صونيا تشعر بالكسل في ذلك اليوم فلم تُعد المجلد إلى مكانه في المكتبة فتركته في الأعلى على حافة النافذة في غرفة الاستقبال، وهكذا وقع في يد تولستوي. وكتب بعد أيام إلى ستراخوف يخبره بحماسة بأنه لم يستطع أن يضعه من يده رغم أنه كان يقرأ حكايات بلكين للمرة السابعة. وقد احتوى المجلد أيضا على بعض الأجزاء غير المكتملة لروايات وقصص، بما في ذلك جزء يبدأ بـ«وصل الضيوف إلى البيت الصيفي» استرعى اهتمام تولستوي، فقد شعر بالانجذاب للمحتوى لأن بوشكين بدأ الكتابة من دون مقدمات ومن دون حتى الاكتراث بتمهيد الطريق ووصف الشخصيات... إلخ. وهكذا، وبعد ثلاث وثلاثين محاولة فاشلة في بدء رواية عن بطرس الأكبر، شكَّل أسلوب بوشكين في الكتابة إلهاما له، فاستهدى به لكي يبدأ أعماله الروائية اللاحقة (ويبدو أنه نسي أنه إلى حد ما استخدم الأسلوب نفسه في «الحرب والسلام»، فقد بدأها بحفلة راقصة ليلية للطبقة المخملية من دون مقدمات). كتب تولستوي في مسودة إلى ستراخوف لم يرسلها له لاحقا: «فكرت تلقائيا وعلى نحو مفاجئ بالشخصيات والأحداث من دون أن أعرف بنفسي السبب الذي دفعني إلى ذلك، أو ما سيأتي لاحقا، واستمررت...». إن فكرة الكتابة عن عواقب خيانة امرأة كانت تدور في خلده منذ البداية، لكن الأمر استغرق وقتا طويلا قبل أن يسمّي روايته «آنا كارينينا» ويبدأها بالجملة الافتتاحية المشهورة:

«تشبه الأسر السعيدة بعضها بعضا، لكن كل أسرة تعيسة تختلف في تعاستها عن الأخرى، اختلط الحابل بالنابل وعمت الفوضى في منزل أوبلونسكي، فقد اكتشفت الزوجة علاقة زوجها بالمربية الفرنسية التي كانت تعيش في كنفهم في السابق، وأخبرته بأنها لن تقوى على العيش معه تحت سقف واحد بعد الآن..».

يصف الراوي في الجزء الذي كتبه بوشكين، والذي يعود إلى عقد العشرينيات، كيف غصّت غرفة الاستقبال بالضيوف الذين أتوا لتوهم من عرض لأوبرا إيطالية جديدة، فقد جلست الحسناوات على الأرائك وأحاط بهن الرجال، بينما بدأت ألعاب الويست على المناضد

القريبة، وقد بدأ تولستوي أيضا المسودة الأولى للرواية التي لم يسمها بعد بمشهد في صالون أرستقراطي:

«ما أن خلع المضيف معطفه المصنوع من فراء السّمور الأسود في الممر، حتى أمر كبير الطهاة بإحضار الشاي للضيوف في غرفة الاستقبال الواسعة. في الأثناء وصلت عربة ثانية تقل أشخاصا جددا إلى المدخل الرئيسي».

وكما الحال في مقطع بوشكين، كان الضيوف في رواية تولستوي قد فرغوا لتوهم من مشاهدة عرض أوبرالي (استعراض لدون جيوفاني، وهو عمل يتناول موضوعات كالغواية والزنا في معظمه). ويتركز الحديث عن موظف كبير يدعى ميخائيل ميخائيلوفتش ستافروفيتش (كارينين المستقبل)، وزوجته تاتيانا سيرغييفنا (آنا المستقبل) وكيف أنها خانته ولم يكن على علم بذلك. بعدها يحضر الزوجان المذكوران معا إلى الحفلة ويتبعهما لاحقا إيفان بالاشوف (فرونسكي المستقبل)، الذي يقترب من تاتيانا ويتحدث معها بحميمة وصوت وحماسة لافتا انتباه الحاضرين. ويقر ستافروفيتش بالكارثة التي حلت به ويمنع بالتالي زوجته من مجرد التفكير بحضور فعاليات اجتماعية كهذه. يذكّرنا هذا المشهد قليلا بالحفلة الراقصة في منزل الأميرة بيتسي في الجزء الثاني من «آنا كارينينا».

يقوم تولستوي في المسودة الأولى بنسج أحد عشر فصلا إضافيا، تصبح تاتيانا (تانيا) حاملا، ويخسر بالاشوف في سباق الخيل عندما تسقط مهرته من على السياج، ويهجر ستافروفيتش تانيا وينتقل إلى موسكو، وتنجب الأخيرة ويوافق زوجها على طلاقها. أما زواج تاتيانا الثاني فلا يكون أسعد من الأول. وبعد أن يخبرها ستافروفيتش بأن زواجهما في الواقع لا يمكن إنهاؤه وأن الجميع قد عانى مما جرى تقوم بإلقاء نفسها في نهر النيفا وتغرق. وينضم بالاشوف إلى حملة الخيفا (وقد هاجمت القوات الروسية المدينة وسيطرت على خانة خيفا عام 1873 بينما كان تولستوي يكتب الرواية).

يكون لتاتيانا شقيق في المسودة الأولى (نموذج من نماذج أبلونسكي)، بينما يكون لزوجها شقيقة تدعى كيتي، لكن ليس ثمة أثر لليفين وأشقائه بعد ولا ذكر لأيٍّ من أفراد أسرة شتشيرباتسكي. ويصور ستافروفيتش في الرواية بطريقة تدعو إلى التعاطف معه، بينما تصور زوجته بأنها «مستفزة» و «خجولة» في الوقت نفسه. لم يدأب تولستوي على التدوين المسبق لملخصات عن أعماله الروائية من قبل، ولكن هذه المسودات كانت تتغير كثيرا على أي حال، فقد كان يطور ويوسع دراميا في كل جزء من هذه القصة في المسودات اللاحقة، بخلاف استثارته للحالة العقلية التي كان عليها حصان بالاشوف خلال السباق، فقد حذف هذا الجزء من الرواية لاحقا. كان مهذب خيل بالاشوف الإنجليزي يدعى كورد، كما هي الحال في النسخة النهائية من الرواية. أما مهرته فلم يسمها فرو-فرو بعد، فقد سماها في البداية اسما إنجليزيا هو «تايني»، ويشار إليها بـ«تاني» (كما ينطق بالروسية)، وأيضا كـ«تانيا»، ليربطها برابط يتعذر محوه مع محبوبته. وهكذا يبقى الاسم في النسخة النهائية، رغم أن الربط هنا لا يُعبَّر عنه على نحو واضح.

لم يكن تولستوي مستعدا البتة ليقدم هذه المسودات إلى صونيا لتنسخها بعد، فقد بدأ عوضا عن ذلك بمسودة جديدة لفاتحة الرواية:

«ركب الضيوف بعد الانتهاء من الأوبرا، وتوجهوا إلى منزل الأميرة فراسكايا. وبعد وصولها إلى المنزل قادمة من المسرح، كانت الأميرة ميكا، كما يسمونها في المجتمع المخملي، قد نزعت لتوها معطف الفرو في الردهة المضاءة أمام المرآة والتي كانت مليئة بالزهور، وبيدها الصغيرة وقفازها الصغير كانت ما تزال تفك رباطا علق في إبزيم من معطفها...».

وفي هذه المرحلة كان تولستوي قد سمى البطلة أناستازيا (نانا) أركاديفنا كارينينا، واستبدل الرداء ذا الأربطة الصفراء بردائها المخملي الأسود الذي سترتديه في الحفلة الراقصة في المسودة النهائية. وقد استقر رأيه على تسمية زوجها ألكسيه ألكسندروفيتش، أما عشيقها فقد

بدأ باسم بالاشوف، ومن ثم تحول إلى جاغين، لكن تولستوي تخلى عن هذه المسودة في نهاية المطاف وأبقى فقط على الجزء الخاص بفك الرباط العالق في إبزيم المعطف (ولكن معطف آنا كارينينا هذه المرة) في المسودة النهائية للرواية، والسيّدة تهم بمغادرة حفلة الأميرة بيتسي الليلية الراقصة بعد لقائها المشؤوم بفرونسكي.

كتب تولستوي عددا من الصفحات الإضافية لكن صبره بدأ ينفد، فقد أراد تأليف رواية عن الزنا والخيانة الزوجية ولم يرد أن يغوص في الكتابة عن مجتمع بطرسبورغ المخملي فحسب أو يتقيد به، رغم أن موقفه من ذلك المجتمع كان ناقدا بامتياز، وبخلاف بعض الاستثناءات (كحديث ستافروفيتش مع شخص عدمي في القطار)، كان هامش الحديث عن المجتمع ضيقا للغاية، وبالتالي قرر تولستوي أن يقدم في مسودته الثالثة شخصية كوستيا نيرادوف، نموذجا عن ليفين. ونيرادوف هذا من إقطاعيي الأرياف، وهو صديق لجاغين (فرونسكي المستقبل) وغريمه في حب كيتي شتشيرباتسكايا التي ستظهر الآن لأول مرة في الرواية، أما الأحداث فتنتقل في هذه المرحلة إلى موسكو.

وبدأ تولستوي يستقر في أمره على تفاصيل الرواية رويدا رويدا، فمحاولته الرابعة لكتابة فاتحة الرواية حملت الآن عنوان «آنا كارينينا» لأول مرة وأتبعها بعبارة استهلالية تقول «الانتقام لي». وتبدأ هذه المسودة بالمشهد الشائع الذي يستيقظ فيه الزوج بعد شجار صاخب مع زوجته في الليلة الفائتة بعد اكتشافها لخيانته. «ستيبان أركاديتش ألابين» يشبه إلى حد كبير أوبلونسكي، وتأتي آنا إلى موسكو لتصلح ذات البين، فتلتقي بجاغين في حفلة راقصة. لكن تولستوي لم يكن بعد مقتنعا، فليس ثمة توتر في العلاقة بين ليفين وفرونسكي لأنهما كانا صديقين، يقرر عندها تغيير أسميهما ليصبحا أورديتسيف وأوداشيف، ويجعلهما الآن غريمين في حب كيتي عِوَضَ أن يكونا صديقين. حان الوقت لصياغة فاتحة جديدة إذن، وضع تولستوي صفحة بيضاء جديدة أمامه وبدأ فاتحة خامسة:

«كان هناك معرض للمواشي في موسكو، وكانت حديقة الحيوانات تعجّ بالناس، وفيها ظهر الرجل الذي تعرفه موسكو بأسرها يتمشى متلألئا بوجهه الوضاح اللطيف وشفتيه المكتنزتين الحمراوين، يعتمر قبعة تميل شيئا ما إلى أحد الجانبين على شعره الأشقر الفاتح المتموج الخفيف، وياقة معطفه الرمادية المصنوعة من وبر القندس تبرز بموازاة عارضيه الجميلين المتشحين بالبياض، إنه ستيبان أركاديتش ألابين..

وكان أوردينتسيف على وشك أن يلتقي مصادفة بصديقه القديم، كان قد أتى إلى موسكو ليعرض عجوله وثيرانه...».

استمر تولستوي هذه المرة في الكتابة لفترة طويلة، لكنه اتبع مجددا نهجا آخر وغيَّر من طريقته، فقد بنى أسسا راسخة لروايته من خلال خلق «مسار لليفين يكون فيه موازيا لحبكة كارنين مع أوبلونسكي كقوس يجمع بينهما»، ولكن لأسباب متعلقة بتوازن البناء قرر عدم إدراج شخصيته الرئيسية ليفين في الفصل الأول، لذلك احتفظ بالتالي بحديقة الحيوانات لمشهد تزلج أدرجه لاحقا في موضع آخر من الرواية، وعاد إلى فكرته السابقة التي تقتضي افتتاح الرواية باستيقاظ «أوبلونسكي» بعد شجار شب مع زوجته في الليلة الفائتة. وهكذا، أعاد صياغة المشاهد الافتتاحية الحاسمة أربع مرات قبل أن يضبطها على الوجه الصحيح، وكانت تلك الفصول الأولى التي قدمها لصونيا لتنسخها بوضوح، وبقي كل شيء آخر على شكل مسودات فحسب. ويُذكَر أنه، على سبيل المثال، أخرج عشر نسخ للجزء الأول من «آنا كارنينا»، وكتب ما مجمله 2,500 صفحة من المخطوطات قبل أن تكتمل الرواية. وقد استغرق الأمر قرنا كاملا لكشف النقاب عن القصة الدقيقة وراء كتابة «آنا كارنينا» والأسلوب الذي اتبعه تولستوي في إتمامها، فقد كُشف جزئيا عن المخطوطات لتنشر في المجلد العشرين من أعماله الكاملة عام 1939، إلا أن النسخة المرجعية الكاملة الأولى للرواية ظهرت عام 1970، واتضح الآن أنها تحتوي أيضا على بعض الأخطاء.

شعر تولستوي أخيرا في الحادي عشر من مايو عام 1873 بأن لديه ما يقوله لصديقه ستراخوف، فتحلَّى بالشجاعة وأخذ نفسا عميقا وأخبره بأنه أمضى أكثر من شهر وهو يعمل على رواية لا علاقة لها ببطرس الأكبر. وركَّز على أنه يكتب رواية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وهي الرواية الأولى التي يكتبها في حياته. بالفعل فقد عكف تولستوي على ترويس الصفحة التي يبدأ بها كل مسودة للفصل الافتتاحي بكلمة «رامان»[143]. وفي تلك الفترة المبكرة كان تولستوي في أوج حماسته لمشروعه الجديد، فوصف مشاعره لستراخوف قائلا إن هذا المشروع قد «سلب لبّه» وفتنه وطغى على كيانه. لكنه وقبل أن يسافر مع أسرته في بداية يونيو في رحلتهم الصيفية إلى سنمارا، إذ كان ينزع إلى أخذ قسط من الراحة بعيدا عن الكتابة، حدث أمران أثرا سلبيا على تقدم سير الكتابة، وألقيا بالظلال الأولى على الرواية التي سيتضح فيما بعد أن إتمامها سيغدو أمرا صعبا على نحو مضطرد، فقد جاء نبأ مفاجئ يفيد بموت الابنة الكبرى لشقيقة زوجته، داشا كوزمينسكيا وهي لا تزال في الخامسة من عمرها، فقد كانت تانيا؛ شقيقة صونيا، تأتي بأولادها كل صيف ليمكثوا في ياسنايا بوليانا، وكانت داشا محبوبة من قبل الجميع. جزع تولستوي لدى سماعه الخبر، وفكر في أن ما أصاب داشا يمكن أن يصيب بسهولة أيـًا من أولاده. أما صونيا فقد انتحبت حزنا لخسارة شقيقتها، وحرر تولستوي رسالة تعزية مسهبة وأرسلها إلى تانيا، وأصدر تعليمات لها بأن تحفظ عن ظهر قلب ترنيمة المصاعد -المزمور الثلاثون بعد المئة من سفر المزامير في الكتاب المقدس- وترتله كل يوم «من الأعماق صرخت إليك يا رب».

وكان تولستوي قد اغتمّ أيضا بسبب مقتل فلاح في ياسنايا بوليانا كان يفك رباط ثور فهاج ونطحه فأصابه فقتله. وقد وجد تلك الحادثة مؤلمة على وجه الخصوص لأنها تكررت بعد سابقة مماثلة خلال السنة تلك. ورغم أنه كان في سمارا في الحادثة السابقة في صيف عام 1872، إلا أن قاضي التحقيق في الوفاة اتهم تولستوي بالإهمال ووضعه تحت الإقامة الجبرية

(143) أي «رواية» باللغة الروسية.

قيد إنهاء التحقيق في الحادث. اغتاظ تولستوي لأنه تعيَّن عليه الخضوع لسلطة ذلك القاضي الصعلوك الذي فرض قيودا على حريته، ولأن القوانين الجديدة التي أدخلت هذه الإجراءات لم تكن تروق له البتة. خشي تولستوي على نفسه وتذكر قضية الفلاح الذي زُجَّ به في سجن تولا، ومكث فيه لسنة ونصف بتهمة سرقة بقرة قبل أن يتضح أخيرا أنه بريء. وعلى نحو يدعو للغرابة، استُدعي تولستوي في الفترة نفسها ليخدم كأحد المحلفين في قضية أخرى، وفُرضت عليه غرامة بمجرد أن علمت السلطات أنه لم يحضر إلى المحكمة. وفي خضم تلك المعمعة، فكر تولستوي جديا في الفرار مع صونيا والأولاد إلى إنجلترا؛ فقد كان يؤمن بأن الحريات المدنية للمرء هناك تحظى بالتبجيل، حتى إنه كتب إلى ألكسندرين في الخامس عشر من سبتمبر عام 1872 وطلب منها أن تعرِّفه على إحدى «الأسر الأرستقراطية الحسنة» هناك، لتتمكن أسرته من مزاولة حياة «لطيفة» في إنجلترا. ورغم أنه اعترف بأنه يجد الحياة في أوروبا مقززة، لكنه مع ذلك أخبرها بأنه قد يحصل على 200 ألف روبل إذا ما باع جميع ممتلكاته في روسيا، واعتقد أن ذلك المبلغ سيكون كافيا لشراء منزل مع أرض على البحر. ويُذكَر أن النظام القانوني الجديد الذي أدخل إلى روسيا عام 1864، كان قد استحدث محاكم على الطراز الغربي، تتطلب وجود محامين ومحترفين قانونيين على الطراز الغربي أيضا، وبالتالي، شكل ذلك دافعا لتولستوي ليتخذ تدبيرا يتلخَّص في مباشرته لكتابة مقال ناقد رفيع المستوى بعنوان: «القوانين الجديدة وتطبيقاتها»، وفي الوقت المناسب، سيعبّر تولستوي عن ازدرائه لتلك المؤسسات الجديدة على لسان «شقيق روحه» ليفين في «آنا كارينينا».

ولحسن الحظ، فإن تولستوي لم يبق طويلا مقيد الحركة مقموع الحرية تحت الإقامة الجبرية، لأن القضية التي رُفعت ضده أُسقطت، والمقال الذي بدأ بكتابته لم يكمله. ولم تحظَ أيضا سناجيب إيسكس بجار روسي سريع الغضب كالكونت تولستوي. وبعد حادث الثور الثاني في مايو عام 1873، أمضى تولستوي ثلاثة أيام يزور فيها الفلاح المصاب، وقد تأثر كثيرا عندما توفي جراء جراحه. ولم يكن من المفاجئ أنه لم يستطع التركيز على الاستمرار في كتابة

«آنا كارينينا» في ذلك الشهر، لكنه عندما عاد إلى منزله من سهول سمارا في نهاية الصيف شعر بحماسة مفرطة لاستئناف العمل على الرواية، فقد استعاد نشاطه وتحسنت صحته جراء شرب الكوميس في مزرعته هناك، وتعافى ضميره بعد نجاحه في تسليط الضوء على المجاعة التي هددت بابتلاع المزارعين والفلاحين في سمارا. وكان أيضا في انتظار دعوته من قِبل لجنة موسكو لعلوم القراءة لتنظيم برنامج تجريبي لأساليبه التدريسية التي فصّل فيها في كتبه «ألف باء جيم». ولم يكن ثمة عائق يحول بينه وبين العودة إلى الكتابة، لذلك عمل في تلك الفترة بإنتاجية مميزة على مدار شهر تقريبا، ولم يثنه عن التركيز على هدفه حينها الجلوس أمام رسام ليرسم صورته الأولى؛ لأن ذلك قد وفر له موردا إضافيا من الأفكار والمواد الخام يبني عليها في روايته «آنا كارينينا».

فقد كان بافل تريتياكوف مصمما على رسم صورة (بورتريه) لتولستوي ليدرجها في مقتنياته الفنية منذ عام 1869، لكن محاولاته المؤقتة لتوسيع حلقة الموضوع لاقت الصد إلى حينه، لأن تولستوي تساءل بلا شك، بتبجح أرستقراطي، عن جدوى تخصيص عدد من الساعات من وقته الثمين ليضع في نهاية المطاف أحد تجار موسكو المغمورين صورته في منزله. ورغم أن تريتياكوف كان ابن تاجر ينتمي إلى نقابة التجار الثانية، وترعرع في حي زاموسكفاريتشه المشهور، وكانت بداياته متواضعة وكان محافظا على عفته لا يحب الظهور، لكنه أدار مع شقيقه شركة نسيج درت عليهما كثير من الأرباح، فأصبح بالإضافة إلى شغفه بالفن شخصية معروفة. وكانت لديه ست لوحات عام 1860، لكن مع حلول الوقت الذي رسم فيه كرامسكوي تولستوي عام 1873، كان تريتياكوف يخطط لشراء مبنى منفصل ليضع فيه مقتنياته الفنية المتنوعة. وقد افتتح ذلك المبنى للعامة عام 1881 محققا بذلك حلمه العظيم في تأسيس المعرض الوطني للفن الروسي. وفي عام 1892، السنة التي تبرع فيها بمقتنياته لمدينة موسكو (قبل ست سنوات من افتتاح المتحف الروسي في بطرسبورغ بمبادرة من ألكسندر الثالث)، احتوى معرض تريتياكوف على 3,000 عمل فني تقريبا.

وكمحب للثقافة السلافية، قرر تريتياكوف التركيز حصريا على اللوحات الروسية، لا سيما الأعمال المعاصرة التي تُعبّر عن الروح الوطنية. وقد انتعشت صناعة اللوحات في الستينيات كما انتعش الأدب والموسيقى في روسيا. وفي نهاية ذلك العقد قرر تريتياكوف أن تحتوي صالة عرضه على صور أبرز الشخصيات الجديدة في عالم الفنون الروسية. ولأول مرة في تاريخ روسيا كان ثمة كتيبة بأسرها من الكتاب المحترفين والمؤلفين الموسيقيين والرسامين الفخورين بوطنيتهم، الذين أنتجوا أعمالا أصبحت معروفة في الخارج، إذ كانت تضاهي في جودتها الأعمال الأجنبية. وبالإضافة إلى شراء لوحات لفنانين توفوا (كلوحة غوغول لعام 1841 والفنان فيودور مولر الذي توفي سنة 1852)، عكف تريتياكوف على شراء أعمال جديدة كاللوحات التي رسمها بيروف عام 1872 لكل من تورغينيف ودوستويفسكي. ولحسن الحظ كان إيفان كرامسكوي، الرسام الروسي الأشهر، يقضي العطلة الصيفية في مقاطعة تولا، وعندما علم أن البيت الصيفي الذي كان يقضي فيه العطلة لم يكن بعيدا عن ياسنايا بوليانا قرر انتظار عودة الكونت من سمارا، وفي الخامس من سبتمبر أقنع تولستوي بالجلوس أمامه في اليوم التالي ويبدأ العمل بالفعل على رسم لوحة له.

كان كرامسكوي رساما يروق تماما لتولستوي في كثير من جوانب شخصيته ويتواءم مع رغباته وأفكاره، فقد كان ينحدر من طبقة اجتماعية متواضعة، وكان ملتزما حتى النخاع بالقضايا الوطنية المعاصرة، لكن الأهم من ذلك هو أنه في عام 1863، عندما كان طالبا، قاد تمردا مشهورا باسم حرية الفن ضد القيود الكلاسيكية التي فرضتها الأكاديمية الإمبريالية. لكن ذلك لم يمنعه من أن يصبح أكاديميا عام 1869 (وقد انتُخب تولستوي أيضا حينها عضوا مراسلا للقسم الأدبي لأكاديمية العلوم)، وأمضى كرامسكوي حوالي الشهر وهو يعمل على رسم لوحتين: إحداهما لتريتياكوف نفسه وأخرى لأديب ياسنايا بوليانا. وقد حاول في الأخيرة أن يحشو أحد قمصان تولستوي بأغطية السرير ويربطه بحزام لكي يستطيع التركيز على وجه الكاتب خلال الجلسات، ويقلص الوقت الذي يجلس فيه تولستوي قبالته. وقد لاقت لوحة

تولستوي التي يجلس فيها الكاتب في وضعية مريحة ويداه مطويتان في حجره وعيناه تحدقان في الأفق أمامه (ربما لأنه كان يفكر في المسودة الأخيرة لفاتحة روايته «آنا كارينينا»)، لاقت استحسان النقاد على الفور، فقد كانت شبه صورة طبق الأصل عنه. فهذه اللوحة، التي بدا أنها عكست شخصية تولستوي المعقدة والصعبة كما عكست عظمته أيضا، وأظهرته فلاحا روسيا مثاليا وأرستقراطيا في الوقت نفسه، بدأت تثير انطباعات لدى العامة مفادها أن تولستوي شخص عملاق بدنيا. وسحرت شخصية تولستوي كرامسكوي الذي زعم لاحقا بأنه لم يرَ في حياته رجلا أجمل من تولستوي، لا سيما عندما يعتلي صهوة جواده مرتديا ثياب الصيد وينطلق في الأفق البعيد. أما تولنتوي فربما ندم على تبديد ذلك الوقت وهو جالس قبالة كرامسكوي، لكنه استفاد استفادة عظمى من تلك التجربة، فخزّن في دماغه تفاصيل كثيرة عكسها لاحقا في فصول روايته التي تناول فيها الفنان الذي رسم لوحة بطلته «آنا كارينينا».

إن تركيز تولستوي المطلق على وحدة الهدف من خلال نظراته الحادة وتعبيراته الصارمة في لوحة كرامسكوي، مكَّنَه من الكتابة لصديقه فيت في الثالث والعشرين من سبتمبر عام 1873، في الفترة ما بين الجلسات، ليخبره بأنه على وشك الانتهاء من كتابة رواية «آنا كارينينا». وفي رسالة بعثها لستراخوف في اليوم نفسه، كان تولستوي أكثر صراحة فقال إنه متفائل بشأن إتمام الرواية بحلول نهاية السنة. وقد ذكر قبل توقيعه في ختام الرسالة بأنه مهتم بجريمة قتل آنا سوفورينا التي أخبره عنها كرامسكوي، فقبل أيام قليلة من ذلك التاريخ أصيبت آنا، وهي أم لخمسة أطفال وتبلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة، أصيبت بعيار ناري في وجهها بمسدس في فندق رائق على نهج نيفسكي في مدينة بطرسبورغ، وتبين أنها قُتلت على يد عشيقها الضابط الشاب وصديق العائلة تيمافيه كوماروف، الذي انتحر بعد دقائق من قتل عشيقته مطلقا النار على نفسه. ورغم أن حالات الانتحار لم تكن بدعا في روسيا آنذاك، فإن هذه القضية لاقت أصداء في كل البلاد وغطتها جميع الصحف. وكان تولستوي مهتما بالقضية لأنه كان على معرفة بزوج الضحية، ففي عام 1861 كان تولستوي قد دفع مبلغ خمسين روبلا لزوج الضحية

ألكسي سوفورين، الذي كان كاتبا معدما وقتها، لقاء قصة كتبها ونشرها في مجلة ياسنايا بوليانا. أما الآن، ورغم أنه ينحدر من طبقة الفلاحين، فقد أصبح صحفيا ناجحا ذائع الصيت وقطبا من أقطاب عالم النشر، وأصبحت له كلمته ونفوذه في البلاد (ويذكر أن كرامسكوي رسم صورة سوفورين عام 1881 إذ أصبح في ذلك الوقت محررا لأعرق صحيفة وأشهرها في البلاد).

كان تولستوي مهتما أيضا بقضية كوماروف لأنه كان يكتب رواية يفكر فيها بطله ليفين بالانتحار، ويحاول فرونسكي، عشيق بطلته، الانتحار، أما البطلة آنا فتنتحر بالفعل. أما ما يؤكد أن موضوع الانتحار كان الشغل الشاغل لتولستوي حينها، فهو ذكره في رسالته لستراخوف قصة غوته «وورذر»، وقصة طالب المدرسة الذي ينتحر لأنه واجه صعوبات في تعلم اللغة اللاتينية. كما لم يكن اهتمامه بالانتحار اهتماما أكاديميا صرفا لأنه سيفكر قريبا في مغادرة هذه الحياة طوعا. كان تولستوي يتبع في كتاباته بطريقة أو بأخرى توجها في روسيا في فترة بلغت فيها معدلات الانتحار ما وصف بمعدلات وبائية. ربما سبَّبَ ذلك جزئيا رد الفعل الهستيري للجماهير إزاء التغطية الواسعة واليومية أحيانا لحالات الانتحار في الصحافة الروسية خلال بداية عقد السبعينيات، التي رفع الغطاء عنها منذ عقد الستينيات وانسحب أيضا على تغطية المحاكمات الجديدة العلنية.

استأنف تولستوي العمل على «آنا كارينينا» في أكتوبر من عام 1873، لكن أمورا أخرى عطلته أيضا، وحالما حزم كرامسكوي مسند رسمه وعاد إلى بطرسبورغ، استضاف تولستوي مجموعة من المعلمين في مدرسة القرية ودعاهم إلى مناقشة أساليبه التدريسية، ومكثوا في ياسنايا بوليانا لأسبوع. بعدها في التاسع من نوفمبر ابتلي آل تولستوي بفقدان ابنهم الأصغر بيوتر (بيتيا) ذي الثمانية عشر شهرا بموت مفاجئ، وقد كان معافى سليما من ذي قبل، وبعدها بفترة قصيرة انتهى حمل شقيقة صونيا تانيا كوزمينسكايا بإملاص (ولادة جنين ميت)، ونكبت العائلة لا سيما صونيا (التي ستفقد أيضا خلال بضعة شهور شقيقها فلاديمير ذا التسعة عشر ربيعا الذي توفي بعد انضمامه إلى الهوسار بفترة قصيرة). وفي يوم بارد سماؤه صافية دُفن بيتيا

بالقرب من جده وجدته. وفي اليوم نفسه بدأ تولستوي يفكر ولأول مرة في المكان الذي سيوارى فيه الثرى، رغم أنه في تلك الفترة كان لا يزال متفائلا إلى حد كبير، إذ تُظهر رسائله كيف أنه أصبح أفضل تأقلما مع الألم وفقدان الأحبة لا سيما بعد فقدان شقيقه نيكولاي. وقدّر أنّ موت أي من الأولاد الكبار الخمسة في أسرته كان سيكون أصعب من موت بيتيا، لأن موت الأخير كان بمثابة فقدانه للخنصر (أصبعه الصغير)، وكان أيضا صريحا في القول إن هذا الولد الصغير لم يكن بعد قد أثار فيه عواطف البهجة والسرور.

لكن صونيا التي كانت حاملا في شهرها الرابع، كانت مشاعرها مختلفة تماما، فبيتيا كان الطفل الأكثر التصاقا وتعلقا بها، وقد كان مصدرا يشع منه الخير والروح المبهجة، كما كَتبت لشقيقتها. وكانت بعد وفاته ترتقب ذلك الطفل الصغير الممتلئ اللحيم الظريف لينادي عليها. وبسبب الحزن البالغ الذي اعتصر قلبها، كانت صونيا تخشى أيضا على الطفل الآخر الذي بدأ يتحرك في أحشائها لأول مرة في الفترة التي كان فيها بيتيا يحتضر. أما آخر ذكرى له في مخيلتها فكانت مشهد أشعة الشمس التي اخترقت نافذة الكنيسة وانعكست على جسده الصغير في الكفن الصغير، مما جعل شعره الذهبي يلتمع من الضياء. أتى عيد الميلاد المجيد في تلك السنة باهتا على آل تولستوي، فبينما كان الأولاد الآخرون يتزلجون في الخارج، جلست صونيا في الداخل وهي تقوم بأعمال المنزل والنسخ، وكانت تتطلع لركوب الترويكا في المساء كما كان مخططا له لتسلية أفئدتهم، لكن حالات الموت التي حصلت في تلك السنة أفقدتها على نحو كامل تقريبا القدرة على إيجاد السعادة أو الطمأنينة، كما أخبرت شقيقتها تانيا.

أما تولستوي فقد كان يعمل على روايته على نحو متقطع لتسعة شهور، وفي نهاية عام 1873 أسرّ إلى نيكولاي ستراخوف بالقول إن عمله على رواية «آنا كارينينا» لغاية الآن ماضٍ على أكمل وجه. وحسب أن لديه سبع صحائف كبيرة جاهزة للنسخ، وقرر أن يباشر في طباعتها لتشكل الجزء الأول من روايته على شكل كتاب من دون نشرها المسبق في مجلة، وبالتالي ذهب تولستوي في يناير عام 1874 إلى موسكو ليبرم اتفاقية لنشر «آنا كارينينا» مع دار ميخائيل

كاتكوف للنشر. ووصل إلى مطبعة كاتكوف التي كانت قد طبعت في أول جولة من عملية الطبع ما يقارب 3,600 نسخة من أعماله السابقة الكاملة، يمثل كل منها ثمانية مجلدات (وقد بيعت 1000 نسخة منها في السنة الأولى بسعر بلغ 12 روبلا)، واعتبر ذلك النسخة الثالثة لكتابات تولستوي، لأنه كان يحسب ظهور أعماله في المجلات والصحف كنسخة أولى. أما النسخة الثانية المؤلفة من مجلدين التي نشرت عام 1864 فقد عُززت الآن وتضخمت بسبب إضافة «الحرب والسلام» لكن بشكل جديد؛ أربعة أجزاء عوضا عن ستة، مع ترجمة جميع النصوص الفرنسية إلى الروسية ووضع اجترار المؤلف للتاريخ وتفاصيله في خاتمة جديدة. إن استعراض ومراجعة «الحرب والسلام»، أملتها عليه جزئيا التغيرات الحاسمة التي طرأت على تفكيره بسبب عمله على كتب التدريس «ألف باء جيم». وأفكاره الجديدة بشأن تغيير أسلوب كتابته سوف ينعكس أيضا ويؤثر في عمله «آنا كارينينا». كان تولستوي لا يزال منشغلا بعمله التربوي، فقد مثُل أمام لجنة موسكو التربوية خلال زيارته القصيرة في يناير عام 1874، الأمر الذي أفضى إلى قبول مقترحه بتجريب طرقه التدريسية بموازاة طرق التدريس الرسمية المعتمدة في البلاد.

وبينما أجريت تلك التجربة على طرق تدريسه على مدار ستة أسابيع في موسكو، دأب تولستوي في الأثناء على الاجتهاد في إتمام الجزء الأول من «آنا كارينينا»، وكان لا يزال يفكر في حسم موضوع بداية الرواية، ففي تلك المرحلة قام بشطب عنوان الرواية «آنا كارينينا» وأتى بعنوان جديد «زواجان» وأدرج أيضا عناوين لكل فصل «شجار عائلي»، «لقاء في محطة قطار»، «الحفلة الراقصة»، وقام أيضا بإلغاء الكلمات الروسية الحديثة في العنوان السابق (الثأر ثأري)، ووضع مكانها ما يقابلها في الإنجيل من لغة الكنيسة السلافية، وأضاف لقب أوبلونسكي لستيبان أركاديتش. وقبل أن يأخذ المخطوط إلى المطبعة خلال زيارته التالية لموسكو في أول مارس، غيّر رأيه مجددا وأعاد عنوان الرواية الأصلي «آنا كارينينا»، واستقر على اسم ليفين (الذي كان تولستوي وأصدقاؤه يلفظونه «ليوفين» كما هو التلفظ باسم تولستوي الأول ليوف «ليف» وفقا للممارسة الروسية) كاسم نهائي جديد مكان أوردينتسيف. أما صونيا فكانت تدعو

زوجها دائما بـ«ليوفاشكا». وقدَّرَ تولستوي أن مخطوط الجزء الأول الذي سلمه لينُسَخ ويجهز للطبع في مارس شكل سُدس عدد كلمات الرواية الإجمالي، وكان لا يزال واثقا بأن «آنا كارنينا» سوف تكتمل قريبا. ولكنه لم يستطع أن ينهي الرواية في عام 1874 ولا في عام 1875 ولا حتى عام 1876، فقد كتب الجملة الختامية فيها عام 1877.

بدأت صونيا بعمل مبيضة للجزء الثاني بينما كان تولستوي في موسكو في يناير، ولكنها توقفت في أبريل/ نيسان لتنجب نيكولاي، الولد السابع، الذي لم يكن أمام والده خيار سوى تسميته «بيتيا». لم يكن فرحهم فرحا خالصا، لأنه ومنذ بضعة أسابيع ولدت ماريا ميخائيلوفنا، زوجة سيرغيه، جنينا ميتا أيضا. أما تولستوي فقد توقف أيضا عن الاستمرار في كتابة «آنا كارنينا» في هذه المرحلة، فقد شارف وضع طرقه التدريسية تحت الاختبار لمقارنتها مع طرق التدريس الرسمية المعتمدة من قِبل الحكومة على الانتهاء، ولم تكن نتائج تلك المقارنة حاسمة. لكن تولستوي لم يستكن ولم يردعه ذلك، بل أصبح أكثر تصميما على الكفاح ليُعترف بأفكاره التربوية، ولم يستطع أن يبقي الأمور على حالها لأن موضوع التعليم كان بالنسبة له أهم بكثير من تأليف الروايات. وبالتالي، أرسل أولا رسالة إلى وزير التعليم حاجج فيها بالقول إن نظام التعليم الألماني «المتنطع» الذي أقرته الحكومة، لن يساعد قضية التعليم العام؛ لأنه قائم على «مبادئ زائفة ومعقدة ولا طائل منها»، وهو في الحقيقة «غريب تماما وحتى معارض لروح اللغة الروسية والشعب الروسي». لكن عرض تولستوي بوضع برنامج شامل للتعليم والتعلم وربطه بمفهوم التعليم العام لم يلق آذانا صاغية لدى المسؤولين، عندها تحول تولستوي إلى المسرح الشعبي، فرمى بكل ثقله لكتابة مقالات طويلة بشأن التعليم العام باعتبارها عقيدته الخاصة. وهكذا، أُزيحت «آنا كارنينا» جانبا.

وكلما انغمس تولستوي في حملته التعليمية، خفت نجم حماسته لكتابة الرواية أكثر فأكثر. بالفعل، ففي العاشر من مايو عام 1874 أخبر ستراخوف بأنه لم يعد بصراحة يطيق تلك الرواية، وخلال ذلك الشهر قرر أن يوقف عملية الطباعة. كما أن هناك سببا آخر أيضا لعزوف

تولستوي عن استئناف الرواية، وهو وفاة التيوشكا (العمة) تاتيانا ألكسندروفنا -توانيت؛ أمه البديلة، في العشرين من يونيو من العام نفسه عن عمر ناهز الثانية والثمانين. وقد اعترف تولستوي بصراحة في رسالة بعث بها إلى ألكسندرين بأنه خلال السنوات القليلة الماضية، وبعد أن ذبلت حياتها، لم تعد توانيت تشكل جزءا من حياة الأسرة، لا سيما بعد أن انتقلت بطلب منها إلى الطابق السفلي، وبالتالي لم تُخلّف العمة ذكريات سيئة، لكن مع ذلك خلَّفَ موتها وقعا رهيبا على تولستوي، ففي أواخر حياتها كانت تخلط بين تولستوي ووالده الذي كانت تعبد التراب الذي يمشي عليه، وكانت تدعوه بنيكولاس. وكان تولستوي يهبط إلى غرفتها في آخر المساء فيجدها وناتاليا بيتروفنا جالستين في رداء النوم تعتمران القلنسوات وتضعان شالاتهما على مناكبهما فيساعدهما على توزيع الورق للعب لعبة الـ patience، حيث تجلس العمة إلى الطاولة الصغيرة أمام سريرها. كتب إلى ألكسندرين يقول: «عشت معها طيلة حياتي، وأشعر بالعذاب من دونها». كانت الراحلة تحظى بحب واحترام الجميع. ووصف تولستوي لألكسندرين كيف أن الفلاحين من كل بيت في القرية كانوا يوقفون موكب الجنازة لكي يقدموا المال للقسيس لكي يتلو الصلوات والأدعية نيابة عنهم على روح الفقيدة.

لم يكن الوقت في فصل الصيف الذي يجلس فيه تولستوي إلى مكتبه كثيرا، لا سيما أن ياسنايا بوليانا كانت تحفل بالأقرباء والأصدقاء. حاول ستراخوف أن يذكي مجددا اهتمامه بـ«آنا كارينينا» في يوليو/ تموز من عام 1874 عندما أتى للمكوث في منزله، لكن تولستوي كان قد فقد الزخم في ذلك الوقت وكان يشير إلى روايته بـ«الحقيرة» و«المقرفة»، أما الشيء الإيجابي الوحيد الذي تمخض عن حصوله على دلائل تفيد بأن الفصول الثلاثين التي كتبها قد نُسخت وطُبعت، فقد كان قراره بإعادة كتابة البداية برمتها. وفي أغسطس اصطحب تولستوي ابنه سيرغيه في رحلة قصيرة إلى عزبته في سمارا، وجد خلالها متسعا من الوقت للتأمل، وكان أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت تولستوي للعودة إلى كتابة «آنا كارينينا» حاجته للمال، فقد استثمر كثيرا في عزبته وتكبد خسارة في ذلك الصيف بواقع 20 ألف روبل، رغم أنه بعد ثلاث

سنوات من الجفاف جاء حصاد مميز في منطقة سمارا في السنة الرابعة سنة 1874، لكن ذلك لم يشمل الأرض التي زرعها تولستوي الذي لاحظ ذلك بطريقة ساخرة، وقد غادر مدرس اللغة الألمانية وبدأ الأولاد يكبرون، وكان تولستوي يبحث عن مدرسين لهم. وقد عنى ذلك دفع راتب يتراوح بين 300 و600 روبل سنويا لمربية تانيا وماشا، وبين 500 و1000 روبل لمدرس سيرغيه وإيليا وليف. وفي الأثناء، احتاج على نحو ملحٍّ لعشرة آلاف روبل دفعةً أولى كعربون على أراضٍ إضافية كان ينوي شراءها بالقرب من عزبته في نيكولسكوي، ورفض صديقه أفاناسي فيت توفير قرض له، فأراد أن يلجأ إلى قطع مساحة من الأشجار في غابته وبيعها حطبا (وهذا ما فعله أبلونسكي في رواية آنا كارينينا)، لكنه فكر في أن الريع الأضمن سيكون بلا شك من أعماله الروائية، ولم يكن ثمة مال يتأتى من التعليم لأنه كان يموّل شخصيا مدرسته (بالإضافة إلى أن «ألف باء جيم» لم يكن قد نشر بعد)، مما عنى أنه يتعيَّن عليه أن يعود إلى روايته. فغيَّر الآن رأيه فأراد طبع «آنا كارينينا» ونشرها على مراحل في المجلات الشهرية.

لم يكن لتولستوي أن يطلب أكثر من 150 روبلا لقاء كل صفحة مطبوعة في مقاله عن التعليم العام، لكن «آنا كارينينا» كانت تحظى بشهية كثير من المجلات، وهكذا قدّر تولستوي بأنها ستدر عليه مالا وفيرا، فقد حصل على 300 روبل لقاء كل صفحة مطبوعة من «الحرب والسلام»، لكنه قرر أن يطلب 500 روبل عن كل صفحة في روايته الجديدة ويحصل على مبلغ 10 آلاف روبل دفعة أولى (المال الذي كان يحتاجه حينها بالضبط)، ولم يكن ثمة روائي في روسيا يأمل في أن يضمن الحصول على مبلغ إجمالي بواقع 20 ألف روبل لقاء روايته بخلاف تولستوي طبعا. وبعد مفاوضات مطولة قرر تولستوي أخيرا في شهر نوفمبر أن ينشر روايته في مجلة كاتكوف «البشير الروسي»، وقد سبب ذلك سخط محرري مجلة «مذكرات من أرض الوطن» في سانت بطرسبورغ، ذلك أنهم اتفقوا معه على نشر مقاله الجريء بشأن التعليم العام على افتراض أنهم سيحصلون على حق رفض أو قبول رواية تولستوي التالية بعد عرضها عليهم، لكن تولستوي لم يفعل، مما جعلهم في موقف حرج؛ إذ تعين عليهم أن يقبلوا بمقاله

السابق ومذهب الكونت الخاص جدا الذي يمزج بين التقاليد المحافظة والأفكار العدمية، في مجلة تشتهر بشعبويتها وتوجهاتها اليسارية الصريحة.

إذن، كل ما على تولستوي فعله الآن هو إتمام رواية «آنا كارينينا». وكان قول ذلك أسهل بمراحل من فعله، فالنظرية شيء والتطبيق شيء آخر تماما. وكان قد كتب على نحو مكثف وأعاد كتابة الفصول الافتتاحية، وذلك لكي يماطل بعض الشيء في البداية، لكن متن الرواية لم يكن قد كتبه بعد، وهو القسم الذي لم يعد يريده أن يتناول قصة خيانة زوجية في الطبقة الراقية فحسب، لكن المشكلة أن قلبه كان لا يزال متعلقا بعلوم التعليم والتعلم طيلة عام 1874 ومعظم عام 1875، فقد كان مسؤولا عن 70 مدرسة في الناحية، وكان يعمل على الدلائل الخاصة بكتاب «ألف باء جيم» ويطور مقترحات لتدريب المدرسين. وبالتالي، بدت له الأعمال الروائية تافهة بالمقارنة مع هذا الأمر، لا سيما الرواية التي تتحدث عن قصة حقيرة لعلاقة حب قائمة على الخيانة. ولأنه وجد أنه من المحال استدامة اهتمامه بكتابة رواية عن الخيانة على النموذج الفرنسي، لجأ إلى مخرج من هذه الورطة تمثل في توسيع نطاق الرواية ليشمل شخصية تشبهه، يستطيع من خلالها استكشاف مواضيع متعددة تحظى باهتمامه ككاتب وفيلسوف، فيتبع تقنيات يسبر فيها أغوار تلك الموضوعات. لكن مع ذلك كانت كتابة «آنا كارينينا» لا تزال تشكل عملا مرهقا للغاية.

كتب تولستوي في ديسمبر عام 1874 ليخبر ألكسندرين بأنه أصبح مجددا مبهورا بآلاف الأطفال الصغار الذين انهمك في تربيتهم وتعليمهم، كما كان منذ خمس عشرة سنة عندما أسس المدرسة لأول مرة. قال لها: «عندما أذهب إلى المدرسة وأرى جموع الأطفال النحيلين المتسخين ذوي الملابس البالية وعيونهم الذكية وتعابيرهم الملائكية في معظمها، أشعر بأنني شخص يحاول أن ينقذ الناس من الغرق. أريد أن أنقذ جميع الصغار البوشكينويين[144]

(144) نسبة إلى بوشكين.

واللومونوسفيين[145]، وإلا فإنهم سيموتون»، كما اعترف للناشر كاتكوف بأن كل صفحة من صفحات «ألف باء جيم» كلفته جهدا لا يقارن بأعماله الروائية، وأنه يعتبر كل صفحة فيه أهم بكثير من جميع أعماله الروائية التي بسببها كيل له «المديح الذي لا يستحقه».

لكن صونيا كانت تشعر بالعكس تماما: فقد كانت تتساءل عن مدى الفائدة التي يجنيها زوجها من الاستثمار في التعليم بكل طاقته في رقعة نائية صغيرة من روسيا؛ أي ناحية مقاطعة تولا حيث كان يعيش. وعندما كتبت لشقيقتها، لم تُخفِ حقيقة أنها كارهة حتى النخاع لكل أعمال زوجها المتعلقة بالنّحو والحساب وغيرها، وقالت إنها تتوق ليعود زوجها لكتابة الروايات لأنه نشاط كانت تحترمه وتحبه:

«أُدرّس وأُرضع كالماكينة من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح. وكنت أنسخ كتاب «ألف باء جيم»، لكن عندما اكتشفت أنه سينتهي قريبا شعرت بسأم لا يطاق من جميع تلك الكلمات القصيرة والجمل كـ«ماشا أكلت الكاشا». وهكذا استسلمت وتوقفت عن النسخ، فلينسخها كاتب ما بأجر، كنت أنسخ العمل الخالد «الحرب والسلام» أو «آنا» لكن هذا؛ نسخ «ألف باء جيم» عمل مضجر للغاية».

بدأت علاقة صونيا وليوفاشكا تتدهور، فقد سئمت صونيا من رتابة وصعوبة حياتها اليومية، ما أدى إلى وقوعها في براثن المرض على نحو متكرر، أما زوجها فقد بدأ اليأس الوجودي يهاجم حياته بعنف أيضا.

بدأ المشتركون في مجلة «الرسول الروسي» يقرؤون أخيرا «آنا كارينينا» في بداية عام 1875، عندما نشرت الفصول الأولى من الرواية في عدد يناير من ضمن مواد متنوعة كمقال عن إصلاح الجامعات الروسية، وحلقة من رواية الإثارة والتحريات لويلكي كولينز «القانون والسيدة» (التي كانت قد نُشرت في إنجلترا في وقت متزامن)، ومذكرات عن الدفاع عن سيباستوبل لـ«ضابط البحر الأسود»، وموضوع عن الصين ومقال عن التعليم... إلخ. ومن غير المرجح

(145) نسبة إلى لومونوس. ف.

طبعا أن يستوقف القراء بحث جاف عن تدريس المنطق في المدارس الثانوية، طالما ثمة رواية جديدة للكونت تولستوي في العدد نفسه من المجلة. وبالفعل، فقد أحدثت الفصول الأولى من الرواية ضجة رهيبة، فكتب ستراخوف إلى تولستوي يخبره بأنه لاحظ بأن شخصيات من أرفع المقامات في بطرسبورغ يقفزون فرحا وابتهاجا ولهفة لقراءة المزيد. انتهت الحلقة الأولى من هذه الفصول المنشورة بخروج «آنا» من الحفلة الراقصة على نحو مبكر بعد أن رقصت المازوركا مع فرونسكي مما حطم أحلام كيتي، وتلهَّف القراء الروس لقراءة المزيد. أما صونيا، الناسخة المخلصة، فكان لديها الحق بأن تشعر بأنها عوملت بغبن عندما قام بعض الناس بالعمل على تشويه سمعتها بعد وفاة تولستوي؛ لأنها أسهمت بإضافة تفاصيل عديدة على المشهد الحاسم في الحفلة الراقصة، إذ قامت أيضا بدور مستشارة موضة وأزياء لدى زوجها فقدمت له نصائح بشأن زينة آنا:

«لم ترتدِ فستانا بلون الليلك، كما كانت كيتي مصممة على ارتدائه، بل ارتدت فستانا قصيرا مخمليا أسود يُظهر كتفيها المكتنزتين ونهديها الشبيهين بالعاج المنحوت وذراعيها المستديرين ويديها الرقيقتين النحيلتين، وشُذب الفستان بشرائط من الدانتيل الفينيسي. ووضع على رأسها، في شعرها الحالك السواد الخالي من أي زوائد وإطالات، إكليل صغير من زهور الثالوث، وآخر غُرس على الطوق الوشاحي الأسود الذي يلفُّ وسطها في خضمِّ قطع من الدانتيل الأبيض».

أراد تولستوي أن ترتدي «آنا» فستانا أسود اللون، لكن صونيا هي التي اقترحت نوع القماش ليكون مخمليا، وعززت من الانطباع الحسي العام من خلال وضع طوق من الدانتيل الأبيض حول وسط البطلة.

وفي الجولة الثانية من نشر فصول «آنا كارينينا» التي ظهرت في «الرسول الروسي» في فبراير، تعاطف القراء مع كيتي وليفين المكروبين، وكلاهما الآن مرفوض من حبيبه، وشعر القراء بالتشويق إزاء مغامرة «آنا» الرومانسية الليلية مع فرونسكي في محطة قطار بعيدة في خضم

عاصفة ثلجية، لكنهم امتعضوا بعض الشيء وشعروا بحيرة بسبب الطريقة التي أنهى فيها تولستوي هذه الحلقة من الرواية؛ ففي منتصف الفصل العاشر من الجزء الثاني أدرج تولستوي سطرين منقطين يدلان على حشمة الكاتب، إذ مثّلا اللحظة التي أصبحت فيه علاقة آنا بفرونسكي علاقة حميمة، لكنه أتبع ذلك بفقرة تجلى فيها ارتباط الفعل الجنسي بجريمة القتل:

«عندما نظرت إليه شعرت بالمهانة الجسدية ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، بينما كان يشعر هو بما يجب أن يشعر به القاتل عندما ينظر إلى الجسد الذي سرق منه الحياة، فالجسد الذي سرق منه الحياة هو الحب الذي جمعهما، أو الفترة الأولى منه. وكان ثمة شيء مروع ومقزز لما ستجلبه لاحقا هذه الذكريات المرتبطة بالتكلفة الفظيعة للعار الناتج عن ذلك الفعل. فقد قمعها عار عرائها الروحي وتكشّف بجلاء أمامه، لكن ورغم شعور القاتل بالرعب الفظيع وهو يقف أمام جثة ضحيته، فإنه تعيَّن عليه تقطيع أوصال الجثة وإخفاؤها، فالقاتل يجب أن يستغل ما اكتسبه من جريمة القتل هذه».

اختبر تولستوي أولى جولات المواجهة الصاخبة مع الناشر بسبب هذا الفصل، فقد اعترض كاتكوف على «الواقعية الفاضحة التي تفقأ العين بصراحتها»، وطلب منه أن يخفف من حدة ما كتب، لكن تولستوي رفض تغيير كلمة واحدة محاجا بالقول إن هذا يمثل جزءا من أجزاء أخرى تقوم عليها «الرواية بأكملها».

ولم يكن شهر فبراير من عام 1875 شهرا جيدا على العموم لتولستوي، فهو لم يكترث البتة بالثناء والإطراء والمديح الذي انهال عليه بسبب نجاح روايته، فقد كان مكروبا لأن فردا آخر من أفراد أسرته وافته المنية في تلك الفترة، فقد توفي في هذه المرة ابنه نيكولاي ذو العشرة أشهر، بعد ثلاثة أسابيع من مرض فظيع عصف به وقضى عليه. وعانت صونيا معاناة شديدة بسبب موت صغيرها وهي التي كانت لا تزال ترضعه. وعلى عكس اليوم المشمس الذي دُفن فيه بيتيا، كان يوم دفن نيكولاي أبرد يوم في ذلك الشتاء، فقد انخفضت درجات الحرارة إلى ما دون 20 درجة مئوية تحت الصفر، وهبت رياح عاتية جليدية أطاحت بقماش الموسلين القطني الذي

لُفَّ به والتاج الذي وُضع على رأسه (وهذه طقوس تقليدية جنائزية أرثوذكسية). حينها قالت صونيا لتانيا بأنها شعرت وكأنها تحولت إلى حجر، بيد أنها بعد ثلاثة أشهر من الجنازة حملت مجددا بطفل آخر.

نُشرت أجزاء أخرى من رواية «آنا كارينينا» في مارس، وأبريل عام 1875، لكن القراء الروس انتظروا ثمانية أشهر أخرى قبل نشر الفصول التالية. أما سبب التأجيل فكان بسيطا؛ إذ لم يتمكن تولستوي من إنهاء الرواية بعد، وقد كان ذلك الانقطاع عن نشر رواية على نحو متسلسل بهذا الشكل أمرا غير مسبوق، ولو كان الروائي كاتبا غير تولستوي لما تسامح معه أحد بهذه الطريقة. ولم يستطع تولستوي الانسحاب من الاتفاق الذي أبرمه مع كاتكوف، لكنه وجد عامل التحفيز لاستئناف الكتابة قد خفت بريقه، لأنه كان لا يزال منهمكا بأفكاره التعليمية ومنشغلا بنشر الكتاب الجديد من «ألف باء جيم»؛ الذي لاقى استحسانا فوريا بمجرد نشره في يونيو عام 1875، كما أصبح تولستوي في تلك الفترة مكتئبا ويحتاج إلى شيء يصرفه عن الكتابة ويُسلّي قلبه.

عادت الأسرة بأكملها في ذلك الصيف إلى سمارا بصحبة شقيق صونيا «العم ستوبيا»، ومربية الأولاد الإنجليزية إميلي تابور، ويولز ريس؛ وهو مدرس سويسري يرتدي نظارات، لكنه رياضي كان قد وصل إلى ياسنايا بوليانا في يناير من ذلك العام، وكان شابا أنيقا يعتني بجماله ويبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما، ولديه مشكلة سرية مع شرب الكحول، ولم يبدد أي وقت للتوجه مباشرة إلى إيميلي محاولا التقرب منها. في بداية أغسطس، نظَّمَ تولستوي سباق خيول بشكيري تقليدي (خمسة جولات لقطع ثلاثة أميال في مضمار مستدير خطَّطَه في أرضه) وقدم جوائز للفائزين، ورفعت الخيام حول المضمار في الأيام التي سبقت الانطلاقة وبدأ البشكير يتوافدون بخيولهم. وقدَّمَ تولستوي مهرة عرجاء وبعض الخراف لطهيها وتقديمها خلال مأدبة طعام للجميع قبل السباق، وكانت تجربة رائعة لأولاد تولستوي الذين لم يختبروا في حياتهم سماع الأغاني والأهازيج بأصوات رخيمة، أو مشاهدة الرقص التقليدي

المصاحب للأغاني التي يقدمها الكورال، بالإضافة إلى آلة العود البشكيرية الطويلة. اشترك في السباق 32 فارسا جذبوا مئات المتفرجين، كان بعضهم من الروس المحليين بمن فيهم تولستوي الذي ركب حصانا اشتراه خصيصا لهذه المناسبة، أما البقية فكانوا من فرسان البشكير والقيرغيز. وقد فاز بالجائزة الكبرى أحد فرسانهم (بندقية صيد)، وكان ذلك السباق بعيدا تماما عن سباق الخيل الذي حضره علية القوم من البلاط الملكي في رواية «آنا كارينينا». وكان تولستوي حينئذ يفكر أيضا في وضع خطة للبدء في تربية الخيول، وقد أحضر إلى منزله بالفعل بعض الخيل القيرغيزية المشهورة بالجَلَد والسرعة، وحمارين أسماهما بيسمارك وماكماهون على أسماء الخصمين في الحرب الفرنسية - البروسية.

أخذ تولستوي قسطا من الراحة وحمام شمس بعد عودته إلى ياسنايا بوليانا في نهاية أغسطس، معلنا أن تجربة شهادته شخصيا للصدام بين أسلوب حياة الروس الكسول الساكن المستقر، وأسلوب حياة البشكير النشط المتحرك المتنقل الديناميكي كالبدو الرحل، بالإضافة إلى تحمل غزوات الذباب والقذارة في السهول، كانت تجربة أسمى بمراحل من الاستماع لخطابات البرلمانيين في مجلس العموم البريطاني، التي اعتبرها امتيازا إشكاليا. لم يكن تولستوي حينها قد أمسك بالقلم لشهرين كاملين، فأرغم نفسه على العودة إلى «آنا كارينينا» «المملّة» في خريف عام 1875، لكنه وصونيا سرعان ما شعرا بتعكر مزاجهما مجددا. كتبت صونيا في مذكراتها في الثاني عشر من أكتوبر بأن حياتهم الريفية المعزولة بامتياز أصبحت لا تطاق الآن، وأن رتابة الروتين على مدى شهور وسنوات قد أدت إلى لامبالاة طاغية وعدم اكتراث بكل شيء، وبالتالي لم تقو الآن على مقاومة أي شيء. أما كآبة زوجها فأصبحت مُعدية: «يجلس ببؤس وكآبة وسوداوية ويأس لأيام وأسابيع دون أن يفعل شيئا، من دون عمل ولا طاقة ولا فرح، ويبدو أنه متصالح مع نفسه ومع هذه الحالة الجديدة. إن الأمر يشبه الموت المعنوي، ولكنني لا أريد أن أرى ذلك فيه ولا يستطيع بنفسه أن يستمر بالعيش على هذا النحو».

في نهاية أكتوبر أصيبت صونيا بالتهاب الأحشاء الخطير، وأنجبت بعدها مولودا في ولادة مبكرة قبل ثلاثة أشهر من ميعادها، كانت تلك فارفارا التي توفيت بعد بضع ساعات من ولادتها. وصف تولستوي الوضع في ياسنايا بوليانا حينها في رسالة بعث بها إلى صديقه فيت: «خوف ورعب وموت وأولاد يثبون ويأكلون، وفوضى وأطباء وزيف وموت ورعب». ومما زاد الطين بلة أن المنزل كان طافحا بالناس في تلك الفترة، فبعد وفاة العمة توانيت في الصيف المنصرم انتقلت العمة الأخرى بولينا، ذات الثامنة والسبعين، من الدير في تولا إلى ياسنايا بوليانا، وبدأت إدارة المنزل أثناء مرض صونيا، بالإضافة إلى وجود كثير من الضيوف الآخرين: شقيق صونيا ساشا وزوجته وعمه كوستيا آيسلافن وبيوتر سامارين وزوجته وصديق آخر للأسرة. وفي اليوم الحاسم من مرض صونيا وصلت شقيقة يولز ريس من جنيف لتصبح المربية الجديدة للأولاد.

وجد تولستوي بعض العزاء والسلوى في كتابة رسائل مطولة لصديقه ستراخوف تحدث فيها عن الفلسفة، لكنه انتهى به المطاف إلى مواجهة مغزى الحياة والحقيقة التي لا مفر منها؛ ذلك أنه كان يعتقد بأن حياته كانت مجرد «مزحة خاوية وغبية»، فقد بلغ من العمر السابعة والأربعين، وشعر أنه يلج إلى الشيخوخة، الوقت الذي لم يجد فيه أي شيء في «العالم الخارجي» يثير فضوله، وكل ما كان يراه أمامه هو الموت. وبدأ الآن بالتقهقر في منحنى طويل عودا إلى حيث بدأ، كما وصف ذلك، وأصبح على دراية بأن كل رغبة لديه؛ كتربية نوع معين من الخيل أو اصطياد عشرة أرانب في حقل ما أو تعلم اللغة العربية، لم تأت له بالرضا الحقيقي مطلقا، وكان أمله الوحيد أنه لا يزال غير قادر على فهم مغزى الحياة أو ربما فهم مغزاها على نحو خاطئ. في الأثناء، ولكي يكون في مأمن على حياته، كان يذهب إلى الصيد من دون بندقية كي لا يستخدمها ويصوِّبها على رأسه فينتحر، وقد تبجح وقال لأخيه سيرغيه بأنه استطاع أن يصطاد ستة أرانب بمساعدة كلابه من دون أن يطلق طلقة واحدة.

أما صونيا فلم يكن لديها متسع من الوقت لكي تتأمل في مغزى الحياة أصلا، فقد كانت عادة منشغلة جدا بالأعمال المنزلية الرتيبة. والآن وليس لأول مرة، كانت قريبة من الموت بسبب مرضها. أما فترة نقاهتها فقد اكتنفتها على الفور منغصات جديدة، فشقيقة يولز ريس لم تكن مربية ناجحة، وكان أن طفت على السطح مشاكل معها، مما جعل صونيا لا تطيق ذكرها. بعدها في ديسمبر عام 1875، أطل الموت برأسه من جديد فعصف المرض بتيوتيشكا (العمة) بولينا وأدى إلى وفاتها بعد معاناة شديدة. أما من كان يهتم بالعمة وهي طريحة الفراش في آخر حياتها فلم يكن سوى صونيا، فقد كانت تغيّر البياضات المتسخة وتتحمل صراخ العمة وشتائمها بسبب الألم الذي كانت تسببه أقل حركة. كانت بولينا، التي كانت تتحدث بالفرنسية إلى أولاد أخيها حتى مماتها، مرعوبة من مجرد ذكر الموت، وقد وافتها المنية أخيرا بعد عذاب شديد في الثاني والعشرين من ديسمبر، ودفنت بعدها بيومين، مما جعل عيد الميلاد في تلك السنة عيدا باهتا مجددا.

وغرق تولستوي في حزن شديد لأن آخر رابط حي يربطه بأهله قد انقطع من دون رجعة، كما كتب لألكسندرين في مارس أن موت هذه السيدة العجوز قد أثر عليه على نحو عميق جدا أكثر من فقدان أي شخص آخر. ورغم أنه سئم من «آنا كارينينا» كما يسأم المرء من تناول «الفجل المرّ»، كان يتعين عليه استئناف العمل. طُبع ثلث آخر من الرواية في الأعداد الأربعة الأولى من مجلة «الرسول الروسي» عام 1876، وقد حوى عدد أبريل قسما كبيرا من الجزء الخامس اختتمه بفصل عن الأيام الأخيرة في حياة شقيق ليفين، نيكولاي. وكما الحال في جميع فصول الرواية، اعتمد تولستوي على تجارب عاشها شخصيا، فقد استدعى جوانب من شخصية شقيقه الراحل غريب الأطوار ديمتري وأسقطها على شخصية نيكولاي، كما أعاد إحياء ذاكرة الأيام الأخيرة من حياة شقيقه الذي كان يحبه حبا جما وهو الذي يحمل الاسم نفسه وتوفي بين يديه. بدا الموت وكأنه في كل مكان، أخبر تولستوي شقيقه الذي كان لا يزال على قيد الحياة، سيرغيه، في فبراير أن شأنه شأن شخصية ليفين؛ أصبح يجد الفرار من التفكر في

الموت وفكرة عبثية الحياة أمرا مستحيلا. كان سيرغيه يشعر بأخيه لأنه هو نفسه كان مكتئبا، كما كانت أيضا شقيقتهما ماريا التي كتبت لتولستوي من هايدلبرغ في مارس من عام 1876 لتخبره بأنها أيضا لا تلبث تفكر في الانتحار:

«أنا في حالة مزاجية رهيبة.. فالوحدة أثقلت كاهلي والقلق المزمن لا يفارقني ولا يبرح يهدّدني كسيف ديموقليس، أعايش القلق ليلا ونهارا وأشعر أحيانا بالرهبة الشديدة، حتى إن أفكار الانتحار بدأت تطاردني. أعني أنها بالفعل تقض مضجعي بلا هوادة لدرجة أنها غدت نوعا من أنواع المرض أو الجنون».

كان قلق ماريا الدائم يتمحور حول إلينا، ابنتها غير الشرعية التي أنجبتها في سبتمبر من عام 1863، بعد أشهر من ولادة طفل تولستوي البكر سيرغيه. وفي عام 1876 بلغت إلينا الثالثة عشرة. وكانت ماريا، الأم العزباء الأرملة، لا تزال تشعر بالإحراج الشديد من الإتيان بها إلى روسيا.

ورغم أن التغيير السريع بدأ يطرأ على المجتمع الروسي في عقد الستينيات، فإن البُنى الذكورية الراسخة في قوانين الدولة الروسية بقيت على حالها. وقد ضرب تولستوي من خلال روايته «آنا كارينينا» على الوتر الحساس لدى آلاف النساء القارئات اللواتي كن يعانين من زيجات تعيسة رغم أن قليلا منهن تمتعن بشجاعة «آنا أركاديفنا»، إلا أنهن وجدن نقاط شبه كثيرة معها. ويمكن تفسير المفارقة في تناول تولستوي لشخص «آنا كارينينا» بقلم متعاطف، وكتابة رواية تندد بوضوح في الوقت نفسه بالخيانة الزوجية، من خلال النظر في مصير شقيقته ماريا التي كانت حياتها الزوجية التعيسة، وهي إحدى القصص العديدة التي شكلت مواد خام لروايته «الأسرية». وكأن ماشا قرأت أفكار شقيقها، كما هو واضح في الرسالة التي بعثت بها إليه في مارس 1876 وتحدثت فيها عن حياتها المريرة والدروس التي تعلمتها، وشعرت بأن الكثير من أوجه الشبه تجمعها ببطلة روايته: «لو كانت آنا كارينينا وجميع مثيلاتها على معرفة مسبقة بما ينتظرهن لأطلقن سيقانهن للريح بعيدا عن المتع الزائفة التي هي في حقيقة الأمر لم تكن ولا

يمكن أن تكون متعا، لأن الحرام لا يمكن مطلقا أن يفضي إلى السعادة»، وكانت تلك أيضا وجهة نظر تولستوي.

لم تكن ماشا شخصية محورية في سيرة حياة تولستوي قبل نشر مراسلاته معها ومع أشقائه عام 1990، لكنها كما اتضح لاحقا، كانت شخصا مهما في حياته، إذ بقيا قريبين من بعضهما بعضا حتى وفاتها (ويذكر أن رسائله لها من أكثر الرسائل المؤثرة من بين جميع رسائله الأخرى). ندمت ماشا على زواجها بفاليريان بيتروفيتش تولستوي أشد الندم، وحاولت أن تدفن مأساتها وآلامها في السفر إلى الخارج مع أطفالها وزيارة الحمامات المعدنية حيث تلقت علاجا للأمراض المختلفة التي كانت تعتقد أنها مصابة بها. وقد التقت في أوكس لي باين عام 1861 بشاب سويدي وسيم هو الفيكونت هيكتور فيكتور دي كلين، وأمضت شتاءين متتاليين معه في الجزائر، وقد سمع إخوتها بأنها تعيش مع الفيكونت عندما عادت إلى روسيا في رحلة في صيف عام 1862 قبيل عقد قران تولستوي. وفي الخريف التالي ومنعا للحرج ودرءا لتوبيخها أرسلت لهم رسالة من جنيف تخبرهم فيها بأنها أنجبت طفلة. أما تولستوي وشقيقه سيرغيه فقد تعاطفا معها لأنهما أنجبا وربيا أطفالا غير شرعيين أيضا. وهكذا، أسرع تولستوي لطمأنة شقيقته وأكد على دعمهما لها وصمم على مساعدتها. وفي يناير عام 1864 التقى تولستوي وسيرغيه بفاليريان بيتروفيتش الذي أقر بمسؤوليته عن انفراط عقد الزواج وتفككه، واتفق بالتالي معهما على الطلاق. وحصل بعدها تولستوي على الموافقة الضرورية من الأسقف وأرسل الوثائق لماشا لتوقع عليها وتعيد إرسالها، لكنها كانت خائفة من المضي قدما بإجراءات الطلاق بعد أن أرسل لها فاليريان في السابق رسالة تهديد يخبرها فيها أن الطلاق سوف: «يضر بمكانته ويأتي بكثير من المنغصات عليه». أرسلت عندها ماشا رسالة للعمة توانيت تستفسر منها على نحو يثير الشفقة عما إذا كان لديها الحق بالفعل في إتمام إجراءات الطلاق رغم أنها عانت الأمرَّين من زواجها.

تتفهم تردد ماشا في المضي قدما بإجراءات الطلاق، لأن الطلاق كان نادرا للغاية في روسيا، بالإضافة إلى أن وصمة العار الاجتماعية التي تلحق بالمطلقة كانت أمرا واقعيا. وفي الوقت الذي أصبح الطلاق فيه ممكنا وفقا لقانون المحاكم الإنجليزية عام 1857، استمر الروس في التشبث بقدسية الزواج باعتباره مؤسسة دينية من خلال نشر النسخة الثالثة من القانون الإمبراطوري، فلم يكن من الممكن الحصول على الطلاق في روسيا من خلال الكنيسة التي تعتبر الزواج رباطا مقدسا لا يمكن حله، بالإضافة إلى أن الكنيسة لم تكن توفّر الحقوق القانونية للأطفال غير الشرعيين، فالمادة 103 من الفصل الأول في المجلد الأول من القانون الإمبراطوري تحظر على الزوجين العيش بعيدا عن بعضهما البعض إلا في حالات نفي أحدهما إلى سيبيريا، أما المادة 106 و108 فتنصان على قوامة الرجل داخل مؤسسة الزواج (العصمة بيد الرجل):

«يحبُّ الرجل زوجته كما يحب نفسه، ويعيش معها بانسجام، يحترمها ويحميها ويغفر لها زلاتها ويخفف عنها أسقامها، يوفر لها القوت والمساندة على أفضل نحو بحسب إمكاناته. وتطيع الزوجة زوجها كونه سيد العائلة وتعيش معه بحب واحترام وطاعة غير محدودة، وتبذل كل جهد في تعزيز الرضا والألفة بوصفها ربة المنزل».

لم يكن إخضاع النساء حكرا على روسيا بالطبع، لكن الدولة الروسية كانت لها مصلحة في دعم البُنى الذكورية لأنها كانت تساوي بين الاستقرار المنزلي العائلي والاستقرار السياسي. وقد وُفّق تولستوي في طرقه أفضل طريقة لتصوير تفكك المجتمع الروسي في ظل الإمبراطورية البائدة من خلال اختياره تأليف رواية موضوعها «الأسرة».

وخلال القرن التاسع عشر عمدت الكنيسة الأرثوذكسية إلى جعل الطلاق البائن الفعلي أكثر صعوبة، فالتماسات الطلاق يجب أن ترفع لسلطات الأبرشية وتلتزم بعملية بيروقراطية طويلة مرهقة مكلفة تمر في تسع مراحل منفصلة، أما الزنا فيحتاج تثبيته إلى شهادة شهود، كما يكتشف ألكسي ألكسندروفيتش عندما يذهب لطلب المشورة من «محام مشهور في

بطرسبورغ» في الجزء الرابع من رواية «آنا كارينينا»، ولذلك فمن غير المفاجئ أن تكون أعداد التماسات الطلاق قليلة جدا (واحد وسبعون فقط في جميع أرجاء روسيا عام 1860 وسبعة منها فقط بسبب الخيانة). لكن مع الإصلاحات الكبرى والنمو الحضري وانتشار التعليم، تغيرت المواقف من مؤسسة الزواج، إذ مورست ضغوط بغية تبسيط وتحديث قوانين الطلاق، وأصبح هذا الموضوع مثار نقاشات محتدمة في الأوساط الإكليروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهكذا، أسس الإصلاحيون لجنةً عام 1870 اقترحت تحويل الإجراءات القانونية الخاصة بالطلاق إلى المحاكم المدنية، وتنحية دور السلطات الإكليروسية في التحقيق في قضايا الطلاق «التي تفيض بتوصيفات لمشاهد مقرفة وفاحشة تجتمع فيها نتانة الفسق كله». وفي مايو من عام 1873، عندما بدأ تولستوي بكتابة «آنا كارينينا»، رفض السينودس (المجمع الكنسي) المقدس بالإجماع اقتراح اللجنة، كما رفض اقتراحا باعتماد الزواج المدني (الذي كان يُعمَل به في تلك الفترة في بعض الدول الأوروبية)؛ على أساس أنه «زنا مقنن»، ومع ذلك ازدادت حالات الطلاق على نحو ثابت، من 795 حالة عام 1866 إلى 947 عام 1875، بما في ذلك حالتا شقيقة صونيا الكبرى (الفتاة الذكية التي عزف تولستوي عن اختيارها للزواج) وشقيقها ألكسندر.

استفاد تولستوي كثيرا عندما قام بالبحث في موضوع الطلاق نيابة عن شقيقته ماشا، من خلال توظيفه تلك التجربة في موضوع الطلاق في روايته «آنا كارينينا»؛ لأنه اختبر تلك الإجراءات عن كثب. وفي عام 1868 حصلت ماريا ألكسيفنا، شقيقة صديقه القديم ديمتري دياكوف، على الطلاق من زوجها المكتنز سيرغيه سوخوتين، شبيه شخصية كارينين في الرواية، بعد أن أثارت فضيحة بتخليها عنه وعن أطفالها الصغار وهربت مع رجل آخر أنجبت منه طفلا غير شرعي. أما شقيقة تولستوي ماشا فلم تعد بحاجة إلى الطلاق من زوجها في الفترة اللاحقة التي اكتشفت فيها أن الفيكومونت، ضعيف الإرادة فقير الحال، عاد إلى السويد ليتزوج بامرأة ثرية تاركا وراءه ماشا في مستنقع من الدَّيْن. فقد كانت أسرته مترددة من احتمالية زواجه بامرأة

لديها أربعة أطفال ستوصم بالعار قريبا بعد الحصول على طلاقها. وبالتالي، أقنعت الأسرة الفيكومونت بالتخلي عن ماشا فاستجاب لذلك، وعادت ماشا إلى روسيا وتوفي فاليريان بيتروفيتش في السنة التالية، لكنها بقيت تعيسة للغاية في حياتها الشخصية؛ لأنها تركت وراءها في سويسرا ابنتها إيلينا، وقد وصفت ذلك في رسالة يائسة لشقيقها عام 1876؛ فشبهت نفسها بآنا كارينينا وقالت إنها لا تعرف امرأة من أوساطهم تحلت بـ«الشجاعة» واعترفت بوجود طفلة غير شرعية لديها.

أما تولستوي فقد فكَّر هو الآخر بالطلاق في بعض المناسبات، لكن زواجه الذي كان يزداد اضطرابا يوما بعد يوم كان في الحقيقة مستقرا وتقليديا مقارنة مع زيجات أقربائه وأصدقائه، فقد أمضى شقيقه ديمتري السنة الأخيرة من حياته يعيش مع عاهرة سابقة (كما يفعل نيكولاي في رواية «آنا كارينينا»)، وكان شقيقه الآخر سيرغيه متزوجا بغجرية. فبينما كان تولستوي يحاول إنقاذ شقيقته ماشا عام 1864 ويكتب في الوقت نفسه رواية «الحرب والسلام»، وجد نفسه فجأة مضطرا للتصدي أيضا للأزمة الرومانسية التي انغمس فيها شقيقه سيرغيه. ففي الصيف الماضي، وبعد علاقته التي استمرت أربعة عشر عاما مع ماريا شيشكينا، المغنية الغجرية التي «اشتراها» سيرغيه من كورال تولا الذي كانت تغني فيه، وقع سيرغيه فجأة وعلى نحو جنوني في غرام شقيقة صونيا، تانيا الشابة المرحة الحيوية (التي إذا ما أردنا البوح بالحقيقة نقول إن تولستوي نفسه كان معجبا بها بعض الشيء أيضا) وتقدم لخطبتها، ولكن بخلاف فرق السن بينهما، وقد كان عظيما بواقع 20 سنة (إذ كانت تانيا شابة تبلغ السابعة عشرة فقط)، كان لدى سيرغيه أيضا ثلاثة أطفال من ماريا شيشكينا وكان يتوقع طفلا رابعا. تخلى سيرغيه عن تلك المغامرة بعد أن وخزه ضميره في نهاية المطاف، فانفطر قلبه لدى مشاهدة ماريا تجثو على ركبتيها وتصلي وتتضرع أمام أيقونة وتذرف الدموع وتستسلم للقدر بخجل. وهكذا، وفي يونيو من عام 1865، وبعد شهر من ولادة ابنته فيرا فسخ سيرغيه خطوبته من تانيا وعاد إلى زوجته.

وقد تزوَّج كل من سيرغيه وتانيا عام 1867، وكان تولستوي معارضا لزواج تانيا من قريبها ألكسندر كوزمينسكي لأنه اعتقد أنها ستكون زوجة مناسبة لصديقه القديم ديمتري دياكوف الذي أصبح أرملَ مؤخرا. لكن تولستوي لاحقا بخل على صديقه دياكوف، فعبّر عن امتعاضه من زواجه بعد عشر سنوات (حينما بلغ الخامسة والخمسين) من مربية ابنته ماشا السابقة، صوفيا روبرتوفنا، البالغة من العمر آنذاك اثنتين وثلاثين سنة. ولم يكن تولستوي محقا في ذلك؛ لأن سن «صوفيش» كما يعرف الجميع، كان من سن زوجته وأكبر بسنتين من تانيا.

أما سيرغيه فقد تزوج ماريا أخيرا وانتقلا وأطفالهما إلى عزبة بيراغوف، وقد أنجبت ماريا في حياتها أحد عشر طفلا عاش من بينهم أربعة فقط، لكن زواجهما لم يكن سعيدا، لأن ماريا كانت تشعر بألم بتفاوت نسبها وحسبها وحيثيتها الاجتماعية مقارنة مع زوجها، فانعكس ذلك على خجلها الدائم بحضور عائلة زوجها وتفضيلها العزلة. لكن تولستوي كان يُظهر لماريا ميخائيلوفنا أرفع درجات الاحترام، وكان يدعوها دائما لتأتي مع زوجها إلى ياسنايا بوليانا، لكنها كانت تتردد في المجيء حتى عندما فكرت صونيا بالطلب منها أن تصبح الأم المعمدانية لابنها أندريه المولود في ديسمبر عام 1877.

توقف تولستوي عن كتابة مذكراته أثناء تأليفه رواية «آنا كارينينا»؛ لأنه اعتقد أن ما أراد تدوينه على دفتر المذكرات من قضايا يمكن تسليط الضوء عليه جزئيا في طيات الروايات نفسها. فمن خلال العلاقة بين ليفين وكيتي، على سبيل المثال، أراد تولستوي أن يخط «طريقا ثالثا» يتوسط أسلوب الزواج الأوروبي الذي تحبذه آنا، لا سيما إنجاب عدد أقل من الأطفال، وأسلوب الزواج «التقليدي» لدى الفلاحين المتمثل في دُولي التي تنجب عددا كبيرا من الأطفال رغم أنها تنتمي إلى الطبقة النبيلة التي تنتمي إليها آنا. قام تولستوي في أثناء الرواية بحبك العديد من الخيوط الدقيقة المقنعة والمموهة التي تعكس تفاصيل من حياته الشخصية، لا سيما في قصة تودد ليفين ومغازلته لكيتي والزواج منها (كالتواصل من خلال رسائل تُكتَب بالطباشير، أو الغفلة عن تجهيز قميص نظيف يرتديه ليفين في يوم زفافه... إلخ)، لكنه في

النصف الثاني من الجزء السادس، بدأ يُعبِّر من خلال دُولي عن شاغل ملح على وجه الخصوص هو: الرعب الذي يتملكه من لجوء النساء إلى أساليب لمنع الحمل.

بعد وفاة فارفارة في نوفمبر، بقيت صحة صونيا مهددة بالخطر، وفي يناير عام 1877 قامت بزيارتها الأولى لبطرسبورغ لتقضي أسبوعا مع أمها (التي لم ترها منذ ثلاث سنوات)، ولتحصل على مشورة طبية من الطبيب المشهور بوتكين، طبيب البلاط القيصري. وقابلت ألكسندرين أيضا لأول مرة، فقد كتبت لتولستوي مباشرة تخبره عن مدى إعجابها بزوجته، وقالت إنها وجدت «صوفي» صادقة ذكية ودودة وصريحة وقد ألفتها على الفور. وكانت ألكسندرين قد أتت برسالة تلطيفية من الطبيب بوتكين بشأن صحة صونيا، مما شجعها على الحمل مجددا خلال أسابيع، إذ كانت منذ وفاة فارفارة تخشى الإنجاب مجددا، وقامت بفعل كل ما بوسعها لتجنب الحمل بما في ذلك التفكير في اتباع أساليب منع الحمل، مما أثر سلبيا على حياتها الزوجية. ويذكر أن تولستوي في تلك الفترة بالذات كان يكتب الفصل، في رواية آنا كارينينا، الذي تأخذ الدهشة فيه من دُولي كل مأخذ؛ بسبب كشف آنا لها بأنها تستعمل حبوب منع الحمل، فدُولي، كما هو تولستوي، تؤمن بأن منع الحمل عمل غير أخلاقي.

وبينما كانت صونيا في بطرسبورغ، عكف تولستوي على إنهاء روايته مستعينا بقراءة أعمال ترولوب من وقت لآخر ليرفِّه عن نفسه، فقد كان يقرأ رواية «رئيس الوزراء»، وهي الرواية ما قبل الأخيرة من روايات ست كتبها ترولوب. وقد أوصى تولستوي شقيقه سيرغيه بقراءتها. تعكس «آنا كارينينا» قرب تولستوي من محتوى الروايات الفرنسية التي تتناول موضوع الخيانة الزوجية، كما تعكس أيضا معرفته بالروايات الإنجليزية التي كان يُقدّرها تقديرا رفيعا، فقد صرح مرة بجرأة بأن الكتب الإنجليزية هي الأفضل، لأنه كان يجد فيها شيئا جديدا ينعش الروح. ويُذكَر أن «آنا كارينينا» كانت تقرأ في المشاهد الأولى رواية إنجليزية وهي مسافرة في القطار، وربما تكون من أعمال ترولوب، لأنها تأتي على ذكر أعضاء في البرلمان، وصيد الثعالب، وأعضاء مجلس اللوردات... إلخ. وكان ترولوب قد قرر مسبقا أن بطلته المفعمة

بالحيوية، الليدي غلينكورا، سوف تقع في النهاية في غرام زوجها الصالح المستقيم بارد المشاعر رجل الدولة بلانتاغينيه، وهو بطبيعة الحال ذو صفات حميدة تسمو على صفات نظيره الروسي كارنين. ومن دون عبء التقليد الوعظي الذي يثقل كاهله، فإن اختيار نهاية سعيدة لم يكن يمثل مشكلة لكاتب متفانٍ في عمله الدائم في مكتب البريد، فقد كان ترولوب محصَّنا من الشك الذاتي الذي كان يربك تولستوي على نحو متزايد، بينما عانى كثيرا لينهي رواية «آنا كارنينا».

أنهى تولستوي روايته أخيرا عام 1877. وقد صبر عليه القراء الروس بلا شك، إذ بدؤوا قراءة الرواية منذ سنتين وربما أصيبوا بالحيرة والانزعاج، شأنهم شأن الناشر، عندما توقفت السلسلة عن النشر فجأة في أبريل عام 1875، بعد أن أنهى تولستوي الثلث الأول منها، ومن ثم توقفت مجددا عام 1876. وقد شعر كاتكوف بأنه مضطر إلى أن ينشر حينها ملاحظة في مجلته تشرح أن التوقف المؤقت عن النشر لا علاقة له بمحرري المجلة، ولكنه يتعلق بـ«ظروف تمنع الكاتب من إتمام روايته» التي يأمل الآن بأن يستمر نشرها «من دون انقطاع». ومع ذلك بقي القراء متلهفين لإتمام قراءتها. يستذكر أحد الشباب من معارف تولستوي كيف كان هو ورفقاؤه في الدراسة ينتظرون بفارغ الصبر كل عدد جديد من مجلة «الرسول الروسي»، فيلتهمون كل صفحة مباشرة متى كان في العدد جزء من «آنا كارنينا»، لكن تولستوي شعر بالحيرة عندما كتب له ستراخوف من بطرسبورغ في مايو عام 1877، يخبره بأن المراجعات النقدية الأخيرة للرواية تصنفه كاتبا لا تقل عظمته عن عظمة شكسبير، حتى إن دوستويفسكي أخذ يلوّح بذراعيه في الهواء بعد قراءة الرواية وسمّى تولستوي «إله الفن». لكن دوستويفسكي بعد فترة قصيرة عدل عن رأيه عندما قرأ الفصول الأخيرة من الرواية التي يكشّر فيها تولستوي عن أنيابه ويتحدى في محاججاته السلافيين القوميين من أمثال دوستويفسكي.

كانت «آنا كارنينا» مطابقة للواقع، وقد مكّن التدرج البطيء في كتابتها تولستوي من أن يعكس على صفحاتها فضلا عن النقاشات الأخيرة بشأن الزراعة، التطورات السياسية الأخيرة التي تكشفت في روسيا. هنا وجد تولستوي نفسه يلج منطقة جديدة، لكن لامبالاته المتزايدة

بالقضايا الفنية المحضة جعلته لا يخشى عرض آراء مستهجنة غير شائعة، مما جعله في مسار تصادمي مع المؤسسة الروسية. احتوى عدد أبريل من مجلة «الرسول الروسي» عام 1877 على الفصول الأخيرة من الجزء السابع الذي ينتهي بموت «آنا»، وقد لاقت تلك الفصول استحسانا كبيرا. وكان ينبغي أن يُدرِج في هذا العدد أيضا خاتمة الرواية (التي سميت الجزء الثامن أصلا)، لكن تولستوي تشاجر مجددا مع الناشر، إذ كان لا يزال ينتظر مجموعة ثالثة من الصفحات المنقحة في منتصف مايو. أما عقدة المنشار فكانت «سياسية»؛ بالتحديد الآراء «غير الوطنية» التي عبَّر عنها في الرواية بخصوص حركة المتطوعين الروس الذين هبّوا لمساعدة الصّرب؛ الذين كانوا يخوضون حربا منذ نهاية يونيو عام 1876 ضد الإمبراطورية العثمانية. وكانت تلك الحركة التي ينضم إليها فرونسكي في نهاية الرواية، إذ نراه يستقل القطار في محطة سمولينسكي في موسكو ويتجه في رحلة نعلم أنه لن يعود منها.

كانت الحرب الصربية-التركية جانبا واحدا من «المسألة الشرقية» التي أطلت برأسها من جديد في السبعينيات من ذلك القرن، مدفوعة هذه المرة برغبة «دول البلقان» في التحرر من حكم العثمانيين الذي امتد لقرون. وقد وجد القوميون السلافيون في هذا الصراع فرصة ذهبية لتعزيز هدفهم الأساسي لتوحيد جميع الأمم السلافية تحت السيادة الروسية لو أمكن. وقد كان تولستوي يدرك أن حقيقة التوجه القومي السلافي تعود في جذورها إلى العزلة الدبلوماسية الروسية، والهزيمة النكراء المهينة التي تكبدتها روسيا في حرب القرم التي شارك فيها تولستوي، وحولته تلك التجربة إلى إنسان ينادي بمذهب السلمية. ولذلك أثارت هذه الحرب الجديدة حفيظته وقلقه. ولم يكن تولستوي يرغب في التورط في سياسة تلك الحقبة ودهاليزها، لكن قلقه بشأن الأحداث الدائرة في البلقان دفعه ليتجاهل ازدراءه للصحافة مؤقتا ويتابع من خلال الصحف مجريات الحرب. ولأنه توقع أن لا مناص من انخراط الروس في الحرب الصربية-التركية، قام بزيارة موسكو في نوفمبر من عام 1876 ليكتشف المزيد عنها. وقد حضر حينها خطاب ألكسندر الثاني من الكرملين الذي حدد فيه للأتراك مهلة زمنية. وشاهد الجموع الوطنية

تصطف في الشوارع وتصفق وتهتف: الحرب! الحرب! ويتبعها الهتاف المشهور «هوراااااا!».
أما أكثر ما أزعج تولستوي فقد كان الجزء الذي يؤمن أن الصحافة و«اللجنة السلافية» لعبته في تعبئة الناس للمطالبة بإعلان الحرب، ولذلك تحدث عن هذه المسألة بالتحديد في الصفحات الأخيرة من «آنا كارينينا».

شكلت موسكو دائما معقل الحركة القومية السلافية، فقد أُسست اللجنة السلافية الخيرية الأولى في موسكو عام 1858 لتوفير المساندة للشعوب السلافية التي ترزح تحت حكم العثمانيين أو إمبراطورية هابسبورغ. واستضافت موسكو أيضا المؤتمر السلافي الثاني عام 1877. وقد ترأس اللجنة السلافية عام 1877 الصحفي إيفان أكساكوف بدعم قوي من زوجته آنا، التي كتب عنها تولستوي بنبرة ازدراء بعد عودته من موسكو لصديقه فيت، وتحدَّث عن دورها المتصنع في تعزيز الدعم للحرب. كانت آنا أكساكوف، ابنة الشاعر تيوتشوف، من معارف تولستوي القدماء، وكانت في السابق تعمل مربية لأطفال ألكسندر الثاني الصغار (وعندما تزوجت عام 1866 خلفتها في الوظيفة أكسندرا أندريفنا تولستايا-ألكسندرين). وكان أيضا من بين الشخصيات المرموقة الرئيسية في الأوساط القومية السلافية، ضابط الحرس السابق ألكسندر بوروخوفشيكوف، الذي بنى عام 1872 فندق البازار السلافي بالقرب من الساحة الحمراء ليجسد رؤيته للأخوة السلافية. وقد تعمد جعل أسلوبه المعماري سابقا على حقبة بطرس الأكبر، فتكامل مع التصاميم الداخلية. بينما عرض في غرفة الطعام الرئيسية لوحة كبيرة من القماش عليها صور مرسومة لمؤلفين روس وبولنديين وتشيكيين رسمهم الفنان الشاب إيليا ريبين. ومن هذا المكان نظم بوروخوفشيكوف عملية استقدام الروس المتطوعين للمشاركة في الحرب الصربية – التركية، وهو المكان نفسه الذي جنّد من خلاله الضابط المتقاعد المؤهل فرونسكي في رواية «آنا كارينينا».

أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية في أبريل من عام 1877 في الوقت الذي كان تولستوي يكتب فيه خاتمة رواية «آنا كارينينا». وفي مخطوط الرواية تجاهل تولستوي حركة

المتطوعين ونعتها «بالحماسة المؤقتة للأثرياء المتسكعين» مما أغاظ كاتكوف، القومي السلافي البارز ورئيس تحرير صحيفة محافظة مؤثرة، كما لم يرق له انتقاد الصحافة التي تزعم أنها تمثل «صوت الشعب» وتنشر في الوقت نفسه «الكثير مما هو غير ضروري». أما تولستوي فقد استشاط غضبا بدوره لأن «صحفيا عاديا» تجرأ على تصحيح مخطوطه، فتولستوي لم يحاول مطلقا إخفاء حقيقة أن الآراء التي كان يعبر عنها ليفين والأمير العجوز شتشيرباتسكي، كانت آراءه الشخصية، وقد أعلن لأصحابه بلا مواربة أن الصحف «شر الشرور ومن الأفضل ألا يكون لها وجود». وقد أكد أن الشعب الروسي لم يكن لديه أدنى معرفة بالسلافيين، ولم يكونوا راغبين في القتال. وهكذا رفض تولستوي رفضا قاطعا أن يجري التعديلات والتغييرات التي أرادها كاتكوف، وقام في النهاية بسحب المخطوط منه كي ينشره على نحو منفصل، لكن كاتكوف ثأر لنفسه من خلال نشر بيان في «الرسول الروسي» قال فيه:

«في العدد الفائت ألحقت كلمة «يتبع» برواية «آنا كارينينا» التي تنتهي في الحقيقة بموت البطلة. ووفقا لخطة المؤلف، كان يتعين كتابة خاتمة يكتشف فيها القارئ أن فرونسكي، المكلوم الضائع بعد وفاة آنا، ينطلق إلى صربيا كمتطوع، أما جميع الشخصيات الأخرى فتبقى على قيد الحياة لا بأس عليها؛ إذ يبقى ليفين في قريته ويُعبِّر عن غضبه إزاء اللجان السلافية والمتطوعين، وربما يقوم المؤلف بكتابة هذه الفصول ويلحقها بنسخة منفصلة من روايته».

ازداد غضب تولستوي بطبيعة الحال عندما قرأ هذا البيان، فجلس على الفور وكتب رسالة لألكسي سوفورين الذي أصبح رئيس تحرير صحيفة «الأيام الجديدة» في بطرسبورغ، عبَّر فيها عن سخطه من الطريقة التي اتبعها كاتكوف للتقليل من شأن خاتمة «آنا كارينينا» وتلخيصها. كتب تولستوي: *«ماذا عن تلخيص بقية الرواية في عشرة أسطر؟ ثمة سيدة هجرت زوجها بعد وقوعها في غرام السيد فرونسكي، وقد انزعجت بعدها من أمور عدة في موسكو، فألقت بنفسها تحت القطار وانتحرت»*. كما اعترض تولستوي على كاتكوف حين حثَّ الأخير القراء على تفسير رواية «آنا كارينينا» على أنها «رواية عن المجتمع الراقي»، كما امتعض تولستوي كثيرا من

محاولة كاتكوف إملاء خاتمتها عليه. لكن صونيا هي التي كشفت في نهاية المطاف لقراء «الأيام الجديدة» عن السبب وراء عدم نشر خاتمة «آنا كارينينا» في مجلة «الرسول الروسي» بعد أن وقعت على مقالتها بحرفي ك. (كونتيس) ص. (صونيا)«***» واقتبست من مسوّدة زوجها.

لا شك أن الشعب الروسي كان ممتنا لهذا التفسير، لكن الخاتمة لم تلق استحسانا من قِبل جميع القراء، فقد شكلت آراء ليفين المزدرية لقضية البلقان وحركة المتطوعين الروس مثار جدل واسع، إذ مثَّلت ما هو مناقض تماما لآراء غريم تولستوي العظيم فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكي الذي ركز من خلال قوميته المسيحية (أو جنون العظمة الأرثوذكسية القومية المتطرفة، بحسب وجهة نظر القارئ)، على الدور الروسي كمنقذ صليبي للبلقان. ورغم أن تولستوي ودوستويفسكي لم يلتقيا أبدا، لكنهما كانا بلا شك على دراية بكونهما نقيضين طبيعيين وجدا العديد من العيوب في أعمال بعضهما بعضا. وبما أن دوستويفسكي كان صحفيا، بالإضافة إلى كونه روائيا فذا، فقد كان يتعين عليه إلى حد ما أن يُبدي رأيا برواية تولستوي. وبعد فترة طويلة من المراوغة نشر أخيرا مقالا عبَّر فيه عن رأيه في رواية «آنا كارينينا» عام 1877. لكن تولستوي لم يرد على هذا المقال بأي مقال يُعلِّق فيه على أيٍّ من أعمال دوستويفسكي الروائية، فبقي كدأبه منطويا على نفسه متحفظا.

كان دوستويفسكي في البداية كريما في مديحه لرواية «آنا كارينينا» وكان متحمسا جدا لشخصية ليفين الأدبية، وقد خصص صفحات عديدة للرواية في عدد فبراير من مجلته المستقلة الشهرية «ذكريات كاتب» التي أسسها عام 1876 ليستكشف شخصية وقدر الشعب الروسي. لكنه عندما قرأ الخاتمة في فترة أخرى من تلك السنة طغت عليه مشاعر الصدمة والاضطراب، فقام في عدد يوليو بتوجيه انتقاد لاذع لليفين؛ لكونه غير وطني متضخم الأنا يعيش في برج عاجي بعيدا عن نبض الشارع الروسي. وقد انتقد أيضا مزاعم ليفين التي تقول إن الشعب الروسي يشاركه عدم اكتراثه لمأزق السلافيين في البلقان، وعارض بشدة رغبة ليفين المعلنة بعدم إمكانية تورطه في القتل، حتى لو نتج عن ذلك منع حدوث فظائع. نقترب هنا بلا شك من

فكرة تولستوي (في مراحلها الجنينية) التي تتلخص في مذهب السلمية وعدم مقاومة العنف؛ التي ستشكل صميم نظرته الدينية الجديدة التي طورها خلال العقد القادم. وفي نهاية تقريعه المطول خلص دوستويفسكي إلى أن تولستوي وأمثاله ينبغي أن يكونوا معلمين وقدوات لنا، لكن ما هو فحوى علمهم وماذا يعلموننا بالضبط؟ ومن البداهة القول إن دوستويفسكي لم يتسلم أي رد على مقاله في عام 1877 أو في الأعوام القادمة التي سبقت وفاته في يناير من عام 1881، لكن تولستوي عوَّض ذلك بتمضية ما تبقى من حياته الطويلة (ثلاثة عقود) لا يقوم بأي شيء سوى محاولة الإجابة عن ذلك السؤال الذي طرحه دوستويفسكي.

الفصل العاشر

الحاج والعدمي والموجيك

«لو كنت بمفردي لما أصبحت راهباً بل لأصبحت زاهداً درويشاً من المجاذيب؛ أي بمعنى أنني لن أتشبث بأي شيء في هذه الفانية ولن أؤذي أحداً على الإطلاق».

مقتطف من رسالة إلى نيكولاي ستراخوف، 6 نوفمبر 1877.

كان تولستوي يؤمن بالخرافات والأساطير، وقد غدا من أولئك الذين يؤمنون إيمانا راسخاً بأن حياة المرء تتألف من دورات يمتدُّ كل منها سبع سنوات. لذلك عندما بلغ التاسعة والأربعين آمن بأن تلك السنة ذات دلالات خاصة، لا سيما أن يوم ميلاده تصادف مع السنة السابعة من العقد السابع من ذلك القرن. وهكذا شكلت هذه السنة نقطة تحوُّل في حياته. وقد استذكر هذه المرحلة في أكتوبر من عام 1884، بعد سبع سنوات أيضا، وأدرك حينها أن التحول كان راديكاليا بالفعل معبرا عن ذلك بالأرقام في رسالة أرسلها إلى صونيا: «7x7=49».

بدأ تولستوي عام 1877 بالتشبث أكثر من أي وقت مضى بالمسار الذي اختطه لنفسه مؤقتا عندما أسّس مدرسته في ياسنايا بوليانا؛ مسار مزاولة الحياة وفقاً لتعاليم وأخلاق المسيح. لكنه انحرف في السابق مرتين عن هذا المسار، أولهما حينما تزوج، وثانيهما عندما التزم بكتابة آنا كارنينا. لكنه في هذه المرة أصرّ على تجنب أي عائق يصرفه عن مساره، وكلما تقدم في المسار الذي كان يبعده عن غاياته الفنية كروائي، ويبعده أيضا عن زوجته، كان يشعر بالارتياح ويشعر أن خطواته أصبحت أخف. لم يتوقف بالطبع عن الكتابة نهائيا، لكنها أصبحت أمراً ثانويا

بالنسبة له مقارنة بالمهمة الأكثر إلحاحاً؛ وهي كشف النقاب عن النفاق وانعدام الأخلاق الذي يتكشَّف من حوله.

لقد كان من الحتمي ربما لرجل لم يكن يعترف بأنصاف الحلول وأنصاف التدابير أن يختبر شيئا يتعدى أزمة منتصف العمر العادية النموذجية. فقد برهن العقد الذي تلا بلوغه التاسعة والأربعين، على أنه العقد الأكثر تقلبا وتعقيدا واضطرابا في حياته. ورغم أن الانتقال إلى موسكو كان الحدث الأبرز لبقية أفراد الأسرة خلال تلك الفترة (فقد شكل ذلك تجربة غيّرت من حياة الأطفال جميعا، وأثَّرت بالطبع على الأم صونيا بعد عزلتها في ياسنايا بوليانا التي استمرت سنوات طوالا)، إلا أن تولستوي لم يكن يشير إلى ذلك الانتقال عندما وصف تلك السنوات بفترة التغيير والصراع الداخلي العاصف. فقد أصبح من الرعايا الأرثوذكس الملتزمين دينياً ومن ثم تحوَّل إلى ناقد لاذع للكنيسة. وقد قام بدراسة شاملة مستفيضة لأبرز الديانات العالمية، وكتب عملا ينضح بالأحاسيس الوجدانية عرض فيه سيرته الروحية وبحثه عن مغزى الحياة. كما قام بترجمة الأناجيل وعكف على اتباع تعاليم المسيح. بعدها، بدأ برفع عقيرته باسم تلك التعاليم معارضا الكنيسة الأرثوذكسية، لدرجة أن القيصر ألكسندر الثالث في نهاية الثمانينيات صنف تولستوي على أنه ملحد عدمي وشخصية خطيرة، ويجب وضع حد له.

بيد أنه تعيّن على تولستوي أن يخوض في رحلة بحث طويلة قبل أن يصل إلى صياغة أفكاره الجديدة والتعبير عنها بدقة. وهكذا بدأت تلك الرحلة بالفعل من خلال بحوث مكثفة في الأديان، وقد عُكس ذلك روائيا في الفصول الأخيرة من آنا كارينينا عندما بدأ ليفين في البحث عن مغزى للحياة. وبينما مرّ دوستويفسكي بأزمة روحية إبان سني منفاه في سيبيريا في الخمسينيات من ذلك القرن، وتمخض عنها تخليه عن الإلحاد والاشتراكية وتبنيه للمسيحية؛ لا سيما المسيحية الأرثوذكسية الروسية بحماسة واتقاد عجيبين، إلا أن صاحبنا تولستوي قام إلى حد ما بفعل العكس تماما؛ إذ نتج عن أزمته الروحية في نهاية السبعينيات هجرانه ليس

للأرثوذكسية الروسية فحسب، بل تخليه عن جزء كبير من المسيحية أيضا، رغم أنه بدأ أزمته الروحية بالالتزام الديني بجرعة عالية لم يختبرها في حياته السابقة.

وحتى تلك الفترة، لم يكن تولستوي سوى عضو بالاسم فقط في الكنيسة الأرثوذكسية التي عُمِّد فيها شأنه شأن غالبية أقرانه. فقد تخلى عن الصلاة عندما بلغ السادسة عشرة، وتخلى عن إيمانه في الثامنة عشرة من عمره، لكنه في نهاية الأربعينيات بدأ يتوق إلى الهدى من خلال العودة للتشبث بعقائد دينية راسخة. كتب إلى ألكسندرين في بداية فبراير من عام 1877، واعترف بأنه خلال السنتين الماضيتين شعر بأنه رجل يغرق ويريد أن يتشبث بأي شيء لينجو بنفسه. وأخبرها بأنه كان يعلّق آمالا عريضة على أن يجد الخلاص في الدِّين، وأنه وصديقه ستراخوف يتفقان على أن الفلسفة لا توفر الإجابات الشافية وأنهما لن يستطيعا العيش من دون الدِّين. وكتب أنهما في الوقت نفسه لا يستطيعان الإيمان بالله. وبعد شهر، وعلى نحو مفاجئ من إمعان نظر، غيَّر تولستوي رأيه تماما بعد محادثات مع الطبيب «المادي» غريغوري زاخارين، وبطريرك التصوير الفوتوغرافي في روسيا المشهور سيرغيه ليفيتسكي، الذي التقط الصورة الجماعية لكتّاب مجلة «المعاصر» في باريس عام 1856. فبدأ قراءة الكتابات الثيولوجية للمفكر السلافي ألكسيه خومياكوف، كما فعل تماما ليفين في نهاية آنا كارينينا. وشأنه شأن ليفين وجد تلك الكتابات ناقصة. ورغم ذلك بعد فترة وجيزة بدأ إقامة الصلاة يوميا كما كان يفعل وهو صغير ويذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد ويصوم كل أربعاء وجمعة.

لم تمنع الحماسة الدينية المتجددة في تلك الفترة تولستوي من الذهاب مع أصدقائه لصيد الثعالب والأيائل، أو السعي لنشر أعماله والحصول على أرباح. فقد عاد إلى ناشره القديم ثيودور ريس للاتفاق على نشر منفصل لـ«الجزء الثامن والأخير» من روايته آنا كارينينا بعد المأزق الذي عانت منه مجلة الرسول الروسي. وبعد أن نشر الجزء الأخير في يوليو من عام 1877، أتى تولستوي بنسخة معدلة قليلا للرواية كاملة لنشرها على شكل كتاب في السنة التالية. أما نسخة عام 1878 فلم يُعَدْ طبعها. بعدها بفترة أدرج تولستوي الرواية كجزء من

أعماله الكاملة، وأرغم بدهاء أولئك الذين أرادوا نسخة من الرواية أن يشتروا الأعمال الكاملة جميعا. وفي مايو من عام 1878، أكد له موزعه في موسكو على أن 2,700 نسخة من أصل 4,800 تبقت من جولة النشر الأصلية، وأن 800 نسخة من أعماله الكاملة (المؤلفة من تسعة مجلدات) لم تُبَعْ بعد. أما النسخة الرابعة لأعماله الكاملة، التي كان ينوي بيعها عام 1880، فقد تضخمت بإضافته لمجلدين اثنين يحتويان على آنا كارينينا، وتعرض للبيع بسعر 16 روبلا ونصف. كتب تولستوي إلى ستراخوف قائلا: لو طبعت 5000 نسخة فإن هذا يعني ربحاً بواقع 82,500 روبل، 20,000 منها تذهب لتكلفة الطباعة، و30,000 لحقوق التوزيع. وهكذا يمكن الحصول على مال وفير من هذه الصفقة.

كان تولستوي تاجرا داهية لا سيما عندما يتعلق الأمر بالمفاوضات المالية. لكن، رغم ذلك، كان ثمة إشارات على ورعه المتجدد. ففي صيف 1877 تردد تولستوي بصحبة ستراخوف على دير أوبتينا بوستين المشهور، على بعد 135 ميلا غربي ياسنايا بوليانا في مقاطعة كالوغا، في عدد من المناسبات. وكان تولستوي يرجو لقاء شيخ الدير الموقر أمبروسي. فقد سمع عنه من عماته اللواتي زرعن فيه وفي أشقائه رهبة وتوقيرا لأوبتينا بوستين منذ وقت مبكر. حتى إن عمته الورعة ألين دُفنت فيه وكانت تحجُّ إليه كل سنة من ياسنايا بوليانا. وكان قد سمع عن أمبروسي أيضا من الفلاحين. وهكذا، وبعد يوم سفر كامل وصل مع ستراخوف في الثالثة صباحا وهما في عربتهما التارانتاس. لم يرغب تولستوي في أن يعامل معاملة تفضيلية بسبب حسبه ولقبه، لذلك مكث مع صديقه في نزل الدير القديم المكتظ بالنزلاء. لكن تبيّن أن الأب فيوكتيست، وهو الراهب الذي يدير النُّزل وعمل لدى آل تولستوي خادما في السابق، كشف النقاب عن هوية الكونت تولستوي فطلب منه أن ينتقل إلى مكان أكثر رفاهية، لكنه قاوم ذلك.

ثمة أسباب دفعت تولستوي لاختيار دير أوبتينا بوستين دون غيره من الأديرة. فقد أُسس هذا الدير في القرن السادس عشر، إلا أن الإصلاحات المناوئة للكهنوت الديني وتجلياته التي أطلقها بطرس الأكبر وتابَعَتْها كاترين العظيمة أدت إلى تحجيم دور الدير، فكان على وشك أن

تُقفَل أبوابه في نهاية القرن الثامن عشر، ولم يتبقَّ فيه سوى ثلاثة رهبان أحدهم ضرير. لكن الدير اجتاز حالة الاحتضار تلك وأصبح في القرن التاسع عشر مركزا استثنائيا للصحوة الدينية بفضل شخصيات «شيوخه» الكاريزمية الجذابة. و«الشيوخ» هنا (مفردها: ستاريتس[147] بالروسية)، تعني الرهبان المتمرسين على ممارسات الزهد وقيام الصلاة والتزام الصوم والعزلة لفترات طويلة، مما يخوِّلهم ليصبحوا قادة غير رسميين يديرون الحياة الروحية في الدير[148]. وإذ يؤمنون بأنهم يمتلكون قوة الاستبصار والحكمة الاستثنائية وقدرات عجيبة في علاج المرضى، فقد استقطبوا آلافا من الزوار العاديين الذين تردَّدوا على الدير سنويا قادمين من جميع أرجاء روسيا؛ سعيا للحصول على المشورة بشأن طيف واسع من المشاكل التي يعانون منها في حياتهم. وقد شكَّل الفلاحون جل ملتمسي النصيحة، بالإضافة إلى عدد لا باس به من أفراد الإنتلجنسيا الروسية، بمن فيهم كتاب مشهورون.

أما تقليد «المشيخة» القديم فقد وصل إلى روسيا عن طريق تلاميذ بايسي فيليتشكوفسكي، الزعيم الروحي الأبرز في القرن الثامن عشر، الذي بعد حصوله في سن السابعة عشرة على نذور الرّهبنة، انتقل من مسقط رأسه بالتافا واستقر في جبل أثوس في صومعة انهمك فيها بالقيام بممارسة صوفية مسيحية شرقية تسمى «هيسيكازم: أو السكون الداخلي». وفي عام 1764، وبعد سنتين ونصف من محاولاته الوصول إلى حالة الصلاة الأبدية وإعادة الاتصال بتقاليد الآباء الأوائل للكنيسة، دُعي إلى مولدوفيا لإعادة إحياء الحياة الروحية. وبحلول وفاته عام 1794، وصل عدد الرهبان المنتمين إلى الدير الذي أسسه في نيامت إلى 700 راهب. وبالإضافة إلى إدخاله الطرق الصوفية و«المشيخة» إلى العالم السلافي، ترك بايسي فيليتشكوفسكي إرثا مهما من الكتابات المنشورة عن الصلاة والترانيم والأدعية وغيرها، خلَّفَتْ وقعا إيجابيا على الرهبان الذين أعادوا إحياء أوبتينا بوستين بعد الأيام العصيبة الحالكة

(147) Старец.

(148) أشبه بشيوخ الطريقة.

التي مرَّ بها الدير في بدايات القرن التاسع عشر. فقد عززت النصوص الصوفية التي جمعها، لا سيما النص السلافي المعنون الفيلوكاليا (حب الجميل)، من الرابط المهم الذي بناه مع تقاليد الهيسكازم لجبل آثوس والمسيحيين الأوائل الذين عاشوا في الصحراء. أما الشيوخ الروس الذين نسجوا على منوال فيليتشكوفسكي في القرن التاسع عشر، فكانوا رهبانا قلدوا آباء الكنيسة من خلال العيش في صوامع نائية. وكان ذلك المقابل الأقرب في الثقافة الروسية للعزلة في الصحراء. ولم يكن استخدام كلمة بوستين (بمعنى صومعة بالروسية) من باب المصادفة؛ فهي قريبة من كلمة بوستيني التي تعني الصحراء والبرية بالروسية. ولكي تكون حياتهم أكثر صرامة وعزلة من حياة الرهبان الآخرين العاديين، عاش الشيوخ فيما يسمى «سكيتي»؛ وهو مكان أشبه بدير داخل دير. كان الشيخ الموقر أمبروسي البالغ من العمر آنذاك خمسة وستين عاما، المسؤول عن دير أوبتينا بوستين في وقت زيارة تولستوي، وكان أحد أشهر رجال روسيا في عصره. وقد كان الرجل ذاته الذي عكس دوستويفسكي شخصيته من خلال الموقر زوسيما في «الإخوة كارامازوف»، بعد أن التقى به ثلاث مرات بعد أن حجّ إلى ديره عام 1878.

لم يكن تولستوي سعيدا بالكشف عن هويته الحقيقية لدى وصوله إلى الدير في مايو عام 1877. لكن ذلك سهل الوصول إلى أمبروسي، فمُنح شرف لقائه على الفور رغم أن الكثير من الناس أتوا لرؤية الشيخ، وتعيّن على السواد الأعظم منهم الانتظار لأيام وأحيانا لأسابيع قبل تحين فرصة لقائه (يُذكَر أن النساء لم يُسمَح لهن بدخول صومعته بل كن يحتشدن في ملحق بُني خصيصا لهذا الغرض). أما النصيحة الروحية فكانت متنوعة بحسب تنوع حاجات المتوسلين. فالأمهات كن يسألن عن الطريقة الصحيحة في تربية أبنائهن، ويسأل التجار عن الشروع في صفقة أو الإحجام عنها، ويسأل الأعمام عن موائمة العرسان المتقدمين في طلب أيادي بنات الأخ أو الأخت، بينما يطلب عدد غفير من الزوار أن يدعو الشيخ أمبروسي الله ليشفي مرضاهم أو يخفف من وطأة مصيبة ألمت بهم. أما تولستوي فقد قدم إلى الشيخ من دون أجندة محددة بخلاف رجائه في إمكانية العثور على أجوبة عن الأسئلة الروحية التي كانت تقضُّ مضجعه.

وبعد أن أصغى إلى اقتراح أمبروسي بأن يذهب للاعتراف ويشارك في القُدّاس، قام تولستوي بالفعل بالمشاركة في صلاة الدير المسائية التي امتدت إلى نحو أربع ساعات وقوفا على قدميه. بالإضافة إلى أنه أمضى بعض الوقت أيضا خلال رحلة الحج تلك يتحدث إلى أرشمندريت الدير (وقد كان يعمل ضابطا في الحرس من قبل). لكن تولستوي التقى بشخص آخر لمس شغاف قلبه لتواضعه وعفويته، وهو الأب بيمين، الذي كان يعمل في السابق رساما ومصمم ديكور، والذي بسبب سلوكه المتواضع اللطيف أصبح مشهورا جدا لدى المصليات من الجنس اللطيف. وخلال حديث تولستوي مع الأرشمندريت أخذت الأب بايمين غفوة في لحظة ما وهو جالس على الكرسي، لكنه لم يكن نعسا كما بدا عليه لأنه علّق لاحقا على حديث تولستوي واصفا قشوره بالجمال والألق، ولكن لُبابَه بالخواء، ناصحا تولستوي بوجوب التفكير في روحه لينجو بنفسه. أما أمبروسي فقد أسرّ برأيه في تولستوي إلى صديق ستراخوف. فقال بعد تنهيدة عميقة إنه وجد تولستوي شخصا صعبا. وفي عام 1907 نشر هذا الصديق ما قاله له الشيخ بشأن تولستوي:

يسعى قلبه إلى معرفة الله، ولكن أفكاره مشوشة يعتريها شحٌّ في الإيمان. يعاني من فرط في الكبرياء، الكبرياء الروحي. وسوف يسبب الكثير من الأذى بتأويلاته التعسفية والخاوية للأناجيل التي لم يفهمها، بحسب رأيه، أحد قبله. لكن مشيئة الله هي العليا..

لكن المصدر ذاته أسرّ إلى ستراخوف حينها قائلا إن الآباء المقدسين يؤمنون بأن لدى تولستوي «روحا رائعة»، وكانوا مسرورين تماما لأنه لم يكن يعاني من التبجح الفكري، بخلاف غوغول، الذي زار الدير عام 1850. أيا كانت الحقيقة، فإن تولستوي شعر بانشراح الصدر بفضل تلك الزيارة؛ فقد انبهر حقيقة لحكمة شيوخ الدير، لا سيما قدرات الأب أمبروسي الروحية، وقد عزز ذلك من إيمانه الشخصي. وعندما عاد إلى ياسنايا بوليانا في نهاية يوليو، بدأ محادثات مطولة مع القس المحلي، وكان ينهض في ساعات الصباح الأولى ليقيم صلاة الفجر في الكنيسة ويسرج حصانه بنفسه خشية أن يوقظ الخادم.

أعلنت روسيا أخيرا الحرب على تركيا في أبريل من عام 1877، في الوقت الذي كان فيه تولستوي يضع اللمسات الأخيرة على روايته آنا كارينينا. وفي منتصف أغسطس، وبينما كان بصحبة صونيا وعدد من أفراد أسرته، توجَّهَ لزيارة سجناء الحرب من الأتراك الذين احتُجزوا في معمل قديم لإنتاج السكر على الطريق المؤدية إلى تولا. وكان يأمل أن يبدأ تأليفَ رواية تاريخية جديدة في ذلك الصيف، لكن الأخبار القادمة من جبهات القتال حالت دون تركيزه على أي عمل جديد بصرف النظر عن حسن مزاجه أو تعكره، كما شرح لستراخوف. لم يستطع تولستوي بالطبع أن يطرد ذكريات فرزه إلى موقع عسكري على ضفاف الدانوب قبل صدور أمر بنقله مجددا إلى حملة سيباستوبل الكارثية إبان حرب القرم. وقد فكَّر أيضا لفترة في مراسلة ألكسندر الثاني والتحدث إليه عن وضع روسيا وأسباب فشل جيشها في المعارك التي حصلت مؤخرا مع الأتراك. إلا أنه كان يفكر في تلك الفترة في الدِّين أكثر من أي شيء آخر، فأراد بالتالي الحديث عن الإيمان مع سجناء الحرب الأتراك ولم يرغب الحديث عن السياسة. وأراد أن يعرف إن كان كلٌّ منهم بحوزته نسخة عن القرآن وأراد أن يسألهم عن أئمتهم أيضا. وبما أن سعي تولستوي وبحثه الديني أخذه بعيدا عن حدود روسيا، فقد طلب من ستراخوف أن يرسل له في تلك السنة كتبا من قبيل «الإيمان القديم والجديد» لعالم اللاهوت البروتستانتي ديفيد فريدريك ستراوس، وهو الكتاب الذي كان على وشك أن يسبب فضيحة في ألمانيا عام 1872، كما فعل كتابه السابق «التاريخي» الذي صدر منذ ثلاثين سنة بعنوان «حياة المسيح»، وأنكر فيه ألوهية المسيح. كما طلب تولستوي من ستراخوف أن يشتري له كتاب «حياة المسيح» لإرنست رينان، وهو مجلد يحمل العنوان نفسه، وقد ذاع صيته أيضا لأنه سبَّب عاصفة من الجدل في العالم الكاثوليكي، وقد منع في روسيا منذ نشر النسخة الأولى منه عام 1863. وكان تولستوي أيضا مهتما في تلك الفترة بكتّاب آخرين من أمثال المستشرق يوجين بيرنوف الذي نشر كتابا تناول فيه تاريخ البوذية الهندية عام 1844، وتلميذه ماكس مولر الذي

اعتُبر لاحقًا عراب الدراسات الدينية[149]. بالفعل، فقد أصبح مولر أول أستاذ كرسي/ بروفيسور مقارنة الأديان في أكسفورد عام 1868، وكتب على نحو مكثف في الفلسفة الهندية وديانة الفيدا.

استمر ستراخوف يمثل منصة تلقى فيها أفكار تولستوي صدى دائما، لكنه لم يكن في ظمأ شديد للإيمان بالطريقة التي أرادها صاحبه. لذلك لم يصاحبه في الشوط الثاني من رحلته الروحية. وقد نوه الشيخ أمبروسي، أثناء زيارة الرّجلين له، إلى ضعف إيمان ستراخوف كونه ضعفًا راسخًا بعمق في روحه. فالإيمان من وجهة نظر ستراخوف «مجرد شعر». ولكن رغم ذلك، أُعجب ستراخوف بأسلوب الحياة الرهبانية ودفعه ذلك إلى زيارة جبل أثوس عام 1881. أما تولستوي فقد قوبلت حماسته الدينية الجديدة بشيء من الذهول، لا سيما من قِبل صونيا، التي كانت العقيدة الأرثوذكسية بالنسبة لها جزءا لا يتجزأ من حياتها لكن بطريقة خفية غير معلنة. وقد شعرت بالغبطة لأن زوجها «قد هدَّأت جرعة الإيمان تلك من روعه»، لا سيما بعد تقلبات مزاجه العنيفة في السنوات الماضية (وخصوصا فترة الاكتئاب الذي عانى منه). ولذلك شعرت بسعادة غامرة لأن شخصيته بدا أنها تغيرت إلى الأفضل. وفي مذكراتها، كانت متفائلة لوصول تولستوي، إلى حد ما، إلى نهاية رحلته الروحية:

«رغم أنه كان ولا يزال متواضعا وغير متطلب في جميع عاداته، لكنه غدا الآن أكثر تواضعا ورفقا ووداعة وصبرا. وقد تُوِّج هذا الصراع الأبدي نحو المثالية الأخلاقية الذي بدأه في شبابه، تُوِّج بالنجاح التام».

لكنها لاحقا ربما نكصت فزعا من سذاجتها؛ لأن تولستوي رغم أن كفاحه الديني أتى يقينا ببعض السلام والتناغم إلى ياسنايا بوليانا، إلا أنه انتحل منذ ذلك الحين منتحلا خاصا به، وسلك طريقه بمفرده بعيدا عن بقية أفراد الأسرة الذين لم يشعروا بميل لتناول المسيحية والتديّن على محمل الجد.

(149) Religionswissenschaft.

في تلك الفترة استقى تولستوي إلهامه الأعظم من مصدر غير متوقع. ذلك أن فاسيلي ألكسييف، الرجل النحيل ذا الهامة الفارعة واللحية الحمراء الناعمة والعينين الزرقاوين البراقتين، كان قد عُين مدرساً للأولاد الكبار، وكان له نفوذ طاغ مدهش على تطور فلسفة تولستوي الدينية خلال السنوات القليلة القادمة. وقد كان يُعتبر من وجوه عديدة إرهاصاً لاكتمال فكر تولستوي وطليعة من طلائع اكتمال مفاهيمه وفلسفته. وقد وصل إلى ياسنايا بوليانا في أكتوبر من عام 1877، بعد أن أوصت به القابلة القانونية ماريا أبراموفيتش (وكانت صونيا حينها حاملاً في شهرها السابع بأندريه، طفلها التاسع)، ومكث مع آل تولستوي لأربع سنين. وبما أنه كان ذا سوابق سياسية راديكالية، فمن غير المدهش أن تطلب منه صونيا في نهاية المطاف أن يغادر ياسنايا بوليانا، بل العجيب أنه بقي فيها لفترة طويلة. كان ألكسييف اشتراكيا وملحدا لكنه كان نموذجا مسيحيا مميزا في سلوكه الشخصي. وقد وفَّرَ لتولستوي دعما معنويا كان في أمسِّ الحاجة إليه في تلك الفترة الحرجة من حياته. وقد دافع تولستوي عنه دفاعا مستميتا متى حاول صديقه الورع سيرغيه يوروسوف التهجم عليه ووصفه بـ «العدمي» و «ابن الشيطان». فكان تولستوي يطمئن يوروسوف قائلا: «ألكسييف أحد الناس القلائل الذين ليسوا طيبين فحسب بل لطفاء وخيِّرين ولديهم مشاعر دينية». وقد أكد له في مناسبات أخرى رقَّته وتفانيه في خدمة الآخرين.

كان فاسيلي ألكسييف ابنا لضابط متقاعد من الإقطاعيين ذوي الأراضي القليلة الذين تزوجوا بإحدى خادماته التي كانت تتعرض لتعنيفه بالضرب. وقد ترعرع ألكسي في بسكوف، المقاطعة النائية في غرب البلاد، التي تبعد عن موسكو مئات الأميال. وكان أحد ثمانية أولاد وبنات، وقد نبغ أكاديميا في سن مبكرة وفاز بمقعد ليدرُسَ الرياضيات في جامعة سانت بطرسبورغ حيث أصبح منهمكا في السياسة وانخرط في التيار اليساري. وقد حصل ذلك في ذروة الحركة الشعبوية في بداية عقد السبعينيات. وتعرف حينها على الثائر نيكولاي تشايكوفسكي زعيم حلقة انخرطت في نشر بروباغندا وأفكار اشتراكية في صفوف الفلاحين.

وقد عرّفه تشايكوفسكي بألكسندر مليكوف الذي كان متدنيا مثاليا حالما أكثر من كونه ثائرا متمردا، وكان ينحدر من طبقة الفلاحين. وقد أمضى وقتا في السجن وفي المنفى بسبب معتقداته السياسية، وتحول بعدها إلى تبني خط مغاير يتلخص في مبدأ صوفي أسسه واسماه أنسنة/ إنسانية الإله، يجمع بين النظرية الاشتراكية والأخلاق المسيحية. وقد انبهر ألكسييف بقدرات مليكوف الخطابية الحماسية المتقدة وأصبح أحد أتباعه. إلا أن الحكومة الروسية نظرت بعين الريبة لمحاولات نشر تعاليم ذلك المذهب، إنسانية الله، واعتبرته حربا دعائية ثورية؛ مما أدى إلى اعتقال ألكسييف لفترة قصيرة ومن ثم إطلاق سراحه بسبب شحِّ الأدلة التي تجرِّمه. أما والده فقد تبرأ منه بعد تلك الواقعة.

وقد اعترف كل من مليكوف وألكسييف بأن تحويل أفكارهم إلى واقع في روسيا سيكون ضربا من المستحيل، إذ يُنظَر إليهما كشخصين مناوئين للسلطة. ولهذا قررا مع عشرة آخرين الهجرة إلى أمريكا عام 1875 على أمل أن يحققوا أحلامهم في مزاولة حياة أخلاقية صافية في بلد الأحرار. وكان تشايكوفسكي قد سبقهم إلى هناك بعد فراره من روسيا تجنبا لاعتقاله، وكذا أيضا مناصر الفلسفة الوضعية فلاديمير جينز الثائر الساخط الذي عمّد نفسه باسم ويليام فراي[150]. قررت المجموعة الاستقرار في وسط غرب البلاد. وكان حينها قد تم الاستحواذ على الجزء الجنوبي من كنساس من أيادي السكان الأصليين منذ خمس سنوات فقط، وكانت تلك الأراضي أرخص من تمر البصرة. ومن خلال جمع مواردهم استطاعت المجموعة شراء 160 هكتارا من الأراضي في سيدار فيل بالقرب من ويتشيتا، لقاء مبلغ إجمالي هو 25 دولارا أمريكيا. وحاول الروّاد الروس الشباب من بعد اكتظاظهم في غرفتين في المنزل الريفي في مزرعتهم الجديدة تأسيس كوميون[151] زراعي طوباوي. ورغم أنهم أضافوا رؤوس ماشية للبقرة والحصانين الموجودين أصلا على تلك الأرض وزرعوا الحنطة والذرة، إلا أنهم

(150) وهو اللقب السلافي الأقرب إلى الكلمة الإنجليزية free.

(151) مجمع اشتراكي.

واجهوا مشاكل ملحّة. فلم يكن من بينهم من يعرف كيف تُحلَب البقرة على سبيل المثال. وقد بدأ ذلك المجتمع بنوايا صادقة ومُثُلٍ نبيلة تقشفية زاهدة. فقد تخلوا عن الكحول واللحم والقهوة والسكر، لكن الدوغمائي المتعصب فراي حظر الخبز أيضا محاججاً بالقول بأن الطعام المسموح به هو ذاك الذي في حالته «الطبيعية» فقط. وقد منع الأدوية أيضا. لكن ما أفشل التجربة في نهاية المطاف هو اللقاءات الأسبوعية لـ«النقد المتبادل» و«الاعتراف العلني» التي فاقمت العديد من التوترات الشخصية والمشاحنات التي طفت على السطح. كانت التجربة كارثية فاستمر الكوميون المثالي زهاء سنتين فقط.

وفي نهاية مايو من عام 1877 عاد ألكسي إلى روسيا بصحبة زوجة مليكوف الفلاحة إليزافيتا وطفليها اللذين كان أحدهما من صلبه. فقد تلهفا شوقا للبلاد وهما يعيشان في السهول الأمريكية، وعبروا الحدود في يوم الأحد المتزامن مع عيد الثالوث الأقدس (ترويتسا) فرأوا الناس من خلال نافذة القطار يرقصون في الحقول. ففي الفترة التي سبقت الثورات كان الروس يحتفون بهذا العيد كونه اليوم الذي هبط فيه الروح القدس، وليس أرسل فقط وغطى الطبيعة بأسرها. وكان يُعرَف أيضا بـ«موسم الميلاد الأخضر» وفقا للتقاليد الوثنية التي صاحبت معظم الأيام المقدسة مسيحيا. وقد كان عيدا تتجلى فيه أيام الفرح والخصب حيث يزهر كل شيء. وكان أيضا تاريخا يرتبط بالشباب أكثر من أي شيء آخر. لذا شعر ألكسي بالألم في ذلك اليوم، يوم عودته إلى روسيا، وهو في التاسعة والعشرين ويصغر رب عمله المستقبلي، الكونت تولستوي، بأربع سنين. وقد احتفل بعيد الثالوث المقدس في ياسنايا بوليانا كما احتفل فيه في كل مكان آخر؛ إذ يذهب أولاد تولستوي عادة إلى الكنيسة في يوم الأحد يحملون باقات الزهور الأروع ومن ثم يشاركون في الرقصات. وتزرع صونيا الزهور وتسأل الفلاحات القرويات من طيور الوقواق عن عدد السنوات التي تفصلهن عن الزواج، ويعرفن الجواب من عدد الصيحات التي يطلقها الطائر. تُزيَّن المنازل وشوارع القرى بالخضار وتوضع باقات القرنفل خلف الأيقونات، وتكتسح زهور العتاق والفوانيا أو عود الصليب وعباد الشمس والبنفسج

والليلك حوافَّ الشبابيك. وهكذا كان لا بد لتولستوي في صباح أحد أيام مايو من سنة 1877 أن يصادف، وهو في طريقه للتعبد في الكنيسة، شتلات البتولا والعشب المجزوز الطازج والزعتر المعطر يتناثر على أرضية الكنيسة. وكان لا بد له، مع المصلين الآخرين، أن يحمل غصنا من شجيرات البتولا أو زهورا خلال القداس كرموز على نزول الروح المقدسة على الأرض وتجديدها للحياة. وبخلاف الرقصات والأغاني التقليدية بعد القداس في ذلك اليوم، كانت الفتيات القرويات في ياسنايا بوليانا يصنعن أكاليل يلقون بها في البرك والبحيرات على أمل أن تطفو؛ في إشارة للحياة الطويلة.

بالنظر إلى قناعاته الأخلاقية وتجاربه السابقة كان ألكسييف، وعلى نحو مفهوم، مترددا في البداية في أن يصبح معلما لأولاد تولستوي. ورغم أنه كان معوزا بائسا يحتاج إلى عمل، لكنه نفر من فكرة العيش في منزل الكونت حيث يُقدّم الوجبات خدم يلبسون قفازات بيضا. وعندما سمع تولستوي عن تلك الأسباب التي جعلت ألكسييف يتردد في قبول العمل زاد اهتمام تولستوي به وأقنعه بأن يأتي للزيارة فقط. وهكذا تبددت مخاوف ألكسييف بمجرد أن انطلق في جولة سيرا على الأقدام بصحبة تولستوي؛ الذي أخذ يطرح عليه الأسئلة المتتالية عن وجهة نظره في الحياة. وكان تولستوي مستمعا ممتازا. وهكذا اطمأن له ألكسييف وما لبث أن أفرغ كل ما في جعبته. وقد نفض عنه كل القيود وشعر بارتياح عجيب وهو يتحدث إلى الكونت، لدرجة أنه انتقل ليروّج لأفكاره الدعائية، كما أظهر لتولستوي يديه القاسيتين من جراء العمل اليدوي الذي قام به في أمريكا، إذ كان يتخيل أنه يتحدث إلى كاتب من الطبقة المخملية لم يمسك معولا أو أداة طيلة حياته. ولكن تولستوي فاجأ رفيقه عندما اعترف له بأن هاتين اليدين تستحقان راتبا يفوق بمراحل راتب أي موظف حكومي، كما انفتح تولستوي على ألكسييف وشاطره أفكاره ومثله، وقال إنه يشعر بالأسى واليأس بسبب عدم قدرته على إيجاد أجوبة عن بعض الأسئلة التي تقض مضجعه، لدرجة أنه أشار له إلى الغصن في الحديقة الذي فكر في التدلي منه وشنق نفسه ليهرب من محنته. استمر تولستوي في الحديث إلى ألكسييف في مكتبه

بقية ذلك اليوم، وبحلول المساء وافق ألكسييف على قبول الوظيفة، كما قبل مقترح تولستوي بأن يستأجر بيتا صيفيا خارج أبواب ياسنايا بوليانا ليؤوي فيه أسرته. وسرعان ما أصبح ألكسييف يتردد كل يوم في الثامنة صباحا على منزل تولستوي لتناول القهوة مع الأولاد، قبل أن يشرع في دروس اللغة الروسية والرياضيات مع سيرغيه وتانيا وإيليا. وخلال سنة شعر بارتياح بالغ في كنف آل تولستوي، وشعر أن ياسنايا بوليانا هي منزله، إذ انتقل مع أسرته إلى جناح الضيوف الذي كانت تمكث فيه شقيقة صونيا مع أولادها خلال شهور الصيف. أما حقيقة أنه في واقع الأمر لم يكن متزوجا بإليزافيتا فقد تم التكتم عليه (رغم أن صونيا لم تكن لتوافق على ذلك).

كان ألكسييف معلما موهوبا ومحبوبا لا سيما من قبل سيرغيه ذي الرابعة عشرة من العمر حينها، إذ أصبح متعلقا به كثيرا. كان سيرغيه يتمتع بموهبة فريدة في تعلم الموسيقى تفوق موهبة أشقائه. ويذكر ألكسييف في مذكراته كيف عزف سيرغيه مقدمة موسيقية لشوبان[152] خصيصا لمعلمه. أما إيليا، ذو الحادية عشرة، فلم يكن يهتم سوى بالكلاب والصيد على ما يبدو، كما كان يُسرُّ حينما يأخذ الكمنجة إلى الخارج ليعزف ألحانا حزينة ويجذب بذلك كلاب المنطقة لتتجمع من حوله، وتبدأ العواء بصوت واحد.

لكن وفي مناسبة ما قام إيليا أيضا ببراعة فائقة بعزف بعض مقطوعات شوبان في الفترة التي خدم فيها ألكسييف مدرساً. وكان تولستوي متيما بشوبان، وعندما سمع أحد مؤلفاته الموسيقية يُعزف بإيقاع مجنون وبسلسلة من الأخطاء حفزه ذلك على الخروج من مكتبه، وأن يطل برأسه من وراء الباب ليرى ما يجري ويكتشف بأن إيليا كان يعزف لبعض الحضور. فديناميات إيليا الصارخة وقدمه التي كان يدوس بها بقوة على الدواسة كانت تصب في مصلحة بروخور، نجار العائلة، الذي كان في غرفة الصالون يضع ألواح زجاج إضافية ويصقلها استعدادا

)152(flat Major Prelude.

للشتاء. وقد عكف آل تولستوي على استخدام عبارة «من أجل بروخور» للدلالة على أي عمل يقوم به أي من أفراد الأسرة للتبجح وعرض المواهب.

كان تولستوي محبا لفاسيلي ألكسييف، والسبب في ذلك أنهما كانا يشاطران دوافع الإحسان والعمل الخيري نفسها لغرض تحسين حياة الفلاحين. وقد لُخصت هذه الأولوية الروسية من قِبل مناصر الفلسفة الوضعية الإنجليزي إدوارد سبنسر بيزلي عندما أدلى برأيه في سمات شخصية شريك ألكسييف السابق، ويليام فراي، بعد موته عام 1881:

«كان ينبض بالحماسة الاستثنائية التي دفعت العديد من الروس الأثرياء ذوي الحسب والنسب إلى التخلي عن جميع امتيازاتهم والانضمام إلى صفوف أولئك الأكثر فقرا وتواضعا وبؤسا. لا أدري أين يمكننا أن نجد شيئا شبيها بهذا، إلا اللهم في الروح التي دفعت أشخاصا من القرون الوسطى ليطلّقوا هذا العالم بما فيه، ويتبنوا قيم التواضع والحرمان المتمثلة في حياة الرهبنة والزهد. لكن أولئك لم يكن الدافع لديهم اجتماعيا، لكنْ كانت لديهم رغبة أنانية بالنجاة بأنفسهم. أما هؤلاء الروس فهم يصطلون بنار الرغبة الحارقة لتحسين مجتمعاتهم، فالهوة السحيقة التي تفصل بين الأثرياء والفقراء من وجهة نظر بعضهم تعتبر أمرا صادما؛ فهي أصلُ وفرعُ جميع الشرور في مجتمعهم. ولذلك، اتبعوا أسلوب حياة غاية في التواضع ليلوذوا بأنفسهم بعيدا عن هذه الوصمة. ولم يشعروا بالسعادة إلا عندما استطاعوا أن يطرحوا عنهم هذه الوصمة إلى الأبد. أما البعض الآخر فقد تبنى حياة الفقر وزاولَ الأعمال اليدوية لسبب مختلف بعض الشيء. فقد كانت لديهم رغبة في نشر تطلعاتهم الاجتماعية والسياسية في أوساط الجماهير من الفقراء من أبناء شعبهم، وشعروا أن ما يحول بينهم وبين القيام بتلك المهمة ينحصر في عوائق الرتب والامتيازات والثراء. وهكذا كانت حماستهم تتقد لنشر أفكارهم، وكان إيمانهم بمبادئهم يرسخ عميقا، ليتلخص في اعتبار الثراء والراحة والامتيازات المادية وكثير من الأمور الأخرى من سقط المتاع، شراً يجب أن يُضحّى به على مذبح الفقراء لكي يتقربوا من الناس ويلقوا آذانا صاغية في أوساطهم. وبصرف النظر عن رأينا في المبادئ

والأسباب التي دفعتهم لاتباع هذا السلوك، فإنه من المستحيل ألّا نرفع قبعاتنا إعجابا بإخلاصهم وحماستهم. فهم استطاعوا أن يقمعوا أقوى الدوافع الإنسانية وأكثرها التصاقا بالبشر بصرف النظر عن انتصاراتهم وإخفاقاتهم».

استقر فراي في إنجلترا بعد مغامرته في أمريكا، لكنه استطاع أن يزور ياسنايا بوليانا خلال زيارته المقتضبة إلى روسيا قبل وفاته غير المتوقعة. وقد خلَّف وقعا عميقا على تولستوي أثناء زيارته.

كان ألكسييف على قناعة بأن تولستوي سوف يطرده من العمل عندما يعلم بأنه اشتراكي، لكن تولستوي لم يكن منزعجا من ذلك البتة. أما المسيحية فقد شكلت نقطة الخلاف الوحيدة بين الرجلين في أحاديثهما الطويلة والصريحة. فقد كان تولستوي في تلك الفترة، عام 1878، لا يزال عضوا كاملا فاعلا في الكنيسة الأرثوذكسية ولم يكن ألكسييف يفهم ذلك؛ ففي الفقرة التي تقتبس كثيرا في مذكراته، يصف ألكسييف تولستوي وهو يشير إلى أنماط متجمدة طُبِعَت على زجاج النافذة بتأثير من أشعة الشمس البازغة في صباح يوم شتوي بارد، ويقارنها بإيمان العامة من الناس (إيمان العجائز). فهؤلاء العامة يرون تلك الأنماط كما هي، أما تولستوي فيريد أن ينظر إلى ما يتعدى تلك الأنماط نحو مصدر النور نفسه. لكن إيمان تولستوي كان مرتبطا على نحو وثيق بإيمان العامة الديني، وقد لاحظ ألكسييف بأنه كان يتردد على الكنيسة لا ليقيم الصلاة ويؤدي الطقوس مع الفلاحين فحسب، بل ليمحص ويدرس ما يؤمن به الفلاحون بالتحديد لأن إيمانهم قوي راسخ. أراد تولستوي أيضا أن يتعلم كيف يجعل من نفسه أكثر شفافية وفهما في تعبيره عن معتقداته الدينية، وقد أصبح صبره ينفد مع الأيام بسبب انفصام رجال الدين عن الواقع، وابتعاد الكنيسة عن واقع الناس وغياب الشفافية فيها وعدم انفتاحها على الناس العاديين. فتولستوي نفسه لم يكن بالكاد يفهم الكنيسة ورجالاتها ناهيك عن فهم رسالتها من قبل الفلاحين. وقد أخبر تولستوي صديقه ألكسييف كيف أنه سمع الرجال في الكنيسة يتحدثون عن مسائل زراعية، وتتحدث النساء فيما بينهن عن آخر أخبار البلدة،

وتستشري النميمة في أكثر لحظات القدّاس وقارا وكأن القداس لا يعنيهم البتة. وكان تولستوي يقف هناك ويسمع صوت ارتطام أصابع الفلاحين على جلود الأغنام التي يرتدونها، وهم يرسمون إشارة الصليب على صدورهم من دون أن يفقهوا حرفا واحدا من اللغة العالية التي يتحدث بها القسيس. وقد انزعج لأن الكنيسة لا تحرك ساكنا ولا تبذل أي جهد لتلبية حاجات الفلاحين الروحية، وبدأ يفهم الآن السبب الذي يدفع الكثير منهم للالتحاق بالطوائف الدينية التي قامت على الأقل بشرح تعاليم المسيح لهم بلغة مبسطة.

كان تولستوي يستيقظ كل يوم في الثامنة صباحا ويهرع أولاده إليه عادة ليحيّوه بينما يكون متوجها إلى الطابق السفلي ليبدّل ملابسه. وفي بعض الأحيان كان يقوم ببعض الحركات الرياضية على العامودين الموازيين في الردهة، قبل أن يعود مجددا إلى الطابق العلوي لتناول القهوة في الصالون الصغير بمحاذاة غرفة الطعام الرئيسية للعائلة. وفي هذا التوقيت كان الحديث بين تولستوي وألكسييف يبدأ عادة، فتصيخ صونيا السمع أحيانا فينتابها ذعر حيال ما يقوله زوجها بينما تبدّل ملابسها في الغرفة المجاورة. وبما أن صونيا كانت قد اكتسبت عادة السهر وهي تنسخ أعمال زوجها حتى فترة متأخرة من الليل، فإنها بالتالي كانت تستيقظ متأخرة عند الضحى، وبما أن غرفة النوم كانت ملاصقة لغرفة الاستقبال فقد كانت تسمع رغما عنها المحادثات المستمرة بين الرجلين عن الدين والأخلاق. وكانت تتوق لسماع تولستوي يتحدث عن الأدب مجددا؛ لأن الكتابة عن الدِّين لن تدرّ عليها أرباحا كما تفعل الكتابات الأدبية حتى لو كان الكاتب مشهورا كتولستوي. كالت صونيا المديح في مذكراتها لألكسييف كمعلم، وأعلنت بسعادة أن الفضل في اكتساب تانيا ابنتها هذا العلم يعود لألكسييف دونَ أي مدرس آخر. فقد تذكرت حبه للعمل الدؤوب وطيبة قلبه وبساطة طبعه، لكن مع مرور الوقت سينقلب ألكسييف في نظرها إلى كيان يهدد استقرار الأسرة المادي والوجداني.

كان تولستوي يعود في الحادية عشرة من كل صباح إلى الطابق السفلي وفي يده كوب من الشاي متوجها إلى مكتبه للعمل، ويلتقط في بعض الأحيان أول ورقة يجدها في طريقه حتى لو

كانت ظرفا قديما للرسائل، وهو يفكر في تدوين أي فكرة تجول في خاطره بأسرع وقت ممكن. ولا يخرج من المكتب قبل الرابعة مساء، الوقت الذي يخرج فيه ليركب الخيل أو يتمشى ويكسر أحيانا ساق نبتة البازيلاء الحلوة من على جوانب المنزل، ويشتم أريجها المحبب لديه وهو يتمشى. وفي فترة ما كان يصطحب معه ألكسييف أثناء القيام بطقوسه اليومية، لكن الأخير لم يستطع مجاراته رغم أن تولستوي، كما اعترف لصديقه الشاب لاحقا، كان يريده بجانبه لأنه كان منجذبا على نحو جامح لامرأة شابة طويلة القامة تدعى دومنا وكانت تعمل في مطبخ الخدم. وكان زوجها يخدم في الجيش، وكان تولستوي يطاردها خلسة ويصفر لها بلطف ليسترعي انتباهها. وأخيرا نال منها حديثا ودبر موعدا على الطريق المُظلَّل تحت شجيرات البندق في المكان الأبعد من الحديقة. واعترف تولستوي أنه عزم الذهاب إليها وخرج من المنزل، لكن نداء إيليا من خلال النافذة أرغمه على العودة إذ ذكَّره بدرس اللغة اليونانية. وبعد تثبته من ضرورة الرضوخ للأمر الواقع وعدم التهور في الدفع بتلك العلاقة، كان تولستوي يصرّ على مرافقة ألكسييف له في رياضات المشي اليومية للحيلولة دون الوقوع في الفاحشة. وقد ساعدته تلك الخطة المدبّرة على «إزالة» دومنا من حقل رؤيته. وقد اكتشف أن الصلاة لا تساعد كثيرا في دفع الشهوات، لكنه تاب توبة نصوحا بلا شك. وقد دوَّن ذلك الحادث في قصة مشهورة له كتبها عام 1889 بعنوان «الشيطان»، واعتمد في كتابتها أيضا على مغامراته مع «زوجته»[153] الفلاحة أكسينيا. وقام تولستوي بوضع المخطوط في مسند ظهر المتكأ ليخفيه عن صونيا، ولم يتم نشر القصة إلا بعد سنة من وفاته.

وصل معلم فرنسي جديد إلى ياسنايا بوليانا بعد بضعة أشهر من قدوم ألكسييف في يناير عام 1878. وخلف هويته المزورة باسم «موسيو نيف» كان يربض شاب عسكري فوضوي اسمه فيكومت جويل مونتيل؛ الذي خدم عقيدا في الفيلق الاتحادي الثاني عشر في كوميون باريس عام

(153) المقصود هنا «المرأة التي أقام معها علاقة حميمة» قبل زواجه بصونيا.

1871. وبعد إزاحة الرابطة الدولية للعمال[154] عن السلطة التي أمسكت بها لشهرين، فرّ مونتيل إلى جنيف حيث أصبح عضوا نشطا في مجموعة المنفى الفرنسية التابعة لها. وانتمى على وجه التحديد إلى «قسم العمل الثوري الاشتراكي والدعائي». وفي عام 1877، وبعد ست سنوات من الحكم عليه بالإعدام، وجد نفسه في موسكو يستقل قطارا إلى ياسنايا بوليانا باسم مستعار هو «مسيو نيف». وقد أُوصي به من قبل زوجة القس الروسي في جنيف. كانت صونيا إذن محقة لاحقا عندما صاحت محتجة لزوجها فقالت: «أتيت لي باثنين من العدميين». عندها بدأت ياسنايا بوليانا بالتحول إلى مركز للسياسة اليسارية الراديكالية.

وقد اكتشفت العائلة سرّ المدرس الفرنسي وقصته الكاملة بعد أن غادر وظيفته في أواخر عام 1879. وصدر عفو عام 1880 بحق المنتمين إلى كوميون باريس، وعاد فيكومت جويل مونتيل الأنيق ذو الشارب الوسيم إلى فرنسا بصحبة المربية الفرنسية-السويسرية لوسي جاتشيه التي كانت تعمل لدى آل تولستوي. وتزوجا بعدها وانتقلا إلى تونس حيث أصبح مونتيل محررا لصحيفة تونس. أما الآنسة جاتشيه فقد قَدِمَت إلى ياسنايا بوليانا لتعمل مدرسة لغة فرنسية لتانيا وماشا في سبتمبر عام 1876، في الفترة نفسها تقريبا التي وصلت فيها آخر المربيات الإنجليزيات آني فيليبس، وقد راودها بعزيمة في البداية مدرس اللغة الروسية لدى الأسرة فلاديمير روجديستفينسكي. كانت أسرة تولستوي من أوائل الأسر الروسية التي حصلت على مجموعة لعبة الكروكيه الإنجليزية عندما أصبحت متاحة في موسكو في السبعينيات، وأصبح أفراد الأسرة لاعبين مدمنين على هذه اللعبة في أمسيات الصيف الدافئة عندما تهبُّ النسائم اللطيفة. وكان روجديستفينسكي في أوج سعادته عندما كان يضرب كرته بكرة الآنسة جاتشيه، فيصوّبها باتجاه البركة ويخبرها بأنه يرسلها إلى الضفادع. وشأنه شأن جويل ري كان يعاني من معاقرة الخمر، وما لبث أن صُرف من وظيفته واستُغني عن خدماته. وقد راق ذلك بلا شك للآنسة جاتشيه. أما سيرغيه الابن، فقد كان متعاطفا مع المدرسين الشباب في مذكراته لاحقا،

(154) الرابطة الدولية الأولى من نوعها.

فقد أخبرنا بأنهم كانوا دائما رهن الإشارة، وكانوا يحتلون موقعا صعبا يتراوح بين الخدم ورب العمل، وكانوا دائما ما يشعرون بالسأم. وبالتالي، كانوا يميلون إلى الافتتان بمربيات الأسرة الشابات الحسناوات في الأوقات التي يتوقفون فيها عن الصراع فيما بينهم كأساتذة.

بعد أن رتب تولستوي موضوع المعلمين في بداية عام 1878، أصبح يتوق إلى العودة لكتابة الرواية. ولم تحل آراؤه الدينية حينها بينه وبين خططه؛ فبعد عشرين سنة من إتمام الحرب والسلام أصبح يتوق مجددا لكتابة رواية تاريخية أخرى، وكان في تلك الفترة لا يزال مهووسا بانتفاضة الديسمبريين. ففي عقد الستينيات، وجد تولستوي نفسه يعود بالزمن من انتفاضة عام 1825 إلى عام 1812 وحرب نابليون، وأخيرا إلى أحداث عام 1805، قبل أن يستقر له رأي بأنه في الفترة الزمنية الصحيحة ليبدأ الحرب والسلام. لكنه في تلك الرواية لم يتعدَّ عام 1812 ليصف الأحداث التي أعقبته. لذلك لم يتقفَّ مسار بيير بيزوخوف وتحوله إلى الديسمبريين، ولم يكتب عن تلك الانتفاضة مطلقا. أما الآن، في أواخر السبعينيات، فقد بدأ بالانجذاب نحو الأحداث التي صاحبت تولّي نيكولاي الأول العرش والحرب الروسية التركية عام 1829. وفي الوقت نفسه، كان أيضا مهتما بكتابة رواية عن الفلاحين الروس المستوطنين الذين استعمروا أراضيَ جديدة، كتلك المناطق شرقي الفولغا بالقرب من سمارا وأرينبرغ التي كان على معرفة شخصية بها. وقد كان متحمسا لفكرة الجمع بين الموضوعين بطريقة أو بأخرى. وهكذا بدأ في عام 1878 بنشاط متقد في جمع مواد تاريخية مهولة وشهادات شفهية كثيرة لكي يحيي تلك الفترة في مخيلته. وفي فبراير من العام نفسه انطلق إلى موسكو في رحلة عصف ذهني وجمع معلومات من خلال عقد اللقاء الأول من ضمن لقاءات متعددة أجراها مع عدد من الديسمبريين وأولادهم. وبدأ أيضا بدفع أصدقائه في المكتبات والأرشيف ليرسلوا له موادَّ. وقد عنى ذلك تجدد تواصله مع بيوتر بارتيينف، محرر مجلة الأرشيف الروسي، والاعتماد، كالعادة، على صديقه ستراخوف. كما بدأ إرسال رسائل متعددة إلى أقربائه ومعارفه الذين يعملون في وظائف رفيعة (كألكسندرين وعم صونيا ألكسندر بيرز) يطلب منهم فيها مساعدته

في إرسال مصادر أولية عن موضوع اهتمامه. كما أجرى لقاءات أخرى مع الديسمبريين في موسكو في شهر مارس، قبل أن يسافر إلى سانت بطرسبورغ ليتابع بحثه، ويبرم أيضا صفقة لعقار جديد، مما مكنه من توسيع مزرعته في سمارا بواقع 10 آلاف هكتار.

كان تولستوي قد غاب عن العاصمة لسبعة عشر عاما، ولم ترق له عام 1878 كما لم ترق له في الماضي عام 1861. وكانت ألكسندرين قد عرضت على تولستوي مسكنا مع أخيها في شارع موخوفايا، لكنه قرر أن يمكث مع صديقته القديمة وحماته العزيزة ليوبوف بيرز في شقتها على شارع يرتييلوف الواقع في قلب المدينة أيضا. وصل إلى سانت بطرسبورغ في السادس من مارس، ولم يكمل الأسبوع هناك فقفل راجعا إلى مسقط رأسه، مما خلَّفَ استياء في أوساط الكثير من معارفه الذين كانوا على أمل رؤيته، كالرسام كرامسكوي مثلا. لكن تولستوي قام بالكثير خلال الأيام الأربعة التي قضاها في العاصمة. فقد قام بزيارة مخيفة إلى قلعة القديسين بطرس وبولس، حيث كشف له مأمور السجن هناك عن الأصفاد الحديدية التي صُفِّد بها الديسمبريون إبان فترة اعتقالهم، بينما لم يستطع أن يرى الزنازين التي سُجنوا فيها عام 1825؛ إذ كانت محظورة على جميع الزوار بخلاف القيصر ومفوض الشرطة. وعندما ركب تولستوي العربة ومرّ بالقرب من تمثال نيكولاي الأول الفارس الذي يعتلي فيه صهوة حصان، والذي نصب في ميدان القديس إسحاق، أدرك أن مقته لهذا الرجل، الذي يعتبره المدمر الرئيسي للجانب الخيِّر من الأرستقراطية الروسية، قد ازداد بالفعل. أما الزيارة الأجمل والأكثر متعة فقد قام بها تولستوي للمكتبة الإمبراطورية العامة، حيث التقى بصديقه ستراخوف الذي رتَّبَ له لقاء مع الناقد العلامة فلاديمير ستاسوف، الذي كان من بين سجناء قلعة القديسين بطرس وبولس عام 1849 بسبب انخراطه في صفوف حلقة بتراشيفسكي. لم يكن تولستوي مهتما بستاسوف الثوري المدافع عن الفن الوطني الروسي بلا هوادة، وأحيانا بإزعاج، بل كان مهتما بستاسوف المكتبي الذي عُيِّن في الأصل ليبحث في حقبة حكم نيكولاي الأول. وبالتالي، فهو

بالنسبة لتولستوي درة ثمينة يستطيع مساعدته في كشف النقاب عن بعض المصادر التاريخية الثمينة.

ثمة حدث مهم آخر اختبره تولستوي أثناء وجوده في العاصمة، وهو حضوره لإحدى المحاضرات العامة التي تناولت موضوع «الإنسانية الإلهية المقدسة»، وقدمها فيلسوف ديني شاب ذو شَعر انسيابي مسترسل يدعى فلاديمير سولوفيوف (وهو ابن المؤرخ المشهور سيرغيه ميخايلوفتش). كان الحدث بارزا، ليس لأن تولستوي وجد المحاضرة لافتة (فقد نعت محتواها بالهراء الصبياني)، لكنْ لأنها كانت المناسبة الوحيدة التي كان تولستوي فيها قاب قوسين أو أدنى من عملاق الأدب الروسي الآخر دوستويفسكي. ورغم أن ستراخوف كان صديقا للكاتبين العظيمين، لكنه احترم رغبة تولستوي بأن لا يقدِّمه لأي شخص كان. وهكذا مر الرجلان بمحاذاة بعضهما بعضا كما تمر سفينتان في الليل الدامس، رغم أنهما لاحقا ندما على عدم انتهاز تلك الفرصة للتعرف على بعضهما بعضا. بعدها بفترة وصف تولستوي في رسائله هذه التجربة المروعة، فقد اضطر إلى الجلوس في قاعة خانقة حبلى بالبشر بمن فيهم سيدات من الطبقة الراقية يرتدين فساتين السهرات ويربضن على حواف النوافذ. وبما أن تولستوي كان من أولئك الذين يفعلون كل ما بوسعهم لتجنب أن يكونوا جزءا من الحشود ويبتعدوا عن اكتظاظ الناس، وأولئك الذين كانوا يمقتون الارتباط بالمجتمع المخملي أو الموضة والأزياء وغيرها، فقد شعر بالدم يتدفق في عروق رأسه حنقا وغضبا بينما كان ينتظر مع الجمهور الدخول البهي المتكلف المتصنع للفيلسوف الهزيل الضامر الشاب، ذي الرابعة والعشرين، وهو يرتدي ربطة عنق حريرية بيضاء منتفخة. ولم يكن تولستوي بالطبع يمتلك من الصبر ما يكفي ليجلس ويستمع إلى فتى «برأس عظيمة تخفي كل شيء ما عدا العينين والشعر الطويل»، وهو ينفث أفكارا وادعاءات طنانة شبه عميقة. وهكذا، وبعد أن سمع تولستوي أول سلسلة من الاقتباسات والمراجع الألمانية على لسان شيروبيم وسيفاريم، نهض وخرج من القاعة تاركا وراءه ستراخوف يتابع استماعه لـ«هذيان شخص معتوه». أما بقية الوقت في

بطرسبورغ فقد استغله تولستوي في إتمام صفقة العقار ولقاء المؤرخين، بمن فيهم ميخائيل سيميفسكي، محرر المجلة المهمة «الآثار الروسية»، الذي وعده بإرسال مذكرات الديسمبريين غير المنشورة من أرشيف المجلة الثري إليه. وبخلاف ذلك، كان تولستوي يمضي الوقت مع الأقرباء، أشقاء صونيا، بيوتر وستيبان فياشيسلاف. وبالطبع أراد تولستوي أيضا أن يرى، أكثر من أي شخص آخر، ألكسندرين التي لم يرها منذ عام 1860. التقى القريبان وتحدثا مطولا في مناسبات متعددة عن الدين (على نحو مطمئن لها). وقد عبرت ألكسندرين في مذكراتها عن عظيم سعادتها لرؤية تولستوي بعد سنوات عديدة من الفراق. فقد كانت في البداية تخشى ذبول التأثر فيما بينهما بسبب حجم الأمور التي أرادت أن تثيرها معه. لكن تولستوي كان لطيفاً جدا معها هذه المرة أكثر من أي وقت آخر، وفي اليوم الذي غادر فيه بطرسبورغ علَّقَت في مذكراتها على مناقشاتهم الدينية قائلة:

«بعد سنوات عديدة من بحثه عن الحقيقة وصلت سفنه في النهاية إلى مرساها. ورغم أن هذا المرسى قد بناه بنفسه وبطريقته الخاصة، إلا أن المنارة التي اهتدى بها هي نفسها القريبة من ذلك المرسى الوحيد الذي وجد فيه راحته. ليف على وشك أن يبدأ عملا جديدا الآن، وأنا على يقين بأن اعترافه بإيمانه، أو فلنقل اعترافه بإيمانه الجديد سوف ينعكس بلا شك في عمله الجديد».

إحدى النتائج الإيجابية التي تمخضت عن توجهه المسيحي الجديد هو رغبته في إنقاذ روحه، كما قال. وقد عنى ذلك أن يتصالح مع العالم. لكنْ ثمة شخص واحد تعيّن على تولستوي أن يتصالح معه بالطبع ولم يكن ذلك سوى تورغينيف.

كان تولستوي قد وصل إلى بطرسبورغ إبان فترة الصوم الكبير، وهو الوقت التقليدي للتوبة والغفران. وقد كتب إلى تورغينيف في اليوم ما قبل الأخير من انتهاء الصوم الذي يمتد لأربعين يوما. وملأ صفحتين كاملتين بخط يده الأرستقراطي المستبد معتذرا لصديقه القديم ومقترحا أن يدفنوا خلافاتهم. وقد يكون من المغري جدا التفكير في أن السبب وراء تحول تولستوي نحو

المصالحة مرده جزئيا رحلته إلى بطرسبورغ التي لم يرها منذ عام 1861؛ ذلك أنه من المؤكد أن عودته إليها قد عادت به إلى فيض من الذكريات القديمة: ذكريات لقائه الأول بتورغينيف ومصادقته عام 1855، وذكريات شجاره معه بسبب الطريقة التي عامل بها شقيقته خلال زيارته لبطرسبورغ عام 1859، بالإضافة إلى شعور الغضب الذي انتابه تجاه تورغينيف عندما عاد مجددا إلى المدينة بصحبة شقيقته ماشا وأولادها فاريا وليزا ونيكولاي، فقد تعيَّن عليهم السير على الأقدام في المدينة معا لزيارة ميدان كاتدرائية القديس إسحاق والفارس البرونزي. ومن المرجح أن يكون تورغينيف قد قفز إلى رأس تولستوي مجددا بعد 17 عاما من الفراق، بينما مرّ الأخير من ميدان القديس إسحاق وهو في طريقه لزيارة ألكسندرين في شقتها في قصر المارينسكي. وبما أنه شارف على الخمسين من عمره الآن، وكانت طموحاته ونظرته المستقبلية مختلفة تماما عما كانت عليه في السابق، فقد أدرك ربما فجأة عبثية خصومته لتورغينيف. وقد تفاجأ وسُرّ تورغينيف لدى تسلمه رسالة تولستوي وهو في منزله في باريس، فأجابه على الفور برسالة امتدت على صفحة ونصف بخط يده الأنيق الخجول، وافق فيها بحماسة على ضرورة تجديد الصداقة بينهما، ووعد أن يزوره في رحلته القادمة إلى روسيا في ذلك الصيف.

وخلال الأسبوع المقدس من عام 1878، وبعد كتابة رسالته لتورغينيف، استعدَّ تولستوي للمشاركة في القداس. وقد كان في تلك الفترة يقرأ الأناجيل، وفرغ من قراءة «حياة يسوع» لرينان، وقرر أن يلتزم بكتابة مذكراته على نحو منتظم للمرة الأولى منذ 13 سنة. وبعد عيد الفصح قام بزيارة أخرى لموسكو ليجري مقابلات إضافية مع الديسمبريين ويتحدث إلى الناشرين بشأن النسخة الجديدة من كتاباته. لكنه أراد أيضا أن يحضر المناظرات السنوية التي بدأ تنظيمها منذ القرن السابع عشر، وكانت تعقد في فترة الفصح في الميدان الواقع أمام كاتدرائيات الكرملين، وتتناول مسائل عقدية لدى الكنيسة الأرثوذكسية وطائفة المؤمنون القدامى (السلف). لم يكن تولستوي في السابق مهتما بالطوائف المسيحية الروسية، لكنه غدا

الآن منجذبا نحوها أكثر من أي وقت مضى. ففي مارس طلب من ستراخوف أن يرسل له السيرة الذاتية لأشهر قساوستهم آفاكوم، و«مواد خام أصلية» أخرى عن طائفة المؤمنون القدامى (السلفيين). وهكذا بدأ تولستوي يثقف نفسه ويقرأ الكثير عن هذا التيار الباطني القوي في المجتمع الروسي. وقد وسع من حلقة اهتمامه حين أمضى ستة أسابيع في ذلك الصيف في سمارا وهو يتعالج بالكوميس؛ فقد ذهب للحديث مع أبناء طائفة «الحلابين»؛ وهي طائفة يعيش أبناؤها في تلك المناطق بين شعب البشكير والفلاحين الروس المستوطنين. وهم يعيشون على هوامش المجتمع وعلى هوامش الإمبراطورية لأسباب وجيهة.

للانشقاقات الدينية في روسيا تاريخ طويل تخللته أحداث كثيرة. وقد حاولت الحكومة اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة لقمع هذه الحركات المعارضة على مر العصور. وتُعتبَر الأرثوذكسية الديانة الرسمية في البلاد، وقد حاولت الدولة بذل جهود مضنية لضمان التزام العامة بهذه الديانة؛ لأنها اعتبرت الكنيسة أداة مفيدة في الحفاظ على السلم الأهلي وطاعة الرعية، في وجه احتمالية وجود تهديدات سياسية خطيرة تدعو إلى مناوئة الدولة. ولم يكن لدى السلطات الإكليروسية من خيار سوى الإذعان لسياسة الدولة لأنها كانت في الأصل خاضعة لها. فقد قام بطرس الأكبر عام 1721 بإلغاء بطريركية موسكو العتيدة وتعويضها بالسينودس المقدس/ المجمع الكنسي المقدس؛ وهو مؤسسة علمانية يرأسها شخص عادي غير متدين، لكي يعزز من أركان حكمه الأوتوقراطي. لكن هذا التقويض الفتاك للسلطة الأخلاقية للكنيسة، بالإضافة إلى تدفق المستوطنين الألمان البروتستانت أفضى إلى تعزيز مكانة وشيوع الطوائف الدينية. وقد قللت الدولة على نحو منهجي من أعدادها، لكن بحلول القرن التاسع عشر كان ثمة ملايين من الروس الذين أداروا ظهورهم للكنيسة الأرثوذكسية واضطُّهدوا وفي أفضل الأحوال تعرضوا للتمييز. وتقول التقديرات بأن ربع سكان الإمبراطورية الروسية كانوا ينتمون إلى طوائف دينية بحلول ثورة عام 1917.

أما الطائفة الأكبر من بين الطوائف الدينية المعارضة فقد كانت طائفة المؤمنين القدامى/ قدامى المؤمنين/ السلفيين، وهي مجموعة رفضت الالتزام بإصلاحات البطريرك نيكون التي أجراها على شعائر التعبد في الستينيات من القرن السابع عشر، وهذا ما أحدث شرخا قويا في الكنيسة نتجت عنه تبعات خطيرة بعيدة المدى. وبسبب سقوط القسطنطينية (ومعها الإمبراطورية البيزنطية بأسرها) في يد «هرطقة» الإسلام بعد غزوها من قِبل العثمانيين في القرن الخامس عشر، صمّم الآلاف من المؤمنين الأرثوذكس في أرض الروس القديمة على التشبث بالطقوس ومناسك العبادات وحرفية التراتيل التي دأبوا عليها منذ قرون، متجاهلين حقيقة أن تلك الطقوس والمناسك التعبدية قد ابتعدت تدريجيا عن الممارسات اليونانية القديمة مع مرور الزمن. ولم يُعتبَر ذلك إصلاحا للكنيسة الروسية الأرثوذكسية، بل على العكس؛ فالكثير منهم قاوموا التغيير (ربما نصف الشعب في تلك الفترة). وهكذا أصبح المتشبثون بطقوس ومناسك السلف، قدامى المؤمنين، يعرفون بالـ«ستارأوبريادتسي»[155]؛ أي المتشبثين بالطقوس القديمة، أو الـ«راسكولنيكي[156]»؛ أي المنشقين أو الخوارج. وقد مثلت هذه الطائفة الحلقة الأولى من حلقات الضعف الذي حلّ بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية التي جابهت المنتمين إلى تلك الطائفة بوحشية وقمع، مما دفع الكثير منهم إلى إضرام النار بأنفسهم عِوضا عن الاستسلام أو تحمل العذابات في المنفى في سيبيريا. وكان أحد زعمائهم، كبير القساوسة أفاكوم، الذي أُحرق على الخازوق في نهاية المطاف عام 1682 مخلفا وراءه سيرة ذاتية لافتة طلب تولستوي من ستراخوف أن يرسلها له عام 1878. أما حقيقة إخفاء هذه الوثيقة (وهي أول تحفة فنية أدبية روسية كُتبت باللغة المحكية الدارجة الحية) رسميا، وكُشف النقاب عنها فقط في عام 1861، فيدل دلالة عظيمة على أن السلطات كانت بلا شك تربط بين الانشقاق الديني والتمرد الشعبي. وقد كانت الإجراءات القمعية أكثر وحشية إبان فترة حكم القيصر

---

(155) Staroobryadtsy.

(156) Raskolniki.

نيكولاي الأول، مقارنة مع حقبة ألكسندر الثاني التي شهدت انفراجا على صعيد الحريات؛ إذ أصبح ممكنا ولأول مرة الكتابة عن الـ«الشرخ» (أتاح هذا التغيير في سياسة الدولة فرصة مميزة استغلها على أكمل وجه أشخاص كموسورجسكي الذي ألف عمله الأوبرالي الثاني «خوفانتشينا» الذي اختُتِم بانتحار المؤمنين القدامى).

كما عقَّب المفكر الديني والسياسي نيكولاي برديائف عام 1916: كان تعدد الطوائف في واقع الأمر «جزءا لا يتجزأ من الحياة الروحية للشعب الروسي». فبخلاف الأعداد الكبيرة من قدامى المؤمنين، كان ثمة مجموعات أخرى كثيرة تعود أصول نشأتها في بعض الحالات إلى ما قبل «الشرخ» أو «الفتنة الكبرى». إذ كان الكثير منها يمثل فروعا لطائفة الـ«خريستوفيري»[157] الصوفية (المؤمنون بالمسيح) أو الـ«خليستي[158]» كما أصبحوا يعرفون لاحقا، الذين يعتقدون أن زعيمهم الفلاح المؤسس كان هو نفسه تجسيداً للرب. بالإضافة إلى طوائف أخرى من بينها الـ «سكوبتسي»[159] (المخصيون طوعا) الذين ظهروا في القرن الثامن عشر، والـ«سكاكوني[160]» (القفازون)، الذين ظهروا في القرن التاسع عشر، والانفصاليون أو الخوارج الراديكاليون المتشددون الذين سعوا إلى قطع جميع الروابط بالمجتمع: كالـ«سترانيكي»[161] (السوّاح/ الجوالون)، والـ«بوستينيكي»[162] (النساك/ المتصومعون)، والـ«بيغوني»[163] (المهرولون). بالإضافة إلى عدد من الطوائف من «العقلانيين» و«شبه البروتستانتيين» الذين اهتم بهم تولستوي اهتماما خاصا. وقد انخرط بعمق لاحقا في أواخر حياته مع مجموعة تسمى

---

(157) Khristovery.

(158) Khlysty.

(159) Skoptsy.

(160) Skakuny.

(161) Stranniki.

(162) Pustynniki.

(163) Beguny.

الـ «دوخوبوري»، وهو مصطلح ازدرائي يعني «مكافحو الرّوح»، لكنه تحول لفائدتهم؛ فقد أصبحوا يعرفون بالـ «دوخوبورتسي»[164]؛ أي «المكافحون باسم الروح القدس». وكان تولستوي أيضا يُكنُّ احتراما بالغا للـ«مالاكاني»[165] أو (شاربو الحليب)، أو (المسيحيون الروحانيون) كما كانوا يسمون أنفسهم. وقد عاشت أعداد كبيرة منهم في سهول ما بعد سمارا.

مُنح المؤمنون القدامى وغيرهم من أبناء الطوائف الدينية الأخرى امتيازات محددة وفقا لمرسوم عام 1863، لكنها تحولت إلى حقوق مدنية كاملة بحلول عام 1905، فقد سُمح أخيرا لجميع المنشقين المتدينين بممارسة دياناتهم من دون خوف من الاضطهاد. وقد تشكلت معظم تلك الطوائف في معظمها من الفلاحين الذين كانوا يعيشون في أطراف الإمبراطورية؛ لأنهم إمّا رُحِّلوا قسرا على يد الحكومة لإبقائهم بعيدا عن السكان الآخرين الأرثوذكس خشية تفشي العدوى بينهم، وإمّا هَرَبوا بأنفسهم تجنبا للاضطهاد. وكان ثمة استثناء مهم تمثل في اليسوعيين الإنجيليين البروتستانت الذين كانوا ينتمون للطبقة الراقية في مجتمع سانت بطرسبورغ وموسكو، والذين تعرَّضوا لهجاء لاذع من تولستوي نفسه في نهاية روايته آنا كارينينا. لم يكن تولستوي الشخص الوحيد الذي أراد أن تكون تعاليم الكنيسة ورسائلها مبسطة مفهومة تؤدّى بلغة تسهل قراءتها. فقد كانت الكنيسة على مدى قرن ونصف جزءا من المؤسسة الرسمية الروسية الحاكمة، مما أدى إلى استياء وعدم اكتراث الطبقات المثقفة. وعندما سافر المبشر غرانفايل ولدغريف، بارون رادستوك الثالث، عام 1874 من لندن إلى سانت بطرسبورغ، رُحِّب به أجمل ترحيب من قِبل الأرستقراطية الروسية التي استقبلت رسالته عن الخلاص الفردي من خلال الدراسة المستقلة للإنجيل استقبالا إيجابيا. وقد تُرجم العهد الجديد لأول مرة من اللغة السلافية الكنسية إلى اللغة الروسية الحديثة عام 1823، لكن الكنيسة الأرثوذكسية حظرت تداوله لأسباب سياسية، ومن ثم أصبح متاحا على نطاق واسع

(164) Dukhobortsy.

(165) Molokany.

لأول مرة عام 1876. بعدها بدأت آلاف النسخ تنتشر بفضل الأنشطة التبشيرية للمعمدانيين ورموز كاللورد رادستوك. أما الإنجيل الكامل باللغة الروسية فقد أبصر النور عام 1882.

عندما مُنع رادستوك من دخول روسيا عام 1878، تحول مناصروه الـ«رادستوكيستي» إلى الـ«باشكوفتسي». فقد استأنف العقيد فاسيلي باشكوف أنشطة رادستوك التبشيرية حتى نفي هو الآخر خارج البلاد سنة 1884. وبحلول ذلك الوقت كانت جمعيته؛ «جمعية النهوض بالقراءة الأخلاقية والروحية» قد وزعت ملايين المنشورات للفلاحين، وأدَّت إلى رِدّة عظيمة بأعداد مهولة عن الكنيسة الأرثوذكسية. أما الصحوة الدينية التي أشعلها المحافظون وأفراد الطبقة الراقية من مناصري باشكوف، فقد طفت على السطح جزئيا لمناوئة المد المتنامي للإلحاد الذي تبناه جيل الشباب من الروس العدميين الذين دعوا لدين آخر هو الاشتراكية. وكانت إحدى النتائج الملموسة فرصة حضور محاضرات كتلك التي قدمها فلاديمير سولوفيوف التي حضرها تولستوي. كان تولستوي متلهفا لمعرفة المزيد عن رادستوك، وقابل بالفعل أحد تابعيه ووجده مقنعا للغاية، لكنه لم يقابل البارون بنفسه رغم أن ألكسندرين كانت تعرفه عن كثب. وقد أُرسلت بناء على طلب تولستوي رسالة في مارس عام 1876، تحتوي على تفاصيل كاملة عن كل أنشطة رادستوك. وقد أدخل جميع تلك التفاصيل في روايته آنا كارينينا. كتبت ألكسندرين في مايو عام 1877 من تسارسكوي سيلو تخبر تولستوي بأنها أمضت أمسية البارحة مع الإمبراطورة، وقرأت جهرا الفصول الختامية من الجزء السابع لآنا كارينينا على الحاضرين. وقالت إن الجميع ضحكوا ملء أشداقهم على توصيفه الساخر القاسي لأتباع رادستوك.

لم يكن تولستوي يكترث كثيرا بالمنشقين المتدينين الأرستقراطيين الذين أصبحوا يسوعيين إنجيليين من دون أن يتخلوا عن أسلوب حياتهم المليء بالامتيازات (والفاسد من وجهة نظره)، لكنَّ الفلاحين المنتمين إلى تلك الطوائف كانوا شيئا آخر تماما بالنسبة له. وبما أنه كان على دراية بوجود «شاربو الحليب» «المالاكاني» في سمارا عندما زار ذلك المكان لأول مرة وأمضى فيه وقتا لا بأس به، فقد أراد الآن أن يلتقي بهم وجها لوجه ليتحدث إليهم ويطرح

أسئلة عن معتقداتهم وآرائهم. وبالفعل فقد شكلت حواراته معهم بشأن الدين أمتع جزء من رحلته إلى سمارا في صيف عام 1878. واتضح أن تسمية تلك الطائفة (شاربو الحليب) يعود أصلها إلى رفضهم الامتناع عن استهلاك مشتقات الحليب خلال 200 يوم من الصيام في التقويم الأرثوذكسي. ويزعم آخرون بأن أصل التسمية مرتبط باسم نهر في جنوب روسيا. وشأنها شأن الطوائف «العقلانية» الأخرى في روسيا، تميَّز المالاكاني عن طبقة الفلاحين بامتناعهم عن شرب الخمر ومزاولتهم حياة متواضعة كادحة. ولم يتخلوا عن جميع الطقوس الدينية فحسب (القداس ورسم إشارة الصليب وغيرها)، بل تخلوا عن رجال الدين أيضا والمباني المقدسة والتحف كالأيقونات ولجؤوا إلى الانهماك في الدراسة المستقلة للإنجيل.

زار مراسل صحيفة «الأيام»، دونالد مكينزي والاس في بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر منطقة سهول ما بعد سمارا، المنطقة نفسها التي كان لتولستوي مزرعة فيها، وفتن بهذه الطائفة، لكنه اكتشف أن التأكد من طبيعة اعتقادهم بالتحديد من خلال الاستجواب المباشر أمر صعب للغاية. ومن خلال اتباعه إجراءً مطولاً من المقارنة البريئة بين الطقس والمحاصيل في روسيا مع طقس ومحاصيل إسكوتلندا، ومن ثم الانتقال تدريجيا إلى الدين، استطاع أخيرا أن يحرز تقدما خلال حديث له مع أحد المالاكان الفلاحين المحليين. وقد خلص ماكينزي إلى نتيجة مفادها أن ثمة أوجه شبه كثيرة بين هذه الطائفة والكنيسة المشيخيّة:

عندما سمع الفلاح بأن ثمة بلدا يفسِّر فيه الناس النصوص المقدسة بأنفسهم، ولا يتخذون أساقفة لهم، ويعتبرون تبجيل الأيقونات ضربا من ضروب الزندقة والوثنية، أصاخ السمع باهتمام بالغ. وعندما سمع، إضافة إلى ما تقدم، بأن الأبرشيات في ذلك البلد الرائع ترسل سنويا نواباً عنها ليشاركوا في اجتماع تُناقَش فيه جميع القضايا المتعلقة بالكنيسة بحرية تامة وعلى الملأ، كان على وشك التعبير بحرية عن دهشته العظيمة. بعدها انهال عليَّ بالأسئلة: أين هو ذلك البلد؟ هل هو في الشرق أم في الغرب؟ هل هو بعيد جدا؟ يا ليت كاهننا يسمع ما تقول!

تمتع ماكينزي والاس بينما كان يتجول في السهوب بضيافة شعب البشكير وجمع رمادهم في خيمة نصبت على شرفه. أما الطريقة التي وصف فيها طريقة تحضير الطعام وتناوله، فربما كانت سببا جزئيا في عدم ارتياح الفرنسي المتأنق المرهف كثير التدقيق في المطعومات والمشروبات، جويل مونتيل، بوقته في تلك السهوب عندما رافق أبناء تولستوي إيليا وليف في رحلتهم عام 1878. فالطعام هنا يختلف عن طعام مطاعم وحانات باريس:

أُتي بخروف إلى باب خيمتنا، وهناك ذُبح وسُلخ وقُطِّع ووُضع في قدر عظيم أوقدت النيران من تحتها. كان الطعام بدائيا كما كانت طريقة تحضيره؛ فليس ثمة أطباق أو سكاكين أو شوك أو ملاعق أو غيرها من الأدوات. وكان يتوقع من جميع الضيوف المشاركة في تناول الطعام من وعاء خشبي واحد واستخدام الأدوات التي حباهم الله بها. أما الطعام فكان وفيرا لكنه لم يكن متنوعا؛ فقد تألف من لحم الضأن المغلي، من دون خبز أو أي بديل آخر، وقليل من لحم الخيل المُملَّح المنثور كمقبلات.

قررت صونيا أن تبقى في ياسنايا بوليانا في ذلك الصيف، بينما كان سيرغيه يستعد لامتحانات آخر السنة الدراسية (لتتأكد من حصوله على علامات جيدة تؤهله للانضمام إلى الجامعة). لكن عامل التلغراف أسقط كلمة «لا» الحاسمة من تلغراف تولستوي: «المنزل، الماء، الخيل، بضائع العربة، لكن الروث والذباب والجفاف. (لا) أنصحك بالمجيء». وهكذا فهمت الرسالة على نحو خاطئ وسافرت مع بقية أفراد العائلة إلى زوجها. كما حضر ستراخوف أيضا ولأول مرة إلى السهول في ذلك الصيف، وقد استمتع تماما بـ«محيطات القمح وقوافل الخيل اللامتناهية وقطعان الماشية»، لكنه لاحظ أن تولستوي كان منزعجا من شيء ما ولم يكن في حالته الطبيعية.

وفي الثامن من أغسطس، وبعد يومين من عودة الجميع إلى ياسنايا بوليانا، وصل تورغينيف في زيارته الأولى منذ عشرين سنة تقريبا. ولم يكن قد قابل صونيا، ناهيك عن أولادها الستة الذين تتراوح أعمارهم اليوم بين 15 سنة و9 أشهر. كان ذلك اللقاء المتجدد لقاء سعيدا. فقد

تحمَّس الأولاد لمقابلة ذلك الرجل فارع القامة أبيض الشعر حزين العينين الحانيتين. وطلبت صونيا منه أن يلعب الشطرنج مع ابنها سيرغيه لكي يتحدث ابنها لأقرانه عن هذه المغامرة عندما يصبح رجلا (وقد خسر خسارة فادحة في الشطرنج). أما زيارته الثانية بعد شهر وهو في طريقه عائدا إلى باريس من عزبته في مقاطعة أريول فقد كانت أقل سعادة. لأن تولستوي، رغم تحلّيه مؤخرا بالتواضع بإلهام من الدين المسيحي، لم يكن يقوى على تحمل تورغينيف لفترات طويلة. فقد كان لا يزال يشعر بالامتعاض والانزعاج الشديدين من كون تورغينيف لا يزال «يلهو في الحياة»، وأدرك أنهما لن يتصالحا على نحو لن تشوبه أي شوائب. وكان تولستوي قد بنى لنفسه في ذلك الصيف كوخا في الغابة لكي يعمل فيه بسلام وهدوء. وفي يوم من الأيام وجدت صونيا زوجها يتجادل مع تورغينيف جدالا ساخنا. وكان تورغينيف، وهو عادة لطيف المعشر متحضر، يحرك يديه بعنف وجموح وقد احمرَّ وجهه. فبعد فترة فراق طويلة لم يكن تورغينيف على دراية بعمق التغيرات التي طرأت على حياة صديقه الروحية، وما فاجأه أكثر من أي شيء آخر تجاهل تولستوي وموقفه الجديد غير المكترث بأعماله الروائية الشخصية المنشورة. فتولستوي الذي كان يعرفه كان كاتبا استثنائيا نسيج وحده، قد سما بسلاسة وسهولة على جيل كامل من معاصريه الكتاب، وبالتالي فقد تفاجأ بموقفه الجديد الذي لا يعرف التنازل أو التسويات.

إن قرار تولستوي نقل مكتبه إلى غرفة أخرى في المنزل في ذلك الخريف، ربما كان ينم عن تغير نظرته المستقبلية خلال تلك الفترة. وكان لا يزال يحاول بدء روايته عن الديسمبريين، لكنه كان متمتعا أكثر بقراءة ديكينز (مارتن تشوزلويت ودومبي وابنائه). في فبراير من عام 1879 تخلى أخيرا عن فكرة تأليف رواية عن الديسمبريين، كما تخلى عن رواية بطرس الأكبر بعد أن ألَّف سبع عشرة مسودة مختلفة للفصل الافتتاحي، واثنتي عشرة منها كانت تبدأ في بيئة فلاحية، لكن قلبه لم يكن يطاوعه للاستمرار فيها. لقد سئم منها أخيرا. والمشكلة من وجهة نظره لم تكن تكمن في أن حركة الديسمبريين تمخضت عن تلاقح الضباط الروس مع الأفكار الفرنسية

خلال احتلالهم لباريس بعد هزيمة نابليون، بل في أن العديد من الديسمبريين كانوا في الواقع فرنسيين كاثوليكا فروا إلى روسيا بعد الثورة عام 1789.

أحد الأشخاص الذين امتعضوا من عدم نشر رواية عن الديسمبريين كان المسيو نيف، أو بالأحرى جويل مونتيل، الثوري الذي أُرغم على الفرار من فرنسا. ورغم أنه وصف تولستوي بـ «الزوج النموذجي والأب الممتاز والثري ثراء نسبيا»، لكن أكثر ما لفت انتباهه على مدى السنتين اللتين عاش خلالهما في ياسنايا بوليانا، هو ذكرياته عن بحوث تولستوي عن «الديسمبريين». وقد شكَّل ذلك موضوع مذكرات قصيرة نشرها في مجلة تناصر مذهب الفوضوية في باريس بعد وفاة تولستوي مباشرة. وقد أخذت الدهشة منه كل مأخذ عندما أظهر له تولستوي الرسالة الأصلية التي كتبها زعيم الديسمبريين، سيرغيه مورافييف أبوستول، إلى والديه عشية إعدامه عام 1826. وحُررت الرسالة باللغة الفرنسية، «بخط يد أجدادنا الرفيع الجامع»[166]. وقد ائتُمن تولستوي عليها من قبل ماتفيي مورافييف أبوستول، الشقيق الأكبر للزعيم مورافييف، الذي كان قد تعرف على تولستوي في موسكو في فبراير عام 1878. وقد أمضى ماتفيي ثلاثين عاما في المنفى في سيبيريا قبل أن يعود ويستقر في موسكو بعد العفو الذي أصدر عام 1856. شعر مونتيل عام 1910 بأن سببا مدهشا حال دون ظهور ما يمكن أن يشكل رواية رائعة ومثيرة للجدل، تتحدث عن جيل من الضباط الشباب الروس الذين تبنوا أفكار الحرية والعدالة[167]. وتساءل عن سرّ عدم ظهور الرواية: فربما أحرقت الكونتيس (صونيا) المخطوط، أو ربما أمرت الحكومة المهزوزة بتدميرها بعد أن أصيبت بالدوار جراء ثلاث محاولات اغتيال تعرض لها ألكسندر الثاني بين عامي 1879 و1880. لكن الحقيقة كانت عادية، وأكثر ابتذالا من تلك السيناريوهات.

---

(166) De cette bonne et grosse écriture de nos grands péres.

(167) Liberte et Justice.

ذبل اهتمام تولستوي بالديسمبريين، لكنه لم يستطع ألّا يحرك ساكنا لفترة طويلة. وبينما كان يقرأ بنهم مجلدات الأمير بيوتر دولغاروكوف عن أعلام النبلاء الروس وأنسابهم، فقد حرك ذلك فيه اهتماما إبداعيا في البحث عن سلالة عائلته. وهكذا، عاد بفكره إلى القرن الثامن عشر وفكَّر في تأليف رواية عن مصير أحد أجداده. فلطالما تحدثت العائلة عن أن أحد أجداده لأمه كان قد نفي إلى سيبيريا بعد اتهامه بعمل مشين يلفُّه الغموض. وأراد تولستوي أن يعرف تفاصيله؛ لذلك بدأ إرسال وابل من الرسائل إلى الأصدقاء والأقرباء. وقد رد عليه أحد الأقرباء البعيدين ليخبره بأنه وبحسب معرفة العائلة، فإن جده لأمه فاسيلي غورتشاكوف نُفي إلى سيبيريا لأنه هرَّب إلى روسيا بيانو مليئا بالنقود الورقية. وكان ذلك الرد كافيا لتأجيج مخيلة تولستوي الذي ما لبث أن صاغ أربع مسودات لبداية رواية جديدة، كتب إحداها بلغة بسيطة «غير مثقفة»، تعهد بتوظيفها على هذا النحو عندما بدأ بكتابة حكايات كتاب ألف باء جيم. وقد أعاد التأكيد على هذا العهد عندما قال لصونيا عام 1878 بأن أي شيء سيكتبه في المستقبل سيكون بلغة بسيطة تكفي ليفهم الأطفال كل كلمة فيها. ولكن أحدا من معارف تولستوي لم يستطع في النهاية أن يوفر له معلومات إضافية بشأن قضية غورتشاكوف، لذلك وَأَدَ المشروع في مهده.

وعاد تولستوي الآن باهتمامه إلى حقبة بطرس الأكبر وخليفته آنا إيونوفنا (التي حكمت من 1730 لغاية 1740)، وبدأ يفكر في رواية يستكشف من خلالها التاريخ «غير الرسمي»، بما في ذلك تاريخ طائفة المؤمنين القدامى. واجهت ألكسندرين صعوبات في مجاراة خطط تولستوي لهذه الرواية الجديدة. فقد كان أحيانا يطلب منها مواد عن الديسمبريين، وأحيانا أخرى تجده مهتما بجده فاسيلي غورتشاكوف، وتجده الآن يطلب منها في مارس 1879 مساعدة في الوصول إلى الأرشيف السري المتعلق بالتاريخ الروسي لبدايات القرن الثامن عشر. كما طلب منها في الوقت نفسه مساعدة في التوسط لإطلاق سراح ثلاثة من أساقفة طائفة المؤمنين القدامى، كانوا يقبعون وراء القضبان في سجن في سوزدال لاثنتين وعشرين سنة، بتهمة

«مجرمين دينيين». وكان أحدهم قد بلغ التسعين من العمر. وقد سمع تولستوي بمحنتهم من أسقف آخر ينتمي إلى الطائفة نفسها كان يلتقي به في تولا. وطوال ذلك الشهر كان تولستوي يمضي في الحقيقة الوقت على طريق موسكو-كييف الذي يمر بالقرب من ياسنايا بوليانا، وكان يتحدث إلى جموع الحجيج وهم في طريقهم إلى «الأماكن المقدسة» سيرا على الأقدام.

كان تولستوي مقتنعا بأن أحدا من طبقته الاجتماعية لن يقدم له أفكارا دينية؛ لأن حياتهم تتعارض ببساطة مع عقيدتهم. لكن الفقراء والأميين والرهبان والفلاحين والمنتمين إلى الطوائف الدينية المختلفة يعتبرون الدين جزءا لا غنى عنه في حياتهم، وقد اكتشف تولستوي حقيقة الدين والخلاص في نهاية المطاف من خلالهم. كان بعضهم سترانيكي؛ سواحا جوالين أمضوا حياتهم يتنقلون من دير إلى دير يحملون على ظهورهم حزمة فيها كل ما يملكون. كان تولستوي يقطع مسافة مشيا على الأقدام بصحبة أولئك الحجيج يتحدث إليهم، وكان أحدهم يبلغ من العمر 94 عاما متوجها إلى كييف للمرة الرابعة. كان البعض يمشي حافيَ القدمين، وآخرون يحملون سلاسل ثقيلة كنوع من التوبة. وقد قطعوا مسافة تفوق 100 ميل انطلاقا من دير القديس سرجيوس في ضواحي موسكو، وكان يتعين عليهم قطع 400 ميل إضافية للوصول إلى كييف.

بدأ تولستوي يشعر بأن الوقت قد حان ليذهب هو في رحلة حج من نوع آخر. وبينما كان يبحث في مشروعه الأخير أصبح مهتما كثيرا بمصير أحد أجداده؛ بيوتر أندريفيتش تولستوي وابنه إيفان بيتروفيتش، اللذين توفيا في المنفى في سجن في دير في جزر سولوفيتسكي النائية في العشرينيات من القرن الثامن عشر. ومن الطبيعي أن تتسلّم ألكسندرين في هذه الحالة رسالة منه يطلب فيها تزويده بمعلومات عن الكونت تولستوي الأول، الذي كان أحد أهم رجالات الدولة الموثوقين لدى بطرس الأكبر. بينما في الأثناء قرر سليل بيوتر أندريفيتش أن يسافر إلى مياه القطب الشمالي للبحر الأبيض بمفرده في ذلك الصيف. وفي مايو بعث برسالة إلى ستراخوف يسأله عما إذا كان يرغب في الانضمام إليه. وتوجه آلاف من الحجاج في أشهر

الصيف القصيرة شمالا في رحلة طويلة نحو الدير الذي يعود بناؤه للقرن الخامس عشر، ويُعتبَر أحد أقدس الأماكن في روسيا، ولكن اتضح أن ستراخوف لم يرغب أن يكون عددا من بين تلك الأعداد الغفيرة.

ولكن في النهاية، توجه تولستوي إلى كييف، مهد الحضارة الروسية لزيارة دير الكهوف المشهور الذي يعود إلى أوائل القرن الحادي عشر. وقد كانت توقعاته عظيمة، لا سيما أنه أُلهم من خلال أحاديثه مع السوّاح الجوّالين الذين قالوا له إن الرهبان في كييف عاشوا بزهد كما عاش السلف من آباء الكنيسة الأوائل. لكنه ما أن وصل حتى شعر بالاستياء الرهيب؛ لأنه بحسب ما رآه كانت الآثار المقدَّسة المعروضة مزوَّرة، والراهب الذي ذهب للحديث معه حول الدين لم يستقبله وقال إنه منشغل. ربما لأن تولستوي كان يرتدي رداء الحجاج العاديين ولم يكشف عن هويته الحقيقة التي كانت بلا شك ستسترعي احتراما أكبر. لكنه لم يأخذ بعين الاعتبار أنه كان من بين مئات آلاف الحجاج الذين يصلون إلى كييف في كل سنة، ولم يستطع الدير ببساطة التكيف مع هذا العدد الرهيب من البشر. كان ثمة حجاج وصلوا مشيا على الأقدام، لكن عددا كبيرا منهم بمن فيهم تولستوي استطاعوا أن يستخدموا شبكة السكة الحديدية الجديدة ليسافروا براحة بالقطار. وقد شكل العدد الهائل من الزوار تهديدا حقيقيا للنزاهة الروحية للمؤسسات المقدسة التي كانت تُستخدَم تقليديا للتأمل والصمت. لكن بصرف النظر عن التفاصيل والأسباب، شكلت رحلة الحج إلى دير الكهوف في كييف نقطة انقلاب في رحلة تولستوي الدينية.

في خريف عام 1879 راودت تولستوي مجددا الأفكار بشأن روايته التاريخية. فذهب إلى موسكو في سبتمبر ليقوم ببحث إضافي في الأرشيف. وقد قام أمين الأرشيف في وزارة العدل وعلى مدار سنة كاملة بإرسال مواد له متعلقة بالقضايا الجنائية الروسية التي حدثت في بداية القرن الثامن عشر. وفي أكتوبر قام بإرسال وثائق إضافية تسلط الضوء على آراء الناس بشأن إصلاحات بطرس الأكبر، لكن بحلول هذا الوقت فقد تولستوي كل اهتمام. فقد كانت الأسئلة

الدينية شغله الشاغل خلال تلك الزيارة إلى موسكو وأراد الآن بإلحاح إجابات شافية. أراد أن يعرف مثلا السبب وراء دعوات الكنيسة لانتصار الجيش الإمبراطوري في الحرب الروسية-التركية الأخيرة، رغم أن قتل الناس يتنافى تماما مع أحد أهم المبادئ الأساسية للعقيدة المسيحية. وأراد أن يعرف السبب وراء عدم تسامح الكنيسة الأرثوذكسية مع المنتمين إلى عقائد أخرى، سواء كانوا كاثوليك أو بروتستانت أو قدامى المؤمنين أو المنتمين إلى طوائف أخرى. وفي الوقت الذي ازدادت فيه أعداد الثوار الذين أُعدموا، أراد أن يعرف السبب وراء دعم الكنيسة الروسية لعقوبة الإعدام. ولكي يحصل على بعض الإجابات الشافية عن هذه الأسئلة الملحة، ذهب تولستوي مباشرة للقاء أعلى الهرم في التراتبية الإكليروسية. فقابل مطران موسكو ماكاري وأسقف موجايسك، وسافر بعدها إلى سيرغييف بوساد(168) ليزور أهم دير في روسيا، دير ثالوث القديس سرجيوس، وقد سُمّي باسم القديس سرجيوس الرادونيجي الذي كان قد أسسه في القرن الرابع عشر. وقد أصبح في وقت زيارة تولستوي مؤسسة ثرية ضخمة تحتوي على زهاء 400 راهب، ويزورها من الحجيج ما يقارب نصف مليون سنويا بمن فيهم تولستوي في تلك السنة.

فُوِّض الأب نيكون باصطحاب تولستوي في جولة تعريفية لكاتدرائية الدير وغرفة المقدسات، حيث عُرِضَت السلاسل التي كان الرهبان الزهاد يصفّدون أنفسهم بها في الماضي. ولم يُسَرْ تولستوي عندما سمع أن هذا التقليد لم يحافظ عليه رهبان الدير المعاصرون. وبعد أن حضر لقاء أكاديمية موسكو الروحية، التي كان مقرها في الدير نفسه، سأله أحد الأساتذة المرموقين ببراءة عن موعد نشر روايته الجديدة. فأجاب تولستوي بعصبية وخصام مقتبساً آية من كتاب بطرس الثاني، وقال إنه لا يريد أن يكون كالكلب الذي يعود فيأكل ما قذفته معدته. وقد حالت دهشة الحاضرين ربما دون انبهارهم بمعرفته لمحتوى الأناجيل عن كثب، لكنهم علموا يقينا كيف غدا تولستوي يقيّم أعماله الفنية الآن. أمطر تولستوي أرشمندريت الدير بوابل

(168) Сергиев посад (Sergiyev Posad).

من الأسئلة كان قد طرحها على ممثلي الكنيسة في موسكو، ولم يكن راضيا عن أي من الإجابات. أما الأرشمندريت فقد دهش بلقاء هذا الشخص المتبجح ذي الكبرياء الشامخ مما دعاه إلى التعليق بالقول: «أخشى أن ينتهي اللقاء على نحو سيئ».

عقَّبَ تولستوي في مذكراته، بعد عودته في أكتوبر إلى ياسنايا بوليانا، قائلا: «تمثّل الكنيسة، منذ القرن الثالث الميلادي وحتى حاضرنا، سلسلة واحدة طويلة من الأكاذيب والوحشية والخداع؛ فالعقيدة الدينية لا يمكن بحكم طبيعتها أن تخضع للسلطة السياسية». انقلبت الآية فذهب تولستوي في ديسمبر للحديث إلى أسقف تولا عن عقيدة وتديّن عوام الناس، وسؤاله عن الزهد والحج. وبدا أن الأسقف قد ارتعدت فرائصه لأن تولستوي أراد إجابات شافية بلا مواربة ولا لبس ولا تنازلات؛ إذ قام بحشره في الزاوية وضيَّق عليه الخناق بأسئلته «المتوالية الملحة»، مما حدا بالأسقف إلى محاولة التخلص منه فنصحه بالحديث إلى الأب ألكسندر، وهو قسٌّ آخر في تولا، فقبل تولستوي النصيحة وتوجَّه إلى القس على الفور. وقد كان الأب ألكسندر قد نصح تولستوي في السابق بقراءة الثيولوجيا الدوغمائية لمؤلفها المطران ماكاري؛ الشخصية الكنسية البارزة والكاتب خصب الإنتاج المعروف بعمله «تاريخ الكنيسة الروسية» الممتد على ثلاثين مجلدا. وقد حصد عمله المؤلف من خمسة مجلدات «الثيولوجيا الأرثوذكسية الدوغمائية» جائزة مرموقة وطُبعت منه نسخ عديدة. لم يبدد تولستوي الوقت فحصل على نسخة على الفور وجلس لدراستها بعناية، فقد كان لديه مشروعه الآن: إخضاع الثيولوجيا الأرثوذكسية للاختبار. بالإضافة إلى أنه بدأ على نحو متزامن كتابة قصة رحلته الروحية وباشر في ترجمته الخاصة للأناجيل.

بينما كانت التوترات تعصف بروح تولستوي التي كانت تتقلب فوق صفيح ساخن، كانت الحياة العائلية في ياسنايا بوليانا تمضي من حوله كالمعتاد على قدم وساق. وهكذا، استمرت كالمعتاد الدروس، وحفلات أعياد الميلاد، وحفلات الزفاف، والأمسيات الموسيقية، والنزهات، والعمل المنزلي، واستقبال الزوار من الأقرباء والأصدقاء... إلخ. وكانت صونيا

مشغولة على الدوام؛ فإن لم تكن تُدرّس الأولاد كانت تدير المنزل، ولم يكن لديها وقت كاف تدَّخرُهُ لنفسها. وقد كانت أيضا حاملا معظم الوقت سنة 1879، وفي الثامن عشر من ديسمبر، بعد أن بدأ تولستوي بمواجهة الدوغما الأرثوذكسية وغربلتها والحسم فيها، أنجبت صونيا ولدهما السابع (ابنهما ميخائيل؛ ميشا). وقد عنى وجود رضيع جديد التخلي عن حاجاتها الخاصة مجددا. تمتعت صونيا في ذلك الربيع بالقيام ببعض أعمال البستنة بمساعدة جويل مونتيل، الذي كان أيضا حاذقا في صناعة الأومليت وأكواب الشوكولاتة الساخنة لنزهاتهم الصيفية. زرعت صونيا أحواضا توضع على النوافذ، كما زرعت أحواضا أخرى بزهور النجمة واللويزة (الفيربينا) والفلوس، مما أضفى رونقا خاصا وألوانا زاهية ورائحة عطرة على المكان. أما حياكة الملابس التي شغلتها أيضا في ذلك الصيف فلم تكن ممتعة بقدر متعة بذر الحبوب. إذ كان يتعين عليها حياكة ملابس صيفية لجميع أولادها الستة مما أثقل كاهلها. كتبت لشقيقتها في مارس عام 1879 قائلة: «كنت وما زلت أحوك الملابس، وأشعر الآن بالإرهاق القاتل من جراء ذلك. أشعر بالسأم ووصلت إلى درجة اليأس. تنتابني تقلُّصات عضلية تعصف ببلعومي فيضيق الخناق عليّ، وأشعر بالدوار في رأسي، ورغم ذلك لا أتوقف عن الحياكة. أرغب أحيانا في تحطيم هذه الجدران والفرار نحو فضاء الحرية». سافر تولستوي في ذلك الخريف إلى موسكو مرتين، بينما لم تصل صونيا إلى بوابات ياسنايا بوليانا وبقيت حبيسة المنزل وأعبائه. كتبت في يناير من عام 1880 رسالة شجية حزينة إلى شقيقتها تانيا:

«حياة الأسر التي أعيشها شاقة أحيانا! تخيلي، تانيا، لم أخرج من المنزل منذ سبتمبر. فدار لقمان على حالها والسجن على ما هو عليه رغم كونه زاهيا ماديا ومعنويا، لكنني أشعر في بعض الأحيان أن أحدا ما زجّني فيه وأقفل الأبواب واحتجزني. أما أنا فأرغب في أن أدفع كل شيء عني وأحطم كل شيء من حولي، وأفر إلى أي مكان في أسرع وقت ممكن!».

كانت صونيا تنتعش روحها في شهور الصيف عندما تستقبل شقيقتها وأسرتها فيمكثون معها. فقد أصبحت تشعر مؤخرا بالوحدة، وكانت تتوق للتمتع بأضواء المدينة الساطعة.

رحبت في البداية بتحول زوجها للالتزام بالأرثوذكسية الروسية، لكنه يبدو الآن أنه يفقد إقباله على الحياة وحماسته. وبدا أن اهتمامه بالأسرة أيضا بدأ يخفت وكذلك إدارته للعزبة. وبالفعل، لم تكن صونيا مخطئة في تشخيصها. فقد كتب تولستوي إلى ستراخوف في أكتوبر من عام 1880 بأنه كان مغررا به طيلة حياته منذ أن بلغ رشده؛ لأنه كان يعتقد أن الخير كل الخير يكمن في سعيه للحصول على وسام صليب القديس جورج، وبعدها في عمله على كتابة الروايات ومن ثم امتلاك الأراضي، وأخيرا بناء أسرة. لكنه أدرك الآن أن الخير كل الخير يكمن في الأناجيل فقط.

بدأ تولستوي عام 1880 بفك ارتباطه بقدامى الأصدقاء والأقرباء الذين شعروا بالإهانة والحيرة. وفي يناير ذهب إلى بطرسبورغ ليدفع الدفعة الأخيرة المتبقية من حساب أرض كان قد اشتراها وذهب للقاء ألكسندرين في اليوم التالي من وصوله. وبعد أن أخبرها بأنه لا يؤمن الآن بألوهية المسيح، شبّ شجار حادّ بينهما استمر طيلة الصباح، ثم عاد إليها في المساء واستأنف الجدال وتركها لاحقا متوترة للغاية تشعر بضربات قلبها تتسارع في صدرها بسبب ارتفاع ضغط الدم. لم يغمض لتولستوي جفن في تلك الليلة، فشعر بالأرق وغادر بطرسبرغ في ساعات الصباح الأولى مما خلَّف جرحا عميقا لدى ألكسندرين لأنه لم يذهب لتوديعها. أصبحت شقيقة تولستوي ماشا متدينة أيضا في تلك الفترة، لكن رحلتها الروحية أخذت منحى معاكسا في عمق الكنيسة الأرثوذكسية. وكان ابنها نيكولاي قد تزوج في أكتوبر من عام 1878. وكان تولستوي إشبينه لكنه توفي في الصيف التالي بمرض التيفوئيد بينما كانت ابنة ماشا غير الشرعية إلينا على وشك إنهاء دراستها في سويسرا. وكانت الأم تستعد لإحضارها إلى روسيا ليستقروا هناك. وقد شكلت وفاة نيكولاي ضربة قاصمة لماشا لم تتعافَ منها البتة. ولكن، وبتوجيه روحي من الشيخ أمبروسي في أوبتينا بوستين، أصبحت ماشا أكثر تدنيا وتفانيا وإخلاصا لعقيدتها؛ إذ قررت في نهاية المطاف عام 1880 أن تصبح راهبة. فبعد مهمة في دير تولان

استقرت في دير بالقرب من أوبتينا بوستين، وبقيت فيه حتى وفاتها. ويُذكَر أنها حافظت على قربها من أخيها رغم اختلافهما في مسألة الدين.

استغرق الأمر وقتا ليتكيف أصدقاء تولستوي مع أفكاره الجديدة. ورغم أن ستراخوف لم يكن يبدو أنه ينزعج من أي شيء بما في ذلك هذا التغير في فكر تولستوي، إلا أن الملتزم دينيا سيرغيه يوراسوف لم يتقبل آراء تولستوي الجديدة التي اعتبرها ضربا من ضروب الهرطقة، مما أثر سلبيا على صداقتهما. كما تضررت صداقة تولستوي مع أفاناسي فيت أيضا. وللمفارقة، عندما قرر تولستوي أنه يريد أن يهجر جميع الكتابات الأدبية بتأثير من آرائه الدينية الجديدة، أصبحت أعماله الروائية متاحة في العالمين الناطقين بالفرنسية والإنجليزية. ظهرت الطفولة والشباب بالإنجليزية عام 1862، ولم تظهر أي أعمال أخرى لتولستوي حتى جاء يوجين شويلر وترجم القوزاق عام 1878. أما صديق تورغينيف، المترجم والمختص في الشؤون الروسية ويليام رالستون، فقد صدّه تولستوي عندما أرسل إليه رسالة يطلب فيها معلومات شخصية ليستخدمها في المقالة التي كان يكتبها عنه في أكتوبر عام 1878. ردّ تولستوي بإنجليزية روسية منمقة وواضحة على رسالة رالستون القاطن في ميدان بدفورد في لندن، قائلا: «لا يمكنني أن أشارك الوهم الزائل لدى بعض أصدقائي الذين يبدو أنهم متيقنون بأن أعمالي يجب أن تحتل موقعا ما في الأدب الروسي، وهم حقا لا يعرفون إذا ما كانت أعمالي سوف تُقرأ بعد 100 سنة أو ستنسى بعد 100 يوم. وبالتالي، لا أرغب في المساهمة السخيفة في هذا الخطأ المحتمل الذي يقترفه أصدقائي». لكن رالستون ملأ الفراغات بمساعدة من تورغينيف، ونشر مقالته الرائدة عن «روايات الكونت ليو تولستوي» عام 1879. وعلّقَ رالستون على موضوع آنا كارينينا قائلا إن تولستوي اختار «المجتمع وتجلياته كما هي واقعة في الأوساط الروسية الأرستقراطية، مازجاً توصيفاته الحية التي عكس من خلالها تفاصيل الحياة التي يزاولها أفراد الطبقات الراقية، مع سلسلة من المعاينات المرهفة لقلب امرأة آثم مريض».

كان رالستون محقا في ملاحظته التي تقول إن رواية آنا كارينينا درّت أرباحا على مؤلفها تفوق أيّ أرباح أخرى لأي عمل آخر سابق في الأدب الروسي، لكنه أخفق في تنبئه بعدم أرجحية ترجمة آنا كارينينا والحرب والسلام إلى الإنجليزية؛ لأن الترجمة الأولى للحرب والسلام إلى الفرنسية ظهرت في السنة نفسها التي ظهرت فيها مقالته. وقد شكّل ذلك الحدث المفصلي حافزا دفع تورغينيف للترويج لتولستوي كروائي عظيم في رسالته إلى إدموند أبوت في يناير عام 1880. أما الترجمات الإنجليزية فقد أعقبت الفرنسية بفترة قصيرة. وفي مايو عام 1880 قَدِمَ تورغينيف ليمضُي يومين في ياسنايا بوليانا وقد مضى على نشر آنا كارينينا ثلاث سنوات، ولم ينشر أي عمل آخر منذئذ. وكان يأمل أن يعود صديقه إلى تأليف الرواية، ويطمع في إقناعه للمشاركة في احتفاليات يوبيل بوشكين في موسكو في الشهر القادم، لكن تولستوي خذله في الأمرين. وربما كان الصيد الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه فقد كان الرجلان شغوفَين به.

وبينما من الصعوبة بمكان تخيل وقوف تولستوي إلى جانب دوستويفسكي وتورغينيف في تلك الفترة من مساره التأليفي، لتبجيل ذكرى الكاتب الروسي الحقيقي الأول، إلا أن رفضه بدا الآن فظا لا سيما بعد انقضاء الفعالية. وكانت مناسبة الاحتفالات مرتبطة بكشف النقاب عن أول تمثال لبوشكين يُرفَع في روسيا. وقد كان أمرا فاضحا ألا يتم الاحتفاء ببوشكين في السابق (فهو توفي عام 1837)، لكن ما من قيصر في القرن التاسع عشر كان مستعدا لقبول تعظيم رسمي لشاعر ثائر مناوئ للسلطة توفي إثر جرح تعرض له في مبارزة. أما الشيء المهم بشأن تمثال بوشكين فكان تغطية التكاليف الإجمالية من خلال تبرعات عامة الناس؛ ولذلك كان كشف النقاب عنه مدعاة للاحتفالات؛ لأن ذلك بالتحديد لم يكن له علاقة بالحكومة. إن تجشم تورغينيف عناء السفر من باريس ليحضر هذه المناسبة، وتوقف دوستويفسكي عن كتابة الإخوة كارامازوف[169] في منزله الريفي جنوب نوفغوراد، وحضوره أيضا وهو يعاني من مرض

(169) Братья карамазовы (The Brothers Karamazov).

شديد، يبرهن بلا مواربة ولا التباس على أهمية هذه المناسبة كحدث عام جماهيري استمر لأربعة أيام، واعتُبر من قِبل قطاعات عريضة انتصارا للإنتلجنسيا الروسية والثقافة الروسية عموما. وكما قال تورغينيف في خطابه، فإن روسيا المثقفة برمتها أسهمت بطريقة ما في رفع هذا التمثال وهذا مصداق لحبها لأحد أعظم مواطنيها. وأضاف بأن بوشكين هو المسؤول عن التشذيب النهائي لـ«لغتنا، التي بثرائها وقوتها ومنطقها وجمال شكلها يعترف بها حتى المحققون الأجانب على أنها الأفضل بعد اليونانية القديمة». وتابع قائلا: «تحدث بوشكين بصور نموذجية وأصوات خالدة متبنيا بذلك جميع جوانب الحياة الروسية». أما تولستوي فلم يكن يكترث بـ«روسيا المثقفة»، وأصبح الآن يزدري الإنتلجنسيا ولكنه، بطريقة أو بأخرى، كان يعض اليد التي أطعمته ويبصق في البئر التي شرب منها؛ لأنه ككاتب مدين بدين مهول لبوشكين نفسه.

ولا يمكن مقارنة خطاب تورغينيف بخطاب دوستويفسكي الذي شبّه فيه، بنَفَس مسيحاني، بوشكين بالمسيح وروسيا، وقد قوبل الخطاب بعاصفة من التصفيق الحار والناس قيام لمدة 30 دقيقة[170]؛ تعبيرا عن غبطتهم ونشوتهم. كتب دوستويفسكي إلى زوجته لاحقا يصف المشهد فقال: بدأ الكثير من الحضور، ممن لا يعرفون بعضهم بعضا النحيب وذرف الدموع والعناق، وأقسموا بكل ما هو غالٍ عليهم أن يصبحوا بشرا أفضل، وأن لا يكرهوا الآخرين في المستقبل، بل أن يُحبّوا بعضهم بعضا؛ حتى إن تورغينيف تحرك وجدانه وعانق خصمه القديم. في الأثناء كان تولستوي منغمسا في تعاليم المسيح عن الحب الأخوي، بينما بدأ تنسيقَ وترجمةَ الأناجيل، لكن الأنا المتضخمة لديه حالت دون انضمامه إلى فرح الجميع في ذلك الحدث الاستثنائي. وبعد سنوات شرح تولستوي غيابه عن الحدث قائلا إنه ومع تقديره الرفيع لعبقرية

(170) هكذا في النص الأصلي (ربما قصدت الكاتبة ثلاثين ثانية أو ثلاث دقائق، وأضيف الصفر خطأً!) (المترجم).

بوشكين، إلا أنه لم يذهب إلى موسكو لأنه شعر أن شيئا غير طبيعي يلف تلك الاحتفالات، شيء رغم أنه غير زائف لكنه لم يفِ بـ«متطلباته العاطفية».

استدعى غياب تولستوي الواضح عن الاحتفالات في موسكو تعليقات كثيرة. فقال البعض إنه مريض، وقال آخرون إنه في طريقه إلى الجنون أو جُنَّ بالفعل. وقد حاول دوستويفسكي السفر إلى ياسنايا بوليانا ليلتقي أخيرا بتولستوي لكنه رجع عن ذلك. وبعد نصف سنة ونيف توفي دوستويفسكي، وعندها فقط جلس تولستوي وحيدا إلى طاولة العشاء في إحدى الأمسيات الباردة من شهر فبراير بعد قدومه إلى المنزل متأخرا؛ وأخذ يجهش بالبكاء وهو ينظر إلى طعامه لأنه أدرك كم كان دوستويفسكي عزيزا عليه. وكان تولستوي قد أعاد قراءة «مذكرات من منزل الأموات/ البيت الميت» عندما كان مريضا في سبتمبر، وهو الكتاب الذي يستعير مجازا رحلة البعث الروحي التي خاضها دوستويفسكي خلال سنوات سجنه مع الأشغال الشاقة في سيبيريا. وقد اندهش تولستوي من «جهة النظر الصادقة الطبيعية المسيحية» التي عكسها دوستويفسكي في عمله. وطلب تولستوي من ستراخوف أن ينقل تحياته الحارة إلى دوستويفسكي الذي سُرّ بها كثيرا، لكنه لم يكن مسرورا لأن تولستوي لم يبجل بوشكين كما ينبغي. حاول ستراخوف أن يليّن من موقف دوستويفسكي بالقول إن تولستوي أصبح «مفكرا أكثر حرية» من ذي قبل. وقد كان تقدير تولستوي الخجول لدوستويفسكي مصداقا لفرط حساسيته، والسبب في ذلك أنه كان منزعجا تماما من خلط دوستويفسكي بين الوطنية والقومية والتقوى والتديّن معا في نظرته للعالم. وقد بادله دوستويفسكي الشعور نفسه؛ ذلك أن ألكسندرين أصبحت مقربة من دوستويفسكي قبيل وفاته، وشهدت كيف شعر بالسخط عندما كشفت له بعض رسائل تولستوي الأخيرة التي تناولت موضوع الدين.

أخبرت صونيا ستراخوف في مارس من عام 1880 بأن زوجها يعمل بلا هوادة فيصاب بالإرهاق وأوجاع الرأس المرعبة، لكن أحدا لا يستطيع أن يباعد بينه وبين مكتبه. لقد كان تولستوي حينها متلهفا لمواجهة الكنيسة الأرثوذكسية، فصمَّمَ على الاستمرار في العمل طيلة

فصل الربيع والصيف بخلاف عادته. ولم يذهب إلى سمارا في تلك الفترة، بل قام بثلاث زيارات قصيرة إلى موسكو في نهاية الخريف ليبحث عن مدرسين لأولاده. وعُرضت المجلدات الأحد عشر من نسخة أعماله الأخيرة للبيع واحدا تلو الآخر، لكن سنة انقضت ولم ينشر تولستوي أي عمل جديد. وكان يعلم أنه سيواجه صعوبات في نشر المشاريع الثلاثة التي كان يعمل عليها دفعة واحدة. لكن إتمامها جميعا كان أمرا مهما للغاية بالنسبة له. وقد شكّل نشرها لاحقا في الخارج خاتمة موقفه المعارض في علاقته مع الكنيسة الأرثوذكسية، ومنذئذ لم يتراجع تولستوي عن موقفه.

بعد أن قرأ تولستوي عمل ماكاري «الثيولوجيا الأرثوذكسية الدوغماتية» الذي يمتد على أكثر من 1000 صفحة، وقرأ مؤلفات أخرى مهمة عن العقيدة المسيحية الشرقية، ابتداء بأعمال القديس يوحنا المعمدان الدمشقي، وانتهاء بأعمال مطارنة موسكو؛ بدأ تولستوي بتفسيره الناقد كاشفا النقاب بالتفصيل الممل عن العيوب الرئيسية في تلك العقيدة كما رآها. وفوجئ قسيس تولا الذي نصح تولستوي بقراءة مكاري بزيارة تولستوي له بعد سنة من لقائهما الأول. وصرح تولستوي بأنه قرأ كتاب مكاري من الألف إلى الياء، وأخبر الأب ألكسندر برضا واضح بأن السنة التي درس فيها محتوى الكتاب لم تقنعه بأن الحقيقة تكمن في الدوغما الأرثوذكسية فحسب، بل أقنعته بالعكس تماما. فقد أدرك الآن بأن تلاميذ المسيح قد شوّهوا وحرّفوا تعاليمه. بالفعل، فعندما لاحظ أن التعاليم الأرثوذكسية ما هي إلا خليط مصطنع من تجليات إيمانية متضاربة ومبهمة في معظمها، بدأ يفهم، كما قال، كيف تنتج مدارس اللاهوت الروسية العديد من الملحدين. وهنا، كان تولستوي يشير إلى العديد ممن تخرجوا من مدارس اللاهوت (العلم الديني) وأصبحوا ثوارا، كتشيرنيشيفسكي الذي كان ما يزال قابعا في المنفى في سيبيريا، وآخر سيصبح ثوريا في عقد التسعينيات هو جوزيف جوغاشفيلي (ستالين).

أنهى تولستوي المسودة الأولى من كتابه الضخم «تحقيق في الثيولوجيا الدوغمائية» عام 1882، ولم يخشَ في نقده التفصيلي لومة لائم، حتى إنه في موضع ما من الكتاب ينعت

ماكاري بالأفاك الأشر، ويسم عقيدة التثليث بـ«الكذبة التجديفية المجرمة الخسيسة»، ويزدريها من خلال وصفه لألغاز إنجيلية بكلماته هو؛ كأن يقول إن «الله لديه قنوات تواصل ثلاثة مع ابنه والروح المقدسة». وبينما يَمضي تولستوي قدما في عمله تغدو نبرته أكثر عدائية. فهو لا يدحض فكرة خلاص البشرية على يد المسيح حينما صلب فحسب لأن بشر اليوم يشبهون بشر الأمس، بل يذهب أكثر من ذلك فيتهم الكنيسة باختراع الطقوس الدينية وفبركة فكرة ألوهية المسيح في القرن الثالث الميلادي. وبينما يشير إلى أنه ربما الشخص الوحيد الذي قرأ كتاب مكاري من الألف إلى الياء، بخلاف طلبة العلم الذين يدرسونه لاجتياز الامتحانات. ينهي تولستوي القدح والذم بزعمه أن الكنيسة الأرثوذكسية لا تتمتع بعد الآن بأيّ سلطة أخلاقية في صفوف الطبقات المثقفة المتعلمة أو الناس العاديين على حد سواء. لكن تولستوي بالفعل خفَّف من نبرة انتقاداته بغرض نشر عمله عام 1891، بعض الشيء.

وبما أنه كان على دراية بأن قراء رواياته قد يتفاجؤون بعض الشيء بسبب إقحامهم المفاجئ في قراءة دراسة ثيولوجية متحاملة ومتحيزة، إذ يُخضع فيها تفاصيل العقيدة الأرثوذكسية للتمحيص العقلاني، فقد شعر تولستوي بأن عليه أن يقدم لهذا العمل روايته الخاصة فيعرض فيها الأسباب التي دعته ليباشر في توجيه نقده للكنيسة. أما العمل الأكثر اقتضابا، والأمتع قراءة بصراحة، فهو «اعتراف» الذي كان قد سماه سابقا «مقدمة لعمل غير منشور» وأنهاه عام 1880. وقد حمل هذا العمل مقارنات مع اعترافات أوغسطينوس وروسو؛ إذ بدأ تولستوي في التحقيق في مغزى الحياة وهو لم يزل في طفولته، ثم انتحل منتَحَلا تحوليا روحيا بنزاهة مؤلمة تثير الإعجاب، لخَّصتها صونيا في صفحات من مذكراتها كتبتها عام 1881، فشرحت أن زوجها رأى «النّور»، كما وصفه، عندما أيقن أن مصدر «الخير والحلم والحب» بين الناس هو الأناجيل وليس الكنيسة. لأن الكنيسة هي التي حجبت هذه الرسالة في واقع الأمر؛ لأنها صممت على أن الخلاص ممكن فقط من خلال طقوس التعميد والقداس والصوم... إلخ.

كتبت صونيا:

«إن نظرة تولستوي الكلية اغتسلت بهذا النور الذي دفعه إلى اعتبار ملايين الناس إخوة له. فالتاع واضطرب ضميره بسبب الفقر والظلم وغيرهما من الآفات التي شهدها من حوله».

وشكلت ترجمة تولستوي الجديدة «الموحدة» للأناجيل أساسا لنبذ وإنكار العقيدة الأرثوذكسية. فقد عمل على هذه الترجمات بشكل مكثف في النصف الثاني من عام 1880، و«ختمها» في يوليو عام 1881. وكان على علم أنه يحتاج إلى العمل عليه لفترة أطول، لكنه في تلك المرحلة أراد أن ينتقل إلى أمور أخرى. اعتبر تولستوي الآن «توحيد وترجمة الأناجيل الأربعة» أهم شيء قام به في حياته. فبمساعدة من إيفان إيفانكين، مُدرّس الأولاد الجديد الذي وصل في سبتمبر عام 1880، عمل تولستوي بشكل منهجي على غربلة العهد الجديد المكتوب باللغة الأصلية اليونانية، مستخدما نسخا أكاديمية وفرها له الرجل الذي لم يتوانَ يوما عن مساعدته، ستراخوف. وقد تضمنت هذه النسخ نسخة مرجعية ألَّفها يوهان غريزباخ في السبعينيات من القرن الثامن عشر، وهو أستاذ ثيولوجيا في جامعة يينا، أطلق بفضل نشاطه الفلسفي حقبة جديدة في الدراسات الإنجيلية. بالإضافة إلى الترجمة الفرنسية ذات الحواشي الكثيرة، التي ترجمها ثيولوجي بروتستانتي آخر هو الأستاذ إدوارد ريس الذي كان يعمل في جامعة ستراسبورغ آنذاك. كان تولستوي يرمي إلى فهم مستنقع التناقضات والأشياء المبهمة التي وجدها في الكتب المقدسة ليوضّح رسالتها المركزية، ويستنبط بعض التوجيهات الأخلاقية العملية التي يمكن تطبيقها في الحياة اليومية.

وشكلت العودة إلى النصوص الأصلية مصدر إلهام لتولستوي؛ إذ استقى من كل إنجيل مواد لينتج منها نصا واحدا موحدا؛ «لأنها تتحدث عن الأحداث نفسها والتعاليم نفسها، ولكن بطرق متضاربة». وزوَّد ذلك النص بشروحاته وتعليقاته على امتداد اثني عشر فصلا معنونا تتَبَّع فيها حياة المسيح من المهد إلى اللحد. وقد عرض كل مقتطف إنجيلي باللغة اليونانية الأصلية أولا، ثم باللغة الروسية المترجمة عن النصوص الكنسية السلافية الإنجيلية ثانيا (التي كانت تعتبر قديمة وغريبة على مسامع روس القرن التاسع عشر، كما كانت ستبدو إنجليزية إنجيل

ويكليف غريبة على مسامع البريطانيين في القرن نفسه)، ثم بلغته الخاصة ثالثا؛ اللغة التي شكلت نسخته السهلة التي استخدم فيها متعمدا كلمات من اللغة المحكية الدّارجة قدر المستطاع لتسهل قراءتها من قِبل الفلاحين البسطاء.

لكن عمل تولستوي هذا لم يكن مختصرا عاديا للعهد الجديد؛ لأن حياة المسيح في الإنجيل بحسب رأيه تمثّل حياة مسيحي يشبهه تماما ويتوافق مع ما يختلج في قلبه؛ أي حياة رجل عادي ينتقد الدين المنظم ولا يخشى رفع عقيرته ضد كل من يحاول أن يعرقل نشر رسالته الأخلاقية. فالمسيح الذي يقدمه تولستوي رجل فرد محارب صاحب قضية يسبح ضد تيار الرأي العام؛ أي «معارض متواضع» يجد فيه تولستوي كثيرا من نقاط الشبه معه ويعتبره قدوة أخلاقية له. لقد كان ذلك التشبيه مهما للغاية لأننا نرى ذلك يتكشف أيضا في أعماله الروائية. فمن المدهش على سبيل المثال أن أكثر ما أعجبه في شخصية بطرس الأكبر، عندما كان يجري بحوثا ليكتب رواية عنه، طاقته الهائلة وقدرته المخيفة على إطلاق المشاريع والإنتاج، وهذه نفسها سمات كانت فيه بوفرة. وهكذا، يمكن أن نقول إن تولستوي فصَّل الأناجيل على هواه وقزَّمها في الواقع لتصبح رسالات أخلاقية. فهو قد تجاهل روايات تعميد المسيح في طفولته المبكرة وجميع معجزاته. كما تجاهل قصة بعثه؛ وأي شيء يشير إلى ألوهية المسيح أو رمزيته التاريخية، بالإضافة إلى الفقرات التي تُسلّط الضوء على المهمة الخاصة التي اضطلع بها تلاميذه المطوبون. وهكذا تخلّى عن نصف النصوص الأصلية تقريبا من العهد الجديد، وأبقى على جميع الاقتباسات المباشرة من خطابات المسيح، وهذا يعني اعتماده على إنجيل يوحنا أكثر بكثير من اعتماده على إنجيل مرقس الذي يحتوي على معجزات متعددة. أما أهمية إنجيل متّى بالنسبة لتولستوي فكانت تكمن في موعظة الجبل التي أصبحت حجر الزاوية في تعاليمه.

كان إيفان إيفانكين، المدرس الجديد في ياسنايا بوليانا، خريجا من جامعة موسكو، ولم يفهم للوهلة الأولى لماذا أراد تولستوي الحديث معه عن أدق تفاصيل نصوص العهد الجديد؛

لأن أعمدة الدردشة والنميمة في الصحف الروسية آنذاك كانت ما تزال تتحدث عن تولستوي وتأليفه لرواية عن الديسمبريين. بدأ إيفانكين العمل في ياسنايا بوليانا، وعندما أصبح جليا بأن معرفته باللغة اليونانية تفوق معرفة رب عمله بمراحل استُدرج مباشرة للمساعدة في عمل تولستوي الجديد. وقد ترك هذا الرجل ذو الوجه الشاحب والأصابع النحيلة ذكريات رائعة في ياسنايا بوليانا. وعلينا القول إنه لم يكن مبهورا بمستوى معرفة تولستوي باللغة اليونانية، حتى إنه امتعض من نهج تولستوي الانتقائي غير الأكاديمي الذي اتبعه فحذف بعض التفاصيل الملموسة وكان يقول: «لماذا يتعين علينا معرفة أن المسيح خرج إلى البهو. ولماذا عليَّ أن أعرف أنه بُعث؟ إذا كان قد بعث فليفرح بذلك. أما ما هو مهم بالنسبة لي فهو معرفة ماذا أفعل وكيف أعيش».

وجد إيفانكين العمل مع تولستوي أمرا مرهقا أحيانا لأن الكاتب «المعجزة» كان منحازا في ترجمة فقرات من العهد القديم، لا سيما تلك المتعلقة بالأخلاق التي نجت من تدقيقه القاسي. وقد قام تولستوي في الحرب والسلام بالتلاعب بالأحداث والبشر ليتسق ذلك مع النظرة التاريخية الخاصة التي طرحها. أما الآن فأراد من تلاميذ المسيح التأكيد على آرائه التي شكَّلها:

كان يُهرع إليّ أحيانا من مكتبه حاملاً الإنجيل اليوناني ويطلب مني ترجمة بعض الشذرات. فأقوم بذلك فتتطابق الترجمة عادة مع ترجمة الكنيسة المقبولة. فيقول لي: «هل لك أن تترجم هذا أو ذاك بهذا المعنى أو ذاك؟»، يطلب ذلك ويقول إنه يأمل بالفعل أن يكون ذلك ممكنا.

أمضى تولستوي وقتا طويلا يفكر مليا في الفقرة الافتتاحية لإنجيل يوحنا «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله...». وقد قرر بسرعة أن يفسر الكلمة اليونانية «لوغوس»[171] بـ«التعقل»[172] عِوَضا عن ترجمتها بـ«الْكَلِمَة»؛ فالكلمة الروسية «رازوميني»

(171) Logos.

(172) Razumenie.

تشير ضمناً إلى التحقق العقلاني والفهم، لكنه بعدها اصطدم بترجمة بروس تون ثيون[173] (وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ)، التي تُرجمت في الإنجيل السلافي الكنسي الأول بـ«من الله». وبتجاهله المعنى الحرفي لـ«إلى الله» وقوله إنها بلا معنى وتنديده بالنسخة اللاتينية للإنجيل «عند الله»[174]، والنسخة اللوثرية الألمانية «عند الله »[175]، ككلمات غير دقيقة وبلا مغزى، خلص تولستوي إلى تفسير راديكالي قائم على نقاش لغوي مطول حول الظرف «عند»، مفاده أن «التعقل حلَّ محل الله».

وبحلول وقت اغتيال ألكسندر الثاني على يد الثوار في الأول من مارس عام 1881، أصبح تولستوي جاهزا ليصبح، إن لم نقل بروتستانتيا بالمعنى العام، بروتستانتيا بالتأكيد في علاقته مع الكنيسة الأرثوذكسية؛ فقد قورنت شجاعته في أكثر من مناسبة بشجاعة لوثر ويان هوس وكالفين. وإذ شعر بالرعب من مجرد التفكير في احتمال إعدام المتآمرين، جلس تولستوي وحرَّرَ رسالة بعث بها إلى القيصر الجديد ألكسندر الثالث يتوسل فيها إليه لإصدار عفو باسم الغفران المسيحي. بعدها كتب رسالة للمدعي العام في السينود المقدس (المجمع الكنسي المقدس) كونستانتين بوبيدونوتسيف، وطلب منه أن يوصل الرسالة للقيصر. كما كتب رسالة أخرى لستراخوف وطلب منه أن يوصل الرسالتين لبوبيدونوتسيف.

تصرفت صونيا برصانة واتزان عندما تعيَّن عليها ارتداء قماش الكريب الأسود من أعلى الرأس إلى القدمين للاشتراك في الحداد الوطني، لكنها دُهشَت من آخر أفعال زوجها الذي تحملته في الفترة الأخيرة رغم التزامه الديني الشديد، والذي صمم الآن على الصوم أيام الأربعاء والجمعة. ولكي تنتقم صونيا من هذا القمع، أصرت على تقديم طعام لا يتعلق بالصوم الكبير إلى فاسيلي ألكسييف ويولز مونتيلز، اللذين لم يكونا مسيحيين أرثوذكسيين، رغم أنهما

(173) Pros ton theon.

(174) Apud Deum.

(175) Bei Gott.

لم يعارضا تناول أي طعام يُقدَّم. بعدها قامت بإلزام الأسرة بطعام الصوم الكبير على نحو أكثر صرامة عندما لاحظت أن التزام تولستوي الديني بدأ يترنح. وفي يوم الجمعة العظيمة، اليوم الأكثر صرامة في موسم الصوم، أخذت الفتنة من تولستوي كل مأخذ، فتخلى عن الالتزام بطعام الصوم الكبير إلى الأبد بعد أن التهم بعض اللحم الذي كان قد جُهِّز ليتناوله المعلمان. كما توقفت صونيا عن نسخ مخطوطات زوجها، لا سيما الكتابات اللاهوتية، التي اتضح أنها أسوأ من الكتابات التعليمية الطنانة من وجهة نظرها. وقد أسرَّتْ لأختها في رسالة فقالت إنها فكرت في هجر زوجها في ذلك الربيع؛ لأنها كانت تؤمن أن الحياة في ياسنايا بوليانا كانت أفضل من دون إقحام الدين والمسيحية في زواياه، لكنها مع ذلك حملت مجددا بطفل.

وأصبح الشجار بين الزوجين يتكرر ويخرج على الملأ أكثر فأكثر. ففي ذات صباح والجمع يحتسي القهوة سمعت صونيا فاسيلي ألكسييف يساند التماس زوجها ليعفو القيصر عن القتلة، فانفجرت ورُوّعت بسبب ما يمكن أن تأتي به رسالة زوجها من تداعيات وخيمة. عندها أدرك ألكسييف بأن وقت رحيله عن ياسنايا بوليانا قد حان، فطلب من تولستوي أن ينسخ شخصيا ترجمات الأناجيل التي قام بها لكي يأخذها معه؛ إذ أدرك أنه لن يُسمَح بنشرها في روسيا. وبما أن الوقت لم يكن لصالحه فقد عمد إلى نسخ مقتطفات من إنجيل تولستوي وملخصات عامة من كل فصل. وقد قدم لهذا النص لاحقا تولستوي نفسه فكتب مقدمة لِما أصبح يعرف بـ«مختصر الإنجيل» الذي شكل أول عمل ديني نشر له في خارج روسيا. وخلال الحرب العالمية الأولى خلّف كتاب تولستوي «مختصر الإنجيل» أثرا عميقا على لودفيج فيتجنشتاين الذي صادف أن وجده في محل لبيع الكتب في غاليسيا. بعد ذلك زعم أن بقاءه على قيد الحياة يعود الفضل فيه إلى هذا الكتاب.

انجذب الأصدقاء والأقارب الذين زاروا ياسنايا بوليانا في ربيع عام 1881 إلى محاجات نقدية قدحية تشهيرية بشأن عقوبة الإعدام والكنيسة، كما بدأت صونيا حينها تشعر بالقلق لأنها استشعرت أن إحسان زوجها سينتج عنه التخلي عن جميع ممتلكاتهم لفائدة الفلاحين

المعدمين؛ الذين كانوا يتدفقون إلى ياسنايا بوليانا بأعداد متزايدة، ويعلمون أنهم لن يرجعوا من زيارتهم خالي الوفاض. وقد كان تولستوي يدوّن في مذكراته مدونات موجزة مؤثرة عن كل زائر سائل، كتلك المرأة العجوز التي سقطت دموعها على التراب، والفلّاح صاحب الابتسامة الذي فقد أسنانه جميعا (يُذكَر أن تولستوي كان قد فقدَ جميع أسنانه حينها أيضا). ومن البديهي القول إن بوبيدونوتسيف رفض توصيل رسالة تولستوي للقيصر. أما المتآمرون فقد أُعدموا جميعا في بداية أبريل. وفي رسالة أرسلها بوبيدونوتسيف أخيرا رداً على تولستوي قال له فيها بوضوح: «مسيحنا ليس مسيحكم». توقف تولستوي عن عمله بشأن الأناجيل في ذلك الشهر لأنه أراد أن يحج مجددا إلى دير أوبتينا بوستين. وعِوَضا عن صحبة ستراخوف في هذه المرة اصطحب معه خادمه سيرغيه أربوزوف، وعِوَضا عن السفر بالقطار سافر مشيا على الأقدام وارتدى ملابس الموجيك (الفلاحين) والحذاء ذا الرقبة المصنوع من اللحاء، الذي كان قد صنعه خصيصا له فلاح من القرية.

أمضيا الليلة الأولى نائمَين على التبن في كوخ امرأة عجوز فلاحة، حيث أوقظتهما عند الفجر طيور السنونو المعشعشة في السقف. وبعد أربعة أيام وصلا إلى الدير حيث اجتمعا من دون بهرجة مع بقية الفلاحين الحجاج في مهجع تملؤه البراغيث. وعندما انتشر خبر يقول إن الرجل العجوز الأشعث هو في الحقيقة الكونت تولستوي متخفيا، أُجبر حينها على الانتقال إلى مسكن أنفع للصحة. وقد عنى ذلك أيضا أنه منح مجددا امتياز لقاء الشيخ أمبروسي على الفور عِوَضا عن الانتظار لأسبوع تقريبا. لكن تولستوي لم يأتِ هذه المرة إلى أوبتينا بوستين بحثا عن العزاء الديني، بل أراد من هذه الزيارة أن يتحدى أمبروسي وبقية الرهبان ويجادلهم في موضوع تشويه الكنيسة الأرثوذكسية لتعاليم المسيح. وقد قفل راجعا إلى مسقط رأسه وهو ممتعض من الزيارة، بينما أظهر في مرحلة ما من النقاش تفوقه في معرفة الأناجيل. وفي طريق عودته سافر مع خادمه مسافة طويلة حتى بلغا كالوغا التي كان يقطن فيها عدد كبير من الطائفيين، بمن فيهم شاربو الحليب (المالكاني) وفرعان من تلك الطائفة: السوبوتنيكي (السبتيون) والفوزديخانتسي (المتأوهون)؛ وهم طائفة جديدة يتأوه المؤمنون المنتمون إليها

وينظرون إلى السماء عوضا عن أن يرسموا إشارة الصليب على صدورهم. وقد انطلق تولستوي للتعرف عليهم بمجرد أن سمع عنهم، فقد تقزز من رؤية رهبان أوبتينا بوستين وهم يعاملون الحجاج المعوزين بازدراء بينما يستقبلون برحابة صدر الزوار الأثرياء. وهكذا استمتع ببقية الرحلة التي كانت منعشة ومحفزة.

وبعد شهر من عودته إلى المنزل، انطلق تولستوي في يوليو من عام 1881 إلى مزرعته في سمارا مع ابنه سيرغيه الذي كان قد اجتاز امتحانات نهاية السنة آنذاك وأصبح جاهزا للالتحاق بالجامعة. شعر تولستوي هذه المرة بالخمول وفتور الهمة؛ إذ لم يكن متحمسا للعمل على جعل أرضه مربحة، ويبدو أن الفقر في تلك المنطقة ازداد سوءا وتجليا مقارنة بالسنوات السابقة. وتواصل تولستوي خلال هذه الرحلة مع المالاكاني، وشارك في أحد لقاءاتهم التعبدية التي جاء بعدها لزيارته اثنين من زعمائهم ليكملوا الحديث في أمور الدين. وقد لعب تولستوي دور الداعية أمامهم؛ إذ قرأ عليهم شذرات من كتابه «مختصر الإنجيل» لأنهم أيضا كانوا يعتقدون أن الكنيسة الأرثوذكسية قد شوَّهت تعاليم المسيح الأصلية. وفي التاسع عشر من يوليو تعرف تولستوي على شخص مميز هو ألكسندر بروغافين، وهو شاب عالم بالأعراق البشرية أصبح مهتما بالطوائف الدينية الروسية بعد أن قابل كثيرا منهم وهو في منفاه في أقصى شمال البلاد. وبدأ منذ عام 1879 نشر مقالات في صحف تقدمية عن المنشقين والخوارج الروس والطائفيين من أساقفة المؤمنين القدامى الثلاثة؛ الذين حاول تولستوي مساعدتهم وصولا إلى الباشكوفيتي. وكان تولستوي مهتما ليسمع من بروغافين عن فلاح من التفير اسمه فاسيلي سيوتايف بدأ الدعوة إلى الحب الأخوي ومنع الملكية الخاصة. وبمجرد أن سمع من بروغافين بأن أحد أولاد سيوتايف رفض الخدمة العسكرية، أعلن تولستوي على الفور أنه يريد مقابلته. وقد سنحت تلك الفرصة قريبا.

وخلال الشهر الذي أمضاه في السهول، كان تولستوي ودودا تجاه صونيا عطوفا عليها في رسائله؛ فقد شعر بتأنيب الضمير. ذلك أنهما قررا منذ سنوات الانتقال إلى موسكو عندما يحين وقت التحاق سيرغيه بالجامعة، وقد حان ذلك الوقت الآن. وبسبب الاضطرابات السياسية

التي شهدتها البلاد، لا سيما في صفوف الطلاب في أعقاب اغتيال ألكسندر الثاني، شعرت صونيا بالحاجة الملحة إلى الانتقال إلى موسكو الآن أكثر من أي وقت مضى لحماية ولدها بنفسها والحيلولة دون تورطه في حركات ثورية. وبذلك تفوز أيضا بالحرية التي كانت تتوق إليها، لا سيما في السنوات الأخيرة التي تجاهل فيها زوجها الحياة الاجتماعية، وأدار ظهره لتأليف الرواية وندد بالروائيين وأسلوب حياتهم الفاسق. لكن تولستوي اعتبر الانتقال إلى موسكو بمثابة الكابوس، وبالتالي رفض مساعدة صونيا في كراء مكان لهم للعيش فيه. لكنها رغم حملها في شهرها السادس ذهبت إلى موسكو للبحث عن شقة قبل أن يغادر زوجها إلى سمارا، ومن ثم ذهبت مجددا في الشهر التالي، وتحمّلت جوَّ المدينة الحار المغبر لتقوم بالترتيبات اللازمة لوصول الأسرة. لذلك شعر تولستوي بوخز الضمير والندم على تجاهلها وتركها تقوم بكل الترتيبات بمفردها، ووعد بأن يساعدها بعد عودته، لكنه عندما عاد إلى منزله ووجده حافلا بالزوار والضيوف شعر مجددا بالمفارقة المؤلمة بين معتقداته والواقع من حوله.

غادر تسعة أفراد من آل تولستوي ياسنايا بوليانا في الخامس عشر من سبتمبر، ثمَّ سكنوا في شقة في منزل في أفضل منطقة سكنية في موسكو. وأصبح سيرغيه طالبا في قسم العلوم الطبيعية في جامعة موسكو، وأصبح إيليا وليف طالبَين في مدرسة الذكور الخاصة المشهورة التي أسسها عام 1868 ليف بوليفانوف؛ الرجل الذي كان العقل المدبر وراء احتفالية بوشكين المشهورة في السنة الفائتة. وأصبحت تانيا في الخريف طالبة في مدرسة الفنون الرئيسية في موسكو. ورغم وعد تولستوي بمساعدة صونيا في موسكو، إلا أنه سرعان ما نسي وعده. فقد شعر بالبؤس الخالص من جراء انتقالهم للمدينة. وقالت صونيا لتانيا في رسالة بأن تولستوي لا ينام ولا يأكل ودخل في حالة من اللامبالاة والعجز، بينما أمضت هي الأسبوعين الأولين تذرف الدموع. قام تولستوي بعد وصوله إلى موسكو بزيارة أحياء الصفيح (الأحياء الفقيرة) في المدينة. وبعد أن عاد إلى المنزل واعتلى السلالم المغطاة بالسجاد في منزلهم الجديد وجلس بعدها إلى مائدة الطعام ليقوم على خدمته خادمان يرتديان معطفين وربطة عنق بيضاء، شعر تولستوي بالتقزز

والغثيان؛ لأنه أدرك أن المسافة بين ترف البعض في هذه المدينة وفقر وبؤس السواد الأعظم فيها مسافة ليست بعيدة.

وقد تنفس تولستوي الصعداء عندما فرّ من موسكو في نهاية الشهر ليتوجه شمالا نحو مقاطعة تفير، ليلتقي بفاسيلي سيوتايف[176]؛ الفلاح الذي ينتمي إلى طائفة دينية منشقة عن الكنيسة، والذي أخبره عنه بروغافين. ورغم اختلاف خلفيتهما الاجتماعية إلا أن سيوتايف كان تقريبا مرآة لتولستوي فيما يخص آراءهما الدينية وهذا ما أذهله. فقد كان مبدأ سيوتايف عن الحب الأخوي قد استقاه حصريا من الترجمة الروسية الحديثة للعهد الجديد الذي كان يحفظه عن ظهر قلب. وشأنه شأن تولستوي، كرّس سيوتايف حياته ليطهّر نفسه من الأدران ويصبح شخصا مثاليا. وقد أصبح سيوتايف، الذي زار تولستوي لاحقا في موسكو، مصدر إلهام له. وثمة مصدر إلهام روحي آخر حظي به تولستوي في تلك الفترة، من خلال مراسلاته مع مدرس الأسرة السابق فاسيلي ألكسييف، ومن صداقته أيضا مع أمين مكتبة روميانتسوف العامة نيكولاي فيودوروف؛ الذي تحلّى بأسلوب حياة زاهد يتفوق بمراحل على أسلوب زهد تولستوي وذوقه البسيط الإيجابي المترف أحيانا.

عاد تولستوي في بداية أكتوبر إلى موسكو وحاول استئناف العمل، لكن جدران الشقة أظهرت أنها رقيقة للغاية فينفذ الصوت منها بسهولة. لذلك لم يستطع التركيز بسبب الضوضاء المستمرة التي وجَّه اللوم بسببها لصونيا، قولا واحدا. وقد امتعض منها لأنها كانت تنفق المال من دون مبرر؛ فكيف استطاعت أن تبدد عشرين روبلا على شراء كرسي هزاز بينما كان يمكن صرف ذلك المال على شراء بقرة أو حصان لفلاح؟! لكن الأمور تحسنت بعض الشيء بعد أن استأجر غرفتين صغيرتين في جناح آخر من المنزل مقابل ستة روبلات في الشهر. أخيرا، شعر تولستوي ببعض العزاء وراحة البال، واستراح ضميره عندما كان يقطع نهر موسكو بصحبة فلاحي هضبة العصافير ليحتطب كل يوم في فترة بعد الظهر. لكن علاقته بصونيا لم تتحسن، فقبل ولادتها بأسبوعين كتبت صونيا إلى تانيا مجددا لتخبرها بأن زوجها قد دفعها إلى القنوط

(176) Василий Сютаев (Vasily Syutaev).

التام. وكتب تولستوي في مذكراته بأن ذلك الشهر كان الأكثر ألما في كل حياته. وُلد ألكسي في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر. وبعدها بأسابيع قليلة نشر تولستوي قصة عن ملاك في مجلة الأطفال الجديدة التي يحررها شقيق صونيا بيتيا. وكانت تلك القصة أول عمل ينشره منذ أربع سنوات.

كان تولستوي أيضا يعمل على نحو متقطع على قصة قصيرة عنوانها «علامَ يعيش الإنسان؟» خلال عام 1881. وهو عمل مختلف تماما عن آنا كارينينا، عمله الأخير الذي اعتُبر رواية حاذقة معقدة استهدفت القراء المثقفين. أما هذه القصة الجديدة فقد استقاها من حياة الفلاحين، وعرض فيها آراءه المسيحية الجديدة حول الحب. وهي إعادة صياغة لأسطورة معروفة عن ملاك يرسله الله إلى الأرض ليتعلم «كيف يعيش البشر». وقد قصها عليه فاسيلي تشيغولينوك؛ وهو واحد من قلة ممن بقوا على قيد الحياة من الفلاحين من شمال روسيا الذين كانوا يقصّون ملاحم الأورال الفولكلورية على الناس. وقد قَدِمَ إلى ياسنايا بوليانا عام 1879 وهو عجوز حينها وأمّي، وأصغى إليه تولستوي باهتمام بالغ. وقد توخى تولستوي في كتابة «كيف يعيش البشر» بساطة اللغة ووضوحها، وأدرج فيه عددا من التعبيرات الفولكلورية التي سمعها من خلال محادثاته مع تشيغولينوك والحجاج والسواح على الطريق المؤدي إلى كييف بالقرب من ياسنايا بوليانا. ورغم بساطتها، إلا أن جهد تولستوي في صياغة العمل كان دقيقا تفصيليا كدأبه. فقد كتب اثنين وثلاثين مخطوطا وتسع بدايات مختلفة قبل أن يكون راضيا عن المسودة التي قدمها للناشر. أما الحِكَم الثمان التي تناولت موضوع الحب ومهّد بها للقصة، فقد استقاها من نسخته الخاصة لإنجيل يوحنا. وقد شكلت كتابة القصص ذات العبر الأخلاقية بأسلوب بسيط وواضح بعض الطرق التي اتبعها تولستوي لينشر مُثُله المسيحية. وقد شعر في تلك المرحلة بأنه بحاجة لأن يصدح باحتجاجاته على الملأ ضد الشر الذي يراه من حوله، وقد عكف بالفعل على هذا فرفع عقيرته على نحو مضطرد على مدار العقود الثلاثة المتبقية من عمره.

الفصل الحادي عشر

معارض الكنيسة والفوضوي والصوفي الدرويش

«ثمة طريقة واحدة لمزاولة الحياة الطيبة؛ وهي أن يغدو المرء حَواريّاً/ رسولاً. وهذا لا ينحصر في السعي بين الناس والحديث إليهم فحسب، بل في أن تكون أطرافك ومعدتك وجوانبك ولسانك وجميع جوارحك كلها تخدم الحقيقة».

رسالة إلى فاسيلي ألكسييف، ديسمبر 1884.

بدأت حملة تولستوي في حمل المثقفين الروس على التفكر في المبادئ المسيحية من خلال مقالة له نشرها في العشرين من يناير 1882. فقد أصيب بالصدمة بسبب مستويات الانحطاط والفقر التي لمسها عندما زار قبل تحرير مقالته بأسابيع نزلا حقيرا، يؤوي مشردين في أسوأ الضواحي الفقيرة في موسكو. وعندما سمع أن إحصاءً للسكان سوف يجري في المدينة، انتهز الفرصة ليتحدث عما يعتمل في نفسه. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يخاطب فيها تولستوي ضمير الشعب؛ إذ قام في السابق بتسليط الضوء على مأزق الفلاحين الجوعى إبان المجاعة التي عصفت بسمارا عام 1873، ونجح حينها في جمع تبرعات ومساعدات وصلت إلى ملايين الروبلات لمواجهة الأزمة. أما الآن فلم تكن مهمته إنسانية فحسب، بل دينية أيضا، إذ لم يكن يطلب جمع التبرعات المالية، بل أراد أن ينشر الحب المسيحي الأخوي. وأراد أيضا أن يشكل قدوة للآخرين فيحوّل أفكاره إلى أفعال ملموسة. لذلك تقدَّم بطلب ليكون واحدا من بين ثمانين شخصا مسؤولا عن الإشراف على الإحصاء السكاني. وقد طلب بالتحديد أن يعمل في إحدى أفقر المناطق، وتحديدا بالقرب من المنطقة التي عاش فيها في الجزء الغربي من المدينة. وفي الليلة التي سبقت ظهور مقالته بعنوان «بشأن الإحصاء السكاني في موسكو» على الصفحة الأولى لإحدى أهم الصحف اليومية في البلاد وأكثرها شيوعا، ذهب تولستوي إلى الدوما ليقرأ

المقالة على اللجان التنظيمية. ووزع بعدها مئات من النسخ على كل المشاركين في إدارة الإحصاء الذي بدأ بالفعل بعد ثلاثة أيام.

وقد انزعج تولستوي أشد الانزعاج من طرح أسئلة روتينية إحصائية من قِبل نحو 2000 مشارك في الإحصاء (جلهم من الطلاب)، على بشر يقتربون من حافة الموت ويتضورون جوعا ويعيشون في مبانٍ مكتظة موبوءة. لذا، لم يوفر تولستوي جهدا في التصدي لهذه الجزئية في مقالته:

ماذا يعنيه هذا الإحصاء السكاني لنا نحن الموسكويين من غير الأكاديميين الذين نُجري الإحصاء؟ أمران؛ أولهما، أننا سنكتشف على الأرجح أن من بين عشرات الآلاف ممن يعيشون على دخل بواقع عشرات الآلاف من الروبلات، ثمة عشرات الآلاف من البشر لا طعام ولا مأوى ولا ملابس لديهم. وثانيا، أن إخوتنا وأبناءنا سوف يكتشفون هذه الحقيقة المرة ويدوّنون ببرودة أعصاب على استماراتهم الإحصائية عدد الذين يموتون من البرد والجوع.

وكلا هذين الأمرين سيئ للغاية.

أخذت روح الفوضوية[177] والثورة على القوانين والسلطة تتجلى في أفكار تولستوي أكثر فأكثر خلال العقد التالي. وتماشيا مع تلك الروح، رفض تولستوي فكرة التدخل المؤسساتي، على المستويين الحكومي والخيري، كما رفض أيضا المشاريع الخيرية التقليدية كجمع التبرعات من خلال الحفلات الراقصة أو البازارات أو العروض المسرحية. وأصرّ على أن المال شرّ بذاته، وبالتالي لا ينبغي الإفصاح على الملأ عن المبالغ التي يتبرع بها الأفراد الأثرياء. وكان يؤمن بأن نثر المال على قضية ما يعفي الأثرياء من بذل الجهود العملية التي ينبغي أن تعوِّض التبرع بالمال. وقد استلهم تولستوي ذلك مباشرة من العهد الجديد، من خلال إعادة صياغة القصة التي رواها المسيح: «الخراف والجداء/ الماعز» في إنجيل متى: «كنت جائعا

---

(177) وهي مذهب فلسفي يشجع على إقامة مجتمعات ترفض التراتبية السياسية ولا تعترف بسلطة الدولة، بل ترتكز على مؤسسات طوعية مما يؤدي في الغالب إلى فوضى (المترجم).

فأطعمتموني وكنت ظمآنا فأطفأتم ظمئي، وكنت غريبا فآويتموني، وكنت عاريا فألبستموني، وكنت مريضا فشفيتموني، وكنت مسجونا فزرتموني...». ناشد تولستوي الموسكويين أن يَسموا على خوفهم من الاقتراب من البراغيث والذباب والتيفوئيد والدفتيريا والجدري، وغيرها من الأمراض التي كانت مستشرية في الأماكن القذرة التي أُرغم الفقراء على العيش فيها. وطالب الشباب المسؤول عن الإحصاء السكاني أن يجلسوا مع المحتاجين والمساكين، ويُظهروا لهم الحب والاحترام من خلال الحديث معهم عن حياتهم.

ولسوء الطالع، فإن بعض المشاركين من أولئك الشباب كانوا هم أنفسهم فقراء معوزين، وبالتالي فقد استقبلوا هذا الترغيب في ممارسة الإحسان المسيحي بالحيرة والذهول. وكان أحدهم طالب الطب ذا الثانية والعشرين من العمر، أنتون تشيخوف، الذي كان يعيش في موسكو في ضاحية تكثر فيها الخمارات وبائعات الهوى. وقد عمل أبوه في السابق تاجرا متواضعا قبل أن يفرَّ من بلدته الريفية بعد إفلاسه، في الوقت الذي بدأ فيه تشيخوف بالمساهمة في تأليف بعض القصص لصحف فكاهية مغمورة ليسدَّ بها رمق الأسرة. وقد عمل في الإحصاء السكاني ليحصل على بعض الكوبيكات الإضافية، كما وفر له ذلك مواد خاما من الواقع استغلها في كتابة قصصه الفكاهية التالية التي وقَّعَ عليها كعادته باسم مستعار؛ إذ كان يستشرف تأليف أعمال من العيار الثقيل في المستقبل. تألَّف الإحصاء الرسمي من خمسة عشر سؤالا نموذجيا عن الاسم والجنس والعمر والحالة الزوجية ومكان الولادة والديانة والعمل وغيرها. وقد أضيفت عشرة أسئلة أخرى في «الأسئلة المكملة للاستمارات الشخصية للإحصاء السكاني»، اقترحتها أنتوشا تشيخونتي[178]:

16. هل أنت شخص ذكي أم أحمق؟

17. هل أنت شخص نزيه؟ نصّاب؟ محتال؟ سارق؟ نذل؟ محام؟ أم...؟

20. هل زوجتك شقراء؟ سمراء؟ كستنائية الشعر؟ حمراء الرأس؟

(178) Антоша Чехонте (Antosha Chekhonte).

21. هل تضربك زوجتك أم لا؟ هل تضرب زوجتك أم لا؟
22. كم كان وزنك عندما كنت في العاشرة من عمرك؟
23. هل تستهلك المشروبات الساخنة؟ نعم أم لا؟

من غير المرجح أن يكون تولستوي قد قرأ قصة «منبه الساعة»، إذ يدرج فيها تشيخوف هذه الملحوظات الساخرة، لكنه غدا معجبا في وقت لاحق بقصص تشيخوف القصيرة التي نشرها في مجلات أدبية في مرحلة لاحقة من مساره الأدبي. ومع أن تشيخوف لم يكترث كثيرا بمقالة تولستوي «بشأن مسألة الإحصاء السكاني»، إلا أنه كان يعتبره الفنان المعاصر الأعظم في روسيا، لا سيما بعد إعجابه ورضوخه لفترة من الزمن لسحر محاجة تولستوي العقلانية.

فشل تولستوي في مهمته لحث الموسكويين على إظهار الحب الأخوي للفقراء. وقد نتج عن مناشدته تلك حصوله على مطالب للمساعدة المادية، وسوء فهم من قِبل الصحافة، لكن مقالته فازت بكسب تابع مخلص له لم يكن سوى الرسام الفنان نيكولاي غي[179]. فقد خلفت المقالة وقعا رهيبا على الرّسام مما دفعه إلى مغادرة منزله في مزرعته النائية في أوكرانيا، ليستقل قطارا ويتوجه إلى موسكو لكي يلتقي بـ«الرجل العظيم» الذي كتب المقالة ويعانقه. أصبح غي (وهو من سلالة فرنسية من المهاجرين لقبها غي)، شأنه شأن تولستوي؛ منغمسا حتى النخاع في القضايا الدينية والأخلاقية في عقد السبعينيات، وقد توصل إلى النتائج نفسها؛ لا يجب ممارسة الفن للحصول على مكاسب تجارية، لكن الانهماك في العمل الجسدي هو الطريق لإنقاذ الروح. وفي بداية مارس من عام 1882 ظهر غي أمام باب منزل تولستوي في موسكو، واكتشف الرجلان أوجه الشبه الكثيرة في معتقداتهما مما أدى إلى تمتين علاقتهما لتصبح صداقة راسخة.

كان غي محظوظا عندما وجد تولستوي في المنزل، ففي ذلك الربيع اضطرت صونيا أن تبقى مع الأولاد بعيدا عن زوجها الذي آثر في مناسبات عديدة أن يختلي بنفسه في ياسنايا بوليانا، ليتعافى من ضرر العيش في موسكو التي كان يصفها بـ«بالوعة مجارير كريهة». لكن صونيا

(179) Nikolay Ge.

شعرت لأول مرة في تلك المناسبات بأنها تريد من زوجها أن يبقى بعيدا عنها في ياسنايا بوليانا. ومع أنها كانت منشغلة بتربية أولادها (اثنان من الثمانية كانا دون الخامسة عام 1882)، لكنها كانت أيضا قد بدأت بالتعرف إلى مجتمع موسكو الراقي. فلقب الكونتيس تولستوي أتاح لها فرصة الدخول إلى جميع صالونات المدينة الراقية بلا استئذان. وبما أنها كانت زوجة الروائي المشهور فقد انتقلت الشهرة إليها، وقد سُلطت الأضواء عليها وأصبحت مركز الاهتمام للمرة الأولى في حياتها، وهذا ما جعلها تشعر بالنشوة. فقد غابت عنها الحفلات الراقصة والأمسيات الساحرة في شبابها. أما الآن فقد غدت مستعدة لارتداء أبهى الثياب وخوض هذه التجارب من خلال ابنتها تانيا التي شارفت على الثامنة عشرة من العمر. أما صونيا فقد كانت تبلغ حينها الثامنة والثلاثين عام 1882، وكانت ما تزال جذابة المظهر والمحتوى. أما تولستوي فقد أراد في المقابل أن يجعل حياته أكثر بساطة ويبتعد نهائيا عن تقاليد المجتمع الراقي. وبالتالي، أصبح منجذبا نحو الفلاحين المنشقّين المعارضين من أمثال فاسيلي سيوتايف، والزاهدين الفلاسفة من أمثال غريب الأطوار نيكولاي فيودوروف المعروف بـ«سقراط موسكو»، وأمين مكتبة روميانتسوف الذي شجب جميع الممتلكات المادية (حتى إنه رفض تقاضي راتب)، وكان يرقد على ألواح خشبية يفرش عليها معطفه البالي.

جاء فاسيلي سيوتايف لزيارة تولستوي بعد انتهاء الإحصاء السكاني. وقد أحدثت زيارته ضجة في موسكو. فقد تناولت مقالة، نُشرت حديثا في المجلة الروسية الجديدة «الفكر الروسي»، الطائفة الصغيرة التي أنشأها فاسيلي الذي أصبحت شهرته تملأ الآفاق، لدرجة أن محلا لبيع مقتنيات فنية في موسكو وضع صورا له وعرضها للبيع. بالإضافة إلى أن تولستوي كان قد شجع صديقه الجديد إيليا ريبين لكي يأتي ويرسم لوحة لسيوتايف في مكتبه.

وكان أصدقاء الأسرة الذين يأتون لزيارة صونيا ينتابهم فضول لرؤية النبي الفلاح، فما أن يدخلوا غرفة الضيوف حتى يهجروها ويتوجهوا إلى مكتب تولستوي ليجلسوا مع سيوتايف ويسمعوا منه. وقد انزعجت شقيقة تولستوي ماشا من قطع حديثها مع سيوتايف، وتمنّت عليه

أن يجلس معها في إحدى الأمسيات ليحتسيا الشاي ويستأنفا الحديث. لكن زيارة سيوتايف إلى موسكو لم تستمر طويلا عندما علم الأمير دولغاروكوف بوجوده، وهو الحاكم العام للمدينة، فأرسل شابا من الدّرك على جناح السرعة ليعتقله ويرسله إلى تفير (المكان الذي رفع فيه رجال الدين قضية ضده لأنه رفض تعميد ابنه). فرفض تولستوي التحدث مع الشاب الدركي وأقفل الباب في وجهه، مما دفع دولغاروكوف لإرسال أحد الضباط المسؤولين لديه، فلاديمير آيستومين، وهو صديق لعائلة الحاكم. وصل آيستومين وطلب من تولستوي أن يذهب إلى الأمير دولغاروكوف ويشرح موقفه، فما كان من تولستوي إلا أن أجاب بفظاظة قائلا إن الحاكم العام يمكنه أن يأتي بنفسه إلى هنا إذا أراد الحديث إليّ. ومنذئذ حظر على تولستوي وسيوتايف رؤية بعضهما بعضا.

حصلت غاليري تريتياكوف، بتوصية من تولستوي، على لوحة ريبين التي رسم فيها سيوتايف وعنونها بـ«الطائفي المعارض». وخلال الفترات اللاحقة سيقوم ريبين أيضا برسم سلسلة من اللوحات المشهورة لتولستوي الذي عقد معه صداقة سوف تستمر لثلاثة عقود. وقد اشتهر ريبين في البداية بسبب لوحة ملحمية رسمها عام 1873، وعرض فيها مجموعة من الفلاحين الفقراء أُرغموا على سد رمق العيش من خلال القيام بأعمال شاقة كأن يجرّوا/ يقطروا، في هذه اللوحة، طوافات مائية على طول نهر الفولغا. وأصبح ريبين منذئذ ينظر إليه على أنه «تولستوي الرّسم». وهكذا كان لقاء تولستوي الرّسم بتولستوي الأدب أمرا حتميا، كما كان حتميا أيضا أن يجادل مؤلف كتاب «تحقيق في الثيولوجيا الدوغمائية» ريبين بسبب موضوع رسوماته «المواكب الدينية»، التي كان يعمل عليها عندما قام تولستوي بزيارته في مرسمه زيارة مفاجئة في إحدى أمسيات خريف عام 1880. وكان موضوع أعمال ريبين في تلك الفترة؛ أي الموكب السنوي الذي يقطع رحلة 20 ميلا لإحدى أنفس الأيقونات الروسية من كاتدرائية زنامينسكي في كورسك وصولا إلى الصومعة الكورينايا التي ظهرت فيها أولا، يمثل من وجهة

نظر تولستوي تجسيدا صارخا للطقوس الأرثوذكسية الروسية والإيمان بالخرافات والأساطير. لذلك لم يرَ أن هذه الطقوس خليقة بأن تكون موضوعا للوحة فنية.

منذ أن انطلق موكب كورسك في أول مرة في بدايات القرن السابع عشر انجذب نحوه الروس من جميع أطياف المجتمع بأعداد متزايدة. وكان ثمة بعض عشرات من طائفة سيوتايف، لكن بحلول عقد الثمانينيات اشترك في الموكب الذي امتد على ثلاثة أميال أكثر من 60 ألف شخص، بما في ذلك أفراد من الشرطة يركبون على ظهور الجياد، وحجاج يحملون أيقونة -المعجزات-، وشماسون يحملون رايات، ورجال دين، وحاكم المقاطعة وموظفوه وأسرهم، وأسقف كورسك يرتدي ملابس احتفالية فخمة، ومسؤولون وأسرهم وتجار وفلاحون، جميعهم يمشون وفقا لتراتبية صارمة. وبعد ثلاث سنوات من تاريخ اللوحة الملحمية توقف موكب مقاطعة كورسك الديني، وتحوَّلت بعدها لوحة ريبين إلى هجوم مبطن بعض الشيء على النظام الطبقي الروسي، مع إشارات قوية إلى أن استدامة ذلك النظام كانت مرهونة بالعنف والوسائل الوحشية. ونحن لا ندري إذا ما كان امتعاض تولستوي من موضوع الموكب الديني له علاقة مباشرة بتلك الإشارات. اجتذبت تلك اللوحة الزيتية على قماش الكنفا أربعة آلاف زائر خلال أسبوع واحد عندما عُرضت لأول مرة عام 1883 بسبب محتواها المستفز، وحصل عليها غاليري تريتياكوف بسعر خرافي بواقع 10 آلاف روبل، رغم رفض ريبين التخفيف من حدة النقد الاجتماعي اللاذع فيها.

خلال زيارة سيوتايف لعائلة تولستوي عام 1882، تكشف داخل الأسرة عالمان متباعدان. فقد كان تولستوي وزوجته على دراية تامة بأن مساراتهما بدأت بالتباعد فعليا. كتبت صونيا لاحقا: «تكشَّفَ الاختلاف بيني وبين زوجي ليس لأنني أنا، في أعماق نفسي، من ابتعد عن طريقه، بل لأنه هو الذي قرر الابتعاد». ربما، لو لم تحمل صونيا اثنتي عشرة مرة وتسقط ثلاثة أجنة وتعاني من نوبات مرض خطيرة متكررة، ولو لم تتحمل مسؤولية إدارة أسرة كبيرة على عاتقها وحدها، لأمكنها اتباع مسار زوجها الروحي، ولأمضت وقتها في قراءة الكتب. لكنها

ببساطة لم تستطع فعل ذلك. فقد انتقلت من سن المراهقة إلى سن البلوغ والرشد تحت وصايته وتعلَّمت منه الكثير. أما الآن فيتوقع منها أن تتخلى عن جميع القيم التي زرعها فيها وتتبع خطاه بخنوع. لكنها كانت تتساءل كيف يمكن أن أحذو حذوه وأهجر الدنيا وأتمسك بالتقشف والزهد، وأعيش في الوقت نفسه بلا مدخول، وأُربّي ثمانية أطفال يحتاجون إلى الغذاء والكسوة؟

لم يرتدع تولستوي من نكسة الإحصاء السكاني في موسكو، بل بدأ الآن بضخ طاقته التبشيرية المتقدة من خلال قنوات الكتابة والتأليف. وبخلاف مقالته التي تحدث فيها عن تجربته في الإحصاء السكاني «معتقدات/ قيم البشر/ بماذا يتشبث الإنسان»، لم يكن تولستوي قد نشر أي عمل جديد منذ الجزء الأخير لرواية آنا كارينينا عام 1877. بعدها بخمس سنوات، أصبح الآن مستعدا لنشر آرائه الدينية الجديدة للجمهور بأسره. وقد بدأ تلك الرحلة من خلال قراءة «اعتراف» على سيرغيه يورييف، أحد محرري مجلة الفكر الروسي، التي أصبحت الآن المجلة المفضلة بعد أن أحرق تولستوي جميع مراكبه التي كانت تربطه بكاتكوف ومجلة «الرسول الروسي»، بعد خلافه معه بشأن آرائه المتعلقة بالحرب التركية – الصربية. كانت المجلة تصدر من موسكو، وقد كسبت سمعة طيبة لآرائها الليبرالية عندما أبصرت النور عام 1880، فقد نشر بروغافين، صديق تولستوي، على سبيل المثال، مقالات عديدة تحدَّث فيها عن المنشقين (الخوارج) (الانفصاليين) وطوائف الفلاحين الأخرى. وافق يورييف على نشر كتاب «اعتراف» مباشرة بعد أن قُرئ عليه. وخلال بضعة أسابيع حصل تولستوي على نسخته المنقحة. وقدم عدد مايو المنظور من مجلة الفكر الروسي إلى مكتب الرقابة على المطبوعات الدينية. وبعد أن وافق تولستوي على طلبات إجراء مراجعات للمحتوى أمل هو ويورييف أن يوافق على نشر العدد أخيرا.

في تلك المرحلة كان كتاب «اعتراف» يحمل عنوان «مقدمة لعمل غير منشور». أما العمل الخاضع للرقابة فكان كتابه «تحقيق في الثيولوجيا الدوغمائية»، الذي يردُّ فيه تولستوي على

كتاب المطران ماكاري «الثيولوجيا الأرثوذكسية الدوغمائية». فقد كانت جميع الكتابات العلمانية التي تتطرق إلى مسألة العقيدة أو الكنيسة بطريقة أو بأخرى، تخضع لموافقة اللجنة الرقابية الدينية التي كان يعمل أعضاؤها من دير ثالوث القديس سرجيوس في موسكو، ويُساءَلون من قبل المجمع الكنسي (السنودس)؛ وهو الهيئة العلمانية الحاكمة للكنيسة الروسية الأرثوذكسية ومقرها في سانت بطرسبورغ. وفي الحادي والعشرين من يونيو أصدرت اللجنة رأيها أخيرا. وعلى أساس معاينة وثيقة لنص تولستوي، خلص رئيس القساوسة وعميد كلية موسكو للاهوت فيلاريت، إلى أن موقف تولستوي إزاء الكنيسة الأرثوذكسية يعوزه الاحترام، ولذلك تحظر مقالته. وطالبت اللجنة بحذف المقالة من كل نسخة مطبوعة من المجلة لتتلف على يد الشرطة. ورغم هذه الفتوى التي سُلط الضوء عليها في الصحافة، فإن «اعتراف» قُرئ على نحو واسع. وقد بلغ الاهتمام بكل عمل جديد لتولستوي أن طلب عدد من المسؤولين الرفيعين في الحكومة أن تُرسَل لهم نسخ قبل إتلافها. وقد تم تداول تلك النسخ بين كثير من القراء لاحقا. وقد أتيحت نسخ عدة أيضا من نسخ منفصلة قليلة لمسودات رهن التصحيح قبل طباعتها بقيت في مكتب تحرير مجلة «الفكر الروسي». كانت تلك النسخ المستخرجة والصور المطبوعة طباعة حجرية قد وُزِّعت في أرجاء روسيا، بمساعدة منظمة طلابية في بطرسبورغ مختصة بهذا النوع من المنشورات السرية المحظورة؛ الساميزدات[180]، التي، للمفارقة، كان مستودعها الرئيسي موجودا في شقة في بطرسبورغ تربط مالكها بوزير الداخلية، رئيس الشرطة، علاقة غير مباشرة. أصبح كتاب «اعتراف» متاحا للشراء بثلاثة روبلات للنسخة الواحدة، وبالتالي وصل إلى قطاع واسع من القراء أوسع مما كان يمكن أن يصل إليه بالطرق الشرعية عن طريق 3 آلاف نسخة من الفكر الروسي. حتى إن تورغينيف سمع به وهو في باريس وكتب لتولستوي يطلب منه نسخة. ومع أن تورغينيف وجد قراءته تدعو للاكتئاب (فمحاجته، بحسب رأيه، قائمة على مبادئ زائفة أفضت إلى نكران عدمي لجميع

(180) Самиздат (Samizdat).

أشكال الحياة البشرية)، إلا أنه كان ما يزال يعتبر تولستوي شخصية استثنائية هي الأشهر والأبرز في روسيا.

اعتبر تولستوي عمله «اعتراف» بمثابة الجزء الأول من رباعية أدبية ثانيها «تحقيق في الثيولوجيا الدوغمائية»، وثالثها «وحدة وترجمة الأناجيل الأربعة» ورابعها «بماذا أؤمن؟ / معتقداتي». ويُذكَر أن الجزء الثاني والثالث لم ينشرا، بينما أصبحت مهمة إنهاء المسوّدة الأولى من الجزء الرابع، «بماذا أؤمن/ معتقداتي»، شغله الشاغل في صيف 1882. وإذا كانت الأجزاء الثلاثة الأولى من مشروعه الكبير الجديد صُمِّمت لكشف النقاب عن زيف عقيدة الكنيسة، فقد كان الغرض من «بماذا أؤمن/ معتقداتي» كشف النقاب عن المعنى الحقيقي للمسيحية، كما هي مبيَّنة في الأناجيل. ووفقا لرأي تولستوي، فإن ذلك المعنى الحقيقي موجود على الحقيقة في موعظة الجبل للسيد المسيح (إنجيل متى، الإصحاح الخامس والسادس والسابع)، التي وفرت وحدها احتمالية لوجود الجنة على الأرض من وجهة نظره. وكان أيضا مقتنعا بأن تعاليم الكنيسة هي التي جعلت اتباع تلك الموعظة روحا ونصا أمرا مستحيلا في واقع الأمر.

ولّد إتمام المسودة الأولى من «بماذا أؤمن/ معتقداتي» حالة من النشوة الروحية لدى تولستوي، وأعاد إيقاظ رغبة كانت كامنة في نفسه منذ أن شرع في السعي إلى مواءمة حياته مع المبادئ الدينية والأخلاقية التي آلمته بسبب بعده عنها في السابق. وقد أراد أن يهجر أسرته ويبتر علاقته بحياته السابقة إلى الأبد، لكن الإعراب عن تلك الرغبة بصراحة لزوجته أدى إلى حدوث أول شرخ خطير بينهما. فالمشاجرة العنيفة، في مساء حار من أمسيات أغسطس، التي أدت إلى هجرهما الفراش الزوجي لم تكن لتُنسى بسهولة. فقد تفانت صونيا في تربية الأولاد وخدمة زوجها ومساعدته في إبداعاته. وشعرت بالغضب لأنه أصبح يهملهم منذ أن انتقلوا إلى موسكو، وبالتالي فإن مجرد التفكير في فقدانه للأبد (هجرهم) كان أمرا يقضُّ مضجعها. أما تولستوي فقد كان ممزقا بالحيرة من الداخل. فقد كان يمقت أسلوب الحياة الأرستقراطي الذي تزاوله أسرته من جهة، ومن جهة أخرى كان ما يزال يحب صونيا حبا عميقا (سوف

تنجب صونيا طفلين آخرين خلال السنوات العصيبة التالية). وكان يعرف مسؤوليته الأسرية حق المعرفة. وفي ربيع عام 1882، وبعد استسلامه لحقيقة أن الأسرة أرادت بالفعل العيش في موسكو أحب ذلك أم لم يحب، بدأ تولستوي بالبحث عن منزل في تلك المدينة. وبعد أيام من تسليمه مسودات «اعتراف» (رهن التصحيح والطباعة) لمكتب تحرير مجلة الفكر الروسي، قرر أخيرا شراء منزل خشبي لأسرته في شارع خلفي هادئ في ضواحي مركز المدينة. ذلك أنه كان قد زار ذلك المنزل من قبل مرات عدة، وتفاوض بشأن السعر فاشتراه لاحقا بـ36 ألف روبل. بعدها أمضى وقتا من فصل الصيف يحسّن ويرمّم ويصلح المنزل لكي تنتقل الأسرة إليه في بداية الخريف.

ويعود المنزل لعام 1808، وكان يملكه تاجر يربي عددا كبيرا من الكلاب فيه، ولم يكن يقع في منطقة سكنية راقية. اغتمّت صونيا عندما أتت لأول مرة إلى شارع دولغا-خاموفنيتشيسكي[181] لترى المنزل العادي البالي الذي لا يمكن تصنيفه، والمحاط بمأوى للمجانين ومصنع لتخمير الجعة ومعمل للنسيج. لكن المنزل احتوى على حديقة غناء هادئة جعلته يبدو شبيها بمنزل ريفي عوضا عن أن يكون منزلا في وسط المدينة. وقد قرر تولستوي شراءه لوفرة الورد وشجيرات المشمش وأشجار الفاكهة الأخرى. عمل تولستوي بضمير في ذلك الصيف؛ فقام بترميم الجدران وطلائها بالكلس وتوريقها بورق الجدران، وأصلح المدفأة والأرضية الخشبية واشترى بعض الأثاث. وانتقلت الأسرة إلى المنزل في الثامن من أكتوبر، وشعر الجميع بالسعادة لوجود مستقر لهم يمضون فيه فصول الشتاء. وبينما انهمكت صونيا بطيف واسع من الأنشطة لتثقيف الأولاد وتسليتهم في الوقت نفسه، واسى تولستوي نفسه في ذلك الخريف بدراسة العبرية على يد حاخام من موسكو أخذت الدهشة منه كل مأخذ، عندما وجد تلميذه يجادله في معاني بعض النصوص من العهد القديم بعد مرور بضعة دروس.

(181) Долго-Хамовнический (Dolgo – Khamovnichesky).

ومع مرور الوقت سعى تولستوي إلى موائمة جوانب إضافية من حياته مع مثله الدينية، وشكلت سنة 1883 سنة محورية في هذا التوجه. فقد بدأ يرتدي ملابس الفلاحين في المدينة والريف والمنزل على حد سواء، وتخلى أيضا عن لقبه قدر المستطاع، وحاول جاهدا ألا يحصل على خدمة من أحد، وكان على دراية أنه يتعين عليه فعل المزيد. وبينما كان يزور ياسنايا بوليانا في شهر مايو بعد أن قدم العون في إخماد حريق في القرية دُمِّر بسببه اثنان وعشرون منزلا للفلاحين، اتخذ الخطوات الأولية في التخلي عن ممتلكاته، بما في ذلك أعماله الأدبية، من خلال منح صونيا زوجته توكيلا للنيابة عنه في تلك الأمور. بعدها سافر على الفور إلى سمارا للمرة الأخيرة حيث باع خيله وماشيته. وقسم أراضيه هناك إلى خمسة أقسام بغية تأجيرها للفلاحين. وخلال الشهر الذي أمضاه في السهول اشترك في نقاشات ساخنة مع ثائر فلاح كان يعيش تحت رقابة الشرطة، محاولا إقناعه ورفقاءه بأن اللجوء إلى العنف أمر لاأخلاقي وعبثي في الوقت نفسه. كما كتب لصونيا يخبرها بأنه جدد عقده مع المالاكاني المحليين الذين كان يناقشهم مطولا في أمور الدين والمسيحية. وكان على دراية تامة بأن عقده معهم سيسترعي اهتمام الشرطة. ورغم مخاوف صونيا رد عليها بالقول: «دعيهم يخبروا عن العقد».

كان تولستوي شخصا جسورا لا يخشى أحدا، لكنه لم يكن على دراية بحجم عمليات الشرطة التي أُطلقت لمراقبة كل شاردة وواردة يقوم بها. وفي الوقت نفسه لم تكن الشرطة تدرك حجم المشاكل التي سيسببها لهم تولستوي في السنوات القادمة. فقد رفع قسّ محلي تقريرا إلى أسقف سمارا بمجرد لقاء تولستوي بالمالاكاني وبروغافين في السهول في صيف عام 1881، ومنذئذ تحول الملف إلى وزارة الداخلية في بطرسبورغ التي بدأت برصد «أنشطته الضارة». وفي سبتمبر، ولأول مرة منذ عام 1862 (السنة التي فتش فيها منزله في ياسنايا بوليانا بسبب أنشطته في مدرسة الفلاحين)، خضع تولستوي لمراقبة سرية دائمة. ومع ذلك، رُشح تولستوي في ديسمبر من تلك السنة ليصبح مارشال الأشراف/ مشير النبلاء في مقاطعته من قِبل حكومة تولا

المحلية، التي لم تكن تعلم بوضعه تحت الرقابة السرية الدائمة. رفض تولستوي على الفور ذلك المنصب، ولكن كونستانتين بوبيدونوتسيف[182]، المدعي العام في المجمع الكنسي، لم يعرف بذلك، فحرر رسالة وجهها لوزير الداخلية الجديد، الكونت ديمتري تولستوي (وهو من أقرباء تولستوي البعيدين وكان قد عُيّن وزيرا للتعليم في السبعينيات أيضا) وقال فيها:

تغيرت في السنوات الأخيرة فانتازيا وأوهام الكونت تولستوي من جديد، فقد استسلم للهوس الديني. وقد نتج عن ذلك ابتعاده الكامل عن المسيحية من ناحية الاعتقاد. وقد أعاد صياغة الأناجيل بكلماته الخاصة وشروحاته المليئة بالتشكيك، إذ يبشر فيها بالأخلاق المسيحية النابعة من العقلانية ويرفض تعاليم الرب وألوهية المسيح المخلص. وقد كان ينوي نشر عمله في الخارج، ولكنه تراجع عن ذلك بعد توسل مستمر من زوجته (ويذكر أن طفلهما الأخير لم يُعمَّد رغم تضرع وتوسل زوجته)، وهو الآن يُوزَّع على شكل مخطوطات. تولستوي على تواصل مع جميع الطوائف العقلانية والمالاكاني و(سيوتايفيتي) وغيرها.

بالفعل، تمت مراقبة تحركات تولستوي عن كثب أثناء رحلته إلى سمارا في صيف 1883. وأخبر عميل شرطة محلي بأن تولستوي حاول الدعوة إلى مبدأ المساواة في صفوف مجموعة من الفلاحين، وحثهم على التخلي عن الملكية الفردية الخاصة ورفض الحكومة. وبعض أيام قيل إنه كان يقنع الفلاحين بأنهم يبددون أوقاتهم في طلاء الكنائس وتزيينها والذهاب إلى القداس فيها. ومنذئذ ستُعزَّز الرقابة عليه فتتابع الشرطة بمثابرة جميع تحركاته وتدوِّن في تقاريرها المنتظمة موعد وصوله ومغادرته موسكو.

عاد تولستوي إلى ياسنايا بوليانا في يوليو ليجد رسالة مقتضبة من تورغينيف الذي كان يبادله مراسلات ودية في تلك الفترة. أخبره تورغينيف بأنه على فراش الموت لكن لم يكن ذلك السبب الرئيسي لإرسال الرسالة:

(182) Константин Победоносцев (konstantin pobedonostsev).

«أكتب إليك في الواقع لأعبر عن مدى سعادتي لأنني كنت من معاصريك وأطلب منك طلبا أخيرا صادقا. صديقي العزيز، عد إلى كتابة الأدب! فهذه الموهبة أتت إليك من مصدر كل شيء آخر. يا إلهي كم سأكون سعيدا إذا ما تيقنت أن طلبي هذا له وقع عليك! أنا رجل أحتضر. حتى إن الأطباء لا يدركون ما هي علتي، داء المعدة النورالجي النقرسي. لا أستطيع المشي أو الأكل أو النوم! ولكن لا يهم! حتى إن تكرار ذلك يدعو إلى السأم! صديقي، كاتب الأرض الروسية العظيم، لبِّ لي طلبي! وأعلمني بتسلمك لهذه الخاطرة، واسمح لي مجددا بأن أعانقك وأسرتك بحرارة وود. لا أستطيع الاستمرار في الكتابة. أشعر بإرهاق شديد».

تأثر تولستوي بتلك الرسالة تأثرا عميقا (رغم أنه ربما انزعج لاحقا عندما أصبح توصيف تورغينيف له «كاتب الأرض الروسية العظيم» عبارة مُعلَّبة تُستخدَم بانتظام حينما يُذكَر). توفي تورغينيف في الشهر التالي ولم يكن يعلم أن صديقه كان قد عاد جزئيا إلى الأدب بالفعل. فقد بدأ تولستوي عام 1881 في تأليف رواية قصيرة جديدة ستُعرَف فيما بعد بعنوان «مقتل إيفان إيليتش». لكنه توقف عن إتمامها عام 1883، ثم ما لبث أن عاد إليها في السنة التالية نزولا عند رغبة صونيا التي كانت أيضا تتوق لأن يعود زوجها إلى تأليف الروايات؛ لكي يتسنى لها مشاركته حياته الإبداعية من خلال نسخ مسوّداته.

ومع أن تولستوي لم يعد إلى الأدب بالطريقة التي أرادها تورغينيف (لأن اهتمامه بالرواية من الآن فصاعدا لن يكون كما كان في السابق)، لكنه مع ذلك كان مصمما على تبجيل طلب صديقه. لذلك، وافق على المشاركة في اللقاء الاستذكاري لرابطة الأدب الروسي في موسكو في نهاية أكتوبر من عام 1883، ربما بوازع داخلي حرك ضميره لأنه رفض بتبجح في السابق المشاركة في احتفالية بوشكين عام 1880. وعندما اتضح أن تولستوي سيلقي خطابا إبان ذلك الاجتماع، انتشر الخبر في المدينة كانتشار النار في الهشيم، واعتبر حدثا مهما تلقفته الصحافة بالنشر. كما كتب رئيس قسم الرقابة الصحفية لوزارة الشؤون الداخلية قائلا: «تولستوي رجل مجنون. لذا يمكن توقع أي شيء يصدر منه. فقد يقول أشياء مستهجنة شاذة تفضي إلى فضيحة

كبرى». وبدوره قام الوزير ديمتري تولستوي بإخبار حاكم موسكو بالأمر، الأمير دولغاروكوف، الذي قام على الفور بمنع حدوث اللقاء أصلا، مما ولّد استياءً عارما في صفوف الإنتلجنسيا الروسية.

اضطر الوزير الكونت ديمتري تولستوي للتعامل مع قريبه المتمرد الفوضوي في قضية أخرى ذلك الخريف. فقد نشرت مجددا الصحف الرئيسية الروسية نبأ رفض تولستوي لأسباب دينية، تعيينه عضوا في هيئة محلفين في محكمة تولا الإقليمية. وبما أن الكونت ديمتري تولستوي كان يخشى أن تُقوَّض سلطة المحاكم في البلاد إذا ما حذا الآخرون حذو قريبه، فإنه عبّر في هذه المرة عن مخاوفه مباشرة للقيصر. لكن كبح جماح تولستوي عندها كان أمرا شبه مستحيل. فقد بدأت تظهر، عام 1883، أجزاء من «اعتراف» في مجلة المهاجرين الثوريين «القضية المشتركة» ومقرها جنيف. ونشرت النسخة المنفصلة الأولى لـ«اعتراف» في السنة التالية على يد ميخائيل إلبيدين، المسؤول عن قسم المنشورات في المجلة نفسها. وكان إلبيدين طالب لاهوت آخر تحول إلى ثوري وهرب من السجن، وفرّ إلى الخارج حيث نشر أيضا النسخة الأولى من عمل تشيرنيشيفسكي «ماذا يجب فعله؟» عام 1867. وأُعيد طبع نسخة «اعتراف» عددا من المرات. وفي يونيو/ حزيران عام 1883 نُشرت ترجمة فرنسية لعمل تولستوي «مختصر في الأناجيل» في مجلة باريسية. أما المترجم فكان ليونيد يوروسوف، نائب حاكم تولا وصديق تولستوي المتعاطف مع آرائه، وقد بدأ أيضا بترجمة «اعتقادي/ بماذا أؤمن؟» إلى الفرنسية. كان تولستوي يخطط لنشر «اعتقادي/ بماذا أؤمن؟» في مجلة «الفكر الروسي» متوقعا انتشار النسخ المعدة للتصحيح بعد صدور حظر كما كانت الحال مع كتابه «اعتراف». لكن العمل كان ذا حجم لا يسمح بنشره كمقالة، لذلك قرر تولستوي نشره على شكل كتاب. عمل تولستوي على نحو مكثف، ولكنه في بداية أكتوبر، رغم إرهاقه وسعادته في الوقت نفسه، أصبح جاهزا لتسليم المخطوط للطباعة. وعندما توقف في تولا وهو في طريقه إلى موسكو، تعرف إلى شخص استثنائي هو عالم السنسكريتية وأستاذ علم فقه اللغة المقارن

(الفيلولوجيا) في جامعة سانت بطرسبرغ، إيفان مانييف، الذي كان يُعتبَر الخبير الروسي الأعظم في الديانة البوذية؛ إذ كان قد سافر إلى الهند في مناسبات عديدة. أما تولستوي فقد زاد اهتمامه بالديانات الشرقية على نحو مضطرد في العقود الأخيرة من حياته. وقد وجد فرصة تعرفه إلى مانييف مواتية، فأخضعه لاستجواب امتد لخمس ساعات لم يترك خلالها تولستوي شاردة ولا واردة إلا سأل عنها، ليستوضح جوانب دقيقة في الديانة البوذية.

ورغم أن تولستوي كان يشعر بالعزلة التامة في ظل أسرته التي كانت لا تدرك عمق أفكاره، إلا أنه وجد سلوانه في صفوف عدد لا بأس به من المثقفين الذين كان يستمتع بالحديث إليهم شخصيا أو من خلال المراسلات. وأولهم كان معلم أولاده فاسيلي ألكسييف الذي انتقل ليعمل في عزبته في سمارا عام 1881. ثم استمر التواصل بينهما في السنوات اللاحقة. كما أن البعض كانوا قد بدؤوا بالتوجه إلى تولستوي للتعرف عليه. في نهاية 1882، باشر تولستوي بمراسلات مقتضبة مكثفة مع طالب جامعة سابق نُفي إلى عزبة والده في مقاطعة سمولينسك. لكن تولستوي وجد عزاءه وسلوانه في فلاديمير تشيرتكوف أكثر من أي شخص آخر على الإطلاق. إذ اعتُبر تشيرتكوف شقيق روحه وأنجبَ تلاميذه وأبرَّهم وأكثرَهم ولاءً. تشيرتكوف الذي قَدِم لزيارة تولستوي في أكتوبر من عام 1883، ومنذئذ وحتى الممات، سيحتل تشيرتكوف مكانة خاصة ويلعب الدور الأهم في حياة تولستوي كالصديق الأقرب والشريك الأفضل في رسالتهما المشتركة لنشر تعاليم المسيحية كما رأياها.

كان تشيرتكوف يبلغ من العمر تسعة وعشرين عاما عندما التقى بتولستوي الذي كان في الخامسة والخمسين حينها. لم يكن تشيرتكوف يحمل لقباً أرستقراطياً، لكنه كان سليل عائلة أكثر نبلاً من عائلة تولستوي نفسه. فكلا والديه كان من أسر أرستقراطية مرموقة قديمة (وقد أسس أحد أعمامه مكتبة تشيرتكوف التي استعان تولستوي بمحتوياتها أثناء كتابة الحرب والسلام)، وكانا أيضا قريبين من البلاط القيصري. فألكسندر الثالث (القيصر المستقبلي) كان يلهو ويلعب مع تشيرتكوف حينما كانا طفلين، عندما كان ألكسندر الثاني زائرا منتظما لقصر

عائلة تشيرتكوف المهيب في سانت بطرسبورغ، وتشيرتكوف لم يزل حينها طفلا صغيرا. وعندما كبر حظي بمعاملة تفضيلية من القيصر نفسه. والقيصر يدعو آل تشيرتكوف ليمضوا العطلة في قصر رومانوف في ليفاديا في القرم. كما كان القيصر أيضا يجلسه إلى جانبه خلال مشاهدة عروض الخيالة. تلقى تشيرتكوف تعليما نخبويا وحذا حذو أبيه فالتحق بالجيش وهو في التاسعة عشرة، فكان في انتظاره مسار وظيفي لامع.

كان تشيرتكوف شابا ثريا فارع القامة وسيما يعرف بـ«ديما الوسيم». وكان اسمه يُدرَج على قائمة المدعوين لأرقى الفعاليات الاجتماعية والحفلات الراقصة في المدينة. وقد كان مشهورا أيضا بغرابة لأطوار؛ فقد تسبب بزوبعة من الصخب والجلبة في وسط ثري استثنائي يتبع بروتوكولا خاصا، عندما رفض مراقصة الإمبراطورة ماريا فيودرفنا في إحدى المناسبات. وفي عام 1879، حصل تشيرتكوف على إجازة امتدت لأحد عشر شهراً قضاها في إنجلترا، ثم أصاب والديه بالصدمة بعيد عودته من هناك عندما اتخذ قرارا بالاستقالة من الجيش. ومنذ عام 1881 عاش في الليزينوفكا، عزبة والديه الهائلة في مقاطعة فارونيج، حيث انغمس في العمل الخيري لمصلحة الفلاحين من خلال تأسيس المدارس والمكتبات والمنشآت التدريبية.

لم تكن رغبة تشيرتكوف بتكريس حياته لفائدة الفلاحين السبب الوحيد الذي جذبه لتولستوي. فقد ألهمته أيضا المثل المسيحية غير التقليدية التي ورثها في البداية عن أمه؛ التي تحولت إلى المذهب البروتستانتي اليسوعي بعد الوفاة المبكرة لابنيها البكر والأصغر. أضف إلى أن أمه النشطة الدينامية يُنسَب لها الفضل في الإتيان باللورد رادستوك إلى روسيا عام 1874. فهي التي أدخلته إلى أفضل وأرقى الصالونات في بطرسبورغ، وعرَّفته بصهرها العقيد فاسيلي باشكوف الذي خَلَفَ اللورد وحمل رايته بعد أن طُرد من روسيا عام 1878. أصبح باشكوف، وهو أحد أكثر الرجال ثراءً في روسيا وسليل الأرستقراطية، يسوعيا بروتستانتيا أيضا، فهجر صالونات المجتمع الراقي وحوَّل منزله إلى دار عبادة يصلي فيه الناس ويتضرعون إلى ربهم. وقد كان في بعض الأحيان يجتذب زهاء ألف تابع. كما أسس أيضا رابطة التشجيع على

القراءة الأخلاقية والروحانية التي كانت تنشر نسخ الأناجيل المترجمة إلى الروسية ومواد أدبية تنويرية أخرى. وعندما ذهب إلى إنجلترا، كان من الطبيعي أن يلتقي تشيرتكوف باللورد رادستوك الذي قدمه للأوساط الأرستقراطية والنخبة السياسية بما في ذلك الملك المستقبلي إدوارد السابع.

زاول تشيرتكوف طريقة مسيحية في العيش منذ عودته من إنجلترا، لكنه لم يكن يسوعيا إنجيليا كأمه؛ فآراؤه الدينية كانت أكثر تساوقاً مع معتقدات تولستوي، وهذا ما يشرح السبب وراء التقائهما. فقد شعرا بأنهما صديقان قديمان. فقد كان تولستوي أول شخص شاطر تشيرتكوف رأيه بشأن عدم تواءم المسيحية مع الخدمة العسكرية. أما تولستوي فقد انبهر بهذا الشاب الزائر ونشأ بينهما رابط فوري تعزَّز ليس من خلال التقاء آرائهما الدينية فحسب، بل من خلال خلفيتهما الأرستقراطية أيضا. وهكذا وجد تشيرتكوف في تولستوي مسيحه، ووجد تولستوي في تشيرتكوف المؤتمن على أسراره الذي طالما كان يبحث عنه. وخلال فترة صداقتهما شكلت الرسائل الحيز الأكبر في تواصلهما؛ فمراسلاتهما تشغل خمسة مجلدات منفصلة في أعمال تولستوي الكاملة في النسخة التي نشرها تشيرتكوف في العشرينيات من القرن العشرين. وجد تولستوي في تشيرتكوف أيضا مصدر حماية غير متوقع؛ لأن علاقاته المنيعة ومعارفه القوية مع البلاط القيصري مكنتهما من مباشرة برنامجهما وتحديد أنشطتهما بدرجة من الحصانة من المساءلة. فبالإضافة إلى اقتراح تشيرتكوف إقامة مشروع نشر، أراد أيضا المساعدة في نشر كتابات تولستوي خارج البلاد. وهكذا، وبعيد لقائهما الأول، بدأ تشيرتكوف ترجمة «معتقداتي / بماذا أؤمن؟» إلى الإنجليزية، اللغة التي كان يتقنها على نحو لا تشوبه شائبة.

ثمة صديق جديد آخر هو نيكولاي جي الذي قدم دعما معنويا مهما في المراحل الأخيرة من إتمام «معتقداتي/ بماذا أؤمن؟» عندما شعر تولستوي بأنه تحول إلى ماكينة تأليف. فقد قدِمَ نيكولاي إلى موسكو عم 1884 ليرسم تولستوي. وبخلاف لوحة كرامسكوي، التي يحدّق

فيها تولستوي في الناظر إليه مباشرة، رسم جي تولستوي وهو يجلس إلى مكتبه ويمسك بالقلم ورأسه منحنٍ فوق مخطوطه في تركيز عميق. وهكذا، لم يُظهر جي وجه تولستوي متعمدا، وقد خالف بذلك القواعد التقليدية لرسم البورتريه، وأدهش بذلك الكثيرين ممن شاهدوا اللوحة وقت عرضها. كان جي، شأنه شأن تولستوي، يؤمن إيمانا راسخا بالعمل اليدوي (فمن اختصاصاته كان بناء المدخنات/ الأفران)، وكان من أوائل «أتباع تولستوي». وقد حاول الالتزام بمبادئ تولستوي روحا ونصا، ثم أصبح نباتيا متشددا يمتنع عن الطعام بالكلية في بعض الأحيان. وحاول أحيانا أخرى وبشجاعة أن يرغم نفسه على التهام أشياء لا يستسيغها، فكان يرفض تناول الحنطة السوداء ويمضغ حبوب القمح مع زيت القنب، أو من دون زيت، عوضا عن الزبدة، تكفيرا عن ذنوبه ربما. وفي عام 1886 تخلى عن جميع ممتلكاته. وكانت له زوجة كزوجة تولستوي، لم تكن تشاطره أفكاره ومعتقداته.

اتبع تولستوي استراتيجية في محاولته الالتفاف على مقص الرقيب في عمله «معتقداتي»، من خلال الكتابة من وجهة نظره الخاصة. وطبع خمسين نسخة فقط بسعر مغر جدا؛ بواقع 25 كوبيكا فقط. لكنه كان يوهم نفسه بأن رفضه الصريح للسلطتين الإكليروسية والعلمانية سوف يكون مبررا. ففي الثامن عشر من فبراير عام 1884، صودرت النسخ التسع والثلاثون التي بقيت في المطبعة، لكنها لم تُتلَف بل أُرسلت إلى بطرسبورغ حيث، بالإضافة إلى ثماني نسخ طُلب من تولستوي تقديمها للمعاينة، سُلِّمت لشخصيات رفيعة المقام في الحكومة والبلاط الإمبراطوري، كانوا متلهفين لقراءة آخر أعماله. وخلال فترة وجيزة طُبع العمل بطريقة الطباعة الحجرية، وبيعت النسخة الواحدة بأربعة روبلات. وكان تولستوي نفسه شريكا راغبا في تلك العملية السرية غير القانونية، فقد دفع لقاء عمل الكتبة 15 روبلا لإتمام عملية نسخ المخطوط للتوزيع. وبدأت الترجمات الفرنسية والإنجليزية والألمانية بالظهور أيضا.

كان «معتقداتي» عملا مهما للغاية لتولستوي إذ شكل تتويجا لكتاباته الدينية السابقة. فقد توخى العناية الفائقة بالسرد فيه، فشكل الشرح المنهجي الأول لآرائه الأخلاقية والدينية، أي

«عقيدته». أراد تولستوي ديانة تفوز في اختبار العقلانية. وأراد مجموعة قواعد واضحة بسيطة يتبعها المرء في حياته اليومية، وقد وجدها بالفعل في وصايا المسيح الخمس في موعظة الجبل، ويمكن تلخيصها كالتالي:

1. تعايش بسلام مع جميع البشر؛ فأي امرئ يغضب من أخيه الإنسان سوف يحاسب.
2. اجتنب الشهوات؛ فأي امرئ ينظر إلى المرأة بشهوة فقد زنا بها في قلبه. ولا تُطلِّق؛ فأي امرئ يُطلِّق زوجته لسبب ما، بخلاف الخيانة الزوجية، يؤدي طلاقه إلى دعوتها لتصبح زانية، وأي امرئ يتزوج بمطلقة يجترح الزنا.
3. لا تحلف. لا تحلف أبدا: لا تحلف بالسماء لأنها عرش الرحمن، ولا تحلف بالأرض لأنها موطئ/ مسند قدميه، ولا تحلف بالقدس/ أورشليم لأنها مدينة الملك الجبار.
4. لا تقاوم الشرّ؛ فإذا صفعك أحدهم على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر.
5. لا تكره. أحب أعداءك وصلِّ من أجل أولئك الذين يضطهدونك.

إذا التزم الجميع بهذه الوصايا فلن تندلع الحروب ولن نحتاج إلى جيوش. بالفعل، فإن مزاولة حياة مسيحية تولستوية سيزيل الحاجة إلى المحاكم أو ضباط الشرطة أو الملكية الخاصة وأي شكل من أشكال الحكومة، فالأخلاق في رأي تولستوي حجر زاوية المسيحية. وقد أصبح تولستوي الآن قادرا على التفريق بين الحق والباطل إذ رأى الحياة أبيض أو أسود. كما كتب في «معتقداتي»:

كل الأشياء التي كانت تبدو لي حسنة نبيلة، من قبيل: الطموح والشهرة والتعليم والثروة وأسلوب الحياة المتطور الرفيع والبيئة والمأكل والملبس وفضائل المتحذلقين، أصبحت كلها أمورا سيئة وخسيسة. كل الأشياء التي كانت تبدو لي قبيحة وخسيسة، كأسلوب حياة الفلاحين والعزلة والفقر والفظاظة والخشونة وبساطة البيئة المحيطة والمأكل والملبس وفضائل البسطاء، كلها أصبحت حسنة ونبيلة.

لم يكن مستغربا لاحقا أن يحدد نيكولاي برديائف إحدى المفارقات العديدة في حياة تولستوي، في حقيقة أن هذا الرجل الذي كان روسياً حتى النخاع، بدأ التبشير بـ«التديّن الأنغلوساكسوني»؛ لأن ثمة مواطن شبه مدهشة بين آرائه وآراء المصلح ماثيو آرنولد التي روّج لها في العصر الفيكتوري في إنجلترا في السبعينيات من القرن التاسع عشر.

فآرنولد، كتولستوي، تحوَّل في أواخر حياته إلى مسألة الدّين، رغم أن دافعه هنا كان مرتبطا بالتصدي للأزمة التي نشأت جراء مقاومة رجال كنيسة إنجلترا المحافظين لهجمات الفكر العلمي العقلاني (بعد نشر عمل داروين «أصل الكائنات» عام 1859). قابل تولستوي آرنولد لفترة قصيرة في لندن عام 1861، وعندما قرأ عام 1885 كتابه المثير للجدل «الأدب والدوغما: مقال لفهم الإنجيل على نحو أفضل»، الذي نشره عام 1873، أعلن تولستوي بحماسة في رسالة إلى صديقه أنه وجد نصف أفكاره في كتاب أرنولد. وتأكد بعدها من إرسال نسخة عن «معتقداتي/ بماذا أؤمن» إلى أرنولد بمجرد أن أصبحت النسخة المترجمة متاحة. وللمصادفة، يمكن القول إن الفضل في إثارة الاهتمام الجِدّي بتولستوي في إنجلترا يعود إلى ماثيو أرنولد، إذ لم يكن تولستوي معروفا هناك قبل الثمانينيات من ذلك القرن. ففي المقالة التي نشرها عام 1887، قبل أشهر قليلة من وفاته، قدَّمَ أرنولد أعمال تولستوي إلى القراء البريطانيين. بالإضافة إلى دفاعه الشرس عن سموّ آنا كارينينا على مدام بوفاريه، وتقديم تلخيص عن فلسفة تولستوي الدينية لغاية تلك الفترة. كان أرنولد متعاطفا مع القالب العام لتلك الفلسفة، لكنه أدرج شروحات حكيمة في مقالته. ومع أنه لم تتح له الفرصة لقراءة كتابات تولستوي الدينية اللاحقة، لكن نقده الرئيسي وكشفه العيوب الأساسية في فكر تولستوي، بالاعتماد على قراءته «معتقداتي»، لا يمكن أن يُقارَن مع أي نقد آخر في وضوحه ودقته:

«لا يمكن للمسيحية أن تُلخَّص في أي مجموعة من الوصايا. فكما قلت في موضع آخر: المسيحية هي المعين والمنبع، ولا يمكن لامرئ أن ينهل منها ماءً ويقول كفى. لقد ارتويت ولا ماء عذب بعدي. فتقزيم المسيحية على هذا النحو والقول بأن ثمة سلسلة من المبادئ، حتى لو

كانت تلك التي تمخضت عن موعظة الجبل، هي زبدة المعادلة المسيحية ولا شيء سواها خطأ لا يستوي».

لم يكن تولستوي رجل تسويات وأنصاف حلول. ففي ربيع عام 1884، بعد أن تعافى من الإرهاق الذي سبَّبه إتمام المسوّدة الأولى من «معتقداتي/ بماذا أؤمن»، والمراحل التالية المختلفة من التصحيح والتدقيق (يُذكَر أن التعديلات التي قام بها في المرحلة الأولى كلفته المبلغ نفسه الذي دفعه أيضا على الطباعة)، تعلَّمَ تصليح الأحذية وقرأ كونفوشيوس ولاوتسو.

وكانت الحياة العائلية في منزله في موسكو حياة سريالية في الفترة الأولى من عام 1884، ففي قسم من المنزل كان تولستوي، والحاكم العام يراقبه عن كثب، يخفف ويقلم من بصمة وجوده في الدنيا إلى الحد الأدنى، وينتقد بقساوة الرقص في الحفلات الساهرة والتزين والتبرج ويسمها بالأفعال الفاسقة. بينما في قسم آخر من المنزل، ترتدي صونيا وابنتها تانيا حرير التول وقماش المخمل، وتنطلقان إلى حفلات المجتمع الراقي الساهرة، حيث تصادقتا مع الحاكم العام الذي لم يدخر وسعا في خدمتهما إذ كان دمث الأخلاق ودودا طيبا. وكانت صونيا لا تزال تُرضع ابنها أليوشا البالغ من العمر سنتين، وكانت أيضا حاملا بطفل آخر، لكن ذلك لم يثنها عن الاستمتاع بوقتها في تلك الفترة والتردد على الحفلات. أما تولستوي فقد شجب ما كانت تنفقه زوجته على فساتين تانيا في ذلك الموسم، إذ كان الفستان الواحد يكلف 250 روبلا؛ أي مبلغا يكفي لشراء 25 حصانا. كان تولستوي أيضا يتألم من مجرد التفكير في الحوذي العجوز وهو يرتجف بردا خارج القصور المهيبة التي يتراقص فيها أسياده. لذا، انسحب إلى ياسنايا بوليانا ليمكث فيها فترة يُهدّئ فيها من توتر أعصابه. أما صونيا فكانت أيضا تتألم لرؤية زوجها وهو جالس في المنزل يرتدي جوارب صوف قذرة، ويخيط حذاء مشوها ممسوخا للخادمة العجوز أجافايا ميخائيلوفنا، بينما يهمل أولادهما المراهقين، إيليا وليف، وظائفهما المدرسية ويسلكان مسلك الانحراف. سئمت صونيا من لعب زوجها دور «الدرويش المجذوب»، واشتكت لشقيقتها في رسالة من تخلي تولستوي عن واجباته كأب، وقالت إنه لم يعد حتى

مهتما بأن يكون جزءا من الحياة العائلية. وبينما كانت صونيا تكتب رسائل لشقيقتها، كان تولستوي يسجل في مذكراته، وفي رسالة لتشيرتكوف، الشقاق مع زوجته الذي منعه من مواءمة حياتهما العائلية مع قناعاته الشخصية. وكان يشعر أنه الشخص العاقل الوحيد الذي يعيش في دار للمجانين يديرها رجال مجانين. لكنه ووفقا لأخيه سيرغي، لم يكن من مجنون سوى تولستوي نفسه الذي لم يكن يتعاطف مع زوجته المعذبة، صونيا.

استمر التوتر في العلاقة في ذلك الصيف عندما عادت الأسرة إلى ياسنايا بوليانا، ووصلت تانيا كالمعتاد لتقضي عطلة الصيف مع أولادها في المنزل الآخر من العزبة (وكقاعدة؛ لم يكن زوجها ألكسندر كزمينسكي ينضم إليها). وكانت أيام الصيف تلك أسعد أوقات السنة التي تقضيها صونيا مع شقيقتها تانيا، لا سيما أنها أصبحت مؤخرا تعيش بمعزل عن زوجها. فقد أصبح الآن يستيقظ باكرا ليقوم ببعض الأعمال البدنية، ويمضي أياما طويلة يجز العشب ويعمل مع الفلاحين. وقد أقلع أيضا عن أكل اللحم وشرب الخمر وحاول أن يتوقف عن التدخين. لكن تمرسه على ضبط النفس وتغيير تلك العادات لم يكن كافيا للحفاظ على برودة أعصابه وضبط نفسه في التعامل مع صونيا، فشبّت بالتالي المشاجرات بينهما. ومع بداية يونيو أصبح يتوق مجددا لمغادرة ياسنايا بوليانا وهجر أسرته. ويذكر أن مشاجرة عنيفة مريرة اندلعت بين الزوجين في السابع عشر من يونيو بسبب المال، قبيل أن تضع صونيا مولودها. وفي فترة المساء قرر تولستوي مغادرة المنزل. وبالفعل وصل إلى منتصف الطريق المؤدي إلى تولا قبل أن يشعر بالندم ويقفل راجعا. وعندما أخبره الشابان الملتحيان (ولداه) وهما يلعبان الورق في المنزل بأن بقية أفراد الأسرة في الخارج يلعبون الكروكيه، انسحب إلى مكتبه ونام فيه حتى الثالثة فجرا عندما أيقظه نبأ ولادة زوجته.

لم تكن ولادة ألكسندرا (ساشا) مناسبة سعيدة؛ لأن صونيا لم تكن راغبة في مزيد من الأطفال، وكانت تخشى الولادة. وقد استأجرت مرضعة هذه المرة بعد نوبة غضب وإهانة أصابتها. وقد شرحت بعدها في مذكراتها وقالت إن تولستوي كان في تلك الفترة باردا فظا معها

ولا يحرّك ساكنا في المنزل، وبالتالي لم تشعر بوخز الضمير عندما تحدثه وأتت بالمرضعة. وفي يوليو/ أيلول كانت تشعر بتعاسة مرعبة دفعتها للتعبير عما يختلجها من مشاعر من خلال رسالة إلى ألكسندرين؛ مؤتمنة أسرار زوجها السابقة، قالت فيها: «لم يكن ليوفاشكا من قبل في حالة عقلية متطرفة كما هو عليه الآن». وشرحت أن الوصول إلى تسوية بينهما أمر صعب للغاية. كما وجدت الأمر مزعجا عندما اكتشفت أن تولستوي يشتكي منها في رسائله، ويقول لمن يراسله بأنه يشعر بوحدة قاتلة. لا شك أن ألكسندرين تعاطفت مع صونيا؛ فقريبها النّزق لم يتواصل معها منذ أن تشاجرا بسبب آرائهما الدينية المتباعدة، وفجأة في ذلك الربيع أغرقها بأربع رسائل متتالية لا يفصل بينها زمن طويل. فقد أراد تولستوي منها أن تشفع لآنا آرمفلد، وهي أرملة أستاذ في جامعة موسكو، لأن ابنتها ناتاليا كانت تنتمي إلى المتمردين، وقد صدر حكم سجن بحقها (14 سنة مع الأشغال الشاقة) في كارا، وهو سجن فظيع سيئ السمعة في شرق سيبيريا شمال الحدود مع الصين (حيث كان المدانون يعملون في التنقيب عن الذهب). وقد وقعت المدانة ناتاليا في براثن مرض السل (التدرّن) وأرادت والدتها أن تستقر في مكان بالقرب منها.

تحسنت علاقة تولستوي بصونيا بعض الشيء عندما مرضت من جراء تعقيدات فترة ما بعد الولادة. وأخبرت تانيا زوجها الغائب في يوليو أن شقيقتها ما تزال ضعيفة، وأن صهرها ما يزال يدعو إلى الحاجة لبيع كل شيء وتسريح الخدم، لكنه مع ذلك أصبح أكثر مراعاة لمشاعر زوجته. وكان صندوق بريد ياسنايا بوليانا يشكل أحد مصادر السعادة النادرة خلال تلك السنوات العصيبة. فقد كان أفراد الأسرة مدعوين إلى وضع قصص بلا توقيع وأخبار ومقالات وقصائد وطُرف في الصندوق المقفل الموجود بالقرب من ساعة الجد، لتُقرأ في أمسيات أيام الأحد وهم مجتمعون حول السماور. وفي الثاني والعشرين من أغسطس عام 1884، يوم ميلاد صونيا، جمع تولستوي ثلاثا وعشرين حالة لمرضى نفسيين في مستشفى ياسنايا بوليانا، جميعهم يعانون من نوع ما من الهوس أو الجنون. وقد بدأ بنفسه فوصف هوسه بـ«الرغبة في

تحسين العالم»[183]، وبيَّن أعراضه من قبيل الامتعاض من الوضع القائم، والتنديد بجميع من حوله ما عدا شخصه، والهذر المزعج من دون التفكير بالمستمعين، والانحدار المتكرر من حالة الغضب والانزعاج إلى فرط غير طبيعي في الإحساس المفضي إلى البكاء. أما العلاج فيكمن في اللامبالاة التامة من طرف كل من حوله إزاء أي شيء يقوم به أو يتفوه فيه.

أما صونيا فقد شخَّص تولستوي حالتها بالاستعجال الجامح[184]، وهي حالة تجعلها تؤمن بأن كل شيء يعتمد عليها، ويصاحب ذلك خوف من عدم قدرتها على القيام بكل شيء. سجلت صونيا في سيرتها الذاتية بعض «نماذج ياسنايا بوليانا المثالية» التي كانت توضع في صندوق البريد:

- ليف نيكولايفيتش: الفقر والسلام والانسجام. إحراق كل شيء كان يبجله، وتبجيل كل شيء أحرقه.
- صونيا أندريفنا: سينيكا[185]. أن تنجب 150 طفلا لا يكبرون.
- تاتيانا أندريفنا: شباب أبدي وعتق النساء.
- إيليا لفوفيتش: أن يخفي بعناية عن الجميع أن قلبه طيب ويعطي انطباعا بأنه قتل 100 ذئب.

لم يكن لدى صونيا متسع من الوقت للمطالعة، لكنها كانت تستمتع بتقليب صفحات النسخة الفرنسية من الأعمال الكاملة للفيلسوف الروماني الرواقي سينيكا، وهي النسخة التي أعارها إياها صديق العائلة ليونيد يوروسوف، بالإضافة إلى ماركوس أوريليوس وأفلاطون وإبيكتيتوس. أما تولستوي فكان منغمسا في فلسفة الكشف لرالف والدو إميرسون.

---

(183) Weltverbesserungswahn.

(184) Petulantia toropigis maxima.

(185) فيلسوف روماني رواقي، وتعني أيضا «متقدم في السن» باللاتينية (المترجم).

تحسنت العلاقة بين الزوج والزوجة في خريف 1884، ذلك أن تولستوي استطاع أن يبقى بمفرده ليعيش وفقا لمبادئه بضعة أسابيع في ياسنايا بوليانا بعد أن غادر الجميع إلى موسكو. فقد صرف الطاهي والحارس وبدأ يطهو بنفسه طعاما بسيطا كشواء اللفت، ويوقد السماور بنفسه، وتوقف عن استخدام الخيل وكان يتمشى كل مساء إلى محطة القطار ليرسل رسائله إلى صونيا ويأتي بالرسائل المرسلة إليه. وكان أيضا يتمشى خلال النهار إلى الطريق العام ليتحدث إلى الحجاج. وكتب لصونيا عن لقاء جمعه بشيخين عجوزين من سيبيريا كرّسا حياتهما للحج المستمر، وكانا عائدين من أورشليم القدس ومن جبل آثوس؛ وهي رحلة خاضها الشيخان من دون أي يكون بحوزتهما كوبيك واحد. وفي يوم آخر التقى برجلين متقدمين في السن من أقصى شمال روسيا دعاهما إلى ياسنايا بوليانا لاحتساء الشاي، وقد أنضبا السماور من محتواه. وفي ذلك الخريف، تخلى تولستوي نهائيا عن الصيد بعد أن اكتشف، بخلاف شعوره بالخجل، بأنه بدأ يأمل بأن شهوة القنص واصطياد الفرائس ستختفي في كل مرة يعتلي حصانه ويصاحب كلاب الصيد. وكان يعني ذلك تغيرا كبيرا في روتينه (فقد دوّنت ابنته تانيا في مذكراتها بأنه اصطاد خمسة وخمسين أرنبا وعشرة ثعالب في خريف واحد منذ سنوات). كما قرر تولستوي أيضا أن يتولى بنفسه إدارة المزرعة في ياسنايا بوليانا عوضا عن مدير العزبة. وقد تحسن مزاجه أيضا عندما علم من صونيا بأنها قررت ألا تذهب تانيا إلى المجتمع الراقي في الموسم التالي، وألا تتردد هي على أي من الفعاليات الاجتماعية المهمة في المدينة. ومما حسن ممن مزاجه أيضا تغير الدينامية في العلاقة الأسرية. ورغم أن تولستوي كانت تربطه علاقة باردة، في مجملها، مع أبنائه الذكور، إلا أن ابنته الكبرى كانت رويدا رويدا تقترب من الالتزام التام بمبادئ أبيها.

في نوفمبر عام 1884، نشر تولستوي مسودتين لافتتاحيتين لروايته التي تناولت الديسمبريين والتي تخلى عنها لاحقا. وكانت تلك المادة الأولى التي نشرها للجمهور المثقف بعد آنا كارينينا، لكن قلبه كان يميل حينها إلى مشروع جديد آخر من بنات أفكار فلاديمير تشيرتكوف. فقد كان تولستوي منهمكا في مراسلات حية مع تشيرتكوف (إذ أرسل له ستا

وثلاثين رسالة منذ لقائهما الأول في السنة الماضية). ومن بين المواضيع التي تناولها الصديقان خطة لإنتاج أدب ذي جودة للجماهير كافة. أراد تشيرتكوف أن يحذو حذو المنشورات التي كانت تُنشَر برعاية رابطة تشجيع القراءة الأخلاقية والروحانية (المحظورة حاليا)، ورئيسها فاسيلي باشكوف الذي طردته الحكومة مؤخرا إلى منفاه الدائم. وكان تشيرتكوف قد قابل باشكوف في إنجلترا في تلك السنة، وأدرك أن المنشورات غير المكلفة التي تستهدف العامة توفّر وسيلة ممتازة للترويج لعقيدة تولستوي الجديدة. وكان تولستوي متلهفا للتعاون في هذا المشروع، وقد ناقش الخطة بالتفصيل مجددا عندما أتى تشيرتكوف إلى موسكو في نوفمبر. وبعد لقاء مثمر مع إيفان سيتين، وهو ناشر شاب طموح، مختص بنشر الصور والنقوشات الخشبية المشهورة، وبزغ نجمه بعد أن كان متدربا متواضعا في محل لبيع الكتب، قرر تشيرتكوف توقيع عقد معه. وهكذا، أسس الرجلان دار نشر جديدة سمياها «بوسريدنيك»؛ أي الوسيط، واتفقا على نشر قصص الأدب الروسي المشهورة وقصص الأدب الأجنبي مترجما في منشورات مدعَّمة بصور أيضا تباع بأسعار رخيصة (بضع كوبيكات للنسخة الواحدة). وقد نجح المشروع بفضل والدة تشيرتكوف التي كانت توفر لابنها علاوة سنوية بواقع 20 ألف روبل؛ أي أكثر مما تنفقه عائلة تولستوي بأسرها في سنة كاملة. وقد شكل ثراء تشيرتكوف مثار خلاف نادر مستمر مع صديقه تولستوي.

افتتح تشيرتكوف في أبريل من عام 1885 محلا لبيع الكتب في موسكو، واستأجر مستودعا في بطرسبرغ وعيّن فتاة شابة مساعدة له سيتزوجها لاحقا، ومحررا مشاركا هو بافل بيرياكوف الذي سيصبح تابعا مخلصا وصديقا لتولستوي (ويكتب سيرة ذاتية طويلة ومهمة). تخرج بيرياكوف في الأكاديمية البحرية وكان يعمل فيزيائياً في المرصد الرئيسي في بطرسبورغ. وينحدر من أسرة نبيلة لكن مرتبتها وفقا للسلم الأرستقراطي الهرمي دون مرتبة آل تولستوي أو آل تشيرتكوف، وهذا ما شكَّل حجر عثرة عندما حاول الزواج بابنة تولستوي ماشا بعد سنوات.

شكلت دار نشر البسريدنيك «الإنترميدياري أو الوسيط» نجاحا هائلا، فقد بيعت 12 مليون نسخة من الكتب الصغيرة التي أصدرتها خلال السنوات الأربع الأولى من وجودها. فقد ملأت ثغرة حقيقية في السوق، إذ لم يكن ثمة الكثير من المواد متاحة للقراءة من قبل الأعداد المتزايدة من الفلاحين القراء وعمال المدن، بخلاف سير القديسين وقصص أخرى رديئة للغاية. وقد نصح تولستوي تشيرتكوف بشأن نشر أعمال المؤلفين الأجانب (بما في ذلك ديكينز وإليوت) بالإضافة إلى مساهماته الشخصية القيمة الأصيلة. كما وفَّرت له الوسيط فرصة لمتابعة مشروع الألف باء جيم من حيث انتهى. وقد نشر بالفعل في هذه المجموعة قصته «أسير في القوقاز» التي كتبها في السبعينيات، ليدرجها في الألف باء جيم. كما أَلَّف عشرين قصة جديدة متقنة الصنع خلال السنوات القليلة القادمة لتُنشَر في الوسيط ونخبة أخرى من الصحف. أتقن تولستوي صنع هذه القصص القصيرة بالفعل على عكس الحذاء الذي صنعه والذي وصفه بفخر لصونيا بالـ«جوهرة». فقد كان تولستوي خبيرا في إعادة سرد الحكايات والقصص الفولكلورية ببساطة ووضوح، موظفا الفكاهة ولمسة خفيفة سحرية يعرض من خلالها العبرة من كل قصة.

وبينما كان تولستوي مشغولا بكتابة قصص للعامة، كانت زوجته تتعلم الأساسيات في مجال آخر من صناعة النشر. فقد أدى القلق الحقيقي الذي شعرت به إزاء فقدان مدخول الأسرة، إلى أن اقترح تولستوي عليها إصدار النسخ التالية من أعماله الكاملة وكتب الألف باء جيم. فقد تولى زوج فاريا ابنة أخته (ماشا) في السابق بيع الأعمال الكاملة. أما الآن فقد قررت صونيا الاحتفاظ بحقوق نشر أعمال زوجها، وأرادت أن تحوِّل الجناح الخارجي من منزلهم في موسكو إلى مستودع. بدأت صونيا العمل على تحقيق أهدافها في يناير عام 1885. وبدأت مسودات العمل الجديد من النسخة الخامسة للأعمال الكاملة بالوصول في الشهر التالي. وقد أُدرجت أعمال تولستوي الجديدة التي أعقبت عام 1881 في المجلد الثاني عشر من هذه النسخة (بما في ذلك «قتل إيفان إيليتش» و«السترايدر»، وقصتان أنهاهما تولستوي لفائدة الوسيط بما في ذلك قصة «حكاية إيفان الأحمق»). وفي فبراير سافرت صونيا إلى بطرسبورغ

لتحصل على رخصة لنشر هذا المجلد، وتأخذ النصيحة من أرملة دوستويفسكي حول إمكانية توسيع حلقة الأرباح من مغامرة النشر الجديدة. وقد حصلت بالفعل على نصيحة سديدة من آنا غريغورفنا، مفادها ألا تعطي لمحال بيع الكتب خصومات تتعدى خمسة بالمئة. كما نصحتها أيضا بأن لا تصر على نشر كل مجلد بطريقة زمنية متسلسلة. وقد برهنت صونيا أن معدنها معدن رائدة أعمال. ذلك أن المجلد الثاني عشر حُظر من النشر. لكن صونيا انطلقت في نوفمبر عام 1885 في زيارة ثانية إلى بطرسبورغ بغية السعي لرفع الحظر (وقد نُشر المجلد في نهاية المطاف عام 1886) وبدأت عملية نشر النسخة السادسة من أعمال تولستوي. وبحلول عام 1889 كانت صونيا تصدر النسخة الثامنة.

كان تولستوي قد سمح لصونيا بنشر جميع أعماله التي ألّفها قبل أزمته الروحية (والأعمال الروائية القليلة بعدها)، معتبرا ذلك تنازلا لإرضائها. وقد ساعدها أيضا في تصحيح المسودات قبل مرحلة الطباعة، لكنه كان مهتما أكثر بالدعوة إلى مبادئه. فقد كان قد بدأ العمل على نحو متقطع منذ عام 1882 على أطروحة جديدة رئيسية بعنوان «ماذا علينا فعله إذن؟». واعتمدت على تجربته في أحياء موسكو الفقيرة بيفي أثناء عمله على الإحصاء السكاني. أما مواضيعها فتمحورت حول الفقر وشرور المال والملكية الخاصة، ولم تكن الحلول لتلك الآفات تكمن في التكنولوجيا أو الحداثة، بل في العمل البدني اليدوي والتواضع والجهد الشخصي. ومما قال في أطروحته «ماذا علينا فعله إذن»:

«هذه هي الإجابات التي وجدتها ردا على سؤالي التالي: ماذا علينا فعله؟

أولا: ألا أكذب على نفسي ولا أخشى الحقيقة، بصرف النظر عن المسافة التي تفصل مساري الحياتي عن المسار الصحيح الذي يرجّحه العقل.

ثانيا: أن أرفض الإيمان بصلاحي الذاتي وامتيازاتي وفضائلي التي تجعلني مختلفا عن الآخرين، وأن أعترف بأن نفسي هي أولى باللوم.

ثالثا: أن ألتزم بقانون الإنسان الخالد الثابت، وأن أكافح وأبذل جهودا جبارة بكلّ ذرة من كياني للحفاظ على حياتي وحياة الآخرين من البشر».

سلم تولستوي في نهاية عام 1884 الفصول الأولى من هذا العمل لنشره في مجلة الفكر الروسي. ورغم التفاؤل السرمدي لمحرري المجلة إلا أن الرقابة رفضت نشره. ومع ذلك تم صياغة نسخ من مسودات ما قبل مرحلة الطباعة ووُزِّعت على نحو غير رسمي.

وبدأت أعمال تولستوي الدينية أيضا تصل حينها إلى جمهور عريض خارج روسيا؛ ففي عام 1884 نشر ميخائيل إلبيدين «اعتراف» ككتاب منفصل لأول مرة في جنيف. وفي عام 1885 نُشرَت نسخ باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية لعمل تولستوي «معتقداتي/ بماذا أؤمن؟». وفي مجلد «المسيح والمسيحية»، المنشور في لندن، أدرج تشيرتكوف «اعتراف» و«مختصر الأناجيل» و«معتقداتي». وبالتالي أصبح القراء في خارج روسيا على معرفة بأعمال تولستوي الدينية وأعماله الروائية الرئيسية الكبرى في وقت متزامن، وكأن مساره المهني برمته، لغاية تلك السنة، تم وضعه تحت المجهر. وبينما نُشرَت «الحرب والسلام» بالترجمة الفرنسية عام 1879، لم تصدر آنا كارينينا باللغة الفرنسية سوى عام 1885. أما الترجمات الإنجليزية الأولى (التي ترجمها الأمريكي ناثان هسكل دوول) لكلتا الروايتين فقد ظهرت عام 1886.

وبينما كان تولستوي مهتما بنشر أفكاره في الخارج، فإنه أراد لأفكاره أن تُحدث وقعاً داخل بلاده. وقد أتت أولى بشائر ذلك التأثير في روسيا في ربيع عام 1885، عندما انتشر خبر شاب رفض الخدمة العسكرية على أساس اقتناعات دينية استقاها من تعاليم تولستوي نفسه. وبدأ عدد من الكتاب والمفكرين يُحدِثون وقعا هدى من فكر تولستوي الذي استمر في التطور. ومع أنه قام بتبيان المبادئ الرئيسية لنظرته الجديدة إلى العالم، لكنه بقي مستقبلا للتيارات الفكرية التي بدت أنها تتساوق مع أفكاره أو تعززها. كان ثمة ثلاثة أشخاص مهمين صاغوا تفكيره عام 1885: عالم أمريكي من نيويورك مختص في الاقتصاد والسياسة، وفلاح عصامي من سيبيريا، ومهاجر في لندن مختص بالدين والنظرية الوضعية.

هنري جورج الذي ينحدر من نسب متواضع في فيلاديلفيا بزغ نجمه حتى تنافس مع ثيودور روزفلت على منصب عُمدة مدينة نيويورك عام 1886. وكان إنجيليا يسوعيا بروتستانتيا، كتب كتابا حقق أفضل المبيعات سنة 1879 عنوانه «التقدم والفقر»، تحدث فيه عن الهوة السحيقة بين الأثرياء والفقراء واللامساواة في المجتمع. وبدأت المقالات النقدية لهذا الكتاب الظهور في الصحافة الروسية عام 1883. وفي فبراير عام 1885 بدأ تولستوي قراءة الكتاب نفسه. وقد لقي تولستوي صدى لبعض أفكاره من خلال فكرة جورج المركزية التي تقول بأن جميع الأراضي ينبغي أن تصبح ملكية عامة للجميع. وباعتباره تلك الفكرة نقطة انقلاب كبرى، توقع أن إلغاء الملكية الخاصة سوف يشكل نقطة فاصلة في التاريخ كما فعل إلغاء مؤسسة الرق/ أقنان الأرض. وقد استلهم جورج فلسفته من خلال ملاحظاته إبان سفراته المكثفة إلى بلدان مختلفة، فقد لاحظ أن الفقر يستشري في المناطق المأهولة أكثر من المناطق الأقل تطورا. ويقترح في كتابه فرض ضريبة موحدة من أجل التخلص من الملكية الخاصة والفقر. وافق تولستوي جورج في إلغاء الملكية الخاصة قلبا وقالبا، لكنه كان ما يزال معارضا لفكرة فرض ضريبة من قِبل أي حكومة بسبب عنصر القسر الأصيل في هذا الفعل. ومع ذلك، فإنه سيغير رأيه بعد عقد من الزمن ويتبنى اقتراحات جورج جميعها بكل سرور.

في يوليو من عام 1885، وجد تولستوي نفسه محفَّزا من قبل مفكر آخر أصبح شقيقا لروحه، وذلك عندما أرسل له سياسي منفي في سيبيريا مخطوطا لتيموفي بونداريف. وكان تولستوي قد قرأ مقالة عن عمل بعنوان «انتصار المزارع أو صناعة التطفل» منذ بضعة أشهر في مجلة، وأصبح متلهفا لقراءة العمل كاملا. استقى بونداريف الإلهام من سفر التكوين 3:19 (بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذتَ منها؛ لأنك تراب، وإلى تراب تعود). وقال بأنه من الواجب الأخلاقي والديني على كل امرئ أن يأكل خبزا من خلال العمل البدني بصرف النظر عن مكانته الاجتماعية. أُعجب تولستوي أشد الإعجاب بمحتوى المخطوط، لا سيما انتقاد بونداريف اللاذع الساخر للطبقة الثرية الحاكمة. وقد دهش أيضا

لتلمسه المزيج الخصب بين لغة الإنجيل واللغة المحكية في الأطروحة، لدرجة أنه قرأها جهرا على الجميع في يوم وصولها ياسنايا بوليانا. بعدها جلس إلى مكتبه ليحرر رسالة للمؤلف ليستكشف المزيد عنه. وقد تبين أن تيموفي بونداريف كان خادما سابقا في جنوب روسيا، وفي سن السابعة والثلاثين أُرغم على التخلي عن زوجته وأولاده الأربعة؛ لأن سيده/ مالكه جنّده في الجيش فخدم فترة الجندية الإلزامية؛ أي خمسة وعشرين عاماً. وفي عام 1867، بعد أن خدم لعشر سنوات، اعتُقل بتهمة نبذ المعتقدات الأرثوذكسية وتحوله إلى سبتي (سوبوتنيكي، وهي مجموعة منشقة عن المالاكاني)، وحُكم عليه بالنفي مدى الحياة إلى قرية نائية على نهر يينيسي بالقرب من منغوليا، مع غيره من الطائفيين «المرتدين». وبما أنه كان الشخص الوحيد القادر على القراءة والكتابة في القرية، فقد أسس مدرسة ودرّس فيها لثلاثين سنة. وخصَّص ما تبقى من وقت لديه للفلاحة وكتابة أطروحته.

وافق تولستوي على «كل ما جاء» في الأطروحة، وبدأ بشغف مراسلة بونداريف وأخبره بأنه قرأ الأطروحة مرارا على معارفه، وأضاف بفظاظة أن جلّ من كان يسمعه كان يقف ويغادر المكان. وقال له سرا بأن ذلك قد ساعده في طرد الضيوف المملين بلباقة، فما كان عليه سوى قراءة الأطروحة عليهم؛ فتلك مناورة أثبتت نجاعتها بالفعل. ولم يدخر تولستوي وسعا في محاولة نشر الأطروحة. فبعد أن أدرجها عام 1886 في مجلة الثراء الروسي تم حجبها عن النشر من قِبل الرقيب في اللحظة الأخيرة. لكنه ثابر ولم يستسلم، فحاول عام 1888 نشرها في مجلة الآثار الروسية لكنها شطبت منها. وفي نهاية المطاف، نُشرَت الأطروحة مُشذَّبة مُنقَّحة، مع مقالة بقلم تولستوي في مجلة القضية الروسية، رغم أن محررها تلقى إنذارا من وزارة الداخلية نتيجة لذلك. بعدها بفترة طويلة نُشرَت الأطروحة في مجلة الإنترميدياري/ الوسيط، وقدَّمَ لها تولستوي بمقال. وشكل كل من بونداريف وسيوتايف قطبين محوريين في سعي تولستوي لإقناع الناس بالعيش بوئام وتناغم مع الأرض، كما أوضح في هامش من هوامش «ماذا علينا فعله إذن؟»، التي أنهى تدقيقها أخيرا عام 1886:

«على مدار حياتي كان ثمة مفكران روسيان تأثرت بهما تأثرا أخلاقيا عميقا، فقد أثريا فكري وأوضحا وجهة نظري في العالم. هذان لم يكونا من الشعراء الروس أو العلماء أو المبشرين، بل رجلين رائعين يعيشان بيننا اليوم وقد أمضيا حياتهما يعملان في الأرض؛ إنهما الفلاّحان سيوتايف وبونداريف».

ثمة شخص بارز آخر لعب دورا محوريا في حملة تولستوي للنهوض بحياة السلمية المتناغمة مع الأرض. إنه ويليام فراي، وهو ابن موهوب لجنرال في الجيش من طبقة النبلاء في البلطيق، أدار في الستينيات ظهره فجأة لمسار وظيفي عسكري باهر في بطرسبورغ لكي يسعى وراء الحقيقة. وفي عام 1868، عندما كان في التاسعة والعشرين من عمره، وبعد انغماسه بسياسة اليسار الراديكالي، هاجر مع عروسه إلى أمريكا وغيَّر اسمه من فلاديمير جينز إلى اسم رمزي؛ فراي (حرّ). وفي منتصف السبعينيات كان جزءا من كوميون كارثي في كنساس ضم فاسيلي ألكسييف وألكسندر ماليكوف. لكنه انتقل عام 1884 إلى لندن مع أسرته وأصبح مدافعا شرسا عن الفلسفة الوضعية ومناصرا أمينا لكونت وسبنسر. وفي الصيف التالي انطلق ليدعو لـ«دين البشرية» في روسيا، فقد صادف أن قرأ نسخة سرية من كتاب «اعتراف» و«معتقداتي» وتأثر بهما تأثرا بالغا. بعدها، أرسل إلى تولستوي رسالة امتدت على ستين صفحة شرح فيها «دين البشرية». ثم دُعي إلى زيارة ياسنايا بوليانا فوصل إلى هناك في أكتوبر عام 1885. افتتن تولستوي بفراي ووصفه بالرجل الجدي الذكي المخلص ذي القلب الطيب. لكن تولستوي لم يقتنع بمحاجة فراي بشأن الدين، بيد أنه سُرّ بتعفف فراي وتقشفه لجهة الامتناع عن تناول اللحم أو الخمر أو التبغ. كما دهش لدى سماعه قصص فراي عن العيش في الغرب المتوحش وتجربته في الكوميون حيث لا ملكية خاصة، وحيث الجميع يعمل بيديه عوضا عن رأسه.

كتب تولستوي لتانيا، شقيقة زوجته يستفزها قائلا إن فراي رجل لافت، فهو يرفض رفضا تاما تذوق«كعكة الآنكي» التي يعتبرها رمزا للرضا الذاتي البرجوازي والامتياز غير المستحق.

كانت « كعكة الآنكي» تُقدَّم في مناسبات خاصة في ياسنايا بوليانا، وقد سُمّيت على اسم صديق وزميل والد صونيا، وهو من أصل ألماني أيضا. في كتاب الوصفات لا تُقدِّم صونيا أي تعليمات لكنها تدرج المكونات فقط:

كعكة الآنكي:

رطل طحين

نصف رطل زبدة

ربع رطل سكر الكاستر

صفار البيض (عدد 3)

كوب ماء

يجب أن يؤتى بالزبدة مباشرة من القبو ويجب أن تكون باردة بعض الشيء.

الحشوة:

ذوّبي ربع رطل من الزبدة وامزجيها مع بيضتين ونصف رطل من سكر الكاستر وقشر مبشور من ليمونتين وعصارة ثلاث ليمونات. سخني المزيج حتى يصبح سميكا كسماكة العسل.

كان ثمة نسخة أخرى تُصنَع من القشدة البلدية، تتضمن مزج عشر بيضات مع عشرين ملعقة قشدة وكوب من السكر وملعقتي طحين. وبعد تبطين الوعاء بالمربى يُخلَط المزيج فيه ويُخبَز في الفرن. أما التطهيري فراي فاعتبر المشاركة في أمر كهذا فيه من الثراء والترف الكثير، عملا لا أخلاقيا. وقد تبنى تولستوي حينها الرأي نفسه. التقى فراي مجددا بتولستوي في موسكو في ديسمبر، لكنه أُرغم على مغادرة روسيا في مارس عام 1886 بعد فشله في جذب تولستوي أو أي شخص آخر لدين البشرية الذي روج له. وعاد إلى لندن وتوفي بعد سنتين بمرض السلّ وهو معوز يعاني من فقر مدقع وقد بلغ التاسعة والأربعين. استذكره تولستوي وقال إنه كان من «أفضل» الناس الذين تعرف إليهم في حياته.

ركز تولستوي في النصف الأول من عقد الثمانينيات على التعبير عن رؤيته العالمية الجديدة ونشرها. وفي عام 1886، وبعد أن أنهى وضع المقترحات العملية التي احتوتها أطروحته «ماذا عسانا فاعلين إذن؟»، تحوَّل إلى الحيز المجرد للأفكار، واعتبر مشروعه الجديد في البداية أطروحة «عن الحياة والموت»، فقد أراد أن يَعرِض من خلاله الفلسفة المؤسسة لأفكاره. ومع أنه لم يكن يشعر بالرغبة في الانتحار، إلا أن التفكر في الموت لم يفارقه أبدا كما نستطيع أن نستشف بوضوح من أعماله الثلاثة التي ألفها في الثمانينيات (مقتل إيفان إيليتش، قوى الظلام، سوناتا كروتزر)، إذ تناول العملان الأخيران موضوع الموت العنيف عن طريق القتل. ولم يكن الموت بعيدا أيضا عن خياة تولستوي الشخصية لكنه طور موقفا جديدا إزاءه. في أواخر صيف 1885 شعر تولستوي بالحزن الشديد لفقدان صديقه المخلص ومناصره ليونيد يوراسوف الذي رافقه في ذلك الربيع في رحلة إلى القرم (وكانت تلك المرة الأولى التي عاد فيها تولستوي إلى سيباستوبل بعد الحرب). والأدهى من ذلك ما عاناه بسبب حوادث الموت في صفوف أسرته؛ ففي يناير 1886 توفي ابنه أليوشا البالغ من العمر أربع سنين. واكتشف تولستوي حينها أنه قادر على التعامل مع موت ابنه الأصغر باتزان ورباطة جأش. فكتب إلى تشيرتكوف يقول له بأنه كان في الماضي يعتبر موت طفل أمرا وحشيا قاسيا لا يمكن فهمه، أما الآن فأصبح يراه من زاوية إيجابية.

غاصت صونيا في بحر من الحزن عقب وفاة أليوشا، لكن رغم شعورها بالأسى لم توافق على دفع 250 روبلا لتدفنه في المقبرة المتميزة بالقرب من دير نوفاديفيتشي القريب من منزلهم، بل اختارت مع مربية الأولاد أن تأتيا بتابوت صغير وتضعاه على المزلجة التي استُخدمت مؤخرا لأخذ أليوشا إلى حديقة الحيوانات، وتسافرا شمال موسكو لدفنه في بوكروفسكوي؛ المكان الذي استأجر فيه أهلها منزلا صيفا عندما كانت فتاة شابة. وفي نوفمبر من عام 1886 واجهت صونيا حالة وفاة أخرى. فقد مرضت أمها البالغة من العمر ستين عاما ونُقلَت إلى القرم، وبقيت صونيا معها في يالطا في الأيام الأخيرة من حياتها. ويبدو أن تولستوي

بالكاد أتى على ذكر وفاة لوبوف ألكسندرفنا، صديقة طفولته، لأنه هو نفسه كان يعاني من المرض في ذلك الخريف. لكن الموت كان موضوعا حاضرا على الدوام في محادثاته ومراسلاته.

تمثل أطروحة تولستوي الضخمة التي تألفت من خمسة وثلاثين فصلا تناول فيها الحياة والموت وعنونها لاحقا بـ« بشأن الحياة»، تمثل الأسس الفلسفية التي تُلخّص رؤيته الجديدة في الإنسان والحياة والكون. فقد بذل جهدا عقليا مضنيا في تفسير أفكاره؛ إذ كتب زهاء 2000 صفحة قبل أن يكمل المخطوط في أغسطس من عام 1887. حينها وافقت صونيا على نسخها، مما ولَّد جوا من الودّ بينهما في فترة تأليفها. ومع أنها لم تقبل الاقتراح الأساسي الذي يقول إن على المرء أن يرفض «الحياة المادية والشخصية» لمصلحة «الحياة الروحية» و«الحب الكوني/ العالمي» كما شرحت في مذكراتها، لكن هذه الأطروحة لم تكن متحيزة كأعماله الدينية السابقة. ومع ذلك، فإن عملا يستبدل العقل والضمير الشخصي بالمبدأ الديني لم يكن لتوافق عليه الرقابة. وكان من المفترض أن تشكل 600 نسخة طُبعت عام 1888 المجلد الثالث عشر الجديد من أعمال تولستوي الكاملة، لكن المجمع الكنسي المقدس أمر بمصادرتها. وأُحرقت جميع النسخ ما خلا ثلاثا فقط. وهكذا نُشرَت الأطروحة «بشأن الحياة» بالترجمة الفرنسية لأول مرة عام 1889. أما رئيس أساقفة خيرسون، الذي عاين الأطروحة، فقد اعترف في رسالة أرسلها إلى أحد معارف تولستوي بأن المجمع الكنسي المقدس يفكر الآن جديا بإلقاء الحرم على كاتبها وطرده من الملّة.

كتب تولستوي بعد «مقتل إيفان إيليتش» الرواية التي لاقت استحسان كثير من النقاد، عملين فنيين مهمين في نهاية الثمانينيات: مسرحية «قوى الظلام» والرواية القصيرة «سوناتا كروتزر». وكان قد تناول في الستينيات الأسلوب الدرامي، لكنه لم يأخذ جهوده تلك حينها على محمل الجد. أما الآن فقد انجذب نحو الدراما الشعبية. وحسَّنت الأعمال التي نشرت في «الوسيط/ إنترميدياري» من جودة الأدب المقدم للفلاحين على نحو مهول، وأراد تولستوي

أن يحوِّل المخزون الأدبي الخام إلى أعمال درامية يقدمها للجماهير. وبدأ بالفعل في ربيع عام 1886 بدراما فكاهية تناولت شرور الإدمان على الخمر عنوانها «جهاز التقطير الأول/ المصفاة الأولى». وقد نُشرَت في الوسيط وقدمت في يونيو على المسرح المكشوف الملحق بمعمل الخزف في ضاحية من ضواحي سانت بطرسبورغ. ورغم هطول الأمطار، حضر العرض بحماسة زهاء 3 آلاف من عمال المصنع. وبعد سنتين مُنع العرض من قِبل الرقابة بسبب احتوائه على مشاهد تعرض العفاريت والشياطين في فصل تدور أحداثه في الجحيم.

أما مسرحية «قوى الظلام»، فهي عمل جدي بامتياز مستمد من حياة الفلاحين أيضا، ويعرض لقضية جنائية أُجريت مرافعاتها في محكمة تولا، وانتهت في خريف 1886، وتناولت جريمة قتل وزنا. وقد حُظرت على الفور من قِبل هيئة الرقابة على المسارح. وقد شكَّل ذلك انتكاسة لتولستوي؛ لأن النص كان قد طُبع في ثلاثة مطابع مختلفة. وكان تولستوي قد وافق على تقديم المسرحية على شرف الممثلة ماريا سافينا التي أرادت أن يكون حضورها مجانيا لفائدة الجمهور، وكان هو نفسه متحمسا جدا لمشاهدة العرض. عندها، أرسلت صونيا رسالة لرئيس هيئة الرقابة الحكومية، يفجيني فيوكتيستكوف، الذي كان قد منع عرضها المسرحي بصرامة، لكنه وافق على نشرها الآن. وطبعت أكثر من 100 ألف نسخة في الأشهر الأولى من عام 1887 بما في ذلك نسخ للوسيط بيعت بثلاثة كوبيكات. وفي الأثناء، أطلق تشيرتكوف عملية علاقات عامة معقدة. وكما كان متوقعا، فقد استطاع من خلال علاقاته الوطيدة بالمجتمع الراقي أن يُنظِّم جلسة أدبية ليقرأ العمل في منزل الكونتيس شوفالوف. وهكذا انتشر الخبر وبدأ الناس يتحدثون عن عمل تولستوي الجديد. ولم تُنشَر المقالات الناقدة الإيجابية فحسب، بل أثار ذلك أيضا فضول القيصر نفسه. وهكذا، نُظِّمَت جلسة قراءة خاصة لجلالته في القصر الشتوي في السابع والعشرين من يناير حضرتها الإمبراطورة والدوقة والدوقات وأعضاء آخرون من البلاط القيصري. وأعلن عقب ذلك ألكسندر الثالث بأنه أحب العمل المبدع، وأمر بعرض المسرحية في المسارح الإمبراطورية. لكنه ما لبث أن أُرغم على التراجع عن ذلك بعد

تدخل وتأنيب من قبل بوبيدونوتسيف الذي هاله ما رآه من موقف القيصر غير المسؤول إزاء «الواقعية الفظة» و«تشويه الشعور الأخلاقي» في هذه المسرحية المروعة المرعبة؛ التي قال للقيصر إنه لم يرَ مثيلا لها من قبل ومن بعد.

لكن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد. فسوناتا كروتزر، وهي رواية تستحق أن تكون وريثة رواية آنا كارينينا لارتباطها بموضوعة الحب الشهواني والعنف في أعلى درجاته، ستشكل أكثر الأعمال الفاضحة، وأكثرها تسببا للمشاكل من بين جميع أعمال تولستوي. وقد استلهمها تولستوي من مصادر عدة. أولها، أن مراسلة مجهولة كتبت إلى تولستوي في فبراير عام 1886 تشتكي له من وضع النساء المؤلم في المجتمع العصري وتحقيرهن من قِبل الرجال. بعدها قصّ عليه أحد معارفه بأنه صادف رجلا في عربة قطار في إحدى سفراته واعترف له بأنه خان زوجته. ومن ثم الحافز الموسيقي المباشر؛ في مناسبات عديدة عام 1887 عزف ابن تولستوي سيرغيه، وهو عازف بيانو موهوب، مع ليف ومدرّسة ميشا على الكمنجة، يوليا لياسوتا، لأداء سوناتا بيتهوفن التاسعة؛ سوناتا كروتزر، في موسكو وفي ياسنايا بوليانا. وكان تولستوي يعرف جيدا تلك السوناتا التي أدرجها ضمن قائمة الموسيقى المحببة لديه والتي جمعها سيرغيه لاحقا. ويمكن عقد مقارنة بين الحركات الموسيقية الثلاثة الأولى للسوناتا ورواية تولستوي. فالحوار المستعر بين الكمنجة والبيانو في المقطع المركزي الذي تعزفه زوجة بوزدنيشف وشريكها عازف الكمنجة، يشي لبوزدنيشف بحوار من نوع آخر يثير فيه نوبات من الغيرة لا يستطيع في نهاية المطاف ضبطها.

في إحدى المناسبات التي عُزفت فيها السوناتا في منزل تولستوي، كان الفنان الرّسام ريبين موجودا، حتى إن تولستوي أخذ يهدهد فكرة قيام ريبين ببعض الرسومات المصاحبة لروايته. ولا شك أن تولستوي ناقش فكرته تلك مع ريبين لأنه وجد نفسه جالسا ليرسمه ريبين مجددا في صيف 1887 إبان زيارته لياسنايا بوليانا. وكان الرجلان قد تعارفا منذ سبع سنوات بحلول 1887، لكن ريبين اشترى الوقت وأراد أن يتعرف أكثر على تولستوي قبل أن يرسمه على

لوحته. أما اللوحة التي رسمه فيها وهو جالس بهدوء في كرسي يقرأ كتابا بيده ويلبس ملابس سوداء، فبدت لكثيرين أنها تعود لنبي من العهد القديم.

كما شكلت أحداث بعينها تعرضت لها أسرة تولستوي مصدرا غير مباشر لروايته وضربت على الوتر الحساس. ففي خريف 1887 تقدم ابن تولستوي إيليا لخطبة معشوقته صوفيا فيلوسوفا. وقد أثار ذلك قلق تولستوي لكون الخطيبين لا يزالان في سن يافعة، بالإضافة إلى توقعه فساد زواجهما في المستقبل. فقد كان إيليا في الحادية والعشرين من العمر وكانت صوفيا في العشرين. كما أن إيليا كان قد فشل في اجتياز مرحلة التعليم الثانوية وتعثر بالتالي التحاقه بالجامعة، وعاد بعد أن أمضى سنتين في الجيش خالي الوفاض من دون خطة ليدبر معيشته. كان آل تولستوي على علاقة جيدة بأسرة العروس التي لم تكن أفضل حالا من العريس؛ وكان والد العروس يعمل في معهد موسكو للفنون حيث تدربت تانيا. كتب تولستوي رسائل عديدة لابنه يتوسل إليه أن يفكر مليا في الخطوة التي كان على وشك اتخاذها، لكن إيليا كان قد اتخذ القرار من دون رجعة وبلا تردد. وكان ثمة أسباب أخرى دفعت تولستوي للتفكير في قضايا الزواج والأسرة. ففي سبتمبر من عام 1887، احتفل مع صونيا بالذكرى الخامسة والعشرين لزواجهما (اليوبيل الفضي) وكانت زوجته حاملا مجددا. ووُلد ابنهما إيفان (فانيشكا) في الحادي والثلاثين من مارس عام 1888 بعد شهر من زواج إيليا. وعشية عيد الميلاد من تلك السنة وُلدت آنا، أول حفيد لهما.

وبخلاف سيرغيه أكبر أبناء تولستوي (الذي ترك جامعة موسكو وانتقل للعمل في مصرف تولا للفلاحين)، كان إيليا الابن الوحيد الذي عاش بعيدا عن منزل العائلة. ذهب تولستوي في ربيع 1889 لزيارة ابنه وعائلته وهاله ما رآه من ترف العيش (عدد من الحوذيين والعربات والخيل وغيرها) فشعر تولستوي أن ابنه يجب أن يكفر بهذا الترف. ولم يكن إيليا الابن الوحيد الذي تشاجر معه تولستوي في تلك السنة، فقد كان يتشاجر باستمرار مع ابنه ليف الذي كان في السنة الأخيرة في المدرسة، بالإضافة إلى أنه كاد أن يتشاجر مع ابنته ماشا أيضا التي تقدَّم

لخطبتها أحد أتباعه بافل بيرياكوف في نهاية عام 1888. ولم تكن صونيا مستعدة لتزويج ابنتها من واحد من أتباع تولستوي حتى لو كان ينحدر من عائلة نبيلة لذلك منعت خطبتها منه. وهكذا، غادر بيرياكوف ياسنايا بوليانا وهو يلعق جراحه، لكنه ظهر في حياة تولستوي مجددا عام 1891 بعد أن أبحر إلى اليابان مع قيصر المستقبل نيكولاي الثاني في رحلته الكبرى التي استمرت تسعة أشهر. واستسلمت ماشا لقدرها بخنوع، وقد سرّ تولستوي لذلك لأنها كانت ابنته المفضلة التي اعتمد عليها للمساندة والدعم المعنوي. كما أنه سيعطل في المستقبل من أحلامها الرومانسية في أكثر من مناسبة في محاولات أنانية أراد منها إبقاءها إلى جانبه. ويُذكَر أن تولستوي لم يكن يكترث كثيرا بأولاده الثلاثة الصغار الذين كانوا بالكاد يرونه: أندريه (11 سنوات) وميشا (9 سنوات) وألكسندرا (4 سنوات) ناهيك عن الرضيع فانيشكا، وذلك بخلاف الأولاد الكبار الذين درّسهم بنفسه. أما الصغار فقد وُضعوا تحت وصاية المربين والمدرسين وربتهم صونيا بمعزل عنه تقريبا.

أثرت ولادة فانيشكا العسيرة وزواج إيليا وإنجاب الحفيدة في فترات قريبة متتالية تأثيرا عميقا على تولستوي، لا سيما أن صونيا عانت الأمرَّين بسبب تلك الولادة؛ إذ كانت تبلغ حينها الثالثة والأربعين وكان تولستوي في التاسعة والخمسين. وقد شعر بالإحراج لأنه بينما نجح في كبح مغريات شرب الخمر وأكل اللحم وغيرها، فإنه فشل في كبح جماح شهوته ورغبته في جماع زوجته، خصوصا أنه كان يعلم أنها غير راغبة بأن تحمل مجددا. احتقر تولستوي نفسه بسبب ضعفه وانتهى به المطاف ليروّح عن نفسه ويعكس تقززه من نفسه في آن معًا، من خلال مواضع في رواياته اعتقدت صونيا أنها تعليقات لاذعة تستهدفها شخصيا. وبينما مجّد تولستوي قدسية الزواج في أطروحته «معتقداتي/ بماذا أؤمن!» منذ بضع سنوات، أصبح الآن يعتبرها مؤسسة يجب أن تُشجَب. كما كان معارضا شرسا لفكرة الزواج من دون إنجاب، لكن حتى التناسل الآن لا يُصلح خطيئة الزواج. وهذه لم تكن المرة الأولى في حياته التي يغيّر فيها هذا الكاتب المتقلب من نبرته وآرائه. ولهذا قد نعذر صونيا عندما نجد أنها اعتبرت دفاع زوجها

المفاجئ عن العفة، لا سيما ضمن إطار الزواج، أمرا يدعو للنفاق ويصعب هضمه. فوفقا لأول كاتب روسي لسيرتها، فقد أصبحت حاملا مجددا عام 1890 ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن سقط الجنين.

بدأ تولستوي العمل على تأليف سوناتا كروتزر عام 1887، لكنه قام بجلّ العمل في ربيع وصيف 1889. وقد تأثر بكِتاب دون غيره في تلك الفترة، وكان عبارة عن دليل عملي لعلم أمراض النساء والولادة عنوانه «توكولوجي[186]: طب التوليد.. كتاب لكل امرأة»، أصدرته شركة سانيتاري للنشر في شيكاغو عام 1883. وقد تسلَّم تولستوي الكتاب بعد أن أرسلته مؤلفته الدكتورة أليس بتكر ستوكهام التي نشأت وهي تنتمي إلى الكويكر، وكانت من أولى النساء اللواتي تخرجن طبيبات في الولايات المتحدة. وقد اختصت بعلم التوليد وأمراض النساء وأصبحت على قناعة بأن النساء لا يتعين عليهن أن يحملن على نحو متكرر، وأن الرجال يتعين عليهم أن يضبطوا دوافعهم الجنسية ويكبحوا جماح شهوتهم. وقد ناصرت أيضا فكرة الامتناع عن الكحول والتبغ، وقامت بتنظيم حملات ضد البغاء. اهتم تولستوي بهذا الكتاب لأسباب دينية وليس طبية كما قال لابنته تانيا لاحقا. وقد كتب إلى أليس ستوكهام في نوفمبر من عام 1888، ليخبرها بلغته الإنجليزية غير المثالية لكن الأنيقة بأن كتابها هو بحق «كتاب ليس للنساء فحسب بل للبشرية جمعاء».

لن تتقدم البشرية من دون جهد في هذا الاتجاه، ويبدو لي لا سيما من خلال القضية التي تناولتِها في الفصل الحادي عشر من كتابك «العفة في العلاقات الزوجية» (كانت ستوكهام لا تشجع على الجماع أثناء الحمل) بأننا ما زلنا متخلفين تماما. ومن اللافت أنني كتبت لصديق رسالة طويلة في الأسبوع الماضي (تشيرتكوف) تحدثت فيها عن الموضوع نفسه، وقلت إن العلاقة الجنسية من دون الرغبة في الإنجاب وإمكانية التناسل أسوأ من البغاء والاستمناء، وهي كلاهما في الواقع. أقول إنها أسوأ لأن الشخص الذي يقترف هذه الجريمة، وهو غير متزوج،

(186) توكولوجي: كلمة جذرها يوناني وتعني توليد.

يعلم دائما أنه يقوم بالشيء الخاطئ، أما إذا ما اقترف تلك الخطيئة زوج أو زوجة فإنهما يعتقدان أنهما صالحان.

كتب تولستوي إلى تشيرتكوف ليقرّع ذاته؛ لأن القطار كان قد فات ليكفّر عن سيئاته كونه عاش حياته «كحيوان/ وحش». وفي أكتوبر/ تشرين الأول من عام 1889، الشهر الذي قررت فيه شقيقته ماشا أن تصبح راهبة (إذ كانت قد أمضت سنة عاشت فيها مع 400 راهبة في دير في تولا قبل أن تنتقل إلى دير بالقرب من أوبتينا بوستين)، وصلت ستوكهام إلى ياسنايا بوليانا في زيارة لتولستوي. وربما اكتشفت بسرعة أنهما مختلفان تماما بشأن كل شيء؛ فهي على سبيل المثال لم تكن صلبة لا تعرف المساومات كتولستوي عندما تعلَّق الأمر بالتنديد بكل العمليات الجنسية التي لا تؤدي إلى إنجاب الأطفال. لكنهما تمتعا بالحديث عن الطوائف الأمريكية التي كانت تلتزم الرهبانية والعفة. ونَشرت ترجمة لكتابها في روسيا عام 1892 مع مقدمة من تولستوي نفسه. كانت ستوكهام تعتبر ولادة أي طفل مناسبة مقدسة؛ لذلك كانت تناهض فكرة كبح جماح الشهوة والامتناع عن الرذيلة. ورغم ذلك، لم تلقَ آراؤها الجديدة بشأن روحانية العلاقة الحميمية صدى لدى الجميع. أما كتابها اللاحق حول «أخلاقيات الزواج»، الذي روجت فيه لاتِّباع طريقة للوصول إلى السعادة الزوجية؛ (إذ) يمكن للعلاقة الحميمية الجنسية أن تتم من دون إتمام الفعل الجنسي، فقد لاقى نقدا لاذعا ازدرائيا مدمرا من أحد النقاد العاملين في مجلة علمية مرموقة.

أثار إتمام المسودة التاسعة والأخيرة لسوناتا كروتزر قضية الدار التي ستُنشر من خلالها. فقد أراد تشيرتكوف أن ينشرها في الوسيط، وأرادت صونيا أن تدرجها في النسخة الجديدة من الأعمال الكاملة، بينما أراد تولستوي أن يتخلى عن حقوقه ويتجنَّب المشاجرات. وقد بدأ توزيع الرواية بطريقة سرية حتى قبل أن تُقدَّم للرقيب. كما أخذت ابنة أخت تولستوي ماشا كوزمينسكايا[187] المخطوط إلى سانت بطرسبورغ، ورتبت جلسة قراءة حضرها ثلاثون

(187) Маша Кузминская (Masha Kuzminskaya).

شخصا من الأصدقاء من بينهم ألكسندرين ونيكولاي ستراخوف. وبعد جلسة قراءة ليلية أخرى في مكاتب الوسيط، وزع المحررون المخطوط فيما بينهم وبدؤوا بنسخه طوال الليل، قبل أن يعيدوه إلى ماشا كوزمينسكايا في صباح اليوم التالي. وخلال بضعة أيام وُزعت 300 نسخة طُبعت طباعة حجرية ونُسخت هي الأخرى مجددا ووُزّعت نسخٌ إضافية. وقد أزعج تولستوي توزيعها بذلك الشكل؛ فهو لم يكن ليرضى عن عمل إلا بعد مرحلة التنقيح والتدقيق والتصحيح التي يتخللها عادة كثير من التعديلات الجديدة يقوم بها هو بنفسه. وأصبحت الرواية حديث المدينة في بطرسبورغ، وقد بيعت النسخة بسعر كبير بواقع عشرة روبلات وخمسة عشر في بعض الأحيان (يُذكَر أن صونيا كانت تبيع الأعمال الكاملة بثمانية روبلات).

أخيرا تم الاتفاق على نشر الرواية على مراحل في جريدة أسبوعية موسمية لا تخضع للرقابة اللصيقة ومن ثم تتولى صونيا نشرها. لكن إشاعات بحظر نشرها على هذا النحو بدأت تنتشر في بداية ديسمبر/ كانون الأول عام 1889. وقد تأكدت الإشاعات بالفعل في ذلك الشهر. ووفقا لاستعراض الرواية المفصل الذي أرسله بوبيدونوتسيف إلى زميله يفجيني فيوكتيستوف في فبراير من عام 1890، اعترف بأنه عمل «جبّار»، وأنه لا يمكنه أن يحظر قصة تروج للعفة والفضيلة باسم الأخلاق من دون أن يوخزه ضميره، إلا أن الرسالة القاتمة الطاغية التي تقدمها الرواية بخصوص مستقبل النوع البشري جعلتها غير صالحة للنشر. واستمتع ألكسندر الثالث بسماع قصة الرواية، كما استمتع سابقا بـ«قوى الظلام» عندما قُرئت عليه في قصره الشتوي، لكن زوجته صدمت كما صدم ثيودور روزفلت عندما وصلت الترجمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر تلك السنة. وبما أنه كان يشغل منصب المدعي العام الأمريكي، فقد حظر توزيع الصحف التي تنشر الرواية. وبحلول عام 1890 قُرئت في أرجاء موسكو أعداد كبيرة من نسخ غير قانونية لسوناتا كروتزر كما يتبين من إفادات أنطون تشيخوف؛ الذي تخلى إلى حد كبير عن مهنة الطب وأصبح الآن كاتبا مشهورا، فقد أصبح ينشر أعماله باسمه الحقيقي في أرقى المجلات الأدبية الروسية لاثنتي عشرة سنة، وبدأ تولستوي يلحظ أعماله. ففي رسالته التي

كتبها تشيخوف لصديقه ألكسي بليشتشييف حول سوناتا كروتزر أتت ملاحظاته الثاقبة والواضحة بارتياح مرحب به في خضم الجدل المستعر بشأن الرواية:

«ألم تعجبك سوناتا كروتزر؟ لا أقول إنها عمل عبقري خالد، فلا أستطيع الحكم على ذلك، لكنني أعتبر، إذا ما قارنتَ الرواية مع معظم ما يُكتَب في عصرنا هذا هنا أو في الخارج، أعتبر أنه من الصعوبة بمكان أن تُقارَن أهمية موضوعها وجمال تنفيذها مع أي عمل آخر. فبخلاف المحاسن الفنية المذهلة في بعض المواضع، يجب علينا فوق كل ذلك أن نكون ممتنين للقصة؛ لأن قوتها تدغدغ أدمغتنا وتحفز أفكارنا وترفع من سقف مخيلتنا لأبعد الحدود. فعندما تقرؤها لا تستطيع إلا أن تقول: «لعمري إن هذا صحيح!!». أو تقول: «هذا هراء»! لأن فيها بلا شك بعض العيوب المزعجة المنفّرة. وثمة أمر يصعب أن نغفره للكاتب، بالإضافة إلى الأمور التي ذكرت، ألا وهو تبجحه وصلفه في مناقشة أمور لا يفقه فيها شيئا، بالإضافة إلى أن عناده الذي حال دون حتى رغبته في فهم تلك الأمور. لذا، فإن آراءه بشأن مرض الزّهري ومستشفيات اللقطاء وعزوف النساء عن الجماع وغيرها آراء ليست مثيرة للجدل فحسب، بل تُظهر أنه رجل شديد الجهل في بعض الجوانب. رجل لم يكترث طيلة حياته لقراءة كتاب أو كتابين كُتبا على يد مختصين في هذا المجال. لكن، وفي الوقت نفسه، تجعل فضائل وحسنات القصة هذه العيوب تافهة جدا، بحيث لا يلاحظها المرء فتختفي كريش يعصف به الريح. وحتى إذا لاحظناها فهي تذكرنا بقدر جميع الجهود البشرية بلا استثناء. إنها تذكرنا بأن الإنسان خطّاء غير كامل ولا مثالي تعتريه العيوب دائما».

اضطلع تشيخوف طيلة صيف 1890 بمهمة دراسة المؤسسة الإصلاحية المشهورة في جزيرة سخالين بعد رحلة مفصلية في حياته إلى ذلك المنفى. وعندما عاد في الخريف أُتيحت له فرصة قراءة الجزء الختامي الذي كتبه تولستوي كرد على الجلبة التي أحدثتها القصة. وقد أوضح فيه تولستوي أن العفة هي قيمة فحسب وأنه لم يكن يروّج لنهاية العرق الآدمي. وقد غيَّرت التجربة التي اختبرها تشيخوف في سيبيريا من شخصيته، وغيرت أيضا من رأيه في رواية

تولستوي. ووفقا للرسالة التي كتبها في ديسمبر لصديقه العظيم ألكسي سوفورين (محرر مجلة الأيام الجديدة)، فقد تغيرت نظرته بالكامل:

«شكلت سوناتا كروتزر قبل رحلتي حدثا عظيما بالنسبة لي، لكنني أجدها الآن سخيفة وتبدو عبثية للغاية. فلتذهب إلى الجحيم فلسفة الرجال العظماء في هذا العالم!! فكل الرجال الحكماء العظماء مستبدّون ووقحون وبليدون وعديمو الإحساس كالجنرالات لأنهم واثقون من حصانتهم. فقد كان ديوجينيس يبصق في لحى الناس ويعلم أنه لن يعاقب، وتولستوي يهجو وينتقد الأطباء ويصفهم بالأنذال ويفضح جهله بقضايا مهمة؛ لأنه ديوجينيس آخر لن يجرؤ على اعتقاله أحد ولن يستطيع أحد انتقاده في الصحف».

لم تُنشَر سوناتا كروتزر بحلول ربيع 1891 بعد. لذا، قررت صونيا أن تمسك بزمام الأمور. ورغم الإهانة الشخصية التي شعرت بها بسبب محتوى الرواية، إلا أنها كانت مصممة على نشرها بنسختها هي. وبالتالي، ذهبت إلى موسكو في وقت سابق وأعدت الرواية للطباعة، لكن قرارا اتُّخذ في الخامس والعشرين من فبراير يقضي بعدم إدراج الرواية وملحق تولستوي الختامي في المجلد الثالث عشر من أعمال تولستوي. وفي الفاتح من مارس، في اليوم الذي أعقب الذكرى العاشرة لاغتيال ألكسندر الثاني، تم إلقاء الحرم رسميا على تولستوي، ولُعن لأول مرة في خطبة قُرئت في خاركوف ومن ثم نُشرت. ونُدد برواية سوناتا كروتزر كونها «قصة لا أخلاقية وقذرة ومتهافتة». وبعد عشرة أيام سمعت صونيا بالحظر، وفي الثامن والعشرين من مارس سافرت إلى سانت بطرسبورغ وفي نيتها التماس لقاء مع القيصر لتطلب منه شخصيا الموافقة على نشر سوناتا كروتزر. وقد حصلت بالفعل على الموافقة شريطة أن تُنشَر الرواية حصريا كجزء من مجلدات عدة لأعمال تولستوي الأدبية التي لا يستطيع الشباب غير المحصن النفاذ إليها وشراءها بيسر. كان ألكسندر الثالث في الواقع دمثا كريما عطوفا، وقد سرت إشاعات تقول إن فلاديمير تشيرتكوف هو الابن غير الشرعي لألكسندر الثاني، وقد نوهت صونيا في مذكراتها بأن نبرة صوتهما وطريقة كلامهما متشابهة بالفعل. وكانت

الإمبراطورة ماريا فيودورفنا دمثة الأخلاق كزوجها، وقد استقبلت صونيا أحسن استقبال. وصدر المجلد الثالث عشر من أعمال تولستوي الأدبية في يونيو عام 1891. وقد استشاط بوبيدونوتسيف غضبا عندما سمع برفق ولين القيصر. وقد يحار المرء عندما يكتشف أن ألكسندر الثالث كان حليما سمحا على الدوام مع أنشطة تولستوي المعارضة للدولة والكنيسة؛ ربما بسبب صداقته مع تشيرتكوف ونفوذ الأخير في البلاط القيصري. ثمة بالفعل شبه مخيف بين صور الشاب ألكسندر الثالث والشاب فلاديمير تشيرتكوف، ربما بالفعل كانا أخوين غير شقيقين.

شكلت رحلة صونيا إلى بطرسبورغ مسمارا آخر دقّ في نعش زواج تولستوي الذي اعتبر فكرة التماس غرض من القيصر فكرة مهينة، بالإضافة إلى أنه رغب في عدم الحصول على أي أرباح من كتاباته. لكن صونيا في المقابل شعرت أنها ملزمة بكسب المال حتى لو استخدمته فقط لسد حاجات أطفالها التسعة. شبت الخلافات المستمرة بين الزوجين مما دفعه لاتخاذ قرار بالتخلي عن جميع ممتلكاته. وفي أبريل من عام 1891 اجتمعت الأسرة برمتها في ياسنايا بوليانا لتوزيع التركة بالعدل. وحصل سيرغيه الابن، على سبيل المثال، على عزبة نيكولسكوي، التي كانت من ممتلكات عمّه الراحل نيكولاي، لكنه في المقابل التزم بدفع مبلغ معين من المال لشقيقته تانيا وأمه على مدار الخمس عشرة سنة القادمة. وحصل ليف على عزبة سمارا، وحصل الابن الأصغر، كما هو معهود، فانيشكا ذو الثلاث سنوات على الجزء الأكبر من ياسنايا بوليانا مع أمه صونيا. أما ماشا، ابنته المخلصة لمبادئه، فقد تخلّت عن حصتها (رغم أنها ستغير رأيها عندما تتزوج لاحقا عام 1897). واستمرت الخلافات بين الزوجين عندما طلب تولستوي من صونيا إرسال رسالة للصحافة، وأصرّ على أن تعلن فيها عن تخليه عن جميع حقوقه ككاتب. وبعد جزر ومدّ ظهرت الرسالة أخيرا في كبريات الصحف الروسية في التاسع عشر من سبتمبر/ أيلول عام 1891.

ذكّرت تجربة توزيع التركة تولستوي بمسابقة أدبية مشهورة، مسرحية الملك لير، نصح أولاده بقراءتها. وربما كانت تلك المرة الأولى في حياته التي يوصي فيها تولستوي بقراءة شكسبير، لكن من الواضح أنه كان يجترُّ تلك المسرحية لفترة من الزمن. ففي عام 1888 كان قد تحدَّث عن المسرحية للصحفي ويليام ستيد الذي وصل إلى ياسنايا بوليانا في شهر مايو/ أيار من تلك السنة، قادما من لقاء جمعه بألكسندر الثالث في سانت بطرسبورغ (ويبدو أنه الرجل الوحيد الذي أجرى مقابلة مع قيصر روسي). أراد ستيد أن يختبر معرفة تولستوي بالكُتّاب الإنجليز، وعلى رأسهم شكسبير طبعا. قال ستيد نقلا عن تولستوي: «قال إن معظم مسرحياته تُرجِمَتْ إلى الروسية وبعضها لاقى رواجا مميزا»، قلت: «أي منها؟»، أجاب على الفور: «الملك لير. فهي قصة تجسد تجربة كل عزبة روسية». كان ستيد الشخصية البريطانية الأقرب لتولستوي، لا سيما حماسته في تعرية النفاق في المجتمع الفيكتوري والتركيز على الفقر والرذيلة. كما كان ستيد شخصية مثيرة للجدل كتولستوي، ومناصرا شرسا لمذهب السلمية أيضا (كان في طريقه للمشاركة في مؤتمر سلام في نيويورك عام 1912 عندما غرق مع من غرقوا في كارثة التايتانيك). إن شخصية الملك لير في نهاية مسرحية شكسبير تُعتبَر الشخصية الأدبية الإنجليزية الأقرب إلى الدرويش المجذوب، يوروديفي؛ ذلك الشكل الروسي المميز للقداسة التي كان تولستوي يطمح في الوصول إليها، والتي هي مختلفة عن أي ثقافة دينية أخرى.

تحدى الدراويش المجاذيب الروس، عن عمد، التقاليد الاجتماعية ليهزؤوا بزيف العالم الزائل، ولم يخشوا البوح بالحقيقة لجميع الطبقات بما في ذلك الحكام. وقد تخلوا عن جميع وسائل الراحة المادية ولبسوا الأسمال البالية، وزاولوا حياة الزهد كالمتشردين (السترانيكي)، وقبلوا الذل والمهانة ليقمعوا غرورهم وليصلوا إلى مستويات رفيعة من التواضع والخنوع والتسامح والمهادنة. وبما أنهم عاشوا مع الناس، بخلاف النساك المتصومعين في الأديرة، وبالتالي في عين العاصفة، فإنهم بذلوا كل جهد ليتجنبوا تلقي الاحترام لقاء تقواهم وورعهم، وكانوا يرحبون بالتعزير والتأنيب والتوبيخ. وكان تولستوي يعرفهم ويهابهم منذ أيام طفولته،

وذلك بفضل عمته الورعة التي كانت ترحب بهم في ياسنايا بوليانا. وقد احتوى أول عمل أدبي له (الطفولة)، درويشا مجذوبا. كما احتوت روايته المشهورة الحرب والسلام على شخصيات شبيهة. ويمكن القول إن ثلاثة من شخصيات الرواية (بيير وناتاشا وكوتوزف) هم في حقيقة الأمر دراويش مجاذيب بنكهة جديدة مختلفة. أما باشينكا، بطلة قصته «الأب سيرغيه» التي كتبها بين عامي 1890 و1898، فهي نسخة أخرى من الدراويش المجاذيب. اعترف تولستوي عام 1877 لصديقه ستراخوف بأنه يريد أن يصبح درويشا مجذوبا عوضا عن أن يكون راهبا. وبعد أزمته الدينية، عبَّر عن رأيٍ مفاده أن الطريق الأفضل للوصول للخير هو أن يصبح المرء طواعية درويشا مجذوبا. وقد اتبع الدراويش استراتيجية إظهار أنفسهم بأسوأ مما هم عليه في الواقع. وقد اتبع تولستوي نفسه هذه الاستراتيجية منذ أن أرسل رسالته التاريخية الشهيرة إلى ألكسندر الثالث عام 1881، فقد سمح له نقده الذاتي اللاذع القاسي بالتعبير عن نفسه بحرية أكبر مع القيصر. واستمر تولستوي بجلد الذات حتى آخر حياته. ففي أغسطس من عام 1910، قبل بضعة أشهر من وفاته، دوّن في مذكراته أنه لم يسبق أن التقى بأحد آخر اقترف جميع الموبقات والرذائل كما فعل هو شخصيا؛ الشبق والمصلحة الذاتية والأنانية والكره والغرور والتبجح والكبرياء وفوق كل ذلك النرجسية.

كما أشرنا سابقا، فإن صونيا لم يرق لها أن يلبس زوجها قناع الدرويش المجذوب، لكنه اعتبر ذلك قناة أساسية لتوصيل رسالته. وفي هذا الإطار، ثمة تعليق بليغ أدرجه تولستوي في مذكراته عندما كان يكتب سوناتا كروتزر في أغسطس/ آب من عام 1889: «أريد أن أكون درويشا مجذوبا في كتاباتي أيضا»، مقتنعا أن اتباع المعايير المثالية في مهنة الكتابة لا يفي وحده بأن يجعل محاجاته أكثر إقناعا. لكننا نستشف من تعليقات تشيخوف الازدرائية في رسالته إلى سوفورين في ديسمبر عام 1890، أنه للأسف لم يكن مقتنعا. وقد عقَّبَ بكلمات ساخرة ازدرائية على الملحق الختامي لسوناتا كروتزر نتاجا لقلم درويش مجذوب، وأكد على أن فلسفة تولستوي في قصته «الجواد» لا تساوي حتى مهرة صغيرة (القصة التي ألَّفها تولستوي

على لسان حصان وبدأها منذ سنوات عديدة، عندما كانت لديه طموحات ليصبح فنانا واعدا، وأتمَّها أخيرا ونشرها لأول مرة عام 1886).

وكما يشكل الدراويش المجذوبون جزءا من الكنيسة الروسية فإن شخصية «إيفان الدرويش» تشكل جزءا مهما في الفولكلور الروسي. فقصته المشهورة التي كتبها تولستوي بسرعة في أمسية من أمسيات عام 1885 ونشرها في الوسيط، كانت من الحكايات المحببة إلى قلبه. وقد نُشرَتْ تلك القصة في نسخة صونيا الأولى لأعمال تولستوي الأدبية الكاملة، كما نُشرت في مجلة الوسيط، لكنها ما لبثت أن مُنعت من قبل الرقابة الدينية التي اعتبرتها غير مناسبة لجماهير القراء. وقد امتعضت السلطات من الطريقة التي روّجت فيها القصة لفكرة وجود مملكة لا حاجة لها بوجود جيش أو مال أو مثقفين، بينما ملكها/ قيصرها لا ينبغي أن يكون مختلفا عن الموجيك. حتى إن بعض الأصدقاء المقربين من تولستوي عارضوا بشدة هذا التأويل الأخلاقي الجريء، لا سيما التقليل من شأن الجهد الفكري مقابل الإعلاء من شأن الجهد البدني.

بحلول صيف 1891، وبعد أن ذوى الجدل الذي استعر في السابق بشأن سوناتا كروتزر، وجد تولستوي نفسه يعاني من ضعف التركيز على أطروحته الجديدة التي بدأها في الصيف الفائت حول مذهب السلمية/ اللاعنف. وكانت لديه أفكار لأعمال روائية جديدة أراد تطويرها (أُنتجت لاحقا: «البعث» و«الأب سيرغيه»). وأراد أيضا أن ينهي مقالة عن موضوع «التخمة». وقد أُعجب في تلك الفترة بعمل هاورد ويليامز عن تاريخ مذهب النباتية «أخلاقيات الحمية: سلسلة مرجعيات تستهجن ممارسة أكل اللحوم»، الذي نشر في لندن عام 1883 بعد سلسلة من منشورات في دورية «المصلح الحميوي والرسول النباتي» (وهي الدورية الشهرية لمجتمع النباتيين)، وأراد أن يكتب افتتاحية للترجمة الروسية لذلك العمل. أنهى تولستوي مقالته «الخطوة الأولى» في يوليو بعد زيارة مؤثرة إلى المسلخ في تولا، ونُشرَت في السنة التالية في دورية «قضايا في الفلسفة وعلم النفس» التي يرأس تحريرها صديقه نيكولاي غروت،

بروفيسور في جامعة موسكو. أعقبت هذه المقالة سوناتل كروتزر مباشرة، والسبب في ذلك أن تولستوي كان يؤمن بالعلاقة المباشرة بين الانغماس في تناول ما لذ وطاب من جهة، والإفراط في الجنس من جهة أخرى، محاجا بالقول إن الاستهلاك الشهواني للمأكل يحفز الرغبة الجنسية والحاجة إلى المواقعة. وبالتالي فإن العفة والامتناع عن تناول الأطعمة المحفزة لا سيما اللحوم والتزام مذهب النباتية، كلها شروط مسبقة لمزاولة حياة مسيحية زاهدة كان يتطلع إليها. كان لزاما أن يصبح تولستوي أيضا بطلا في عيون أنصار حركة حقوق الحيوانات لأنه لم يدخر وسعا في عرض بضاعته بكل جرأة، ووصف المشاهد الوحشية التي شهدها في المسلخ بلا تحفظ وبوضوح، حيث تذبح الحيوانات:

«أُدخل من خلال الباب الذي يقابل الباب الذي كنت أقف بجانبه ثور ضخم أحمر مكتنز عُلِف على نحو جيد، وكان يسحبه رجلان. وبمجرد أن دخل رأيت جزارا يرفع سكينه فوق رقبته ويطعنه. اختلَّ توازن الثور، وكأنه فقد فجأة الإحساس بجميع قوائمه، وسقط بثقله الرهيب على بطنه ومال على الفور على جانبه، وأخذ يرفس بقوائمه الأماميتين والخلفيتين وما يعلوهما من جهة أسفل الظهر. عندها قفز جزار آخر على الثور في الجهة المقابلة لقوائمه المنتفضة وأمسك بقرونه ولوى رأسه باتجاه الأرض، بينما جزّ جزار آخر عنق الثور بسكين. وتدفق جدول من الدم الأسود الحمراوي من تحت رأس الثور وصُبَّ في حوض معدني يُمسك به فتى لُطّخ بالدم. وأثناء تلك اللحظات كان الثور ينفض برأسه بلا توقف، وكأنه يحاول أن يقف مجددا ويلوّح بقوائمه الأربع في الهواء. امتلأ الحوض بسرعة، وكان الثور ما يزال على قيد الحياة وبطنه تمور وتهيج وتنتفخ، وقوائمه ومؤخرته تنتفض بعنف رهيب أرغم الجزارين على الابتعاد عن مسرح الذبح. وعندما امتلأ أول حوض، حمله الفتى على رأسه متوجها إلى معمل الألبومين (السويداء)، بينما أتى فتى آخر بحوض جديد ووضعه تحت رأس الثور، فما لبث أن امتلأ أيضا بسرعة. وفي الأثناء كان الثور ما يزال هائجا يمور بجسده ويرفس بقوائمه».

لا نستطيع أن نتظاهر بأننا لا نعرف ما يجري؛ فنحن لسنا طيور النعام. ولا نستطيع أن نؤمن بأننا لو رفضنا رؤية ما لا نرغب في رؤيته فإنه سيختفي من على وجه الأرض. وهذا ينطبق تماما على أن ما لا نرغب في رؤيته نرغب في تناوله والتهامه. فلو كان الأمر بالفعل لا يمكن الاستغناء عنه، أو إذا كان يمكن الاستغناء عنه، فيجب أن يكون في بعض الأحيان على الأقل مفيدا! لكنه بالفعل غير ضروري ويخدم فقط في تغذية الوحوش التي بداخلنا والمشاعر البهيمية، ويحفز الرغبة الجنسية ويشجع على الزنا والسكر. وهذا ما تؤكده حقيقة أن الناس الشباب اللطفاء الطيبين غير الفاسقين -لا سيما النساء والفتيات- من دون أن يعرفوا منطق الأمور، يشعرون مع ذلك بأن الفضيلة لا تتواءم مع أكل لحم البقر. وعندما يريدون أن يصبحوا خيرين صالحين يتخلَّون عن أكل اللحوم.

قد لا يتبع الكتاب المعاصرون الطريق الروحاني نفسه الذي اتبعه تولستوي، لكن حقيقة أن التعامل الوحشي مع الحيوانات ما يزال قادرا على إحداث صدمة فينا في القرن الحادي والعشرين مصداق بأننا ما زلنا نتصرف كالنعام وندفن رؤوسنا في الرمال. فبعد قرن من نشر تولستوي مقالته «الخطوة الأولى» لم يتغير مع الأسف كثير مما يحصل داخل المسالخ.

ثمة مفارقة مؤلمة مفادها أن كتابة تولستوي لمقالته اللاذعة الهجومية الناقدة للإفراط في الاستهلاك تزامنت مع أخبار تفيد بحدوث مجاعة كبرى. فقد شهدت منطقة الفولغا ومنطقة «التربة السوداء» الوسطى سنتين عجافا متتاليتين من الحصاد. وقد أثرت موجة جفاف عام 1891 على 14 مليون نسمة يقطنون في 13 منطقة في الجزء الأوروبي من البلاد، ابتداء من مقاطعة تولا في الغرب وصولا إلى سمارا على بعد مئات الأميال شرقا. وهكذا، شكل المزيج بين حالة الطقس السيئة، والمعدات الزراعية البالية، ورداءة المواصلات، وفشل الحكومة الروسية في اتخاذ تدابير في الوقت الحسن، وفشلها أيضا في توفير مساعدة لائقة للفلاحين الذين كانوا فقراء أصلا ويعانون من سوء التغذية، شكل كل ذلك ضربة قاتلة أودت بحياة نصف مليون شخص جراء مرض الكوليرا. ولم تخفف مركزية الحكومة وتضخم بيروقراطيتها وعدم

نجاعتها من وطأة الكارثة؛ لأن المسؤولين لم يكونوا على دراية بحجم الكارثة في المقاطعات، بالإضافة إلى افتقارهم للسلطات المستقلة.

بدأ تولستوي يجتذب بأفكاره عددا متزايدا من التابعين مع نهاية الثمانينيات، لكنه حصل على نصيبه من النقد أيضا. بيد أنه في عام 1891، عندما انتهز السانحة وأمسك بزمام المبادرة لمساعدة ضحايا المجاعة التي بدأت تعصف بروسيا، تبوأ موقعا منيعا على رأس الزعامة الأخلاقية الوطنية؛ لدرجة أن آراءه الدينية الصارمة تم التساهل معها لاحقا بوصفها آراء غريبة شاذة على الأقل من قِبل العامة. ورغم نفاد صبر تشيخوف إزاء آراء تولستوي الرجعية وفقا لرأيه، فقد كان جادا في وضعه الرقم الأول على قائمة أهم الأشخاص في روسيا في ديسمبر عام 1890 (وصنَّف نفسه في المرتبة الـ 877). ولم يكن سوى معجب أشد الإعجاب بعمله الإغاثي أثناء المجاعة.

كما كتب في رسالة أخرى بعد سنة: «يحتاج المرء إلى شجاعة وسلطة تولستوي لكي يسبح ضد التيار ويتحدى المحظورات والمناخ العام للرأي، ويقوم بما يمليه عليه واجبه». ومع أن تشيخوف قام بصنيع حسن وعمل رائع إبان المجاعة، إلا أن تولستوي كان سباقا في الوصول إلى المكان، بالإضافة إلى تعريته للحكومة الروسية وإحراجها.

انزعج تولستوي أشد الانزعاج عندما ثارت الطبقات الثرية الروسية غضبا بسبب الأزمة المحدقة في صيف 1891، فالفقر المدقع شكَّل واقعا يوميا في حياة السواد الأعظم من الفلاحين، فلماذا أرادوا مساعدة الفلاحين إبان المجاعة المأساوية فحسب؟ انطلق تولستوي على صهوة جواده إلى مقاطعة تولا ليرى بنفسه ما كان يجري بعد أن اتخذ قرارا بعدم البقاء في موسكو في ذلك الشتاء. وفي نهاية الشهر عاد إلى منزله وبدأ كتابة مقالة عنوانها «بشأن المجاعة»، سلق فيها الطبقات المثقفة بلسان حاد بسبب لامبالاتهم بمأزق ملايين الفلاحين الذين كانوا بالكاد يسدّون رمقهم في الظروف الطبيعية، ناهيك عن ظرف المجاعة الاستثنائي. وفي الخامس عشر من أكتوبر أرسل مقالته/ تقريره إلى دورية «قضايا في الفلسفة والسيكولوجيا». وبعد عشرة

أيام كتب له نيكولاي غروت ليخبره بنبأ كان متوقعا؛ مفاده أن العدد الذي خصص لتنشر فيه المقالة تم مصادرته من قِبل الرقيب. وفي اليوم التالي، توجه تولستوي بصحبة ابنتيه الكبريان تانيا وماشا إلى مقاطعة ريازان لتقديم يد المساعدة بحسب المستطاع. وكانت الخطة تقضي بالمكوث في عزبة صديقه إيفان رايفسكي، والقيام بالتحضيرات اللازمة لإقامة تكية وتوزيع الطعام وتوفير مساعدات ملموسة لفلاحي المنطقة. وكان رايفسكي قد قدِم لزيارة تولستوي في ذلك الصيف ليخبره عن مأساوية الوضع. وقد شجع تولستوي تفاني صديقه وإيثاره والتزامه بقضية الفقراء الفلاحين على اتخاذ خطوات والتحرك لتقديم المساعدة. ومن المحزن أن نذكر أن رايفسكي توفي بمرض الإنفلونزا بعد شهر من وصول تولستوي.

كما قام ليف الابن، ذو الثانية والعشرين، بالسفر إلى عزبته التي ورثها في سمارا للمساعدة إبان المجاعة، بعد أن أخذ إجازة من الجامعة. لكن التجربة كانت مروعة بحيث أصابته بصدمة نفسية أثرت سلبيا على صحته؛ فقد كانت الظروف في سمارا كارثية للغاية بحيث لم ينبت أي شيء ولم ينتج أي طعام، ناهيك عن صعوبة إقامة التكايا. كانت صونيا ما تزال مسؤولة حينها عن رعاية أربعة أطفال أعمارهم بين الثالثة والرابعة عشرة في منزل الأسرة في موسكو. لهذا، التزمت المنزل رغم إصرارها على تقديم العون أيضا. ففي الثالث من نوفمبر من عام 1891 نشرت مناشدة خطية لطلب المساعدة في مجلة «المجلة/ الغازيت» (وقد طُبعت أيضا في صحف عدة في أوروبا والولايات المتحدة)، وحصلت نتيجة لذلك على 9 آلاف روبل في الأسبوع الأول فقط. ولم ترسل زوجات تجار الشاي الأثرياء في كياختا، على الحدود مع الصين، المال لصونيا فحسب، بل شملت قائمة المتبرعين أشخاصاً من طائفة قدامى المؤمنين وصيادي السمك في بيسارابيا؛ الذين تبرعوا بجل ما اكتسبوه، وعقيدا متقاعدا من نيجني نوفغورود تبرع بمعاشه التقاعدي، وساعي بريد ومعلمين من القرى، وحتى فلاحين أيضا. شعرت صونيا بالسعادة الغامرة لمساهمتها وكتبت في مذكراتها تستذكر تلك الأيام:

«اشتريت شاحنات من الذرة والحبوب والبصل والملفوف وكل شيء تحتاجه التكايا/ مراكز الطعام، فتم إطعام الفقراء القرويين الذين عصفت بهم المجاعة. ولتغطية التكلفة حصلتُ على أموال أُرسلت لي بمبالغ كبيرة. ومن القماش الذي أرسلته لي معامل النسيج فَوضتُّ مهمة حياكة بياضات السرائر لنساء فقيرات لقاء مبالغ متواضعة، ثم أرسلتها إلى الأماكن التي كانت بحاجة ماسة لها؛ لا سيما تلك التي يقطنها من يعاني من مرض التيفوئيد».

نسقت صونيا من قاعدتها في موسكو التبرعات ونشرت نشرة منتظمة خلال الأشهر القليلة التالية فصَّلَتْ فيها المساهمات التي كانت تتسلمها. وأمضت أيضا أياما تحوك قمصانا من القماش الذي حصلت عليه من واحد من أساطين تجارة القماش اسمه سافا ماروزافا. كما كانت دونياشا بوبافا، مربية المنزل، ومربية الأولاد الإنجليزية، تساعدانها في ذلك.

عاد تولستوي بالذاكرة إلى أحداث عام 1873 في سمارا، حيث شاهد لأول مرة تداعيات المجاعة على الناس في روسيا. ومنذ أن كتب مقالته حول الإحصاء السكاني في موسكو عام 1882، كان مصرّا على أن توظيف المال فقط لا يضع حلا لهذه المشاكل العميقة. فما تحتاجه بلاده هو الأفعال الملموسة وليس إلقاء المال هنا وهناك. وبعد استقراره المؤقت في عزبة رايفسكي، كتب تولستوي مقالة أخرى عن المجاعة عنوانها: «قضية جلل» (والقضية تتمحور حول الاكتفاء الذاتي في روسيا من عدمه). وقد نُشرت المقالة في مجلة «المجلة الروسية/ غازيتا» في السادس من نوفمبر/ تشرين الثاني. وهكذا، دأب تولستوي، وعلى مدى أشهر، على الاستيقاظ مبكرا كل يوم لتنظيم شؤون التكايا وتشغيلها والإشراف على المتطوعين وشراء اللازم بأموال التبرعات (وكان هو نفسه قد جلب معه 600 روبل ليسهم في ذلك). ومع نهاية نوفمبر وصل عدد التكايا إلى ثلاثين. ومع نهاية ديسمبر وصل العدد إلى سبعين. وكان الناس بأمسِّ الحاجة لها. كتب تولستوي إلى صونيا يخبرها بأنه زار قرية تحتوي على بقرة واحدة فقط لكل تسع عائلات، وذهب إلى قرية أخرى كل سكانها من المعوزين اليائسين. ولكن، بحلول يناير كان يحصل على الطعام يوميا قرابة 4 آلاف فلاح.

سعت الحكومة في البداية إلى ثني الروس العامة عن المشاركة في أعمال الإغاثة، لكنها ما لبثت أن غيرت سياساتها لأنها كانت عاجزة عن التصدي للمجاعة بمفردها. ومع ذلك أثارت أنشطة تولستوي ذعر الحكومة؛ لذا، أرسلت منشورا إلى كل الصحف الروسية تمنعها من نشر أي مقالة له. وقد أرسلت رسالة توبيخية إلى محرر مجلة «المجلة الروسية» لنشره مقالة «قضية جلل»، لكنه مع ذلك قام في ديسمبر بنشر مقالة متممة للمقالة الأولى عنوانها: «طرائق لمساعدة السكان الذين تضرروا من كساد الحصاد». وقد أعلن تشيرتكوف بقوة في اليوم التالي في رسالة أرسلها إلى سوفورين أن تولستوي لم يعد بعد الآن رجلا عاديا، بل «عملاقا.. بل الإله جوبيتر». وقام على الفوز بالمساهمة بمقالة بقلمه لتُضاف إلى مجموعة المقالات المنشورة في الصحيفة. بينما أطلق صديق تولستوي، نيكولاي غروت، عليه لقب «القيصر الروحاني» الذي تُعلَّق عليه جميع آمال روسيا في هذه الأوقات العصيبة. لكن مشكلة كبرى كانت تختمر تحت السطح؛ إذ بعد أن تمت الموافقة أخيرا على مقالة «بشأن المجاعة» بعد عملية تنقيح موسعة ونشرت في بداية يناير عام 1892 في مجلة «الأسبوع»، أراد تولستوي أن ينشر النص قبل تنقيحه في الخارج فاتصل بمعارف أجانب مختلفين وطلب منهم ترجمته. وقامت إيزابيل هابجود بترجمة نسخة معدة للنشر في الولايات المتحدة، وطبعت إعلانا في صحيفة الإيفنينغ بوست الصادرة في نيويورك صرحت فيه بأنها بدأت حملة لجمع التبرعات لسد رمق الجوعى في روسيا المنكوبة (وقد بدأت حينها التبرعات تأتي من إنجلترا وفرنسا وألمانيا). كما قام إميل ديلون، وهو صحفي إنجليزي وأستاذ سابق في جامعة خاركوف، بترجمة مقالة تولستوي ونشرها في الديلي تلغراف في الرابع عشر (السادس والعشرين في روسيا) من يناير. وقد عنونها بعنوان مؤجج للمشاعر: «لماذا يتضور الفلاحون الروس جوعا؟». وكما كان يأمل تولستوي، فقد تُرجمت مقتطفات منها عودا إلى اللغة الروسية لتُنشَر في الصحافة المحلية، لكن كلماته تم التلاعب فيها من قِبل منشورات الجناح اليميني، وتم نبذها على الفور من قِبل صحفيين

انفعاليين على أساس أنها أخطر حرب دعائية/ بروباغندا ثورية. وهكذا، وجد تولستوي نفسه يُنعَت بالمسيح الدجال الذي يثير الفلاحين ويحثهم على القيام بالثورة.

لم يكن ثمة فرصة لليبرالي نيكولاي جروت لنشر مقالة تولستوي في صحيفته. وقد دارت الأحاديث في البلاط القيصري بشأن إمكانية الزج بتولستوي في سجن دير سوزدال (المكان التقليدي الذي يُسجَن فيه عادة الزنادقة والمهرطقون في روسيا)، أو نفيه إلى خارج البلاد، أو حبسه في مصحة عقلية؛ لأن الرابط بين الصوفيين المجاذيب من جهة والجنون من جهة أخرى كان أمرا شائعا في روسيا. وفي سمولنسك النائية البعيدة كان ثمة إشاعات تقول بأن تولستوي قد نُفِيَ أصلا إلى سجن دير سولوفيتسكي (المكان الذي سجن فيه أحد أجداده؛ بيوتر أندريفيتش). وقبل أن يغادر الكاتب والصحفي يوناس ستادلينغ موطنه السويد ليصبح متطوعا، سمع بأن تولستوي أصبح «حبيس عزبته» وأنه سوف يُطرَد من البلاد. لكن ألكسندر الثالث تدخل مجددا واختار العفو عنه. وهذه ليست المرة الأولى التي تُرغَم فيها ألكسندرين على الدفاع عن قريبها المشاكس في أروقة البلاط القيصري، إذ كان قربها من القيصر كفيلا بسلامته. مع العلم أن تولستوي كان يتوق للشهادة لدرجة أنه كان يشعر بالغضب لأنه استمر في مساعيه من دون أي عوائق، ومن دون أن يُعتقَل أو يُسجَن. وقد أشار سوفورين في رسالة كتبها في تلك الفترة إلى أن تولستوي هو الشخص الوحيد الذي استطاع القيام بشيء بجرأة عجيبة ودون تحفظ ولا مواربة، بينما تعيّن على الآخرين تغليف أفكارهم «بالمخمل»، واللجوء إلى التقيّة ليتسنى لهم القيام بأي شيء: «إنهم يضطهدونه بلا فائدة؛ فلا يستطيع أحد المساس به. أما إن حصل ذلك فسيكون تولستوي سعيدا للغاية لأنه قال لي في مناسبات عدة: «لماذا لا يلقون القبض عليّ؟ لماذا لا يضعونني في السجن؟». يا له من حظ سعيد!».

انتاب صونيا قلق شديد، وشعرت أن عائلتها بأسرها تقترب من شفير الهاوية. وتساءلت عن تجليات مبدأ تولستوي في الحب والسلمية. لكن التزامها بالقضية قربهما من بعضهما بعضا، وهذا ما أسعد تولستوي. كما أنها قدمت إلى بيغيتشيفكا في زيارة تمتد لعشرة أيام في نهاية يناير

1892. كانت صونيا في السابق تجمع التبرعات وتنشر التقارير، أما الآن فقد رأت بأم عينها الفلاحين الهزيلين المنهكين الضامرين المرتجفين المرتدين لرث الثياب، ذوي العيون المعبرة عن الأسى والحزن، الشاعرين بمهانة الحصول على الصدقات. كما اكتشفت أيضا صعوبة العمل الذي قام به زوجها وبناتها (فقد كان تولستوي يسهر أحيانا حتى الثالثة فجرا في محاولة لإتمام كتاباته). وبخلاف التحديات المادية المتعلقة بالعمل في أشهر الشتاء القارس في القرى التي يسكن فيها أناس لا سبيل لهم لإطعام أنفسهم أو لتدفئة منازلهم، فإن نطاق وحجم الكارثة كانا محبطين للغاية؛ فقد كان من المحال مساعدة الجميع. وعندما عادت صونيا إلى موسكو لم تجد نفسها منهمكة في رعاية فانشكا ذي الثلاث سنوات الذي كان مريضا، فحسب، بل أيضا تعيّن عليها أن تسوي بعض الخلافات وتبدد بعض التوترات. فقد كان لترجمة ديلون لمقالة تولستوي ونشرها في الديلي تلغراف تداعيات وخيمة في صفوف الوزراء والمسؤولين في البلاط القيصري، وهو ما دفعها إلى إرسال رسائل تلطيفية سعت من خلالها إلى التهدئة، وإلى القيام بزيارات متكررة للحاكم العام الدوق الكبير سريغيه ألكسندروفيتش وزوجته إليزافيتا فيودرفنا.

وانتقلت عدوى جهود آل تولستوي الإغاثية سريعا إلى الأصدقاء والأقارب الراغبين في مدّ يد العون، بالإضافة إلى متطوعين أجانب مثل يوناس ستادلينغ الذي وصل إلى موقع الحدث في فبراير/ شباط من عام 1892، ونشر كتابا عرض فيه تجربته تلك، ووصف مرافقته لابنة تولستوي ماشا في زياراتها للمواقع المختلفة في اليوم الأول، بما في ذلك زيارة مدرسة:

«توقفنا عند إحدى العزب حيث كان الكونت تولستوي قد افتتح مدرسة وغرفة طعام. ولم نستطع لبعض الوقت بعد دخولنا أن نرى شيئا بوضوح، لكن أقدامنا أحست بأن الأرضية كانت مفروشة بالتراب. وعندما اعتادت عيوننا على الظلمة، رأينا عددا من المقاعد يقف بينها حوالي 30 طفلا ينظرون إلينا بصمت. وكان ثمة عجوزان في إحدى الزوايا. وفي الجوار (من جانب المدفأة) سمعنا أنفاسا ثقيلة متعبة تصدر عن ثلاثة أطفال ممددين تغطي وجوههم حبيبات الجدري السوداء. فاقترحتُ أن يتم إخراجهم على الفور، فأجابت الكونتيس بأن ذلك

سيحصل عاجلا. ولكن عزل المرضى لم يكن أمرا سهلا؛ بسبب افتقار المنطقة إلى المستشفيات، وبسبب شيوع تلك الأمراض في كل دار تقريبا. اكتشفت أن هؤلاء الأطفال المساكين أُتي بهم إلى المدرسة «لينعموا ببعض الدفء فيها».

أُقفلت المدارس عندما لم يكن ثمة مال يُدفَع للمعلمين، لكن تولستوي قام بكل ما في وسعه لإعادة فتح بعضها. كان ستادلينغ يُكنُّ الإعجاب لجميع أفراد أسرة تولستوي؛ فقد أُعجب بصونيا التي لا تكل ولا تمل من فرز المراسلات الهائلة بمفردها في موسكو، كما أُعجب بليف لفوفيتش وجهوده الإغاثية في سمارا (حيث تطوع ستادلينغ)، وأُعجب بالابنتين المتفانيتين، تانيا وماشا، اللتين ساعدتا والديهما ليس في إدارة وتشغيل التكايا وإطعام المساكين وإقامة أماكن إضافية لإطعام الأطفال فحسب، بل أيضا في شراء علف الخيل وتوزيع الوقود والبذور والكتّان واللّحاء على الفلاحين لكي يعملوا.

بحلول خريف عام 1892، الفترة التي عاد فيها تولستوي أدراجه إلى ياسنايا بوليانا، لعبت التبرعات التي وصلت إلى 100 ألف روبل، وسفينتا الشحن الأمريكيتان اللتان مُلئِتا بالبطاطس والدقيق والحبوب، دورا مهما في توسيع حلقة التكايا لتصل إلى 212 تكية تمتد على أربع مقاطعات استمرت بتوفير الطعام حتى شهر يوليو من ذلك العام. أعلن تولستوي لاحقا أن تلك الفترة، بالإضافة إلى فترتي تدريسه في مدرسة ياسنايا بوليانا وعمله على تأليف كتاب ألف باء جيم، كانت من أسعد فترات حياته. وعاد في سبتمبر إلى بيغيتشيفكا في زيارة أخرى، وخفَّف بحذر من حدة قلمه عندما كتب بيانا مؤثرا فصّل فيه كيف وُظِّفت أموال التبرعات التي تم تسلمها بين شهر أبريل ويوليو/ أيلول إبان المجاعة. ونُشر البيان في الحادي والثلاثين من أكتوبر في مجلة «المجلة الروسية». كما طُبعت على الأقل 5 آلاف نسخة إضافية لتلبية الطلب. استمر تولستوي في زيارة بيغيتشيفكا في شتاء 1893، لكنه حينها كان لديه متسع من الوقت للعمل على أطروحته بشأن اللاعنف/ السلمية التي بدأها منذ سنتين. وقد عمل عليها أيضا خلال ثلاثة أسابيع أمضاها في موسكو في يناير وفي أبريل، وبينما كان في بيغيتشيفكا أرسل له تشيرتكوف مخطوطه الأخير وفلاحا شابا ذا خط حسن ليساعده في النسخ. وهكذا استأنف

تولستوي الكتابة، لا سيما أنه عاد إلى هدوء وسلام ياسنايا بوليانا وصبّ كل تركيزه على الأطروحة.

وبعد أن بدأت كتاباته الدينية بالانتشار خارج روسيا، بدأ تولستوي يستقبل رسائل وكتبا وكتيبات وكراريس من قراء متحمسين متلهفين من جميع أرجاء العالم متعاطفين مع قضيته. وعندما زارت أليس ستوكام ياسنايا بوليانا، كان تولستوي مهتما جدا بما أخبرته عن الفروع المختلفة للمسيحية في أمريكا؛ التي كانت «تتجه نحو المسيحية العملية والأخوة العالمية/ الكونية وعلامة ذلك السلمية واللامقاومة». وتعرف تولستوي لأول مرة على طوائف منها: الكونيون، والموحدون، والكويكرز[188] (رابطة الأصدقاء)، والروحانيون، وأتباع سويدبورغ[189]، والهزّازون[190]. وفي الثلاثين من مارس عام 1889 أرسل أحد المنتمين إلى طائفة الهزازين واسمه أسيناث ستيكني صورا لزعماء الطائفة وكتابين: «جواب المرتعش»، و«كلام مبسط في الدين العملي.. أجوبة صريحة على السائلين التواقين لجورج لوماس». وفي خريف 1889 دخل تولستوي في مراسلات مع مرتعش آخر اسمه ألونزو هوليستر، شرح خلالها نقاط التوافق والاختلاف مع عقيدتهم. كما تواصل تولستوي مع طائفة الكويكرز (رابطة الأصدقاء) التي دعت على مدار 200 سنة لنبذ العنف والتزام السلمية وعدم المقاومة ورفض التسلح حتى دفاعا عن النفس. وأرسل ويندل جاريسون، محرر مجلة عدم المقاومة، إلى تولستوي أعمال أبيه، وهو المصلح الاجتماعي المشهور والمعارض الشرس لعقوبة

---

(188) أصدقاء الحقيقة وأولاد النّور: طائفة دينية أسسها جورج فوكس في منتصف القرن السابع عشر، ووُلدت من رحم أقصى يسار الحركة التطهيرية في إنجلترا. من مبادئها نبذ الحروب والإيمان بالنور الباطني في نفس كل المؤمنين (المترجم).

(189) إيمانويل سفيدبرغ: عالم ورجل دين وصوفي وفيلسوف سويدي (1688-1772). ألهم أتباعه فأسسوا كنيسة أورشليم الجديدة بعد وفاته (المترجم).

(190) طائفة دينية أمريكية تؤمن بعودة المسيح. أُسست عام 1747 على يد آن لي (الأم آن) كفرع من الكويكرز (رابطة الأصدقاء)، وتعتمد في طقوسها على ارتجاف البدن واهتزاز الرأس لبلوغ النشوة، وتشجع على التبتل وتحظر الملكية الخاصة، وتشجع أتباعها على الالتزام بالملكية العامة (المترجم).

الإعدام ويليام لويد جاريسون (المتوفى سنة 1879). وفي عام 1889 تسلَّم تولستوي أيضا عمل أدين بالو المعنون »كتاب في مبادئ اللاعنف« الذي أثار إعجابه. وقد كان بالو راهبا معارضا لعقوبة الإعدام، وأسس مجتمعا طوباويا ليعيش فيه حياة التزام مسيحي بعيد عن العنف في ماساتشوستس عام 1841. وقد تبادل تولستوي مع ذلك الراهب، الذي كان يبلغ حينها السابعة والثمانين، رسائل دافئة في آخر سنة من حياته.

وبينما نضجت أفكار تولستوي بتأثير من كثير ممن تواصل معهم وكانوا يشبهونه، بدأ يعي أن ثمة كتابا آخر مهما يجب أن يكتبه بعد كتابته «معتقداتي/ بماذا أؤمن؟». وبما أن فكرة عدم المقاومة (السلمية، اللاعنف) كانت تشكل حجر الزاوية في منظومته الأخلاقية والدينية، فإنه شعر أن تفسيراته لتلك الفكرة لم تكن واسعة النطاق بشكل كاف في الأعمال التي نشرها لغاية الآن. وكما شرح ذلك يوناس ستادلينغ بعد محادثات مع تولستوي في بيغيتشيفكا، فإن الكتاب الجديد سيكون: «بمثابة عاصفة مضادة للروح العسكرية المتنامية لذلك العصر، التي تبدو مجسدة في شخص الإمبراطور الألماني الشاب».

اعتقد تولستوي في البداية أنه قادر على كتابة كتابه الجديد بسرعة. فقد صاغ مسوّدة كاملة خلال يومين من عودته إلى ياسنايا بوليانا، لكنه لم يكن راضيا عن مخطوطه إلا بعد سنة كاملة من ذلك التاريخ. وهكذا أصبح كتابه «مملكة الرب في داخلك» تحفته الأدبية الرائعة من بين كتاباته الدينية. وتكمن أهمية هذا العمل في أن تولستوي، وبعد إتمامه عام 1893، كان قد كتب أكثر من 13 ألف صفحة؛ بمعدل ما كتبه تقريبا للحرب والسلام وآنا كارينينا والبعث مجتمعة. وقد كان أيضا عملة الأكثر حزما وانتقادا.

يبدأ تولستوي بالحديث عن بعض الناس الذين شعروا بفيض من الأحاسيس دفعهم للتعبير عن دعمهم له بعد قراءة معتقداتي من خلال إرسال رسائل وكتيبات وكتب. كما يجيب أيضا على نقاده قبل أن يؤكد على أن المؤمنين والملحدين على حد سواء لا يفهمون المسيحية، وأنه من المحال أن يعيش المرء كمسيحي حقيقي في مجتمع تقليدي. وأخيرا، يقوم بتحليل المواقف العصرية إزاء الحرب ومغزى التجنيد والخدمة العسكرية، ويقطع حازمًا بعدم تساوق

المسيحية مع أي شكل من أشكال الحكومة. ومع نهاية الكتاب، لا يقوى تولستوي على الحفاظ على النبرة الهادئة التي بدأ بها أطروحته؛ ففي الفصل الثاني عشر المتقد المتوهج والأخير يستدعي من الذاكرة لقاءه بكتيبة من 400 جندي مسلح وهو في طريقه إلى بيغيتشيفكا في آخر رحلاته. وكان الجنود حينها يسافرون في قطار خاص ليقمعوا اضطرابات قام بها فلاحون جوعى كان تولستوي في طريقه إلى مساعدتهم. وقد أكد ذلك المشهد لتولستوي صحة أفكاره. وفي يوليو من عام 1892 لخص تولستوي أفكار أطروحته في رسالة أرسل بها إلى تشارلز تيرنر، وهو مدرس إنجليزي استقر في روسيا وترجم بعض أعماله:

«ثمة ثلاث أفكار رئيسية في هذا الكتاب: 1. المسيحية ليست طقوساً لعبادة الله أو عقيدة للخلاص فحسب كما يتوهم السواد الأعظم من المسيحيين المزيّفين، بل هي فهم مختلف للحياة يؤدي إلى تغييرات في البنية الكليّة للمجتمع الإنساني. 2. ثمة نزعتان متعارضتان طفتا على السطح منذ مهد المسيحية: أوّلهما كانت وما تزال توضح مع مرور الوقت الفهم الجديد والحقيقي للحياة التي وهبتها للبشر، وثانيهما كانت وما تزال تشوه المسيحية وتحولها إلى عقيدة وثنية. وقد أصبح هذا التناقض في عصرنا حادا للغاية؛ إذ يعبر عنه من خلال التسلح الكوني والتجنيد العسكري العام. 3. إن الحل الضروري لهذا التناقض الحاسم الذي تمَّ التستر عليه بدرجة سخيفة من النفاق في عصرنا، يمكن أن نصل إليه فقط من خلال الجهود المخلصة لكل فرد فينا، لكي يوائم حياته وأفعاله مع الأسس الأخلاقية التي يعتبرها المرء صحيحة، بصرف النظر عن الأسرة أو المجتمع أو الحكومة».

في مارس من عام 1893، وبمجرد إتمامه «مملكة الرب في داخلك»، بدأ تولستوي بإرسال مخطوطه إلى الخارج ليترجم وينشر. وظهرت الترجمات الفرنسية والإيطالية في نهاية عام 1893. وفي رسالة أرسلها نيكولاي ستراخوف إلى تولستوي في التاسع والعشرين من أكتوبر، أخبره فيها من بطرسبورغ بأن الرقابة الدينية اعتبرت الترجمة الفرنسية لمملكة الرب في داخلك الكتاب الأجنبي الأكثر ضررا من بين الكتب التي منعتها من التوزيع في روسيا. أعقبت الترجمتين الفرنسية والإيطالية ترجمةٌ باللغة الألمانية في بداية عام 1894. ثم ظهرت ثلاث

ترجمات باللغة الإنجليزية؛ اثنتان منها نُشرتا في لندن، ونُشرت الثالثة في أمريكا. وقد وصلت إحدى تلك الترجمات إلى يد محام هندي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما يعمل في جنوب إفريقيا اسمه موهانداس غاندي، وكان يمارس المقاومة السلمية حينها، ثم استسلم لشكوك اعترته بشأنها ما لبثْ أن بُدّدت تماماً فور قراءته لنص تولستوي. وقد دُهش غاندي لحقيقة أن تولستوي كان يمارس عملياً على الأرض ما يدعو له نظرياً، ولم يكن يتنازل مطلقاً عندما يتعلق الأمر بالبحث عن الحقيقة.

ظهرت النسخة الروسية الأولى لمملكة الرب في داخلك في بداية عام 1894، بعد أن خضعت للرقابة فاختُصرت ونُحِّيت منها صفحات كاملة، لا سيما الصفحتين اللتين تحدث فيهما تولستوي عن الإمبراطور الألماني كايزر فلهلم[191]، بالإضافة إلى إشاراته التهكمية التي استهدفت كاترين الثانية التي وُلدت في ألمانيا. لكن نص الكتاب كان قد وُزّع بنسخ سريّة مهرّبة على نطاق واسع في روسيا، كما هُرّبت أيضا النسخ الروسية التي نُشرت في ألمانيا. وقد عبّرت مذكرة حكومية سرّية في مايو من عام 1894 عن ذعر الحكومة من استيراد عدد كبير من النسخ التي دخلت روسيا على نحو غير قانوني، ونصحت بالتالي بأن يخضع جميع الطبّاعين وحتى الأفراد العاديين الذين يمتلكون مطبعة لرقابة حكومية سرية. ومع ذلك انتشرت نسخ مطبوعة، لا سيما في «المقاطعات الجنوبية». أما النسخة الروسية الأولى غير المنقحة (التي لم تخضع للرقابة) فقد نشرها ميخائيل إلبيدين في جنيف عام 1896. وكان القيصر ألكسندر الثالث قد أعلن في السابق أنه لا يريد أن ينفي تولستوي خارج البلاد خشية أن يعتمر تاج الشهادة فتتعزّز شهرته. ومع ذلك كان القيصر يخشى من تداعيات كتابه الجديد الذي قرأه قبل وفاته المبكرة في خريف ذلك العام، حتى إنه بنفسه كان يتوق آنئذ ليكون بمقدوره محاسبة هذا الرعية المتمرد.

(191) يُعرَف في المصادر العربية باسم غليوم الثاني أو ويليام الثاني (المترجم).

الفصل الثاني عشر

الشيخ والمرتد والقيصر

«قال أحدهم إن لدى كل شخص رائحته الخاصة. بيد أن الأمر قد يبدو غريبا لو قلت إنني أعتقد أن لدى تولستوي رائحة شبيهة برائحة الكنيسة.. رائحة التقى والورع.. رائحة الصنوبر والثوب الكهنوتي ورقاقات خبز القداس».

من مذكرات فالنتين بولغاكوف، 12 فبراير/ كانون ثاني 1910.

اكتمل «إنجيل» تولستوي عام 1893 بعد نشره «مملكة الرب في داخلك». ولم يكن من باب المصادفة أن دور الطباعة غير القانونية التي أصدرت نسخ هذا العمل للتوزيع في روسيا كانت أيضا تُصدِر نسخا من مواد بروباغندا ثورية. فبخلاف التزام تولستوي الحازم بمذهب السلمية، فقد سعى أيضا إلى تقويض دعائم الحكومة الروسية آنذاك، كما عقَّبَت لاحقا المنظرة الماركسية البولندية روزا لوكسمبورغ قائلة:

يتسم النقد الذي وجهه تولستوي للنظام القائم بالراديكالية والتشدد. فهو نقد لا يعرف الحدود ولا ينظر في التداعيات ولا يقدم التسويات؛ فمنع الملكية الخاصة وتقويض أركان الدولة وإلزام الجميع بالعمل وتعزيز المساواة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة؛ وفرض حظر شامل على العسكرة وإعلان الحروب وإرساء دعائم الأخوة بين الأمم؛ ونشر السلام العالمي والمساواة في كل شيء ينتمي إلى صورة الإنسان، هذه كلها مُثُلٌ دأب تولستوي على الدعوة إليها بلا هوادة، وبعناد نبي عظيم لا يستسلم أمام الصعاب.

يقوم تولستوي خلال السنوات القادمة بكتابة عشرات المقالات الإضافية التي يعرض فيها آراءه الدينية والأخلاقية. فيكتب بعضها كرد فعل على أحداث بعينها؛ كمقالة «حُرّم عليكم القتل» التي كتبها ردَّ فعل على اغتيال الملك أمبيرتو الأول عام 1900، و«لن ألوذ بالصمت»

التي كانت ردّ فعل على الأنباء التي تحدثت عن إعدام عشرين فلاحا عام 1908 بتهمة محاولة السرقة. وكتب مقالات أخرى ليعبّر عن أفكاره وتطورها، لا سيما في الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته؛ كمقالة «الدين والأخلاق»، و«قانون العنف وقانون الحب»، و«جوهر التعاليم المسيحية». وكانت تلك المقالات تُعبّر عن آراء متنوعة تستهدف موضوعا بعينه، وكانت أكثر اختصارا من سابقاتها لكنها أكثر تهجما ونقدا.

برهن تولستوي على أنه حَواري/ رسول فعّال للغاية. فقد اعتمد على شهرته ككاتب وبدأ اجتذاب أتباع التزموا بنسخته الخاصة للمسيحية، وذلك بعد أن بدأ نشر آرائه الجديدة في عقد الثمانينيات. ومع أنه كان يشتكي من العزلة والوحدة في بداية حملته الدينية تلك؛ إذ كان يبحث باستمرار عمّن يؤنس وحدته، إلا أنه وبعد عقد من الزمن بدأ الناس السعي والهرولة باتجاه منزله بالعشرات ليؤنس وحدتهم وغربتهم بأفكاره الجديدة. وقد أتوا من أرجاء العالم كافة، وكان جلهم يعتبر هذه الرحلة نوعا من أنواع «الحج». وبينما كان تولستوي يستقبل في السابق، في بداية عقد الثمانينيات، ضيفين أو ثلاثة في الأسبوع على أفضل تقدير، أصبح في أواخر حياته يستقبل أكثر من خمسة وثلاثين زائرا في اليوم الواحد. كان من بينهم من يأتي إليه باعتباره شيخا (وليا) (ستاريتس)، على أمل أن يسدي لهم نصائح روحانية ويجيب عن أسئلتهم المتنوعة بتنوع مشاكلهم، وكان من بينهم أيضا من يريد أن يراه على الحقيقة فقط بسبب شهرته المدوية.

أما عن شهرته التي ملأت الآفاق، فيمكن التّيقّن من خبرها من خلال قراءة مقدمة الصحفي البريطاني ويليام ستيد التي أدرجها في روايته التي عرض فيها تجربته، خلال الأسبوع الذي أمضاه في ياسنايا بوليانا عام 1888:

«وجدتُ في روسيا وخارجها أشخاصا مهتمين بشخصية الكونت الروائي ليو تولستوي أكثر من اهتمامهم بأيّ شخصية روسية أخرى. ورغم أنه الأديب الأول في روسيا المعاصرة، إلا أن ذلك وحده لا يعكس الاهتمام العريض في شخصه. فهو رجل أصيل وعظيم ومفكر مستقل وولي ديني، وصاحب طريقة تشكل وسطًا بين المؤسسات الكنسية والمدرسية والسياسية

الاقتصادية. وهو لا يفكر في أمور غريبة ويعرضها بقوة صارمة وكلام متّقد فحسب؛ بل يزاول أمورا غريبة أيضا ويحث الآخرين على فعلها. يا له من رجل عبقري يقضي وقته يزرع البطاطا ويصلح الأحذية! يا له من فنان وأديب عظيم أرسى دعائم بروباغندا الفوضوية السلطوية المسيحية! يا له من أرستقراطي يزاول حياته كفلاح! ولا بد لأي رجل مثله في أي بلد آخر أن يبقى تحت الأضواء. أما في روسيا فهو يحتكر الأضواء. ليس هذا فحسب، بل إن شهرة أعماله الأصيلة قد عبرت الحدود الروسية وانتشرت بعيدا، حتى إننا نخمن أن عدد أولئك الذين يريدون أن «يسمعوا أخبار تولستوي» في بوسطن أو سان فرانسيسكو، أكبر من عدد أولئك الذين يريدون الشيء نفسه في بطرسبورغ أو موسكو».

ويذكر أن أعمال تولستوي الدينية والفنية الأدبية الرئيسية كانت قد ظهرت مترجمة منذ فترة ليست طويلة، إلا أن اسمه أصبح اسمًا لامعًا في جميع أرجاء العالم. فقد تأثر المسرحي السويدي أوغوست ستريندبرغ بأفكار تولستوي على نحو عميق عندما تعرف عليها في باريس عام 1885:

«لقد أثارت ترجمة الحرب والسلام لتولستوي إعجاب الباريسيين. الكونت تولستوي رجل ثري وجندي حاز على وسام الشجاعة عقب مشاركته في معارك سيباستوبل. وهو كاتب رائع تخلى عن المجتمع وأدار ظهره للكتابات الأدبية واصطف إلى جانب روسو في عمليه المثيرين للجدل «اعتراف» و«بماذا أؤمن؟». وأعلن الحرب على الثقافة ووضع تعاليمه حيز التطبيق من خلال تحوّله إلى فلاح».

كتب ستريندبرغ كتابه «في صفوف الفلاحين الفرنسيين» الذي نُشر عام 1889 بتأثير مباشر من أفكار تولستوي. وحفز ماثيو آرنولد مخيلة القراء البريطانيين، بينما نُشرت دراسة رائدة للرواية الروسية عام 1886 من قبل فيكومت يوجين ميلكوار دي فوغ؛ الذي خدم في السفارة الفرنسية في سانت بطرسبورغ في نهاية عقد السبعينيات وبداية الثمانينيات وتزوج بنبيلة روسية، وأدَّتْ غرضها في تغذية اهتمام القراء الأوروبيين البالغ بأعمال تولستوي في القارة الأوروبية.

وفي عام 1887 قام ناقد أمريكي بنشر مقالة في الهاربر بازار تحدَّث فيها عن ردة الفعل الصاخبة للوصول المفاجئ للأدب الروسي إلى العالم المتحدث باللغة الإنجليزية، ووصف تولستوي بأنه أعظم روائي على مدار التاريخ «من بين الأحياء أو الأموات على حد سواء». وفي نهاية العقد سافر كاتب ألماني إلى ياسنايا بوليانا للقيام ببحث سيرة تولستوي الذاتية الأولى التي نُشرَت في برلين عام 1892، قبل سنتين من ظهور سيرة له باللغة الروسية. وكان تولستوي حينها في الرابعة والستين من عمره.

لقد تغيرت بعض الأوجه في حياة تولستوي على نحو جذري بينما كان يصوغ مبدأه الخاص بالحب الأخوي ومذهب السلمية وعدم مقاومة العنف في عقد الثمانينيات. فقد امتنع امتناعا تاما عن المُسكرات، وأصبح نباتيا وأقلع عن التدخين وصيد الحيوانات، وتوقف أيضا عن التعاطي بالمال وتداول النقود قدر المستطاع. كما تغيرت في عقد التسعينيات بعض الأوجه في حياته مجددا، ليس أقلها أنه أصبح مواظبا على ركوب الدراجة الهوائية وهو في الخامسة والستين من عمره. كما احتاج أيضا إلى سكرتيرة لتساعده في الرد على الكم الهائل من الرسائل التي كانت تصل إليه من قرائه من جميع زوايا المعمورة. أضف إلى ذلك أنه تصدى للحكومة الروسية وجها لوجه، بعد أن حمل راية الدفاع عن الطوائف المضطهدة المتناثرة في ربوع البلاد؛ مما أدى إلى نفي بعض المقربين منه وطرده من الملّة/ الكنيسة الأرثوذكسية، مما زاد من شهرته. كما أن تغييرا طرأ على أوجه أخرى في الحياة الروسية في عقد التسعينيات؛ إذ اعتلى نيكولاي الثاني العرش، آخر قياصرة آل رومانوف، عام 1894 في خضم اضطرابات اجتماعية وسياسية عصفت بالبلاد، بالإضافة إلى تطور سريع لتكنولوجيات جديدة بدأت تُحدث ثورة في حياة الناس اليومية. فقبل وفاته عام 1910، عايش تولستوي فيلم الكاميرا والمركبات والفونوغراف والآلة الطابعة، حتى إنه تحدث مع تشيخوف عن طريق الهاتف.

وعلى نحو ملحوظ، استطاع تولستوي أن يجد وقتا ليكتب الرواية خلال الفترة العصيبة الأخيرة من حياته، التي كان فيها أيضا يعاني من المرض الشديد. وبخلاف إتمامه لرواية البعث

عام 1899، عمل أيضا على تأليف عدد من القصص الأخرى. كما كتب أيضا أطروحة موسعة عن مغزى الفن. وكتب تلك الأعمال بموازاة مقالاته الدينية وانتقاداته اللاذعة للممارسات غير الأخلاقية للنظام القيصري؛ الذي لم يختلف كثيرا عن نظام سلفه ألكسندر الثالث الذي كان يتفاعل مع الأحداث بلا عقلانية عِوَضا عن استباقها بحكمة. لكن مشروع تولستوي الرئيسي في نهاية حياته كان يتلخص في جمع مجلدات عديدة من الأقوال والمأثورات والحكم اليومية على ألسنة الكتاب والفلاسفة المفضلين لديه. فقد كان بحاجة إلى عزائهم لأنه لم يكن سعيدا في معظم السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته. ورغم اقتناعه بوجوب الاضطلاع بمسؤولياته إزاء أسرته، إلا أنه وجد تفاصيل الحياة والالتزام بها أمرا مؤلما للغاية؛ ذلك أنه كان عالقا في اتباعه أسلوب حياة أرستقراطي (دأب عليه في المنزل)، بينما كان في الحقيقة يتوق للذهاب إلى الشارع والسياحة في الأرض كدرويش صوفي مجذوب مفلس تائب. وكلّما مارس صديقه فلاديمير تشيرتكوف نفوذا مضطردا على شؤونه الخاصة، تدهورت علاقة تولستوي بزوجته أكثر فأكثر.

عاشت صونيا في محيط متواضع نسبيا رغم موقع شقة والديها في الكرملين. لذلك تأقلمت بسرعة مع ياسنايا بوليانا بعد زواجها من تولستوي. إلا أن أثاث ياسنايا بوليانا العتيق كان يفاجئ الزوار الأجانب. فقد توقع، على سبيل المثال، المسافر المقدام الأمريكي جورج كينان، عندما قدم إلى ياسنايا بوليانا في يونيو/ حزيران عام 1886 بعد أن قطع سيبيريا، توقع أن يكون مكتب تولستوي مكتبا مهيبا:

«أرضية عارية، وأثاث بالٍ عتيق، وثلاث كراسيَّ بلا زخارف، وأريكة أو مقعد خشبي ذو ذراعين منجَّد بقماش مغربي أخضر قديم، ومنضدة صغيرة رخيصة من دون غطاء. ثمة تمثال نصفي من البلور (لشقيقه نيكولاي) في مشكاة خلف المقعد الخشبي. أما الصور الوحيدة التي احتوتها الغرفة فكانت صورتين صغيرتين منقوشتين لديكينز وشوبنهاور. من المستحيل أن

يتخيل المرء مكاناً أبسط وأكثر تواضعاً من هذه الغرفة ومحتوياتها. فقد تجد دلائل على الثراء والترف في أكواخ العديد من الفلاحين في سيبيريا الشرقية ولا تجدها هنا».

طلبت آنا آرمفيلد من كينان أن يهرّب لابنتها ناتاليا في منجم المدانين في كارا نسخة عن مخطوط «اعتراف». وكان كينان قد أصيب بالصدمة لما رآه من تجليات للنظام الجنائي الروسي في سيبيريا فتحوَّل إلى معارض شرس للنظام القيصري. ولهذا كان تولستوي مهتما تماما ليسمع منه. ويُذكَر أن كتاب كينان «سيبيريا ونظام المنفى»، قد حُظر من التداول في روسيا، بالإضافة إلى منع كاتبه من دخول الأراضي الروسية مباشرة بعد نشر الكتاب عام 1891.

لم تكن صونيا بحاجة لتعيش حياة الترف، حتى إنها لم تكن تمانع تحمُّلَ العبء الإضافي في تحضير أطباق خاصة عند تناول الوجبات خصيصا لزوجها وللعدد المتزايد من النباتيين في ياسنايا بوليانا. فقد حذت تانيا وماشا حذو أبيهما فأصبحتا نباتيتين، كما أن جميع أتباع تولستوي (التولستويُّون) كانوا يعزفون عن أكل اللحم، ابتداء من تشيرتكوف. وكان ثمة أصدقاء مخلصون آخرون تحوَّلوا إلى مذهب النباتية؛ كالرسام ريبين وشريكته النابضة بالحياة ناتاليا نوردمن التي شجعت في مرحلة ما الجميع على تناول وجبة مؤلفة من العشب والتبن. وكانت صونيا التقليدية قادرة على تحمل كل ذلك، لكنها لم تكن تحب أتباع زوجها. كتبت في مذكراتها في أغسطس عام 1890: «هؤلاء القوم الذين يتبعون تعاليم ليف نيكولايفيتش جميعهم أشخاص مقززون. ولا يوجد إنسان طبيعي من بينهم». وكانت في العموم تعتبر التولستويين على النقيض تماما من المستنيرين (سفيتسكيي) (أفراد المجتمع المتحضر) الذين ينتمون إلى البيئة التي تنتمي إليها. ومن خلال اللعب على كلمة سفيت التي تعني بالروسية «النّور» و«المجتمع» و«العالم» في آن معاً، أطلقت صونيا تسمية «التيومنيي» على أتباع تولستوي (أي من يعوزه النّور أو الظلاميين). ولاحظت صونيا أن التولستويين الظلاميين بدأوا فجأة بالظهور، بعد أن كانوا غائبين عن الساحة، بمجرد المباشرة في توزيع نسخ غير قانونية من «مختصر الإنجيل» و«اعتراف». وقد استثنت صونيا في البداية تشيرتكوف النبيل ذا الحسب

والنسب والأخلاق الرفيعة، بالإضافة إلى استثناء نيكولاي غي الذي أصبح صديقا لجميع أفراد العائلة، وتوفي عام 1894. كما تحمَّلت أيضا بافل بيريوكوف (بوشا)، الذي كان ذكيا وخجولا، لكنها وجدت التعامل مع اتباع الطوائف والفلاحين أمرا صعبا للغاية. فانسحبت بالتالي من هذا التناقض الاجتماعي مع أولئك الذين بدا أنهم منجذبون نحو زوجها كانجذاب المعادن نحو المغناطيس. وقد أصبحوا تابعين متعصبين له بعد أن فشلوا في أن يختطوا لأنفسهم مسارات تقليدية ناجحة. سجلت صونيا في مذكراتها طرقة الباب التي أيقظتهم جميعا في الرابعة فجرا في يوم من أيام يناير الباردة عام 1895، ليتضح أن الطارق زائر «ظلامي رث الثياب يغزوه الذباب وتجتاحه البراغيث»، كان يتوق للزواج من ابنتهم تانيا.

ورغم شعورها بالتقزز من الظلاميين، إلا أنه تعيَّن على صونيا تعلُّمُ التعايش معهم. وكان من بين أتباع تولستوي المخلصين الأوائل امرأة بعمرها تدعى ماريا ألكسندروفنا شميدت، وهي مدرّسة عزباء تُدرّس في مدرسة متزمتة للفتيات في موسكو. وفي مارس عام 1884 ظهرت ماريا ألكسندروفنا أمام عتبة منزل تولستوي بصحبة صديقتها أولغا بارشيفا وطلبت منه نسخة من إنجيله. وعندما أخبرها تولستوي بأن لديه الإنجيل على شكل مخطوط فقط، أجابت بذكاء وقالت إنها وصديقتها مستعدتان لنسخ المخطوط. وهكذا شاطرت مع صديقتها المخطوط وأمضيتا أمسيات عديدة تنسخانه في مكتب تولستوي مما جعلهما على مقربة منه ومن أفكاره. ثم ما لبث تولستوي بعدها بفترة بسيطة أن عيَّن ماريا مساعدة لناسخه الرئيسي ألكسندر إيفانوف. وقد احتاج تولستوي بالفعل إلى خدماتها لأن ألكسندر إيفانوف كان مدمنا على الخمر، وكثيرا ما كان يتوارى عن الأنظار في جلسة سمر وخمر، رغم أنه كان يعمل بجد في الأيام التي يكون فيها صاحيا. وكان تولستوي قد أنقذه في مناسبات عدة من مآزق تعرَّض لها في الأحياء الفقيرة والعشوائيات. تغيَّرت حياة ماريا ألكسندروفنا تغيرا جذريا بعد أن اقتنعت بإنجيل تولستوي. فبعد أن كانت مسيحية أرثوذكسية حتى النخاع، تخلَّت عن الأيقونات التي كانت تتعبد من خلالها ووضعت في المقابل صورة لتولستوي نفسه. واستقالت من عملها في

التدريس وانضمت مع صديقتها إلى أول مجتمع تولستويّ في القوقاز، وعادت عام 1893 إلى الشمال بعد وفاة أولغا. وبحلول هذه الفترة أرادت أن تكون قريبة من تولستوي الذي أصبح صديقا مقرَّبا منها. وبعد أن استقرت في عزبة صغيرة، ذات سقف من القش، بُنيت على أرض ورثتها مؤخرا تاتيانا لفوفنا على بعد ثلاثة أميال من ياسنايا بوليانا، امتثلت بالكلية للمبادئ التولستوية حتى مماتها. وكانت تأتي في بعض الأحيان إلى ياسنايا بوليانا بالتزامن مع مجيء شقيقة تولستوي ماشا في زيارتها السنوية قادمة من الدير، وهيئتها الضامرة كأنها هيكل عظمي تتفاوت مع هيئة ماشا نيكولايفنا المكتنزة التي كانت مشهورة بحبها للطعام. بالفعل، التزمت ماريا ألكسندروفنا بحياة متقشفة، إذ كانت تعيش على حساء الملفوف والحبوب وكانت تبدو راهبة أكثر من ماشا.

تمتعت ماريا ألكسندروفنا بمزاولة حياتها زاهدة ناسكة تعيش من عرق جبينها بفضل قطعة الأرض التي تزرع فيها خضرواتها وتربي بقرتها مانتشكا، لكنَّ تولستويين آخرين أرادوا أن يشعروا بالأمان من خلال الانتماء إلى منظمة أو مجموعة. وهكذا، بدأت طواحين الإشاعات المغرضة عام 1893، قبل إتمام ونسخ وتوزيع مملكة الرب في داخلك، بالحديث عن مؤتمر تولستويّ مرتقب. وقد استأنس تولستوي بالفكرة وانزعج منها في الوقت نفسه، فقال معقبا: «هذا رائع!! سوف نذهب إلى المؤتمر المزعوم ونؤسس شيئا شبيها بجيش الخلاص. وسنأتي بزي نرتديه وقبعات ذات شرائط. وربما سينتخبونني جنرالاً. ويمكن لماشا أن تخيط لي سروالا أزرق اللون».

كان تولستوي سعيدا بإظهار القدوة من خلال أفكاره الجديدة ورحيله إلى عالم خاص آمنَ أنه يُعبّر عن الحقيقة، لكنه في واقع الأمر لم يكن راغبا في أن يقود الآخرين؛ لأن هدفه في نهاية المطاف كان منحصرا في تخلّيه عن أي عمل منظم والرحيل بعيدا عن قيود المجتمع. فلا مكان للتنظيمات والمنظمات والمؤسسات في عالمه المثالي، لكنه لم يستطع أن يتجنب تشكل حركة في صفوف المعجبين بأفكاره. أضف إلى ذلك أن كثيرا من تابعيه كانوا أشخاصا متطرفين. أما

الجانب الآخر المزعج في مذهب تولستوي من وجهة نظر صونيا فينحصر في «العسكرة»؛ فقد التزم تابعو زوجها بمبدأ السلمية (اللاعنف)، فأصبحوا بالتالي في موقع معرض مكشوف للحكومة الروسية. وقد طفت على السطح في نهاية المطاف تداعيات مؤلمة زادت من تصميم تولستوي على المضي قدما في حملته للدفاع عن حقوق الإنسان؛ على نحو أكثر نشاطا من خلال طرفي النقيض في الطيف الاجتماعي.

وجَّه تولستوي دعمه المباشر لشخص يُدعى الأمير ديمتري خيلكوف الذي أصبح شخصية بارزة في صفوف التولستويين (قبل أن ينتقل إلى الطرف الآخر ويصبح ثوريا). وتخرج خيلكوف من corps des pages المؤسسة العريقة في بطرسبورغ، وكان أصغر ضابط يُعيَّن عقيدا في الجيش الروسي. وشأنه شأن تشيرتكوف، الذي كان يكبره بأربع سنوات، تخلى تشيرتكوف عن مسار عسكري رائع. وبحلول الوقت الذي استقال فيه من الجيش عام 1884، حوَّلته تجربة قتله لجندي تركي إبان الحرب الروسية التركية بينما كان يخدم في كتيبة من القوزاق، بالإضافة إلى احتكاكه بالطائفيين في فترة خدمته في القوقاز، حولته تلك التجارب إلى مناصر شرس لمذهب السلمية ومسيحي بمذاق تولستوي. بعد استقاء الإلهام من قراءة عمل تولستوي «معتقداتي/ بماذا أؤمن»، عاد إلى عزبته في مقاطعة خاركوف وباع أراضيه للفلاحين بسعر بخسٍ أقل بكثير من قيمتها الحقيقية، وبنى لنفسه بيتا ريفيا متواضعا في مزرعة، وتخلّى عن ملابسه ذات الطراز الغربي وبدأ مزاولة حياة فلاحية بسيطة. وفي عام 1887 عندما بلغ من العمر 29 سنة قدم إلى موسكو للقاء تولستوي، فالتقت النفوس وتحابَّ الرجلان على الفور بفضل وجود كيمياء متبادلة؛ فقد أظهر خيلكوف تعاطفا مع الطوائف الدينية والأقليات القومية وعموم الجنود (الذين بالكاد تحسَّنت ظروفهم منذ حرب القرم)، مما استرعى انتباه الشرطة السرية فكثَّفت من أنشطتها الرقابية لا سيما أنه أصبح صديقا لتولستوي.

حوّل خيلكوف منزله الريفي المتواضع ذا السقف المصنوع من القش إلى مركز محلي للمسيحية التولستوية، وافتتح مكتبة ليتسنى للفلاحين قراءة النصوص الأساسية في القانون

التولستوي. وهذا ما أثار العداء في صفوف رجال الدين والإقطاعيين المحليين. وقد تفاقمت الأمور وبلغت الذروة عام 1891؛ ففي مارس وبعد نجاح أنشطة خيلكوف الدعوية التبشيرية، أُلقي عليه الحرم وطرد من الملّة على يد كاتدرائية خاركوف. بعدها في أغسطس كتب خيلكوف ليخبر تولستوي عن تجربته المريرة مع الأب يوان (يوحنا) من كروستاند الذي تساجل معه بشأن التعميد. وكان يرغب منذ أن وطئت قدماه خاركوف في رؤية هذا القس ذي الشخصية الجذابة؛ لأنه اجتذب أتباعا كثرا من الشعب الروسي. وقد شجعته أمه أيضا على الذهاب لمقابلة القس المحبوب/ فذهب بالفعل ولكن المقابلة لم تجرِ بلا منغصات. بالإضافة إلى أن والدة خيلكوف هاجت وماجت عندما علمت أن ابنها لم يطوّب زواجه في الكنيسة ولم يعمّد طفله الذي بلغ السنة وبالتالي حرمه قانونيا من لقبه. وفي نوفمبر، كتب المدعي العام بوبيدونوتسيف إلى ألكسندر الثالث يحذره من مخاطر وقع التولستوية على الفلاحين في المناطق التي شبَّت فيها الاضطرابات. وكتب خيلكوف قائلا إن من أصل 6 آلاف من الرعايا في مقاطعته؛ خمس نساء فقط يترددن على الكنيسة، بينما عدد كبير يرفض الالتحاق بالجيش. تحركت السلطات بسرعة، ونُفي خيلكوف في يناير من عام 1892 إلى القوقاز، مما سبب شعورا بالغيرة لدى تولستوي. لكن في أكتوبر/ تشرين الأول من السنة التالية وصلت والدته الأميرة خيلكوف، بمباركة من الأب يوان من كرونستاد، إلى القوقاز بصحبة ضباط شرطة وانتزعت حفيدها ذا الثلاث سنوات ونصف، وحفيدتها ذات السنتين، من والديهما المندهشين، وأخذتهما معها إلى سانت بطرسبورغ حيث عمّدتهما من دون موافقة الوالدين. وعليه، أرسل تولستوي رسالة احتجاج لألكسندر الثالث، كما أن زوجة خيلكوف سافرت إلى بطرسبورغ لتتوسل للقيصر شخصيا ولكن من دون فائدة، رغم سخط العامة على ما حصل.

إن تبشير خيلكوف ونشره لأفكار تولستوي قد آتى أُكُلَه. فقد تبنى معلم الفلاحين إفدوكيم دروجين مذهب تولستوي بعد لقائه خيلكوف عام 1889. وبعد سنتين زُجَّ به في السجن لرفضه الالتحاق بالخدمة العسكرية. وقد عارض كثيرون بعده الخدمة العسكرية لأسباب دينية، لكن

تولستوي اهتم على نحو خاص بدروجين أكثر من غيره، وقد انتابه قلق بالغ عندما سُجن دروجين في البداية لستة أشهر متواصلة في زنزانة انفرادية، ثم أُرسل ليخدم في كتيبة تأديبية في فارونيج حيث كانت الظروف قاسية للغاية؛ بحسب شهادة تشيرتكوف الذي زار دروجين وأدار حملة ناجحة تكللت بنقله إلى سجن عادي لكن بعد فوات الأوان. ففي يناير توفي دروجين وهو في الثامنة والعشرين من عمره؛ بسبب مرض السل في بداية فترة عقوبة السجن (تسع سنوات). وهكذا سقط أول شهيد في سبيل التولستوية (مذهب تولستوي). لكن الرواة وكُتّاب السير كانوا جاهزين للاضطلاع بمهامهم كما كان عملاء الشرطة السرية أيضا يتابعون كل ما يجري كالصقور. في يونيو، وبعيد إتمامه لكتاب يتناول حياة دروجين، تم تفتيش منزل مناصر تولستوي يفغيني بوبوف من قِبل الشرطة وصودر المخطوط. وبعد أشهر صدرت أوامر تمنع الصحافة الروسية من نشر أيّ مواد تتعلق بدروجين. لكن بوبوف استطاع رغم ذلك أن ينقذ كتابه من خلال الاعتماد على مسودات كان قد خبأها بعناية في مكان آخر، وقد أتمَّها تولستوي بأن قدَّم لها بقلمه. ولم يكن بالإمكان أن يمر الكتاب من دون رقابة في روسيا، لذلك نُشر في برلين عام 1895.

انضم بوبوف، وهو ابن أحد النبلاء المعسرين من مقاطعة بريم، إلى الأعداد المتزايدة من مناصري تولستوي عام 1886 عندما كان في الثانية والعشرين من عمره. واستقل بوبوف في يوم من الأيام قطارا وتوجه إلى ياسنايا بوليانا للقاء تولستوي وسؤاله عن مغزى الحياة. وكان قد أصبح نباتيا منذ فترة طويلة، وأصبح يفلح الأرض. وبعد انفصاله عن زوجته الثرية، التي لم تكن تشاركه معتقداته الجديدة، زاول حياة مشائية ينتقل فيها من مستعمرة تولستوية إلى أخرى، لكنه ذهب لاحقا للعمل في مجلة الوسيط في موسكو. وتعرف بوبوف عام 1889 إلى تولستوي عن كثب عندما رافقه في رحلته السنوية مشيا على الأقدام من موسكو إلى ياسنايا بوليانا في بداية الصيف. وكانت تلك المرة الثالثة التي قطع فيها تولستوي مسافة 120 ميلا كاملة مشيا على الأقدام ليصل إلى منزله. وكان يحمل معه صُرّة صغيرة ودفترا وقلم رصاص لكي

يدوّن الأفكار والقصص التي يسمعها على الطريق، وينزل ليلا في مساكن مشهورة بضيافة الفلاحين. وكانت تلك الرحلة تعبيرا عن احتجاجه، بطريقته، على اقتحام السكك الحديدية للريف الروسي، مما أدى إلى هجرة الكثير من الفلاحين إلى المناطق الحضرية.

أمضى بوبوف أيضا بعض الوقت في المقر الرئيسي للحركة التولستوية في عزبة تشيرتكوف في مقاطعة فارونج. بالإضافة إلى عمله في مجلة الوسيط. كما عُيّن عام 1892 لفترة ناسخاً لتولستوي في ياسنايا بوليانا، وساعده أيضا في جهود الإغاثة إبان المجاعة في بيغيتشيفكا. وبعد إتمام كتابه الذي تناول حياة دروجين، تعاون مع تولستوي في إصدار نسخة روسية لكتاب المؤلف لاو تسه «تاو تي تشينغ»[192]. وكان فيكتور فون ستراوس قد أخرج الترجمة الألمانية الأولى لكتاب «تاو تي تشينغ» عام 1870 لفائدة مجلة الوسيط. وقد اعتمد بوبوف على هذا النص في ترجمته. وقام تولستوي بتنقيح ترجمة بوبوف، ثم كتب مقدمة لها شارحا أن التعاليم الأساسية في كتاب «تاو تي تشينغ» هي نفسها في جميع الأديان العظيمة. وكان في السبعينيات قد عاد لينحت ويشذب في ترجماته حكايات إيسوب البليغة أصلا لكي يعرض زبدتها. ومن السهولة أن نلحظ سبب انجذاب تولستوي نحو أفكار لاو تسو التي تساوقت إلى حد كبير مع أفكاره هو:

أولئك الذين يرتدون الزينة والملابس الأنيقة
ويحملون السلاح،
ويشربون ويأكلون حتى التخمة،
ولديهم أشياء كثيرة، وأموال طائلة:
سراقون لا يخجلون.
وطريقتهم بلا شك ليست الطريقة المثلى..

(192) كتاب عن الحكمة والفلسفة الطاوية في الصين.

ازداد انجذاب تولستوي نحو ديانات الشرق في أواخر حياته فقط. وقد حاجج البعض بالقول بأن لب نظام معتقداته في شكله المبسط فيه كثير من أوجه الشبه بالبوذية عوضا عن المسيحية.

بعد ترجمته للاو تسو، التزم بوبوف بقضية تابع آخر لتولستوي كان قد رفض الخدمة العسكرية، وكان على وشك أن يُنفى إلى سيبيريا بعد أن خدم عقوبته في كتيبة تأديبية. وبينما كان يزوره في السجن الانتقالي المركزي في موسكو في ديسمبر من عام 1894، افتُتن بوبوف بهيئة ثلاثة رجال يرتدون زي الفلاحين وزي القوزاق مناصفة، وكانوا يسمون الدوخوبوريين[193]. وقد أتوا من موطنهم في القوقاز ليلتقوا بزعيمهم، بيوتر فيريجين الذي كان قد أمضى سبع سنوات في المنفى في مقاطعة آرخانغيلسك الشمالية بعد خلافات شبت بينه وبين دوخوبوريين آخرين حول زعامته. وكان الآن على وشك أن يُرسَل إلى بيريزوف، في مقاطعة توبولسك في سيبيريا، حيث سيواجه سبع سنوات أخرى في المنفى. قدَّمَ بوبوف نفسه للرجال الثلاثة ورتَّبَ بسرعة لقاء آخر يمكن أن يأتي بتولستوي لحضوره لكي يسمع قصتهم. وبالفعل، فقد كان ذلك اللقاء المرتقب لقاء ذا مآلات عظيمة.

إن شحَّ السجلات التاريخية تجعل مسألة تعقب أصول الدوخوبوريين أمرا صعبا. لكن يبدو أنهم ظهروا من بين مجموعات متفرقة لمنشقين ومعارضين لديهم أفكار دينية متقاربة في أوكرانيا، أُرغموا على الاستقرار على الحدود الروسية الجنوبية في مرحلة ما من القرن الثامن عشر. ثم أُتيحت لهم الفرصة لتكوين مجتمع خاص بهم في ظل حكم نيكولاي الأول، لكنهم ما لبثوا في العقد الرابع من القرن التاسع عشر أن أُرغموا مجددا على الانتقال وفقا لمرسوم إمبراطوري؛ إلى الأماكن النائية من الإمبراطورية الروسية في مناطق القوقاز على تخوم الإمبراطورية العثمانية. وشأنهم شأن كثير من الفلاحين المنتمين إلى الطوائف المنشقة عن الكنيسة، اكتسب الدوخوبوريون سمعة في التعفف والعمل الدؤوب واتباع أساليب عيش

(193) المجاهدون في سبيل الرّوح القدس.

متواضعة. وقد آمنوا، كما آمن تولستوي، بأن «مملكة الرب في داخلك»، وبالتالي كانوا يقدّسون حرمة حياة البشر جميعا. ولم يكونوا معارضين لحمل السلاح فحسب، بل معارضين لغالبية تعاليم الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لأنها دعمت الدولة في حروبها. وقد عنى ذلك رفض جميع أشكال الطقوس الدينية الأرثوذكسية والقرابين والأيقونات ورجال الدين والمباني المقدسة وحتى النصوص الدينية نفسها، وعِوَضا عن كل ذلك كانوا يؤمنون بالسعي وراء الهدى النابع من صوت ضمير الفرد. عانى الدوخوبوريون من المواجهة الأولى مع الحكومة الروسية عام 1887، عندما أُدخلت الخدمة العسكرية إلى القوقاز. وازدادت الأمور سوءاً عام 1894 عندما تعيَّن على جميع المواطنين الروس إعلان البيعة (الإدلاء بقسم الولاء) للقيصر.

لم يكن تولستوي يعرف الكثير عن معتقداتهم قبل اللقاء الأول؛ لأن وجودهم تعرَّض لازدراء رسمي ولم يكن موثَّقا بالقدر الكافي. ولم يستطع تولستوي مقابلة فيريجين نفسه الذي كان مسجونا وكأنه مجرم مدان في انتظار تسفيره إلى سيبيريا. لكن في التاسع من ديسمبر رافق تولستوي كلاً من بوبوف وبيريوكوف للقاء الرجال الثلاثة؛ الذين قدموا في الأصل لزيارة زعيمهم فيريجين، وكان من بينهم شقيقه فاسيلي. ولدهشته، اكتشف تولستوي أن آراء الدوخوبوريين بشأن الملكية الخاصة والديانات المنظمة والسلطات العلمانية وعدم مقاومة العنف وغيرها قريبة جدا من آرائه. ويعود الفضل في تلك الآراء إلى الزعيم فيريجين؛ فقد كان يحث أتباعه، حتى قبل أن يبدأ قراءة أعمال تولستوي الدينية المحظورة (التي حصل عليها فيريجين من خلال معارف في المنافي السياسية في أقصى شمال البلاد)، يحثُّهم على نبذ التبغ والكحول وأكل اللحوم. أما بعد قراءة أعمال تولستوي، فقد شعر بأن تطبيق تلك المبادئ التي تحتويها كتابات تولستوي يوفر وسيلة ناجعة ليقف فيها الدوخوبوريون ضد الحكومة. وهكذا، بدأ يضع عددا من الاستراتيجيات لتحفيز المقاومة الشعبية العريضة.

وفي ديسمبر، مرّ تشيرتكوف من موسكو وهو في طريقه إلى سانت بطرسبورغ؛ إذ كان يخطط لإطلاق حملة تدعو إلى عودة أطفال ديمتري خيلكوف إلى والديهم. بالإضافة إلى أنه

أقنع تولستوي أن يلتقط له صورة مع أتباعه الآخرين المنهمكين في مجلة الوسيط. وكان ثمة شابان آخران بالإضافة إلى بوبوف وبيريوكوف، هما: إيفان تريغوبوف؛ وهو شاب ملحد رغم كونه ابنا لقس آخر، وإيفان غروبونوف-بوسادوف؛ وهو ابن مهندس. أما ابنتا تولستوي المخلصتان تانيا وماشا، فقد انزعجتا من الطريقة الفجة التي رتَّب فيها تشيرتكوف هذه الصورة التي التُقطت لخمسة تولستويين من الذكور مع «معلمهم»، لأنهما كانتا مطلعتين على أنشطة أبيهما ومنهمكتين إلى حد كبير في جميع أعماله. أما صونيا فقد بلغ بها السيل الزبا، فانطلقت نحو أستوديو المصور لتجمع سوالب الصور وتتلفها. بعدها جلست حتى الساعة الثالثة فجرا تحاول محو وجه تولستوي من الصور باستخدام أحد أقراطها الماسية. آمنت صونيا بأنه لا ضير في التقاط صور لزوجها مع طلبته الصغار في المدرسة، أما فكرة مأسسة مذهب تولستوي (التولستوية) من خلال صور كهذه فلم يكن يرضيها البتة؛ إذ شعرت أن زوجها الروائي العظيم لا يتساوق مع تصويره مع هؤلاء البشر المريبين، وخشيت أن يهتم آلاف من الناس بشراء صورة زوجها وأتباعه. نزل تولستوي عند رغبة زوجته، لكن تشيرتكوف عوَّض تلك الصورة الأولى من خلال استقدام مصور إنجليزي محترف يدعى توماس تابسيل إلى روسيا؛ لمساعدته في التقاط مئات الصور للرجل العظيم لتبقى ذكريات للأجيال اللاحقة. وبما أن تولستوي كان رجلا مغرورا فقد رضخ لتشيرتكوف أيضا.

كان تولستوي يضع اللمسات الأخيرة على قصة كان يكتبها في الشهر الذي التقى فيه الدوخوبوريين عنوانها «السيد والإنسان» (بالروسية «خازاين إي رابوتنك» وتعني حرفيا «السيد والعامل»). وتتحدث القصة عن إقطاعي ثري يتوب من أساليبه الأنانية الجشعة من خلال التضحية بنفسه من أجل فلاح مسحوق إبان عاصفة ثلجية. وعندما قرر تولستوي نشر هذه القصة في «الرسول الشمالي»، وهي من أكثر الصحف البطرسبورغية تكلفة (13 روبلا لقاء العضوية السنوية)، من دون الحصول على أي مردود مادي، استشاطت صونيا غضبا وشعرت بالخيانة والحسد لأسباب ليس أقلها كون رئيس تحرير الصحيفة امرأة شابة. فقد أرادت صونيا

الحصول على حقوق ملكية أعمال زوجها الروائية الجديدة. وفي إحدى «محاولات الانتحار» الدرامية الأولى، من بين محاولات تالية عديدة، خرجت وهي تركض في الشارع تحت الثلج في وقت متأخر في ليلة من ليالي يناير، وهي ترتدي قميص نومها وخُفاً في قدميها فقط. وقد عاد السلام إلى المنزل مؤقتا عندما هرع تولستوي وراءها وأعادها إلى الداخل ووافق على مطالبها. نُشِرَت القصة الجديدة إذن في الرسول الشمالي بالإضافة إلى نشرها، على نحو متزامن، كملحق في المجلد الثالث عشر لنسخة صونيا من أعمال زوجها الكاملة (وقد بيع منها 10 آلاف نسخة مقابل 50 كوبيكا خلال بضعة أيام فقط). كما نُشرت أيضا في الوسيط (وبيعت 15 ألف نسخة بأقل من نصف المبلغ السابق خلال أربعة أيام). علاوة على ذلك، بيعت نسخة «مشهورة» بثلاثة كوبيكات فقط، ثم أُعيدت طباعتها ونشرها عددا من المرات.

كانت محاولات انتحار صونيا في واقع الأمر مناورات يائسة تسعى لشد انتباه زوجها؛ فقد كانت تعاني من الإرهاق والجهد النفسي جراء العناية بأطفالها، لا سيما فانيشكا ذا السنوات الست، الذي كان يصاب بالمرض بشكل متكرر، بالإضافة إلى أنها أرادت الحفاظ على زواجها. لكن تلك الشواغل التافهة بشأن المال والولاءات الشخصية وغيرها من سقط المتاع نُحيت جانبا؛ لأن آل تولستوي فقدوا مجددا عزيزا عليهم قبيل ظهور القصة مطبوعة. فقبل أيام من عيد ميلاده السابع، توفي ولدهم الأصغر فانيشكا بالحمى القرمزية. ابيضَّت عيون الوالدين حزنا على فانيشكا، الملاك النحيل الهش الذي كان محبوبا من قِبل الجميع بلا استثناء، لطبعه الخيّر الخارق للعادة ولشبهه المزعوم بأبيه. بالفعل، كانت تراود تولستوي أحلام يتخيل فيها فانيشكا يحمل راية أبيه ويواصل إرثه بعد مماته. قَدِمت ماشا شقيقة تولستوي من ديرها، وصلَّت على رأس فانيشكا في ساعاته الأخيرة، وساعدت في تمشيط شعره الطويل الذهبي، وألبسته قميصا أبيض بعد وفاته. كتبت صونيا لأختها وهي تشعر بالخدر جراء ألم الفراق، وأخبرتها كيف وضعت أيقونة صغيرة على صدر فانيشكا وأضاءت شمعة تقليدية بجانب رأسه. امتلأ المكان بالزهور خلال ثلاثة أيام توجهت بعد انقضائها الأسرة بجثمان الطفل الصغير إلى

شمال المدينة، إلى مقبرة كنيسة القديس نيكولاي في بوكروفسكوي ليُدفن بمحاذاة شقيقه أليوشا. كتبت ماشا لصديقة لها: «أمي تنتحبُ حزنا. فقد كانت حياتها فيه، وكانت تعطيه كل حبها. وأبي الوحيد الذي باستطاعته المساعدة، وهو الوحيد الذي بمقدوره فعل ذلك. لكنه يعاني الأمرَّين أيضا ويذرف الدموع طوال الوقت». بالفعل، فقد شكَّل هذا الموت بالنسبة لتولستوي دائرة حزن عميق بمستوى الحزن الذي عانى منه عندما فقدَ شقيقه نيكولاي.

شكَّل موت فانيشكا نقطة انقلاب كبرى للوالدين؛ فقد قربهما الحزن مجددا من بعضهما بعضا، مما حدا بتولستوي إلى التفكير في أخذ صونيا إلى ألمانيا في ذلك الصيف للراحة (فهي لم تغادر روسيا مطلقا، وكانت تتوق إلى حضور أوبرا «خاتم نيبلونغين»[194] لفاغنر في مدينة بايرويت)، لكن تلك الخطة ما لبثت أن ذهبت أدراج الرياح عندما اتضح أن خروجهما من روسيا قد ينتهي بعدم السماح لهما بالعودة إليها مرة أخرى. توقفت صونيا عن الكتابة في مذكراتها لأكثر من سنة ولم تتعافَ من تلك المأساة مطلقا. وبدأ تولستوي يدوّن ملاحظات في مذكراته تشرح كيفية التعامل مع موته هو؛ من قبيل دفنه في أكثر المقابر بساطة وتواضعا من دون زهور، ويفضِّل من دون وجود قسيس أيضا، ويقينا بلا نعي، ومن دون إدراج اسمه في سجل الوفيات. وفي نهاية المطاف، اتبع تولستوي تقنية تعويض كلاسيكية يتصدى من خلالها لحزنه؛ تعلَّم كيفية ركوب الدراجات الهوائية.

أصبحت الدراجات الهوائية بريطانية الصنع آمنة الركوب، بعد أن حلَّت محل الدراجات السابقة التي لم تكن مربحة تجاريا، وأصبحت تشكل آخر صرعات الموضة في مجال النقل في روسيا. وهكذا، اشترى تولستوي دراجة من طراز «روفر» (وهو نوع مشهور طوّر في كوفنتري عام 1885 على يد مخترع الدراجات العصرية جون ستارلي)، وانطلق يتلقى دروسا في قيادتها تم تنظيمها في مبنى المانيه في موسكو؛ وهو مبنى شاهق كلاسيكي يقع قبالة الكرملين ويُستخدَم للعروض العسكرية، وهو المكان نفسه الذي تعلَّم فيه المبارزة. وقد اشتهر تولستوي بركوب

(194) سلسلة الخاتم، خاتم فاغنر، أو ببساطة «ذي رنج».

الدراجة وقيادتها بمفرده، بعيدا عن المتدربين الآخرين، ونظرة التركيز المكثَّف تطغى على معالم وجهه. وعندما برهن على كفاءته للشرطة وحصل على رخصة قيادة أصبح حرا في ركوب دراجته في أرجاء المدينة. أما المثقف النبيل يفغيني بوبوف فلم يَرُقْ له رؤية مرشده ينغمس في نشاط تافه كركوب الدراجات، رغم أن تولستوي اعتبر ذلك من باب «الدروشة البريئة»، ولم يكن يكترث بما يمكن أن يفكر فيه الناس لدى رؤيتهم رجلا في السادسة والستين من عمره يركب الدراجات. في ذلك الصيف، أخذ تولستوي دراجته إلى ياسنايا بوليانا، وأرهق نفسه وهو يركبها وينطلق ذهابا وإيابا من وإلى تولا. وكما هو شأن شغفه بأمور أخرى، أصبح ركوب الدراجة شغفا آخر أصابه إلى حدّ الهوس لفترة ما، حتى إنه استطاع أن يقنع عازف البيانو والمؤلف الموسيقي سيرغيه تانييف بأن يحذو حذوه. كان تانييف، البالغ من العمر حينها 39 عاما، من معارف العائلة. وقد رافق تولستوي أحيانا في التزلج على الجليد. وبخلاف كونه مكتنزا لحيما، كان يعاني أيضا من قرب النظر والحول في عينيه، ولم يكن يحبذ الخروج ليلا من دون مرافق خشية أن يتعثر، لكنه مع ذلك كان يرتقي إلى مستوى التحدي. كما كان مستعدا دائما ليعزف البيانو على مسامع صونيا التي كانت تبحث عن العزاء والسلوان في الموسيقى بدلا من الرياضة.

وبما أن شقيقة صونيا لم تكن عازمة على القدوم إلى ياسنايا بوليانا في صيف عام 1895، فقد عرضت صونيا الجناح على تانييف بإيجار رمزي. ووصل تانييف بالفعل إلى ياسنايا بوليانا في يونيو ليقضي شهرا ترافقه المربية العجوز صاحبة التجاعيد باليجايا فاسيليفنا، وطالب الموسيقى ذو السبعة عشر عاما يوري بوبيرانتسوف. وقد ملأ تانييف المنزل بموسيقاه وعزفه الرائع على البيانو خلال إقامته، فأصبح من دون أن يدري سندا عاطفيا لصونيا في فترة حدادها على ابنها فانيشكا. وقد لعبت موسيقاه دور المسكنات بالنسبة لها، بالإضافة إلى أن تولستوي في ربيع ذلك العام كان يعتني بها ويظهر حبَّه واحترامه. لكنه ما لبث أن أصبح منشغلا بأنشطته الدعوية مجددا وأراد أن يمضي وقته مع تشيرتكوف؛ فقد كانا ولفترة يتبادلان رسائل منتظمة

وطويلة جدا، لكنهما لم يلتقيا إلا نادرا خلال العقد الأول من صداقتهما، عندما كان تشيرتكوف يمرّ بياسنايا بوليانا قادماً من موسكو وهو في طريقه إلى سانت بطرسبورغ أو عائدا منها. لكن ذلك كله تغير عندما وجد تولستوي عام 1894 بيتا صيفيا لتشيرتكوف وزوجته الهزيلة وابنهما فلاديمير ذي الخامسة (والمعروف أيضا بديما، كأبيه)، بالقرب من ياسنايا بوليا؛ مما عنى أن كلا الرجلين أصبح بمقدوره أن يمضي مع الآخر أخيرا أياماً صيفية طويلة يتجاذبان فيها أطراف الحديث بلا انقطاع أو تشويش. أمضى آل تشيرتكوف صيفين متتاليين عامي 1895 و1896 في منزلهما القريب من ياسنايا بوليانا، ومن غير المستغرب أن تجد صونيا غياب زوجها وانحسار عاطفته تجاهها أمرا يصعب تحمله. ومع أن تانييف كان يتسم بالهدوء ويتوارى عن الأنظار في معظم أوقاته منغمسا في موسيقاه، إلا أنه كان يستمع إلى شكاوى صونيا باهتمام وتراحم. صونيا التي كان من الواضح أنها تشعر بوحدة قاتلة.

لم يكن تولستوي يمانع ذلك؛ فقد كان يلعب مع تانييف الشطرنج كثيرا، وكان بالطبع يستمتع بعزفه المنفرد لمؤلفاته الكلاسيكية التي كان مغرما بها، فقد كان تانييف تلميذا لنيكولاي روبنشتاين. وفي عام 1875، عندما بلغ التاسعة عشرة، أصبح أول طالب في معهد موسكو للموسيقى (الكونسرفاتوار) يتخرج ويحصل على ميدالية الأداء والتأليف الذهبية (مع مرتبة الشرف في التأليف والموسيقى). وأصبح في تلك السنة، عازف البيانو المنفرد في عرض تشايكوفسكي الأول (حفلة البيانو رقم 1). وفي عام 1878 عُيِّن معلمَ موسيقى في معهد موسكو للموسيقى (كونسرفاتوار)، وتخرج على يديه كثر من بينهم سكريابن ورحمانينوف. شارك تولستوي تانييف حبه للغة الإسبرنتو. وقد كان تانييف من أوائل الروس الذين أتقنوا هذه اللغة؛ فقد كتب أغاني بكلمات من لغة الإسبرنتو، كما دوّن مذكراته الصريحة المملة أيضا بتلك اللغة. وقد مدح تولستوي مخترع تلك اللغة لازار زامينوف والكتاب الذي نشره عام 1887 «لغة دولية.. مقدمة وكتاب مدرسي كامل».

زامينوف، يهودي من بياليستوك الواقعة في المنطقة الغربية[195] من الإمبراطورية الروسية. لغته الأم الروسية، كان ينشر تحت اسم مستعار هو دكتورو إسبرنتو (دكتور الأماني)، وهو اسم عبّر عن حلمه في أن تأتي الإسبرنتو بالسلام والتفاهم بين جميع شعوب العالم. وعبّر تولستوي عن مساندته للغة في رسالة كتبها لبعض المتحمسين لهذه اللغة عام 1894. وقال لهم إنه استلم كتاب زامينوف بُعيد نشره، وزعم أنه تعلم كيفية قراءة تلك اللغة على نحو متقن خلال ساعتين. وهذا ما وفر للتولستويين فكرة استخدام مجلة الإسبرنتيستو كمنبر أيديولوجي لهم. وفي مارس/ آذار عام 1895، نشرت الإسبرنتيستو ترجمة لرسالة تولستوي لعام 1894 ومقالته المعنونة «بشأن العقل في الدين». وردّت الحكومة الروسية مباشرة بمنع دخول أيّ نسخ أخرى من الصحيفة إلى روسيا، وهي التي كان مقرها التحريري في نورنبرغ. وبحلول أغسطس، أُرغمت صحيفة الإسبرنتيستو على إغلاق أبوابها؛ لأن ثلاثة أرباع المشتركين فيها (وعددهم 600) كانوا يعيشون في روسيا. ومن بينهم بانييف.

إن المشاركة في حب الإسبرنتو لم يكن لسوء الحظ كافيا للحيلولة دون تطور مشاعر عبثية من الغيرة من قبل تولستوي تجاه عاثر الحظ تانييف، رغم أن المؤلف الموسيقي كان أعزبَ تعدّى سنّ الزواج ولا يرغب فيه. كان تانييف محبا لطالبه الشاب «يوشا» بوميرانتسيف، الذي درس الهارمونيا والكاونتربوينت معه لسنوات عدة، وكان دائما برفقته رغم أنهما افترقا لاحقا وبقيت مع تانييف المربية العجوز إلى الأبد. وكما عقب لاحقا طالب من طلابه، فإن تانييف اختبر الخوف والاحترام والازدراء على نحو متزامن تجاه النساء، فظهورهن في المنزل كان يُشعره بالدّوار والارتباك واختلال التوازن، ويجعله أقل «صراحة وطبيعية وتلقائية». أما تعقيب تانييف بشأن ركوب الدراجات الهوائية: «أعتقد أن تجربة ليلة الدخلة للعرسان الجدد لا يمكن

---

(195) مناطق الاستيطان التي كان يعيش فيها اليهود، ولا يُسمَح لهم بالعيش في مناطق أخرى من الإمبراطورية (إلا في حالات استثنائية). وقد ضمت تلك المنطقة روسيا البيضاء ومالدوفا وليتوانيا وأجزاء من بولندا وأوكرانيا وغرب روسيا (المترجم).

أن تقارن بشعور النشوة الذي يتملك راكب الدراجة»، فكان كافيا ليريح عقل وقلب تولستوي. وقد يحاجج البعض بالقول بأن تولستوي أظهر أنه سمح وكريم مع زوجته، بمجرد جلوسه معها لمشاهدة العرض الافتتاحي لأوبرا تانييف الطويلة «الأوريستيا»، على مسرح المارينسكي في أكتوبر من عام 1895 (التي اختفت بسرعة من قائمة عروض المسرح بعد أن رفض تانييف تقليصها).

ولم يكن تانييف بطبيعة الحال زوجاً بديلا لتولستوي، بل مجرد شخص يصيخ السمع لصونيا إذ تتحدث إليه عن الأمور الحياتية اليومية التي تحصل في ياسنايا بوليانا، والتي غسل تولستوي يديه منها منذ زمن بعيد. كان تولستوي نبيلاً في مواقفه، رغم أنه كان يعتقد أن زوجته تظهر بمظهر الحمقاء لأنها تتزلف وتتودد إلى شاب يصغرها سناً بمراحل. لكنه في النهاية كان يقوم بالشيء نفسه مع تشيرتكوف الذي حلّ محل زوجته كشخص يستودع فيه ثقته ويعبّر له عن ودّه. ففي مرحلة لاحقة، تَتَّهم صونيا بالفعل زوجها بإقامة علاقة جنسية مثلية مع تشيرتكوف. لكنه اتهام لا يمكن إثباته بأي شكل من الأشكال، رغم أن نبرة العديد من الرسائل التي كان يرسلها تولستوي لصديقه الشاب بعيد ترحيله إلى إنجلترا؛ يخال المرء أنها صادرة عن مراهق مفتون، مما حدا بتشيرتكوف إلى مبادلته الودّ على الأقل بتفانٍ مهووس أيضا.

اعتمدت صونيا على سماع الموسيقى كِسلوان بعد فقدان فانيشكا، ما حفَّزَ زوجها على التأمل في أسئلة علم الجماليات. وقد تُوِّج ذلك بعد سنوات بأطروحة عنوانها «ما هو الفن؟»، رغم أن مهمته الرئيسية في تلك الفترة من عقد التسعينيات كانت تنحصر في كونه جندياً مسيحياً مسالماً يقاتل من أجل الحقيقة والعدالة. وقد سرّه بالفعل معرفة أن آراءه بدأت تلقى صدى في الخارج، فعندما تعرَّف رجل الأعمال البريطاني جون كينوُورثي على أعمال تولستوي مصادفة في أمريكا في التسعينيات، غيرت تلك الكتابات حياته إلى الأبد. فقد تخلى عن رغبته في الاستقرار وجني المال في أمريكا، وقفل راجعا إلى إنجلترا ليعيش ويعمل في صفوف الفقراء في الضاحية الشرقية من لندن. وفي عام 1893 نشر كتابا سماه «تشريح البؤس.. محاضرات بسيطة

في الاقتصاد». ووفقا لرواية النباتي التولستوي إيرنست كروزبي، مناصر السلمية والمحامي الإصلاحي الأمريكي، فإن كينوُورثي وصف اليوم الذي تسلَّم فيه رسالته الأولى من تولستوي في مارس عام 1894، بأنه اليوم الأسعد في حياته. أما تولستوي فقد أخبر كينوُورثي بأن التواصل معه مصدر «فرح» بالنسبة له. وقال إنه لم يقرأ كتابه فحسب، بل أوصى بترجمته أيضا.

أصبح كينوُورثي في مايو من عام 1894 قسيساً فخرياً للكنيسة الجديدة«كنيسة الأخوة في كرويدن»، وهي مؤسسة استلهمت أفكارها من كتابات تولستوي. وتضمنت رعيتها، وفقا لأحد أعضاء لجنتها الإدارية، جميع أشكال المهووسين والنّزقين من: ملحدين وروحانيين وفردانيين وشيوعيين وفوضويين وسياسيين عاديين ونباتيين ومعارضين للتلقيح ومعارضين لتشريح الحيوانات الحية وغيرهم. وفي أكتوبر من تلك السنة، كسب تولستوي مناصراً بريطانياً آخر عندما تسلم رسالة من آرثر سانت جون، وهو ضابط سابق في كتيبة آنيسكيلينغ الملكية البريطانية للمشاة، وكان في الثلاثين من عمره. كتب سانت جون ليخبر تولستوي، بعد قراءة «مملكة الرب في داخلك» وهو عائد من بورما في إجازة مرضية، بأنه تخلى عن الجيش والتحق بالمجتمع الزراعي. وقد علق لاحقا بشأن قوة إلهام تولستوي قائلا:

«لقد كان له وقع مهول عليّ لدرجة أنه وخلال شهرين أو ثلاثة تخليت عن رتبتي في الجيش، ووجدت نفسي بلا عمل ومن دون قدرات للقيام بأي عمل بخلاف الجندية. لكنني كنت مقتنعا بأمور قليلة منها مبدأ تولستوي القائل بأنه إذا ما أردت العمل من أجل السلام فلا فائدة من الاستعداد للحرب».

كانت أفكار تولستوي تحط في جميع أرجاء أوروبا على أرض خصبة. ففي فبراير من عام 1895 سمع تولستوي عن طبيب سلوفاكي في السادسة والعشرين من عمره يدعى ألبرت سكارفان، كان قد تأثر بكتاباته الدينية وأصبح معرضا عن الالتحاق بالخدمة العسكرية، مما حدا بالسلطات الهابسبورغية إلى إخضاعه لفحوصات طبية نفسية في جناح للعلاج النفسي في

مدينة فينيسا وسجنه بعد ذلك في سجن عسكري. ويذكر أن كينوُورثي وسانت جون سكارفان سيصبحان بعد فترة منهمكين بنشاط في دعم جهود تولستوي.

كان لتولستوي أيضا مناصر متفانٍ من فنلندا، المحتلة من قبل روسيا، حيث بدأت الحركة الوطنية تعزز من زخمها في وجه الرّوسنة العسكرية. وشأنه شأن صهره المؤلف الموسيقي، يون سيبيليوس، كان أرفيد يارنيفيلت ملتزماً بقضية استقلال فنلندا، لكنَّ ولاءه لتولستوي كان أقوى من ذلك. وقد كان يعمل محامياً، وأمضى سنتين يدْرس الروسية في موسكو في نهاية الثمانينيات. وتعرف لأول مرة إلى كتابات تولستوي عام 1891 بينما كان يعمل في الخدمة المدنية في هلسنكي. ورغم معارضة عائلته، هجر أرفيد مهنته ليصبح مزارعا ومصلح أحذية وكاتباً، حتى إنه امتنع عن ممارسة الجنس مع زوجته أيضا. وترجم أرفيد بعض أعمال تولستوي إلى الفنلندية، ودعا لأفكاره من خلال كتاباته، لا سيما الأفكار المتعلقة بإصلاح الأراضي. وفي فبراير من عام 1895، كتب له تولستوي ليشكره على إرسال روايته «صحوتي» التي أنهاها مؤخرا، والتي تعرض لسيرته الذاتية، لا سيما إرسال فصل ترجمه إلى الروسية يشرح فيه الأسباب التي منعته من أن يصبح قاضيا.

أثلجت صدر تولستوي إقامة روابط مع مفكرين مسيحيين يشبهونه في الخارج، لكن شاغله الرئيسي كان مرتبطا بأزمة إخوانه في روسيا الذين اضطُهدوا بسبب معتقداتهم. في مايو 1895، وبعد أشهر من لقائه الأول بالدوخوبوريين في موسكو، تسلم تشيرتكوف رسالة من المنفيّ ديمتري خيلكوف في القوقاز يخبره فيها بأن أحد عشر جنديا من الدوخوبوريين رفضوا الانضمام إلى طابور الجيش الخاص بعيد الفصح، وأرادوا أن لا يستمروا في الخدمة العسكرية بعد الآن. وفي يونيو، قام أتباع فيريجين بإضرام النيران بعدد كبير من الأسلحة احتجاجاً على الخدمة العسكرية، وأعقبت ذلك موجة رهيبة من القمع سُجن خلالها 200 منهم، بينما أوى القوزاق العدوانيون إلى قراهم وتوزعت أسرهم بين التتار والأرمن والجورجيين. قرر تولستوي حينها اتخاذ إجراءات، فأرسل رسالة إلى جون كينوُورثي في الثالث والعشرين من

أكتوبر شرح فيها أزمة الدوخوبوريين، ونُشرت تلك الرسالة في مجلة التايمز في لندن مع نسخة منقحة لرواية عما كان يجري كتبها بيرياكوف الذي كان قد سافر إلى القوقاز ليستقصي الأمر. وفي خريف تلك السنة كتب تولستوي أيضا رسالته الأولى لبيوتر فيريجين، وبدأ تشيرتكوف بجمع المواد التي توثق اضطهاد الحكومة لطائفة الدوخوبور.

بعد قراره التنازل عن إدارة الوسيط عام 1893، بذل تشيرتكوف كل جهوده في جمع المواد المتعلقة باضطهاد الطوائف الدينية المعارضة في روسيا. أراد أيضا أن يتفانى في نشر إرث تولستوي الأدبي والحفاظ عليه. وقد أصبح هذا بالفعل شغله الشاغل في الحياة. فمنذ عام 1889 بدأ على نحو منهجي ثابت بنسخ كل ما كتبه تولستوي، واحتفظ بأرشيف لمخطوطاته الجديدة التي أُرسلت له من ياسنايا بوليانا. وأراد حينئذ أن ينشر جميع أعمال تولستوي المحظورة في إنجلترا. وكان يناقش مسألة الانتقال مع عائلته إلى إنجلترا، لكنه تراجع عن تلك الفكرة عندما سمع أن جون كينوُورثي قرر أن يتخلى عن منصب القس في الكنيسة الأخوية في كرويدن لكي يتسنى له تأسيس شركة الإخوان للنشر. وقد دعاه تشيرتكوف إلى موسكو والتقيا في ديسمبر/ كانون الأول، وحصل كينوُورثي على حقوق نشر أعمال تولستوي الجديدة باللغة الإنجليزية. وفي فبراير من عام 1896، أرسل أفراد مجتمعه إلى تولستوي رسالة دعم للدوخوبوريين في القوقاز طلبوا منه أن يمررها لهم. وفي عام 1896 بدأ تولستوي كتابة روايته القصيرة الرائعة «الحاج مراد» التي استمر في العمل عليها حتى عام 1904 ولم تنشر إلا بعد وفاته. وتدور أحداثها في القوقاز خلال حرب روسيا ضد الجبليين الشيشان والداغستانيين. ورغم أن الرواية تضع الحدث التاريخي؛ اعتقال الروس للحاج مراد عام 1851، وهو أحد المساعدين السابقين للإمام شاميل، ضمن قالب روائي، إلا أن تولستوي يعتمد بالإضافة إلى ذلك على تجربته الشخصية القتالية في القوقاز، ويصبغ القصة بطابع فلسفي من خلال عرض آرائه المسيحية. وقد ألهمته المقاومة البطولية للدوخوبوريين كتابتها.

استمر تولستوي في التفكير في مسألة الدوخوبوريين خلال عام 1896؛ العام الذي اعتلى فيه أخيرا نيكولاي الثاني سدة الحكم في موسكو. وقد تدافع آلاف الناس وقُتل وأُصيب الكثير منهم خلال الاحتفالات التي تلت ذلك. وهكذا، لخَّصَتْ ببلاغة هذه المشاهد المروعة لتدافع الناس من جهة وأبهة وجلال احتفالات التتويج من جهة أخرى، الهوة السحيقة التي تفصل بين النظام الروسي الأوتوقراطي وعامة الناس. وفي ديسمبر من ذلك العام قام تشيرتكوف، بمساعدة من بيريوكوف وترغوبوف، بإنهاء صياغة نداء مباشر لمساعدة الدوخوبوريين، وقام بنشره في إنجلترا في بداية عام 1897 مشفوعا بكلمة ختامية كتبها تولستوي. بعدها ذهب تشيرتكوف إلى بطرسبورغ ليطلق حملة نشطة، لكن الحكومة الروسية تدخلت. وقبل تتويج نيكولاي الثاني أيس بوبيدونوتسيف من تولستوي في رسالة جاء فيها:

«من المروع التفكير في ليو تولستوي بينما ينشر عدوى مقيتة من الفوضى والإلحاد في جميع أرجاء روسيا. وكأن الشيطان تلبَّسه، ولكن ما الذي ينبغي فعله إزاءه؟! فمن الواضح أنه عدو الكنيسة وعدو لأي حكومة وعدو لأي نظام مدني. وثمة اقتراح في المجمع الكنسي (مجلس السنودس) بأن يُلقى عليه الحرم ويطرد من الكنيسة؛ لتتجنب بث الشكوك والحيرة والالتباس في صفوف العامة الذين يرون ويسمعون أن الإنتلجنسيا برمتها تعبد تولستوي. وربما سيطرح السؤال بعد التتويج: ماذا عسانا فاعلين بتولستوي»؟

وقد حانت ساعة الإجابة عن ذلك السؤال؛ فمنذ ذلك الحين ولغاية وفاة تولستوي بعد ثلاث عشرة سنة وظَّفَت الحكومة الروسية استراتيجية فاعلة تتلخص في عدم التعرض لتولستوي واتخاذ إجراءات عقابية ضد جميع أتباعه. ففي الخامس من فبراير فُتشت شقة تشيرتكوف في بطرسبورغ، وأُخبر بأنه سوف ينفى من البلاد بسبب تورطه غير الشرعي في شؤون الطوائف الدينية المنشقة ونشره مواد دعائية تزعزع استقرار البلاد. لم يستطع معارفه من ذوي النفوذ منع قرار نفيه، لكنهم ضمنوا على الأقل ألا ينفى إلى سيبيريا. لكن فلاديمير أوليانوف، وهو محامٍ من سيمبرسك انقلب إلى ثوري، لم يكن محظوظا كما كان تشيرتكوف.

فقد قبع في سجن في بطرسبورغ بتهمة التآمر ضد ألكسندر الثالث، ونُفي في ذلك الشهر إلى قرية على نهر يينيسي جنوب كراسنويارك (وقد بُدّل اسمه لاحقا ليصبح لينين على اسم نهر سيبيري عظيم يسمى لينا). أما خيار تشيرتكوف فكان خيارا ألطف، فنفي إلى إنجلترا وهو بلد كان يحبه. أما بيريوكوف وتريغوبوف فقد عوملا بلين أيضا فنفيا إلى قرى في مناطق البلطيق من الإمبراطورية.

اصطحب تولستوي زوجته وقدم إلى بطرسبورغ ليرى أصدقاءه بعد أن غاب عن المدينة منذ عام 1880. وكانت تلك أيضا زيارته الأخيرة للعاصمة. وقد عملت الشرطة السرية على مراقبته ورفع تقارير مفصلة عن جميع تحركاته، بما في ذلك تخفيف لحيته في محل الحلاقة على شارع بنتيليمون. حتى إن عملاء الشرطة زينوا تقاريرهم بإضافة وصف تفصيلي لزي تولستوي أيضا (معطف قصير مربوط بحزام رمادي، وسروال قاتم اللون، وقبعة سوداء رمادية مطرزة، في اليوم الأول. ومعطف ثقيل بياقة من صوف الحمل، وسروال أسود رمادي وقبعة رمادية، في اليوم التالي). كانت الجماهير تتحلق حول تولستوي أينما ذهب، وقد صفق له الجميع قياما وهم يودعونه في محطة القطار وهو يغادر عائدا إلى موسكو. كان ثمة شخصان لم ترق لتولستوي رؤيتهما، أولهما والدة تشيرتكوف ذات الشخصية القوية، اليزافيتا إيفانوفنا، التي كانت تمقته لأنه غرّر بابنها وقاده نحو الانحراف (وكانت أيضا تعتقد بأن روح الدجال قد تغلغلت فيه لأنه لم يكن يؤمن بقيامة المسيح). أما ثانيهما فلم يكن سوى قريبته ألكسندرين، ألكسندرا أندريفنا، المتشبثة بصلابة بمبادئ الأرثوذكسية التقليدية والتي لم تعد الآن صديقته العزيزة وحاملة أسراره.

خسر تولستوي أيضا مناصرا آخر من أتباعه المتفانين عام 1897، فبعد ستة أشهر من رحيل تشيرتكوف أعلنت ابنته ماشا فجأة بأنها ستقدم على الزواج. وكانت حينها تبلغ السادسة والعشرين. وقد قررت أخيرا وأصرت بأنها تحتاج إلى بعض الاستقلالية، لا سيما بعد أن أفشل والدها عددا من مشاريع ارتباطات محتملة. لم يكن تولستوي سعيدا بزواج ماشا من نيكولاي

أوبولنسكي، ابن قريبته ليزا، الذي كان شابا ضعيفا غير مبالٍ ومن دون مدخول. وقد قال في مذكراته إن رؤية ماشا تتزوج من شخص كأوبولنسكي أشبه برؤية حصان أصيل يُدمَّر من خلال جعله يحمل الماء للسقاية. ولم يكن سعيدا أيضا لأن ماشا قد ارتدّت الآن عن مبادئها السابقة وأخذت تطالب بحقها في الإرث من ممتلكات العائلة. ولكن الأهم من ذلك أن ماشا كانت مساعدته الأمينة الوفية، الخجولة الهادئة المستعدة لتقديم العون على الدوام، وقد خلّفَ رحيلها من ياسنايا بوليانا، رغم أنها لم تبتعد كثيرا، فراغا هائلا في حياة أبيها. فماشا هي الطفلة التي كان يحبها أكثر من جميع أشقائها وشقيقاتها.

بعيد رحيل تشيرتكوف، بدأت تانيا، شقيقة ماشا الكبرى، أيضا بالخروج من عباءة أبيها؛ إذ أقامت علاقة غرامية مع رجل يكبرها بأربع عشرة سنة ولديه ستة أطفال. لكنها ما لبثت أن شعرت بأنها دنست روحها فطغى عليها الشعور بالذنب. وكان عشيقها ميخائيل سوخوتين مرتبطا بزواج تعيس مع امرأة سقيمة. ورغم أن الزوجة توفيت لاحقا في تلك السنة، إلا أن ذلك لم يخفف من ذنب تانيا التي كانت حياتها الرومانسية السابقة تعيسة أيضا. وعاشت حياة صعبة في كنف والد كان يحتكر كل الاهتمام. فكل شيء كان يدور في فلكه، مما جعلها تشعر بالحزن، لا سيما أن والدها كان لا يردّ زائرا ويخصّص الوقت الكافي لمن يأتي لرؤيته، لكنه لم يكن يهتم كثيرا بابنته. شعرت تانيا بأن كارثة حلت بها في أكتوبر عام 1886 عندما تزوج تشيرتكوف، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، من آنا ديتيريخس، وهي ابنة جنرال من سانت بطرسبورغ. وكانت آنا كونستنتينافنا، أو جاليا كما كانت معروفة للجميع، تبلغ آنذاك السابعة والعشرين من العمر (وكانت تانيا في الثانية والعشرين)، ولم تكن مثقفة فحسب، فقد كانت من بين الخريجات الأوليات اللواتي تخرّجن من الجامعة بعد فتح المجال أخيرا لالتحاق النساء بالتعليم العالي عام 1878، بل كانت أيضا حسناء جميلة. وقد رسمها ياروشنكو في لوحة شهيرة عام 1883 سمّاها « الطالبة». وكانت جاليا أيضا جدية في توجهاتها، تعتمد على مبادئ في حياتها ملتزمة إلى أبعد الحدود بأفكار تولستوي. ورغم أن تانيا لم تكن قد وقعت في غرام تشيرتكوف، لكنها

كانت تكن له الإعجاب. وقد شعرت بالرفض والتهميش لأنها لم تكن جميلة ربما بالقدر الكافي، ولم تكن ذكية أو نبيلة أرستقراطية بالقدر الذي يؤهلها لتحتل مركز الاهتمام. كما انجذبت تانيا أيضا للشاب الوسيم يفغيني بوبوف عندما كان يعيش في ياسنايا بوليانا عام 1894. فقد كان من عمرها، لكنه كان في الواقع متزوجا وأقل مواءمة لها في نظر والديها من بافل بيريوكوف التولستوي الذي كان يتودد لماشا. وبحذوها حذو والديها اللذين كانا يتبادلان قراءة مذكرات بعضهما بعضا بنهم، أظهرت تانيا مذكراتها لبوبوف وبادلها هو أيضا مذكراته. كما أن تولستوي قرأ مذكرات ابنته ووضع بعدها حدا للعلاقة بينهما. ولم يكن هو وصونيا أيضا راضيين عن علاقة تانيا بميشا سوخوتين، لكن علاقتهما في النهاية أفضت إلى زواج ناجح.

لعبت تانيا دور المصلح بين والديها وتركت فراغا في الأسرة. ففي صيف 1897 تأسفت ماشا في رسالة أرسلتها إلى جاليا تشيرتكوفا وقالت إنها تشعر بالوحدة، وإن جواً من الحزن بدأ يخيم على ياسنايا بوليانا؛ فكل شخص مشغول بشؤونه الخاصة بمعزل عن الآخر. وبالفعل فقد بدا أن عددا من المشاكل عصفت بالكبار والصغار في ياسنايا بوليانا في تلك السنة. فقد تعثر زواج سيرغيه بعيد عقد القران عام 1895، فقد طلقته امرأته بعد أن أنجبت ابنهما. أما إيليا فقد كان لديه ثلاثة أطفال (وتوفي الرابع قبل بلوغه السنتين). وكانت زوجته صونيا حاملا وكان هو مفلسا دائما. أما ليف الابن، فقد تعافى من انهيار عصبي عانى منه بعد أعمال الإغاثة إبان المجاعة في سمارا، ثم تزوج بابنة طبيب سويدي كان قد عالجه في ستوكهولم. ولكن، شأنه شأن معظم أشقائه، كان ليف معارضا شرسا لآراء والده. وبعد أن انتقل وزوجته للعيش في الجناح في ياسنايا بوليانا، شبَّتْ كثير من المشاجرات المريرة مع ليف الأب. ولم تكن العلاقة مع الأولاد الصغار الأصغر سنا أفضل حالا من العلاقة مع الكبار. فقد طُرد أندريه، الذي بلغ العشرين عام 1897، من المدرسة بسبب تمزيقه صورة لنيكولاي الثاني، وكان يزاول حياة ماجنة. فقد اشتهر بكونه زير نساء، وأزعج أباه برغبته الزواج من فلاحة من ياسنايا بوليانا أقام معها علاقة وهو في الخامسة عشرة من عمره. بعدها توارى عن الأنظار وفرّ إلى القوقاز ووقع في

غرام أميرة جورجية ما لبث أن هجرها بدون تكلف. وقد عانى أندريه أيضا من ديون كبيرة، وكان يتوقع من أمه أن تنقذه على الدوام. أما ميشا، ذو الثامنة عشرة، فكان لا يزال في المدرسة في موسكو، وكان يعاني من اضطرابات متعلقة بسن المراهقة. وألكسندرا (ساشا) ذات الثالثة عشرة عام 1897 تحولت إلى فتاة مسترجلة وكانت تُكنُّ العداء لأمها. ولم يكن ذلك مفاجئا لأن صونيا كانت قد أهملت ابنتها الأصغر منذ ولادتها.

كان ثمة مشاكل أيضا في عزبة بيراغوفا، فقد أصبحت ابنتا سيرغيه (شقيق تولستوي) متفانيتين في اتباع أفكار عمّهما، مما أثار الرعب في صدر سيرغيه وهو الذي كان يتبع أسلوب حياة بنظام تقليدي قديم، رغم زواجه غير التقليدي. وفي عام 1897 تزوجت فاريا زواجا عرفيا من فلاديمير فاسيليف الذي كان أحد فلاحي والدها وفرت معه من المنزل. وكانت أختها الكبرى فيرا روحا حرة أيضا، إذ صدمت والدها عندما أنجبت طفلا خارج إطار الزواج (غير شرعي) بعد سنتين من رجل اسمه عبد الرشيد سافاروف، وهو بشكيري كان يتردد على بيراغوفا ليوفر لهم حليب الكوميس. شعر تولستوي بالذنب العظيم جرّاء تلك الحادثة. وفي عام 1897 أيضا لم ينحسر هوس صونيا المستهجن بتانييف ومعزوفاته مما أثار في نفس تولستوي توقا رهيبا للفرار من المنزل مجددا. وفي لحظة ما اقترب من كتابة رسالة وداع لصونيا، لكنه أخفى المسودة تحت وسادة الكرسي بعد أن تصالحا، إذ اتفقت معه صونيا على التوقف عن دعوة تانييف إلى ياسنايا بوليانا مرة أخرى. حاول تولستوي بعدها أن يجمع مشاعره إزاء الموسيقى، وما اعتبره قواها الخطيرة، على شكل مقالة. فقد كان يفكر في كتابة أطروحة ينتقد فيها الموسيقى والفن عموما، فكانت النتيجة عملا متمردا خارج نطاق التقليد عنوانه: «ما هو الفن؟». كان يفكر في كتابته منذ أن أصبحت ابنته تانيا طالبة في أكاديمية النحت والرسوم والهندسة عام 1881.

«ما هو الفن؟» عمل يوائم أعمال تولستوي الدينية، إذ يروّج من خلاله لنوع خاص من الفن المسيحي كان هو نفسه يتطلع إليه. فالفن وفقا لرأيه هو القدرة على إيصال المشاعر الكونية/

العالمية للحب الأخوي لأكبر عدد ممكن من الجمهور. أما كل شيء آخر وأي زوائد أخرى فما هي إلا «فن زائف» خليق بالشجب:

«إن جميع الروايات والقصائد التي تتخللها مشاعر قومية أو إكليروسية، بالإضافة إلى مشاعر حصرية تتعلق فقط بطبقة الأثرياء كالشرف الأرستقراطي والتخمة والسأم والتشاؤم، ومشاعر سامية أو خسيسة تتدفق من الحب والجنس، لا يفهمها السواد الأعظم من الناس».

«أما في الرسم فيجب علينا أيضا أن نصنف في الفن الرديء جميع الصور الحصرية والوطنية والكنسية، جميع الصور التي تمثل لهو وفتن حياة الأثرياء والكسالى، وكل ما يسمى الصور الرمزية، إذ المعنى الحقيقي للرمز يفهمه بعض الناس فقط ممن ينتمي إلى وسط معين. والأهم من ذلك الصور ذات المواضيع الشهوانية، كاللوحات القبيحة للنساء العاريات التي تملأ دور الغرض والصالات. والى هذا التصنيف ينتمي أيضا جل موسيقى الأوبرا وموسيقى الحجرات في عصرنا هذا، لا سيما موسيقى بيتهوفن وشومان وبيرليوز وليزت وواغنر، التي تعكس موضوعاتها تعبيرات عن مشاعر يشعر بها فقط أناس طوّروا لديهم إثارات متوترة غير صحية؛ نشأت بسبب هذه الموسيقى الحصرية المتصنعة المعقدة».

وتندرج ضمن فئة «الفن الزائف» معظم الثقافة الغربية الحديثة التي شجبها تولستوي ونعتها بالمتخلفة والنخبوية، ناهيك عن جميع الروايات التي كتبها هو قبل أن يصبح فنانا مسيحيا (كالحرب والسلام وآنا كارينينا).

وإذا ما نظرنا إلى مسار تولستوي المهني، فمن الممكن ملاحظة أنه حاول جاهدا أن يتحوَّل إلى طراز آخر من الفنانين قبل فترة طويلة من تحوله «الديني» في نهاية عقد السبعينيات. ومصداق ذلك؛ الحب والعناية اللذين استثمرهما في تأليف كتب ألف باء جيم، وأراد من خلالهما أن يبسِّط من تعابيره الفنية، بعكس تجربته المزعجة والمؤرقة في تأليف آنا كارينينا مثلا، التي ولَّدت لديه آلاما في الضمير بسبب عودته للتأليف للجمهور المثقف. لكن تولستوي كان دائما وأبدا فنانا متكاملا. فبساطة الرسالة التي عرضها في تحفته الفنية «مقتل إيفان إيليتش»

تخفي وراءها الوسائل المعقدة التي بنى فيها القصة على المستويين السردي والثيماتي/ الموضوعاتي. بالإضافة إلى أن وضوحه الرائق خلّف وقعا كبيرا على كتاب شباب، من أمثال أنطون تشيخوف المعروف بأسلوبه اللغوي البسيط الواضح غير المتكلف. كان تولستوي قد اعترف يقينا بأن تشيخوف فنان من العيار الثقيل، فقد توددا لبعضهما بعضا منذ اللقاء الأول، عندما زار تشيخوف ياسنايا بوليانا في صيف عام 1895 (حين سرق قلب تانيا قبل أن تضع صونيا حدا لتطور أيّ مشاعر رومانسية بين تشيخوف وابنتها). ومع ذلك فإن تعريف تولستوي الضيق جدا للفن عنى أن أعظم قصص تشيخوف (وجميع مسرحياته) فشلت في اعتبارها فنا حقيقيا.

كما اعتبر تولستوي الموسيقى أكثر الفنون فعالية وخطورة في آن معًا. فقد كان رجلا شاعريا يتذوق الموسيقى ويذرف الدموع أحيانا تحت تأثير القطع الموسيقية المحببة إليه. وربما ما جعله في نهاية المطاف يندد بالموسيقى ويلعنها هو عدم قدرته على ضبط مشاعره وردّات فعله التلقائية لدى سماعها، بالإضافة إلى هواجسه الأخلاقية. وثمة هنا رابط أيضا لموقف تولستوي الانتقامي إزاء شهوة النساء، التي كانت تسيطر على كل كيانه بقوة، إذ ندد بها وانتقدها نقدا لاذعا لأسباب أخلاقية في أعمال من قبيل سوناتا كروتزر. وكان دي أتش لورانس من بين الذين اغتاظوا؛ لأن المرأة الحيوية طيبة القلب آنا كارينينا وقعت فريسة لدافع تولستوي الوعظي، وعوقبت في حقيقة الأمر بسبب توجهاتها الجنسية. وكان لورانس قد أحب امرأة متزوجة لديها ثلاثة أطفال وقام بخطفها عام 1912 ليعيشا معا. ولهذا ربما لم ترق له خاتمة الرواية، إذ تدفع بطلة تولستوي الشغوفة الجريئة ثمنا باهظا لقاء ارتكابها الزنا وخيانتها لزوجها فتنتحر. وعلى نحو مشابه، يبدو أن تولستوي وجد التخلص من الموسيقى جملة وتفصيلا الطريقة الأسهل للتعامل مع سلطتها النافذة.

ومع ذلك كانت الموسيقى تصدح في أوقات مختلفة في ياسنايا بوليانا، حيث البيانو الكبير من صنع شركة بيكر في غرفة الاستقبال الرئيسية. وقد أضيف إليه في وقت من الأوقات بيانو

آخر أصغر حجما من صنع الشركة نفسها التي كانت تُعتَبَر الأفضل في روسيا. (نسبة إلى جيكوب بيكر، وهو ألماني مهاجر أسس شركة تصنيع البيانو في سانت بطرسبورغ عام 1841). وكان تولستوي وشقيقته ماشا عازفين دؤوبين كانا أحيانا يعزفان لساعات طويلة (يتذكر سيرغيه تولستوي أباه وهو يعزف أحيانا حتى الحادية صباحا في السبعينيات). وكانت صونيا أيضا تعزف البيانو وشقيقتها تانيا كانت تمتلك صوت سوبرانو رائع. أما في صفوف الأولاد فقد كان سيرغيه وميشا موهوبين موسيقيا. وقد أصبح سيرغيه مؤلفاً موسيقياً يحظى بالاحترام وعالماً في موسيقى القوميات المختلفة؛ إذ تعاون مع الموسيقي الهندي الصوفي والفيلسوف عناية خان، كما درس في معهد موسكو للموسيقى في الثلاثينيات من القرن العشرين. أما ميشا فقد أصبح عازفا بارعا للبيانو والكمنجة.

وبخلاف التأليف الموسيقي من باب الهواية على يد الأسرة (بما في ذلك كثير من العزف الثنائي)، كان ثمة حفلات ارتجالية على يد موسيقيين محترفين كانوا يزورون ياسنايا بوليانا ومنزل الأسرة في موسكو. وقد ازداد عددهم كلما ازدادت شهرة تولستوي. كان من بين الزوار الأسطورة البولندي عازف الهاربسيكورد، واندا لاندوسكي، الذي أدى معزوفة راميو وبوريس تروويانوفسكي، أول وأعظم عازف وخبير في آلة البالالايكا، الذي تألف مخزونه الفني من ألحان موسيقية فولكلورية روسية في مجمله. وقد دعا تولستوي بنفسه هذا «باجانيني الروسي» إلى ياسنايا بوليانا في صيف عام 1909، قبيل عزفه للملكة ألكسندرا في قلعة وينزور. كما قدِمَ مغنّيا الأوبرا، نيكولاي وميديا فينغر، إلى ياسنايا بوليانا من بيتهما الصيفي القريب في مناسبات عدة، فسحرا الفلاحين المحليين بأصواتهما القوية. بينما قدِم شاليابين ورحمانينوف في أمسية من أمسيات الشتاء إلى منزل الأسرة في موسكو ليؤديا بعض المعزوفات. أما الموسيقي الذي تقرب منه تولستوي أكثر من غيره، رغم فرق السن الكبير بينهما (الفرق خمسون عاماً تقريبا)، فلم يكن سوى عازف البيانو ألكسندر غولدن وايزر الذي تعرف عليه عام 1897. فقد كان

غولدن وايزر يعزف مقطوعات شوبان المحببة إلى قلب تولستوي. بعدها أصبح صديقا صدوقا لتشيرتكوف؛ فمذكراته التي بدأ بنشرها عام 1922 منحازة تماما ضد صونيا.

حتى غولدن وايزر تعين عليه الاعتراف بأن تولستوي كان يتذوق الموسيقى كرجل هاو ولم يكن مهتماً بدهاليزها وتفاصيلها. أحب تولستوي الموسيقى الفولكلورية والغجرية ومعظم أعمال هايدن، أما بخلاف ذلك فقد كان انتقائيا تماماً في استساغته لأعمال المؤلفين الغربيين الأوروبيين الكبار الآخرين. فوفقا لملاحظات ابنه سيرغيه، أحب تولستوي سيمفونيات موزارت وبعض مقاطعه الموسيقية (سوناتا) وبعض الألحان الأخرى، وأحب أيضا بعض المقاطع (سوناتا) التي ألّفها بتهوفن في بداياته (ولم يحب أعماله الأخيرة مطلقا). وأحب أيضا بعض مقاطع عزف البيانو لشومان، وDichterliebe[196]؛ أحد مقاطع شوبرت الارتجالية، وعددا قليلا من أغانيه الألمانية. أما المؤلف الموسيقي المفضل لديه، رغم عدائه العام للثقافة الغربية النخبوية، فكان شوبان، وهذا يدعو للمفارقة، سيما أن شوبان كان موسيقي الصالونات الأشهر بامتياز. لم يحب تولستوي موسيقى تانييف الخاصة، لكنه مع ذلك لم يكن لديه وقت أساسا لمتابعة أي من الموسيقى العصرية الروسية منها أو غيرها. وقد اعترف تولستوي بأنه شعر بغصة في حلقه ومرارة في كبده عندما سمع خبر وفاة تشايكوفسكي المبكر في أكتوبر من عام 1893، لكنه لم يكن يمدح موسيقاه كثيرا.

التقى تولستوي بتشايكوفسكي عام 1876 في معهد موسكو للموسيقى بإلحاح من تولستوي. وقد شعر تشايكوفسكي بالغبطة لأن تولستوي أراد لقاءه (فقد كان في المراحل الأولى نسبيا من مساره المهني)، لكنه كان رجلا منعزلاً جداً لا يحب مخالطة الناس، وقد وجد المحادثة الوحيدة الجدية بينهما شاقة مجهدة؛ ذلك أنه لم يكن فقط خائفاً على الدوام من نظرات الروائي الثاقبة الحادة التي خشي أن تنفذ مباشرة إلى «الأغوار العميقة» من روحه، بل لم

(196) عشق الشاعر: أشهر حلقة غنائية لروبرت شوبرت.

يرق له أيضا أن يحاضره شخص عن فن الموسيقى. تحدث تشايكوفسكي لاحقا عن تلك التجربة المرهقة في رسالة فقال:

«بمجرد أن التقينا بدأ تولستوي مباشرة بشرح آرائه بشأن الموسيقى. فبتهوفن برأيه تعوزه المهارة، وكانت تلك نقطة البداية. وهكذا بدأ هذا الكاتب العظيم والدارس النجيب الألمعي لطبيعة الإنسان بنبرة شبه يقينية بتقديم نفسه بتلك الملاحظة التي كانت سخيفة ومسيئة لكل موسيقي. وماذا عسى المرء أن يفعل في مواقف كهذه؟ يتشاجر؟! ومع أن معرفتي بتولستوي أقنعتني بأنه إلى حد ما مثير للجدل، لكنه رجل صريح وطيب وهو بطريقته الخاصة أيضا ذواق للموسيقى. ولكن، رغم كل ذلك، فإن معرفتي به، كمعرفتي بأي شخص آخر، لم تجلب عليّ سوى المتاعب والعذابات».

نُظّمت، عقب اللقاء، أمسية موسيقية على شرف تولستوي وتضمنت أداء تشايكوفسكي للرباعية الأولى، العمل الحادي عشر، الذي ألّفه عام 1871. وقد بُنيت الحركة الموسيقية الثانية، الانسيابية الأسطورية الشبيهة بالأغنية، على نغمات الفولكلور الروسي الذي سمعه تشايكوفسكي من نجّار كان يغني؛ بينما كان يؤلف الموسيقى في منزل شقيقته في أوكرانيا. وقد تأثر تولستوي بذلك اللحن الحزين حتى ذرف الدموع. وهذا، ما أثر في نفس تشايكوفسكي على الأقل.

كان تولستوي مقتصدا في حضوره العروض الموسيقية العامة. لذا، فإن معرفته بسمفونيات موزارت، على سبيل المثال، جاءت من عزف شخصين على البيانو. أما لامبالاته بالتقاليد المصطنعة للأوبرا، فقد تطورت في سن مبكرة (وقد عبّر عن تلك اللامبالاة الشخصية من خلال روايته الساذجة لمشهد حضور ناتاشا أمسية في مسرح الأوبرا في رواية الحرب والسلام). حتى إنه حثّ تشايكوفسكي على التخلي عن تأليف الأوبرا. لذلك فإن ردة فعله على عرض فاغنر «سيغفريد» الذي حضره في مسرح البلشوي عام 1896، كانت ردة فعل متوقعة. يكتب تولستوي عن فاغنر أكثر من أي شخصية أخرى في عمله «ما هو الفن؟». فيحتلّ نقده لعرض

«السيغفريد» والأوبرا الفاغنرية بعمومها فصلا كاملا. وكان تانييف قد حضر العرض مع آل تولستوي في مقصورة واحدة في الثامن عشر من أبريل / نيسان عام 1896، ورغم أنه لم يكن يحب فاغنر أيضا، لكن تولستوي استهزأ به لأنه كان يتابع كل شاردة وواردة ويصغي بجدية، رغم أن تولستوي حضر متأخراً وانسحب قبل النهاية.

وكما حلل «الثيولوجيا الدوغمائية الأرثوذكسية» لمؤلفها المطران ماكاري عام 1880، كان تولستوي متحيزا جدا في تحليله لعمل فاغنر «سيغفريد»، فتناول في الحالتين عملين منفصلين منزوعين من السياق كمثالين على جميع أعمال الفنّانيْن، فسهَّل عليه بالتالي تدميرهما. سيغفريد هي الجزء الثالث من رباعية/ خماسية، وتعتبر بتوافق عام الجزء الأقل تسلية من الدائرة[197]، لذلك كانت خيارا مفاجئا لمسرح البلشوي النائم عام 1894، قبل سنوات من استضافة مسرح المارينسكي أو دار الأوبرا الإمبراطوري الروسي أيا من دراما فاغنر الموسيقية؛ وهي أعمال تجهّد المغنين والأوركسترا على حد سواء. أخيرا يستضيف المارينسكي الرينغ سايكل بتمامها وكمالها عام 1907، لكن سيغفريد البلشوي التي غُنيت بالروسية، كانت جهدا شجاعا لكنها لم ترتق إلى مستوى الكمال. فالحضور في أحد عرضين منفصلين في أبريل 1896 لم يكن الأساس الملائم لتقييم عام للفن الفاغنري.

لقد بنى تولستوي صرحا فنيا ودينيا كاملا على أساس جانب واحد من المسيحية (موعظة الجبل). ومع أننا يمكن أن نغفر له عدم قراءته كتابات فاغنر الجمالية المسرفة، لكنه رفض في هذه الحالة متعمدا الأخذ بعين الاعتبار جميع أبعاد البنية التي لم تتوافق مع مواصفاته والتي أراد بسرعة أن يهدمها. ومع أن تولستوي وفاغنر كانا قطبين مختلفين تماما في جوانب محددة مهمة (كأسلوب فاغنر الطنان وحبه للترف مثلا)، لكنهما كانا متشابهين في جوانب أخرى. فكلاهما، وبتأثير من الفيلسوف شوبنهاور، صاغا رؤية دينية قائمة على ثيولوجيا خاصة جدا لا تشبه المسيحية التقليدية، وتتمحور حول الحب الذي يفضي إلى الخلاص. فلا يصل المرء إلى

(197) The Ring.

الخلاص إلا من خلال نبذ الشّبق وممارسة التراحم أو الـ agape (وهي الكلمة التي تعني الحب في العهد الجديد)، وهو أرفع درجات الحب. وهذا بالفعل ما يلخّص الدروس المستقاة من عمل فاغنر الأخير Parsifal، وجميع أعمال تولستوي المتقدمة، ابتداءً من مقتل إيفان إيليتش. فالحب وحده كفيل بخلاص البشرية؛ إذ يوفر للإنسان حالة من الرضا الذاتي والتصالح مع الآخرين. وكان توماس مان محقاً عندما كتب عام 1933 موضحا أن النمط الذي اتبعه تولستوي في مساره الفني مطابق لمسار فاغنر؛ لأن كل شيء في أعمالهما الأخيرة كان متنبأ به في أعمالهما السابقة. ورغم سرديتها الآسرة على سبيل المثال، فإن موضوع الحرب والسلام في نهاية المطاف يتمحور حول الخطيئة (الابتعاد عن الله وغياب التراحم بين البشر/ العلاقة الإنسانية بين البشر)، والخلاص (تجدد/ إحياء الحب) من خلال متابعة رحلة ناتاشا روستوفا الروحية.

تعتبر مقارنة مان بين تطور مسيرة فاغنر الفنية وتلك التولستوية مقارنة تثقيفية؛ لأن كلا الرجلين كان مقتنعا بضرورة الفصل بين دين البساطة المتحور حول الحب والتراحم مع الفقراء والمظلومين الذي أسسه عيسى المسيح، وجهود ودين الكنيسة المسيحية ذات الصرح المشوَّه من جهة أخرى (ومن المدهش أن كلا الرجلين قام بدراسة جدية لمؤلف رينان «حياة المسيح» عام 1878). رغب تولستوي وفاغنر في إعادة إحياء الجوهر الروحي للمسيحية، واستحداث دين عملي أكثر صفاءً من خلال إزالة العناصر الخرافية فيه، واستئصال فكرة العهد القديم التي تقول بوجود رب منتقم. أما مذهب السلمية والنباتية اللذين اتبعاهما في السنوات الأخيرة من حياتهما فقد تماشيا مع آرائهما بشأن نهضة المجتمع ورغبة موازية لتبسيط أساليبهما الجمالية. قبل وفاته عام 1883، اعتبر فاغنر النباتيين ومناهضي تشريح الحيوانات الحية نذرَ التجديد الثقافي. وقد كان المثالي الرومانسي يحلم أيضا بأن ثقافة التراحم، من خلال الفنون الدينية (لا سيما الموسيقى/ موسيقاه)، سوف تحل محل «حضارة» القوة والعدوان العصرية. وقد توصل تولستوي إلى النتيجة نفسها، لكن الفنون الدينية التي كان يحبذها كانت الفنون المكتوبة

بالدرجة الأولى. وكان تولستوي وفاغنر أيضا توّاقَين ليُريا العالم فكرة المسيح الراديكالية التي تقول إن الاستجابة إلى العنف بمزيد من العنف لن تفضي إلا إلى مزيد من تدنيس واستباحة الطبيعة.

كانت نقاشات تولستوي في «ما هو الفن؟» ثمرة تأمل عميق مطول ودراسة مكثفة كدأبه. لكنها لم تكن موضوعية البتة وغريبة عن العصر الذي عاش فيه. وبعد عرض مسرحية تشيخوف «نورس البحر» في عام 1896، التي اعتبرها تولستوي محض تفاهة، قارن تشيخوف بين الفن «القديم» و«الجديد» في المسرحية، وعرض لنا تعليقاته الخاصة المرهفة من طرف خفي بشأن قضية «ما هو الفن؟». لكنه رفض أن ينحاز إلى أي طرف. وكما هي حال قصصه، فإن مسرحياته العظيمة تقف على حافة شعور جمالي جديد مرهون بإرث جيل تولستويٍّ من جهة وتبشر أيضا بأمور قادمة. كان تولستوي لا يزال على قيد الحياة عندما بدأ الفنانون الروس بتبوء زعامة الطليعة الأوروبية، وتوفي قبل ثلاث سنوات فقط من إعلان المستقبليين عن برنامجهم؛ صفعة في وجه الذوق العام، ورغبتهم في رمي «بوشكين ودوستويفسكي وتولستوي... إلخ» من على متن سفينة الحداثة.

لم تتحسن عادات تولستوي الفوضوية في النشر خلال مساره المهني؛ بالفعل، فقد أصبحت أكثر فوضوية في السنوات الأخيرة من حياته عندما ظهرت نسخ مختلفة من أعماله في روسيا وإنجلترا. وبخلاف مشاكل التفاوض مع الرقابة، كان تولستوي يدأب على مراجعة مخطوطاته باستمرار، ومن ثم يراجع النسخ الجاهزة للطباعة، ويغيّر رأيه دائما بشأن كيف يريد أن تظهر أعماله مطبوعة. وهذا ما صعَّبَ المهمة على المدققين والمترجمين، لا سيما في عمله «ما هو الفن؟» الذي أصدر النسخة الأولى منه باللغة الإنجليزية آيلمار مود؛ وهو شخصية بارزة في دراسات تولستوي في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. كان مود ابنا لراهب من إبسويتش وأم كويكرية. وقد انتقل إلى موسكو في السبعينيات من القرن التاسع عشر عندما كان في السادسة عشرة من عمره. وبينما كان يعمل مديراً لشركة روسية لصناعة السجاد، تزوج من لويز شانكس

التي كانت إنجليزية أيضا لكنها وُلدت في روسيا. بعدها استجمع الزوجان مواردهما اللغوية الخصبة ليصبحا مترجمين بارزين بارعين لأعمال تولستوي. وقع مود تحت سحر تولستوي بعد لقائهما الأول عام 1888، وقد أفضت محادثاتهما في التسعينيات إلى نتيجة مفادها أن مود لا يستطيع أن يستمر في حياته ببيع السجاد. وفي عام 1897، وعندما عادت أسرة مود إلى لندن، مكثا في كنيسة الأخوة في كرويدن كما فعلت أسرة تشيرتكوف في بداية تلك السنة. بعدها تبعوهم إلى بيرلي بالقرب من مالدون في إسيكس حيث تأسست أول مستوطنة تولستويّة في السنة الفائتة.

تألفت المجموعة عام 1896 من ثلاثة رجال فقط، كلهم متلهفون لمطاردة الحلم الطوباوي للعيش من قطعة أرض اشتراها أعضاء أكثر ثراء ينتمون إلى الكنيسة الأخوية. لكن عددهم ازداد ليصل إلى خمسة عشر شخصا بحلول نهاية عام 1897. وكان هناك خمسة وثلاثون شخصا أيضا يعيشون بالقرب من ذلك المكان ويحملون أفكارا قريبة. وأسهمت أسرة مود بسخاء، فتبرعت ببقرتين ووفرت الطعام ونظمت الحفلات في منزلهم في المزرعة. وفي إسيكس أكمل آيملر مود ترجمته لـ«ما هو الفن؟»؛ المهمة التي لم تكن سهلة البتة كما وصفها هو بنفسه في كتابه سيرة تولستوي الذي بدأ نشره عام 1908:

«مسودة بعد مسودة، كلٌّ منها حافل بالتعديلات الجديدة والإضافات والتشطيبات. وفي الغالب كُتبَت بخط تصعب قراءته، مما تطلب عناية فائقة للحفاظ على صحة النص والتمييز بين التعديلات التي قام بها طواعية، وتلك التي قام بها من أجل مقص الرقيب، والتي كان يتعين عليّ الحفاظ عليها في النسخة الإنجليزية».

أرسل مود ثلاثا وعشرين رسالة طويلة إلى تولستوي يسأله فيها عن تفاصيل دقيقة بينما كان يترجم بجهد دؤوب العمل الذي نُشر أخيرا كاملا عام 1898. وكان الكاتب المسرحي الاشتراكي، جورج برنارد شو، شبيه تولستوي في النزعة الوعظية، الذي سوف يتراسل معه في السنوات الأخيرة من حياته، الناقدَ الوحيدَ الذي نشر مراجعة متقدة عن هذا العمل في إنجلترا.

كان ثمة درجة معينة من الإعجاب المتبادل بين الرجلين، رغم أن تولستوي انتقد شو لاحقا لعدم جديته. أما في روسيا فقد شاطر كثيرون رأي الفنان إسحق ليفيتان بعمل تولستوي «ما هو الفن؟»، الذي وصفه في رسالة إلى صديقه تشيخوف في نيس بالعمل العبقري والسخيف في آن معا. وقد بيعت خمسة آلاف نسخة منه في الأسبوع الأول.

كان تولستوي سعيدا بإنهاء عمله المتعلق بعلم الجمال؛ لأن مشروعه الرئيسي عام 1898 كان متعلقا بمساعدة الطائفيين المضطهدين. فقد قدِمَ عام 1897 بعض المالاكاني من سمارا ليطلبوا مساعدته ونصيحته؛ فقد داهمت الشرطة قراهم في آخر الليل وخطفوا أولادهم لكي يربّوهم على العقيدة الأرثوذكسية في دار للأيتام. فكتب تولستوي رسالة مطولة لنيكولاي الثاني، وعندما لم يحصل على رد بعد بضعة شهور كتب رسالة أخرى وأرسلها مجددا. وقوبلت الرسالة الثانية بالصمت أيضا كما قوبلت أيضا رسالته التي نشرها في مجلة سانت بطرسبرغ في أكتوبر. وعاد أطفال المالاكاني إلى أهاليهم بعد أن نجحت تانيا، ابنة تولستوي، في لقاء بوبيدونوتسيف في يناير من عام 1898، مما جعل تولستوي قادرا على تركيز كل طاقته على مهمة مساعدة الدوخوبوريين؛ الذين تقرر أخيرا في ذلك الشهر السماح لهم بالاستقرار خارج البلاد. وكان تولستوي يفكر منذ عام 1889 في كتابة رواية جديدة، وقد شكلت هذه الأخبار دافعا لإتمامها. كما قرر حينئذ أن يجعل بيع جميع الحقوق استثناءً؛ لكي يستخدم المردود المالي في تغطية تكاليف سفر الدوخوبوريين. وبالفعل، فقد حصل لاحقا أن غطت تلك الأموال تكلفة رحلتهم إلى كندا، البلد الذي عبَّر عن رغبته في استقبالهم.

أُطلق على الرواية عنوان «البعث»، وقد اعتمد تولستوي في تأليفها على قصة سمعها من محام صديق. وتقول القصة إن نبيلاً من النبلاء عُيّن عضوا في هيئة محلفين في محاكمة كان المدعى عليها فيها امرأة اتُّهمت بالسرقة، وقد عرفها النبيل؛ إذ كانت في السابق قد وقعت في شراكه فأغواها. وندم بعدها على فعلته أشد الندم وأراد أن يتوب. وعندما صدر الحكم بنفيها إلى سيبيريا، عرض عليها الزواج لكنها ما لبثت أن توفيت قبل أن يُكفِّر عن خطاياه. وعندما

سمع تولستوي هذه القصة أثارت في نفسه مشاعر ندم، إذ عادت به الذكريات إلى شيء شبيه اقترفه؛ فقد أغوى واستغل خادمة شقيقته جاشا تروبتسكايا عندما كان شابا. وهكذا جمع الآن بين القصة التي سمعها ورحلته الشخصية الروحية. وهكذا، يتخلى الشخصية الرئيسية في الرواية، الأمير نيخليودوف، عن حياته السابقة بعد أن يتعرف في المحكمة على الفتاة الفلاحة، كاتيوشا ماسلوفا، التي كانت تعمل لحساب عمته، والتي قام باستدراجها وإغوائها بشكل قاسٍ ولم يراعِ شعورها. وبعد أن يصدر حكم بنفيها إلى سيبيريا ظلما وبهتانا، يتخلى نيخليودوف عن أراضيه لمصلحة الفلاحين ويلحق بها إلى سيبيريا على أمل التكفير عن خطاياه. ولم تستطع صونيا أن تتعامل بسهولة مع دفاع زوجها المرائي عن العفة والطهر في عمله «سوناتا كروتزر» عام 1889، بينما تُرغَم في الوقت نفسه على إشباع شهيته الجنسية التي يبدو أنها لم تكن ترتوي. وبعد عقد من الزمن، عندما بدأت تلك الشهية تنحسر أخيرا (فعندما تزوجت ماشا عام 1897 انتقلت صونيا إلى غرفة نوم ابنتها في ياسنايا بوليانا)، قرأت صونيا بنفور وصف زوجها الحسي/ الشبقي لاغتصاب كاتيوشا ماسلوفا. لكن رواية البعث كانت أكثر من مجرد قصة حب أو رواية تشكيل (Bildungsroamn)؛ لأن تولستوي قمع فيها إملاءات ضميره الفني ليستغل فرصة أخرى ليهجو أهدافا محببة إليه اعتاد على نقدها، لا سيما الحكومة والكنيسة والنظام القضائي، بالإضافة إلى الملكية الخاصة وتقاليد الطبقة الثرية في المجتمع. ورغم أن سرد الرواية يجعل القارئ مشدودا بوسواس الانجذاب للمحتوى التولستوي ذي الومضات العبقرية، إلا أن المزج بين النزعة الوجدانية أو الغنائية المكثفة والهجاء اللاذع والديماغوجيا الواعظة لم يَرُقْ لجميع القراء.

عمل تولستوي على رواية البعث طيلة سنة 1898، حتى في يوم ميلاده السبعين في الثامن والعشرين من أغسطس. وقد منعت الحكومة الصحافة من نشر أيّ مقالة تحتفي بالرواية، لكن تولستوي تسلَّم أكثر من مئة تلغرام تهنئة. وظهرت صوره على واجهات المحال في المدن والبلدات في أرجاء روسيا. وبحلول الخريف، كان تولستوي جاهزا للتفاوض بشأن عقد نشر

الرواية، وقد أبرم بالفعل في أكتوبر صفقة حطمت الأرقام القياسية مع أدولف ماركس؛ وهو من أساطين عالم النشر في بطرسبورغ. كان ماركس مالكا للمجلة الأسبوعية العائلية المصورة «The Cornfield» (حقل الذرة) ذائعة الصيت.

وكان تولستوي قد تلقى مبلغ 500 روبل عن كل صحيفة كبيرة مطبوعة عن روايته الأخيرة آنا كارينينا التي نُشرت في مجلة نخبوية قراؤها بضعة آلاف. أما البعث فقد نُشرت على مراحل في المجلة المذكورة آنفا «حقل الذرة»، والتي يبلغ عدد المشاركين فيها 200 ألف قارئ. وقد حصل تولستوي على ضعفي المبلغ الذي حصل عليه من نشر آنا كارينينا، بالإضافة إلى تلقيه 12 ألف روبل دفعةً مقدمة. نُشرت الرواية خلال عام 1899 مع رسومات أدرجها ليونيد باستيرنك، وقد لاقت نجاحا سهلا وسريعا كونها الرواية التي ألَّفها الكاتب الروسي الأشهر بعد فترة انتظار فاقت عشرين سنة. وكانت سنة مرهقة لتولستوي؛ لأنها تضمنت التأكد من مجموعة مسوّدات أسبوعية والتعامل مع مقص الرقيب القاسي والتواصل المستمر مع تشيرتكوف في إنجلترا.

كان تشيرتكوف منذ وصوله إلى إنجلترا في ربيع عام 1897 منهمكا بشيء رئيسي واحد؛ هو الدعاية لأعمال تولستوي في العالم. وقد بدأ بذلك بالتعاون مع دار الإخوة للنشر لصاحبها جون كينوُورثي، لكنه ما لبث في وقت قصير أن أسس شركة نشر خاصة به وقد أخذ ذلك معظم وقته. وكان الهدف من تأسيس «دار الكلمة الحرة للنشر»، بالقرب من المنزل وحديقة التفاح التابعة له، الذي استأجره للعائلة بالقرب من بورليه، نشرَ كل أعمال تولستوي المحظورة في روسيا ومقالات كتبها هو وأتباع آخرين لتولستوي.

استهدفت تلك الكتابات بالدرجة الأولى القراء في روسيا. وتم نشر تسعة أعمال في عام واحد (1897)، إحداها مقالة ختامية لتولستوي تعليقا على كتيّبه القديم بعنوان «النجدة! مناشدة عامة بخصوص دوخوبور القوقاز». وسَّع بعدها تشيرتكوف من أنشطته ليصبح وكيل تولستوي الأدبي من خلال إدارة عملية نشر «البعث» في الخارج باللغة الروسية واللغات

الأخرى أيضا. وهكذا، كانت نسخته المرجعية للرواية التي نشرت في دار الكلمة الحرة النسخة الروسية المطبوعة الوحيدة التي لم يُحذَف منها شيء، والتي نُشرت على شكل كتاب في نهاية عام 1899، في الوقت نفسه الذي نُشرت فيه النسخة المنفصلة الأولى في بطرسبورغ على يد أدولف ماركس. وأعيدت طباعة الرواية خمس مرات عام 1900، كما هُرّبت إلى روسيا بأعداد هائلة. كما قام تشيرتكوف في السنة نفسها بتنسيق نشر الترجمة الإنجليزية للرواية، التي ترجمتها لويز مود، في أمريكا وبريطانيا من خلال شركة الإخوة للنشر. وعندما ظهرت الرواية في مجلة الكورنفيلد تم التنازل عن جميع الحقوق، فصَدَرَت في الأسواق الروسية نتيجة لذلك أربعون نسخة مختلفة مطبوعة، بينما ظهرت خمس عشرة نسخة مختلفة في فرنسا في العام نفسه، 1900. فقُرئت الرواية إذن من قبل مئات الآلاف من البشر في السنوات الأولى من طرحها في الأسواق. أما الترجمة السلافية فقد قام بها ألبرت شكارفان الذي دعاه تشيرتكوف إلى روسيا، وكان قد رافقه إلى ياسنايا بوليانا للقاء تولستوي في السابق عام 1896.

استطاع سبعة آلاف وخمسمئة شخص من الدوخوبوريين أخيرا الوصول إلى شواطئ كندا في الفترة ما بين ديسمبر 1898، ومايو 1899، على متن عدد من السفن المستأجرة بفضل المردود المادي من رواية البعث، ومساهمات كبيرة من تجار موسكو، وتبرعات جبارة من أعضاء مستوطنة كينوُورثي في بورليه (التي كادت أن تصيبها بالإفلاس)، والكويكريين الإنجليز. لقد كان مشروعا هائلا انخرط فيه آرثر سانت جون الذي سافر إلى القوقاز واعتقل ورُحّل من تفليس[198] في فبراير عام 1898. كما انخرط فيه ديمتري خيلكوف الذي كان قد أتمّ حكمه في المنفى، فاصطحب مجموعة من الدوخوبوريين إلى قبرص أولا حيث لم تكن الظروف مواتية. بعدها، صادف أن قرأ تشيرتكوف مقالة في مارس عام 1898 كتبها الفوضوي المنفي بيوتر كروبوتكين، الذي كان يقيم في لندن وزار كندا بصفته عالما في الجغرافيا ليحاضر

(198) تبليسي (عاصمة جورجيا الحالية).

في موضـوع ترسبات الجبـال الجليدية في فنلنـدا. كتـب كروبـوتكين في مقالتـه عـن الموانِنـة[199] الذين فرّوا من روسيا في السبعينيات من القرن التاسع عشر لتجنب التجنيـد الإلزامي، واستقروا في كندا حيث عملوا في الزراعة بنجاح باهر. وجه تشيرتكوف دعوة لكروبوتكين ليأتي إلى بورليه ليلتقي به وممثلَين عن الدوخوبوريين أتيا ليشرحا وضع طائفتهما. وبعـد أن أقنعهم كروبـوتكين بأن كندا هي المكان الأنسب لهم، شرع آيلمر مود وخيلكـوف بالترتيبـات (ويُـذكَر أن مـود شـعر بالإحراج لأنه بالرغم من كونه تولستويـاً إلا أنه سـافر في الدرجـة الأولـى بسـبب خوفـه مـن دوار البحر).

وبحلول أكتوبر من عام 1898 تم التوصل إلى اتفاق مع السلطات الكندية. وبمسـاعدة مـن صديق كروبوتكين الإسكوتلندي المولـد جيمس مـافور، أستاذ الاقتصـاد السياسـي في جامعـة تورونتو، وبافل بيريوكوف في جنيف الذي عمل وسيطا للتواصل بين روسيا وكنـدا، اسـتؤجرت سفينة لايك هورون لتُبحر في رحلتها الأولى التي امتدت أشهرا عـدة، انطلاقـا مـن ميناء بـاتومي على البحر الأسود، وصولا إلى هاليفاكس في مقاطعة نوفيا سكوتيا (إسكوتلندا الجديـدة). وقـد سافر مع تلك الطائفة في إحدى رحلاتهـا بلشـفي المستقبل، فلاديمير بـونش-بـرويفتش، الـذي كان مهتما جدا بتقاليد الدوخوبوريين الشفوية وترانيمهم وأهـازيجهم. وقـد مكـث في كنـدا سـنة كاملة بغية دراسة ثقافتهـم، ولَعِبَ دورا حاسما في حماية التولستويين، سيما وأنـه شـغل منصـب سكرتير لينين الخاص، بعد أن أصبحوا ضحايا موجات الاضطهاد في أعقاب الثورة البلشفية.

وكـان سـيرغيه، نجـل تولسـتوي، مـن ضـمن متطـوعين كثيـرين لعبـوا دورا في مسـاعدة الـدوخوبوريين. فقـد سـافر أولا إلـى إنجلـترا في أغسـطس عـام 1898 ليجـري نقاشـات مـع الكـويكر وتشـيرتكوف. وخـلال فـترة مكوثـه في لنـدن، اصـطحبه كروبـوتكين مـع نفـرين مـن الدوخوبوريين في جولة لزيارة المتحف البريطاني. وتمـت مراقبـة تحركـاتهم مـن قِبـل جاسـوس روسـي يعتمـر قبعـة طويلـة. وقـد أثـارت ملابس الـدوخوبوريين فضـول النـاظر إلـيهم؛ إذ كـانوا

(199) Mennonites.

يرتدون البشميت التقليدي الأزرق (وهو معطف بأزرار تصل إلى الركبة يرتديه قوزاق القوقاز) والسروال الواسع والقبعة الصوفية. انتقل سيرغيه من لندن إلى باريس ليساعد في المفاوضات الجارية بشأن الحقوق الفرنسية لرواية البعث. وفي ديسمبر التحق بألفين ومئة وأربعين دوخوبوريًا في الرحلة الأولى إلى كندا. أما تولستوي فكان يشعر بغبطة غامرة بسبب قرب ابنه منه في تلك الفترة.

وأثّر الإرهاق سلبيا على صحة تولستوي بسبب الجهد الذي بذله في كتابة ونشر رواية البعث على مراحل، وانتشرت الأخبار بشأن مرضه بسرعة في جميع أرجاء روسيا. وتأثر من وقع تلك الأخبار أنطون تشيخوف، الذي ذهب للعيش في منفى في القرم قبل سنة من مرض تولستوي؛ في محاولة يائسة لقطع دابر مرض السل الذي كان يعاني منه ويتطور في مراحله بسرعة. وكان تشيخوف قد عانى من أول نزيف خطير في موسكو في مارس عام 1897 وأُخذ إلى عيادة بالقرب من منزل تولستوي هناك. وبعد أن عاده تولستوي في تلك العيادة وأمضى ساعات يتحدث إليه عن انعدام الأخلاق، أُصيب تشيخوف بنزيف آخر. وعندما كان تشيخوف يتعافى بعيدا في يالطا، لم يثنِهِ ذلك عن الحصول على نسخة «البعث» فور صدورها كرواية كاملة، واستطاع أن ينهي قراءتها مع نهاية يناير عام 1900 كما أفصح عن ذلك في رسالة وجهها لميخائيل مينشيكوف: «قرأتها مباشرة على دفعة واحدة وليس بشكل متقطع أو على مراحل أو من بدايات ومواضع مختلفة. لعمري، إنها تحفة فنية مهيبة». كما اعترف تشيخوف في هذه الرسالة أيضا بأن مرض تولستوي سبب له الذعر وأبقاه في «حالة توتر دائمة». واستمر في حديثه بالنيابة عن ملايين الروس الذين لا شك أنهم كانوا يشعرون بالشعور نفسه، لا سيما بعد أن شرح السبب وراء ذلك.

إنها رسالة استثنائية بالفعل خليقة باقتباسها هنا:

«أخشى أن يقضي تولستوي؛ فسيُخلِّف مماته فراغا كبيرا في حياتي. ففي المقام الأول، ليس ثمة شخص أحبه كما أحب تولستوي. أنا لست رجلا متدينا، لكنْ من بين جميع العقائد

أحسب أن عقيدته هي الأقرب لي، والأكثر انسجاما ومناسبة مع روح المرء وحاجاته. ثانيا، عندما يمتلك الأدب شخصا كتولستوي فلا شك أنه بخير؛ فوجود تولستوي يكفي لأنه ينجز نيابة عن الجميع. وهذا ما يجعل مهنة الكتابة أمرا لطيفا وسهلا حتى لو لم ينجز الكاتب شيئا بمفرده. ما يقوم به تولستوي يبرر جميع الآمال والتطلعات التي استُثمرت في الأدب. ثالثا، يرفع تولستوي هامته عاليا بفخر؛ فمرجعيته الأدبية هائلة، وطالما هو على قيد الحياة فإن الذوق الأدبي الرديء والسوقية والابتذال والسفاهة والبكاء المرير والزهو الفظ سوف تختفي جميعها إلى غياهب الظلمات. فهو الرجل الوحيد الذي يمتلك سلطة أخلاقية كافية بذاتها للحفاظ على ما يسمى «الأنماط والحركات الأدبية» بمستوى مقبول، فإن لم يكن موجودا فإن عالم الأدب سيكون قطيعا من الرعية بلا راع، وإلا فإن حالة ازدحام شديدة واهتياج مزعج ستطغى، ولن نستطيع أن نجد من خلالها طريقنا».

لكن الموت خطف تشيخوف قبل تولستوي بسنوات. فقد توفي ولم يزل شابا.

وعندما وقع تولستوي في براثن المرض في نوفمبر عام 1899، بدأ المسؤولون في المؤسسة الدينية الأرثوذكسية التفكير جديا بما يمكن فعله مع هذا المهرطق الزنديق الذي يعيش بين ظهرانيهم. فقد وجّه تولستوي في أكثر فصول رواية البعث نقدا لاذعا للكنيسة الأرثوذكسية، مما سبب مشكلة حادة لمؤسسة اعتُبرت مرجعيّتها الأخلاقية ومكانتها وثيقة الارتباط بالحكومة الروسية؛ التي كانت تشعر بالتهديد من جبهات مختلفة مع نهاية القرن التاسع عشر. ورغم أن الجزء الأخير من رواية «البعث» لم يكن قد ظهر بعد، فإن تولستوي كان قد وفَّرَ دليلا كافيا من خلال الأجزاء الأخرى على تجديفه وهرطقته من وجهة نظر المجمع الكنسي المقدس، ليس أقلها السخرية اللاذعة المبطنة، لكن المفضوحة في الوقت نفسه، التي وجهها لوكيل النيابة توبوروف، بالإضافة إلى الفصلين المشهورين اللذين يصف فيهما قُداسا ينظم للمُدانين يُخضِع

من خلاله الطقوس الأرثوذكسية للتهكم القاسي. وإليك، على سبيل المثال، وصف تولستوي الشهير للقربان المقدس[200] في الفصل التاسع والثلاثين من الجزء الأول:

«يعتمد القربان المقدس في جوهره على الافتراض القائل بأن هذا الفُتات (من الخبز) الذي يغمسه القسيس في النّبيذ ويحركه ويصلي عليه؛ بطريقة ما يتحول إلى لحم ودم المسيح. وتتمثل تلك الحركات في أن يرفع القس ذراعيه ويمسكهما ويعيد ذلك على نحو منتظم، رغم إعاقة جيب الرداء الذهبي الذي يلبسه. ومن ثم يجثو على ركبتيه ويُقبّل المنضدة وكلّ ما عليها، ويمسك بقطعة قماش من طرفيها ويلوّح بها بانتظام ورفق فوق الصحن الفضي والكأس الذهبية. ومن المفترض في هذه اللحظة أن يتحول الخبز والنبيذ إلى لحم ودم، وبالتالي، يتم أداء هذا الجزء من القداس بأرقى درجات الرهبة والخشوع».

وهكذا، عندما نُشرت رواية «البعث» كاملة أُثيرت قضية طرد تولستوي من الملّة، وُوضعت مجددا على رأس سلم أولويات المجمع الكنسي المقدس.

كان تمرد تولستوي ضد الكنيسة الأرثوذكسية مدفوعا بإدراكه لموقفها المنبطح كركيزة أساسية للأوتوقراطية الروسية. أوضح تولستوي في مقال عام 1886 عنوانه «الكنيسة والدولة» بأن: «تقديس السلطة السياسية وفقا للمسيحية حرام وتجديف، فذلك منافٍ تماما للعقيدة المسيحية». كما أن دعم الكنيسة للدولة في حربها يعتبر إباحة لا لبس فيها للجوء إلى العنف، وهذا ما لا يمكن الدفاع عنه مطلقا بحسب رأي تولستوي؛ لأنه ينافي تعاليم المسيح على نحو فاضح، ناهيك عن عدم تساوقه مع إحدى الوصايا العشر. لم تكن الكنيسة الأرثوذكسية محصَّنة ضد اتهامات تولستوي. ولكي نفهم الأسباب الجذرية التي أفضت إلى حالة الاحتضار التي كانت تعيشها الكنيسة في أواخر القرن التاسع عشر، علينا أن نعود القهقرى إلى التغيرات الأساسية التي طرأت على مكانتها المستقلة على يد بطرس الأكبر. كانت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية مؤسسة ذات نفوذ طاغ عندما اعتلى القيصر بطرس الأكبر سدة الحكم عام 1682،

(200) أفْخارِسْتِيّا.

لكن تصميمه على الإطاحة بكل الحواجز التي تعترض سبيل حكمه الأوتوقراطي؛ حدا به إلى اتخاذ قرار مفصلي بعدم تعويض البطريرك أدريان بعد وفاته عام 1700 ببطريرك آخر، بل إخضاع الكنيسة لولاية وزارة دولة استُحدثت لهذا الغرض، هي «السينودس المقدس» الذي أُسس في العاصمة العلمانية سانت بطرسبورغ عام 1721، ليحل محل بطريركية «موسكو الأم المقدسة». إن الإشراف على هذه المؤسسة/ المجمع الكنسي من قِبل مسؤول مدني هو رئيس النيابة العامة (المدعي العام) ولقبه بالروسية أوفر-بروكورور، يخون الأصول الجرمانية البروتستانتية التي اعتمد عليها بطرس الأكبر في أفكاره الإصلاحية. فقد أصبحت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية آنذاك من وجهة نظر العديد من الروس أداة في يد الحكومة. أدخل بطرس مساقات رسمية تعليمية للدّين في روسيا؛ لكي يرفع من المعايير، لكنه خفَّض أيضا من عدد رجال الدين الهائل الذين كان ثلثهم فقط حاصلاً على نوع من التعليم الديني. أما تنظيم بطرس للدولة على أساس هرمية الرتب بحسب الخدمة فقد أفضى في الواقع إلى نشوء نظام طبقي في روسيا فصل رجال الدين عن الطبقات الأخرى، وجعلها إلى حد ما وراثية؛ لأن أبناء القساوسة فقط كانوا مخوَّلين لتلقي العلوم الدينية والتدريب الذي يؤهلهم ليصبحوا قساوسة فيما بعد.

وكان معظم رجال الدين من الفقراء؛ إذ لم يكونوا يحصلون على رواتب، وكانوا يعتمدون في معيشتهم (ومعيشة أسرهم الكبيرة عادة) على مبالغ بسيطة يدفعها رعايا الأبرشية لقاء الخدمات التي توفرها الكنيسة، بالإضافة إلى مدخول متواضع من زراعة قطعة أرض صغيرة تكون ملحقة بالأبرشية عادة. لذلك فإن أسلوب حياة رجال الدين لم يكن أفضل من الفلاح العادي. وتصف قصة تشيخوف «كابوس» التي كتبها عام 1886، الإحراج الذي يخالج قسّاً شابّاً يقظ الضمير بسبب فقره المدقع الذي يمنعه من القدرة على تقديم الشاي لضيفه، فكنيسته مهترئة كثوبه البالي المرقع ومنزله الذي يصفه تشيخوف بأنه لا يختلف عن منزل أي فلاح، إلا اللهم أن القشّ الذي يغطي السقف في منزل القسّ مرتب بطريقة أكثر توازنا، وثمة زرابيّ بيضاء صغيرة على النوافذ. ويختلف هذا الوصف تماما عن الصورة الاعتيادية التي يُقدَّم فيها القس/

الخوري في الأدب الإنجليزي؛ إذ يعيش في منزل جميل بارتياح ويعتبر عضوا مثقفا متعلما محترما في مجتمعه، لا يدانيه في الحيثية الاجتماعية المرموقة سوى مالك الضيعة الإنجليزية. أما مكانة جل القساوسة الروس، الذين يعتمدون في معاشهم على الفلاحين، فقد بقيت متدنية.

كما أن سلطتهم الأخلاقية أخذت بالتآكل على مدار القرن التاسع عشر لأسباب مفهومة؛ فاعتمادهم على مساعدة الفلاحين المحليين في فلاحة أراضيهم جعل قساوسة الأبرشيات يعزفون عن الإساءة إليهم، فغدوا مضطرين إلى قبول ضيافتهم إبان مواكب الأيقونات وتجنب تقريعهم أو تأنيبهم. وهكذا، فُرّط برجال الدين لأسباب مختلفة، لا سيّما في علاقتهم مع طبقة النبلاء. ووجد القساوسة أنفسهم مضطرين لاتباع أهواء الإقطاعيين المستبدين الخارجين عن القانون من خلال إبرام زيجات قسرية ودفن أقنان توفوا في ظروف مريبة. وكانت المحصلة النهائية لإصلاحات بطرس الأكبر نشوء كنيسة محافظة على نحو مبالغ فيه لا تهتم مطلقا بتطوير مبادئها العقدية، ورجال دين فسدة غير أخلاقيين ولا يحظون بالاحترام. في عام 1858، نشر قس محب للتغيير مقالة في الخارج كشف فيها النقاب صراحة عن حقيقة الحياة في ظل الأبرشية الروسية. وقد أحدثت المقالة جلبة عندما قرأ الناس النسخة المهربة سرا عشية الإصلاحات العظيمة. كما جرت محاولات في نهاية الستينيات لتحسين منظومة التعليم الكنسي؛ ففي عام 1863 سُمح ولأول مرة لخريجي المعاهد الدينية بالالتحاق بالجامعات. وفي عام 1864 سُمح لأولاد رجال الدين بالالتحاق بالمدارس الثانوية التابعة للدولة. لكن الإصلاحات لم تستمر، لا سيما بعد أن تحولت المدارس الدينية إلى مراتع خصبة للأنشطة الثورية وتفريخ الثوار. وعلى تلك الخلفية عُززت مكانة دير أوبتينا بوستين الروحية وغدت امتيازاته أكثر جلاءً، لا سيما بعد أن تم إحياء التقاليد العرفانية الصوفية لآباء الكنيسة[201]، وانفصال شيوخ الدير عن عالم الإكليروس الرسمي المشوه.

(201) لا سيما طائفة الهيسيكاست Hesychasts (المطمئنّون/ السّاكنون) التي أنشأها رهبان جبل آثوس في القرن الرابع عشر.

شعرت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في نهاية القرن التاسع عشر بأنها بالفعل أصبحت محاصرة. فقد عبّر الفلاحون عن تقوى وورع نفوسهم من خلال طقوس كالصيام والمواكب والحج عوضا عن التردد على الكنيسة. ذلك أن النصوص الدينية المتداولة فيها كانت مكتوبة حصريا باللغة السلافية القديمة التي لا يفقهها الفلاحون، والتي بقيت اللغة الإكليروسية لتلاوة الإنجيل وتأدية القدّاس وجميع الخدمات الكنسية الأخرى. وكان ثمة 180 يوم صيام في السنة بدرجات متفاوتة وفقا للتقويم الأرثوذكسي، وكان من الطبيعي أن يصوم الفلاحون أياما إضافية أيضا. اعترفت امرأة عجوز للقسيس في كنيستها بأنها أكلت الحرام أثناء يوم صومها؛ لقد أكلت الفجل وكانت بذوره قد غُمست في اللبن قبل زراعتها. وكان كثير من الفلاحين يعتبرون شرب الشاي بالسكر في أيام الصوم خطيئة كبرى؛ فهم لم يعتبروا شرب الشاي «شبه خطيئة» فحسب، بل كانوا يعتقدون بأن السكّر يُستخرَج من عظام الحيوانات (عظام الكلاب في الواقع). حتى إن بعض الفلاحين الزهاد المتشددين اعتبروا شرب حليب الأم خطيئة أيضا. أما الإنتلجنسيا فقد تجاهلت الكنيسة منذ فترة طويلة، ولم تعد تعتبرها تمثل المرجعية الروحية؛ ذلك أن بعض أعضائها الراديكاليين كانوا يعتبرون أنفسهم يَسْمون أخلاقيا على رجال الدين. أما الأرستقراطية الروسية فكانت تمثل عدم الاكتراث بشؤون الكنيسة؛ إذ كان أفرادها متدينين بالاسم فقط. ولهذا نجح اليسوعيّون الإنجيليون البروتستانتيون من أمثال اللورد رادستوك، الذي كان يناصر فكرة دراسة الإنجيل الفردية، إذ شقَّ طريقه ولاقى رواجا في دوائر المجتمع الراقي الذي كان يتردد عليه أشخاص كوالدة تشيرتكوف، إليزافيتا إيفانوفنا. وقاومت الكنيسة ولفترة طويلة إصدار ترجمات روسية حديثة للإنجيل، وبالتالي لعبت دورا مهما في استدامة العالم الثري بالخرافات الذي عاش في ظلّه الشعب الروسي. فقد كانت الكنيسة تخشى من قيام المؤمنين العاديين بتفسير الإنجيل بحسب أهوائهم وعلى نحو خاطئ، وبالتالي الوصول إلى مرحلة يتحدَّون فيها سلطة الكنيسة. وهكذا لم يوافق المجمع الكنسي رسميا على ترجمة الإنجيل من السلافية إلى اللغة المحكية الحديثة إلا عام 1876. لكن مع ذلك حاولت الكنيسة

السيطرة على إمكانية الوصول إلى تلك الترجمات. ورغم ذلك وزّعت مع نهاية القرن التاسع عشر بنجاح حوالي مليون نسخة من قِبل مجموعات دينية روسية وأجنبية.

أما التحدي الآخر الرئيسي لسلطة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية فقد نشأ من المنشقين المتدينين. ولكي تثني الكنيسة الفلاحين عن الانضمام إلى طائفة قدامى المؤمنين، التي ربطتها السلطات الحكومية بالتمرد والثورة الشعبية منذ فترة الانقسام والفتنة الكبرى في الستينيات من القرن السابع عشر، عمدت في الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى حضّ رجال الدين على الإنفاق بسخاء على أداء القداس الكنسي، والقيام بغيرها من الطقوس بجلال وفخامة. وقد تهددت الكنيسة والحكومة الطوائفَ الجديدة العديدة التي انتشرت كالفطر بسرعة عجيبة وحظيت بشهرة في القرن التاسع عشر؛ كطائفة قدامى المؤمنين والى حد أقل طوائف شبيهة كالخْليستي[202] والسكوبتسي[203]، لكنها تختلف معها في تفاصيل الطقوس وأدائها. أما ما أصبح يدعى بالطوائف «العقلانية»[204] فإنها تخلَّت جملة وتفصيلا عن الطقوس الدينية والقساوسة والكنائس والأيقونات وغيرها من لوازم العقيدة الأرثوذكسية. وقد نادى أتباع تلك الطوائف بعقيدة مسيحية تنطوي على الحب والمساواة والحرية ولا تعترف بسلطة الحكومة. كان ثمة، من جهة، أحفاد المستعمرين الألمان المعروفون بـ«الستونديستي[205]»، الذين بدأ مشروعهم الاقتصادي وامتناعهم التام عن تعاطي المسكرات والتزامهم بالقراءة الفردية

---

(202) Khlysty: تعني حرفياً «السيّاط». ويعتقد أنّ الكلمة حُرّفت عن أصلها «الخريستي» وتعني محبّي المسيح. ويقال أيضا إنها ذات أصل يوناني «خيلياستي» وتعني المؤمنين بعودة المسيح (المترجم).

(203) Skoptsy : تعني «المخصيّين»، وهي طائفة تؤمن بقمع الشهوة الجنسية من خلال خصي الرجال وإزالة نهود النساء. كما كانوا يُسمَون أتباعهم الحَمَامات البيض (المترجم).

(204) على غرار المعتزلة في الإسلام (المترجم).

(205) Stundists: اليسوعيون الروحانيون المتأثرون بالمعمدانيين الألمان (المترجم).

للإنجيل باللغة المحكية الحديثة، يجتذب أعدادا كبيرة من الفلاحين الروس في القرن التاسع عشر، ومن جهة أخرى كان هناك الدوخوبوريون والمالاكانيون[206] الأصليون.

وهكذا، فإن تمرد تولستوي الروحي لم يأتِ من فراغ، وينبغي وضعه ضمن هذا السياق الديني-الاجتماعي. وبفضل توسع الإمبراطورية الروسية، انضوت تحت لوائها بالضرورة قوميات مختلفة، إذ أكد المؤتمر التبشيري بحلول عام 1897، أن 30 بالمئة من سكان الإمبراطورية الهائلة تألّف من المسلمين واليهود وغيرهم من أتباع العقائد الأخرى. ورغم ذلك، سُمح فقط للكنيسة الأرثوذكسية بالانخراط في أنشطة تبشيرية ضمن حدود الإمبراطورية. ركز المؤتمران التبشيريان المنعقدان في موسكو في عامي 1887 و1891 على إيجاد طرق لحثِّ طائفة قدامى المؤمنين على العودة إلى حضن الكنيسة الأرثوذكسية، بينما ركز المؤتمر الثالث المنعقد في قازان على مناوئة ودرء تأثير الفرق والنِّحل الأخرى في روسيا، لا سيما تلك الطوائف الإنجيلية البروتستانتية التي تعمد إلى تشجيع أتباعها على قراءة وتفهم الإنجيل على نحو فردي. فقد اكتشفت الكنيسة أن أعداد المنتمين إلى هذه الطوائف في تزايد رغم العمل التبشيري والدّعوي والمبادرات الحكومية. بعدها، استطاع المطران ميليتي الريازاني الحصول على دعم المؤتمر التبشيري لاقتراحه بضرورة ترحيل أتباع تلك الطوائف إلى معسكرات خاصة في سهول سيبيريا الجليدية. كما اقترح مصادرة أملاكهم وانتزاع أطفالهم منهم أيضا. لكن خشية نيكولاي الثاني من اندلاع احتجاجات واسعة في صفوف المعمدانيين في الخارج حالت دون تحويل ذلك الاقتراح إلى سياسة رسمية. كان نيكولاي الثاني على ثقة بأن الفلاحين لن يتبعوا الثوار السياسيين، وكان ينتابه قلق من المسيحيين الإنجيليين ورموز من أمثال تولستوي. ومصداق ذلك أن المجلة الروسية الليبرالية «المجلة الروسية»، نشرت مقالا يؤكد على أن 200 من الأساقفة والقساوسة والرموز الإكليروسية الملتئمة في المؤتمر التبشيري، صَنفوا التولستوية كطائفة شأنها شأن الطوائف الدينية الأخرى:

---

(206) Molokans: شاربو الحليب (المترجم).

«أدرج المؤتمر الآراء الدينية – الأخلاقية للكونت ليف تولستوي في خانة مثيلاتها من الطوائف الدينية الجديدة، مؤكدا على أن أتباعه قد شكلوا «طائفة متكاملة ناجزة». وإذ يؤكد المؤتمر أيضا على أن هذه الطائفة تتساوق مع تعريف الطوائف التي تُعتبَر في واقع الأمر «خطيرة للغاية على الكنيسة والدولة»، فإنه قرر أن يطلب من المجمع الكنسي المقدس أن يقترح على الحكومة تطبيق القانون الخاص بالطوائف «الخطيرة للغاية» على أتباع تولستوي».

أما خطورة التولستوية فكانت تكمن في قدرتها على التواصل على نحو متزامن مع النخبة المثقفة وطبقة الفلاحين على حد سواء، ومصداق ذلك تأثير أفكار تولستوي على بيوتر فيريجن والدوخوبوريين، إذ يظهر التهديد بجلاء.

أما كونستانتين بوبيدونوتسيف، الذي أصبح النائب العام للمجمع الكنسي المقدس عام 1880 وبقي في منصبه لخمس وعشرين سنة، فقد كان يعتبر تولستوي عدوَّهُ اللّدود. فقد خاصمه تولستوي أولا عندما طلب منه أن يمرر رسالة عام 1881 إلى ألكسندر الثالث يطلب فيها إصدار عفو بحق قتلة والد القيصر. وإذ اقتنع من خلال قراءته الرسالة (التي لم يوصلها للقيصر) بأن تولستوي ينزع إلى إسقاط الحكومة، أطلق بوبيدونوتسيف حملة شعواء لإسكات خصمه الكونت. وقد نتج عن ذلك تقريع ونبذ أعمال تولستوي الدينية من قِبل رموز الكنيسة على نحو منتظم، بالإضافة إلى إخضاع حياة تولستوي الشخصية للرقابة اللصيقة المستمرة (حتى إن قسيس ياسنايا بوليانا أُرغم على رفع تقارير عنه لأسقف تولا). وكان بوبيدونوتسيف متفانيا في أداء واجباته، وهو الحفيد الطموح لقسيس عاش في موسكو وعلا شأنه فأصبح أستاذا للقانون قبل أن يشغل منصب النائب العام للمجمع الكنسي المقدس. وقد وفر لنا ذو الاسم الرائع، هيرمن سامسون – هيميلشتيرنا، صورة مختصرة حية عنه في كتابه تاريخ حكم ألكسندر الثالث الذي نشره عام 1893:

«ثمة نوعان من المتعصبين، البارد والساخن؛ أي المتعصب بالاستبصار (اكتساباً) والمتعصب بالمزاج (فطرةً). ومن السهولة معرفة إلى أي منهما ينتمي بوبيدونوتسيف فمظهره

يكشفه. فهو متقدم في العمر ضئيل الحجم هزيل الجسد مستدق الأنف، ذو عينين ثاقبتين نافذتين، يرتدي نظارات وتغطي جبهته شعيرات بيضاء تتدلّى من الغرّة، حليق اللحية دائما وتعبيرات وجهه شديدة الصرامة».

يمكننا القول إن تولستوي وبوبيدونوتسيف كانا وجهين لعملة واحدة؛ لأن كليهما كان مؤمنا بضرورة شفاء المجتمع الروسي من الأمراض التي كانت تعصف به، لكنهما اختلفا بالطبع في تشخيصها.

عندما مرض تولستوي في نهاية 1899 عندما كان يعمل على إتمام رواية «البعث»، منع المجمع الكنسي المقدس أولا الصلوات على روحه (تخليدا لذكراه) بعد مماته، معتقدين أن أيامه كانت معدودة وقد اقترب من حافة الموت. لكنه عندما تعافى شرع المجمع في خطته سيئة الإعداد لطرده من الملّة. كان بوبيدونوتسيف متحمسا للغاية لحماية أسس الكنيسة الأرثوذكسية، فطالب منذ فترة بإلقاء الحرم على تولستوي. أما الآن فقد تسلم الراية مطران سانت بطرسبورغ أنتوني الذي كان يخشى من أن يُجتذب رجال الدين أنفسهم إلى مذهب تولستوي. وكان ثمة بعض التبرير لذلك؛ ففي عام 1898 نشر قسيس شاب ذو كاريزما مميزة يدعى غريغوري بيتروف كتابا عنوانه «الإنجيل: أساس للحياة»، ركز فيه على فكرة تولستوي التي تؤكد على ضرورة تطبيق المسيحية في حياة المؤمنين اليومية. وقد أُعيد طبع الكتاب عشرين مرة. وفي عام 1901 وُبِخ بيتروف من قبل المطران أنتوني لحديثه عن تولستوي بنَفَس إيجابي في لقاء الرابطة الدينية – الفلسفية؛ فقد قال بيتروف إن ما يقوم به تولستوي من أجل المجتمع الروسي هو بمثابة ما قام به فيرجيل لدانتي من خلال هداية الناس الذين انحرفوا عن الطريق القويم وإنقاذهم من العذاب. بدأت إجراءات طرد تولستوي من الملّة في اليوم الذي أعقب ذلك اللقاء وأُعلن عنها رسميا بعد عشرة أيام. وقد استشاط نيكولاي الثاني غضبا لأنه لم يُستشر ولم تطلب موافقته المسبقة، مما أرغم بوبيدونوتسيف على الاعتذار منه.

أراد المطران أنتوني أن ينجز المسألة بسرعة لكي تصدر فتوى المجمع الكنسي في الثامن عشر من فبراير، الأحد الأول من الصوم الكبير. فقد كان من العرف، ولغاية عام 1869، أن تعلن الكنيسة عن حالات الطرد من الملّة ضد أعداء الدولة سنويا في الأحد الأول من الصوم الكبير، قبيل «أسبوع نصر الأرثوذكسية». ولا شك أن الكنيسة أرادت أن تُدرج اسم تولستوي في قائمة الهراطقة إيفاءً على الأقل بالإعلان التقليدي:

«لأولئك الذين لا يؤمنون بأن الملوك الأرثوذكس تولَّوا العرش بفضل ومنّة من الله القدير، وأنه في اللحظة التي يغمرهم الزيت المقدس تَنفذُ هبات الروح المقدسة إليهم، لا سيما ما يخص إتمام مهمتهم المجيدة. ولأولئك الذين يجرؤون على الثورة والتمرد ضدهم، كجريشا أوترييافا وإيفان مازيبا ومن على شاكلتهم نقول: اللعنة! اللعنة! اللعنة!».

أتيحت الفرصة عام 1837 للرحالة الكاتب الألماني جي جي كوول ليشهد «لعنة» الهراطقة شخصيا في كاتدرائية قازان في سانت بطرسبورغ. وقد تدفق كثير من المؤمنين الراغبين في رؤية ما جرى لدرجة أن الشرطة استُدعيت لفرض النظام. وقد وَصَفَ ذلك بـ«قداس كنسي مروع مرعب استثنائي غير مفهوم»، إذ يُعتبَر القداس الوحيد الذي تُسمَع فيه اللعنات في بلد يميل الشعب فيه إلى مباركة وتقديس كل شيء:

«بدأت مراسم اللعن بقداس طويل تخللته أغان وتراتيم وقراءات وفتح أبواب وغلقها وإحراق بخور وإضاءة شموع وذهاب وإياب و ...، وتقدَّم (المبجل المطران) وألقى الحرم على عدد من الناس: على ديميتريوس الدجال، وبوريس غودونوف، وستينكا رازين، وبوغاتشوف. وبعد الانتهاء من هؤلاء الهراطقة من أهل السياسة حان دور المتدينين لكنهم ذُكروا بكلام عام. ووُصف كل شخص أو طبقة أولا بكلمات كمقدمة، وأُعلنت أسماؤهم. وأعقب ذلك مرتين أو ثلاثا كلمة كالصاعقة أو البرق: أنافيما، أنافيما، اللعنة، اللعنة..».

أما تولستوي فقد كان في رفقة علية القوم. وفي عام 1901 قرر رجال الدين أن يلقوا الحرم على عمله «البعث» عوضا عن إلقاء الحرم عليه شخصيا. ومع ذلك، شكل ذلك حدثا جللا بأبعاد اجتماعية وسياسية مهمة.

عكفت الكنيسة تاريخيا على إلقاء الحرم على الأشخاص فقط بعد بذل جهود متكررة في استتابتهم. وقد صدرت الفتوى بحق تولستوي، وأكدت على أنه كان يدعو بتعصب ضد العقيدة الأرثوذكسية، ولذلك لا يمكن أن يُعتبَر عضوا في الكنيسة إلا إذا أعلن توبته. لكن الفتوى صيغت بعناية فائقة؛ فكلمة «لعنة» أو «طرد من الملّة» لم تأت الفتوى على ذكرها في المكان الذي نُشرَت فيه على الصفحة الأولى للمجلة الأسبوعية «الأنباء» (المجلة الرسمية للمجمع الكنسي المقدس منذ 1888)، وتبعتها رسالة توضيحية. وقَّعَ على الفتوى رقم 577 بتاريخ 20-22 فبراير ثلاثة مطارنة ورئيس أساقفة وثلاثة من الأساقفة أيضا، ولم يؤمن أحد منهم بأن هذه الفتوى ستخيف تولستوي أو تأتي به راكعا إلى الكنيسة. لكن، في أعقاب نشرها على الصفحات الأولى لجميع الصحف الروسية الرئيسية في الخامس والعشرين من فبراير، ومع إصدار مرسوم حكومي يحظر النقاش فيها في الصحافة، أمِلَ المجمع الكنسي بأن يقوض ذلك من دعم العامة لتولستوي، لا سيما أنه كان يتنامى باضطراد في صفوف جميع شرائح المجتمع. وكانت النية أن يثير المجمع ردة فعل من العداء الموجه لتولستوي، ويُقلِّص من مرجعيته في فترة دقيقة شهدت اضطرابات سياسية واجتماعية، بينما يعزّز في الوقت نفسه من موقع الكنيسة الأرثوذكسية وسمعتها. لكن هيهات، فقد كانت الحقيقة معاكسة تماما لرؤية المجمع الكنسي؛ إذ باءت جهوده بفشل ذريع ولم يأخذ أحد، بخلاف المرجعيات الإكليروسية، طرد تولستوي من الملّة على محمل الجد. لكن الحدث برهن أن تداعياته سوف تكون بعيدة النطاق والأثر.

كان تولستوي في موسكو في بداية عام 1901 منشغلا كعادته بشواغل فكرية. فقد بدأ السنة بقراءة كتاب «المنظومات الست للفلسفة الهندية» لمؤلفه ماكس مولر، وبموازاة انهماكه

بالفلسفتين الهندية والنيتشوية استمر أيضا بدراسة الهولندية. أما انشغالات صونيا فكانت دنيوية كالعادة؛ فقد سافرت إلى ياسنايا بوليانا لتهتم بابنتها تانيا بعد أن وضعت مولودا؛ مليصا/ ميتا، ثم قفلت راجعة إلى موسكو للمساعدة في التحضير لزفاف ابنها ميشا من ألكسندرا جليبوفا في الحادي والثلاثين من يناير. وقد حاكت وطرزت جعبا صغيرة تُملأ بالحلوى لضيافة المدعوين. وشكّل الزفاف مناسبة راقية للمجتمع المخملي؛ إذ حضرته شخصيات بارزة من الدوقة وغيرهم (أتى أحدهم خصيصاً من سانت بطرسبرغ)، لكن لم يحضره زوجها. ثم عادت في الثاني عشر من فبراير إلى ياسنايا بوليانا عندما علمت بأن ماشا قد أسقطت جنينها، وقفلت راجعة بعدها مجددا إلى موسكو لتعتني بالأسرة وتساند زوجا مكتئبا كان حينها يعبّر عن مخاوفه من الموت. بدأ بعدها الصوم الكبير الذي يمتد لسبعة أسابيع وبدأت التحضيرات. وفي 16 فبراير ذهبت صونيا إلى سوق الفطر مع الطاهي سيميون نيكولايفيتش، ومن ثم إلى الكنيسة. وفي اليوم التالي ذهبت لشراء لعب للأطفال في مأوى موسكو للأيتام بعد أن أصبحت كفيلة للأيتام هناك.

عندما أُعلن عن طرده من الملّة على الملأ، أعلن تولستوي في رسالة إلى ابنته ماشا بأن الشيء الوحيد الذي يريد الكتابة عنه الآن هو ضعف الوازع الديني الذي يؤمن بأنه أصل كل الشرور والآفات التي تصيب البشر في عالمنا. فقد كان تولستوي جادا أكثر من معظم معاصريه في الالتزام بمبادئ المسيحية، وكان إيمانه بالله أعمق من إيمانهم أيضا. لذا، كان من المفارقة أن تطرد الكنيسة شخصا لديه إيمان عميق بالأفكار المسيحية رغم أنها غير أرثوذكسية. ويُذكَر أنه لم يكن يكترث بجميع المكائد التي كانت تحاك ضده في السابق، بل استمر بكتابة مقالات صريحة مثيرة للجدل، ورسائل احتجاجية يهاجم فيها فساد الكنيسة والحكومة ودعم الكنيسة لسياساتها العسكرية.

نعلم من مذكرات صونيا بأن الطقس كان رائعا في فترة طرد زوجها من الملّة؛ سماء صافية وقمر منير وأيام مشمسة. وقد دوّنت كيف غدا زوجها أكثر شغفاً وتراحماً وحباً على حين

غرة في أعقاب إصدار الفتوى، وكيف تحسنت صحته النفسية والبدنية في ظل المناخ الاحتفالي الاستثنائي في تلك الفترة. فكتبت صونيا على الفور رسالة جيّاشة مشبوبة بالعواطف إلى بوبيدونوتسيف والمطران أنتوني تعترض فيها على الفتوى، ثم عادت إلى حياكة القبعات الصوفية لليتامى. وعلى نحو مخالف للعادة نُشرت رسالة صونيا وردّ المطران أنتوني في مجلة «أنباء الكنيسة».

ونظّم المجمع الكنسي المقدس صفوف تابعيه لإرسال رسائل مسمومة بغيضة فظة بدون توقيع تنطوي على شتائم وإهانات ولغة جارحة وتهديدات بالقتل إلى تولستوي؛ في أعقاب الإعلان عن طرده من الملّة، لكن التظاهرات والعرائض والهتافات الاحتفالية على شرفه طغت على تلك الرسائل. فقد تدفق الزّوار على الفور إلى منزله في موسكو يريدون مساندته واتخاذ إجراءات لصالحه، وتدخلت الشرطة في إبعاد الطلاب المتحمسين الذين تحلَّقوا حوله حالما لمحوه يمشي في وسط المدينة في اليوم الذي أُعلن فيه عن طرده من الملّة. لقد عززت فتوى المجمع الكنسي المقدس من مكانة تولستوي عِوضا عن تقويضها، لا سيما بعد أن منعت الحكومة نشر جميع البرقيات وحظرت التعبير عن أي نوع من المساندة له. كما أن الفتوى زادت اهتمام العامة بقراءة أعماله. فقد بدأ كثيرون ممن لم يقرؤوا أعماله في السابق طلبَ كتبه من المكتبات، وما أن يلتقي أحد الأجانب خارج روسيا بشخص يكشف عن هويته الروسية حتى يطرح عليه مباشرة سؤالا عن تولستوي. وأرسل عمال معمل مالتسوف للزجاج في ضاحية من ضواحي موسكو قطعة من الزجاج الأخضر نُقشَت عليها باللون الذهبي رسالة موجهة له تقول:

«أيها الموقر ليف نيكولا يفيتش، لقد شاركتَ قدرَ العديد من العظماء والعباقرة الذين كانوا يُحرَقون على الأوتاد ويُزجّون في السجون ويطردون إلى المنافي فتتعفن أجسادهم وتبلى أرواحهم. دع القساوسة المنافقين يطردوك من الملّة كما يحلو لهم فالشعب الروسي يفخر بك دائما. فأنت منا وفينا وأنت عظيمنا وعزيزنا وحبيبنا».

كان تولستوي ضمير الأمة، وقد مثَّل طرده من الملّة التعبير الأكثر بلاغة عن الهوة السحيقة التي تفصل الكنيسة عن المجتمع الروسي المثقف. فقد اعتبرت الإنتلجنسيا، في موسكو وغيرها، ذلك من باب الانتقام السياسي في المقام الأول. ومن اللطائف التي قالها ألكسي سوفورين، محرر مجلة الأيام الجديدة، أن روسيا اليوم لديها قيصران، وبينما لم يستطع نيكولاي الثاني أن يزعزع عرش تولستوي، استطاع الأخير أن يزعزع استقرار أسرة رومانوف بأكملها. بدأ تولستوي أخيرا صياغة مقالة ردّاً على فتوى المجمع الكنسي التي صدرت في الرابع والعشرين من مارس وحملت معها إدانات جديدة. وأُرسلت المقالة إلى تشيرتكوف لتُنشَر في إنجلترا؛ ذلك أن تولستوي كان ما يزال يأمل بأنه سيُعتقَل في يوم ما.

ويُذكَر أن ريبين كان قد عرض لوحة جديدة، رسم فيها تولستوي، في معرض السواح التاسع والعشرين في بطرسبورغ قبل أسبوع من إصدار الفتوى. وللمفارقة، صورت اللوحةُ الكاتبَ وهو يصلي حافي القدمين في غابة ياسنايا بوليانا. وعندما افتُتح المعرض تدفق الناس يحملون الزهور التي أحاطت تلك اللوحة من كل جانب، وقد زاد بريقها فاجتذبت عددا أكبر من الناس بعد الفتوى. وقبل نهاية المعرض في الخامس والعشرين من مايو، وقف طالب على كرسي وربط باقات ورد حول إطار اللوحة من جميع الزوايا، وكأنها أصبحت أيقونة مقدسة، وأدلى بعدها بخطاب ارتجالي. كما أُرسلت برقية دعم إلى تولستوي وقع عليها 400 شخص من الموجودين في المعرض، وتزايد عدد الذين أتوا بالزهور التي أحاطت اللوحة. أدى كل ذلك إلى إزالة اللوحة التي لم تُعرَض بعدها في معرض موسكو والمدن الأخرى.

أحدثت الفتوى ضجة في صفوف الطبقات المتعلمة، لكن من الجدير الإشارة إلى أن العديد من القساوسة الروس الريفيين لم يكونوا يعرفون سوى أن تولستوي رجل أرستقراطي يكتب روايات عن الطبقة المخملية. أما السواد الأعظم من الفلاحين فكانوا يعرفون أنه كونت يمثل بالتالي النبلاء الذين يكرهونهم ولا يثقون بهم. بالإضافة إلى أن عدداً لا بأس به منهم، ممن تبع الأب إيوان من كرونستاد، كان يؤمن بأن تولستوي هو الدجال بعينه. لم يكن الأب إيوان، وهو

شخصية جذابة أكثر من غريغوري بيتروف (الذي تخلى عن الكنيسة في النهاية) أسقفا أو عالم لاهوت مرموق، بل كان قسيسا في أبرشية. وقد ملأت شهرته الآفاق لدرجة أن كثيرين كانوا يعتبرونه «القيصر» الثالث. وُلد الأب إيوان بعد سنة من ميلاد تولستوي لأسرة فقيرة من حفظة المقدسات في مقاطعة آرخانغيلسك عام 1829. وتزوَّج عام 1855، وأصبح قسيسا في السنة نفسها في كاتدرائية القديس أندرو في كرونستاد حيث كان حماه قسيساً رفيع المستوى. وخلال الخمسين عاما التي خدم فيها الأب إيوان في مرفأ كرونستاد خارج سانت بطرسبورغ، مقر أسطول البلطيق الإمبراطوري، أصبح مشهورا بأسلوبه الشعبوي غير الرسمي، كما اشتُهر بتنظيم اعترافات جماعية هائلة غير اعتيادية في كنيسته. وكان الأب إيوان يحثُّ على الورع والتقوى وبذل الصدقات والإحسان إلى الناس. وبحلول الوقت الذي اختير فيه لقراءة الأدعية وخدمة ألكسندر الثالث وهو على فراش الموت عام 1894، أصبح مشهورا في جميع أرجاء روسيا. أما نيكولاي الثاني وزوجته فقد كانا أيضا يُبجّلان الأب إيوان، لدرجة أنهما وضعا صورته على الجدار خلف سريرهما في قصر ليفاديا في القرم.

بدأ الأب إيوان في التسعينيات من ذلك القرن بالتنديد بتولستوي؛ لأنه كان يعتقد أن المسيح ليس إلها وأن مريم كانت ببساطة أمّاً عزباء، وأن الكنيسة الأرثوذكسية ما هي إلا وثنية تقدس الأصنام. وانتقد الأب إيوان تولستوي نقدا لاذعا ساخرا وأدانه من خلال رسائل جُمعت ونُشرت عام 1902. وقال في إحداها مخاطبا تولستوي: «يجب أن تُكبّل وتُربط إلى صخرة وتُقذف في أعماق البحر، فلا ينبغي أن يكون لك مكان على وجه هذه البسيطة». كان الأب إيوان ربما الخصم العلني الأشهر لتولستوي ونقيضه تماما. بالفعل، فقد اعتبر الكاتب نيكولاي ليسكوف الأب إيوان وتولستوي قوتين متناقضتين متضادتين تكافحان من أجل مستقبل روسيا. فقد اعتُبر الأب إيوان راعي وخوري العامة، بينما اعتُبر تولستوي معبود الإنتلجنسيا. ومع ذلك ثمة مواطن شبه مدهشة بين الرجلين. فالأب إيوان، شأنه شأن تولستوي، كان يتطلع لمُثُل الزهد والتصوف ومن خلال تبتله في الزواج (لم ينجب أطفالا رغم رغبة زوجته إليزافيتا

بذلك)، وكان أكثر نجاحا من تولستوي في كبح جماح شهوته الجنسية. كما كان أيضا مقتصدا في استهلاك الطعام الذي اعتبره، كما فعل تولستوي، مرتبطا بإثارة الغُلمة والشهوانية: «كاشا القمح الأسود خير أما الكريمة فشرّ»، «لا للجرجار/ الفجل الحارّ مع الخل!»، «إياك أن تتناول العشاء!». كان الأب إيوان يعتبر دخول زوجته إلى المطبخ لتطهو تهديداً لروحانيته. كان تولستوي والأب إيوان شخصين تطهيريين هاجما الهوة السحيقة بين الأثرياء والفقراء في المجتمع، والمادية المفرطة والفسق الأخلاقي. وكلاهما كان يمثل معبودا لأتباعه؛ فالبريد الروسي على سبيل المثال اضطر إلى اتخاذ تدابير احتياطية خاصة للتعامل مع الحجم الهائل من رسائل رعايا الأبرشية المحبين التي كانوا يرسلونها للأب إيوان. وقد أَلهمَ الأب أيضا ولادة طائفة دينية رفع بوبيدونوتسيف تقريرا بشأنها عام 1901، في السنة نفسها التي طُرد فيها تولستوي من الملّة. وقد اعتبره تابعوه، الذين سمّوا «الإيوانيين»، إلها ومسيحا ويوحنا المعمدان، وتعاملوا مع صورته كأيقونة (لا سيما النساء منهم). وكان من أولوية المجمع الكنسي أن يسيطر على رجال الدين؛ لذلك أثار الأب إيوان بعض الذعر عندما بدا أنه سيصبح مستقلا على نحو خطير. فقد تمتع، كتولستوي، بشعبية في البلاط القيصري أكثر من مكاتب الدولة، حتى إن بعض رعيته وجدوا نبرته حادة أحيانا. كتب أحدهم للأب إيوان بعد أن قرأ «كلماته التشهيرية الموجهة إلى الكونت تولستوي»، شارحاً له بأنه لا يستطع أن يجد «الطمأنينة الداخلية»، ولا يعرف كيف يمكن أن يتصالح مع «نقده اللاذع» الغريب والبعيد عن قيم الرفق واللين والتسامح والغفران المسيحية من جهة، وكتاباته الروحية السابقة من جهة أخرى.

كان تولستوي والأب إيوان جزءاً من نهضة دينية استثنائية في بداية القرن العشرين أثرت على جميع طبقات المجتمع الروسي. فقد زار الحجيج بأعداد هائلة الأديرة، وشاركوا في المواكب الدينية كتلك التي خلدها ريبين في لوحته المشهورة «موكب كورسك». وكان ثمة صحوة دينية أيضا في صفوف الإنتلجنسيا بدأت مع نشر رواية دوستويفسكي الأخيرة «الإخوة كارامازوف» عام 1880، التي استلهم الدافع لكتابتها من لقاءات جمعته بشيوخ أوبتينا بوستين. ومن الجدير

بالذكر أن تولستوي كان يقرأ هذه الرواية عندما غادر أخيرا ياسنايا بوليانا في أواخر حياته، وذهب في زيارة أخيرة بعد زيارات عديدة سابقة إلى الدير نفسه الذي بدا أنه مكان كان يجتذبه وينفر منه في الوقت نفسه. حتى قبل إلقاء الحرم عليه، كان يُنظر إلى تولستوي على أنه «شيخ ياسنايا بوليانا». وفي العقود الأخيرة من حياته لم يستقبل عشرات الزوار الذين أتوا ليطلبوا مشورته فحسب، بل تسلَّم أيضا آلاف الرسائل من أناس كانوا يطلبون مساعدته. وقد حاول بدأب الرد على الرسائل بمساعدة معاونين له عملوا معه مريدين شبيهين بالإخوة البسطاء الذين ساعدوا شيوخ الأديرة تقليديا. كما تمثلت آية أخرى من آيات الصحوة الدينية في إطلاق سلسلة من اللقاءات التاريخية، عُقدت في قاعة رابطة الجغرافيا الإمبراطورية في بطرسبورغ في نوفمبر من عام 1901. وتمخض عن تلك اللقاءات أوّلُ تواصل بنّاء بين الإنتلجنسيا ورجال الدين في روسيا. وقد بدأت بجهود كُتّاب من أمثال ديمتري ميرزكوفسكي الذي أراد جسر الهوة بين الطبقات المتعلمة والكنيسة. وكان الهدف إيجاد أرضية مشتركة وحل ديني محتمل للأزمة الاجتماعية السياسية في روسيا. وقد لاح اسم تولستوي على نحو متوقع ونوقش نزاعه مع الكنيسة في الجلسة الثالثة من جلسات الرابطة الدينية الفلسفية التي عُقدت بداية 1902. ومن بين القضايا التي احتدم فيها النقاش، قضية إن كانت الحكومة أو الكنيسة قد شكلت القوة الدافعة وراء طرده من الملّة.

بقي تولستوي مشكلة تقض مضجع تراتبية الكنيسة حتى بعد طرده منها. وهذا ما تطلب وضع استراتيجية جديدة، لا سيما أنه في يونيو 1901 أصيب بالملاريا، ومكث في فراشه يعاني من المرض الخطير. واقتضت الاستراتيجية إصدار أوامر لمفوضي الشرطة ومحافظي المدن بمنع أي تظاهرات أو خطب في حال توفي تولستوي. وأصيب سيرغيه بالهلع عندما قرأ نبأ مرض شقيقه في الصحف التي اعتبر محرروها أن حالة تولستوي الصحية قضية تهم الرأي العام. وكتب سيرغيه رسالة جياشة بالعواطف لشقيقه، عبَّر فيها عن محبته ومدى معزته، وكيف أنه الشخص الوحيد في العالم الذي ينبسط في الحديث إليه. ووقَّع في نهاية الرسالة وأضاف

بحزن الجملة التالية: «بخلاف قربنا من بعضنا البعض في فترة الطفولة، أنا بحاجة إليك ولكنك لا تحتاج لي. فلديك فيلق من المحبين من دوني». لم تكن هذه المرة الأولى التي تلعب فيها بنية تولستوي المتينة دورا مساعدا في إنقاذه من المرض. أضف إلى ذلك أن صديقة ألكسندرين، الكونتيس بانينا، أخلت له بلطف بيتها الصيفي ليقضي فيه فترة نقاهة في ضواحي يالطا. وهكذا، انطلقت الأسرة متوجهة إلى القرم في سبتمبر عام 1901. وبخلاف عادته في السفر في الدرجة الرابعة مع البراغيث والصراصير كما وصفها سيرغيه، سافرت الأسرة هذه المرة في مقصورة خاصة حُجزت خصيصا لهم بمساعدة أحد أتباع تولستوي كان يعمل في مصلحة السكك الحديدية. ورغم منع الصحافة من تغطية تحركاته، كان جمع غفير من الناس بلغ زهاء 3 آلاف شخص من المناصرين في انتظاره في محطة خاركوف ليهتفوا باسمه ويشجعوه. وبقيت أسرة تولستوي في القرم لعشرة أشهر قامت خلالها صونيا برعاية زوجها بإخلاصها المعتاد.

وكان منزل الكونتيس بانينا الصيفي قصراً بهندسة قوطية في واقع الأمر، قلعة أساطير برجين. ولم يكن تولستوي قد عاش في ترف بهذا المستوى طيلة حياته، فكتب ليخبر سيرغيه عن انتشار الأزهار والورود المتنوعة المدهشة، ونافورة المياه المصنوعة من المرمر، وبركة السمك، ودورات المياه، والعشب المشذب، والإطلالة الأخاذة على البحر المحاط بجبال من شجر الصنوبر، والراحة التي لم يتعود عليها. وبالعودة إلى عام 1887؛ كتب تولستوي رسالة طويلة إلى مناصر المذهب السلمي المستقبلي، الكاتب رومين رونالد، أعلن فيها أن الاختبار الأول للصدق والإخلاص لأولئك الذين يعيشون بظل المبادئ المسيحية، هو أن يضعوا حدا للعيش من عرق جبين العمال الفقراء والتطفل عليهم، وأن يسدوا حاجاتهم بأنفسهم بما في ذلك أن يُفرغوا مِبوَلتهم بأنفسهم. وأخبر تولستوي شقيقه بأن الدوقة وأصحاب الملايين من حوله في القرم يعيشون في ترف ورغد عظيمين.

وكالعادة، امتلأ منزل تولستوي بالزوار، وكانت ثمة لقاءات لطيفة أيضا مع تشيخوف الذي لم يكن بعيدا عنه في يالطا، والكاتب الشاب غوركي. كما طوَّرَ تولستوي أيضا صداقة مع شخص واسع الاطلاع أنيس لبق هو الدوق نيكولاي ميخائيلوفتش الذي سعى في البحث عنه فوجده، وهو صديق قديم لتشيرتكوف. ولم يكن الدّوق نيكولاي منزعجا أو متوترا من مكانة تولستوي المنبوذة في الأوساط الرسمية فحسب، بل اتضح أنه قارئ نهم لكتاباته اللاذعة المناوئة للحكومة. وبفضل موقعه السامي كعضو من أعضاء آل رومانوف، تمكن من الحصول على جميع النسخ غير الخاضعة للرقابة التي كان ينشرها تشيرتكوف في إنجلترا. واستغل تولستوي مصادفة لقائه بالدّوق الكبير ليكتب رسالة مطولة أخرى يرسلها من خلاله إلى نيكولاي الثاني خشية ألا يراه مجددا. وقد وافق الدوق بشجاعة على إيصال الرسالة. رفع تولستوي في رسالته الألقاب وبروتوكول التخاطب الرسمي فبدأها بـ«أخي العزيز». وبعد عتابه له بسبب ارتفاع وتيرة مراقبة الشرطة وتدخل الرقابة والاضطهاد الديني إلى مستويات غير مقبولة، شكك تولستوي في فكرة أن الأرثوذكسية والأوتوقراطية قدران محتومان على روسيا ومنظومتان روسيتان أصليتان. فقد أشار أولا إلى ازدياد أعداد أولئك الذين يهجرون الكنيسة ويعتنقون عقائد أخرى رغم مخاطر تعرضهم للاضطهاد. بعدها، أعلن تولستوي أن الأوتوقراطية نظام حكم بالٍ ومفلس. واعترف أن السلطات القيصرية ربما احتفظت باحترامها وبريقها في ظل حكم نيكولاي الأول، لكن بريقها خفت وتفككت وتشظَّت خلال الخمسين سنة منذ وفاته، لدرجة أن الناس من جميع الطبقات ينتقدون الآن على الملأ ويسخرون من القيصر نفسه (أي نيكولاي الثاني الشخص الذي يخاطبه في هذه الرسالة!):

«ربما أصبحتَ مضلَّلاً واغتررت بنفسك بسبب جموع الناس التي تركض خلف موكبك وتصرخ «هورا!!!» في موسكو والمدن الأخرى، ولم تعد تفرّق بين حب الناس للأوتوقراطية وحبهم للقيصر الذي يمثّلها. لا تحسب أن ذلك تعبير عن تفانيهم من أجلك وحبهم لشخصك، فهم ليسوا إلا غوغاء فضوليين يلهثون وراء أي مسرحية أو مشهد يلفت الأنظار».

ما من أحد بخلاف امرئ يملك سلطة كسلطة القيصر يجرؤ على مخاطبة رئيس الدولة، الإمبراطور، بهذه اللغة. أما حقيقة أن القيصر نيكولاي الثاني كان قد تعهَّد بعدم إظهار تلك الرسالة على أحد؛ كما شهدت بذلك خليلة الدوق الكبير نيكولاي ميخائيلوفتش، الأميرة إلينا بارياتينسكايا التي تربطها قرابة دم بتشيرتكوف، فهو مصداق لحقيقة أن تولستوي وتشيرتكوف كانا ما يزالان يتمتعان بنوع من الحظوة والحماية في البلاط الإمبراطوري.

وعندما مرض تولستوي مجددا في يناير/ شباط عام 1902، شهدت البلاد طفرة في التقارير القادمة من المجمع الكنسي ووزارة الشؤون الداخلية ولجنة الرقابة، تُعبِّر عن خشية جميع الموظفين في تلك المؤسسات من احتمال حدوث عصيان مدني أو ربما سيناريو أسوأ. وهكذا، وضع بوبيدونوتسيف خطة تقضي بإرسال قسيس إلى آل تولستوي لمحاولة إقناعه بالعدول عن أفكاره في اللحظات الأخيرة. كما أصدر رئيس لجنة الرقابة تعليمات تحظر نشر صور تولستوي في الصحف إلا بعد مماته. وأرسل المطران أنتوني رسالة إلى تولستوي يناشده فيها العودة إلى أحضان الكنيسة. ومن البدهي القول إن تولستوي لم يكن مهتما. وقد تعافى بعدها بفضل رعاية عدد لا بأس به من الأطباء وزوجته وبناته وزيارات متكررة من بقية أعضاء الأسرة والأصدقاء، الذين التقوا جميعا في جاسبرا في القرم وهم يعتقدون أنهم يزورونه للمرة الأخيرة. وعاد إلى منزله في يونيو، واستقر في ياسنايا بوليانا هو وصونيا على نحو دائم. والتقى في إيابه بحشد من المودّعين في محطة خاركوف فاق عدد المستقبلين في ذهابه في المحطة نفسها. ولم يُمضِ تولستوي فصول الشتاء في موسكو بعد الآن وفقا لنصيحة الأطباء، وقد سُرّ هو شخصيا لذلك. وبمشورة من الأطباء أيضا، نُقل مكتبه إلى الطابق العلوي في غرفة أوسع وأكثر إنارة تتصل بشرفة بالقرب من غرفة نومه التي كانت تدخلها الشمس دائما.

لم يلن تولستوي كثيرا عندما أصبح عجوزا. ففي خريف عام 1902 شنَّ هجوما مكتوبا لاذعا على جميع رجال الدين المسيحي من جميع الطوائف في رسالة عنوانها «إلى رجال الدين»، على أمل أن يُظهر لهم الضرر الذي تسببوا به، كما شرح لشقيقه.

شكلت إذن رسالة «إلى رجال الدين» التي أرسلها إلى تشيرتكوف ونشرتها دار الكلمة الحرة عام 1903 مثالا يعكس موقف تولستوي من رجال الدين وحديثه إليهم «رجلا لرجل»، بصرف النظر عن مركزهم ومكانتهم. لقد كانت خطبة تولستوية عصماء كلاسيكية:

«أنتم تعلمون بأن ما تُعلّمونه للناس عن خَلق العالم واستلهام الإنجيل من الله وأمور أخرى كثيرة ليس صحيحا. فكيف يمكنكم إذن تعليم ذلك للأطفال الصغار والبالغين الجهلة الذين يَصبون إليكم للتنوير الحق؟! فكروا في هذا بصرف النظر عن مكانتكم؛ سواء كنتم آباء أو كرادلة أو رؤساء أساقفة أو أساقفة أو أوصياء أو قساوسة أو رهبان أو خوارنة. وإذا كنتم تنتمون إلى رجال الدين الكثيرين لسوء الحظ والمتنامية أعدادهم باستمرار في أيامنا، الذين يرون بوضوح أن تعاليم الكنيسة لاعقلانية ولاأخلاقية وبالية، والذين، من دون الإيمان بها، يستمرون في الدعوة إليها بسبب دوافع شخصية؛ كالرواتب التي يتقاضاها القساوسة والأساقفة، فلا تُعزُّوا أنفسكم بافتراض أن أنشطتكم مبررة لأنها تصب في مصلحة الجماهير الذين لا يفهمون بعد ما تفهمونه».

شن الأب إيوان من كرونستاد على الفور هجوما مضادا لاذعا مشهورا. فبينما كان الصحفيون يُشبّهون تولستوي بإيليا الموروميتي؛ أعظم محارب أسطوري روسي قروسطي (بوغاتير)، الذي كان معروفا بالقيام بأعمال بطولية فذة أسطورية، كان الأب إيوان يعتبر ليو تولستوي ضرغاما مفترسا يشبه الشيطان (بطرس، 5:8). وبما أن قليلا من المؤمنين الأرثوذكس كانوا قادرين على قراءة مقالة تولستوي المحظورة، فقد وفر الأب إيوان مُلخَّصا عن محتواها كالتالي:

«ما من كمال روحي علوي سام، بحسب رأي تولستوي، ينعكس في تجليات الفضائل المسيحية، كالبساطة والتواضع وصفاء القلب والعفة والتوبة والإيمان والأمل والحب بالمفهوم المسيحي؛ فهو لا يعترف بالتجارب المسيحية، ويضحك من القداسة ويهزأ من الأشياء المقدسة؛ فهو يؤمن بأنه إنسان خارق. وقد اغتر بنفسه فأصبح يركع لها وكأنها معبود.

يقول: أنا من يُلهم ذاتي ولا أحد سواي، وأنتم جميعا على خطأ. أنا من كشف النقاب عن الحقيقة وأنا من يُعلّمها للجميع! أما الإنجيل فاختراع وقصص وأساطير وحكايات جنّ بالنسبة له. لذا، أيها المؤمنون الأرثوذكس، هل تعلمون من هو تولستوي؟ إنه ضرغام يزأر (ليف روكايوشتشي) ويطارد فريسته لالتهامها. وكم من الناس قد التُهم من خلال صفحاته المغرية!! أوصيكم بالحذر منه».

لا شك أن تولستوي كان على دراية بوجود الأب إيوان لكنه لم يكن يعيره أي اهتمام، وربما كانت السنة التي نشر فيها تولستوي مقالته «إلى رجال الدين» ذات دلالة خاصة لأنها كانت السنة نفسها التي احتُفي فيها بتطويب سيرافيم الساروفي (1759-1833)، أول وأعظم الشيوخ الأولياء الروس. فقد حضر الاحتفالات نيكولاي الثاني والإمبراطورة ألكسندرا ونصف مليون حاج. أما حقيقة تطويب عدد كبير من رجال الدين على نحو مفاجئ في حقبة نيكولاي الثاني، فمصداقٌ لنظرية مفادها أن ثمة خطة كانت ماضية على قدم وساق في تلك الحقبة لبث الروح في الوطنية والولاء للملكية. وكانت تلك هي السنة التي أُقفلت فيها أبواب الرابطة الفلسفية الدينية أيضا وللسبب نفسه. فقد وجدت الكنيسة والحكومة توحيد الشعب الروسي أمرا صعبا، لا سيما في خضم تنامي السخط وانتشاره في ربوع البلاد؛ ذلك أن الفلاسفة والشعراء ونقاد الأدب والشخصيات العامة الذين كانوا يترددون على اجتماعات الرابطة، كانوا يدخلون في نقاشات مع رجال الدين، وشعرت الحكومة أنها حامية الوطيس بشكل لا يتناسب مع الفترة العصيبة والتوترات القائمة أصلا.

لقد أصبح الوضع السياسي في روسيا على شفا الانفجار بالفعل بحلول عام 1904، ففي التسعينيات من القرن التاسع عشر غيرت مجموعة ماركسية راديكالية ملتزمة بالثورة من تكتيكاتها التي بدأتها بنشر البروباغندا في صفوف العمال الجدد المظلومين في المعامل، إلى شغب عارم واسع النطاق؛ مما سبب موجة من الإضرابات أفضت إلى توحيد القوى جميعها لتشكل حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الذي فشلت جهود الشرطة في تدميره. أنهى

فلاديمير أوليانوف عام 1900 حكم السجن الذي أمضاه في منفاه في سيبيريا وغادر إلى خارج البلاد، ثم اقترح في منشور دعائي عنوانه «ماذا يجب فعله؟» (يجب أن لا نخلط بينه وبين عملين بالعنوان نفسه لتشيرنيشيفسكي وتولستوي)، بعد أن أسّس مجلة وتبنّى اسمه الجديد «لينين»، اقترح تأسيس حزب منضبط من الثوار المحترفين العتاة المتشددين. وقد أسهم نشر هذا المنشور الدعائي عام 1903 بانقسام حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي إلى البلشفيين والمِنشفيين. وبخلاف دعوة الأحزاب الليبرالية إلى ضرورة الإصلاح، واجهت الحكومة الروسية عام 1904 تهديدات مستمرة لأنشطة إرهابية من قِبل مجموعات ثورية مختلفة، بالإضافة إلى ازدياد الاضطرابات على يد الفلاحين وارتفاع وتيرة الإضرابات العامة في المعامل في المدن. ومما زاد الطين بلة وفاقم من السخط والامتعاض، ما قامت به الحكومة من اقتراف مجازر بشعة بحق اليهود (وقد تحدث عنها تولستوي أيضا وعارضها بشدة)، واستمرارها في اضطهاد الأقليات الدينية، ووقوفها في صف أرباب العمل على حساب العمال. وبينما كانت البلاد تشهد وضعا داخليا متأزما، أخذت الحرب التي اندلعت ضد اليابان في يناير عام 1904، الجميع على حين غرة.

وضعت الحرب الروسية اليابانية الكارثية في نهاية المطاف حدا للعنجهية الإمبراطورية الروسية. فقد ضرب الركود وزارة الخارجية والقوات المسلحة في ظل حكم نيكولاي الثاني؛ إذ كان بمقدور السفير البريطاني إلى روسيا أن يأخذ إجازة سنوية طويلة من سبتمبر لغاية ديسمبر من دون أن يشعر بالإحراج. وكان موظفو الوزارة يأتون إلى دوامهم عند الظهر ويغادرون في الرابعة عصرا. واستفحل الركود بسبب الاستكانة غير المبررة؛ فقد كان شعور روسيا بالتفوق إزاء اليابان مبالغا فيه لدرجة أنها عندما أبرمت اتفاقاً مع الصين (لقاء أجر) يسمح لها بالتوسع في الأقاليم الشمالية الشرقية عام 1898 وصولاً إلى ميناء آرثر، صرّح وزير الخارجية نيكولاي مورافييف أن عَلَما واحدا وحارسا وحيدا كفيلان بتأمين ميناء آرثر، فالهيبة الروسية كفيلة بالباقي. لكن الانطباع القائم على أسس واهية بشأن القوة الروسية كان على وشك مجابهة تحدٍّ

خطير. فبعد أسابيع من وصول الأدميرال ماكاروف إلى ميناء آرثر، قضى الرجل مع جميع أفراد طاقمه عندما ارتطمت سفينته الروسية المشهورة بيتروبافلوفسك بلغم ياباني. شعر تولستوي بالقلق الشديد عندما اندلعت الحرب وطغت عليه المشاعر الوطنية التي لم يستطع قمعها، وبدأ التردد على تولا مرات عدة في الأسبوع لكي يقرأ أحدث البرقيات. وما لبث كعادته أن أمسك بالقلم وبدأ كتابة مقالة عنوانها «توبوا بأنفسكم»، حثَّ فيها رفقاء الوطن على تذكّر النصوص الإنجيلية الواردة في إنجيل لوقا (13:5): «كلا أقول لكم؛ بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون». وصمم على أن الحرب تتنافى مع تعاليم المسيح وبوذا شاجباً العنف الوحشي المستهتر الذي لا مبرر له:

«نقول إن حروب اليوم ليست كحروب الأمس، فنحن بعيدون تماما عن أكل لحوم البشر الذي كان يستشري في صراع الأمم السابقة. لكنه ما يزال موجودا بأشكال مختلفة. فكيف يمكن أن نُشخّص تدمير الأسطول وحصار ميناء آرثر؟ متى شهدت الإنسانية رعبا كهذا؟ من أين نأتي بسابقة شبيهة بتلك المذبحة المرعبة؟ فقد زَهَقَت لغاية الآن 200 ألف روح في هذا الصراع الأهوج الوحشي».

ترجم تشيرتكوف هذه المقالة إلى الإنجليزية ونشرها في صحف مختلفة في أرجاء أوروبا، مما استفز البعض ودفعهم إلى مراسلة تولستوي واتهامه بفقدانه للحس الوطني، لكنَّ كثيرين آخرون عبَّروا عن تعاطفهم معه.

لكن سنة 1904 كانت في عمومها قاتمة بالنسبة لتولستوي. ومع أنه لم يكن يتسامح كثيرا مع أولئك الذين يتبنون العقيدة الأرثوذكسية، إلا أنه شعر بالأسى العميق لدى سماعه نبأ وفاة قريبته ألكسندرا أندريفنا تولستايا في مارس من تلك السنة. فبعد لقائهما الفاتر عام 1897 لم يتواصلا معا بشكل وافٍ، لكنهما تصالحا في السنة التي سبقت وفاتها وهي في سن السابعة والثمانين. فقد شكرها في رسالته الأخيرة التي بدأها بـ«عزيزتي الطيبة. صديقتي القديمة ألكسندرين»، شكرها على صداقتها التي امتدت لنصف قرن. وفي يوليو/ تموز خسر

تشيرتكوف معركته مع مرض السّل وهو في عمر الرابعة والأربعين. وفي أغسطس، أُرسل ابنه المتمرد المشاكس أندريه إلى جبهة القتال (بعد امتعاض تولستوي من وجوده في الجيش أصلا). وبعد أسبوعين توفي شقيق تولستوي الأكبر سيرغيه بمرض السرطان بعد أن عاش حياة منعزلة هادئة تعيسة؛ إذ كان مستاءً من حظ أطفاله الأربعة ومن زواجه بشخص من خلفية اجتماعية مختلفة تماما، وأمضى بالتالي آخر أيام حياته في كرب وعذاب. ذهب تولستوي إلى عزبة بيراغوفا ثلاث مرات في صيف 1904، ولعب دورا فعالا في الإيفاء برغبة شقيقته وزوجة سيرغيه لتناول القربان المقدس قبل وفاته. وقد فاجأهما ذلك رغم معرفتهما بعدم اكتراثه بهذه الطقوس.

وعندما سقط أخيرا ميناء آرثر في يد اليابانيين في ديسمبر عام 1904، شعر تولستوي بالجزع والقنوط بعد أن لازم الفشل رحلة أسطول البلطيق الإمبراطوري التي قطعت نصف العالم (18 ألف ميلا) بقيادة الأدميرال روجديستفينسكي. فبعد مغادرة سانت بطرسبورغ في أكتوبر، فتح كابتنٌ مخمور النيران على سفن صيد بريطانية في بحر الشمال معتقدا أنها زوارق طوربيد يابانية، واكتشف أنها فرقاطة روسية أخرى، تنتمي إلى ما أصبح يعرف بالأسطول الروسي المسعور، وكانت تبحر في نهر التايمز بسبب خطأ ملاحي فني. وفي اليوم التالي من وصول الأسطول إلى المحيط الهادئ في مايو من عام 1905، دمرته القوات اليابانية عن بكرة أبيه في معركة تسوشيما. وكانت تلك الهزيمة المهينة الأخيرة التي وضعت نهاية للحرب.

تابع تولستوي جميع تلك الأحداث برعب من ياسنايا بوليانا، وكان مذعورا عندما اندلعت أعمال العنف بالقرب من المنزل. فقد كان اتساع نطاق المشاكل الداخلية في البلاد مصداقا لعدم دعم الشعب للحرب مع اليابان، كما اتضح من خلال اغتيال وزير الشؤون الداخلية في يوليو من عام 1904. وقد أدى تلكؤ نيكولاي الثاني في إجراء الإصلاحات إلى اندلاع الثورة في اليوم المشؤوم «الأحد الدامي» في التاسع من يناير عام 1905، عندما أطلق جنود القيصر النيران على موكب من العمال العُزَّل كانوا يحملون عريضة إلى القصر الشتوي. وقد خلَّفَ

ذلك اضطرابات عارمة وإضرابات جماهيرية في جميع أرجاء روسيا، بالإضافة إلى اغتيال الحاكم العام لموسكو، الدوق الكبير سيرغيه ألكسندروفيتش، في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، وهو الشخص الذي كان قد استقبل صونيا إبان المجاعة عام 1892. صُعق تولستوي واعترف أن تلك الأنباء أثرت سلبيا على حالته الصحية.

ومن بين الاضطرابات والانتفاضات التي تبعت ذلك، كان التمرد الذي حصل في يونيو عام 1905 على متن السفينة الحربية «بوتيومكن» في مدينة أوديسا. وربما بعد ندمه وعدم أخذه بنصيحة تولستوي الجريئة ومناشدته الشخصية عام 1902، أُرغم القيصر نيكولاي الثاني على التنازل عن حكمه الأوتوقراطي. فأصدر في أكتوبر بيانا تاريخيا وعد فيه بمنح الحقوق المدنية واستحداث مجلس تشريعي وطني (الدوما) ومنع الرقابة وتعزيز التسامح الديني وحرية تأسيس الأحزاب، بالإضافة إلى إصداره عفوا عاما.

وقد أثرت ثورة 1905 على تولستوي تأثيرا مباشرا؛ لأن أعماله المحظورة أصبح بالإمكان نشرها فجأة، رغم أن إجراء الإصلاحات استغرق وقتا لا بأس به. أما مقالته الجديدة «مناشدة للشعب الروسي» التي ندد فيها، على نحو متوقع، بالحكومة والثوار على حد سواء، فقد صادرتها الشرطة قبل أن تُوزَّع في مارس من عام 1906. لكنها طُرحت للبيع بحرية في سوق سانت بطرسبورغ في نهاية السنة، عندما نشرتها دار الكلمة الحرة التي نقلها تشيرتكوف في تلك السنة إلى سانت بطرسبورغ. كما طرحت بعدها عشرات من أعمال تولستوي السابقة الممنوعة، بينما انتقل ليكتب مقالته التالية: «مغزى الثورة الروسية». وفي مارس 1906 حصل تشيرتكوف على إخطار رسمي يسمح له بالعودة إلى روسيا، لكنه كان قد زار البلاد لمرة واحدة قبل ذلك. ففي خضم اضطرابات عام 1905 حصلت والدة تشيرتكوف المتنفذة على موافقة من القيصر للسماح لابنها بزيارة البلاد لثلاثة أسابيع والقدوم ليس إلى بطرسبورغ فحسب، بل إلى ياسنايا بوليانا أيضا. لقد كانت مناسبة مفرحة للغاية، حتى إن صونيا كانت سعيدة بلقاء تشيرتكوف. ولم يفكر تشيرتكوف بالعودة إلى روسيا للاستقرار فيها بسبب حالة زوجته

الصحية والراحة التي وجدها في البيئة الإنجليزية وتوسع نطاق أعمال النشر فيها. لـذلك أخـذت العملية منحى تدريجيا استغرق بضع سنوات.

ومنذ مرضه عـام 1902 أصبح العيش في ياسـنايا بوليانـا هادئا وادعـا إلـى حـد مـا، رغـم أن تولستوي كان يكـره التـنعم ببيئـة الـترف التـي يوفّرهـا منـزل أجـداده؛ كـأن يُقـدِّم لـه الطعـام خـدمٌ يلبسون قفازات بيضا، وأراد أن يغادر لكنه مع ذلك مكث فيه. ورغـم رغبتـه العلنيـة في مزاولـة حياة العزلة، إلا أن ذلك لم يكن ممكنا. فقد عاد بيرياكوف من المنفى في ديسـمبر عـام 1904، وكان في طور إتمام سيرة تولستوي الذاتية التي خوَّله بها صاحب السيرة الذي أتيحت له الفرصة الآن لقراءة المخطـوط والإجابـة عـن أسـئلة الكاتـب قبـل أن يجهِّـز العمـل للنشـر. كمـا وصـل الطبيب السلوفاكي دوسان ماكوفيكي في الشهر نفسه من العام نفسه، ومكث في ياسـنايا بوليانـا بصفة طبيب تولسـتوي الخـاص، وتقاضـى راتبـه مـن تشـيرتكوف الـذي تواصـل معـه باسـتمرار للسؤال عن صحة صديقه وأمور كثيرة أخرى. كان ماكوفيكي من أنصـار تولسـتوي المخلصـين الذين كانوا يعبدون الـتراب الـذي يمشـي عليـه شـيخ ياسـنايا بوليانـا. وكـان قـد قـدِمَ إلـى ياسـنايا بوليانا في أول مرة عام 1894، وكان يمسك بقلم رصاص ويحتفظ بـدفتر علـى الـدوام ليسـجّل عليه كل ما يقوله تولستوي. وكان تشيرتكوف مهتما أيضا بمشروع جمع أقـوال تولسـتوي. وقـد بدأه بالفعـل عـام 1889 واسـتمر فيـه لغايـة عـام 1923 عنـدما تـوفي منفـذ المشـروع الـذي عيَّنـه ليتولى مهمة جمع أقوال الشيخ. وقد جمع بحلول تلك السنة 25 ألف فكرة متنوعة، وفي بعـض الأحيان تافهة، سُجِّلت جميعها في ملف ضخم.

في الآن نفسه، بدأت صونيا بكتابة محتـوىً تبـيّن أنـه روايـة طويلـة للغايـة عـن حياتهـا كزوجـة لـذلك العبقـري، كمـا وضـعت لائحـة جـرد بمحتويـات مكتبـة ياسـنايا بوليانـا الهائلـة، وبـدأت توضـيب أرشـيف زوجهـا. وفي عـام 1904 اضـطرت لنقـل كـل شـيء مـن مكتبـة روميانتسـوف (حيث وضعت مخطوطاته في البداية) إلى متحف التـاريخ بـالقرب مـن السـاحة الحمـراء؛ لكـي تهتم بأمور النشر خلال رحلاتها إلى موسكو. بالإضافة إلـى أنهـا كانـت تُمضـي الصـباح في نسـخ

المواد التي تحتاجها. كانت صونيا مشهورة بكونها تعاني من قِصَر النظر (ثمة صورة لها وهي تحضر محاضرة عن فن التصوير وتجلس بالقرب من المحاضر عند قدميه تقريبا)، واشتُهرت أيضا بفقدانها لحس الدعابة (فمشاكلها المتكررة في السابق مع تشيرتكوف جعلت منها امرأة باردة المشاعر)، كما اشتُهرت بانشغالها الدائم. بالإضافة إلى أنها، كزوجها، لم «تتقاعد» وأصبحت مصوِّرة بارعة واكتسبت مهارة الرسم أيضا. وكانت تستمتع بكونها جَدّة. في عام 1905، وبعد حالات إسقاط عدد من الأجنة، أنجبت ابنتها تانيا بنتاً، سمتها تانيا أيضا، واتخذت اسم أمها عوضاً عن اسم أبيها في اسمها الثلاثي احتراما لإنجازها البطولي إذ أصبحت أماً. فأصبحت إذن «تانيا تاتيانوفنا» حفيد تولستوي الخامس عشر وكانت تحظى بحب الجميع.

اختفى الانسجام الخطير الذي طغى على أسرة تولستوي بعد عودتهم من القرم بحلول نهاية 1906. وقد وفر لنا الكاتب الياباني توكوتومي روكا لمحة رائعة عن الحياة الطيّبة في ياسنايا بوليانا قبل تدهور الأمور لاحقا. فقد أمضى خمسة أيام في العزبة في يونيو وكتب رأيه في تلك الزيارة. وصل روكا قبيل زواج سيرغيه الثاني (وكان عمره 43 عاما)، وكان روكا من أكثر التابعين المخلصين لتولستوي في الإمبراطورية اليابانية، فقد انجذب إلى فلسفته الدينية وأعماله الروائية على حد سواء. وكان يتناول الحياة بجدية كما كان يفعل تولستوي، وكانا يتحدثان إلى بعضهما بعضا بالإنجليزية. قابل توكوتومي، بخلاف بطله الذي وجده كما توقعه فبدا «أن سنواته السبع والثمانين قد حولته إلى رجل عجوز واهن»، قابل جلّ أفراد الأسرة: صونيا (نظرة عينيها كانت تفتقد إلى الجاذبية)، وماشا (مريضة وهزيلة)، وزوجها نيكولاي (لطيف الصوت والصفات، يجسد الذكر السلافي المتشبه بالنساء/ المتخنث)، وساشا «المرحة» (وزنها يقارب 170 رطلا)، وليف وزوجته السويدية دورا، وأندريه الذي كان منفصلا عن زوجته، وميشا. ومن بين أولاد تولستوي تعرف توكوتومي إلى ساشا عن قرب أكثر من غيرها، وقد وجد نفسه في بعض الأحيان غير قادر على تحملها. ففي إحدى المرّات رآها تركب دراجة هوائية وتطير

من أمامه مسرعة وكأنها عاصفة (بالنظر إلى حجمها كنت متأكدا أن الدراجة ستتحطم تحتها). وقد اعتنى توكوتومي أيضا بوصف كلاب الأسرة الأربعة التي كانت موجودة عند طاولة الطعام في الخارج تحت شجرة القيقب: جرو سيبيري أبيض، وثانٍ بُنّي للصيد من نوع البوينتر، وثالث أيرلندي أسود من نوع الساطر، ورابع أبيض وأسود من نوع سبانييل.

رافق توكوتومي تولستوي في جولات سباحة ونزهات مشي، ولاحظ أنه لا ينسى مطلقا ربط سلسلة ساعته الفضية بحزامه، ويأخذ معه دفترا وقلم رصاص بداخله. وخلال إحدى النزهات في الغابة أطلع تولستوي ضيفه الياباني على رأيه في الكتاب الروس من أمثال تورغينيف الذي وصف أعماله بأنها «فائقة الجمال وقليلة الغور»، وأعمال غوركي بأنها «عبقرية لكنها ليست للتعلم»، وعكس ذلك أعمال ميرزكوفسكي «للتعلم وليست عبقرية»، أما تشيخوف فجمع بين العبقريتين. وفي الجزء الأخير من وصف زيارة توكوتومي إلى ياسنايا بوليانا، الرواية التي تتخللها أحيانا بعض عناصر الرهبة من المضيّف، يصف توكوتومي كيف أنه جلس في مكتب تولستوي وكيف راقبه وهو يتنفس بصعوبة، بينما كان يكتب له خطاب المرجعية مستخدما قلم ريشة الوز ومُقطِّبَ الحاجبين الكثيفين. علق توكوتومي على كاريزما تولستوي الساحرة قائلا: «لعمري إنه أصبح نبياً في سنواته الأخيرة. ومع أن جسده يذبل يوما بعد يوم، إلا أن ناراً مستعرة تضيء ما في داخله. فمجرد رؤيته كفيل بإلهام الناظر إليه بشعور الرهبة وتجعله ينوح بمرارة». تلك الكاريزما التي كانت تؤثر حتى في أولئك الذين لا يؤمنون برسالته الدينية، وكثير منهم كانوا من الزوار الأنغلوسكسونيين المتشككين الذين وجدوا أنفسهم مأخوذين بحضور تولستوي الحسي أمامهم ومتفاجئين بصدقه العميق. وبعد أن انتهى تولستوي من كتابة الخطاب ووضع الريشة على الرف، حمل قنديلا ليُري توكوتومي الصور المعلقة على الجدران؛ صور هنري جورج وشقيقه سيرغيه وويليام لويد جاريسون وسيوتاييف وإعادة إنتاج للوحة رافائيل؛ «عذراء سيستين»، مقسمة على خمسة ألواح كانت قد أعطتها له شقيقته ماريا. وقبل أن يفترقا أظهر تولستوي على ضيفه مجموعته المحببة له «دائرة القراءة»؛ وهي عصارة

أفكار الحكماء من البشر جمعها من طيف واسع من المصادر، بما في ذلك أعماله الشخصية، وأدرج حِكَما فيها عن كل يوم في السنة.

بدأت المشاكل في ياسنايا بوليانا بعيد رحيل توكوتومي. فمثلاً، اعترف ليف وأندريه لوالديهما بأنهما يساندان فكرة عقوبة الإعدام، ما أدى إلى مشاجرة مروعة تخلّلَها طرق عنيف لأبواب تعبيرا عن الغضب وسخونة النزال الفكري. وشعر تولستوي بغضاضة امتدت ليومين، وبعد أسابيع قليلة عاد إلى حزنه مجددا لأن صونيا أصرت على رفع قضية في المحكمة ضد الفلاحين الذين قطعوا بعض أشجار البلّوط في غابتهم. عندها، هدد تولستوي بمغادرة المنزل. وفي أغسطس عندما بلغت من العمر 62 سنة، مرضت صونيا مرضا شديدا وشارفت على الموت. وقدِمَ في سبتمبر أربعة أطباء لعلاجها فخضعت لعملية استئصال الورم الليفي الذي كان قد سبب التهاب الصفاق (الأحشاء) لديها. وبما أن بُنيتها كانت قوية، كبنية زوجها، فقد تعافت من المرض بأعجوبة، لكن ماشا البالغة من العمر 35 سنة لم تكن محظوظة كأمها. فبعد أن عانت من نزلة برد في نوفمبر تُوفِّيت بين ذراعي أبيها. ويُذكَر أن ماشا كانت البنت المقربة لأبيها أكثر من أي من بناته وأبنائه الآخرين. وقد شعر تولستوي بخواء رهيب بعد فقدانها.

أمضى تشيرتكوف بضعة أسابيع بالقرب من ياسنايا بوليانا في صيف عام 1906، ثم عاد مع أسرته ليمضي الصيف بأكمله عام 1907. ولم تكن صونيا في هذه المرة سعيدة بوجود تشيرتكوف كما كان زوجها، وقد بيّنت امتعاضها. وسببت مشاكل أخرى عندما أصرّت على توظيف حراس في ياسنايا بوليانا بعد أن داهم بعض الفلاحين حديقة الخضروات وسرقوا بعض الملفوف. فاستُقدم بالتالي شركسيٌّ مسلحٌ ووُظِّف حارس أمن، لكنه لم يَرُقْ لسكان القرية مما سبب ألماً إضافياً لتولستوي. وهكذا لم يختلف ضنك خريف 1907 عن سابقه عام 1906. واستفحل التباعد بين الزوجين، لا سيما عندما وظّف الرجل الجادّ تشيرتكوف شاباً طيب الخلق اسمه نيكولاي غوسيف سكرتيراً لدى تولستوي. ودفع تشيرتكوف مبلغ 50 روبل شهريا لغوسيف لقاء مساعدته تولستوي في ترتيب مراسلاته الهائلة. لكن صونيا امتعضت

من الأمر لأن عضواً جديداً لا ينتمي إلى أسرتها استقر في ياسنايا بوليانا وأصبح مطَّلِعـاً عن كثب على أفكار زوجها. وصل غوسيف في سبتمبر عـام 1907، وسكن في غرفـة في الطـابق العلـوي سُمِّيت «الريمنجتونية» نسبة إلى طابعة ريمنجتون التي وُضـعت مؤخرا فيهـا. واعتُقـل غوسـيف بعد شهر من وصوله بتهمة توزيع منشورات ثورية محظورة وأودع في سجن تولا لشـهرين. فقد استأنفت الحكومة تكتيكاتها السابقة في استهداف أتباع تولستوي، رغم أن تولستوي شخصيا هو من كان يصوغ المنشورات الثورية الدعائية المناهضة للقيصر.

وكان زواج أندريه الثاني أمراً إضـافيا فـاقم من قلـق تولسـتوي في ذلـك الخريـف؛ فقـد انهـار زواجه الأول الذي جمعه بأولغا ديتيريخس، شقيقة زوجة تشـيرتكوف، بعيـد إنجـاب طفليهمـا. لكن تولستوي استاء أشد الاستياء لأن ابنه المذكور كان قد أقام بعـد انفـراط عقـد زواجـه علاقـة مع زوجة حاكم تولا. فقد تخلَّت كاترينا آرتسيموفيتش عن أطفالها الستة وعـن زوجهـا، لتلهـث وراء شـغفها وتتـزوج عشـيقها أندريـه في نـوفمبر وهـي حامـل بطفلـه في شـهرها السـادس. واجـه العاشقان صعوبة في إيجاد قسيس يعقد قرانهما. وعندما حصل أندريـه علـى الطـلاق مـن زوجتـه الأولى، هُرع العاشقان تحت جناح الليل إلى أبرشية ريفية نائيـة ليتزوجـا فيهـا قبيـل انـبلاج فجـر صوم الميلاد الذي يمتد لأربعين يوما. وقد كان أندريه، الذي لم يرَ أباه كثيرا عندما كـان يترعـرع في المنزل، زيرَ نساء؛ فما لبث أن خان زوجته الثانية مع حسناء أخرى.

لقد مثَّلَت عـودة تشـيرتكوف خـلال السـنوات الأخيـرة مـن عمـر تولسـتوي سـعادة قصـوى بالنسـبة لـه، بعكـس مـا مثلتـه لصـونيا. وكـان تشـيرتكوف يعمـل بـلا كلـل أو ملـل إبّـان إقامتـه في إنجلترا. ففي عام 1900 انتقل من إسكس إلى كرايست تشـيرش في هامشـاير (تسـمى دورسـت الآن)؛ وهي بلدة وادعة لطيفة تقع على ضفة نهر ستوور. وكانـت والدتـه تملـك سـكنا فارهـا في ساوث بورن القريبة (حيث توفيت مفلسة عام 1922 عن عمـر نـاهز التسـعين) واشـترت لابنهـا آنئذ منزلاً رحبـاً بثلاثة طوابق وحديقة واسعة، ومبنى آخر على شـارع إيفـورد ليحتـوي المطبعـة ودار النشر. أما مستوطنة بورليه فقد تفككت جزئيا بسبب أوتوقراطية تشـيرتكوف (فقـد تشـاجر

مع كينوُورثي وَمود وخيلكوف). وانتقل بعض أتباع تولستوي إلى كوتسوُولد حيث أسّسوا مستوطنة جديدة في وايت واي (الوحيدة الموجودة إلى يومنا هذا). لكن المركز الرئيسي للتولستوية في بريطانيا غدا الآن منزل توكتون؛ أي مسكن تشيرتكوف في كرايست تشيرش. واستمر صدور المنشورات باللغة الروسية عن دار الكلمة الحرة رغم أن تشيرتكوف كان قد أسس أيضا دار العصر الحر لينشر الترجمات الإنجليزية لأعمال تولستوي. وفي السنوات الثلاث الأولى، قبل أن يتشاجر مع مديره، آرثر فايفيلد (الذي كان سكرتير كنيسة الأخوة سابقا)، أنتجت الدار 43 عملا منشورا بنسخ وصلت إلى 200 ألف. كما كانت المنشورات باللغة الروسية مبهرة أيضا، ففي عام 1902 بدأ تشيرتكوف نشر النسخة الروسية الأولى لأعمال تولستوي الكاملة التي كانت محظورة في روسيا، من إصدارات دار الكلمة الحرة للنشر.

كما بنى تشيرتكوف قبواً على أحدث طراز يمكن التحكم بحرارته، وذلك لتخزين جميع مخطوطات تولستوي التي كان يرسلها له، بما في ذلك مذكراته النفيسة. وقد عيّن تشيرتكوف لودفيغ بيرنو حارساً على القبو؛ وهو ثائر أستوني كان يعيش في المنفى في وقت سابق وعاد الآن ليسكن في بلدة قريبة تسمى بسكومبي. وقد قطع على نفسه وعداً ألّا يترك المنزل من دون حارس. وبخلاف العديد من المنفيين السياسيين الذين كانوا يُراقَبون من قِبل جيش من العملاء والمخبرين، زاول تشيرتكوف حياة لم تشُبْها أي تدخلات من الحكومة الروسية. فقد حافظ على مراسلاته المكثفة مع تولستوي خلال سنوات نفيه، واستطاع أن يسافر في أرجاء إنجلترا ويحاضر عن تولستوي، ويتردد أسبوعيا على «لقاءات التقدم بشأن النظر في مشاكل الحياة» في بورنماوث من دون مضايقات. حتى إنه كان يلعب كرة القدم مع فريق كرايست تشيرش المحلي.

وقبل أن يعود إلى روسيا عام 1908 نسَّق عملية نشر، في روسيا وخارجها، لإحدى أهم مقالات تولستوي وأكثرها تأثيرا: «لا أستطيع الصمت». وهي المقالة التي كتبها تولستوي

مباشرة بعد سماعه نبأ إعدام عشرين فلاحا اتُّهموا بمحاولة سطو، وعكس فيها إحدى المناشدات البليغة الفصيحة الجياشة بالعواطف، التي طالب من خلالها الحكومة بالتوقف عن برنامج العنف المنظم المنهجي الذي تتبعه، والذي وصفه بأنه أسوأ من الإرهاب الثوري. وبمجرد نشر المقالة في يوليو، تسلَّم تولستوي ستين رسالة مساندة؛ فقد كانت قدرة الناس في روسيا على قراءة كتاباته الهجومية اللاذعة أمراً لا يزال مستجدا. لكن كثيرا من الصحف تلقت غرامات بسبب نشرها تلك المقالة؛ فقد أُرغمت جريدة المجلة الروسية على دفع غرامة بواقع 3 آلاف روبل، كما اعتُقل رئيس تحرير جريدة في سيباستوبل لتوزيعه المقالة في أرجاء المدينة.

أعاد التفكيرُ في عقوبة الإعدام تولستوي بالذاكرة إلى أحداث عام 1866 عندما فشل في منع إعدام العريف شابونين. وقد أتى لزيارة تولستوي، في أواخر الثمانينيات، جندي سابق كان ينتمي إلى الكتيبة التي كان ينتمي إليها شابونين. وأراد أن يناقش رواية كتبها عن الواقعة وكان يأمل أن ينشرها. لكن تولستوي رفض ذلك مما فاقم من شعوره بالذنب. وفي عام 1908 قرر تولستوي الحديث عن تلك الفترة، لا سيما بعد سؤاله عنها من قِبل كاتب سيرته بيرياكوف. وبينما كان يملي ما حدث عام 1866 على سكرتيره غوسيف انفجر تولستوي بالبكاء ثلاث مرات، وأعلن آنئذ أن إعدام شابونين قد خلَّف عليه وقعاً سلبياً أكثر بكثير مما خلَّفته جميع الأحداث التي تُعتبَر عرفاً أحداثاً مهمة مفصلية؛ كفقدان عزيز أو الفقر أو المرض أو انتكاسات المسار المهني وغيرها. وقد اعترف بأنه يشعر بالخجل من مرافعته نيابة عن شابونين؛ إذ يعتقد الآن بعد مرور فترة طويلة بأنه كان غير مبالٍ أو سطحيا في مرافعته تلك، وكان مهتما بالتفاصيل القانونية أكثر من اهتمامه بالأولويات الأخلاقية. وهذا يتعارض يقيناً مع المرافعة الجياشة التي دافع بها بطل روايته (الأنا الثانية/ الشخصية البديلة) «البعث» نيخليودوف، التي ربما كتبها تولستوي ليخفف جزئيا من وطأة الذنب بشأن قضية شوبانين.

رغم مرور ربع قرن على لقائهما الأول، لم تزل حياة تشيرتكوف تتسم بإخلاص ثابت لتولستوي. ففي عام 1908 استقر تشيرتكوف وأسرته في منزل جديد بناه على أرض ورثتها ابنة

تولستوي الصغرى ساشا في تيلياتينكي، على بعد ثلاثة أميال فقط من ياسنايا بوليانا. وكان تولستوي قد بلغ الثمانين بعيد عودة صديقه.

شعرت الكنيسة حينها بسبب الفيض المتنامي من الدعم الذي تلقّاه تولستوي في جميع أرجاء البلاد، بأنها مرغمة على إصدار مناشدة لجميع المؤمنين بحق ليتجنَّبوا الاحتفال بمناسبة ميلاده الثمانين. كما حاولت أيضا أن تحاكم تولستوي بتهمة التجديف بحق شخصية المسيح المقدسة، وأعدّت أيقونات ليُرسَم عليها تولستوي زنديقا يتلظى بنار الجحيم. كما كتب الأب إيوان، عدوّه اللدود، دعاءً يتضرع فيه إلى الله ليأخذ أمانة تولستوي عاجلا. لكن المفارقة أن الموت خطف الأب إيوان عام 1908 قبل أن توافي المنية عدوّه تولستوي. وهكذا خفتت أصوات معارضي تولستوي القلائل وصدحت أصوات مناصريه الذين كانت أعدادهم كبيرة بالفعل. فقد أرسل المهنئون في الثامن والعشرين من أغسطس ما يقارب ألفي تلغرام إلى ياسنايا بوليانا متمنين له عيد ميلاد سعيدا. كما وصل تشارلز رايت، أمين مكتبة المتحف البريطاني، إلى ياسنايا بوليانا حاملا معه بطاقات معايدة وقّع عليها 800 نفر من الفنانين والكتاب والسياسيين البريطانيين، بمن فيهم جورج بيرنارد شون وإتش جي وَلْز، وإدموند غوس.

أوقف تولستوي أنشطة لجنة احتفاء خاصة أُسست في يناير 1908 بعد أن تسلم أول هدية في عيد ميلاده؛ فونوغراف أرسله له توماس أديسون. لذلك لم تُطلَق مبادرات رسمية احتفاءً بهذه المناسبة، لكن ذلك لم يمنع ظهور كمّ هائل من المقالات في الصحافة. وقد علَّقَ الصحفيون بالقول إن هذه المناسبة الثقافية لم يسبق لها مثيل في تاريخ روسيا، فمع أن الاحتفالات التي نُظّمت احتفاءً بنصب تمثال بوشكين كانت قد دغدغت مخيلة العامة في روسيا وفتنتهم بسحرها عام 1880، فإن هذه المناسبة لاقت أصداء ساحرة خارج نطاق روسيا. صرح ميريجكوفسكي قائلا إن احتفالات تولستوي «هي في الواقع احتفالات بالثورة الروسية»، وأعلن أن تولستوي أصبح رغما عنه «نقطة الارتكاز المشعة والمركز الوضّاء للحرية في روسيا».

بات «ليف نيكولايفيتش» علماً من أعلام روسيا، وأصبح من المعتاد سماع مسافرين في قطار مثلا يتحدَّثون عنه ويناقشون أفكاره وكأنه من معارفهم المقربين. وقد عبَّرت مجلة الكلمة الروسية عن هذا أفضل تعبير احتفاءً بعيد ميلاده الثمانين، من خلال ملصقات تسلسل الصور في ملحقها، إذ بدأت بصورة للـ«كونت ل. ن. تولستوي» عندما كان كاتباً مغموراً، ثم «ليف تولستوي»، وأخيراً «ليف نيكولايفيتش» الاسم العلم المشهور. ومن بين ما نُشر عن ميلاده الثمانين، كانت ثمة بعض الملاحظات الناقدة، من بينها ما كتبه لينين في مقالته الأولى والأشهر عن تولستوي «ليف تولستوي كمرآة للثورة الروسية» التي نُشِرَت في مجلة «البروليتاري». فبينما امتدح هجوم تولستوي على النظام القيصري ندّد لينين، وعلى نحو متوقع، بفلسفته القائمة على مبدأ السلمية/ اللاعنف، وقال إنها السبب في فشل ثورة 1905.

وبالإضافة إلى بطاقات المعايدة وبرقيات التهنئة، تسلَّم تولستوي هدايا؛ بعضها غير حصيف كالهدية التي احتوت على بضعة آلاف من السيجار الموضوع في صناديق أُلصقت عليها صورته. أما الهدية الأنفس من وجهة نظره فكانت بلا شك قرب تشيرتكوف منه. وهكذا، دُعي آل تشيرتكوف وأتباع تولستوي المحليين من أمثال ماريا ألكسندروفنا شميدت، وإيفان غوربونوف – بوسادوف، وأصدقاء وأقارب آخرون، إلى عشاء احتفالي في ياسنايا بوليانا. وقد كان ذلك العشاء الأول والأخير؛ لأن صونيا بدأت في عام 1909 تشعر بجنون الارتياب أكثر من أي وقت مضى، وبدأت تكشّر عن أنيابها في وجه تشيرتكوف. وقد دارت رحى المعركة بينهما بسبب وصية تولستوي ومذكراته الأخيرة. فقد كانت مهووسة بقدر هوس تشيرتكوف بخصوص تركة تولستوي الأدبية، لكنها لم تكن تتمتع بسلطة تضاهي سلطة صديق زوجها المخلص. أما تولستوي، فمع أن مراسلاته مع غاندي عام 1909 قد أثلجت صدره، وأثار تصويره من قِبل زملاء أديسون حماسته، إلا أنه كان يرغب في أواخر حياته في أن يصبح سائحا مشرَّدا أكثر من أي وقت مضى.

تلقى تشيرتكوف في مارس من عام 1909 أمرا بمغادرة تولا. فقد تغيرت السياسة ووجوهها في بطرسبورغ، وفقد تشيرتكوف فجأة كثيراً من معارفه في البلاط القيصري. جزع تولستوي واحتجت صونيا، لكن آل تشيرتكوف اضطروا لمغادرة منزلهم الجديد، وانتقلوا للسكن في عزبة فاسيلي باشكوف القديمة في كريكشينو على بعد 20 ميلا من موسكو. وفي تلك السنة، تدهورت العلاقة بين تولستوي وصونيا إلى حد كبير. فقد اكتشفت أولا مخطوط قصته غير المنشورة، «الشيطان»، التي يتحدث فيها عن شغف إقطاعي شاب بفتاة فلاحة، وهذا ما فتح جروحا سابقة لم تكن قد اندملت. ثم اكتشفت في يوليو أن الوكالة التي أعطاها إياها زوجها عام 1883 لتدير ممتلكاته لم توفِّر لها أي حق قانوني في حيازة تلك الممتلكات، فاستشاطت غضبا. ويُذكَر أن ماشا استطاعت خلال فترة مرض أبيها في القرم أن تحصل على توقيعه على وصية يتنازل فيها عن حقوق التأليف لأعماله كلها. لكن صونيا استطاعت في تلك الفترة أن تضع اسمها مستفيدا نهائيا لكي تضمن حق أولادها من ريع المؤلفات، عوضا عن أي يستفيد منها الناشرون بعد وفاة تولستوي. بيد أن تولستوي كان له رأي آخر، وقد تلقى دعماً تاماً من تشيرتكوف يؤيد رغبته في التنازل عن جميع الحقوق. وقد واجهت صونيا مشكلة جديدة أخرى تتلخص في وجود تولستويّة في أسرتها هي ابنتها ساشا التي لم تكن على وئام معها منذ فترة بعيدة. فقد أصبحت ساشا في العشرين من عمرها عام 1909، وغدت متفانية في عملها مع أبيها وتشيرتكوف، وصممت على تعطيل خطط أمها من خلال صياغة وصية تحرم أمها من أي حق في أعمال أبيها.

رُشح تولستوي في مرات عديدة لنيل جائزة نوبل للآداب التي كانت قد أُطلقت في الفترة الأخيرة من عمره. وقد نشر تولستوي رسالة في مجلة ستوكهولم تيغبلات[207] عام 1897 قال فيها إن الدوخوبوريين أولى بالحصول على الجائزة المالية من غيرهم، لكن الأكاديمية السويدية كانت تخشى من مذهبه «الفوضوية». وفي عام 1909 دعي تولستوي بجهود من

(207) Stockholm Tageblatt.

تشيرتكوف إلى مؤتمر ستوكهولم للسلام. فاعترت الشكوك صونيا وظنت أن زوجها سوف يلتقي بتشيرتكوف فهدَّدته بأنها ستتجرع السمّ إن أقدم على ذلك. فما كان منه إلا أن رضخ أخيرا لطلب زوجته، وفي أغسطس أُلغي المؤتمر على أي حال. وفي تلك الفترة أُلقي القبض على غوسيف للمرة الثانية، وشكل ذلك ضربة أخرى لتولستوي بعد أن نُفي سكرتيره في هذه المرة إلى الأورال ليمضي فيها سنتين. عندها، بدأ تشيرتكوف البحث عن سكرتير جديد.

ومع ذلك، ذهب تولستوي في زيارة لتشيرتكوف في شهر سبتمبر، وتوقف في طريقه في موسكو التي لم يرها منذ ثماني سنوات. وقبل أن يغادر عزبة كريكشينو في نهاية الشهر، كتب وصية يقدم بموجبها كل أعماله التي ألَّفها بعد عام 1881 لتصبح ملكاً عاماً وسلم مخطوطاته إلى تشيرتكوف. وقد التأم جمهور غفير لاستقباله في محطة كورسك وهو في طريق عودته إلى ياسنايا بوليانا. ولم يعد إلى موسكو مطلقا. وفي يناير وصل فالنتين بولغاكف، وهو طالب فلسفة شاب أصله من سيبيريا، إلى ياسنايا بوليانا ليعمل سكرتيرا جديدا لتولستوي. وقد وجهه تشيرتكوف، كما فعل من قبل مع غوسيف، ليسجل ملاحظات وافرة عن حياة تولستوي اليومية. وهكذا أصبح شاهدا على أسوأ أشهرٍ في حياة تولستوي الزوجية، وكان الشخص الذي كشفت له صونيا بعد وفاة تولستوي عن السبب الجذري لجميع تلك المشاكل. فأخبرته في رسالة في يونيو من عام 1911 بأنها لم تكن تطيق أن يستحوذ تشيرتكوف على حب زوجها واهتمامه عوضا عنها. فقد كانت زوجة لتولستوي لثمانٍ وأربعين سنة وكانت الشخص الأهم في حياته. أما الآن فلم تستطع أن تطيق قول زوجها لها بأن تشيرتكوف هو الشخص الأقرب له. لم يكن سلوك صونيا طبيعيا خلال الأشهر الأخيرة من عمر تولستوي، وقد شخَّص عدد من الأطباء على نحو صحيح حالتها بالهستيريا المرضية وجنون الارتياب (بارانويا)، لكنها لم تكن مريضة نفسيا. بل كانت تشعر باليأس والقنوط وأنها مغتصبة الحقوق ولا تستطع السيطرة على أعصابها. كانت صونيا تخشى الفقر وتخشى أن تشوَّه سمعتها ويُهان اسمها.

في يونيو من عام 1910، قام تولستوي بزيارة تشيرتكوف مجددا. وفي نهاية ذلك الشهر سُمح لتشيرتكوف بالعودة إلى تيلياتينكي. وقد عكفت صونيا آنئذ على منع زوجها من رؤيته، لا سيما بعد أن اكتشفت أنه كان يحتفظ بمذكرات زوجها على مدار السنوات العشر الأخيرة. كما طالبت صونيا تشيرتكوف أن يسلمها المذكرات خشية أن يجد فيها ما يسيء إلى سمعتها ويضعها في موقف حرج، وشعرت أن من حقها الاحتفاظ بالمذكرات لأنها تُعتبَر الوصي الأمين والقيم الشرعي على أعمال زوجها، لكن تولستوي نفسه رفض الرضوخ لمطالبها. وأخيرا وبعد نزاع مرير وافق تولستوي على استرداد المذكرات من تشيرتكوف لكي يسلمها لابنتهما تانيا التي ستودع المذكرات في بنك تولا. وكان الزوجان قد دأبا من قبل على قراءة مذكرات بعضهما بعضا، لكن تولستوي قرر الآن أن يحتفظ بسجل سري خاص به. وكتب في يونيو وصية سرية أخرى تخلى بموجبها عن حقوق التأليف لصالح ساشا أو تانيا في حال موت ساشا. ولم تطَّلع صونيا على محتوى الوصية حينها، لكن تولستوي ندم لاحقا على عدم الكشف عنها.

اضطر تولستوي إلى استدامة صداقته مع تشيرتكوف عن طريق المراسلات مجددا لكي يتجنب مزيدا من العداوة مع صونيا. وفي سبتمبر دعت صونيا قسيسا إلى ياسنايا بوليانا لكي يقوم بجلسة طرد للأرواح، لا سيما روح تشيرتكوف الشيطانية. وفي أواخر أكتوبر قرر تولستوي أخيرا الرحيل من المنزل بعد أن اكتشف أن صونيا كانت تنبّش في مكتبه عن شيء ما. فلطالما كان تولستوي يتوق إلى مغادرة المنزل حافي القدمين لا يحمل شيئا سوى بقجة ملابس خلف ظهره ليضرب في الأرض كصوفي زاهد. وقد فعلها أخيرا عام 1910، فغادر المنزل وهو في عمر الثانية والثمانين في الثامن والعشرين من أكتوبر (إذ كان يؤمن بسحر الرقم 8) عند منتصف الليل، بصحبة الطبيب السلوفاكي ماكوفيكي لكيلا تتبعه صونيا. ورغم علاقته المتوترة مع الكنيسة الأرثوذكسية، إلا أن وجهته الأولى وفقا لشخصيته المركبة المتناقضة، لم تكن سوى دير أوبتينا بوستين. ومع ذلك وجد نفسه غير قادر على استقاء التوجيه الروحي من شيوخ الدير، فتحوَّلَ إلى زيارة شقيقته في ديرها، ثم استقل قطارا متوجها إلى الجنوب إلى بلاد القوقاز.

وعندما اكتشفت صونيا أن زوجها هجر المنزل وتركها ألقت بنفسها في بركة ياسنايا بوليانا وكادت أن تغرق.

لم يصل تولستوي إلى وجهته؛ ففي الحادي والثلاثين من أكتوبر استقل قطارا متوجها إلى الجنوب إلى روستوف-نا-دانو، بصحبة الطبيب ماكوفيكي وابنته ساشا (التي انضمت إليهما قبيل استئنافهما الرحلة)، لكنه نزل في محطة أستابوفا عندما شعر بوعكة صحية. وُضع تولستوي في سرير في بيت مدير المحطة، واستدعت ساشا تشيرتكوف الذي وصل إلى المحطة مع سكرتيره في الثاني من نوفمبر، وتبعهما كل من سيرغيه وصونيا التي استأجرت قطارا مع تانيا وأندريه وميشا. ووصل إيليا وغوربونوف-باسودوف وغولدنوايزر في اليوم التالي، ثم وصل في الخامس من الشهر نفسه ستّون ضابطا من الجيش انضموا إلى صفوف ضباط الشرطة السّريين الموجودين أصلا في ذلك المكان. وعندما وصلت الأنباء إلى الصحافة، نُشرَت قصة مرض تولستوي على الصفحات الأولى لجميع الصحف. وما لبث أن عرف العالم ما يجري في تلك المحطة النائية في مقاطعة ريازان. وفي السابع من نوفمبر، وفي خضم حالة الهياج وجنون انتشار الخبر دوليا وعناوين مجلة التايمز العريضة وغيرها وطنين الكاميرات من طراز باث، تُوفي تولستوي أخيرا. وسُمح لصونيا برؤية زوجها بعد فقدان وعيه فقط.

لم يتصالح الرّاحل مع الكنيسة التي اكتشفت حينها أنها تعرضت لكارثة علاقات عامة جلبتها على نفسها بسبب طرد تولستوي من الملّة، وأن محاولاتها المحمومة لثني تولستوي عن معاداتها في أواخر حياته باءت جميعها بالفشل الذريع. ويُذكَر أن الأب فارسونوفي كان قد قدِمَ من أوبتينا بوستين ليرى المريض لكن ساشا منعته من لقاء أبيها، وندمت على ذلك أشد الندم لاحقا بعد أن عادت إلى أحضان الكنيسة. ولم يخضع تولستوي لسرّ مسحة المرضى[208]، بل دُفن على عجل في التاسع من نوفمبر عام 1910.

(208) أحد الأسرار السبعة في المسيحية (الرّقية) (المترجم).

كان ثمة موقع واحد لائق لدفن تولستوي، وهو أرض أجداده في ياسنايا بوليانا حيث أمضى زهاء سبعين عاما من حياته. وهكذا دُفن في الموقع المحدد الذي أوصى به في مكان في الغابة ليس بعيدا عن منزله، حيث دَفَنَ العود الأخضر الصغير الذي قال له شقيقه نيكولاي إن سرّ السعادة مكتوب عليه. وكانت الحكومة على دراية بأن جموعاً من المعزّين من أرجاء روسيا كافة ستأتي لحضور الجنازة. لذا، سرّعت في ترتيبات دفنه لكي تُقلِّص من تلك الأعداد، لا سيما أولئك الذين يسكنون في مناطق بعيدة ويستغرق قدومهم أياما. واجتمع عدد هائل من الطلاب خلال اللقاءات التي نظمتها جامعة موسكو في اليوم التالي على وفاة تولستوي، حتى غصّت بهم الممرات، وتم حجز 800 مقعد على متن قطار، استطاع مندوبو الطلاب التفاوض بشأنها مع إدارة محطة كورسك للذهاب إلى ياسنايا بوليانا. وكان يمكن ملء تلك المقاعد الـ 800 مرّات عديدة بالفعل لأن آلافاً من الطلاب حاصروا المحطة، لكن الحكومة منعت حجز أي قطارات إضافية. ورغم ذلك استطاع الآلاف منهم أن يعزّوا فقيدهم بعد أن جلسوا طوال الليل في قطار بارد أتى بهم إلى محطة زاسيكا (ياسينكا سابقا) في ساعات الصباح الأولى. كان يوما صافيا من أيام نوفمبر، وكانت المفرقعات تلتهب، ولم يستطع الطلاب أن يضبطوا حركة الجماهير الغفيرة التي كانت تنتظر القطار الخاص الذي يحمل نعش تولستوي. ولكن بمجرد أن بزغت أضواء القطار الصفراء وشقت الضباب أمامها في ذلك الصباح القارس صمتت الجماهير دفعة واحدة.

بدا التابوت الخشبي الذي احتوى جثة تولستوي صغير الحجم إلى حد كبير عندما رُفع من العربة. وقام الجميع بخلع قبعاتهم على الفور تعبيراً عن تبجيلهم للراحل، وقام أبناؤه بتسليم التابوت إلى فلاحي ياسنايا بوليانا الذين حملوه بدورهم في رحلته الأخيرة إلى مثواه الأخير. وبدأت الجموع، باستثناء الشرطة، بغناء أنشودة كئيبة بعنوان «الذكرى الخالدة» بلطف وصوت خافت؛ وهي الأنشودة التي تنتهي بها كل جنازة أرثوذكسية. وانطلقت بعدها الجموع، وهي ما تزال تغني، تمشي خلف صوفيا أندريفنا (صونيا) وأبنائها لثلاث ساعات قبل وصولهم إلى

منزل أجداد تولستوي أولا؛ نزولا على المنحدر، ومن على الجسر الخشبي الصغير فوق الجدول، ثم من خلال الغابة تحت أغصان شجر البتولا والحور المتجمدة، ثم عبر الحقول الجرداء المتجمدة، المغطاة بطبقة ثلجية رقيقة، التي كان لونها أبيض شاحبا كلون السّماء.

حُمِّلت عربات القرية بأكاليل الغار وسارت أمام التابوت، ونثر الطلاب والعجائز غصينات شجر الشربين على طول الطريق. وقد لاحظ كثيرون بدهشة أن المجتمع الروسي بأسره التحم في ذلك اليوم ليودع تولستوي إلى مثواه الأخير: فلاحين وأرستقراطيين ومثقفين وعمال مصانع وشبابا وكهولا وعجائز من الذكور والإناث، وكان ذلك شيئا غير مسبوق. حمل فلاحَيان محليان لافتة وهما يمشيان كُتب عليها: «ليف نيكولايفيتش! لن تموت ذكرى طيبتك وإحسانك!! فنحن الفلاحين اليتامى من ياسنايا بوليانا سنُخلّد ذكراك إلى الأبد». لم ينم جفن أيٍّ من سكان القرى المحيطة بعزبة تولستوي وبقيت مساكنهم مضيئة طوال الليل. وسُمع أحد الفلاحين يقول إن الحدث شبيه بعيد الفصح حين يسهر الناس حتى صلاة منتصف الليل قبل أن يعودوا إلى منازلهم ويفطروا في ساعات الصباح الأولى ويبدؤوا احتفالاتهم.

وعندما وصل الموكب إلى ياسنايا بوليانا، أدخل التابوت إلى المنزل لكي يتسنى لزهاء خمسة آلاف شخص إلقاء النظرة الأخيرة على وجه شيخهم وتوديعه إلى الأبد. وقد دهش كثيرون من اختلاف تولستوي الذي عرفوه أو رأوا صوره المشهورة، وتولستوي الجثة الهامدة ذي الوجه الذابل الهرم المصفرّ كالشمع، لدرجة أن بعضهم غاب عن الوعي وأصيب البعض الآخر بنوبات هستيريا. وبعد ثلاث ساعات ونصف حُمل التابوت مجددا، وانطلق المعزّون في رحلتهم الأخيرة إلى الغابة القريبة من المنزل. وفي الساعة الثانية وخمسين دقيقة عصراً أُنزل التابوت ببطء ووقار في القبر المتواضع الذي جُهِّز لهذا الغرض. ومُنعَت الخطابات أثناء مراسم الدفن، لكن الجميع جثوا على ركبهم (بما في ذلك الشرطي الذي أُرسل ليراقب العملية)، وأنشدوا مجددا «الذكرى الخالدة» بصوت خفيض. لم يُدفَن شيخ ياسنايا بوليانا كما يُدفَن المؤمنون الأرثوذكس. واعتُبرت مراسم دفنه أول مراسم دفن مدنيّة في روسيا؛ إذ كانت بعيدة

كل البعد عن المراسم الدينية الأرثوذكسية التقليدية؛ فلم يكن ثمة قساوسة أو كهنة أو أيقونات أو صلوات أو أدعية، ولم يُرفَع الصليب على رأس القبر. واستمر المعزّون في التردد على رابية القبر الجرداء في الأيام والأسابيع التي أعقبت جنازته. وفي الربيع التالي بدأ العشب ينمو على القبر. وعندما انحسر الاهتمام أخيرا بمحطة أستابافا، حيث أُرسلت واستُلمت أكثر من ألف برقية خلال الأسبوع الأخير من حياة تولستوي، عاد الاهتمام ينصبُّ على ياسنايا بوليانا التي تحولت إلى قبلة للحجيج.

أنشد المواطنون أنشودة «الذكرى الخالدة» خلال مراسم عدة في كثير من الكنائس في ربوع البلاد بعد الجنازة. كما أنشدوها إبان المظاهرات التي لم تكن لها ظاهرياً علاقة بتولستوي. وشكَّل موت تولستوي في حقيقة الأمر حافزا للعمل السياسي؛ فقد أُعلن عن إضرابات واسعة النطاق في موسكو في يوم جنازته، كما اندلعت احتجاجات طلابية ومظاهرات ومسيرات ومواكب، وصدحت أصوات صاخبة تنادي بمنع عقوبة الإعدام. واجهت الحكومة الروسية معضلة؛ فهي من جهة لا تستطيع أن تضم صوتها إلى صوت الذين رثوا تولستوي في مرثيات طفحت بها الصحافة، لأنها في الأصل كانت قد شيطنته لفترة طويلة، ولا تستطيع أن تدينه لأن العالم بأسره يحتفي به الآن ككاتب ومفكر عظيم. لذلك وجدت نفسها في موقف لا تُحسَد عليه فهي أيضا لا تستطيع أن تلوذ بالصمت. ناقش الوزراء فيما بينهم كيفية تبجيل وتخليد ذكرى كاتب ندّد بالحكومات والملوك والقياصرة وسلطة الدولة، لكنهم أصبحوا عاجزين ولا محل لهم من الإعراب؛ إذ باءت جهودهم لاحتواء تجليات الشعب بالفشل. فقد أمسك الشعب الروسي بزمام المبادرة وبدأ الآن بكتابة قواعد اللعبة، كانت تلك مرحلة مفصلية فارقة. فقد أقفلت المدارس والجامعات والمصانع والمكاتب والمسارح أبوابها، بينما توحد الروس من جميع المشارب والأهواء في حزنهم العلني على فقدان كاتب عظيم وبطل مغوار؛ تحدث بتحدّ بالنيابة عن الأمة التي قُطِّعَت أوصالها وظُلمَت وقُمعَت وضُيِّق الخناق عليها لفترات طويلة. لم تكن تلك التجليات والأحداث غير المسبوقة لتغيب عن ثائر منفي في سويسرا؛ هو

فلاديمير لينين الذي كتب ثلاث مقالات جديدة عن تولستوي في نوفمبر. ما يزال تولستوي، وفقا لرأيه، مرآة للدوافع والحوافز المتنوعة والمتناقضة في روسيا. بيد أن الأمة قد طوت صفحة عام 1905 ومضت قدما.

خطى تولستوي خطوات عملاقة طيلة حياته وكان موته آخر تلك الخطوات العملاقة على طريق الثورة.

خاتمة

بطريرك البلاشفة

أعتقد أن مثالهم وحياتهم يقدّمان إجابة عن السؤال الذي طرحته على نفسي- وعلى قرائي في كتبي السابقة: هل يستطيع المرء أن يعيش في ظل نظام شمولي توتاليتاري ويحافظ في الوقت نفسه على كرامته غير منقوصة؟ لقد أجاب أتباع تولستوي عن هذا السؤال من خلال حيواتهم على نحو مأساوي وبطولي على حد سواء.

مارك بوبوفسكي، 1983

انصب اهتمام الأمة على ياسنايا بوليانا في الفترة التي ووري فيها جثمان تولستوي الثرى وبقيت أرملته منشغلة في البداية. وفي السابع عشر من ديسمبر، بعد أربعين يوما من وفاة زوجها، ذهبت صونيا إلى قبره لإحياء الذكرى الأربعين لرحيله وفقا للتقاليد الأرثوذكسية، وانضم إليها جميع سكان القرية من الرجال والنساء والأطفال. وتم توضيب القبر، ووُضعت أغصان من الشربين عليه، وخلع الموجودون قبعاتهم وجثوا على ركبهم ثلاث مرّات وهم ينشدون «الذكرى الأبدية». وتردّد على القبر زوار كثر على نحو منتظم في الأسابيع الأولى بعد وفاته. وقد سجلت صونيا في مذكراتها، التي أصبحت مقتضبة الآن، وصول عدد من الصحفيين ومجموعة من اثنتين وخمسين طالبة من سانت بطرسبورغ، وزائر مسلم من القوقاز يحمل إكليلا من الغار، وشقيقتها تانيا التي مكثت معها لشهر. ولكن ما أن غادر أفراد الأسرة والأصدقاء حتى بقيت صونيا وحيدة مكلومة حزينة، وفجأة بدت ياسنايا بوليانا خاوية.

تعيّن على صونيا أن تعتاد على فكرة كونها أصبحت أرملة في عمر السادسة والستين وعصف بها في نهاية المطاف الألم والنّدم؛ فقد كانت سنوات حياتها الأخيرة سنوات وحدةٍ

واتهامٍ وجلدٍ للذات. لقد خشيت ببعض من التبرير ما سيكتبه الناس عنها (وقد بدؤوا الكتابة بالفعل)، وشعرت في الوقت نفسه بأنها أصبحت زائدة عن الحاجة، لا سيما بعد أن أُسدل الستار على الدراما التي لعبت فيها في السابق دورا بارزا. فمن وجهة نظر بعضهم بدا أنها تحولت في النهاية إلى شخص مهادن موادع خنوع، وكأنها خضعت للتحول الروحاني الذي رغّبها فيه زوجها في حياته. أما بنظر بعض آخر فقد بدت أنها كانت الشخص الوحيد الذي تحوَّل جراءَ الصدمة النفسية إلى شخص أفضل. أحد الأمور التي عزّت صونيا بها نفسها في الأيام التي تلت جنازة زوجها الطقس الشتوي الجميل الذي لفّ المكان أخيرا بعد أيام نوفمبر القاتمة، وأتى بدرجات مئوية تحت صفرية وسماء زرقاء صافية وكثير من الثلوج. وقد خرجت قبيل أعياد الميلاد عام 1910 حاملة كاميرتها لتلتقط صورا لقبر زوجها لترسلها إلى ابنتها تانيا التي كانت حينها في روما، رغم أنها اعترفت في مذكراتها بأن جمال الجليد والسماء الزرقاء الصافية جعلها تشعر بمزيد من الحزن. أما العزاء الآخر فكان دعم ومساندة أبنائها الذين بقوا موالين لها طيلة حياتها. فقد كانت ما تزال على خلاف مع ابنتها ساشا وعلاقتها مع ابنتها الكبرى تانيا كانت متوترة أيضا.

في يناير من عام 1911، غادر الطبيب الطيب ماكوفيكي إلى الأبد، وشعرت صونيا بأن صلة غالية أخرى مع زوجها قد انقطعت. ولم تستطع صونيا إلا أن تشعر بأنها محاصرة؛ فقد كانت ساشا في صف تشيرتكوف «اللئيم»، رغم حدوث فجوة بينهما، بينما دفعت سبل التبذير التي عكف عليها ثلاثة من أبنائها إلى مطالبتهم، بطريقة مستعجلة غير لائقة، صونيا بتسوية قضية ميراث أبيهم ومستقبل ياسنايا بوليانا. فمنذ وفاة فانيشكا بقيت العزبة من ملكية صونيا وإيليا وميشا وأندريه وليف (إذ تخلى سيرغيه عن حصته). وأراد الجميع أن يُبقوا على ياسنايا بوليانا كمعلم ثقافي، لكن لم يكن لدى أيٍّ منهم المال الكافي بالفعل، فقد بدا أن الجميع يعوزه المال بانتظام ويلجأ إلى أعطيات من أمه. ورغم امتعاض صونيا، قام إيليا وميشا وأندريه بوضع خطة لبيع بعض الأراضي لثري أمريكي (وكان ليف في السويد في هذه الفترة). ولم تكن هذه فكرة

جديدة لأن تشيرتكوف كان يبحث منذ عام 1908 عن محسن أمريكي ليشتري ياسنايا بوليانا. ثم عدّل خطته وأراد أن يقدم الأرض للفلاحين المحليين لأنه شعر بأن ذلك سيشكل أفضل هدية لتولستوي بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، لكن ذلك لم يحصل. بعدها، عُهد لابن أخت صونيا، ألكسندر كوزمينسكي، بالمضي قدما في المشروع، فسافر إلى نيويورك ووصل في الأول من يناير من عام 1911 ومعه قائمة بأسماء أثرياء أمريكيين من أصحاب الملايين أظهروا اهتماما بالأدب والفنون. لكن لسوء الحظ، وكما عرف لاحقا، كان اليهود ما يزالون ممنوعين من شراء الأراضي خارج نطاق مستوطناتهم في روسيا؛ لذلك حُذفَت معظم الأسماء من القائمة. وكان لدى تولستوي نسخة جيدة جمعها خلال حياته، وقامت الصحف الأمريكية بالحديث عن النزاعات التي سببها مقترحه رديء الإعداد. وأقنعت عندها صونيا أبناءها بإجراء مقابلات مع الصحف الروسية لكي يوضحوا بأنهم أرادوا بيع الأرض فقط وليس المنزل.

ولم تكن تلك الفضيحة الوحيدة، فقد دخلت الصحافة معمعة المعركة التي دارت رحاها بين معسكر ساشا وتشيرتكوف من جهة، وصونيا من جهة أخرى، للحصول على مخطوطات تولستوي، فانقسم الصحفيون بين المعسكرين. وعندما أخذت أحكام وصية تولستوي حيز التنفيذ، هُرع المحامي إلى المتحف التاريخي، حيث احتفظت صونيا بمخطوطات زوجها من بين ممتلكاتها، وأمر بتشميع الأرشيف. بُهتت صونيا لأنها كانت تعتقد بأنها تملك المخطوطات، فوظَّفَت حينها معارفها في المتحف لمنع وصول تشيرتكوف وساشا إلى المخطوطات. فقد كانت نسخة أخرى من الأعمال الكاملة لتولستوي في طريقها للنشر، واستثمرت صونيا مبالغ ضخمة لطباعة العشرين مجلدا، ولم تكن مستعدة للتنازل عن حقوقها بسهولة. وهكذا اندلعت الحرب المفتوحة بين الطرفين. ففي يناير نشر تشيرتكوف رواية منحازة تماماً عن آخر أيام تولستوي، ونشر بعدها أيضا بالتعاون مع ساشا رسالة مشتركة عبرا فيها عن شكواهما من موضوع حقوق النشر. وبالتالي، استمر اسم تولستوي بالظهور في

الصحافة بشكل متكرر، مما حدا بتانيا إلى التوسل إلى أمها لتتنازل فتكفّ بذلك ساشا عن الانخراط في معارك مخجلة معها على الملأ. لكن المسألة لم تحلّ إلا بعد ثلاث سنوات.

في مايو من عام 1911، ذهبت صونيا إلى موسكو لكي تنظر في ما يمكن أن يُدرَج في النسخة الأخيرة من أعمال تولستوي الكاملة؛ لأن معظم كتاباته الأخيرة كانت ما تزال تخضع للرقابة. كما بدأت مفاوضات بشأن بيع منزل الأسرة الخاوي في موسكو لقاء 125 ألف روبل على أن تَستخدم المال لمساعدة أبنائها. سافرت صونيا بعدها إلى سانت بطرسبورغ لعقد لقاءات في البلاط القيصري ومقابلة رئيس الوزراء ستوليبين على أمل أن يُقنِع القيصر بشراء ياسنايا بوليانا لفائدة الأمة. وبدت الأمور في البداية تبشر بالخير، فقد تحدثت الصحف في الثامن والعشرين من مايو بأن الحكومة ستقوم بشراء ياسنايا بوليانا مقابل نصف مليون روبل. وقامت صونيا بوضع قوائم جرد تفصيلية لكل الغرف كترتيب مسبق لاستقبال المسؤولين الحكوميين والمسّاحين والمعاينين، رغم أن كل شيء في العزبة كان ما يزال مثيرا للعواطف الجياشة. وشكلت زيارة شقيقة زوجها الراحل في ذلك الصيف زيارة استثنائية؛ لأنها أثارت العواطف مجددا، لا سيما أن تولستوي كان قد لجأ إليها في الدير بعد أن غادر ياسنايا بوليانا لآخر مرة. وكانت ماشا آخر من استقبل تولستوي قبل أن يُكمل رحلته ويقع في براثن المرض. توفيت ماشا، ماريا نيكولايفنا، بعد سنة من لقائها صونيا، في شهر أبريل، متأثرة بمرض ذات الرئة وهي في عمر الثانية والثمانين، العمر نفسه الذي قضى فيه تولستوي.

ولحسن الحظ انشغلت صونيا في ذلك الصيف؛ بسبب العدد الهائل للزوار الذين كانوا يحجّون إلى ياسنايا بوليانا. فقد أحضر بيرياكوف على سبيل المثال 200 من معلمي القرى في السادس من يونيو لرؤية غرف تولستوي التذكارية. كما أُدرجت صونيا في مذكراتها أن عدد الزوار في يوم واحد من أيام يوليو بلغ 140 زائرا. وفي ذكرى ميلاد تولستوي في الثامن والعشرين من أغسطس تحلّق حول قبره قرابة 300 زائر. مع ذلك شعر سكرتير تولستوي السابق، نيكولاي غوسيف، في صيف عام 1911، بعد عودته من منفاه الذي أمضى فيه سنتين

في سيبيريا، شعر بأن المكان خاو مهجور لا روح فيه. وفي أكتوبر، بعيد اغتيال ستوليبين، أُخبرت صونيا بأن الحكومة قد صرفت النظر عن شراء ياسنايا بوليانا. وفي نقاشات الدوما عبّر بعض رموز الكنيسة عن اعتراضهم الشديد على تخليد الدولة لذكرى مرتدٍّ طُرد من الملّة. وفي الثامن عشر من نوفمبر، بعيد الذكرى السنوية الأولى لرحيل تولستوي، كتبت صونيا رسالة إلى القيصر نيكولاي الثاني تحيطه علما وتنبهه بأن أبناءها قد يضطرون قريبا إلى بيع ياسنايا بوليانا، وعبّرت عن أملها بأن لا يوافق القيصر على رؤية «قلب الأمة الروسية» يقع في أيادي تجار من الخاصة. ومع ذلك أخطر نيكولاي الثاني في العشرين من ديسمبر وزراءه في مذكرة بأنه يعتبر شراء ياسنايا بوليانا أمراً «مرفوضاً لا مسوّغ له».

بدأت الحياة تعود إلى العزبة تدريجيا عام 1912. فعندما عاد فالنتين بولغاكوف في ذلك الصيف شعر بروح من الحرية في المكان؛ فثمة ألعاب تنس والكروكيه، ولم تعد هناك حاجة لانشغال المرء بقضايا الموت والخلود وخدمة الآخرين وتحسين النفس أخلاقيا... إلخ. عبأ بولغاكوف الغرامافون وشغل أسطوانة لشتراوس والتز كان يحبها تولستوي. وكانت ذكرى ميلاد تولستوي في تلك السنة مناسبة شبه احتفالية شارك فيها تسعة عشر شخصا تحلّقوا حول طاولة. لكن خليطا من المشاعر طفا على السطح في الثالث والعشرين من سبتمبر عندما احتفلت صونيا بالذكرى الخمسين لزواجها وهي تلبس الأبيض، وقالت لبولغاكوف الذي أتى لزيارتها في ذلك اليوم بأن المناسبة تدعو إلى الاحتفال رغم أن وجهها كان يغص بالدموع. وكان بولغاكوف يسكن مع تشيرتكوف في عزبة تيلياتنكا في تلك الفترة، وقد امتعض من عداء تشيرتكوف المستمر لصونيا. ولم يكن بولغاكوف في الواقع يلاحظ في السابق أيـاً من آل تولستوي بخلاف الكاتب نفسه؛ لأن شخصيته الكاريزمية الجذابة استدعت اهتمامه الكامل على نحو لا إرادي. أما الآن فقد تقرّب من صونيا لأنه بدأ بمهمة هائلة تقتضي جمع قائمة جرد بمقتنيات مكتبة ياسنايا بوليانا لتُستخدم كمصادر علمية. وكان يستمتع بسماع قصصها حول الأيام السعيدة من زواجها، لكنه وجد غضبها ومرارتها المستمرين خلال السنوات الأخيرة أمرا

يصعب تحمُّله. فقد كانت تواجه خيارين: أولهما انتقاد زوجها انتقادا لاذعا، وثانيهما الوصول إلى خلاصة مفادها أنها لم تستطع أن تفهمه. وقد قالت لبولغاكوف بأنها لجأت للخيار الثاني. وقدِمَ قسيس شاب إلى ياسنايا بوليانا بعيد الذكرى السنوية الثانية لرحيل تولستوي، وجلب معه في نوفمبر من عام 1912 بعض السلام إلى قلب صونيا عندما طلب موافقتها على أن يقرأ على قبر تولستوي بعض الأدعية، وأن يُقيم قدّاس لراحة نفس الميت في غرفتها. وفي الشهر التالي افتُتِح أول متحف لتولستوي في موسكو برعاية من رابطة تولستوي. وبمساعدة صونيا وأولادها استطاع بيريوكوف وبولغاكوف إقامة معرض دائم في شقة مستأجرة على شارع بوفارسكايا، وبمساندة من ريع بيع التذاكر واشتراكات الأعضاء.

في ديسمبر / كانون الأول من عام 1913 حُسم النزاع بشأن مخطوطات تولستوي للفترة التي سبقت عام 1881 لصالح صونيا، فأصبحت أخيرا حرّة للمضي قدما في نشر وبيع نسختها الأخيرة لأعمال زوجها الكاملة. كما قامت ببيع جميع النسخ المتبقية مما نُشر سابقا للناشر إيفان سيتين في موسكو مقابل مبلغ 100 ألف روبل، مما عنى توفير دعم إضافي لأبنائها والإبقاء على بعض المال لابنتها العزيزة تانيا. كما تحسَّنَت أخيرا علاقتها بابنتها ساشا؛ التي بعد تدهور علاقتها بتشيرتكوف باعت منزلها في تيلياتينكي لتشتري منزلا صغيرا في مزرعة بالقرب من ياسنايا بوليانا (سمّته بوليانا الجديدة). واقترحت ساشا توظيف عائدات ثلاثة مجلدات من نسخة أعمال تولستوي التي حرّرها تشيرتكوف لتشتري من الأسرة الجزء الغربي الأقصى من العزبة، الأقرب إلى قرية ياسنايا بوليانا، ومن ثم تقدِّمها مباشرة للفلاحين. فوافقت صونيا وأبناؤها على الفور وحصلوا على 400 ألف روبل. وافق الفلاحون أيضا، وهم يستذكرون حياة سيدهم تولستوي، على عدم بيع أو كراء الأرض التي قُدِّمَت لهم. وأصبح هناك من بين 2,230 هكتارا، 1,620 مملوكة الفلاحين. قامت صونيا بعد ذلك ببيع ما تبقى من الأرض لساشا لكي تنقلها إلى الفلاحين، ثم اشترت حصص أبنائها في منزل ياسنايا بوليانا. بدأت صونيا أيضا نقل إدارة عمليات النشر إلى ساشا وكانت سعيدة بالاحتفال بعيد ميلاد ابنتها الثلاثين في

يونيو 1914. لكن التعايش السلمي لم يدم طويلا، إذ اندلعت الحرب العالمية الأولى في أغسطس من السنة نفسها. والتحق ميشا بالجيش وانضم ليف إلى الصليب الأحمر والتحقت ساشا بالجبهة لتعمل ممرضة. أما بولغاكوف فقد اعتُقل مع ستة وعشرين شخصا آخر من الذين رفضوا الخدمة العسكرية، وقضوا 13 شهرا في سجن تولا (ثم بُرئت ساحتهم عندما مَثَلوا أمام محكمة عسكرية في موسكو عام 1916).

أمضت صونيا سنواتها الأخيرة تستنسخ الماضي وتبذل جهودا مضنية لسدّ حاجات ذريّتها كدأبها في السابق. وقامت بنسخ مذكرات تولستوي القديمة ورسائله لها وبعض أعماله الفنية المختلفة بغية نشرها. كما استمرّت في كتابة قصة حياتها، وكانت ترافق الزوّار في جولة في المنزل (يُذكَر أن أحد عشر شخصا من ممارسي رياضة ركوب الدراجات الهوائية قدموا من بطرسبورغ لزيارة منزل تولستوي)، لكن صونيا لم تكن أيامها سعيدة. وعندما ألحّ عليها أبناؤها للحصول مجددا على المال، قامت بإرسال رسالة أخرى إلى القيصر تناشده شراء ياسنايا بوليانا، لكن عددا لا بأس به من أعضاء الحكومية الروسية كانوا ما يزالون يرفضون بعناد فكرة تحويل منزل مهرطق مشهور ليصبح جزءا من التراث الوطني. في النهاية، قام نيكولاي الثاني بمنح صونيا 10 آلاف روبل كمعاش تقاعدي وتشبث بموقفه السابق الرافض لشراء ياسنايا بوليانا. فقدت صونيا في سنوات حياتها الأخيرة أشخاصا أعزاء على قلبها؛ فقد توفيت شقيقة زوجها الراحل ماريا نيكولايفنا، وتوفي زوج ابنتها ميخائيل سوخوتين، كما خلّفت وفاة ابنها أندريه أشد الآلام وأعمق الأحزان، فقد توفي جرّاء مرض ذات الجنب[209] في فبراير عام 1916. ورافق ليف والدته على متن قطار مكتظ بالمسافرين إلى بتروغراد (كما أصبحت بطرسبورغ تعرف إبان الحرب) ووصلا قبيل وفاة أندريه. وعندما عادت صونيا إلى منزلها فقدت رويدا رويدا أي اهتمام بالحياة، فقد كانت تجلس لساعات طوال في أريكة فولتير القديمة

---

(209) التهاب الغشاء المحيط بالرئة (المترجم).

التي أحبها تولستوي على وجه خاص؛ لأنها كانت من مقتنيات أسرته التي تعود إلى فترة ما قبل ولادته.

وبينما أصبحت حياة صونيا هامدة خاوية لا روح فيها، بقيت حياة تشيرتكوف مليئة بالأنشطة. فقد كان رجلا يحمل رسالة وغدا أكثر انشغالا بعد وفاة تولستوي. فقد كان الرجل الذي سيطر على مجريات الأمور خلال أيام صديقه الأخيرة، وكان الرجل الذي لجأ إليه الناس بعد وفاة تولستوي. وكان ثمة مقابلات يجريها ومحاضرات يقدمها، وكمٌّ هائل من المخطوطات وجب ترتيبها للنشر. نشر تشيرتكوف أول كتبه عن آخر أيام تولستوي عام 1911، وأتبعه عام 1912 بمجلد جمع فيه مذكرات تولستوي.

جاء بعدها دور تنقيح وتحرير ثلاثة مجلدات للأعمال الأدبية ونشرها بعد وفاة تولستوي. وقد مكّن ريع تلك الأعمال ساشا من شراء أرض عزبة ياسنايا بوليانا من أسرتها لتقدِّمها للفلاحين. أما مهمة تشيرتكوف الرئيسية حينها فكانت تتمحور حول إصدار نسخة مرجعية معيارية معترف بها لأعمال تولستوي الكاملة، وعلِمَ أنها ستكون مشروعا هائلا. فقد كانت بحوزته جميع مخطوطات تولستوي الأخيرة، وقد أتى بها عام 1913 من المخازن في إنجلترا وأخذها إلى أكاديمية العلوم في بطرسبورغ ليحفظها هناك مؤقتا.

وعندما استُدرجت روسيا للحرب العالمية الأولى وجد أتباع تولستوي أنفسهم في وضع حرج. ورغم توقعات تولستوي المشؤومة بحدوث صدامات دموية واندلاع العنف على نطاق واسع وتحذيراته من جاذبية الوطنية الزائفة، قام تشيرتكوف بدعم جهود الحرب، وقام بالتحضيرات اللازمة لإعادة نشر مقالته بشأن السلمية في عامي 1914 و1917، وهي تعود إلى عام 1905. لكن في ظل هذا الوضع المتأزم لم تستطع توجهاته السلمية السابقة حينها أن تسمو على وطنيته الحالية (فهو في النهاية كان ضابطا في الحرس الإمبراطوري). وقد شعر أيضا بولاء عميق لإنجلترا التي أعلن أنها كانت تمثل «وطنه الثاني»؛ ذلك أنه أمضى فيها 11 سنة من حياته.

كان بيرياكوف حينها يعيش في سويسرا، لذلك تُرك الأمر لبولغاكوف الذي أصبح المتحدث الرئيسي باسم أتباع تولستوي. طبع بولغاكوف ووزع نسخا لمقالة كان قد ألَّفها عن موضوع الحرب في سبتمبر عام 1914، بعد أن أخلي سبيله من السجن، وبدأ في الشهر التالي جمع التواقيع على عريضة جماعية لمناهضة الحرب عنوانها «عودوا إلى رشدكم! أيها الإخوة».

وشُجع الجنود الروس على الجبهات على حب جميع إخوانهم الجنود في الإنسانية بصرف النظر عن جنسياتهم. وتحركت الحكومة القيصرية بسرعة لاعتقال أولئك الذين وقَّعوا على العريضة. وقد اعتُقل ثلاثة منهم في منزل تشيرتكوف في موسكو في السادسة صباحا في يوم بارد من شهر يناير/ كانون الثاني من عام 1915. ولحسن الحظ، استطاعت تانيا وساشا أن تدفعا كفالة بولغاكوف وماكوميكي ليخرجا من المعتقل. كما اتصل تشيرتكوف بمعارفه البريطانيين المتنفذين ليثنوا الحكومة الروسية عن إرسالهم إلى السجن، أو أن يُحكَم بالمؤبد مع الأشغال الشاقة على أولئك الذين رفضوا الخدمة العسكرية. وهكذا تم إخلاء سراح معظم أتباع تولستوي.

خدمت فظائع الحرب العالمية الأولى في جعل أفكار تولستوي أكثر صلة بالموضوع. وفجأة، عام 1917، أصبح نشر جميع كتاباته المحظورة أمرا ممكنا في روسيا. كما أدى انهيار سلالة رومانوف وثورة فبراير إلى وضع حدّ للرقابة، وبالتالي لم يُضيِّع أتباع تولستوي أي وقت، فقد تمكّن أخيرا مجلس إدارة رابطة تولستوي في موسكو من التفكير جديًّا في نشر نسخة كاملة لأعماله الكاملة في أبريل من عام 1917، وأصبح سيرغيه وساشا؛ كونهما ممثِّلين لأسرة تولستوي، عضوين في اللجنة الجديدة التي أُنيط بها الإشراف على القضايا التحريرية وجمع الأموال اللازمة للنشر. وانضم إليهما فالنتين بولغاكوف ونيكولاي غوسيف. ونَشَرَت دار الوسيط القديمة للنشر، ما بين عامي 1917 و1918، ثلاثا وستين نسخة من أعمال تولستوي. كما أُسست دار جديدة تدعى زادروغا لتنشر جميع مقالات تولستوي التي كانت محظورة في السابق. وشُكِّلت منظمة تولستوية جديدة في الأيام الزاهية من شهر يونيو من عام 1917.

وقامت رابطة الحرية الحقيقية بإصدار مجلة على جناح السرعة تدعى «صوت الحقيقة والوحدة»، طبعت 10 آلاف نسخة وأسَّسَت شبكة من فروع مرتبطة في مدن مختلفة في روسيا. وتُقدَّر أعداد التولستويين الذين كانوا نشطاء في روسيا في تلك الفترة بخمسة آلاف أو ستة.

كان الوضع في ياسنايا بوليانا عام 1917 أقل تفاؤلا. وقد أرخت ثورة فبراير العنان لموجات نهب واسعة، لا سيما التدمير العشوائي لملكيات ومزارع طبقة النبلاء. شبَّه تشيرتكوف الوضع ذاك بانفجار سدّ للمياه؛ فبعد قرون من وجود الروس «تحت وطأة القمع الأوتوقراطي»، تدفقت المياه المحتجزة كسيل جارف جموح لا يقاوَم، ويُغرق ويحطم كل شيء يعترض سبيله. أطلق البلشفيون حملة شعواء تنشر كراهية الطبقات، مما دفع الفلاحين والجنود المُسرَّحين من الجيش إلى الانطلاق في حملة تخريب لم يوفروا خلالها عزبة الكونت تولستوي، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أنها تستأهل الإعفاء. ولم يكن جميع المهاجمين من الذكور فقط. ففي سبتمبر من عام 1917 تسلَّمت ساشا بطاقة بريدية من شقيقتها تانيا تخبرها فيها بأن مئات من النساء والأطفال المحليين اقتحموا بساتين ياسنايا بوليانا وسرقوا التفاح (16,500 كلغ بحسب تقديراتها). وعندما قرأ بولغاكوف الصحف التي تحدثت في ذلك الخريف عن فلاحين أغاروا على ياسنايا بوليانا وأحدثوا الفساد، ليس في بساتينها فحسب، بل في حقول المحاصيل والمناحل، نزل من موسكو مباشرة ليلتقي بالقرويين لإحلال نوع من الأمن. كما قامت صونيا في الأثناء بطلب المساعدة من وزارة الشؤون الداخلية. كما عُيِّن بيوتر سيرغيينكو، وهو من معارف تولستوي ويَعرِف الفلاحين المحليين أيضا، لكي يساعد في حماية ياسنايا بوليانا من أيّ غارات مستقبلية. وعندما أصبح معلوما بأن مجموعة من الفلاحين الشباب والجنود المُسرَّحين من الجيش كانوا يحفّزون السكان المحليين على تدمير ياسنايا بوليانا في نهاية عام 1917، خُصِّصت عندها وحدة من الجيش الأحمر للسّهر على أمن العزبة. وقد أخبرنا بولغاكوف بأن هاتفًا قد وُضع في ياسنايا بوليانا لأول مرة؛ لكي يستمر الاتصال مع

المنظمات السياسية المحلية في تولا التي كان أعضاؤها يعلمون أن هذه العزبة ليست كأي عزبة أخرى، إذ تحتاج إلى حماية من نوع خاص.

رحب التولستويون بثورة فبراير؛ إذ شعروا بنوع معين من التضامن والتكافل مع البلشفيين. ولم يكن ذلك مرتبطا فقط بمحاولة البلشفيين تعطيل جهود الحرب، من خلال إقناع الجنود العاديين بأن عدوهم الحقيقي هو مؤسستهم العسكرية التراتبية، بل لأن المجموعتين أصرَّتا على نزع ملكية الأراضي من يد الكنيسة ومُلّاك الأراضي الإقطاعيين على حد سواء (رغم اختلاف الدوافع بينهما). لكن أحداث أكتوبر من عام 1917، والعنف الذي اندلع في الأسابيع والأشهر التالية، ملأت قلوب التولستويين بالرعب، مما دفع بهم إلى توزيع منشور في شوارع موسكو بعنوان «أوقفوا قتل الإخوة» بعد ثلاثة أيام من تسلّم البلاشفة سدة الحكم. وقد تملكتهم رغبة في توصيل رسالتهم فاقت أهميتها الخشية من فضح أنفسهم وتعرضهم لمخاطر مهلكة.

عقَّبَ السلام الذي توصلت إليه روسيا مع ألمانيا في مارس 1918 مزيدا من إهراق الدماء. ورغم دعم تشيرتكوف الجيش الإمبراطوري في البداية، إلا أنه كان فخورا لاحقا بترك الجنود الروس بأعداد هائلة صفوف القتال والعودة إلى منازلهم عام 1917، «وهم متقززون منهكون من هذه المذبحة الدولية»، ولا يريدون بعد الآن أن يعاملوا كـ«وقود للمدافع». وناقش مهاجرون مثقفون روس في فرنسا الفكرة نفسها، لا سيما أولئك الذين كانوا مؤمنين بأن الحرب لا طائل منها. في عام 1918 كتب نيكولاي برديائف مقالة قال فيها إن الثورة الروسية هي بحد ذاتها انتصار للتولستويين، بينما أعلن ديمتري ميريجكوفسكي أن البلشفية تُمثّل «الانتحار لأوروبا»، «وقد بدأها تولستوي وختمها لينين». وحاجَّ برديائف بأن التجديد الرّوحي سوف يتضمن اجتياز التولستوية.

ولم يكن الروس فقط من ربط تولستوي مباشرة بالثورة البلشفية بعد حدوثها على الفور، فقد كان مترجم تولستوي الإنجليزي وكاتب سيرته أيلمر مود، لا يشك إطلاقا بأن «شجاعة

وقوة تولستوي الفكرية» وصراحته وكفاحه ضد الظلم وحبه العميق للبشر، قد لعبت الدور الأكبر في إسقاط عرش آل رومانوف. كما نُشرَت مقالة أمريكية عام 1919 اقتبست أيلمر مود على نحو مكثف:

«إنّ تنديد تولستوي بالأُسس التي تقوم عليها الحياة العصرية المتحضرة وتنديده بالحكومات الراسخة ينعكس في تنامي روح اللاسلطوية وازدراء كل جهد يرمي إلى تأطير العلاقات الإنسانية بقوالب محددة. فالتأسيس للقوانين المتحجرة الثابتة سوف يقوض جهودنا الاجتماعية فيؤدي عاجلا أم آجلا إلى انهيار المنظومة برمتها كما حصل في روسيا. إن إنكار آراء تولستوي أو الاستهزاء بها لن يجدي نفعا. فمواضيعه مهمة للغاية، وتبيانه لها تبيان حاذق محترف وصدقه في طرحها واضح وضوح الشمس في كبد السماء».

تصف المقالة تولستوي بـ«البطريرك/ الأب العظيم، لأسرة البلشفيين».

عادت ساشا من الحرب العالمية الأولى وهي برتبة عقيد، وبحوزتها وسام القديس جورج للشجاعة (الوسام الذي تملص منه والدها). فقد خدمت في الجبهة الغربية وفي القوقاز أيضا، حيث أسست دورا للأيتام وأدارت مستشفى ميدانيا. لكن الوضع أصبح خطيرا في أعقاب ثورة فبراير فعادت إلى منزلها. وقد اضطلعت ساشا، أو ألكسندرا، كما ينبغي أن نسميها لأنها ابتعدت الآن عن دور الابنة، اضطلعت بمسؤولية إدارة ياسنايا بوليانا عِوضا عن أمها المريضة في نهاية 1917. وقد سكنت في منزل العائلة القديم مع عمتها ألين وشقيقتها تانيا (كلتاهما من الأرامل الآن) وابنة أختها تانيا، وبدأت تهتم بإرث والدها. وسلَّمت صونيا أخيرا مفاتيح اثنتي عشرة خزانة من مخطوطات تولستوي كانت في عهدتها إلى ألكسندرا، وبذلك بدَّدَت آخر سبب للمشاكل بينهما. وهكذا بدأ أكبر أبنائها وأصغر بناتها (سيرغيه ذو الخامسة والخمسين وألكسندرا ذات الرابعة والثلاثين) عملا جديا في تحضير مخطوطات والدهما للنسخة النهائية العلمية المنظورة لأعماله الكاملة.

وبفضل مبادرة لينين الخاصة، شغل المشروع الهائل لأعمال تولستوي الكاملة رأس سلم أولويات الحيز الثقافي؛ إذ اعتُبر قضية ذات أهمية خاصة للدولة. وقد نُشرَت مقالة تتحدث عن هذا المشروع في الصحيفة البلشفية سوفيتسكي برافدا في نهاية يناير عام 1918، عندما ذُكر الرقم «ستون» كرقم نهائي لمجلدات الأعمال الكاملة (وقد أعيد توفير معاش صونيا التقاعدي في مارس 1918 بطلب شخصي من لينين، بعد أن توقف المعاش سنة 1917). وشكَّلَ الأرشيف في متحف روميانتسوف، الذي أودعت فيه مخطوطات تولستوي الأولى في مناسبة سابقة، خليةَ نحل للعمل الدؤوب في شتاء عام 1918. وكان منزل باشكوف، القصر المنيف الجميل الذي احتوى متحف روميانتسوف، يقع على مسافة قريبة من الكرملين، وكان ما يزال حاضناً لأهم مكتبة في موسكو، وسيصبح لاحقا نواة مكتبة لينين. وخلال الظروف القاسية التي أعقبت الثورة عام 1918، لم يكن أحد يكترث كثيرا بالأماكن والمباني العامة المجهزة تجهيزا كاملا، لا سيما في أشهر الشتاء؛ إذ لم يكن ثمة تدفئة. فتعيَّن على ألكسندرا وسيرغيه وزملائهما أن يعملوا وهم يرتدون المعاطف والقبعات، مع القيام بتمارين رياضية منتظمة للنجاة من تدني درجات الحرارة. وقد أوجدوا رابطة/ جمعية لدراسة ونشر أعمال ل. ن. تولستوي، ترأسُها ألكسندرا. لكنهم اقتنعوا بعد فترة وجيزة بأن تشيرتكوف وتولستويين آخرين يمكن أن يلعبوا دورا حاسما في التحضير لإصدار أيّ نسخة تشكل مرجعية. لم يكن تشيرتكوف عضوا في الرابطة، بل كان يحضّر لإصدار نسخة منافسة. وقد عين نفسه رئيس تحرير للأعمال الكاملة، وبدأ التفاوض مع لينين وأناتولي لوناتشارسكي؛ القوميسار (المفوض الحكومي) الجديد لتنوير الشعب، لنشر نسخة استشرف أنها ستتألف من تسعين مجلدا. وبحلول ديسمبر من عام 1918، حصل تشيرتكوف على ضمانات بتخصيص مبلغ 10 ملايين روبل من قِبل الحكومة البلشفية لدعم هذا المشروع. وقبل أن يصبح المال واقعا ويحصل عليه تشيرتكوف، قام بدفع أجور فريق التحرير المؤلف من ثلاثين محررا من جيبه الخاص.

وكان بولغاكوف فعالا جدا في تأسيس وإدارة متحف تولستوي في موسكو، لكن الوضع في ياسنايا بوليانا كان ما يزال ضبابيا، فقد كانت الأسرة تديرها كمتحف غير رسمي. لكن سوفناركوم؛ الذراع الإداري للحكومة السوفييتية الجديدة، تولّت مسؤولية إدارة العزبة في مايو من عام 1918، وسمحت بأن تبقى أرملة تولستوي ساكنة في المكان نفسه بقية عمرها، لكنها لم توفر المال بعد لصيانتها. وقد منع الكبرياء آل تولستوي من طلب المال من البلشفيين، لكن العزبة بدأت حالتها بالتدهور لدرجة أن تانيا اقترحت في فبراير من عام 1919 إحالتها إلى الرابطة المحلية التي أُسِّست محليا لتوفير الأمن.

وصفت تانيا في رسالة بعثت بها إلى شقيقها سيرغيه في أبريل، الظروف الرهيبة السيئة التي تعيش فيها مع ثلاثة عشر شخصا آخر من أفراد العائلة في ياسنايا بوليانا. كان الطعام شحيحا، ولم يستطيعوا أن يسدوا رمق الموظفين ناهيك عن إطعام البهائم والحيوانات الأخرى. وكان وضع الموظفين أسوأ بكثير؛ إذ تعيّن على بعضهم تحمل تسرب الفضلات إلى مسكنهم من حظيرة الخنازير المجاورة مما أدى إلى تعفّن الأرضية. كما كانت السقوف تُسرّب المياه، وسُرق حزام ماكينة الدّراس، واختفت بعض الكتب من مكتبة تولستوي، وأصبح أثاث المنزل مهترئا. ولجأت تانيا إلى حياكة الشالات لتبيعها مع عسل ياسنايا بوليانا في تولا. وعلينا أن نشكر الكي جي بي للحفاظ على رسالة تانيا لشقيقها؛ لأنها صودرت ونسخت عندما اعتُقلت شقيقتها ألكسندرا في السنة التالية. وعلينا أن نشكر أيضا الجهود العنيدة للكاتب الموسكوي فيتالي شينتالينسكي؛ لأنه استطاع أن يصل إلى الأرشيف في الثمانينيات من القرن العشرين بعد أن كان منيعا في السابق.

وافقت الحكومة السوفييتية في مايو من عام 1919 على اقتراح إدارة العزبة من قِبل رابطة ياسنايا بوليانا، على أن يستمر أفراد العائلة بلعب دور المرشدين للزوار. واحتفظت الرابطة بحق إدارة العزبة حتى عام 1921؛ العام الذي أُممت فيه أخيرا ياسنايا بوليانا ووُضعت تحت رعاية الحكومة السوفييتية. وبحلول ذلك الوقت أُمم أيضا متحف تولستوي في موسكو، وخُصِّص له

قصر جميل على شارع بريتشيستينكا، وقد تغير اسمه لاحقا ليصبح كروبوتكينسكايا. وأصبح الآن المستودع الرئيسي لـ 2.5 مليون صفحة من أرشيف تولستوي. ودُشِّن الافتتاح الرسمي في الذكرى العاشرة لرحيل تولستوي في العشرين من نوفمبر عام 1920 (فقد تبنَّت روسيا التقويم الغريغوري بعد ثورة أكتوبر). وقد أُمِّم أيضا منزل تولستوي في موسكو، وافتُتح كمتحف في العشرين من نوفمبر من السنة التالية. وقد سُمّي شارع دولغا-خاموفنيتشيسكي «شارع تولستوي».

في الأثناء، قررت أسرة تولستوي أن تقوم بشيء إزاء بيتوتر سيرغيينكو الذي عُيِّن سابقا رئيسا لرابطة ياسنايا بوليانا. فقد هَمَّش أفراد الأسرة بفظاظته وأخلاقه المتعالية مما جعله مكروها من قبل الجميع. أمسكت ألكسندرا بزمام المبادرة، فذهبت إلى موسكو لرؤية لوناتشارسكي فعيَّنها على الفور قوميسارا لياسنايا بوليانا. وهكذا أصبحت قادرة على طرد سيرغيينكو. كانت تلك سنة صعبة، ففي نهاية عام 1919، وبعد أن تضررت من سلوك سيرغيينكو المستبد المتعجرف الفظ، أصيبت صونيا بوعكة صحية وأصبحت نحيلة الجسد هزيلة القوى، ثم توفيت. وفي رسالتها الأخيرة الجياشة بالمشاعر التي كتبتها لأولادها وشقيقتها تانيا قبل موتها، ودَّعَت الجميع وطلبت الغفران من بناتها ومسامحتها على الألم الذي سببته لهن. لكنها أنهت الرسالة بملاحظة متفائلة عندما شكرت حبيبتها وحفيدتها تانيوشكا التي بادلتها الحب وجلبت إليها الكثير من الفرح.

بخلاف تعيينها قوميسارا من قبل لوناتشارسكي، اعتُقلت ألكسندرا لأول مرة في شقتها في موسكو في يوليو من ذلك العام. وقبعت وراء قضبان سجن لوبيانكا لفترة قصيرة في هذه المناسبة. فقد كان تشيرتكوف ما يزال يمارس نفوذا معتبرا، فكتب رسالة على الفور إلى فيليكس دزيرجينسكي؛ مؤسس ورئيس التشيكا، التجسيد الأول لما سيصبح لاحقا الكي جي بي. وعلى افتراض أن اعتقالها قد حصل بالخطأ، فقد كان تشيرتكوف ناجحا في طلبه اللطيف لإطلاق سراحها. عزَّزَت ألكسندرا في فبراير موقفها من خلال التأكيد على تعيينها قوميسارا في

وزارة تنوير الشعب. وفي الشهر التالي عينتها وزارة الزراعة أيضا مسؤولة عن الزراعة في ياسنايا بوليانا. لكنها بعد أيام قليلة اعتُقلت على يد التشيكا مجددا، واتُّهمت هذه المرة بالقيام بأنشطة مناوئة للثورة. استشرف والدها عام 1905 اندلاع الثورة الروسية، ولم يكن لديه أدنى شك من بالعنف الذي سيفضي في نهاية المطاف إلى اضطرابات عارمة كان يشجبها أشد الشجب. لكنه لم يتوقع أن ابنته العزيزة وتابعته المتفانية ألكسندرا، سوف تقبع بعد عشر سنوات من وفاته في زنزانة تملؤها الجرذان في سجن لوبيانكا رديء السمعة، في انتظار التحقيق معها من قِبل الشرطة السرية.

أمضت ألكسندرا شهرين في السجن قبل أن يلتمس رفاقها التولستويّون بنجاح خروجها بكفالة حتى مثلت أمام المحكمة في أغسطس عام 1920. ولا شك أن والدها كان سيكون فخورا بمرافعتها الجريئة في المحكمة:

«لا ألجأ إلى هذه المرافعة لأدافع عن نفسي؛ لأنني لا أعتبر نفسي مذنبة بأي جرم. لكنني فقط أردت القول للمواطنين الذين يطلقون الأحكام عليَّ، بأنني لا اعترف بأحكام البشر، وأعتبر أن من سوء الفهم أن يُعطى الإنسان حقًا ليصدر أحكامه على الآخرين. فأنا اعتبر أننا جميعا بشر أحرار، وأن الحرية تكمن في داخلي، ولا يستطيع أحد أن يحرمني منها ولا حتى جدران القسم الخاص أو الاعتقال في المعسكر. فهذه الروح الحرة ليست تلك التي تحيط بها حراب الجنود في روسيا الحرة، بل حرية روحي التي ستبقى معي ما حييت».

وهكذا حُكم على قوميسار ياسنايا بوليانا، ألكسندرا، بالسجن ثلاث سنوات في دير نوفوسباسكي في موسكو؛ الذي حوّله البلشفيون بعد الثورة إلى معسكر اعتقال، بسبب استضافتها لأعضاء في منظمة يُزعم أنها مناوئة للثورة، والسماح لهم من دون قصد بعقد لقاء في شقتها. كتبت ألكسندرا رسالة من زنزانتها وجَّهتها إلى لينين:

«فلاديمير إيليتش!! إذا كنتُ مُؤذية لروسيا، أرسلني إلى خارج البلاد. وإذا ألحقتُ الضرر ببلد المنفى، عندها ووفقا لحق المرء بحرمان الآخر من الحياة، اقتلني لأنني عضو مؤذٍ في

الجمهورية السوفييتية. ولكن لا ترغمني على الاستمرار في هذا الوجود البائس كمتطفل مسجون بين أربعة جدران مع البغايا واللصوص والبلطجية».

أُطلق سراح ألكسندرا في الواقع بعد شهرين فقط من سجنها شريطة ألا تتردد على الفعاليات العامة. لكنها اعتُقلت مجددا بعد فترة وجيزة بسبب حضورها محاضرةً قدَّمها بولغاكوف في الذكرى العاشرة لوفاة والدها. ثم أُطلق سراحها بعد بضعة أشهر في فبراير/ كانون الثاني من عام 1921 بفضل تدخل أصدقائها وتوقيع الفلاحين في ياسنايا بوليانا والقرى المجاورة على عريضة تطالب بالإفراج عنها. ثم اعتقلت مجددا، لكن لفترة وجيزة في أغسطس من العام نفسه.

بدأ أتباع تولستوي يعانون من صعوبات مع الحكومة السوفييتية في عام 1919. ففي عام 1917 أصدرت الحكومة المؤقتة عفواً بحق التولستويين يعفيهم من الخدمة العسكرية. بيد أن البلشفيين بدؤوا في أعقاب ثورة أكتوبر بحملة جديدة ضدهم. فقد كانوا مصممين على تجنيد أتباع تولستوي وغيرهم من رافضي الخدمة العسكرية الذين كان بعضهم قد عاد لتوه إلى المنزل من السجون، في الجيش الأحمر. وكان تشيرتكوف معارضا بطبيعة الحال لفكرة تجنيد رفاقه، ولم يقبل أيّ تسويات، لا سيما عرض السلطة بعمل التولستويين في الوحدات الطبية للجيش. وبفضل سلطته في هذه المرحلة، فاز تشيرتكوف في هذه المعركة، فقد أقنع البلشفيين بحذاقة عجيبة بأنه يُعتبَر رمزا مهما لمنظمة دولية هائلة، وهذا ما رفع من مكانته وعزز من علو كعبه وقلَّده مناصب رفيعة. ففي عام 1918 أصبح رئيس المجلس المتحد الذي يرمي إلى حماية المجتمعات الدينية السلمية في روسيا. وكانت تلك المرة الأولى التي وُضع فيها التولستويون في خانة الأقليات الدينية من الطوائف المختلفة كالمعمدانيين والمناونة. استمر تشيرتكوف في معارضته للبلشفيين، وتراجع جزئيا فقط من خلال تنازلٍ قدّمه بعد اجتماع مع لينين بغية الاتفاق على مرسوم رسمي سيصدر عام 1919.

وجد تشيرتكوف نفسه يكتب مئات من شهادات التزكية لاتباع تولستوي في تلك الفترة. كما كان أيضا يتوق لتضع الحرب الأهلية أوزارها، فقام في أكتوبر 1919 بكتابة رسالة مشبوبه

بالعاطفة عنوانها: «رسالة إلى الأصدقاء الإنجليز»، ناشد فيها بالتدخل الأجنبي في روسيا، السري والمعلن، وعدم ترك روسيا تعيد البناء الاجتماعي فيها بمفردها. وحاجج بالقول إن تولستوي لعب دورا كبيرا في هذه المهمة؛ لأن الناس يجدون فيه تعبيرا قويا وواضحا عن معتقداتهم الخاصة الأكثر قداسة وتطلعاتهم الواعدة. وبيّن أن كتابات تولستوي الدينية التي يستطيع العامة الوصول إليها لأول مرة عليها طلب هائل في أعقاب الحرب العالمية الأولى، التي أكدت على جميع تنبؤات تولستوي. كان تشيرتكوف على يقين بأن طبقة العمال في كل مكان ستستلهم الكثير من كتاباته، لكن الشعب الروسي «غير الملوث بحضارة الغرب»، هو الشعب الذي تموضع في موقع يؤهله لفهم وتثمين تعاليم المسيح في جانبها الصافي غير المشوه الذي فسَّره تولستوي.

شكلت فترة الحرب الأهلية «العصر الذهبي للتولستويَّة»؛ إذ تحولت أفكار تولستوي إلى واقع في المجتمعات[210] التولستوية الجديدة التي بدأت الانتشار، ودارت النقاشات بشأنها كونها أموراً حياتية بالغة الأهمية. ودخل التولستويُّون في سلسلة من النقاشات المحمومة مع لوناتشارسكي وغيره من المتنورين أمام حشود عظيمة في متحف البوليتكنيك في موسكو. وفي الخامس من مارس 1920 على سبيل المثال ظهر بولغاكوف إلى جانب الشاعر الرمزي واسع الاطلاع فياشيسلاف إيفانوف وحاخام يهودي وكاهن مسيحي. واكتظت القاعة الكبرى في معهد موسكو للموسيقى في نوفمبر من العام نفسه بحضور ألفي شخص أرادوا المشاركة في فعالية في الذكرى العاشرة لوفاة تولستوي. ولم يستطع بولغاكوف، الذي كان ناقدا لاذعا للبلشفيين، لم يستطع أن يكمل خطابه في خضم موجات التصفيق العارم والصّفير المدوّي. وكان اسم تولستوي ما يزال يتردّد على جميع ألسنة الناس في مجتمع المهاجرين الرّوس الذي تأسس في باريس بعد الثورة مباشرة، وكان ثمة كثيرون أرادوا إلقاء اللائمة عليه مباشرة في انتصار البلاشفة. ولم يستطع رجل الدولة السابق فاسيلي ماكلاكوف أن يبتر الصلة بين

(210) الكوميون Commune.

تولستوي والبلشفية في خطاب له في باريس في الذكرى العاشرة لوفاته، بينما كان آخرون كثر مستعدين للقول بأن أفكار تولستوي بشأن عدم مقاومة العنف بالعنف كان لها تأثير خطير للغاية، ويجب أن تُعارَض بإظهار القوة.

بزغ نجم رجل مهم في تلك السنوات هو فلاديمير بونش – بروييفتش؛ الذي كان قد عمل مع تولستوي وتشيرتكوف في السابق لمساعدة الدوخوبوريين على الهجرة قبل الثورة. وقد احتل الآن منصبا رفيعا في الحكومة البلشفية؛ إذ ساعد تشيرتكوف في ترتيب لقاءات متكررة مع لينين. وأدت المجاعة التي انتشرت إبان الحرب الأهلية إلى تذكير البلاشفة بأن الدوخوبوريين وغيرهم من أتباع الطوائف الأخرى كانوا مزارعين مميزين. وقد استجاب لينين بحماسة لطلب بعض الدوخوبوريين في كندا للسماح لهم بالعودة إلى وطنهم لكي يسهموا في إنعاش الاقتصاد الوطني. وتشجع التولستويون بفضل هذه التطورات، واطمأنوا بفضل الاحترام الذي حظي به تشيرتكوف، وبدؤوا بعقد اجتماعات في كافتيريا رابطة النباتيين في موسكو، ونظَّموا مجتمعات بحسن نية بعيدا عن التشكيك في السياسة الرسمية للبلاشفة. وكان أتباع تولستوي في معظمهم من الفلاحين القادمين من المناطق الريفية، بالإضافة إلى مدرسين وأطباء وموظفين مدنيين أصبحوا جميعا فلاحين طواعية، متبعين بذلك قدوتهم تولستوي. فعلى سبيل المثال، أسس عالم جيولوجيا يُدعى بوريس مازورين، وقد أصبح من أتباع تولستوي بعد تقزّزه من رؤية مشاهد العنف المستمر من حوله، أسس مجتمع «الحياة والعمل» في ديسمبر من عام 1921 في الضواحي الجنوبية لموسكو (بالقرب من محطة مترو بيليايفو). وبحلول عام 1925 أصبح ذلك المجتمع مكتفيا ذاتيا. وكان ثمة تفاوت في صفوف التولستويين الذين شكلوا تلك المجتمعات؛ لأنهم لم يشاركوا تولستوي جميع تطلعاته بشأن مزاولة حياة روحانية بعيدا عن أي تدخلات من قبل الدولة، لكنهم كانوا جميعا متفقين على أهمية ونبل العمل في الحقول كشرط مسبق لاستقلاليتهم.

بدا أتباع تولستوي على مستوى معين قوةً يُحسَب لها ألف حساب. فلم يكن تشيرتكوف منسق مؤتمر الطوائف الدينية المنعقد في يونيو 1920 فحسب، بل رئيس أكبر وفد أيضا؛ فقد شارك 20 من أتباع تولستوي في ذلك المؤتمر. ولكن البلاشفة، على مستوى آخر، أصبحوا في فترة وجيزة ميّالين للتشدّد. فعندما رُفعت شكاوى بشأن الانتهاك المتكرر للمرسوم الخاص بمعارضي الخدمة العسكرية، اتضح أن الجيشين الأحمر والأبيض كانا قد تجاهلا بالفعل ذلك المرسوم. بالفعل، فقد أعدم البلاشفة 100 من أتباع تولستوي المعارضين للتجنيد العسكري رميا بالرصاص، من بينهم ثمانية أوائل أُعدموا بحلول ديسمبر 1919. وفي نهاية عام 1920، عدّل البلاشفة مرسوم عام 1919، ثم فضّوا ببساطة المجلس الذي كان يترأسه تشيرتكوف. وكان المجلس قد نظر في طلبات من زهاء 40 ألفا من معارضي الخدمة العسكرية. وأخيرا، في نوفمبر من عام 1923، قرر قوميسار الشعب المعني بالعدالة إزالة أتباع تولستوي من قائمة الإعفاء الخاصة بالمعارضين الحميدين ذوي النوايا الحسنة؛ ذلك أنهم قرروا آنئذ أنهم لا ينتمون إلى أيّ طائفة دينية ويعارضون الخدمة العسكرية على أسس أخلاقية. ولحسن الحظ أن الضغوطات كانت قد خفت حدّتها على أولئك الذين عارضوا الخدمة العسكرية؛ لأن الحرب الأهلية كانت على وشك الانتهاء في تلك الفترة.

ولم تكن معارضة الخدمة العسكرية المشكلة الوحيدة التي تعيّن على تشيرتكوف التصدي لها، فقد بدأ بالصدام مع البلاشفة بسبب النسخة المنظورة لأعمال تولستوي الكاملة التي استغرقت وقتا طويلا لتخرج إلى النّور. ففي يوليو من عام 1919، وفي الفترة التي فُتشت فيها شقة ألكسندرا للبحث عن مواد مناوئة للسلطة، قرر البلاشفة تأميم جميع مخطوطات الكُتّاب الروس الموجودة في مكتبات الدولة. وقد عنى ذلك احتكار صناعة النشر أيضا. وكان من الطبيعي أن يعارض تشيرتكوف ذلك التوجه؛ لأن تولستوي كان قد تخلى عن حقوق النشر لجميع أعماله. وقد حاجج بالقول بأن تولستوي لم يكن ليوافق على أن تصبح كتاباته ملكـًا لأي شخص أو أيّ مؤسسة، لا سيما الدولة، وقد اعتبر -وهو محق- أن احتكار الدولة يعني

بالضرورة الرقابة على كل ما يُنشَر. وفي سبتمبر عام 1920 تم أخيرا ترتيب موعد له مع لينين لمناقشة المسألة، بما في ذلك رفض أتباع تولستوي الالتحاق بالجيش الأحمر، لكن النقاشات وصلت إلى طريق مسدود.

وجد تشيرتكوف مخرجا لمشكلة حقوق النشر لأعمال تولستوي الكاملة، عندما أدخل لينين السياسة الاقتصادية الجديدة في مارس عام 1921. فقد سمح ذلك بالعودة المؤقتة للمشاريع الخاصة؛ بغية إنعاش الاقتصاد المُدمَّر بسبب الحرب الأهلية، وقد استغل تشيرتكوف الداهية الوضع لصالحه. وكانت ألكسندرا قد خرجت من السجن في تلك الفترة، فقامت بتجديد ارتباطها بتشيرتكوف في محاولة للدفع قدماً بمشروع أعمال والدها الكاملة، لكنها ترَّأست مجموعة مختلفة عن مجموعة تشيرتكوف. وعندما أصبح الأمر قانونيا، قام تشيرتكوف وألكسندرا بتأسيس رابطة تعاونية لدراسة ونشر أعمال ليف نيكولايفيتش تولستوي. وفي الثامن من أبريل، دعت الرابطة تشيرتكوف ليصبح رئيس التحرير فيها. كان تشيرتكوف منشغلا في تلك الفترة أيضا بكتابة تحفته الأدبية التي تناولت أيام تولستوي الأخيرة ورحيله من ياسنايا بوليانا. وقد شكلت وفاة صونيا (صوفيا أندرييفنا) عاملا محرراً له دفعه للحديث بصراحة بكل ما يختلج به صدره. وهكذا، كان من الطبيعي أن يبرئ ساحته ويلقي باللوم، في مأساة سنوات تولستوي الأخيرة، على «مشاكل تولستوي الزوجية».

نُشر كتابه عام 1922 فأحزن محتواه جميع أولاد تولستوي بمن فيهم ألكسندرا. وما لبث ليف لفوفيتش أن ثأر من تشيرتكوف، الذي كان يمقته بشدة، بسبب تلطيخه لسمعة والدته صونيا من خلال نشر كتاب ألفه في السنة التالية في براغ حيث كان يعيش، وعنون الكتاب «حقيقة أبي»، ورسم فيه أمه بأفضل صورها المتألقة. ولم يحرك ذلك ساكنا في تشيرتكوف، فقد برهن أنه شجاع مقدام. وبصرف النظر عن شعور المرء بعدم الارتياح إزاء فظاظته وعوزه للكياسة واللباقة خلال السنوات التي أعقبت موت تولستوي، فإنه ينبغي مع ذلك أن يُحترَم

رفضه وتشبثه بعدم التفريط في معتقداته إبان الجو العدائي المتنامي في ذروة الستالينية في الثلاثينيات من القرن الماضي.

وعندما أُطلق سراحها من السجن عام 1921، استقرت ألكسندرا مجددا في ياسنايا بوليانا حيث كانت ما تزال قوميسارا، لكنها استُدعيت في يونيو للقاء ميخائيل كالينين رئيس اللجنة المركزية. وبعد أن ترجلت من القطار في موسكو، انطلقت ألكسندرا على دراجتها الهوائية باتجاه الكرملين. وفي ذلك اللقاء المهم اتُّفق على أن ياسنايا بوليانا ستغدو الآن ملكاً للاتحاد الروسي، وستدار كمجتمع/ كوميون تحت اختصاص لجنة تنوير الشعب، وستحتوي على مدرسة ومكتبة ومستشفى. وبالتالي تغيَّر لقب ألكسندرا حينها من قوميسار إلى «قيّم أو أمين أو ناظر». كما أنها فُوِّضت للاضطلاع بمسؤولية إدارة العزبة كمتحف تُنظَّم فيه المحاضرات والفعاليات، وترأس المدرسة الجديدة أيضا. أما الأعمال الزراعية فقد اضطلع بها أتباع تولستوي. لكن المجتمع استمر لأقل من سنة؛ لأن سبعة عشر شخصا ممن اتخذوا ياسنايا بوليانا سكناً لهم في مارس من عام 1921، وادّعوا أنهم تولستويون، أظهروا في الحقيقة أنهم عصبة من الفاشلين. فقد كانوا يتشاجرون فكريا فيما بينهم بسبب أمور تافهة؛ كحرمة إزالة الدود من الملفوف على سبيل المثال، لأن قتل «أي كائن حي» أمرٌ محظور، ولم يكونوا قادرين على العمل أصلا. وبالتالي، غادر هؤلاء «التولستويون الزائفون» بعد فترة وجيزة، وتحول عدد منهم بقدرة قادر إلى مخبرين شيوعيين متفانين. أما ألكسندرا فقد استغلت طاقتها في تأسيس مدرسة القرية في ياسنايا بوليانا، وإعادة العزبة إلى سابق عهدها كما كانت قبل الثورة.

لم تكن ألكسندرا وحدها التي استرعت اهتمام الشرطة السرية من بين أتباع تولستوي في بداية العشرينيات من القرن العشرين؛ فرغم نفوذه السياسي، تعرض تشيرتكوف نفسه إلى عدد من الإدانات بين عامي 1920 و1922. فبينما أصبح أكثر نقدا وأشد معارضة للبلاشفة، أُرسل مخبرون من التشيكا ليراقبوه ويرفعوا تقارير بشأن تحركاته وما يحدث أيضا في مقر رابطة الحرية الحقيقية التي كانت الكافتيريا والمكتبة فيها أوكاراً مشهورة لأتباع تولستوي ومن على

شاكلتهم. وبخلاف المخبرين والعرّافين العاملين بدوام جزئي؛ ذوي الضفائر المتدلية والسترات المخملية الذين اعتقلوا ألكسندرا، لم يكن جميع المخبرين البلاشفة على اطلاع واسع مثلهم. ففي أحد التقارير التي ذكرت نقاشا تناول شخصا يدعى «سقراط»، نوّه العميل عاثر الحظ في جملة اعتراضية بأنه لا يعرف ذلك الشخص، ولم يكن يعلم بالتالي أنه فيلسوف قضى منذ وقت طويل.

اعتُقل 60 من أتباع تولستوي في فتيبسك في نهاية العقد الثالث بتهمة القيام بأنشطة «معادية للسوفييت». وكانت المسألة مسألة وقت قبل أن يُستهدف تشيرتكوف وبولغاكوف اللذيْن دُوهِم منزلاهما من قبل التشيكا في ديسمبر من عام 1922. وقد استدعيا إلى سجن لوبيانكا للاستجواب. لكن تشيرتكوف رفض بتحدٍّ أن يشارك، وطالب بهدوء وبرودة أعصاب باسترداد الأوراق التي صادروها. عندها، قرر البلاشفة أن يرسلوه مع بولغاكوف إلى المنفى لثلاث سنوات. كان بولغاكوف قد تدخل في السابق لإطلاق سراح ألكسندرا لفوفنا وحان الوقت الآن لكي تتدخل وتطلب الصفح عنه. في فبراير من عام 1923 كتبت رسالة لليف كامينوف، رئيس المكتب السياسي المهم الجديد الذي ضم حينها لينين وستالين وتروتسكي وكريستنسكي، وطلبت منه أن يسمح لبولغاكوف بالبقاء في موسكو؛ لكي يستمر في عمله المهم في متحف تولستوي حيث كان مديراً. بينما كتب تشيرتكوف رسالة فيها من التنطع وحفظ الكرامة ما فيها وأرسلها إلى أفيل إنيوكيدزي؛ وهو بلشفي بارز آخر وصديق مقرب من ستالين وعضو في اللجنة المركزية. وقد حاجج في رسالته بالقول بأنه في نهاية الستينيات من عمره ولم يتبق لديه كثير من الوقت. وعليه فإن نفيه سوف يعطل الاستمرار في مشروعه المهم لإنتاج أعمال تولستوي الكاملة. سُمح في نهاية المطاف لتشيرتكوف بالبقاء، لكن دزيرجينسكي رفض التنازل في قضية بولغاكوف المعروف بلقب «فيليكس الحديدي». وبعد شهر ونيف غادر بولغاكوف مع أسرته إلى تشيكوسلوفاكيا وسمح له بالعودة إلى روسيا بعد ست وعشرين سنة عام 1949. وعندما عاد استأنف عمله مباشرة في متحف تولستوي في موسكو.

حين اعتقد تشيرتكوف بأن سياسة لينين الاقتصادية الجديدة سوف تجلب حرية أعظم من خلال نشر أفكار تولستوي كان مخطئا. ففي عام 1923 أقفل البلاشفة دار النشر التولستوية الجديدة «زادروجا» كجزء من سعيهم لجعل جميع دور النشر خاضعة لسيطرة الدولة. كما طالبت زوجة لينين ناديجدا كروبسكايا بإزالة جميع كتابات تولستوي الدينية من مكتبات البلديات. اعتبرت الحكومة القيصرية في السابق كتابات تولستوي الدينية كتابات هرطقة. وخلال خمس سنوات أصبحت كتاباته أيضا غير مقبولة من قِبل الحكومة الجديدة. علا كعب البلاشفة في تلك الفترة، وسيطروا على جميع المعارضين، واعتبروا التولستوية أيضا تهديدا لهم. وكما أزعج الكاتب العالمي المشهور، الذي تحول إلى فوضوي ودعا بعدها إلى عدم مقاومة العنف، الحكومة القيصرية في حياته، أزعجَ البلاشفةَ أيضا بعد مماته؛ إذ اعتبروا التعامل مع إرثه أمرا صعبا للغاية. فمن جهة، كانوا يهابونه ويبجلونه لأنه هاجم الدولة الروسية القيصرية وفضح عيوب مؤسساتها الأخلاقية، لكنهم في المقابل لم يستطيعوا أن يستسيغوا رفضه القاطع لأي دولة مهما كان شكلها. والمشكلة هي أن تولستوي لم يكن فقط «الروائي الأعظم في أي عصر وفي أي بلد»، كما علق الكاتب السياسي البلجيكي البارز تشارلز ساروليا بعد زيارة إلى الاتحاد السوفييتي عام 1923، لكنه أيضا كان «أحد أعظم المعلمين والدّاعين في العصر الحديث». لم يكن سارولينا الشخص الوحيد بالطبع الذي وصل إلى هذه النتيجة التي تدعو إلى المفارقة، والتي تقول بأن ثمة رابطا مباشرا بين تولستوي والبلشفية. فقد كان ذلك موضوعا تناقله كثير من الناس في بداية العشرينيات في روسيا وخارجها. أما المدى الذي كان البلاشفة ما يزالون يعتبرون التولستوية أحد أهم التهديدات التي تواجه دولتهم الشيوعية الناشئة فيه، فيمكن قياسه بحقيقة أن لوناتشارسكي كان قد قدم محاضرة طويلة عن الموضوع عام 1924 وتحوَّلت إلى كتاب أيضا. وقد صرح فيها على نحو حاسم بأن الأيديولوجيات الأساسية التي ينقسم حولها الروس في تلك الفترة كانت الماركسية والتولستوية.

واختلف ثوار روسيا منذ البداية بشأن تولستوي لكنهم اعترفوا جميعا بأهمية أعماله. وقد لعب لينين دورا بارزا في الجدل القائم من خلال كتابة سبع مقالات تناولت تولستوي بين عامي 1908 و1911. ففي عام 1908 عزا فشل ثورة 1905 مباشرة إلى تأثير أفكار تولستوي التي تدعو إلى نبذ العنف. وقد أعيدت طباعة مقالته: «ليف تولستوي كمرآة للثورة الروسية» على نطاق واسع بعد وفاته، وأصبحت المرجعية السوفييتية هي التي تعكس وجهة النظر الرسمية في تولستوي. أما تروتسكي، الذي تناول أيضا تولستوي في كتاباته عام 1908 و1910، فقد كان أكثر إيجابية في تشخيص تأثير تولستوي على أحداث عام 1905، بينما تجاهل بليخانوف تأثير تولستوي مؤكدا على أنه لم يكن سوى إقطاعي رجعي ذي سلطة أبوية ليس في جعبته ما يقدمه للحركة الثورية. وطغى اسم تولستوي حتما إبان ثورات عام 1917، واستمر الناس بنقاش أفكاره، وكان له حضور في الخطاب العام؛ ذلك أن الحكومة البلشفية كانت تعاني من إيجاد طريقة تستغلُّ من خلالها إرث تولستوي.

ولم توضع سياسة واضحة بشأن تولستوي سوى في الذكرى المئوية لمولده عام 1928، وانتهى بذلك جدل حاد امتد لعشرين سنة. وما قام به البلاشفة هو فصل تولستوي عن التولستوية. ورغم «التناقضات» في تعاليمه، قرر البلاشفة في ذكرى مئوية ولادته أن يحتفوا بالمناسبة على نطاق واسع. وقد شُكلت اللجنة الحكومية المسؤولة بقيادة لوناتشارسكي عام 1926؛ أي قبل سنتين من المناسبة الكبرى. وعلقت ألكسندرا آمالا عريضة على تلك المناسبة وحقيقة أن الاحتفالية تم احتضانها رسميا على أعلى المستويات. فقد شكلت تلك المناسبة برأيها شكلا من أشكال الدفاع عن النفس في وجه عشرات الشيوعيين الذين وصفتهم بالذباب الذي يحوم حول ياسنايا بوليانا؛ على أمل أن يجدوا أخطاء تقترفها لكي ينددوا بها ويخبروا عنها. وشأنها شأن تشيرتكوف، تشبثت ألكسندرا بمعتقداتها التولستوية غير السياسية ورفضت الإذعان للحرب الدعائية المناهضة للدّين التي أُعلنت عليها. وفي عام 1924 أصبحت مدرسة ياسنايا بوليانا جزءا من شبكة المدارس الثورية في برنامجها التجريبي الذي استقى جزءا من

أفكار تولستوي بشأن التعليم. لكن الوضع ما لبث أن أصبح عدائيا على نحو مضطرد؛ إذ اعتُبرت ألكسندرا وزملائها ممثلين «للبرجوازية المقيتة»، وبالتالي تم الامتعاض من إنجازاتهم. ولم تقتصر الروح العدائية على سخرية وتهكم المسؤولين المحليين، بل تم الهجوم على ألكسندرا علناً في صحيفة «البرافدا»، بذريعة أن «الكونتيس السابقة» تستمر في استغلال العمال وتعيش حياة فسق وترف، بينما في الوقت نفسه تنشر بروباغندا دينية في صفوف طلابها. لكن ألكسندرا واجهت نقادها من خلال إعادة التأكيد على إعلان لينين بأن «السلطات السوفييتية يمكنها أن توفر مساحة لزاوية تولستوية في البلاد/ الاتحاد السوفييتي/ اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية». كما أنها ردّت من خلال نشر رسالة اعتراض على الانتقادات التي وُجّهت لها في الرابع من يوليو 1924 في صحيفة «البرافدا»، ومع ذلك كانت تشعر بأنها محاصرة من جميع الجهات.

عندما شُكلت عام 1926 اللجنة المسؤولة عن الاحتفال بالذكرى المئوية لولادة تولستوي، قدمت ألكسندرا مقترحات لعملية تجديد واسعة في ياسنايا بوليانا، بما في ذلك بناء مبان جديدة لتحتضن المدرسة والمستشفى. كما اقترحت إعادة تنظيم متحف تولستوي في موسكو، لا سيما أن شقيقتها تانيا كانت قد هاجرت من البلاد عام 1925 بعد أن تولت إدارة المتحف خلفاً لبولغاكوف بعد نفيه عام 1923. وبما أن إيليا وليف وميخائيل كانوا جميعا يعيشون خارج روسيا، وكان سيرغيه منشغلا في وظيفته في معهد موسكو للموسيقى، لم يتبقَّ سوى ألكسندرا التي لا تعرف الملل ولا الكلل لتتسلَّم منصب إدارة متحف تولستوي أيضا. تفهَّمَ كل من لوناتشارسكي وتشيرتكوف وغوسييف مقترحات ألكسندرا، لكنهم كانوا عاجزين عن القيام بأي شيء، والسبب في ذلك شح المال؛ فقد كانت قوميسارية/ لجنة تنوير الشعب اللجنة الأفقر دوما من بين جميع اللجان الأخرى. لكن ألكسندرا كشفت عن معدنها الحقيقي في تلك الفترة، إذ قررت التوجه إلى رأس هرم السلطة. وبعد زيارات متكررة قامت بها إلى موسكو حصلت في نهاية المطاف على موعد مع ستالين، الذي تسلَّم السلطة بعد وفاة الرفيق

لينين في يناير عام 1924. لكن اللقاء المقتضب كان عقاباً أكثر من كونه جزاءً، فقد رفض ستالين رفضا قاطعا دفع مبلغ مليون روبل للجنة الاحتفالات لتمويل برنامج التجديد والإعمار، وأصبح جلياً لدى ألكسندرا أن ستالين غير مهتم بتولستوي ولا يأبه البتة بالذكرى المئوية لولادته. أما ما كان مهتماً به بالفعل فهو استغلال الفعالية كفرصة مناسبة لحرب دعائية دولية، والقيام بذلك بتكلفة زهيدة.

أما مشروع الأعمال الكاملة لتولستوي فقد لفَّه الضباب أيضا. ففي عام 1926، قبل سنتين فقط من الذكرى المئوية لولادة تولستوي، لم يتم التوقيع على العقد لإتمام المشروع الذي ارتبط بتلك الاحتفالية. وكان تشيرتكوف أيضا يعقد لقاءات رفيعة المستوى مع القيادة السوفييتية. وقد أرغم على قبول فكرة احتكار الدولة «المؤقت» لمخطوطات تولستوي، بحيث يتم رفعه في المستقبل عندما تُنشَر الأعمال ذات الصلة. لكن تشيرتكوف وجد نفسه يطالب بشكل مستمر بأموال لدفع تكاليف فريق التحرير العامل لديه. وكان لقاؤه الأول بستالين في خريف 1924 قد آتى أكله. ففي نوفمبر من عام 1925، وافقت الحكومة السوفييتية أخيرا على منح مليون روبل لتغطية تكاليف المشروع. لكن وتيرة وصول المال إلى المعنيين كانت بطيئة، مما دفع تشيرتكوف في يونيو من عام 1926 إلى إرسال رسالة إلى ستالين؛ يخبره فيها بأنه لا يستطيع بعد الآن أن يدفع أجور 43 عضوا في فريق التحرير العامل على المشروع؛ فقد كان يدفع معظم رواتبهم من جيبه الخاص. وكانت ألكسندرا ما تزال منخرطة في المشروع، لكنها لم تكن تلتقي تشيرتكوف وجها لوجه. لكنهما توصّلا في النهاية إلى اتفاق عام 1925، مفاده أن يقوم فريقها بتحضير مخطوطات تولستوي التي تسبق عام 1880، ويقوم فريقه بالعمل على المخطوطات التي كُتبت بعد ذلك العام. وفي ديسمبر من عام 1925 اجتمع الفريقان تحت قيادة تشيرتكوف.

ارتأت اللجنة المركزية آنئذ تشكيل لجنة خاصة لرصد واستقصاء نسخة تولستوي الاحتفالية. وفي سبتمبر من عام 1926، عُيِّن ثلاثة أشخاص «ترويكا» لرئاسة اللجنة، على

رأسهم نائب ستالين؛ فياشيسلاف مولوتوف. وفي مارس من عام 1927، دفع مصرف الدولة أخيرا مبلغا بخسا بواقع 15 ألف روبل، بينما في الأثناء ضاع العقد في مستنقع البيروقراطية وتغير الموظفين في الغوزيزدات؛ دار النشر التابعة للدولة. كتب تشيرتكوف مجددا إلى ستالين في مارس عام 1928 ليعترض على رفض الغوزيزدات التوقيع على العقد رغم موافقة اللجنة الخاصة عليه. وفي الثاني من أبريل من عام 1928 تم التوقيع أخيرا على العقد. لكن حتى نشر المجلد الأول من الأعمال الكاملة جاء متأخرا، فقد مضى وقت لا بأس به على احتفالية الذكرى المئوية لولادة تولستوي. وفي تلك الفترة فقدت ألكسندرا اهتمامها بنسخة كان من الواضح أنها ستكون محدودة وباهظة التكلفة. كما شبت بعض المشاكل الإضافية بينها وبين تشيرتكوف بشأن رواتب المحررين، مما دفع تشيرتكوف إلى الاضطلاع بمسؤولية رئاسة التحرير.

كانت نسخة الأعمال الكاملة الخاصة باحتفالية تولستوي ستشكل المرجعية الأساسية لأي نسخ سوفييتية لاحقة. وتم تصميم أعمال فنية لتوائم أول 45 مجلدا، مع نشر مجلدات منفصلة للنسخ المختلفة من الأعمال الكبرى (فقد امتدت الحرب والسلام على 4 مجلدات مثلا). وعمل المحررون بكدّ في غربلة آلاف وآلاف من الصفحات التي كتبها تولستوي بخط يده الذي يصعب غالبا قراءته، قبل أن يقدموا مجلدهم للنقاش في لقاء من بين 156 لقاء جمعتهم باللجنة المختصة خلال فترة نشر نسخة الأعمال الكاملة. وقامت اللجنة بتصحيحات بلغت أكثر من 900 قبل أن تُشذَّب نهائيا النسخة النهائية من آنا كارينينا (رغم أن تلك النسخة حلّت محلها نسخة أخرى لاحقا نشرتها أكاديمية العلوم عام 1970). ونُشرت أعمال تولستوي الأدبية الفنية في ثلاثةَ عشر مجلدا من مذكراته ودفاتر ملحوظاته، وأخيرا، في واحد وثلاثين مجلدا من رسائله. فقد كتب تولستوي 8,500 رسالة في حياته على الأقل، وكان تشيرتكوف أكثر شخص تراسل معه مقارنة بالآخرين.

نُظمت عام 1928 مئات من الفعاليات في طول البلاد وعرضها احتفاءً بيوبيل مئوية ولادة تولستوي، وكانت تلك المرّة الأولى التي تتعهد فيها الحكومة السوفييتية تلك الاحتفالات في عموم البلاد تكريما لكاتب ينتمي إلى حقبة ما قبل الثورة. وبسبب ما أحاط تلك الذكرى من تضارب في المواقف، اهتم البلاشفة في استغلال هذه المناسبة لتثقيف المواطنين بشأن كيفية التعامل مع أفكار تولستوي. وهكذا، بالإضافة إلى إصدار طوابع استذكارية، صدرت توجيهات تحتوي تعليمات بشأن كيفية الاحتفاء بالمناسبة. أما الموقع الأهم في جميع الكتابات التي تناولت تولستوي، منذئذ ولغاية نهاية النظام السوفييتي، فقد احتلته مقالة لينين عام 1908. وبدأت الاحتفالات الرئيسية بميلاد تولستوي في يوم التاسع من سبتمبر (الموافق للثامن والعشرين من أغسطس بحسب التقويم القديم) واستمرت لأسبوع. ووفقا لرأي لوناتشارسكي الذي أدلى بخطاب في المناسبة، فإن «الاهتمام الهائل» بتولستوي في الدولة السوفييتية الجديدة مصداق لكونه ما يزال حيًا. كان تولستوي بالفعل الكاتب الأكثر قراءة في روسيا في تلك الفترة وفقا للبيانات التي جمعتها المجلة البلشفية «المكتبي الأحمر»، والكاتب الوحيد الذي حافظ على شعبيته السابقة في فترة ما بعد الثورة. حتى في الأرياف، تعيّن في معظم الأحيان على القراء أن ينتظروا شهورا على قائمة الانتظار ليتسنى لهم فرصة قراءة نسخة الحرب والسلام الوحيدة التي كانت في مكتبتهم المحلية.

كان أحد المعجبين المتيّمين بتولستوي؛ الكاتب النمساوي ستيفان زويغ، من بين الزوار الأجانب المرموقين الذين دُعوا إلى روسيا ليشاركوا في احتفالات عام 1928. وقد دُشنت الاحتفالات بأمسية تذكارية في مسرح البلشوي في موسكو في التاسع من سبتمبر. وكأي شيء آخر في تلك الحقبة، نُظِّمت الفعالية من قبل البيروقراطيين السوفييت الذين اهتموا اهتماما بالغا ودققوا كثيرا في المذكرات والتصاريح والتذاكر. كتب ستيفان يستذكر ما جرى: «بدأت الفعالية الرئيسية في التاسعة والنصف مساء بعد أن أُعلن أنها ستبدأ في السادسة. وعندما غادرتُ دار الأوبرا متعبا منهكا في الثالثة صباحا كان الخطباء ما يزالون في خضم خطاباتهم». وانتقلت

الاحتفالات بعدها إلى ياسنايا بوليانا. وفي الثاني عشر من سبتمبر، في السابعة صباحا وتحت المطر الشديد، ذهبت ألكسندرا إلى محطة بوليانا (محطة زاسيكا كما تعرف اليوم)، برفقة صحفيين ومصورين وسكان محليين فضوليين. وقد حيّوا هناك الوفد الرسمي المكون من 80 ضيفا كانوا قد سافروا من موسكو، بمن فيهم الممثلة أولغا نيبار (أرملة تشيخوف)، وأساتذة مرموقين وضيوف أجانب كان يمكن التعرف عليهم ببساطة من حُسن هندامهم. وفي القطار تحدث زويغ إلى لوناتشارسكي حول إذا ما كان تولستوي ثوريا أو رجعيا، وإذا ما كان الكاتب العظيم يعرِفُ نفسه في المقام الأول. اعتقد لوناتشارسكي بأن تولستوي من خلال حماسته لتغيير العالم «بحركة إصبع بين ليلة وضحاها» أظهر أنه روسي متأصل، شأنه شأن البلاشفة الذين أرادوا تحديث البلاد بين ليلة وضحاها.

لعب لوناتشارسكي، كوزير مسؤول عن الثقافة السوفيتية في العشرينيات من القرن التاسع عشر، دورا محوريا في عملية استيعاب تولستوي داخل الأيديولوجيا البلشفية في السنوات الأولى من حكم ستالين. وقد نشر مجلدا من كتاباته عن تولستوي في عام 1928. لكنه كرجل مثقف ومتعلم، لم يجد دائما القيام بمهامه أمرا سهلا. ولأن آراءه المعتدلة نسبيا لم يكن لها حيز في تلك الحقبة من الحكم السوفيتي، فقد خسر وظيفته في السنة التالية. وقد طفا على السطح جانب من شخصيته في الثاني عشر من سبتمبر في ياسنايا بوليانا، عندما أدلى أولا بالخطاب الرسمي المنمق الاعتيادي، ومنع بالتالي محاولات ضيف سلوفاكي وألكسندرا من الحديث عن مضايقتهما من قبل عساكر الحزب الشيوعي. لكنه قام بعدها بتقديم خطاب صادق جياش بالمشاعر يعكس شخصيته الحقيقية بشأن ما كان يعني له تولستوي شخصيا. وبعد يوم حافل بالخطابات، أنشد كورال مؤلف من 250 طالبا في مدرسة ياسنايا بوليانا «أغنية الفرح» لبتهوفن؛ السمفونية التاسعة (ندد بها لاحقا صحفي جريدة البرافدا معتقدا أنهم كانوا ينشدون ترانيم دينية). وقامت النساء القرويات بإخراج البلوزات المطرزة القديمة والشالات الملونة من حقائبهن، وبدأن يغنين الأغاني الفولكلورية.

غُطّيَ الاحتفالية إعلامياً على نطاق واسع. ونُشرت افتتاحية عن الحدث في صحيفة البرافدا في التاسع من سبتمبر (لم يوقِّع عليها أحد من المحررين، ويُعتقَد أن ستالين نفسه ربما كان قد كتبها). وبعد أن نظَّرت الافتتاحية في موضوع تكريم البلاشفة، الذين «اختاروا العنف الثوري» واعتبروا «الدّين أفيون الشعوب»، لكاتبٍ «لم يفهم» حركة البروليتاريا وكانت الثورة أمرا غريبا عليه، وصلوا إلى نتيجة مفادها أنه يجب أن يكرموه. لكن مع ذلك تم تشكيل قائمة بعشرين عملا روائيا مقبولا لتولستوي، واستمر الاقتباس من مقالات لينين الناقدة له وتم التنديد جملة بآرائه الفلسفية. لكن تقدما مهما حصل في دراسة تولستوي أكاديميا في العشرينيات من قبل علماء الأدب (من أمثال المتزمتين بوريس إيكهينبوم وفيكتور شكلوفسكي). لكن الرابطة الروسية للكتاب البروليتاريين أمنت نفسها من خلال تأصيل تفسيراتها لتولستوي بالاعتماد على نقد لينين الأدبي، لا سيما توصيفه الشهير عام 1908 لأسلوب تولستوي كونه «يسقط جميع الأقنعة»، والذي قُدّم كنموذج جدّي يحذو حذوه الكتاب السوفييت الصاعدون المبتدئون. في حقيقة الأمر، كانت الرموز السياسية من أمثال لينين وروزا لوكسمبورغ هي التي سيطرت على المنشورات التي تناولت تولستوي في فترة مئوية مولده. وربما احتوى أحد المجلدات التي نشرت عام 1929 العمل المنشور الأخير الذي ألفه تروتسكي قبل أن يُطرَد من الاتحاد السوفييتي في تلك السنة. أما عناوين الفصول في أحد المجلدات الكثيرة التي نُشرَت حول تولستوي في تلك المناسبة عام 1928، فيعكس الجهود التي بذلتها الحكومة السوفييتية لجعل الكاتب العظيم مقبولا لدى النظام:

الجزء الأول: اليوبيل ومهمتنا.

الجزء الثاني: تولستوي المفكر.

- تولستوي والحقبة التي عاش فيها.
- شح التأليف: الأسباب الاجتماعية.
- المادية الديالكتيكية والمثالية الدينية.

- نزاع الطبقات وعدم مقاومة العنف.
- نقد تولستوي للرأسمالية.
- نقد تولستوي للوطنية والعسكرة.

الجزء الثالث: تولستوي الفنان.

الجزء الرابع: تولستوي والشعب السوفييتي.

وفي ظل هذا الهجوم الأيديولوجي، أصبح عمل ألكسندرا في ياسنايا بوليانا أصعب من ذي قبل. فعندما انتهت الاحتفالية بيوبيل مولد والدها، خضعت مجددا للمضايقة على يد مسؤولين محليين من الحزب الشيوعي عندما رفضت الالتزام بمطالبهم. لكنها أُرغمت في نهاية المطاف على قبول توظيف كاتب سوفييتي مجهول، نائبا لها في متحف العزبة، واقترح استغلال تعاليم تولستوي كسلاح في حملة معاداة الدّين. أما القشة التي قسمت ظهر البعير فتمثلت في إلزام «رابطة الملحدين» طلبة مدرسة ياسنايا بوليانا على تلقي الدروس في يوم الأحد من عيد الفصح؛ تماشيا مع «إصلاحات» ستالين التي أجراها على التقويم. وفي خريف عام 1929، ركبت ألكسندرا القطار وتوجهت إلى فلاديفاستوك، في طريقها إلى اليابان، لإلقاء محاضرة. ولم تعد منذئذ إلى روسيا مطلقا.

بحلول عام 1930، أصدر مجلدان فقط من نسخة اليوبيل، وكانت ثمة مشاكل تمويلية للاستمرار في المشروع. وكان تشيرتكوف حينها قد بلغ السادسة والسبعين ويعاني من المرض الشديد، لكن ذلك كان مشروع حياته، فاستمر برباطة جأش رغم أنه استخدم جميع مدخراته لتمويل المشروع.

أرسل تشيرتكوف في فبراير رسالة إلى مولوتوف، الذي ترأس السوفناركوم (مجلس الوزراء) منذ عام 1930، يشكو فيها شح التمويل لكنه لم يتسلَّم ردا. وفي السابع والعشرين من مايو كتب إلى ستالين:

«إن وضع فريق التحرير لدينا وضع ميؤوس منه نتيجة لشح الأموال اللازمة لإتمام عملنا الذي يتطلب تخصيص 75 ألف روبل كنت قد طلبتها من السوفناركوم. وفي الأثناء، فإن طلباتي لتسريع عملية النشر وتمويل العمل التحريري حتى نهايته، كما أُبلغت من قبل السوفناركوم، لم يتم الاعتراض عليها مبدئيا. أما التأخير برمته فمرده لبيروقراطية العمل الورقي الذي ما يزال مستمرا لأربعة أشهر. لن أكتب مجددا للرفيق مولوتوف؛ لأنني كتبت إليه مرتين ولم أتسلم منه أي ردّ، ولا أعتقد أن لديه من الوقت ما يسمح له بالرد على مناشدتي، لا سيما أنه منشغل بقضايا حكومية معقدة. لكني تجرأت على التوجه إليكم، أيها الموقر إيوسيف فيساريونوفيتش، الرفيق الذي بادر في إطلاق هذا المشروع في المقام الأول وتسلم العهدة بعد الراحل ف. أي. إيليتش. أعتقد أن كلمة واحدة منكم ستكفي لإنهاء الجانب الرسمي لوضع حل مرضٍ لطلباتي التي وضحتُها في رسالتي إلى الرفيق مولوتوف في 23 فبراير».

ولم يكن ثمة ردّ أيضا، ولم يتم الرد كذلك على رسالة أخيرة أرسلها في يوليو من عام 1934. وبحلول ذلك الوقت كان قد أصبح مريضا جدا، ولم يكن مسيطرا تماما على قواه العقلية. لكن في أغسطس من تلك السنة بدأت الحكومة بصرف المال أخيرا.

ويقال إن لينين كان قد صرّح بأن النسخة يجب أن تحتوي على كل ما كتبه تولستوي من دون أي تغييرات. كما يجب أن يُعاد دمج جميع الفقرات التي كانت قد حُذفت من قِبل الرقابة إبان الحكم القيصري. ومع أن كلام لينين كان يعامل على أنه قانون، إلا أن الحكومة الستالينية أدركت أن بعض كتاباته لا يمكن بأي حال من الأحوال نشرها لأنها معادية للنظام. بالفعل، فقد انتقد تولستوي بشدة في كتاباته الأخيرة الحركة الثورية. أما تشيرتكوف فقد تعرض شخصيا لانتقادات، كونه رئيس التحرير، من البلاشفة لأنه لم يحاول جمع الحواشي التي تتناول نصوص تولستوي من زاوية ماركسية. وبما أن تشيرتكوف كان أرستقراطيا، شأن تولستوي أيضا، فلم يكن بالتالي يتنازل ليُقدّم الولاء والطاعة لأيديولوجيا البلاشفة الخسيسة الجديرة بالازدراء. وقد كان من اللافت أن يتشبث بشجاعة بموقفه غير المُسيّس في فترة استشرت فيها

السياسات القسرية والخطاب العسكري. ولا شك أن الحكومة السوفييتية قد ندمت في وقت لاحق لتوفيرها مساحة لا بأس بها من الاستقلالية لتشيرتكوف.

تكمن مفارقة نشر نسخة اليوبيل لأعمال تولستوي الكاملة في أن أعماله أصبحت أقل إتاحة مما كانت عليه في فترة حياته. فلم يكن كل مجلد باهظ التكلفة فحسب، كما خشيت ألكسندرا، بل كان عدد الطبعات متواضعا جدا؛ 5 آلاف أو 10 آلاف كحد أقصى. وعندما شغل نيكولاي روديونوف منصب رئاسة التحرير خلفاً لتشيرتكوف، الذي توفي عام 1936 عن عمر الثانية والثمانين (العمر الذي توفي عنه تولستوي)، أعدّ 72 مجلدا للطباعة، لكن 29 منها نشر فقط. وقد ظهرت في الأسواق بشكل غير منظم. فقد نُشر، على سبيل المثال، المجلد التاسع والخمسون عام 1935، بينما نشر المجلد الرابع والثلاثون عام 1952. كما نُشرت ثمانية مجلدات عام 1937، في السنة التي تلت وفاة تشيرتكوف، في ذروة عمليات التطهير المرعبة. وقد خشي سولومون لوزوفسكي، الرئيس الجديد لدار الدولة للنشر التي أصبحت تعرف بغوزليتسزدات، خشي على حياته حينها. وكان قد عُيِّن في هذا المنصب عام 1936 بعد أن كان قد اعتُقل في إحدى المناسبات بتعليمات من ستالين. فقدَ فريق التحرير الذي كان يعمل من مكتب بالقرب من سجن اللوبيانكا استقلاليته، وأُرغم على اتباع تعليمات الغوزليتسزدات. وفي ظل جو الخوف والقمع ذاك، لم يجرؤ لوزوفسكي حتى على التفكير في الموافقة على نشر مجلدات نسخة اليوبيل التي تحتوي على كتابات تولستوي الدينية (المجلدات 23، 48، 49 على سبيل المثال).

وتوقف النشر تماما بين عامي 1939 و1949. وعمل الموظفون من دون تلقي رواتب، ودأب روديونوف يبحث بشجاعة عن سبل أخرى تمكنه من الاستمرار في المشروع، محاولا مداهنة أعضاء الحزب الشيوعي والتأكيد على موافقة لينين الرسمية على المشروع برمته. في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين، وفي ظل تهديد مستمر باعتقالهم، استمرَّ أفراد الفريق بعناد بالتحضير لنشر مجلدات ذات محتوى حميد غير ضار، كتلك التي احتوت على الرسائل البينية

بين تولستوي وزوجته (83، 84). وأدرجوا فيها اقتباسات من لينين على حساب هوامشهم. وقد كانت العالمة المختصة بأعمال تولستوي، آينيسا ميدجيبوفسكايا، محقة عندما شبهت تعامل روديونوف مع البيروقراطية السوفييتية خلال حقبة التطهير/ المذابح بأدب العبث. ففي مراجعتها لكتاب نشره ليف أوسترمان عام 2002، وهو مصدر من بين مصادر مهمة عديدة في حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتي نسفت أسطورة مكانة تولستوي المقدسة بعد عام 1917، قدمت لنا نسخة مختصرة مسلية لمخطوط أوسترمان الذي يشرح فيه اللقاء الذي جمع روديونوف عام 1939 ببيوتر بوسبيلوف؛ نائب رئيس قسم الحرب الدعائية في اللجنة السوفييتية المركزية:

روديونوف: حاولت بإصرار عنيد انتهاز فرصة لرؤيتكم لأطلب نصيحتكم وتوجيهاتكم بشأن اتخاذ تدابير لكي نصل إلى حل لهذا الوضع المؤلم، من دون مخالفة وصية ل. ن. تولستوي، واضعين نصب أعيننا، في الوقت نفسه، العمل وفقا للتوجيهات الحالية للجنة المركزية للحزب.

بوسبيلوف: لقد اقترفتَ أخطاء جسيمة، أولها شروحاتك المسهبة. فقد استبدلت الأعمال الكاملة لشروحات تولستوي بالأعمال الكاملة لكتاباته. أما الخطأ الثاني فهو أسلوبك في الشرح؛ فأنت لا تلتزم بالعقد، والعقد ينص على الحاجة إلى أن تكون موضوعيا. ولكن، من يمكنه أن يكون موضوعيا أكثر من لينين؟ ولماذا لا تدرج هذا المصدر الأكثر موضوعية؟ ولماذا تكتب تراجم طويلة عن أشخاص غير مهمين، بمن فيهم أولئك الذي انتهى بهم المطاف بأن أصبحوا معارضين للثورة؟

أعيد بث الروح في نسخة اليوبيل بعد وفاة ستالين عام 1953. ونُشرَت المجلدات الأخيرة جميعها بحلول عام 1958. كما خفضت الغوزليتسزدات مناصب الأعضاء الأبطال لفريق التحرير الأصلي إلى مجرد مساعدين، وأصبحت أسماء تشيرتكوف وألكسندرا تولستايا لا تُذكَر على الترويسة. وقد استغرق ذلك ثلاثين عاما. وهكذا تأثرت سلبيا محتويات المجلدات

التي نُشرَت لاحقا؛ إذ بلغت الجولات «التنقيحية» الجديدة من الحزم درجة أن بعض المجلدات أصبحت رديفا لمجلدات أخرى. وقد شكل التسعون مجلدا في حقيقة الأمر 78 كتابا منفصلا فقط. فأعمال تولستوي الدينية التي ظهرت في نسخة اليوبيل سابقا مُنعت من النشر في المستقبل. ومع ذلك، ففي التاريخ «الرسمي» لنشر نسخة اليوبيل الذي نشره روديونوف عام 1961، كان قد أشار إليها، وله مبرراته، كونها تقارن بالمجلدات الـ 143 لنسخة فيمار غوته، رغم الاستيعاب السياسي الضروري للنظام. وبعد أربعين سنة، في جو سياسي مغاير تماما، كشف كتاب أوسترمان «سراجيني زا تولستوفا»[211] القصة الحقيقية وراء نشر هذه النسخة الاستثنائية.

وخلال العقود الأولى من حكم السوفييت، تم تحويل تولستوي بنجاح بواسطة البلاشفة من كاتب «غريب اجتماعيا» إلى كاتب أصبح اسمه «مرادفا لروسيا نفسها»، كما أشار إلى ذلك ألكسندر فودور في كتاب قيّم يستكشف تاريخ علاقة روسيا بتولستوي. وقد لعبت الحرب العالمية الثانية الدور الأساسي في عملية التحول تلك. وخلال الاحتفالات بذكرى ثورة أكتوبر في مدينة لينينغراد المحاصرة عام 1941، بُثّت أقاصيص سيباستوبل من خلال مكبرات الصوت في ساحة القصر. كما اكتسبت رواية الحرب والسلام أهمية قصوى بينما كان الروس يحاربون للدفاع عن بلدهم ضد غزو النازيين. لكن بحلول تلك الفترة، تم نقل 25 صندوقا من أرشيف متحف تولستوي في موسكو إلى تومسك في سيبيريا. كما نُقلَت أشياء أخرى ثمينة إلى طشقند. كما كانت تومسك وجهة أكثر معروضات ياسنايا بوليانا قيمة قبل أن يصل النازيون إليها في الثلاثين من أكتوبر عام 1941، بعد يومين من وصول آخر مجموعة من السياح الذين قاموا بجولة في غرفها الفارغة.

ومع انتهاء الحرب تم بهدوء نسيان جميع أعمال تولستوي المناهضة للحرب. وفي الخمسينيات من القرن العشرين تجذرت شخصية تولستوي في المخيال السوفييتي على أنه رمز

(211) معركة من أجل تولستوي.

روسيا وأكثر أبنائها وطنية. وترعرعت أجيال من طلاب المدارس في روسيا وهم يقرؤون رواياته وقصصه المصادق عليها رسميا، إذ أصبحت جزءا لا يتجزأ من المنهاج الدراسي الوطني الذي تجاهل تماما إرث تولستوي الهائل من الكتابات السياسية والدينية. وقد عُززت مكانته «الرسمية» من خلال تسمية عدد من الشوارع باسمه في مدن مختلفة في البلاد، ابتداءً من بينزا وانتهاءً بفلاديفاستوك. ومع مرور الوقت، تأثر إرثه سلبيا بسبب مقتضيات الاقتصاد الموجه الذي أفضى إلى الكثير من الفساد والتشكك في نجاعة النظام. وشأنه شأن جميع المتاحف الأدبية السوفييتية الكبرى، أُسِّس متحف تولستوي في موسكو ليكون مركزا للتحصيل العلمي والمعرفة، ومركزا جاذبا للسياح في الوقت نفسه. وقد وُضع في البداية تحت وصاية أكاديمية العلوم، بما في ذلك متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا. لكن تلك الوصاية انتقلت عام 1953 إلى وزارة الثقافة السوفييتية. وبعد ثلاث سنوات خُفضت منزلة الوزارة في الاتحاد الروسي مما أدى إلى زيادة التركيز على الإيفاء بالأهداف الخاصة بأعداد الزوار، وهذا بدوره أدى إلى تخلخل المعايير العلمية في بعض المجالات رغم كفاح العلماء بشجاعة وإعاقة جهودهم من قِبل الرقابة السوفييتية.

احتُفل عام 1960 بالذكرى الخمسين لوفاة تولستوي، وقد صبغتها المؤسسة السوفييتية بأبهة رسمية. كما نظَّمَتْ احتفالا آخر، أقل بهرجة، في إحدى الأمسيات في مسرح البلشوي. وفي التاسع من سبتمبر عام 1978 مُنح متحف ياسنايا بوليانا، في الذكرى الخمسين بعد المئة على ولادة تولستوي، وسام لينين بأمر من مجلس السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي، بفضل العمل الدؤوب في تثقيف العمال بالشؤون الجمالية ودراسة الإرث الإبداعي والدعاية والترويج للكاتب الروسي العظيم ل. ن. تولستوي (أما متحف تولستوي في موسكو فقد مُنح وسام الراية الحمراء). بعد مغادرتها روسيا عام 1929 وتحولها إلى ناقد لاذع للنظام السوفييتي، مُحي اسم ألكسندرا من التاريخ وأصبحت تنعت بـ«خائنة الوطن»، كما أُرغم نيكولاي روديونوف على توصيفها بذلك في مقالته عن نسخة اليوبيل عام 1962 رغم أنه على

الأقل ذكر اسمها. وقد كُتبت مقالة عن ياسنايا بوليانا في سنوات الثورة الأولى ونشرت عام 1962، ولم يظهر اسم ألكسندرا البتة. وفي عام 1977 تم إعادة تأهيل ألكسندرا جزئيا، ودعيت لتعود إلى روسيا للمشاركة في الاحتفالات القادمة، لكنها كانت حينها طريحة الفراش تعاني من المرض الشديد، ثم توفيت في السنة التالية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث كانت تعيش منذ الثلاثينيات من ذلك القرن. وكانت إعادة التأهيل جزئية لأن اسمها لم يذكر حتى في كتاب نشر في أواخر عام 1986 عن تاريخ ياسنايا بوليانا كمتحف. ومما يحار المرء بشأنه هو أن مؤلفه لم يكن سوى إيليا تولستوي الحفيد، حفيد شقيقها إيليا الجد.

إن جهل المواطنين السوفييت التام تقريبا بمدى استمرار أفكار تولستوي بتوليد أصداء قوية في روسيا في القرن العشرين، مصداق لنجاح الحزب الشيوعي في اجتثاث التولستوية كحركة. ففي الوقت الذي وضع فيه النظام السوفييتي تولستوي في خانة الروائيين العظام كفنان نموذجي، وأعاد طباعة ونشر أعماله بمئات آلاف النسخ، قام في الوقت نفسه بإطلاق حملة منهجية ضد مبادئه وكل من استهدى بها واتبعها. لكن كتابا رائعا نُشر في الغرب عام 1983، كتبه معارض روسي ومدافع حقوقي مرموق كان يعيش في موسكو، اسمه مارك بوبوفسكي، تناول فيه أتباع تولستوي من السوفييت، ومدح فيه الروح المنيعة لأولئك الذين استمروا في استقاء الإلهام من تولستوي، حتى في وجه الصعوبات المرهقة والضراء العاتية والكرب المحزن الذي صبغ حيواتهم في تلك الفترة. في نهاية عِقد السبعينيات من القرن العشرين، تسلَّم مارك بوبوفسكي، وقد أَلَّفَ كثيراً من الكتب المنشورة وغير المنشورة التي تناولت العلماء السوفييت، نسخة من رسالة أرسلها فلاح يدعى ديمتري مورغاتشوف. كتب مورغاتشوف رسالته وهو في الرابعة والثمانين من قرية بيرجيفالسك في بلاد قيرغيزيا السوفييتية النائية، موجها الرسالة إلى المدعي العام في الاتحاد السوفييتي في الرابع من يوليو عام 1976، وطلب فيها إعادة التأهيل وإقرار الحكومة السوفييتية بأنه ورفاقه لم يقترفوا أي جريمة.

وقد اكتشف بوبوفسكي بأن مورغانتشوف كان من أتباع تولستوي، وكان قد اعتقل مع أتباع آخرين كانوا معه في مجتمعهم في سيبيريا عام 1936. ويوضح مورغانتشوف في رسالته للمدعي العام بأن الحكومة السوفييتية في السنة التالية قررت بأن حكم السجن لثلاث سنوات هو في الواقع حكم مخفف، وقد رُفعَت بالتالي العقوبة عام 1940 إلى سبع سنوات وثلاث سنوات إضافية مع الأعمال الشاقة بعد انتهاء الفترة الأولى. وقال له إنه كان من بين قلة من السجناء الذين بقوا أحياء بعد تلك التجربة ويعتبر نفسه محظوظا. وبما أنه كان موقناً بأنه لم يقترف أي جريمة، فقد طلب الخضوع لإعادة التأهيل عام 1963. ومع أنه كان حينها في الحادية والسبعين من عمره بالإضافة إلى كونه مقعدا، إلا أن طلبه رُفض رفضا قاطعا. شرح مورغانتشوف في رسالته بأن مجتمع تولستوي انتقل من روسيا الوسطى إلى سيبيريا عام 1930 تماشيا مع قرار اللجنة التنفيذية المركزية لجميع الروس. وبما أن المجتمع كان يعمل باتباع نموذج المزارع الشيوعية القائمة على الملكية المشتركة، حاجج مورغانتشوف بانه كان ينبغي حمايته قانونيا، لكن وجود ذلك المجتمع واستمراره أديا إلى العكس تماما حتى دفع العديد من أعضائه حياتهم بسببه. وصرح مورغانتشوف بأنه ما يزال مؤمنا بأفكار تولستوي، ولكنه يرغب في إعادة التأهيل قبل وفاته. وأضاف بخط يده في حاشية الرسالة: «لا أحتاج الآن إلى إعادة التأهيل. لكن وكلاء النيابة الشباب عليهم أن يعلموا ما حصل لأصدقاء وأتباع ليف تولستوي». تمت إعادة تأهيل مورغانتشوف رسميا في ديسمبر عام 1976. وعلق بوبوفسكي بتهكم بأن المحكمة العليا السوفييتية قد برَّأت ساحة أتباع تولستوي من الاتهام السابق بأنهم كانوا من أتباعه.

وتفاجأ بوبوفسكي عندما اكتشف أن أتباع تولستوي ما يزالون موجودين في روسيا. ليس هذا فحسب، بل ذُهل لأنهم بقوا مخلصين لأفكاره ومعتقداته في السراء وفي الضراء. فقد ذُكر دائما، كالمواطنين السوفييت الآخرين، في كل يوم بـ«ملة» تولستوي في بلاده، من خلال أسماء الشوارع والميادين وإدراج رواياته في المنهاج الدراسي في المدارس والجامعات، وتسمية عدد من المتاحف باسمه في أجزاء مختلفة من روسيا. لكن بوبوفسكي أيضا، كغيره من المواطنين

السوفييت، لم يكن بمقدوره الوصول إلى أعمال تولستوي الأدبية. لذا، تعين عليه بالطبع، الاستئناس بمقالة لينين «ليف تولستوي كمرآة للثورة الروسية»، التي كان من الواجب قراءتها حتى قبل قراءة آنا كارينينا، لتكوين رأي عن معتقدات تولستوي الفلسفية. لذلك نشأت لديه فكرة مفادها أن تولستوي لم تكن لديه موهبة كمفكر، ولم يكن بالطبع نبيًا، وأن أفكاره الفلسفية كانت في الواقع مضرّة، وأن أتباعه كانوا مثيرين للشفقة، وأن كمال الذات ومذهب النباتية أمور سخيفة. وعُزِّزت جميع تلك الأفكار في مقالات وتعليقات وحواشٍ وموسوعات. وبعد أيام من إعادة تأهيل مورغاتشوف، كتب الرئيس السوفييتي ليونيد بريجينيف تعليقا طويلا غير مترابط في كتاب كبار الزوار في ياسنايا بوليانا، أعيد إنتاجه لاحقا في صحيفة البرافدا التي ناقشت تولستوي من زاوية تأليفه للحرب والسلام فقط.

وعندما استفتى بوبوفسكي بعض أصدقائه (الذين كانوا جميعا أعضاء نموذجيين في الإنتلجنسيا) اكتشف أنهم جميعا لم يكونوا على دراية بوجود اتباع تولستوي. فأثار ذلك فضوله وقرر أن يقوم باستقصاء المسألة. ولم يكن ذلك سهلا بالطبع إبان الحرب الباردة، حين كان كل شيء يخضع للرقابة فيتم التنصت على الهواتف وتُزرَع أجهزة التجسس في الغرف ويتم التفتيش الصارم الدقيق على المراسلات الشخصية. ولم يكن بالإمكان بالطبع الحديث عن مذهب تولستوي على الملأ أو الكتابة عنه في تلك الفترة. ولكن بمساعدة من العديد من المتعاطفين الذين بذلوا جهودا هائلة، استطاع بوبوفسكي أخيرا أن يحصل على عناوين لاثنين وثلاثين تولستويّ منتشرين في جميع أرجاء الاتحاد السوفييتي، بالإضافة إلى حصوله على أرشيف مكثف من مخطوطات كتبها تولستوي وأخرى كتبت عنه. وتمثَّل بعضها في مذكرات كتبها بعض أتباع تولستوي، وأخرى روايات عن مجتمعات تولستوي، وثالثة تألفت من المراسلات لا سيما مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، تناولت تطلعات التولستويين إلى نشر أعماله الدينية والفلسفية في الاتحاد السوفييتي. وقد أُخفيت تلك المخطوطات بحذر بعيدا عن أعين السلطات؛ لأن التهديد بالاضطهاد كان أمرا واقعا. فبعد أشهر قليلة من قيام المدعي

العام بتبرئة ساحة ديمتري مورغاتشوف رسميا، على سبيل المثال، قامت الكيه جي بي بتفتيش شقته وهددت الرجل المقعد، الذي كان يبلغ حينها الخامسة والثمانين، وحذرته من مغبة إثارة القلاقل. وبعد نجاح بوبوفسكي في تهريب 3 آلاف صفحة من المواد التي تغطي الفترة ما بين 1918 و1977 إلى الغرب، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبدأ على الفور في لمّ شعث قصة استثنائية عن الإيمان والخلاص. وبدعم من معهد كينان في واشنطن العاصمة نشر كتابه عن الفلاحين السوفييت التولستويّين عام 1983 في لندن.

وبحلول الذكرى الخمسين بعد المئة لمولد تولستوي عام 1978، قدّر بوبوفسكي بأن عدد أتباعه الذين نجوا من الاضطهاد وما يزالون على قيد الحياة يبلغ خمسين في روسيا، وتتراوح أعمارهم بين خمسة وسبعين وتسعين عاما. فقد زُجَّ بمئات من أتباعه في السجن ونُفي المئات إلى معسكرات الاعتقال ودور المجانين، وأكثر من مئة تم تصفيتهم رميا بالرصاص بسبب معتقداتهم. واكتشف بوبوفسكي، من خلال حيوات أتباع تولستوي، الإجابة الشافية عن السؤال الذي ما فتئ يطرحه في كتبه باستمرار بشأن العلماء السوفييت: هل من الممكن الحفاظ على الضمير الحي والعيش في آن معاً في ظل مجتمع توتاليتاري/ شمولي؟ وقد بدأت المشاكل الحقيقية للتولستويين مع بدء إنشاء المزارع التعاونية الجماعية وإبان الخطة الخمسية الأولى في مئوية مولد تولستوي عام 1928.

بدأت تقفل تلك المجتمعات واحدا تلو الآخر، كما اعتقلت أعداد متزايدة من أتباع تولستوي، وأُخبر الأعضاء الشباب من الإنتلجنسيا (بمن فيهم الفنانين والكتاب والأطباء)، الذين أسسوا مجتمعا تولستويا في الريف غرب موسكو، أُخبروا عام 1923 بأن مجتمعهم سوف يدمج مع مزرعة أخرى ليشكلا «مزرعة أكتوبر التشاركية الحمراء». بعدها اتهم أولئك بإضرام النيران في المزرعة. وقام خمسة عشر ألف شخص من الدوخوبوريين والطوائف الأخرى بتقديم طلبات للعودة إلى روسيا بحلول عام 1929. ومع أنهم ندموا أشد الندم على ذلك إلا أن جميع طلباتهم رفضت. وأرسل صديق تولستوي القديم الفلاح ميخائيل نوفيكوف

رسالة صريحة إلى الحكومة السوفييتية في فبراير عام 1929 يقترح فيها اتخاذ تدابير عملية لتعزيز الحصاد. وقد اعتقل بسبب اقتراح تلك الخطط، رغم أنه كان في التاسعة والستين، ثم انتحر في معسكر الاعتقال. كما اعتقل خمسة من أتباع تولستوي في موسكو في العام نفسه ونُفوا إلى معسكر اعتقال رديء السمعة في جزر سولوفيتسكي لخمس سنوات مع الأعمال الشاقة. وقد كان ذلك المعسكر سجناً في دير في البحر الأبيض، كان قد نُفي إليه أحد أجداد تولستوي (جد جد جد تولستوي) في القرن الثامن عشر.

وفي فبراير من عام 1930 أرسل تشيرتكوف رسالة إلى ستالين حاول من خلالها أن يشفع لهم. وشرح وقال إن أتباع تولستوي يعانون من سوء تغذية مريع لأنهم نباتيون ويعانون أيضا من انخفاض درجة الحرارة في أجسادهم (نوبات برد)؛ لأن ملابسهم الشتوية قد سرقها سجناء آخرون. وفي فبراير من عام 1929 أُرغمت رابطة تولستوي للنباتيين في موسكو على إغلاق أبوابها عندما رفضت السلطات تمديد عقد الإيجار، فاختفت عندها آخر مؤسسة تولستوية.

رفض أتباع تولستوي الانتماء إلى المزارع التشاركية وبدؤوا التفكير في الانتقال بعيدا إلى أطراف البلاد حيث يأمَنون من القمع ويعيشون حياة بشروطهم هم. وقد كانت ثمة سابقة في هذا التوجه، إذ قام بذلك التكتيك عدد هائل من القوزاق وقدامى المؤمنين وطوائف أخرى قبل قرون إبان الحكم القيصري. بيد أن الاتحاد السوفييتي كان مختلفا؛ فرغم اتساع رقعة أراضيه، لم تكن ثمة زوايا هادئة ينعم بالعيش فيها أتباع تولستوي الذين اكتشفوا هذه الحقيقة بعد فوات الأوان والانتهاء من مغامرتهم. شجع تشيرتكوف أعضاء من مجتمع الحياة والعمل على الطلب من الحكومة توفير أراضٍ لهم في سيبيريا. وقد التمس هو نفسه الهدف نفسه نيابة عنهم معتقدا أنها فكرة سديدة. وعلى نحو مدهش، وافقت الحكومة السوفييتية رسميا على ذلك في فبراير عام 1930. وفي مارس من عام 1931، قطع حوالي ألف شخص من أتباع تولستوي، من ثلاثة مجتمعات/ مستوطنات، مسافة بلغت ألفي ميل شرقاً ليصلوا إلى بلدة نوفاكوزنيتسك (ما لبثت أن أصبحت تعرف بـ«ستالينسك»). ونجح المجتمع التولستوي الجديد. وفي عام 1931

استطاعت آنا مالورود تأسيس أول وآخر مدرسة تولستوية في تاريخ الاتحاد السوفييتي. ومع أن أتباع تولستوي كانوا راغبين في تقديم تنازلات لكي يتعاونوا مع مؤسسات الدولة، إلا أن منظمات الحزب المحلي كانت تسعى جاهدة لجعل حياة المدرسة التولستوية قصيرة. وهكذا، أقفلت أبوابها عام 1934. أما مجتمع الحياة والعمل فقد احتفى بالذكرى الخامسة على تأسيسه عام 1936، رغم أن بعض أفراده كانوا قد اعتُقلوا وبدأت سلطات المنطقة بالتعامل معه على أنه مزرعة تشاركية عادية. وبحلول انعقاد اللقاء العام الأخير في يناير عام 1939، لم يتبقَّ سوى عدد قليل جدا من الرجال. وتحول البقية إلى مزارع الدولة. ومع أنهم عاشوا حياة فقر مدقع، إلا أنهم لم يبالوا بالأمر؛ لأن الرفاه المادي لم يكن أصلا من أولوياتهم.

ومن خلال بحث مارك بوبوفسكي، تبيّن أن أتباع تولستوي كانوا أناسا مختلفين؛ فلم يكونوا جميعا نباتيين، وكان بعضهم يدّخن التبغ، حتى إن بعضهم أيضا التحق بجبهات القتال عام 1941 ولم يعد منها. لكن رغم ذلك الاختلاف في آرائهم وطريقة عيشهم، إلا أن مارك دهش من الأمور التي كانوا يتشاركون فيها جميعا؛ كالحس الأخلاقي العميق والحساسية المفرطة إزاء الظلم والرغبة العميقة في حب الخير وتجنب الشرّ. وقد بقوا جميعا مخلصين لتولستوي رغم أنهم لم يستطيعوا أن يتبعوا أفكاره بطريقة عملية. وفي العشرين من نوفمبر دوّنت المعلمة السابقة آنا مالورود في مذكراتها:

يصادف اليوم مرور خمسين سنة على وفاة ل. ن. تولستوي، أبي العزيز ومعلمي في الحياة. فقد ساعدني على تطهير تعاليم المسيح من الخرافات التي نُسبت له على مدى القرون، وساعدني على إيجاد أصدقاء أعزاء وعائلة أرتبط بأفرادها روحاً وليس دماً، وهي أسرة أفضل وأقوى وأكثر صدقاً. وبفضل تولستوي انتقلت من المدينة إلى الريف لأكون بين أولئك العاملين في الأرض، وبدأت العمل بيديْ في زراعة الخضروات في الحديقة، وتعلمت حبّ هذا العمل. وساعدني تولستوي على إيجاد الخير الحقيقي في الحياة. فقد أظهر الطريقة الصحيحة في الحب والوحدة للعالم بأسره. وأظهر مواطن الخلل والعيوب التي تقسّم الناس وتدمر في

بعض الأحيان الحياة البشرية وتمحقها. إنه العظيم تولستوي الذي لا يزال مغبونا ولا يُقدَّر حق قدره.

لقد كان أتباع تولستوي في الحقبة السوفييتية متيّمين بالكلمة المكتوبة التي من دونها لم يكن لقصصهم أن تبصر النّور. وبالتالي، حاولوا انطلاقا من عقد الخمسينيات أن يتبرعوا بمذكراتهم ومراسلاتهم لمتحف تولستوي في موسكو، رغم رفض العاملين في الأرشيف قبولها بسبب خشيتهم من الانتقام السياسي. وقد دافع أتباع تولستوي عنه بشراسة ضد ما اعتبروه قذفاً من قِبل الناقدين التقليديين الأدبيين السوفييت. وتابع بوريس مازورين المنشورات التي تناولت تولستوي عن كثب، رغم كونه يعيش في قرية سيبيرية نائية. وشعر أن من واجبه أن يكتب ويحاجج في رسائله متى اكتشف أن شيئا ما بحاجة إلى تصحيح. فقد تصدى لعضو الحزب الشيوعي بوريس مايلاخ على سبيل المثال بعد نشر كتابه عام 1961 عن رحيل وموت تولستوي. فقال في رسالة إلى مايلاخ: «تتحدث دائما في كتابك عن مواطن «الضعف» في آراء تولستوي وتنعتها بالضعيفة لجهة عدم موائمتها للآراء الماركسية، لا سيما إمكانية تغيير الحياة إلى الأفضل من خلال العنف». والحق يقال إن مايلاخ ردّ على رسالة مازورين الذي لم يكن راضيا بعد، فكتب مجددا ليسلط الضوء على فكرة أن تولستوي كان منخرطا في كفاح سياسي ليكتسب النفوذ والسلطة ليمارسها على الناس. فقال: «من المحال أن نتخيَّلَ تولستوي كشخصية حكومية يقود وينظم الناس بواسطة الأدوات الضرورية لسلطة الدولة. ومن المحال أيضا تخيُّل تولستوي صامتا إبان السنوات المضطربة كسنتي 1937 و1938». بالفعل، من الصعب أن نتخيل أن تولستوي كان سيبقى صامتا، ومن الصعوبة أيضا أن نتخيل أنه كان سينجو بنفسه إبان مرحلة التطهير والاعتقالات والنفي... إلخ. فمن المرجح أنه كان سيُعدَم رميا بالرصاص في أول فرصة تلوح في الأفق.

استاء أتباع تولستوي أيضا من وضع تشيرتكوف على القائمة السوداء وتشويه سمعته في كتاب مايلاخ وفي النسخة الجديدة من مذكرات تولستوي للكاتب فالنتين بولغاكوف، التي

نشرت عام 1964. لكن الحدث الأكثر إيلاما من وجهة نظرهم تمثل في خطاب كاتب المؤسسة السوفييتية، ليونيد ليونوف، في التاسع عشر من نوفمبر عام 1960 في مسرح البولشوي في الذكرى الخمسين لوفاة تولستوي. وقد أُعيد نشر الخطاب في الصحف السوفييتية الكبرى جميعها، كما أُصدر في منشور منفصل في السنة التالية. كرر ليونوف، وهو الحاصل على جوائز من ستالين ولينين وبطل العمل الاشتراكي ونائب رئيس مجلس السوفييت الأعلى، كرّر كالببغاء الرأي الاعتيادي عن تولستوي، مشيراً إلى العيوب والثغرات في كتاباته الفلسفية والدينية. وهذا ما يفسر عدم وجود حواريين أو تلاميذ متحمسين يستمرون في حمل شعلة أفكاره، إلا اللهم بعض الأشخاص المنتمين إلى طوائف متناثرة في أصقاع العالم. وبعد مناقشات مع أتباع آخرين مستائين، كتب مازورين ردّا سريعا انتقاميا مطولا في فبراير/ شباط 1962، وتجشم بعدها عناء المسافة، فسافر إلى موسكو ليبحث عن عنوان ليونوف، لكنه رُفض من قبل المسؤولين. لكنه أوصل في نهاية المطاف رسالته إلى ليونوف، بيد أنه في سبتمبر عام 1962 تسلَّم ردّا. وكما كان متوقعا، لم يجب ليونوف عن أيٍّ من انتقادات مازورين. عبّر أتباع آخرون عن وجودهم بحماسة وتحدوا تزييف الحقائق. وفي عام 1975 أرسل ديمتري مورغانتشوف رسالة مفتوحة إلى ألكسندر كليبانوف، مع نسخ لصحف كبرى، بعد أن نشر الأخير كتابا عن الطوائف الدينية زعم فيه، على سبيل المثال، أن أتباع تولستوي رفضوا الانضمام إلى المزارع التشاركية لأنهم كانوا في الواقع من طبقة الكولاك[212].

وعندما سأل جيمس بيلينغتون، أمين مكتبة الكونغرس، مارك بوبوفسكي في بداية الثمانينيات عن السبب الذي دفعه للبحث في تاريخ مجموعة صغيرة نفوذها ضئيل، أجاب بأنه انبهر للطريقة الذكية التي عارض فيها أتباع تولستوي الوضع القائم؛ من خلال مزاولة حياة فردية تتماشى مع مبادئهم الأخلاقية. أما صبرهم وتصميمهم في الشهادة على أخلاق معلمهم فقد آتت أكلها أخيرا بعد بضع سنوات. ذلك أن المعرفة بأدب تولستوي دخلت مرحلة جديدة

(212) طبقة من الفلاحين الأثرياء الذين عادة ما يمتلكون مزارع واسعة وماشية وخيلا (المترجم).

مع نشر مقالة فلاديمير لاكشين «عودة تولستوي المفكر» في مايو عام 1988. وكان من الواضح أن تولستوي لم يعد يُنظَر إليه كمجرد مرآة تعكس تناقضات ثورة عام 1905، كما كتب لاكشين، لأن تولستوي كان ليزر؛ ليزر البشرية. ومع بداية البريسترويكا والغلاسنوست[213]، أصبح بالإمكان أخيرا رواية قصة كفاح تولستوي العنيد لتأسيس الكوميون (المجتمعات التشاركية)، وفلاحة الأرض في جنة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي في روسيا والغرب على حدّ سواء. فكل شيء تغير في روسيا في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين مع دخول إصلاحات غورباتشوف ورفع الرقابة. وقد عاش مازورين ليشهد، في سن السابعة والثمانين، الأصداء الإيجابية التي خلَّفها نشر مذكراته في أرقى مجلة أدبية روسية «نوفي مير»[214]، التي كان عدد المشتركين فيها عام 1988 يفوق المليون. وقد تبع ذلك العديد من المقالات والكتب.

ولم يكن تولستوي يؤمن بالحياة الآخرة على النسق المسيحي. بالفعل، فقد عطّل التفكير في الموت من وجوده في فترة من الفترات، إذ لم يكن قادرا على درء التفكير فيه، وشكل ذلك أكبر مشكلة تصارع معها. ولم يكن يؤمن أن أعماله سوف تحيا لفترة طويلة بعد مماته، ولم يكن يؤمن أيضا أنه كان يحظى بالعديد من الأتباع. ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991 وتحرر مؤرخي الأدب والثقافة من قيود الأيديولوجيا، احتلت المنشورات الجديدة الوافرة عن إرث تولستوي في روسيا مكانة مرموقة، من خلال مواد سلطت الضوء على حيوات أولئك الذين سعوا إلى تطبيق أفكاره على أرض الواقع بعد مماته. لم تلُمَّ تلك المنشورات شعث قصة «ا بعد حياة» تولستوي المعقدة والمذهلة فحسب، بل أظهرت أيضا كيف أن عمق أفكار تولستوي استمر في إحداث صدى مدوٍّ في القرن العشرين.

في أبريل/ نيسان من عام 1990، قدم مجموعة من العلماء طلباً للسلطات التعليمية في تولا بغية تأسيس معهد ل. ن. تولستوي للبحوث؛ للنظر في إمكانية إعادة إدخال أفكاره التدريسية في

(213) Glasnost: سياسة الانفتاح التي اتَّبَعها غورباتشوف (المترجم).

(214) عالم جديد.

منظومة التعليم والتعلُّم الروسية المعاصرة. وفي عام 1998 نجح المعهد في تطوير برنامج تعليمي يمتد على ثلاث مراحل من الحضانة وصولا إلى مرحلة ما قبل الالتحاق بالجامعة. وقد اعتُرف بالبرنامج عندما منحت الحكومة الروسية المعهد حيثية «المنصة الفيدرالية التجريبية». وبحلول عام 2010 لجأ المئات داخل روسيا وخارجها إلى اتباع طرق تولستوي التدريسية. وكانت فكرة إعادة إحياء مدارس تولستوي من بنات أفكار فيتالي ريميزوف الذي أصبح مديرا لمتحف تولستوي في موسكو عام 2001. ففي مقابلة أجراها عام 2005، بيّن أن تلك المدارس تهدف فوق كل شيء إلى تعزيز الروح الاستقلالية لدى الطلبة، في جو تسود فيه الحرية، وتَستخدِمُ في المراحل الأولى من التدريس موادَّ ونصوصا كان قد ألَّفها تولستوي في السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وفي نوفمبر من عام 1991، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، سُجِّلت الرابطة الدينية المعروفة بـ«الوحدة الروحانية» (كنيسة ليف تولستوي) في موسكو في وزارة العدل الروسية، وهي خطوة لم تكن ممكنة البتة في الحقبة السوفييتية. وقد نصَّ ميثاق الرابطة الداخلي على أن هدفها يكمن في نشر فهم تولستوي للدين والحياة الروحانية. وكانت المنظمة الأم تُدعى كنيسة الوحدة التي أسسها أولا شارلز وميرتل فيلمور من مدينة كنساس عام 1889 بتأثير من تعاليم تولستوي. وتصف كنيسة الوحدة نفسها بمؤسسة تتَّبع «منهجا إيجابيا وعمليا وتقدميا في فهم المسيحية، قائماً على تعاليم المسيح وقوة الدعاء والصلاة، ويبجّل الحقائق الكونية في جميع الديانات، ويحترم حق كل فرد في اختيار مساره الروحاني». وفي عام 1996 افتُتحت أبواب قسم جديد مختص بإرث تولستوي الروحي، يحتوي على ثمانية مدرسين في معهد ل. ن. تولستوي للتعليم في مقاطعة تولا.

عام 2000، وقبل وفاتها بثلاث سنوات في سن الثامنة والسبعين، نشرت العالمة الموقرة المميزة المختصة بشؤون تولستوي؛ ليديا جروموفا – أوبولسكايا، المجلد الأول لأعمال تولستوي الكاملة بنسخة جديدة لأكاديمية العلوم. ونظرا إلى أن مواد جديدة قد طفت على

السطح منذ نشر نسخة اليوبيل المشهورة، يُتوقَّع أن يصل عدد المجلدات في النسخة الجديدة إلى مئة. وكما ينوه المحررون بألم، فإن هذه النسخة ستشكّل النسخة الأولى التي تُعتبَر بحق النسخة الكاملة. فلن يشوبها «حذف»، ولن تُفرَض على تحريرها أي «قيود»، بخلاف نسخة اليوبيل.

وعندما وُضع تصور أولي عن المشروع في نهاية الثمانينيات، عقبت جروموفا-أوبولسكايا بشأن الهدف المتوخى من المشروع بالقول:

«تُنشَر أعمال تولستوي ويعاد نشرها بأعداد تصل إلى ملايين النسخ في بلادنا. ونحن نفخر بأعمال تولستوي الكاملة التي نُشرَت في 90 مجلدا ما بين عامي 1928 و1958، فذاك لعمري عمل هائل وتاريخي. ومع ذلك، فإن المعرفة بنصوص تولستوي لم تصل إلى ذروتها بعد. فثمة نصوص لأعمال عديدة لهذا الكاتب العالمي العظيم بقيت من دون تحقيق ومخطوطات، ونُشرَت بطريقة منقوصة وغير منهجية. وهذه هي المهام الأساسية التي بدأنا الاضطلاع بها في النسخة الأكاديمية الجديدة المُحقَّقة التي ربما ستصل إلى 100 مجلد».

قد لا تكون دراسة أعمال تولستوي عرضة للتحولات السياسية، إلا أن الحقيقة المرّة لاقتصاد السوق في روسيا المعاصرة تملي احتمالية تباطؤ إحراز تقدم في نشر النسخة الجديدة.

ويبدو أن الكنيسة الأرثوذكسية هي المؤسسة الوحيدة في روسيا التي ما تزال ترفض فتح أبوابها لكل ما يتعلق بأمر تولستوي. في عام 1994 عُيّن فلاديمير إيليتش تولستوي، حفيدُ حفيدِ تولستوي، مديرا جديدا لياسنايا بوليانا، وهي التي ما تزال تشكل أحد أهم المتاحف في روسيا. وفي بداية يناير عام 2001، كتب إلى بطريرك موسكو يقترح عليه أن تتأمل الكنيسة وتقلّب الرأي في دلالة وخطورة طرد تولستوي من الملّة المسيحية منذ مئة عام. وقد ولّد رفض البطريرك ألكسي النقاش في المسألة بلبلة في الأوساط الروسية. لم يكن فلاديمير تولستوي يشك البتة في أهمية إلقاء الحرم على تولستوي، فقد صرح في مقابلة أجراها حينها بأنه: «مقتنع تماما بأن ذلك الحدث كان من أهم الأحداث التاريخية في تاريخ الدولة الروسية. وقد أثر على

نحو مباشر أو غير مباشر على التطورات المستقبلية، وأدى إلى انقسام المجتمع الروسي أفقيا وعاموديا».

وللمرء أن يكتشف بوضوح مستوى أصداء طرد تولستوي من الملّة، بالنسبة للحياة الوطنية الروسية، عندما يعلم أن اللقاء الرسمي الأول الذي جمع الكنيسة الأرثوذكسية بعزبة تولستوي حصل عام 2006؛ أي بعد 105 سنوات على الحدث. وقد كانت المناسبة عبارة عن مؤتمر خاص عُقد في مارس 2006 في ياسنايا بوليانا، حيث التقى علماء مندوبون عن الكنيسة ليتناقشوا في أهمية وتداعيات ودلالات طرد تولستوي من الملّة. ولم يكتفِ أعضاء الوفدين بإعادة معاينة مصادر النزاع الأصلي والجوانب القانونية لمرسوم المجمع الكنسي فقط، بل محّصوا أيضا أبعاد الطرد الأخلاقية والروحانية والاجتماعية وتداعياته، بما في ذلك أصداؤه المستمرة إلى الآن في صفوف العامة. وتمت تغطية المؤتمر على نطاق واسع في الصحف الروسية التي نوهت إلى أن الجدل غير المسبوق بين الكنيسة والمجتمع الأدبي كان «ساخنا، على أقل تقدير». وكتب ألكسي فارلاموف في إحدى الصحف أن الصراع بين تولستوي والكنيسة شكل إحدى المراحل الأليمة في القرن العشرين، وأحد العوامل الحاسمة التي أثرت على الثورة الروسية. وتحدث مندوب آخر يدعى جيورجي أريخانوف عن الجانب الروحاني لوفاة تولستوي، ودافع عن التدابير التي اتخذتها الكنيسة عام 1901، لكنه قال إنه كان من الأهمية بمكان أن تُفهم الأسباب التي دفعت العديد من الناس إلى التعبير عن دعمهم لتولستوي فور طرده من الملّة في تلك «الفترة المهمة» من تاريخ روسيا. وأضاف قائلا: «وفي ضوء انهيار الشيوعية وما تبع ذلك من إعادة إحياء للمسيحية، فإن سؤال العلاقة بين الشعب الروسي والكنيسة الأرثوذكسية كان وما يزال الآن من المواضيع الملحّة التي يجب الخوض فيها».

قام الأب أريخانوف بتقديم ورقة أخرى في مؤتمر عُقد في يناير عام 2009، ضمن حلقة نقاشية تناولت قضية المشاكل المحلية في تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية، لكن من غير المرجح أن

يُدفَع النقاش إلى خارج الأطر الأكاديمية. أما في روسيا الحاضر، روسيا السلطوية، فقد عُزِّزَت الروابط بين الكنيسة والدولة مجددا، وعادت تعاليم تولستوي لتصبح أكثر خطورة من أي وقت مضى.

تمت الترجمة بحمد الله في السابع عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني عام 2019، عند الساعة التاسعة وأربعين دقيقة ليلاً.

سامر سمير كروم

فهرس المحتويات

روزاموند بارليت

تولستوي.. الأديب والإنسان
(حياة روسية)

ترجمة: سامر سمير كرّوم

تنفردُ روسيا بإنجاب كاتبٍ يجمع بين طَرَفَي نقيض في شخصيَّته؛ فقد كان تولستوي يُشبَّه بالقيصر والفلّاح في الوقت نفسه. ومنذ اليوم الّذي وُلد فيه في منزل أجداده الأرستقراطيّين في ياسنايا بوليانا، ثمَّ خلال ترعرعه في تلك البيئة الشاعريّة، إلى اليوم الّذي غادر فيه المنزل آخر مرَّة وهُو في الثَّانية والثَّمانين من عمره، عاش تولستوي حياة روسيَّة قلباً وقالباً. وبدأ اسمهُ يرتبط بروسيا الأمّ مباشرة بعد أن نَشَرَ روايته الملحميَّة الوطنيّة «الحرب والسلام» في الثلاثينيّات من عمره. بعدها أصبح يُقارن بالـ«بوغاتير»؛ المحارب القروسطيّ شبه الأسطوريّ الأشهر «إليا المورومي»؛ الّذي مكث في منزله مستلقياً على موقد من الطُّوب حتى بلغ الثَّالثة والثَّلاثين، ثمَّ انطلق ليخوض المغامرات ويسجِّل المآثر العظيمة في الدفاع عن مملكته. كان «إليا المورومي» رمز روسيا التقليديّ للقوَّة البدنيَّة والروحيَّة، وقد اعتُبر تولستوي أيضاً مرادفاً لروسيا في نظرِ كثيرٍ من معجبيه الأجانب.

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا،
مجمع المفلح التجاري (87)، ط1
Email: alaan.publish@gmail.com
alaan_publishing.jo
alaan.publishing

القدس عربية

ISBN 978-9923-13-526-6
9 789923 135266